سمط النجوم العوالي

في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي المكي
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

الجزء الرابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6



http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم
الباب الرابع
فى الدولة الأيوبية السُّنِّية[1] السَّنيَّة

هم أصحاب الفتوحات الجليلة الجلية، الكاشفون عن الإسلام والمسلمين كل كربة وبلية.

قال ابن السبكي رحمه الله: كان ابتداء دولتهم وملكهم سنة أربع وستين وخمسمائة.

وقال السيد السمرقندي في تحفة الطالب: سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

السبب في توردهم الديار المصرية

قال العلامة ابن السبكي وغيره: لما كانت سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم شاور بن مجبرّ أبو شجاع السعدي الملقب بأمير الجيوش وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية بعد آل رُزِّيك لما قتل الناصر رزِّيك بن صالح بن رزِّيك وقام في الوزارة بعده، يعني وزارة العاضد العبيدي، واستفحل أمره فيها.

فسار عليه أمير؛ يقال له: الضرغام بن سوار، وجمع له جموعًا كثيرة، واستظهر عليه وقتل ولديه، واستوزر العاضد بعده ضرغام بن سوار المذكور ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية هاربًا من العاضد وضرغام ملتجئًا إلى نور الدين محمود بن زنكي أمير الشام من جهة السلجوقي في الديار المصرية.

فأرسل معه نور الدين جيشًا عليهم أسد الدين شيركوه بن شاذي عم السلطان

---

(١) شاع فى معظم كتابات المؤرخين نعت دولة بنى أيوب بالدولة «السُّنِّية» وهذا احتراز لمجيئهم بعد دولة الفاطميين العبيديين - الدولة الخبيثية - التى ناصرت المذهب الشيعى؛ فكانت وبالاً على العالم الإسلامى. فلما جاء الأيوبيون أعادوا الأمور إلى نصابها الطبيعى، فنشروا العدل، ونصروا السنة، وأزالوا الغمة، فحقق الله على أيديهم الفتوحات العظيمة التى كانت- وما زالت - إحدى مفاخر الإسلام والمسلمين.

ينظر فى الدولة الأيوبية: السلوك ١/ ٤١ الكامل ١١/ ٣٣٤، العبر ٤/ ٧٩، نزهة الأساطين ٥١، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨١، الفضائل الباهرة ٤٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٧، تاريخ العالم الإسلامي ٢٠٧، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ١٤١، تاريخ الإسلام د/ حسن إبراهيم حسن ٤/ ١٠٤ - ١١٤.

يوسف بن أيوب بن شاذي، فلما دخلوا مصر خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقًا وقتل ضرغام بن سوار وطيف برأسه في البلاد، واستقر شاور في الوزارة.

ثم اصطلح العاضد هو وشاور. وفي هذه السنة المذكورة كانت وفاة محمد بن على بن أبي منصور أبي جعفر الأصفهاني الملقب بالجمال وزير صاحب الموصل قطب الدين بن مودود بن زنكي، وهو ابن أخي محمد بن زنكي بن آق سنقر السلجوقي المذكور.

كان هذا الجمال الأصفهاني كثير المعروف والصدقات وله آثار حسنة بـ« مكة » و« المدينة »، من ذلك أنه ساق عينًا إلى عرفات وعمل هنالك مصانع، وبنى مسجد عرفات ودرجه، وأحكم أبواب الحرم، وبنى مسجد الخيف، وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورًا، وبنى جسرًا على دجلة عند جزيرة ابن عمرَ بالحجر المنحوت والحديد والرصاص، وبنى ربطًا كثيرة.

وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأسارى كل سنة بعشرة آلاف دينار ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء والفقراء حيث كانوا، ولما مات دفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شيركوه المذكور مؤاخاة وعهد: أيهما مات قبل الآخر أن يحمله إلى المدينة، فاستأجر له أسد الدين رجالا فنقلوه إليها، فما مروا به في بلدة إلا صلى عليه أهلها وترحموا وأثنوا عليه خيرًا، فصلى عليه بـ« الموصل »، و« تكريت » و« بغداد » و« الحلة » و« الكوفة » و« مكة »، وطيف به حول الكعبة ثم نقل إلى المدينة المشرفة فدفن برباط بناه شرقي المسجد النبوي.

قال ابن الجوزي[1] وابن الساعي: وليس بينه وبين حرم رسول الله ﷺ سوى مقدار خمسة عشر ذراعًا.

قال ابن الساعى: لما صُلِّيَ عليه بالحلة صَعِدَ شاب على نشز فأنشد: [من الطويل]

سَرَىٰ نَعْشُهُ فَوْقَ الرِّقَابِ وطَالَما   سَرَىٰ جُودُهُ فَوْقَ الرِّكَابِ ونَائِلُهْ

(١) ينظر: المنتظم ١٨/ ١٦١ .

يَمُرُّ عَلَىٰ الوَادِي فَتُثْنِي رِمَالُهُ عَلَيْهِ وبِالنَّادِي فَتُثْنِي أَرَامِلُهْ

رجعنا إلى سيرة شاور والعاضد وأسد الدين.

لما اصطلح شاور مع العاضد استمرا على دَخَن، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة طغت الفرنج بالديار المصرية وتحكموا في إيوانها، وسكنها أكثر شجعانهم ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها المسلمين، وذلك بسبب ما قرره لهم شاور على مصر كل عام بألف ألف دينار، وأن تكون لهم بها شحنة، فلما سمع الفرنج بذلك طمعوا في أخذها بالأصالة، فركبت أمدادهم من كل ناحية وساروا، فأول ما أخذوا مدينة « بلبيس »، فقتلوا خلقًا وأسروا آخرين، فأمر الوزير شاور بإحراق مصر وأن ينتقل الناس إلى « القاهرة »، فنهبت البلد.

وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يومًا، فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد لدين الله إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي يستغيث به، وبعث إليه بشعور نسائه يقول له: أدركني واستنقذ نسائي من يد الفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عندهم بمصر، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين أرسل إلى ملك الإفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكِن العاضد والمسلمون لا يوافقوني على تسليم البلد، واستدعى نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه، فقدمه على العساكر التي قد جهزها إلى الديار المصرية، وأضاف إليه جملة من الأمراء والأعيان.

وكان في جملتهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان، فلما وصلت الجيوش النورية إلى الديار المصرية وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة بالصفقة الخاسرة، فدخل الأمير أسد الدين على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية فلبسها، وعاد إلى مخيمه بظاهر القاهرة، وخرجت وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن خرج إليه الخليفة العاضد متنكرًا فأسرَّ إليه أمورًا مهمة، منها: قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك.

وعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولم يقدر الوزير شاور على منع شيء من ذلك لكثرة من مع أسد الدين من الجيش، ولكن شرع يماطل فيما كان تقرر لهم

وللملك نور الدين مما كان التزمه لهم وهو مع ذلك يتودد إلى الأمير أسد الدين ويركب معه.

وعزم على فعل ضيافة له، فنهى أسد الدين وأصحابه عن الحضور عنده، خوفًا عليه من غائلته، وشاوروه في قتل شاور فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك، فلما كان في بعض الأيام جاء شاور إلى منزل أسد الدين فوجده قد ذهب إلى زيارة قبر الشافعي - رضي الله تعالى عنه -، وإذا ابن أخيه الملك صلاح الدين يوسف هنالك فأمر صلاح الدين بالقبض عليه، ولم يمكنه قتله إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين، فانهزم أصحاب شاور، فأعلموا العاضد لعله يبعث من ينقذه، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب رأس شاور، فقتله يوسف وأرسل برأسه إليه ففرح المسلمون بذلك، وأمر أسد الدين بنهب دار شاور فنهبت، ودخل على العاضد فاستوزره وخلع عليه خلعة عظيمة ولقبه: الملك المنصور، فسكن دار شاور وعظم شأنه هنالك.

قلت: وهذا الوزير شاور: هو أول من استكتب القاضي الفاضلُ، استدعي به من الإسكندرية فحظي عنده وانحصرت فيه الكتابة، لما رأوا فضله وفضيلته، ومما قاله عمارة اليمني في شاور قوله: [من الكامل]

ضَجِرَ الحَدِيدُ مِنَ الحَدِيدِ وشَاورٌ ... في نَصْرِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ
حَلَفَ الزَّمَانُ لَيَأْتِيَنَّ بِمِثْله ... حَنِثَتْ يَمِينُكَ يا زَمَانُ فَكَفِّرِ

ولم يزل قائمًا في الوزارة إلى أن ثار عليه ضرغام بن سوار، كما تقدم ذكره، ثم كان قتله على يد الناصر صلاح الدين يوسف . ولما استقر أسد الدين بمصر كما ذكرنا أرسل إلى القصر يطلب كاتبًا، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل، وكانوا قد أبغضوه، أرسلوه إليه؛ رجاء أن يُقتل معه إذا قتل أسد الدين شاور فيما كانوا يؤملون.

ثم إن أسد الدين بعث العمال، وأقطع الإقطاعات، وولى للولايات، وفرح بنفسه أيامًا معدودات، فأدركه حِمَامُهُ يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

فلما توفي أسد الدين أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين

يوسف بن أيوب الوزارة بعد عمه أسد الدين، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه: الملك الناصر.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتاب « الروضتين »[(١)]: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ هى عمامة بيضاء بطرف ذهب، وثوب ديبقي بطراز الذهب، وجبة بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة من الخيل بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب بجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قضيب ذهب، ومع الخلعة عدة بقج وخيل، ومنشور الولاية في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وأقام صلاح الدين بالديار المصرية بصفة نائب للملك نور الدين الشهيد محمود ابن زنكي يخطب له على المنابر بالديار المصرية بعد الخليفة. وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين شاور: [من الطويل]

هنيئًا لِمصْرِ حَوْزُ يوسُفَ مُلْكَها   بأَمْرٍ مِنَ الرحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
وما كَانَ فِيها قَتْلُ يوسُفَ شاورًا   يمـاثـلُ إلاَّ قَتْلَ داوُدَ جَالُـوتَـا

وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد، وزاد في إقطاعات الذين معه فأحبوه وخدموه واحترموه، فاستمر حتى كان أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمائة - وهي السنة التي توفي فيها الخليفة العاضد قبل وفاته - أمر بإقامة الخطبة لبنى العباس بـ« مصر »، وفي الجمعة الثانية بـ« القاهرة »، وكان ذلك يومًا مشهودًا.

ولما انتهى الخبر بذلك إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بـ« الشام » أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت الخطبة عن بنى العباس قد قطعت من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسى حين تغلب الفاطميون، وهم المسمون بالعُبَيديين على مصر، وملكها منهم المعز الفاطمي باني القاهرة والقصرين

(١) الروضتين ١/ ٤٣٩ .

إلى هذا الأوان وهو سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك مائتا سنة وثماني سنين، كما تقدم ذكر ذلك.

قال ابن الجوزى[١]: وقد ألفت في ذلك كتابًا سميته «النصر على مصر» فهذا هو سبب استيلاء الدولة الأيوبية على مصر والشام وأعمالهما.

وكانت وفاة نور الدين الشهيد في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. فأولهم الملك الناصر:

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٢]

ابن شاذي[٣] الكردي[٤] الروادي

وهم خيار الأكراد الدويني. ومنهم من يقول: أيوب بن شاذي بن مروان وزاد بعضهم بعد مروان: ابن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد من نسبهم، وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بنى أمية، وهذا ليس بصحيح، كذا قاله ابن السبكي.

قلت: والذي انتسب هذه النسبة ادعاءً هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب بن شاذي، ويعرف: بابن سيف الإسلام؛ لأن سيف الإسلام لقب

---

(١) المنتظم ١٨/ ١٩٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: السلوك ١/ ٤١، الكامل ١١/ ٣٤٢، العبر ٤/ ٧٩ و٥/ ٢٥٠ و٣٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٧، تاريخ العالم الإسلامى ٢١٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٣ - ٦٣، الأعلام ٨/ ٢٢٠، نزهة الأساطين ٥١، مرآة الزمان ٨/ ٤٢٥، مفرج الكروب ١/ ١٦٨ وما بعدها، الدارس ٢/ ١٧٨ و ١٨٨، طبقات السبكى ٧/ ٣٣٩ - ٣٧٩، بدائع الزهور ١/ ٦٩، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٧، وفيات الأعيان ٧/ ١٣٩ - ٢١٨، البرق الشامى ٤٢، بالإضافة إلى الكتب التى تخصصت فى سيرته كالنوادر السلطانية لابن شداد، والروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة، والبرق الشامى لعماد الدين الكاتب، والنفح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين أيضًا، وصلاح الدين الأيوبى وعصره لمحمد فريد أبى حديد، وحياة صلاح الدين الأيوبى لأحمد بيلى المصرى . . وغير ذلك .

(٣) وردت في بعض المصادر [شادى]. ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١، السلوك ١/ ٤١ .

(٤) اختلف المؤرخون فى نسب بنى أيوب إلى ثلاثة آراء:

الأول: أنهم من العرب .

الثانى: أنهم من الأكراد الروادية .

الثالث: أنهم من الفرس .

ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١ .

لـ « طغتكين بن أيوب » أخي صلاح الدين.

وقد ملك إسماعيل هذا بعد أبيه فتعاظم في نفسه وادعى الخلافة وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه ولهجوا بذلك. وقال هو في نفسه: [من الطويل]

وَإِنِّي أَنَا الهَادِي الْخَلِيفَةُ والذِي ... أَدُوسُ رِقَابَ الغلبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ

ولا بُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِي رُبُوعَهَا ... وأَنْشُرُهَا نَشر السَّمَاسِرِ للبردِ

وأَنْصِبُ أَعْلاَمِي عَلَى شُرُفَاتِهَا ... وأُحْيِي بِهَا مَا كَانَ أَسَّسَهُ جَدِّي

ويخطبُ لي فيها على كلِّ منبرٍ ... وأُظِهْرُ دِينَ اللَّهِ في الغَوْرِ والنَّجْدِ

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له فيعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه.

وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله متقشفًا في ملبسه ومأكله، وملبسه لا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف، ولا يعرف أنه تخطى مكروهًا بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر، ومقصوده الأعظم - نصرة الإسلام، وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده ومع من يثق برأيه ليلا ونهارًا.

هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها.

وكان مواظبًا على الصلوات في أوقاتها في جماعة.

يقال: لم تفته الجماعة في صلاة قبل مماته بدهر طويل حتى في مرض موته، وكان يتجشَّم القيام مع ضعْفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ويشارك في ذلك مشاركة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

وكان يحفظ، ويحفِّظ أولاده عقيدة جمعها له القطب النيسابوري.

وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جُزْءًا وهو بين الصفين وتبجح بذلك وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثًا.

وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأكرمهم وأحسنهم. فتح الفتوحات التي لا تحصى

من ممالك الكفر، ودمر ديارهم، واستلب أعمارهم، وسبى نساءهم وصغارهم.

وكان شيخًا كريمًا حليما ضحوك الوجه، كثير البِشر أحسن الملوك سيرة، وأطهرهم سريرة يشبَّه بالملك العادل نور الدين الشهيد، ولم يترك في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهما.

وقال غير ابن السبكي: سبعة وأربعين درهما.

ولم يترك عقارًا ولا مزرعة ولا شيئًا من أنواع الأملاك، لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وخيراته إلى أمرائه وفقرائه حتى إلى أعدائه.

وخلف من الأولاد سبعة عشر ذكرًا، وابنة واحدة، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي.

وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده: فالديار المصرية لولده العزيز عثمان، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل المذكور، والديار الحلبية لولده الظاهر غازي، والكرك والشوبك لأخيه العادل أبي بكر.

ثم شرعت الأمور تضطرب وتختلف، حتى آل الأمر واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل، وصارت المملكة في أولاده الأماجد الأفاضل كما ستراهم حين تعدادهم واحدًا بعد واحد.

وكان سبب وفاته أن اعترته حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة[(١)]، فدخل عليه القاضي الفاضل في الصبح وهو بآخر رمق فلما قرأ القارئ قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه عز وجل، وله من العمر سبع وخمسون سنة، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بـ« الموصل »، وألحده ولده نور الدين عَلِي الأفضل، ودفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك بإشارة القاضي الفاضل.

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة، فمن أحسنها قصيدة العماد الكاتب وهي

---

(١) ينظر: الأصفهانى الفتح القسى ص ٦٢٧، مرآة الزمان ٨/ ٤٣٠، مفرج الكروب ٢/ ٤١٩، السلوك ١/ ١١٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٥١، إلا أن ابن شاهين يرى أن وفاته كانت ليلة الأربعاء ثامن عشر من صفر، نزهة الأساطين ص ٥٢.

مائتان واثنان وثلاثون بيتًا. فمنها قوله في أولها : [من الكامل]

شَمْلُ الهُدَىٰ والمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ والدَّهْرُ سَاءَ وأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً مَرْجُوَّةً هَبَّاتُهُ وهِبَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي طَاعَاتُنَا كانَتْ لَهُ مَبْذُولَةً ولِرَبِّهِ طَاعَاتُهُ ؟!
باللَّهُ أَيْنَ النَّاصِرُ المَلِكُ الذِي لِلَّهِ خَالِصَةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا يُرجَىٰ نَدَاهُ وتُتَّقَىٰ سَطَوَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي شَرُفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وسَمَتْ عَلَى الفُضَلاءِ تَشْرِيفَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي عَنَتِ الفِرِنجُ لِبَأْسِهِ ذلا ومِنْهَا أَدْرَكَتْ ثَارَاتُهُ ؟!
أَغْلاقُ أَعْنَاقِ العِدَىٰ أَسْيَافُهُ أَطْواقُ أَجْيَادِ الوَرَىٰ مِنَّاتُهُ

قلت: إن كانت القصيدة كلها على هذه الوتيرة، فما تصلح أن تكون بعقر داره عقيرة. رحمه الله.

ثم تولى ابنه الملك العزيز عثمان(١)

أبو الفتح ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

تسلطن بعد موته وكان نائبًا عن أبيه بمصر لما كان أبوه بـ« دمشق »، وتم أمره وسنه نيِّف وعشرون سنة وكان أصغر إخوته، وكان أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، وكانت إليه ولاية العهد من أبيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان بـ« دمشق » وأخوه عثمان بـ« مِصر » وعمه الملك العادل أبو بكر بـ« حلب »، وكان أكولاً يأكل الخروف وحده، وكان فاضلاً متأدبًا حليمًا، حسن السيرة، متدينًا، قلَّ أن يعاقب على ذنب، ومع هذا ما صفا له الدهر ولا هنَّاه بالملك بعد أبيه، لبث مدة يسيرة ثم حصره عمه الملك العادل أبو بكر، وأخوه الملك العزيز عثمان صاحب

---

(١) ينظر ترجمته في: السلوك ١/ ١١٤، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، بدائع الزهور ١/ ٧٣، وفيات الأعيان ٣/ ٢٥١ - ٢٥٣، نزهة الأساطين ص ٥٣ مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، الجوهر الثمين ٢/ ٢١، الأعلام ٤/ ٢١٥، الكامل ١٢/ ٩٧، التكملة للمنذرى ٢/ ١٥٠ - ١٥١ رقم ٤٦٧، ذيل الروضتين ص ١٦، المختصر لأبى الفداء ٣/ ١٠٠، العبر ٤/ ٢٧٨، الخطط للمقريزى ١/ ٢٣٥، تتمة المختصر ٢/ ١٧٠، الوافى بالوفيات للصفدى ١٩/ ٥١٦، دول الإسلام ٢/ ٧٨، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩١ - ٢٩٤، تاريخ ابن الفرات ٤/ ٢/ ١٤٣ - ١٤٨، مفرج الكروب ٣/ ٨٢ - ٨٤، الدارس ١/ ٣٨٧ - ٣٨٩ .

الترجمة هذه، وأخرجاه من ملكه إلى « صَرْخَد » ثم جهزاه إلى « سميساط »، وفي ذلك كتب إلى الخليفة الناصر العباسي بـ« بغداد » قوله: [من البسيط]

مَوْلاَيَ إنَّ أبَا بَكْرٍ وصَاحِبَهُ ... عُثْمَانَ قَدْ غَصَبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي
وهُوَ الذِي كَانَ قَدْ ولاَّهُ والِدُهُ ... عَلَيْهِمَا فاسْتَقَامَ الأمْرُ حِينَ وَلِي
فَخَالَفَاهُ وحَلاَّ عقْدَ بَيْعتِهِ ... والأَمْرُ بَيْنَهُمَا والنَّصُّ فيه جَلِي
فانظُرْ إلىٰ حَظِّ هَذَا الاسْمِ كَيْفَ لَقِي ... مِنَ الأوَاخِرِ ما لاَقَىٰ مِنَ الأُوَلِ

فأجابه الناصر العباسي: [من الكامل]

وَافَىٰ كِتَابُكَ يابْنَ يُوسُفَ مُعْلِنًا ... بالوردِ يُخْبِرُ أَنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ
غَصَبُوا عَلِيًا حَقَّهُ إذْ لَمْ يَكُنْ ... بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ بِيَثْرِبَ نَاصِرُ
فاصْبِرْ فإنَّ غَدًا عَلَيْه حِسَابُهُمْ ... وَابْشِرْ فَنَاصِرُكَ الإمامُ النَّاصِرُ

وكان فيهما تشيع.

وقال العلامة الصفدي في « تاريخه »[1] : توفى يوم الجمعة فجأة بعد أن صلى الجمعة خامس عشر صفر من سنة (٦٢٢هـ)، وحمل إلى « حلب » ودفن بها.

وكان صحيح العقيدة، عنده علم وأدب، يحب العلماء والعلم، وله في الجهاد مع أبيه مشاهد معروفة وآثار جميلة، ووقف أوقافًا جميلة.

ولشعراء عصره فيه أمداح طائلة وقصائد هائلة، مثل ابن الساعاتي وابن سناء الملك وغيرهما.

فمن قول ابن سناء الملك فيه من قصيدة: [من الخفيف]

مَلِكٌ إسْمُهُ عَلِيٌّ وَلَكِنْ ... كَيْدُهُ في حُرُوبه كَيْدُ عَمْرِو
لَيْسَ يَنْفَكُّ بَيْنَ فَتْحٍ وفَتْكٍ ... حين يختالُ بين نصلٍ ونصرِ
وَجْهُهُ البَدْرُ في الحُرُوبِ فَلاَ تعـ ... ـجَبْ إذا كان يَوْمُهُ يَوْمَ بدرِ[2]

وله فيه من أخرى: [من البسيط]

حَسْبِي عليٌّ نَدًى حَسْبِي عَلِيٌّ هُدًى ... حَسْبِي عليٌّ جدًى حَسْبِي عَلِيٌّ عُلاَ
حَمَدتُ آخرَ أَيَّامِي بِخِدْمَتِهِ ... ولَسْتُ أَحْمَدُ مِنْ أَيامِيَ الأُوَلاَ

---

(١) الصفدى (٢٢/ ٣٤٤).
(٢) ينظر: ديوان ابن سناء الملك ٣٧٥، والوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٤).

ذِكْرِي بِهِ سَارَ حَالِي عِنْدَهُ عَظُمَتْ   قَدْرِي بِهِ جَلَّ مِقْدَارِي لَدَيْهِ عَلَا[(١)]

ثم قال: وقال كمال الدين بن العديم: لم يكن متشيعًا وإنما قال هذا الشعر؛ موافقة للحال وتقربًا للإمام الناصر العباسي، فإنه كان منسوبًا إلى التشيع.

قال الصفدي[(٢)]: ولما تعصب عليه أخوه العزيز عثمان المذكور، وعمه العادل أبو بكر قال: [من الكامل]

ذى سُنَّةٌ بَيْنَ الأَنَامِ قَدِيمَةٌ   أبدًا أَبُو بَكْرٍ يَجُورُ عَلَى عَلِى

وكتب بتلك الأربعة الأبيات إلى الناصر العباسي.

قلت: قد ذكرت الأربعة أبيات وفي حفظي له بيتان يذم بهما حظه، وهو معنى لم أسمعه لغيره، ووكر لم يأو إليه غير طيره هما: [من الكامل]

يا مَنْ يُسَوِّدُ بالخضابِ شُعُورَهُ   لعَسَاهُ مِنْ أَهْلِ الشَّبِيبَةِ يُجْعَلُ
ها فَاخْتَضِبْ بِسَوادِ حَظِّي مَرَّةً   ولَكَ الأمانُ بأنَّه لا يُنْصَلُ

وإنما ذكرت ترجمة عَلِي الأَفْضَلِ في ترجمة أخيه عثمان صاحب الترجمة؛ لجريان ذكره بأكبريته على إخوته بنى يوسف بن أيوب.

واستمر عثمان في الملك إلى أن خرج [إلى] الفيوم يتصيد، فلاح له ظبي، فساق خلفه فكبا به الفرس، فوقع فدخل قربوس السرج في فؤاده فحمل إلى القاهرة[(٣)]، وتوفى في عشر المحرم الحرام[(٤)] سنة خمس أو ست وتسعين وخمسمائة، ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أيام[(٥)].

---

(١) ينظر: الديوان ٦٠٨، والوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٤)، وبعد البيت الأول بيت آخر:

حسبى أبو حسن فى كل نائبة   يستفرغ الحول أو يستفرغ الحيلا

(٢) ينظر: الوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٥).

(٣) ينظر مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٢، غير أن ابن الأثير فى الكامل ١٢/ ١٤٠، وابن دقماق فى الجوهر الثمين ٢/ ٢١ ذكروا فى سبب وفاته قولاً آخر. أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيوم، فرأى ذئبًا فركض فرسه فى طلبه، فعثر الفرس، فسقط عنه فى الأرض ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضًا، فبقى كذلك إلى أن توفى بعد خمسة أيام.

(٤) ينظر: مفرج الكروب ٣/ ٨٣، بينما يرى المقريزى فى السلوك (١/ ١٤٤) أنه توفى. منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم. لكن يشير ابن الأثير فى الكامل ١٢/ ١٤٠، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٦/ ١٤٦، والمنذرى فى التكملة. أنه توفى فى العشرين من المحرم.

(٥) فى مفرج الكروب ٣/ ٨٣، والخطط ٢/ ٢٣٥ ست سنين إلا شهرًا، بينما فى السلوك للمقريزى ١/ ١٤٤ ست سنين تنقص شهرًا وستة أيام. غير أن ابن شاهين فى نزهة الأساطين =

ثم تولى ابنه الملك المنصور محمد[(١)]

ابن عثمان العزيز بن صلاح الدين، تسلطن بعد موت أبيه[(٢)]، وعمره نحو العشرين[(٣)].

وصار مدبر مملكته الأمير قراقوش. ووقع له مع عمه الملك الأفضل صاحب الشام أمور عجيبة، وكذلك مع عم أبيه العادل أبي بكر بن أيوب، ولم تطل أيامه، لتغلب أعمامه عليه إلى أن خلعه عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب[(٤)].

ثم تولى الملك العادل[(٥)]

عم أبيه أبو بكر سيف الدين بن أيوب.

تسلطن بعد خلع ابن ابن أخيه في شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة[(٦)].

وفي أيامه انتقلت السلطنة من دار الوزارة إلى قلعة الجبل في سنة أربع وستمائة[(٧)].

وكان له سعد عظيم، فإن غالب ملوك بنى أيوب من نسله.

= ص٥٤ - يرى أن مدته ست سنين.

(١) ينظر ترجمته فى: السلوك ١/ ١٤٥ - ١٥٣، بدائع الزهور ١/ ٧٤، الأعلام ٦/ ٢٦١، نزهة الأساطين ص ٥٥، الكامل ١٢/ ١٥٦، وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٠، حلى القاهرة ١٩٦.

(٢) فى يوم الاثنين السابع عشر من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة (ينظر نزهة الأساطين ص٥٥).

(٣) تشير بعض المصادر إلى أنه تسلطن وعمره تسع سنين وأشهر (ينظر السلوك ١/ ١٤٦).

(٤) كان دخول العادل القاهرة كما يقول ابن الأثير فى الكامل (١٢/ ١٥٦) - يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة. وكان خلع المنصور محمد واستقلال العادل بالملك يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوال منها.

وكانت مدته سنة وثمانية أشهر وعشرين يومًا. ينظر: الخطط للمقريزى ٣/ ٢٣٥، السلوك ١/ ١٥٢، نزهة الأساطين ص٥٥.

(٥) ينظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ٥/ ٧٤ - ٧٩، بدائع الزهور ١/ ٧٥، السلوك ١/ ١٥٢ - ١٩٤، مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، ذيل الروضتين ١١١، حلى القاهرة ص ٢٠٦، الأعلام ٦/ ٤٧، الكامل ١٢/ ١٥٥، مفرج الكروب ٣/ ٢٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٩٧، تتمة المختصر ٢/ ٢٠١، تاريخ ابن الفرات ٥/ ٢٣٩، الجوهر الثمين ٢/ ٢٥، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠، التاريخ المنصورى ص ٧ - ١١، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤.

(٦) أما اليوم الذى تولى فيه السلطة فقد اختلف المؤرخون فيه، فيرى ابن شاهين فى نزهة الأساطين (ص ٥٦) أنه تسلطن فى يوم الجمعة حادى عشرى شوال وتابعه فى ذلك المقريزى فى السلوك (١/ ١٥٢). إلا أن ابن تغرى بردى ذكر فى النجوم الزاهرة (٦/ ١٦٠) أنه تولى فى العشرين من شوال.

(٧) ينظر: السلوك ١/ ١٦٩.

وكان يأكل خروفًا كاملاً مشويًا[١] كما كان يأكله ابن أخيه الأفضل المتقدم ذكره.

وتوفى بـ« مالقين » بلد بالشام في ثامن جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة[٢]، فصبره ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وحمله - ولم يعلم بموته أحد - إلى قلعة دمشق، فدفنه بها، وهو الملقب بالعادل الكبير.

ولما مات استقر كل واحد من ولده بمملكته التي كان قسمها بينهم، فاستقر الكامل محمد في سلطنته بـ« مصر »، واستقر الملك المعظم عيسى في ممالك الشام، واستقر الأشرف موسى شاه « أرمن » بديار بكر وممالك الشرق.

وباقي أولاده كل في جهة أو في خدمة أخ من إخوته.

وكانت مدة ولايته على مصر ثماني عشرة سنة ونحو ثمانية أشهر.

ثم تولى الملك الكامل محمد[٣]

ابن أبي بكر الملك العادل.

استقل بسلطنة مصر يوم الجمعة سابع جمادى الأخرى من سنة خمس عشرة وستمائة، فعمَّر قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه[٤]، وبنى المدرسة الكاملية بين القصرين[٥]، وله من الخيرات غير ذلك، واستمر إلى أن توفى بدمشق يوم الأربعاء ودفن من غد يوم الخميس ثاني عشر[٦] رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومدة

---

(١) ينظر: السلوك ١/ ١٩٣.

(٢) ينظر: الكامل ١٢/ ٣٥٠، وفيات الأعيان ٥/ ٧٨، نزهة الأساطين ص ٥٧، السلوك ١/ ١٩٤ وفيه أنه مات عن خمس وسبعين - وقيل ثلاث وسبعين - سنة.

(٣) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ٥/ ١٧١، بدائع الزهور ١/ ٧٧، الكامل ١٢/ ٣٥١، السلوك ١/ ١٩٤، الحوادث الجامعة ١٠٧، وفيات الأعيان ٥/ ٧٩، ٩٢، الدارس ٢/ ٢٧٧، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٩، دول الإسلام ٢/ ١٣٤، الجوهر الثمين ٢/ ٢٩، الخطط ٢/ ٣٧٧، تاريخ الخلفاء ٣٦٤، نزهة الأساطين ص ٥٨، الأعلام ٧/ ٢٨.

(٤) كان الفراغ من إنشائها يوم الأحد، لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار. ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٨١.

(٥) أنشأها سنة إحدى وعشرين وستمائة وهى ثانى دار عملت للحديث النبوى بعد مثيلتها فى دمشق، التى أقامها الشهيد نور الدين زنكى. ينظر: مرآة الزمان ٨/ ٦٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٩.

(٦) وفى الذيل على الروضتين لأبى شامة ص ١٦٦ ليلة الخميس الثانى والعشرين من رجب، وفى كنز الدرر للدوادارى ٧/ ٣٢٣ يوم الخميس رابع المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة. والأقرب إلى الصحة ما نص عليه مؤرخنا - هنا - أنه توفى يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس ثانى عشر =

ملكه عشرون سنة وشهران[1].

ثم تولى ابنه أبو بكر العادل[2]

وهو المسمى بالعادل الصغير ابن محمد الكامل بن أبي بكر العادل، وهو المسمى بالعادل الكبير .

تسلطن بعد موت والده الكامل بـ« مصر »، وكان الصالح نائب أبيه ببلاد الشرق، فلما مات الكامل اتفق رأي الأمراء على تولية أبي بكر العادل هذا، وأن يكون نائبه بـ« دمشق » ابن عمه الملك الجواد يوسف، وأن يكون أخوه أيوب على حاله بديار بكر وممالك الشرق، فتم ذلك، وتسلطن العادل فيه وله ثمان عشرة سنة، ثم بلغ الخبر أخاه فتحرك طالبًا لملك مصر حتى ملكها بعد أمور وقعت له مع أخيه، وقهره وخلعه عن الملك وحبسه[3]، ثم قتله بعد سنين في السجن في شوال سنة ست وأربعين وستمائة، وكانت مدة العادل سنة وشهرين وأيامًا[4] مع ما وقع له من الأنكاد والحروب والفتن.

ثم تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[5]

وله سير وأوصاف جميلة حميدة، وهو ممدوح الصفي الحلي، وباني المدرسة

= رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة حيث هو الرأى الغالب عند المؤرخين . ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٨٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٧٧، التكملة لوفيات النقلة للمنذرى ٤/ ٤٨٥ .

(١) وقد اختلف المؤرخون فى مدة ملكه: فابن شاهين فى نزهة الأساطين ص ٥٩ يرى أنها ثلاثًا وعشرين سنة تزيد شيئًا، وابن دقماق صاحب الجوهر الثمين ٢/ ٢٩ يرى أنها عشرين سنة وخمسة وأربعين يومًا، وفى السلوك للمقريزى ١/ ٢٩٩ «أنها عشرين سنة وثلاثة وأربعين يومًا» .

(٢) ينظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ٥/ ٨٤، السلوك ١/ ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٠٣، تاريخ ابن الوردى ٢/ ١٧٨، بدائع الزهور ١/ ٨٢، الأعلام ٧/ ٢٨-٢٩، نزهة الأساطين ص ٦٠، الجوهر الثمين ٢/ ٣٣-٣٥، مفرج الكروب ٥/ ٢٦٦ .

(٣) راجع بشأن إمساكه وأسره، ثم خلعه ابن دقماق الجوهر الثمين ٢/ ٣٣ .

(٤) اختلف المؤرخون فى مدة ملكه فابن واصل يرى أنها سنتين وشهورًا . (مفرج الكروب ٥/ ٢٦٦)، وابن شاهين يرى أنها سنتين وشهرين وثمانية عشر يومًا (نزهة الأساطين ص ٦٠) .

(٥) ينظر ترجمته فى: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٦، بدائع الزهور ١/ ٨٣، السلوك ١/ ٢٩٦ - ٣٤٢، مرآة الزمان ٨/ ٧٧٥، نزهة الأساطين ص٦١ ، الأعلام ٢/ ٣٨، وفيات الأعيان (٥/ ٨٦)، الجوهر الثمين (٢/ ٣٨)، تاريخ الإسحاقى ١٨٩ ، النجوم الزاهرة ٦/ ٣١٩ .

بين القصرين المعروفة بالصالحية[١]، التي هي الآن المحكمة، إلا أنه لم يمكث فإنه وقعت له أكلة في خده فمات ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بـ« المنصورة »، وحمل إلى القاهرة.

وأخفت زوجته المسماة شجرة الدر موته، خوفًا على المسلمين، إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه ودبرت الملك بينما وصل، وعلمت على المناشير بخط يحاكي خط الصالح.

وهو صاحب قلعة الروضة[٢] تجاه مصر القديمة على النيل. وهو الذي استكثر من المماليك الأتراك بديار مصر[٣]، وفي هذا المعنى قال بعضهم: [من البسيط]

أَلصَّالِحُ المُرْتَضَىٰ أَيُّوبُ أَكْثَرَ مِنْ   تُرْكٍ بِدَوْلَتِهِ يَا شَرَّ مَجْلُوبِ
لاَ وَاخَذَ اللّٰهُ أَيُّوبًا بِفَعْلَتِهِ   فالنَّاسُ كلُّهُمُ فى ضُرِّ أَيُّوبِ

ثم تولى تورنشاه[٤]

ابن الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل.

تسلطن بعد موت أبيه بنحو شهرين ونصف، وقيل: بأربعة أشهر، وهو الأصح؛ لأن أباه مات في شعبان.

وقدم تورنشاه أواخر ذي الحجة.

ففي أول المحرم من سنة ثمان وأربعين ولي[٥]، ولما ملك واستفحل أمره تغير

(١) كان ابتداء البناء فيها سنة تسع وثلاثين وستمائة، وانتهى سنة إحدى وأربعين وستمائة للهجرة. ينظر: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤١، السلوك ١/ ٣٠٨ .

(٢) وتعرف باسم «قلعة المقياس»، و «قلعة الجزيرة» و «القلعة الصالحية» وقد ابتدئ فى بنائها يوم الجمعة سادس عشرة من شعبان سنة ثمان وثلاثين وستمائة للهجرة . ينظر: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤١، السلوك ١/ ٣٠١، حسن المحاضرة ٢/ ٣٨١ وما بعدها .

(٣) والعلة فى ذلك أنه لما تعرض للمحن لم يثبت من عساكره إلا المماليك فرعى لهم ذلك وأكثر منهم وسماهم البحرية وأسكنهم فى قلعة الروضة . ينظر: السلوك ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٤) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ٤٠، مرآة الزمان ٨/ ٧٨٢، السلوك ١/ ٣٥٩، وفيات الأعيان ١/ ٣٠٦ - ٣٠٩، الوافى بالوفيات ١٠/ ٤٤٥، المنهل الصافى ٢/ ١٦٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٤، ذيل الروضتين ١٨٥، الشذرات ٥/ ٢٤١، فوات الوفيات ١/ ١٨٧، نزهة الأساطين ص ٦٣، الأعلام ٢/ ٩٠، بدائع الزهور ١/ ٢٦، تاريخ ابن الوردى ٢/ ١٨١، مجلة المجمع العلمى ١٦/ ٣٠٨ .

(٥) فى نزهة الأساطين ص ٦٣: « . . . أنه تسلطن بدمشق فى يوم السبت، مستهل شوال سنة سبع وأربعين وستمائة وجلس على تخت الملك بعد قدومه - بالمنصورة قريب ثغر دمياط =

على مماليك أبيه بالقتل والفتك، وتوعد شجرة الدر جارية أبيه بالمصادرة، فدفعت له أشياء وهو لا يكفُّ عنها، فتغير خاطرها عليه، وكانت مطاعة، فوثب عليه المماليك بإشارتها يوم الإثنين سابع عشر محرم[١] الحرام سنة ثمان وأربعين وستمائة فلم يثبت لهم وهرب، فطلع إلى برج خشب فأطلقوا فيه النار والنفط فنزل إلى الخركاه فرموه بالنشاب، فصار يصيح: ما لي حاجة بالملك دعوني أتوجه إلى الحصن، فلم يتركوه وضربوه بالسيوف إلى أن مات[٢]، وسلطنوا شجرة الدر زوجة أستاذهم.

ثم تولت شجرة الدر[٣]

وسلطنوها باتفاق من الأمراء، وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، واستمرت تعلم على المناشير، ويدعى لها على المنابر بـ« مِصر » وأعمالها، ويكنون عنها بالجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل صاحبة الملك الصالح، فبقيت على ذلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم بدا لها خلع نفسها[٤].

= لتسع بقين من ذى القعدة من السنة المذكورة .

(١) فى وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٣٠٩) « . . . يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم».

(٢) يرى بعض المؤرخين أن بموت «توران شاه» انقضت الدولة الأيوبية الكردية، وأن مدتهم - بمصر - كانت إحدى وثمانين سنة» ينظر: السلوك ١/ ٣٦١، نزهة الأساطين ص ٦٤ .

(٣) هى: عصمة الدين، أم الخليل، شجرة الدر، الملكة، سُرية الملك الصالح، التركية . ينظر ترجمتها فى: السلوك ١/ ٣٦١ وهو يسميها «شجر الدر»، دول الإسلام ٢/ ١٢٢، بدائع الزهور ١/ ٨٩ و٩٢ و٩٣، خطط مبارك ٥/ ٣٢، تراجم إسلامية ص٦١، الدر المنثور ص٢٥٥، مرآة الزمان ٨/ ٧٧٤ و٧٧٥ و٧٨٢ و٧٨٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٦٨، الأعلام ٣/ ١٥٨، نزهة الأساطين ص ٦٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٧، الوافى بالوفيات ١٦/ ١٢٠، ذيل مرآة الزمان ١/ ٦١، مرآة الجنان ٤/ ١٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٩، النجوم الزاهرة ٧/ ٥٦، حسن المحاضرة ٢/ ٣٩ .

(٤) عارض الرأى العام - فى مصر والشام - «شجرة الدر» عندما تسلطنت على البلاد انطلاقًا من المبدأ الإسلامى «لا يفلح قوم ولَّوا عليهم امرأة» لذا عارضها سلطان العلماء العز بن عبد السلام وذكر «أن الله ابتلى المسلمين فى مصر بولاية امرأة عليهم»، كما أَنَّ الخليفة العباسى «المستعصم بالله» - رغم أنها بعثت إليه بالهدايا - أرسل إلى مصر منكرًا متهكمًا . . إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً . السلوك ١/ ٣٦٨ . لذا خلعت نفسها بعد مدة وجيزة - حوالى ثلاثة أشهر على أكثر الآراء - بل إِنَّ بعض المؤرخين أسقطوا هذه الفترة - عمدًا - من التأريخ للدولة المملوكية، واعتبروها فترة وسطًا بين دولتين لأنها ليست من نسل الأيوبيين لتعد ضمن سلاطينهم، وليست جديرة بالسلطنة لكونها امرأة =

ثم تولى الملك عز الدين أيبك التركماني[١]

واستقر في السلطنة، وقد كان هو أتابك[٢] العساكر لها رتبه الأمراء، ثم تزوج الأتابك المذكور بها وكانت مستولية عليه.

فبعد استقرار أيبك المذكور في السلطنة بخمسة أيام أجمع رأى الأمراء جميعهم على تولية مظفر الدين موسى بن الناصر ابن الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل، ولقبوه بالملك الأشرف فلم يسع المعز إلا الإذعان لهم؛ لعظم شوكتهم.

فتولى الملك الأشرف موسى مظفر الدين[٣]

ابن الملك الناصر ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل.

بويع عام ثمان وأربعين، فقام عامًا واحدًا إلى أن قويت شوكة المعز المذكور أيبك على الأمراء فخلع الصبي واستقل بالسلطنة، وبخلعه انتهت الدولة الأيوبية الكردية، وكانت مدة ولايتهم اثنتين وثمانين سنة وأربعة أشهر، وعدة ملوكهم: تسعة رجال وامرأة هي شجرة الدر المذكورة، وكانت تركية الجنس، ثم آل به الأمر أن قتلته؛ لما بلغها عنه أنه يريد التزوج عليها، فقتلها بعده غلمانه، كما سيأتي.

= فتعد من سلاطين المماليك، وعد «المعز أيبك» أول سلاطين المماليك . ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٥٥ .

(١) ينظر ترجمته فى: بدائع الزهور ١/ ٩٠، السلوك ١/ ٣٦٨ - ٤٠٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٣ - ٤١، الأعلام ٢/ ٣٣، نزهة الأساطين ص ٦٩، الجوهر الثمين ٢/ ٥٥، الخطط للمقريزى ٢/ ١٨٤، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٩، ذيل مرآة الزمان ١/ ٥٤، المنهل الصافى ١/ ٥، الوافى بالوفيات ٩/ ٤٧٢، الدليل الشافى ١/ ٤ .

(٢) أتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير . وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير . وكثيرًا ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية، ثم أطلق هذا اللقب فى أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعًا، وكان يسمى أتابك العساكر .

ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨)، النجوم الزاهرة (٧/ ١٨٤ - حاشية رقم ٦) .

أتابك الجيوش: من الألقاب المركبة على لقب «أتابك»، وكان فى مصطلح ديوان الإنشاء فى عصر المماليك أعلى الألقاب الفخرية المضافة إلى لفظ «الجيوش» ولذا كان يطلق على النائب الكافل . ينظر: صبح الأعشى (٦/ ١٣٣)، الألقاب الإسلامية (ص ١٢٤) .

(٣) ينظر ترجمته فى: الوافى بالوفيات ٩/ ٤٧٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٥، الجوهر الثمين ٢/ ٤٧، =

الباب الخامس
في ذكر الدولة التركمانية[(١)]

كان ابتداؤها سنة ثمان وأربعين وستمائة.

أولهم المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي التركي، أول ملوك الأتراك بالديار المصرية.

وقد نظم بعضهم من مسه الرق من ملوك الأتراك في أبيات مواليًا وهي:

أيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضال
لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الأفضال ططر برسباي جقمق ذو العلا أينال
وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال تمر بغاقيتبيه الغمر ذو الإقبال

قال في «الأرج المسكي»: وهذه الأبيات مفيدة، لأن كثيرًا من فقهائنا نصوا على عدم صحة أوقافهم معللين ذلك بأنهم أرقَّاء لبيت المال، وما وقفوه من أموال بيت المال، ويجعلون ذلك وسيلة إلى جواز تناول من يكون مقيمًا بـ«مِصر» من أموال الحرمين الموقوفة عليهم من ملوك الأتراك، والإطلاق في ذلك خطأ، فإن بعضهم لم يمسه الرق وهو من عدا المنظومين في هذه الأبيات فليتنبه لذلك، وأيبك المذكور كان من مماليك الملك الصالح أيوب الأيوبي اشتراه في حياة والده الملك الكامل، وجعله جاشنكير[(٢)] فلهذا تسلطن يوم السبت آخر ربيع أول سنة ثمان

= الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٧، السلوك ١/ ٣٦٩، حسن المحاضرة ٢/ ٣٨، نزهة الأساطين ص٧١، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٩، بدائع الزهور ١/ ١/ ٢٨٥ وما بعدها.

(١) تحتل دولة المماليك مكانة هامة وبارزة فى التاريخ لأنه - كان بحق - عصر حركة دائمة ونشاط دائب ففى الخارج الحروب والتوسعات والانتصارات .. وفى الداخل الإصلاحات الاقتصادية والتيارات العلمية والتغيرات الاجتماعية. وقد اعتاد المؤرخون تقسيم دولة المماليك إلى قسمين مماليك بحرية، ومماليك جراكسة. ينظر العصر المماليكى فى مصر والشام د. سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك للدكتور سعيد عاشور، الفضائل الباهرة لابن ظهيره ص ٤٤.

(٢) الجاشنكير: وتسمى وظيفته الجاشنكيرية، والجاشنكير هو الذى يتحدث فى أمر السماط مع الأستادار ويتذوق الشراب قبل السلطان فى الولائم والأسمطة خوفًا من أن يدس فيه سم أو نحوه؛ ويساعده صغار الجاشنكيرية. والكلمة فارسية مركبة من لفظين، أحدهما: جاشنا بجيم فى أوله وهى الفارسية القريبة من الشين ومعناها: الذوق ولذلك يقولون فيمن يذوق الطعام «الشيشنى». والثانى كير ومعناه: المتناول أى الذى يتذوق الطعام. =

وأربعين أو تسع وأربعين وستمائة بعد خلع شجرة الدر نفسها، وأجمع على سلطنته الأمراء من غير كره، وركب بشعار السلطنة، وحملت الغاشية بين يديه وتم أمره.

ثم إن المماليك الصالحية اتفقوا على واحد من بنى أيوب، وهو موسى وسلطنوه واجتمعوا عليه، وكان القائم بهذا الأمر: فارس الدين أقطاى الجمداري، وبيبرس البندقداري، وبلباي الرشيدي، وسنقر الرومي، فأقاموا مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعودي بن الكامل بن العادل ولقبوه الملك الأشرف، وكان عند عماته. فأحضروه، وكان عمره إذ ذاك نحو عشر سنين، ولم يعزل المعز عن السلطنة بل كان أتابك العساكر، وخطب لهما على المنابر معًا، وكانت هذه الحركة بعد سلطنته بخمسة أيام كما تقدم ذكر ذلك، واستمر شريكًا للصبي إلى أن مهد أموره وقويت شوكته وصفا له الوقت، فعزل الصبي، واستقل بعد أمور حصلت ووقائع، إلى أن قتلته زوجته شجرة الدر لما بلغها أنه يريد التزوج عليها، فواطأت على قتله جماعة من المماليك، ثم قتلتهم جميعًا، وكان قتلها له يوم الثلاثاء عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي(١)

تسلطن وجلس على تخت الملك، وعمره خمس عشرة سنة، ووزر له وزير أبيه شرف الفائزي، وقام بتدبير ملكه الآمر علم الدين سنجر الحلبي، فحدثته نفسه بالوثوب على الآمر فقبض عليه الأمير قطز المعزّي الأيبكي، ووقع في أيامه حروب كثيرة مع المماليك الصالحية.

ثم قدم في أيامه هولاكو ملك التتار إلى « بغداد » وقتل الخليفة المستعصم، ثم ملك هولاكو حلب والشام، وقصد مصر، فلما بلغ الأمير قطز ذلك وكان قد استفحل أمره في الديار المصرية كلموه في السلطنة، والقيام بملاقاة التتار، فجمع القضاة وأعيان الدولة فأجمع رأي الجميع على خلع الملك المنصور من السلطنة لصغر سنه؛ لعدم دفعه للعدو المخذول، فخلع، وتسلطن قطز، وبقي الملك

= ينظر: صبح الأعشى (٤/ ٢١ و ٤٦) و (٥/ ٤٦٠).

(١) ينظر ترجمته: في الجوهر الثمين ٢/ ٥٨، نزهة الأساطين ص ٧٢، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، السلوك ١/ ٤٠٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٤١، الفضائل الباهرة ص ٤٤، كنز الدرر ٨/ ٣٥، بدائع الزهور ١/ ٣٠٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٩، الأعلام ٤/ ٢٦٥.

المنصور معتقلاً إلى أن مات، وكانت مدته سنتين، وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا[١]، كان كثير اللهو فاستولى عليه أكابر الدولة وحبسوه، كما تقدم.

ثم تولى الملك المظفر سيف الدين قطز[٢]

بويع عام سبع وخمسين وستمائة وهو بـ« مصر المحروسة »، وله ولاية الشام، وحلب، وجميع ما كان لمخدومه.

فلما وصل الخبر بأن التتار وصلوا دمشق - مع استمرارهم على قتل المسلمين وتعطيل شعائر الدين- تجهز الملك المظفر المذكور في جيوش عظيمة، ومقدمها الظاهر بيبرس، فالتقى الجمعان عند عين جالوت يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة وانتصر المسلمون، وهزم التتار، وقتلوا شر قتلة، ثم ولوا الأدبار والناس يتخطفونهم، ثم جاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بالنصر، فطار الناس فرحًا، ثم دخل المظفر إليها مؤيدًا منصورًا، وأحبه الناس غاية المحبة فمهَّد أمورها وأصلح ما فسد من شأنها.

وهو أول من ملك البلاد الشامية من ملوك الترك بديار مصر؛ لأن الشام جميعه في تصرف الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وغيره من بنى أيوب من بعده، واتبع بيبرس آثار التتار حتى أخرجهم من حلب وطردهم عن البلاد.

ثم وقعت الوحشة بينه وبين بيبرس؛ لأنه وعده ولاية حلب ثم أخلفه، فاتفق أن المظفر قطز لما عاد إلى مصر صار إلى التصيد فرأى أرنبًا فساق خلف الأرنب، وساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وكبيرهم بيبرس البندقداري ومعه آبض.

فلما دنوا منه - ولم يبق عند قطز غيرهم - تقدم إليه بيبرس وشفع عنده شفاعة فقبلها المظفر، فأهوى بيبرس على يده ليقبلها فقبض عليه وحمل عليه آبض فضربه

---

(١) فى السلوك للمقريزى ١/ ٤١٧، وبدائع الزهور ١/ ٣٠٢ «أن مدته كانت سنتين وثمانية شهور وثلاثة أيام» .

(٢) ينظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٢، نزهة الأساطين ص ٧٣، السلوك ١/ ٤١٧، ذيل مرآة الزمان ٢/ ٢٨، كنز الدرر ٨/ ٤٩، الجوهر الثمين ٢/ ٦٠، حسن المحاضرة ٢/ ٣٩، بدائع الزهور ١/ ٣٠٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، ذيل الروضتين ٢١٠، فوات الوفيات ٢/ ١٣٢، مورد اللطافة ص ٣٥ - ٣٨، الأعلام ٥/ ٢٠١ .

بالسيف، ثم حملوا عليه وقتلوه وتركوه ميتًا، وساقوا وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطاني بمنزله في الصالحية، فجلس بيبرس على مرتبة السلطنة وتم أمره.

وكان قتل المظفر يوم السبت سادس ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة[١]، فكانت مدته سنة واحدة إلا يومًا وقيل إلا عشرة[٢].

ثم تولى الملك الظاهر بيبرس[٣]

البندقداري الصالحي التركي النجمي، ركن الدين أبو الفتوح .

تسلطن بعد قتل الملك المظفر، وأصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وبيع بـ« دمشق » للعماد الصائغ ثم اشتراه منه علاء الدين أيدكين البندقداري.

ثم لما صادر الملك الصالح علاء الدين أيدكين أخذ بيبرس هذا في جملة من أخذ وجعله من مماليكه البحرية، وما زال يترقى والقدر يسعفه إلى أن صار أستاذه أيدكين من جملة أمرائه.

وهو الذي استحدث بـ« مصر » القضاة الأربعة، وهو صاحب الفتوحات الكثيرة، والهمم العلية، والأخلاق الرضية.

ومن أثر خيراته إنشاء المدرسة التي بين القصرين تجاه البيمارستان، والجامع الذى بالحسينية.

وفي أيامه أقيمت الخلافة العباسية بـ« مصر » بعد قتل المستعصم كما تقدم ذلك،

---

(١) فى الجوهر الثمين ٢/ ٦٥ «أنه توفى يوم السبت، نصف ذى القعدة منها»، وفى نزهة الأساطين ص ٧٣ أنه توفى «يوم السبت خامس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وسبعمائة» .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ٧٣ «فكانت مدته سنة ويومًا» .

(٣) يرى معظم المؤرخين أن الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام وذلك بسبب أعماله وإصلاحاته وفتوحاته . ينظر فى ترجمته: ذيل مرآة الزمان ٢/ ٣٥٠، الجوهر الثمين ٢/ ٨٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤، السلوك ١/ ٤٣٦، تاريخ ابن الفرات ٧/ ٨٠، كنز الدرر ٨/ ٢٠٠، نزهة الأساطين ص ٧٤، الأعلام ٢/ ٧٩، بدائع الزهور ١/ ٩٨ و١١٢، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٢٤، الدارس للنعيمى ١/ ٣٤٩، دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٣٦٣، فوات الوفيات ١/ ٨٥، البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٧، تاريخ أبى الفداء ٣/ ٢٠٧ . بالإضافة إلى الكتب التى تخصصت فى سيرته وأحواله وفتوحاته كسيرة الظاهر بيبرس لابن عبد الظاهر، وسيرة الظاهر بيبرس لابن شداد، وسيرة الظاهر بيبرس للعينى، وكتاب الظاهر بيبرس د . سعيد عاشور .

فأقام في السلطنة سبع عشرة سنة وشهرين ونصفًا[١].

ومات في القصرين بـ« دمشق » سنة ست وسبعين - بتقديم السين - وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك السعيد ناصر الدين[٢]

محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس.

دعى بـ« بركة خان » على اسم جده لأمه بركة خان، ملك التتار ابن دولة خان الخوارزمي.

تسلطن في حياة أبيه بيبرس صورة في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة إلى أن استبد بالأمر بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج عليه جماعة من الأمراء، وكبيرهم حموه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي وخلعوه من الملك وسلطنوا أخاه سلامش بن الملك الظاهر.

وكانت مدة الملك السعيد من يوم موت أبيه سنتين وشهرين ونصفا[٣].

وأعطى الكرك بعد أن خلع، فتوجه إليها وأقام بها إلى أن مات يوم الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم تولى الملك سلامش بن بيبرس[٤]

الملك العادل سيف الدين.

تسلطن بعد أخيه، وهو ابن سبع سنين ونصف، وصار أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، فخلع به في شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة،

---

(١) في نزهة الأساطين ص ٧٦ «أن مدته ثمان عشرة سنة تزيد يسيرًا»، وفى الجوهر الثمين ٢/ ٨٠ «أن مدته سبع عشرة سنة وشهرين».

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٧٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، الروض الزاهر ص ٢٠٤ وما بعدها، الجوهر الثمين ٢/ ٨٦، تاريخ سلاطين المماليك لابن أبى الفضائل ٤٥٢ و٤٥٥ و٤٧٠، السلوك ١/ ٦٤١، تاريخ أبى الفداء ٣/ ١٢، مورد اللطافة ص ٤١، بدائع الزهور ١/ ١١٢، تاريخ ابن الفرات ٧/ ١٦٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٩، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٢٧، الأعلام ٦/ ٥٢.

(٣) فى الجوهر الثمين ٢/ ٨٩ أن مدته «سنتين وشهرًا واحدًا وأيامًا».

(٤) ينظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ٧/ ٢٨٦، ابن الفرات ٧/ ١٥٠، كنز الدرر ٨/ ٢٣٠، السلوك ١/ ٦٥٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، الجوهر الثمين ٢/ ٩٠، نزهة الأساطين ص٧٨، البداية والنهاية ١٣/ ٣٣٦، بدائع الزهور ١/ ١١٤ و ١٢٨، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص٤٧١، الأعلام ٣/ ١٠٦.

وكانت مدته مائة يوم[١]، وليس له إلا مجرد الاسم.

ثم تولى الملك المنصور قلاوون الألفي[٢]

الملك المنصور سيف الدين.

تسلطن بعد خلع سلامش، وأصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه سنة سبع وأربعين وستمائة، وترقى بعد موت أستاذه الصالح، وعظم بدولة الظاهر بيبرس إلى أن صار يخطب له مع السلطان العادل سلامش المذكور، وضربت السِّكة على وجه باسم سلامش، وعلى الوجه الآخر باسم قلاوون، وأمسك جماعة من الأمراء الظاهرية، واستعمل مماليكه على البلاد وأمرهم. وله همة عظيمة.

ومن مناقبه أن عدة مماليكه بلغت اثني عشر ألفًا، وأن مُلْك مصر دام من بعده في ذريته ونسله ثم في يد مماليكهم، إلى أن انقضت دولة الأتراك، وجاءت دولة الأروام وكان أجلَّ ملوك الترك، وهو الذي بنى بمصر البيمارستان[٣] بين القصرين والقبة التي دفن فيها، وله فتوحات بساحل البحر الرومي، منها: طرابلس وبيروت وصيداء وغير ذلك، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين ونصفًا[٤]، وتوفى سنة تسع وثمانين وستمائة.

---

(١) فى الجوهر الثمين. لابن دقماق ٢/ ٩١ «خمسة شهور وأيامًا».

(٢) ينظر ترجمته في: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، السلوك ١/ ٦٦٣، تاريخ أبى الفداء ٤/ ١٢، الجوهر الثمين ٢/ ٩٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٩٢، كنز الدرر ٨/ ٢٨٣، العبر للذهبى ٥/ ٣٥٧، البداية والنهاية ١٣/ ٣٣٧، تاريخ ابن الفرات ٨/ ٧٦ - ٨١، بدائع الزهور ١/ ١١٤، فوات الوفيات ٢/ ١٣٣، النهج السديد ٤٧٥ وما بعدها، مورد اللطافة لابن تغرى بردى ٤٢- ٤٤، الأعلام ٥/ ٣٠٣، نزهة الأساطين ص ٧٩ . بالإضافة إلى الكتب التى تناولته هو وأولاده بالتفصيل كتذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه لابن حبيب.

(٣) البيمارستان المنصورى: شرع فى بنائه - بخط بين القصرين من القاهرة - أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وفرغ منه فى أقل من السنة، ورتب المنصور فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض وجعل فيه الأسرة المفروشة بالفرش المحتاج إليها فى المرض، مفردًا لكل طائفة من المرضى موضعًا، فضلاً عن قاعة لإلقاء الدروس على الأطباء وطلبة العلم. وقد وقف عليه من الأملاك ما يقارب ريعها فى السنة مليون درهم وجعله وقفًا على الملك والمملوك، والجندى والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث». ينظر: الخطط للمقريزى ٢/ ٤٠٦ - ٤٠٨، وتشريف الأيام والعصور ص ٥٥ - ٥٧، ابن الفرات ٧/ ٢٧٨، بدائع الزهور ١/ ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٤) فى نزهة الأساطين ص ٨٠ «إحدى عشرة سنة وثلاثة شهور ونصف». وفى الجوهر الثمين «إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام».

ثم تولى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون[١]

تسلطن بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج من القاهرة في أوائل المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وتوجه إلى البحيرة للصيد، فلما كان بتروجة يوم السبت ثاني عشر محرم الحرام وقت العصر حضر إليه نائب السلطنة الأمير بيدار ومعه جماعة من الأمراء، وكان الأشرف قد أمره بكرة النهار أن يمضي بالدهليز والعساكر إلى جهة القاهرة، وبقي الأشرف وأمير شكار يتصيدان، فأحاطوا به وليس معه إلا شهاب الدين بن الأشهل أمير شكار المذكور، فابتدر الأشرف بيدار وضربه بالسيف فقطع يديه، ثم ضربه حسام الدين لاجين على كتفه فحلها، فصاح لاجين على بيدار: من يريد الملك تكون هذي ضربته ؟! فسقط الأشرف عن فرسه ولم يكن معه سيف بل كان في وسطه بند مشدود، ثم جاء الأمير بهادر رأس نوبة فأدخل السيف من أسفله وشق به إلى حلقه وتركه طريحًا في البرية، واتفقوا على بيدار وحلفوا له ومشوا تحت العصائب السلطانية يريدون القاهرة ولقبوه بالملك الأوحد، وبات تلك الليلة وأصبح يسير إلى القاهرة، فلما ارتفع النهار إذا بجمع عظيم قد أقبل فيه الأمير كتبغا المنصوري، والأمير حسام الدين الأستادار، وغيرهما، يطلبون بيدار بدم أستاذهم الأشرف خليل، فالتقوا فانكسر بيدار وقتل، وحملت الأشرفية رأسه على رمح، وعادوا إلى القاهرة، واتفقوا على سلطنة أخيه محمد بن قلاوون، فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين[٢]، وقتل سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك الناصر محمد[٣]

أخو الأشرف المذكور .

بويع بعد قتل أخيه في العام المذكور، وعمره تسع سنين، وهذه سلطنته الأولى، واستقر نائبه في السلطنة الأمير كتبغا المنصوري، وفي الوزارة علم الدين سنجر

(١) ينظر ترجمته فى: فوات الوفيات ١/ ١٥١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٣، السلوك للمقريزى ١/ ٧٥٦، بدائع الزهور ١/ ١٢١، نزهة الأساطين ص ٨١، الأعلام ٢/ ٣٢١، كنز الدرر ٨/ ٣٠٠، دول الإسلام ٢/ ١٨٩، العبر للذهبى ٥/ ٣٦٠، البداية والنهاية ١٣/ ٣٧٣، تاريخ ابن الفرات ٨/ ١٠١، الخطط ٢/ ٢٣٨، تذكرة النبيه ١/ ١٣٧، الجوهر الثمين ٢/ ١٠٨ .

(٢) فى خطط المقريزى ٢/ ٢٣٩: «ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ١٧١، كنز الدرر ٨/ ٣٥٢، العبر للذهبى ٥/ ٣٨٠، =

الشجاعي مضافاً للأستدارية وتدبير الدولة، ثم قبض الناصر على جماعة من الأتراك الذين اتفقوا على قتل أخيه، ثم أمسكه كتبغا الشجاعي لما بلغه أنه يريد الفتك به ولقتله بعض أصحاب كتبغا المنصوري صبرًا، واستبد كتبغا بأمر المملكة لصغر سن الناصر، ثم بدا له أن يخلعه ويتسلطن عوضه، فاتفق مع أكابر الأمراء على ذلك فوافقوه، وخلعوا الناصر في الحادي والعشرين(١) من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وسلطنوا :

كتبغا(٢)

ولقبوه بالعادل. وكانت مدة الناصر هذه الأولى نحو السنة. ثم جهز كتبغا الناصر إلى الكرك بعد أن قال له: لو علمت أنهم: يُخلون لك الملك والله لتركته، ولكنهم لا يخلونه لك، وأنا مملوكك، ومملوك والدك أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وتجرب الأمور فتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق أكون بها مثل صاحب « حماه »، فوافقه على ذلك، فأقام كتبغا سنتين(٣)، ثم هرب إلى الشام سنة ست وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين(٤)

الذي كان نائبًا عن كتبغا، فأقام سنتين وشهرًا ونصفًا(٥)، وقتل في القلعة سنة ثمان وتسعين وستمائة.

= تاريخ ابن الفرات ٨/ ١٧٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٤١، بدائع الزهور ١/ ٣٧٨، نزهة الأساطين ص ٨٤، مورد اللطافة ص ٤٤، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٠، فوات الوفيات ٢/ ٢٦٣، الدرر الكامنة ٤/ ١٤٤، السلوك ١/ ٨٧٢ و ٢/ ٧٣، الأعلام ٧/ ١١ .

(١) فى نزهة الأساطين ص ٨٥ «حادى عشر» .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٨٩، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٥٥، بدائع الزهور ١/ ١٣٣، السلوك ١/ ٨٠٦ و٨٢٠ و٨٢٦، فوات الوفيات ٢/ ١٣٨، الأعلام ٥/ ٢١٩، الجوهر الثمين ٢/ ١٢٠ .

(٣) فى الجوهر الثمين لابن دقماق ٢/ ١٢٠ «سنة وأحد عشر شهرًا وعشرين يومًا» وفى نزهة الأساطين ص ٨٩ - ٩٠ «سنتين وسبعة عشر يومًا» .

(٤) ينظر ترجمته فى: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٨/ ٨٥، الجوهر الثمين ٢/ ١٢٢، العبر ٥/ ٣٨٠ وما بعدها، البداية والنهاية ١٤/ ٣، السلوك ١/ ٨٥٠ وما بعدها، بدائع الزهور ١/ ٣٩٥ وما بعدها، نزهة الأساطين ص ٩١ - ٩٢، تذكرة النبيه ١/ ١٩٥، كنز الدرر ٨/ ٣٨٠، مورد اللطافة ص ٤٩، الأعلام ٥/ ٢٣٨ .

(٥) فى الجوهر الثمين لابن دقماق ٢/ ١٢٦ «كانت دولته سنتين وثلاثة أشهر» .

ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون

إلى السلطنة ثانيًا[١]، وفيه يقول الوداعى : [من السريع]

أَلْمَلِكُ النَّاصِرُ قَدْ أَقْبَلَتْ دَوْلَتُهُ مُشْرِقَةَ الشَّمْسِ
عَادَ إِلَىٰ كُرْسِيِّهِ مِثْلَ مَا عَادَ سُلَيْمَانُ إِلَى الكُرْسِي

واستمر إلى أن تجهز لقتال التتار، فانكسر فرجع إلى مصر، ثم تجهز للقائهم أيضًا فكسرهم وهزمهم، ونصر الله الإسلام وأهله، ثم عاد إلى مصر فتنكر عليه صاحب « سلال » وأستاداره بيبرس الجاشنكير، ودام ذلك التكدر بينهم إلى أن أظهر في رمضان سنة ثمان وسبعمائة التوجُّه إلى الحجاز، وخرج من القاهرة، وتوجه إلى « الكرك » متبرمًا منهما، وأعرض عن ملك مصر، فروجع في ذلك فأبى، فكانت مدته عشرين سنة، فاتفق الأمراء على سلطنة بيبرس الجاشنكير وسلطنوه، فتسلطن:

بيبرس الجاشنكير[٢]

ولقبوه بالملك المظفر. تسلطن عام ثمان وسبعمائة بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون، وعيب به في الإرسال إلى الكرك، وتطلب الأموال منه، حتى إن الناصر تأدب معه في المكاتبات وكتب له الملك المظفر وهو لم يرجع عنه، فلما زاد عليه تحرك عليه، وكانت مماليك أبيه النواب بالديار الشامية كلهم معه - ما عدا الأفرم فإنه كان من أعوان الجاشنكير - فأجابوه بالسمع والطاعة، فتوجه إلى الجاشنكير المذكور فجبن عن لقائه لتغير مماليكه وجماعته عليه، ثم تسحب من قلعة الجبل والعامة من خلفه تؤذيه وتريد به شرًا حتى شغلهم بنثر الذهب عليهم، وتوجه هاربًا إلى الصعيد واستولى الناصر على البلد، ثم احتال على قبضه وإحضاره فخنقه بالوتر ثم أطلقه وسمه، ثم خنقه ثانيًا هكذا، إلى أن مات في شوال سنة تسع وسبعمائة،

---

(١) عاد إلى السلطة للمرة الثانية فى يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة، ثم خلع فى سنة ثمان وسبعمائة . ينظر: نزهة الأساطين ص ٨٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ١٣٩، خطط المقريزى ٢/ ٤١٧، نزهة الأساطين ص ٩٣، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٣٢ - ٢٧٦، السلوك ٢/ ٤٥ - ٧١ ثم ٨٠، الأعلام ٢/ ٧٩ - ٨٠، الوافى بالوفيات ١٠/ ٣٤٨ .

فكانت مدة دولته سنة[١]، وفي ذلك يقول بعضهم: [من الوافر]

تَثَنَّى عطْفُ مصر حِينَ وافى قدومُ النَّاصر المَلِكِ الخَبِيرِ

فَذَلَّ الجَشْنَكِير بِلاَ لِقَاءٍ وأَصْبَحَ وَهُوَ ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ

إذا لَمْ تنضد الأقدار شَخْصًا فأَوَّلُ مَا يُرَاعُ مِنَ النَّصِيرِ

وهو الذي بنى « البيبرسية »[٢] بالدرب الأصفر.

وهذه هي المرة الثالثة[٣] لعود السلطان الناصر محمد إلى الملك، فدام في السلطنة ثلاثة وثلاثين عامًا بعد بيبرس المذكور، وعظم أمره جدًّا وعمر العمائر الهائلة، حتى إنه صار أجل سلاطين مصر من جميع الوجوه، واستمر إلى أن مات يوم الأربعاء عشري ذي الحجة الحرام سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وتسلطن من ولده لصلبه ثمانية نفر، وكانت مدة ولايته في المرات الثلاث أربعًا وأربعين سنة وخمسة عشر يومًا.

ثم تولى الأشرف على كجك بن محمد الناصر بن قلاوون[٤]

تسلطن بعد قتل أخيه، وكان قوصون إذا حضرت العلامة يأخذ القلم بيده، ويجعله في يد الأشرف حتى يعلم على المناشير، واضطربت الأحوال ووقع التعصب على قوصون في الخاصة والعامة؛ لقبح سيرته معهم، فقتلوه ونهبوا داره وخلعوا كجك في يوم الإثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بأخيه أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون، وحبس كجك بقلعة الجبل إلى أن مات في سلطنة أخيه الآخر، وهو الملك الكامل سنة ست وأربعين وسبعمائة.

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ٩٤ «كانت مدته أحد عشر شهرًا» .

(٢) وهى الخانقاه البيبرسية: بناها قبل أن يلى السلطة سنة ست وسبعمائة للهجرة واكتملت فى السنة التالية لها . راجع بشأنها: خطط المقريزى ٢/٤١٦ - ٤١٨ .

(٣) كان ذلك فى يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع وسبعمائة . ينظر نزهة الأساطين ص ٨٧ .

(٤) تولى «كجك» السلطنة بعد خلع أخيه المنصور أبى بكر محمد بن قلاوون - الذى تولى فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وخُلع فى شهر صفر سنة اثنين وأربعين وسبعمائة فكانت مدة شهرين - وهذا ما لم يذكره مؤرخنا .

ينظر ترجمة الأشرف كجك فى: نزهة الأساطين ص ٩٦، بدائع الزهور ١/٤٩١، الخطط ٢/٢٣٩، النجوم الزاهرة ١٠/٢١، السلوك ٢/٥٧١، الجوهر الثمين ٢/١٧٨، تاريخ الملك الناصر للشجاعى ص ١٩١، الدرر الكامنة ٣/٢٦٥، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٢-١٩٤، الأعلام ٥/٢٢٠ .

ثم تولى الملك الناصر أحمد بن قلاوون[١]

تسلطن بعد خلع أخيه كجك[٢]، واستمر إلى أن اختار ترك ملك مصر، وعاد إلى الكرك وأخذ الأموال والذخائر بعد أن ظلم وتعسف، فطلبوه للملك مرارًا وهو ممتنع متعذر، وترد أجوبته بخط كاتب نصراني كان مقربًا عنده، فخلعوه بأخيه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وأجلس على تخت الملك يوم الخميس ثاني عشر محرم الحرام سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت مدته دون الأربعة أشهر، فجهز إليه أخوه الملك الصالح الجيوش مرة بعد أخرى، وحاصره بالكرك فلم يقدر الناصر أحمد على مقاومة الناصر إلى أن تلاشى أمر الناصر وهلك أهل الكرك من الجوع، وهو مع ذلك لا يمل ولا يكل من القتال والحصار، إلى أن قبض عليه يوم الإثنين وقت الظهر ثاني عشر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكتب بذلك إلى أخيه، فأرسل الملك منجك اليوسفي فحز رأسه، وتوجه به إليه إلى القاهرة.

ثم تولى الملك الصالح إسماعيل المذكور ابن محمد قلاوون[٣]

تسلطن بعد توجه أخيه إلى الكرك، واستمر إلى أن مات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وشهرًا وثمانية عشر يومًا. ورثاه الصفدي[٤] بقوله: [من الطويل]

مَضَى الصَّالحُ المَرْجو للبأْسِ والنَّدَىٰ ... وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى المُنَىٰ بالمَنَائِحِ
فَيا لَكَ مِصْر كَيْفَ حَالُكِ بَعْدَهُ ... إذا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكِ بصَالِحِ ؟!

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص٩٧، تاريخ الملك الناصر ص ٢٠٤، الجوهر الثمين ٢/ ١٧٩، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٥٩٣، النجوم الزاهرة ١٠/ ٦٠، بدائع الزهور ١/ ٤٩٥، المنهل الصافى ٢/ ١٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٣ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢١٣، الأعلام ١/ ٢٢٣ .

(٢) أشار ابن إياس في (بدائع الزهور ١/ ٤٩١) إلى أن «كجك» لفظ أعجمى معناه بالعربية: «صغير» وقد تنبأ والده بأنه سيلى بعده الملك وهو صغير، والملوك لهم فراسة فى الأمور .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٩٨، تاريخ الملك الناصر ص ٢٣١، الوافى بالوفيات ٩/ ٢١٩، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٦١٩، المنهل الصافى ٢/ ١٦٣ و٤٢٦، النجوم الزاهرة ١٠/ ٧٨، الجوهر الثمين ٢/ ١٨٢، الدرر الكامنة ١/ ٣٨٠، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢ - ٢١٦، بدائع الزهور ١/ ١٨١، الأعلام ١/ ٣٢٤ .

(٤) الوافى بالوفيات ٩/ ٢٢٠ .

ثم تولى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون(١)

تسلطن بعد موت أخيه الملك الصالح بعهد منه إليه بعد اختلاف من الأمراء في إقامته وإقامة أخيه حاجي، فاتفقوا عليه، وقال الأمير نائب السلطنة: بشرط أن لا يلعب بالحمام، فنقم عليه شعبان بعد أن تسلطن، وأخرجه إلى نيابة « صفد »، وكان جلوس الملك الكامل على سرير الملك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، فقال فيه ابن نباتة المصري : [من مخلع البسيط]

شَعْبَانُ سُلْطَانُنَا المُرَجىٰ مُبَارَكُ الطَّالِعِ البَدِيعِ
يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ إذْ تَبَدَّىٰ هِلالُ شَعْبَانَ في رَبِيعِ

واستمر إلى أن خلعه الأمراء يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة بأخيه حاجي، فكانت مدته سنة واحدة وسبعة عشر يومًا(٢).

قال الصفدي(٣): حكى لي سيف الدين داود بن أرغون شاه قال: مَدَدْنا السماط على أن يأكل الملك الكامل، وجهزنا طعام حاجي إليه في السجن، فخرج حاجي وأكل على السماط ودخل الكامل السجن، وأكل الطعام الذي كان لحاجي، وقلت في واقعته: [من السريع]

بيتُ قَلاوُون مُعَادَاتُهُ في عاجِلٍ كانَتْ بلا آجلِ
حلَّ عَلَىٰ أَمْلاكِهِ للردى دَيْنٌ قَدِ اسْتَوْفَاهُ بالكَامِلِ

وقتل الكامل يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ثم تولى حاجي(٤)

ويقال : أمير الحاج ولقب بالملك المظفر. تسلطن بعد خلع أخيه الملك الكامل كما تقدم، واستمر إلى أن وقع بينه وبين الأمراء أشد المنافرة، وتفرقت عنه قلوب الناس، فخرج الأمراء بمن معهم إلى قبة النصر، فركب المظفر ومن معه إليهم،

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٩٩، الجوهر الثمين ٢/ ١٨٥، السلوك ٢/ ٦٨٠، النجوم الزاهرة ١٠/ ١١٦، الخطط ٢/ ٢٤٠، بدائع الزهور ١/ ١٨٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢١٦ - ٢١٩، الدرر الكامنة ٢/ ١٩١، شذرات الذهب ٦/ ١٥٠، الأعلام ٣/ ١٦٤، الوافى بالوفيات ١٦/ ١٥٣ .

(٢) فى السلوك ٢/ ٧١٣، والنجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٠ «أن مدته سنة وثمانية وخمسين يومًا» .

(٣) ينظر: الوافى بالوفيات ١٦/ ١٥٥ .

(٤) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٠، الدرر الكامنة ٢/ ٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢١٩، =

فتفرق عنه أصحابه، فالتقاهم هو بنفسه فطعنه أمير يلبغا أمير مجلس فطرحه عن فرسه، وضربه الأمير طال برقه بالطبر من خلفه فجرح وجهه وأصابعه، ثم ربطوه وأحضروه إلى الأمير أرقطاي النائب ليقتله، فلما رآه نزل عن فرسه ورمى عليه قباءه وقال: أعوذ بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله، خذوه إلى القلعة، فأدخلوه إلى تربة هناك وقضى الله أمره فيه، وذلك في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته سنة وثمانية أشهر واثني عشر يومًا[1]، وكان أكبر أسباب عزله لعبه بالحمام، فقال الصفدي[2] رحمه الله تعالى في ذلك: [من الخفيف]

أيُّهَا العَالِمُ اللَّبِيبُ تَفكَّرْ ... في المَلِيكِ المُظَفَّرِ الضرْغَامِ
كَمْ تَمادَىٰ فِي البغْيِ والغيِّ حَتىٰ ... كَانَ لعْبُ الحَمَامِ جِدَّ الحِمَامِ

ثم تولى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون[3] من أولاد الناصر محمد بن قلاوون

تسلطن بعد أخيه قبله، وكان اسمه قمارى، فلما جلس على سرير الملك سماه النائب قمارى، فقال له السلطان: يا عم ما اسمي إلا حسن، ما أنا مملوك، فقال النائب: المرسوم مرسومك يا خوند. واستمر في الملك إلى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، فوقعت بينه وبين الأمير طاز الناصري وحشة، فقام طاز في خلعه وسلطنة أخيه صالح فتم له ذلك، فَأُخِذَ السلطان حسن، وحبس بالدور من قلعة الجبل بعد أن خلع نفسه، وذلك في أوائل رجب من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكانت

= بدائع الزهور ١/ ١٨٧، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٨ - ١٧٤، الأعلام ٢/ ١٥٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، الوافى بالوفيات ١١/ ٢٣٧، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٨، الشذرات ٦/ ١٥٢، البدر الطالع ١/ ١٨٧ .

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٠٠ «أن مدته - كانت - سنة ونحوًا من أربعة شهور» أما فى السلوك للمقريزى ٢/ ٧٧٤ «فمدته - كانت - سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يومًا» .

(٢) ينظر الوافى بالوفيات (١١/ ٢٤٠) .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠١، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨، العقد الثمين ٤/ ١٨٠، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٤، الوافى بالوفيات ١٢/ ٢٦٦، الجوهر الثمين ٢/ ١٩٥، الخطط ٢/ ٢٤٠، بدائع الزهور ١/ ١٩٠ و٢٠٢، الأعلام ٢/ ٢١٦، السلوك ٢/ ٧٤٥ .

مدته ثلاث سنين وتسعة أشهر[(١)].

ثم تولى الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون[(٢)]

تسلطن بعد أخيه حسن، وصار مدبر مملكته الأمير أق طاز، وليس للصالح فيها إلا الاسم فقط، إلى أن أخرج طاز الأمير شيخو اللال العمري الناصري من سجن الإسكندرية فبقي أمر المملكة إلى ثلاثة: شيخو أتابك العساكر، وهو أول من سمى بالأمير الكبير، ولبس لها خلعة فصارت الأتابكية وظيفة من يومئذ، والأمير طاز أمير مجلس[(٣)]، والأمير صرغتمش رأس نوبة النوب، ونائب السلطنة إذ ذاك الأمير صلاي.

واستمر الصالح إلى أن خلعه شيخو من السلطنة وأعاد حسن في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدة الصالح ثلاث سنين وثلاثة أشهر[(٤)]، واحتفظ عليه بداره إلى أن توفى في ذي الحجة الحرام سنة إحدى وستين وسبعمائة.

وتولى أمر السلطان حسن وعظم شأنه إلى أن وقع بينه وبين غلامه مملوك يلبغا العمري، فتحاربا فانكسر حسن إلى القلعة، فتبعه يلبغا فهيأ السلطان مماليكه للقتال فلم يجد لهم خيلا لأن الخيل كانت في الربيع، فَتَزَيَّا بغير زيه وهرب، فعرف وقبض عليه ولم يعلم ما وقع له، وكانت مدته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر.

والسلطان حسن هذا هو الذي بنى المدرسة التي بالرميلة بمصر، وهي من أحسن المدارس عالية البناء واسعة الفناء، ثم عمر لها عمارة بأربعة رءوس، وقد وصفها

---

(١) يشير مؤرخنا هنا إلى الفترة الأولى للسلطان حسن بن محمد بن قلاوون حيث إنه - نتيجة للخلاف بينه وبين الأمير طاز الناصرى - خلع وتولى أخوه الملك الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون . إلا أنه عاد للسلطنة للمرة الثانية سنة خمس وخمسين وسبعمائة . ينظر: نزهة الأساطين ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٤، الجوهر الثمين ٢/ ١٩٩، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٨٤٣، النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٥٤، بدائع الزهور ١/ ١٩٤، البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٩ - ٢٥١، الدرر الكامنة ٢/ ٢٠٣، الأعلام ٣/ ١٩٥، الوافى بالوفيات ١٦/ ٢٧٠ .

(٣) أمير مجلس: هو الذى يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدًا . ومن عمله أيضًا أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب وغيره .
ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨)، و (٥/ ٤٥٥) .

(٤) فى نزهة الأساطين: أن مدته . . ثلاث سنين وأربعة أشهر . ص ١٠٥ .

المؤرخون وصفًا عجيبًا[١].

وقصة السلطان حسن مع الشيخ العلامة قوام الدين الأتقاني حين قال له السلطان: ما الفرق بينك وبين الحمار ؟ فأجاب بقوله: هذه الوسادة، وقد كانت بينهما.

وفي أيام السلطان حسن بنى شيخو جامعه، وخانقاءه، وبنى صرغتمش مدرسة، وقرر الشيخ قوام الدين في تدريسها، وكانت مدة تصرف السلطان حسن أولاً وثانيًا عشر سنين وأربعة أشهر، ثم قتل بيد مملوكه يلبغا سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

ثم تولى محمد ابن الملك المظفر حاجي[٢]

ويقال : أمير الحاج بن محمد بن قلاوون وتلقب بالملك المنصور، بويع بعد قتل عمه حسن في العام المذكور، فأقام سنتين وخمسة أشهر، ثم خلع فأقام بالقلعة محبوسًا إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ثم تولى الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون[٣]

ولقب بالملك الأشرف بعد ابن عمه قبله، إلا أن الأمور كلها بيد يلبغا، وشاركه في ذلك طنبغا الطويل، فما زال يلبغا وطنبغا حتى ظفر به وقبض عليه وظلم، فاتفق المماليك على قتله ففر، فاشتجاشوا بالسلطان شعبان عليه فوافقهم ونزل إلى بولاق وسلطن يلبغا أيزك بن حسن أخا شعبان فلم يتم له ذلك، ثم انهزم يلبغا فقتل، فأقام شعبان في الأتابكية بعده استدمر، وخلع عليه فأراد استدمر أن يحذو حذو يلبغا في مشاركه السلطنة بعد أن سكن بالكبش فلم يوافقه شعبان على شيء من ذلك، فأراد استدمر خلع شعبان وركب عليه، فانكسر استدمر ومسك وحبس، وفي ذلك يقول

(١) من ذلك قول المقريزى فى الخطط (٢/ ٣١٦ - ٣٢٠) أنه لم يبن فى الإسلام نظيرها، ولا حكاها معمار فى حسن عملها، وينظر أيضًا: النجوم الزاهرة ١٠/ ٣٠٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٦، الجوهر الثمين ٢/ ٢١٦، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٦٥، النجوم الزاهرة ١١/ ٣، بدائع الزهور ١/ ٢١١ و٢١٢، البداية والنهاية ١٤/ ٣١٨، الأعلام ٦/ ٧٥ .

ويعتبر المنصور محمد بن حاجى بن محمد بن قلاوون هو أول من تسلطن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٨، بدائع الزهور ١/ ٢١٢، حسن المحاضرة ٢/ ١٠٤، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، البداية والنهاية ١٤/ ٣٤٤، الأعلام ٣/ ١٦٣ - ١٦٤، السلوك ٣/ ٨٣، الجوهر الثمين ٢/ ٢٤٠، الخطط ٢/ ٢٤٠، النجوم الزاهرة ١١/ ٦٧، إنباء الغمر ١/ ١٠٣ - ١٠٤ .

ابن العطار الشاعر: [من البسيط]

هِلاَلُ شَعْبَانَ جَهْرًا لاَحَ فِي صَفَرٍ ... بالنَّصْرِ حَتَىٰ أَرَىٰ عِيدًا لشَعْبَانِ

وأَهْلُ كَبْشٍ كَأَهْلِ الفِيلِ قَدْ أُخِذُوا ... رَجْمًا ومَا انْتَطَحَتْ في الكَبْشِ عنزانِ

واستمر شعبان عظيم الشوكة إلى أن توجه للحج سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وأقام جماعة في تدبير المملكة فاختلفوا عليه، وخلعوه في غيبته، وسلطنوا ولده عليًّا وزعموا أن شعبان بالعقبة، وصادف قولهم هذا أن الأمراء الذين معه خرجوا عليه بعقبة أيلة، وانهزم معهم وعاد إلى القاهرة واختفى في تربة عند قبة النصر، فبلغ الأمراء الذين عصوه فأمسكوا غلامًا كان معه وضربوه فأقر، فتوجهوا إليه وقتلوه، وقتلوا من معه من الأمراء، وكان قتله ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة[1].

قلت: ومن خيراته بناء منارة « الحزورة »، كما ذكره القطب وغيره، والعمود المنقور عليه اسمه كان قريبًا منها .

فلما وقع الحريق بالمسجد -وعمّر ذلك الجانب فرج بن برقوق ثاني ملوك الشراكسة- نقل لا عن قصد، ووضع تحت منارة باب بنى سهم المعروف بباب العمرة، فيظن الرائي ذلك التاريخ في العمود أن الإشارة فيه إليها لقرب مكانه منها، وإنما هو لمنارة الحزورة وهي مؤرخة بعام اثنين وسبعين وسبعمائة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أحدثت العلامة الشطفة الخضراء على عمائم الشرفاء ليتميزوا بها، وكان ذلك بأمر هذا السلطان شعبان بن حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون المذكور، فقال في ذلك العلامة أبو عبد الله بن جابر الضرير النحوي صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير رحمه الله تعالى: [من الكامل]

جَعَلوا لأَبْنَاءِ النَّبِيِّ عَلاَمَةً ... إنَّ العَلاَمَةَ شَأْنُ مَنْ لَمْ يشْهَر

نُورُ النُّبُوَّةِ فِي كَرِيم وُجُوهِهِمْ ... يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطِّرَازِ الأَخْضَرِ

وفي هذه السنة كان ابتداء خروج الطاغية تيمورلنك، الذي خرب البلاد وأباد العباد، فكان تاريخ خروجه عذاب وذلك سنة ٧٧٣، واستمر يعثو في الأرض بالفساد إلى أن أهلكه الله في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة،

(١) فى نزهة الأساطين ص (١٠٩) «أنه مات مقتولاً فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة» .

وسيأتي ذكره عند ذكر ملوك آل عثمان في الباب السابع إن شاء الله تعالى.

ثم تولى بعده ولده على بن الأشرف شعبان[١]

وتلقب بالملك المنصور في عام السبع والسبعين والسبعمائة المذكور

تسلطن بعد والده وهو ابن سبع سنين، واستمر إلى أن مات في يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، وكانت مدته خمسة أعوام وخمسة أشهر[٢] وله من العمر ثلاثة عشر عامًا.

ثم تولى أخوه حاجي بن شعبان الأشرف[٣]

وتلقب بالملك الصالح بعد موته في عام ثلاث وثمانين، فدام سلطانه عامًا كاملاً وأشهرًا[٤]، وكان سنه ست سنين والكلام لبرقوق، ثم خلعه برقوق بعد إلزام له من الأمراء لما وقع من الفتن، وتسلطن برقوق يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين، ثم إن برقوقا جعل حاجي بن الأشرف شعبان بعد خلعه في قلعة الجبل كما هي عادة أولاد السلاطين، فاستمر إلى سنة خمس وثمانين، فثار على برقوق يلبغا الناصري فخلعه، وأعاد حاجي إلى الملك، فتسلطن ثانيًا[٥]، واستمر إلى أن حف به منطاش، واستعان به على حرب برقوق بعد أن أطلق من حبس الكرك، فتوجه حاجي معه لقتال برقوق، فانتصر عليهما ومعهما الخليفة العباسي، فقتل منطاش، وأمسك حاجي إلى أن دخل به إلى القلعة بمصر، وفرش له الحرير ليمشي عليه فعزل نفسه، ثم جعله بداره بقلعة الجبل مبجلاً إلى أن مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة، فكانت مدته الثانية هذه سبعة أعوام ونحو ستة

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١١٠، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٢٨٤، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٦٠، إنباء الغمر ١/ ٢٣٢، الدليل الشافى ١/ ٤٥٧، ابن إياس ١/ ٢٣٨، الأعلام ٤/ ٢٩٣.
وهو أول سلطان من أولاد أولاد أولاد الناصر محمد بن قلاوون.

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١١٠ أن مدته كانت «خمس سنين وثلاثة أشهر وخمسة عشر يومًا».

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص١١١، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٤٣٩، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٦، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٨٦، إنباء الغمر ١/ ٢٥٧، الجوهر الثمين ٢/ ٢٥٩، ابن إياس ١/ ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٧٤، الأعلام ٢/ ١٣.

(٤) فى الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠ «فكانت مدته سنة وشهرين ينقصان أربعة أيام».

(٥) كان ذلك - كما أشار ابن دقماق - «يوم الثلاثاء، سادس جمادى الآخرة، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة للهجرة» ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٢٧٣.

عشر يومًا.

وبعزل الصالح نفسه كما ذكر انقضت الدولة التركية، وأقبلت الدولة الشركسية وكانت مدتهم مائة وأربعًا وثلاثين سنة، وعدة ملوكهم خمسة وعشرين ملكًا، والملك لله الذي لا يزول ملكه ولا يتحول .

* * *

الباب السادس
في ذكر الدولة الشركسية[١] بمصر والشام وأعمالهما

اعلم أن الشراكسة جنس من الترك في جنوب الأرض لهم مدائن عامرة، ولهم جمال ومزارع يرعون ويزرعون، وهم تابعون لسلطان سراي قاعدة ملك « خوارزم »، وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية يقاتلونهم، ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى أطراف البلاد والأقاليم، وكان الملك المنصور قلاوون الذي هو من ملوك الأتراك صاحب مصر قد استكثر من شراء المماليك الشركسية وكذلك أولاده وأولادهم، وأدخلوهم في الخدم الخاصة وصاروا سلحدارية وجمدارية وجاشنكيرية، وكبروا عمائهم وسلكوا طرائق أستاذيهم ملوك الترك وأدخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستكثروا من جنسهم وعملوا قواعد انتظمت بها دولتهم وولي منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكا.

وكان ابتداء ملكهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ومدة ملكهم مائة وثمانية وثلاثون سنة. فأولهم:

السلطان الملك الظاهر سيف الدين[٢]
أبو سعيد برقوق بن آنص العثماني. كذا ذكره المقريزي[٣] في خططه

قام بدولة الشراكسة، جلبه عثمان بن مسافر فلذلك يقال له : برقوق العثماني، فاشتراه الأتابك يلبغا العمري، وهو من جملة الأتراك الذين مسهم الرق مماليك بنى أيوب، وإنما سمى برقوق؛ لجحوظٍ في عينيه، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار أمير

(١) سُميت دولة الشراكسة أو «الجراكسة» بهذا الاسم لأن مؤسسها الأمير «برقوق» من أصل جركسى، وجميع سلاطينها من أصل جركسى ما عدا اثنين هما «خشقدم» و «تمربغا» كانا من أصل يونانى . ينظر: العصر المماليكى فى مصر والشام د . سعيد عاشور ص ١٥١ وما بعدها، «الدولة المملوكية الثانية» د . محمد مصطفى زيادة، قيام دولة المماليك الثانية د . حكيم أمين عبد السيد، الحركة العلمية فى دولة المماليك الجراكسة د . محمد كمال الدين عز الدين، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤١، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٢١، نزهة الأساطين ص ١١٥ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١١٥، الجوهر الثمين ٢/ ٢٦١، الخطط ٢/ ٢٤١، السلوك ٣/ ٤٧٧، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٨٦، إنباء الغمر ٢/ ٦٦، الدليل الشافى ١/ ١٨٨، المنهل الصافى ٣/ ٢٨٧، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٢١، الضوء اللامع ٣/ ١١، بدائع الزهور ١/ ٢٥٨ و٢٩٠، الأعلام ٢/ ٤٨، ديوان الإسلام ١/ ٢٠٢، درة الحجال (ت ٣١٤) .

(٣) ينظر الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤١ .

مائة مقدم ألف، وكان أتابكًا للملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن محمد قلاوون، وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك مماليك الأيوبية المتغلبين عليهم، وكان إذ ذاك سن الملك الصالح حاجي لما ولى السلطنة عشرة أعوام، وليس له من السلطنة إلا الاسم، فألزم الأمراء برقوق بخلع الملك الصالح حاجي وبتوليته السلطنة بدله، فخلع بعد سنة ونصف كما تقدم، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة.

وكان برقوق متمكنًا من المملكة جمع الأموال والخزائن، واشترى المماليك الشركسية، فتمكنت من الملك، وتلاعبت بعده المماليك الشركسية بملك مصر، وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلب والاستيلاء، وكانت تقع بينهم فتن وجدال وجلاد، وقتل نفوس، وحرب بسوس، وخوف وبؤس، إلى أن يستقر الأمر لواحد منهم فيركب في شعار السلطنة.

وكان من شعار سلاطينهم عمامة كبيرة ملفوفة مكلفة يجعلون في مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش، يلبسها السلطان في موكبه وديوانه وذلك عرف لهم، والعرف يحسن ويقبح، ويلبس قفطانًا يكون على كتفه قطعة طراز مزركش بالذهب ومثله على كتفه الأيسر.

ويلبسه الأمراء أيضًا، فليس مخصوصًا بالسلطان، ويخلع بمثل هذا القفطان على من أراد، وتحمل على رأس السلطان قبة صغيرة لطيفة كالجسر في وسطها صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة، والذي يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانًا بعد ذلك.

وأكابر أمرائه أربعة وعشرون أميرًا بطبلخانة[١] تضرب على أبوابهم صبحًا وعصرًا

(١) أمراء الطبلخانة: تدل هذه التسمية على أنه كان عملهم دق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية فى المواكب الرسمية أو فى الأمور الهامة . وهذا التميز للقواد بدق الطبل تشريفًا لهم، عرف من قبل فى العراق زمن البويهيين، فهم بمثابة أصحاب القضب فى عهد الفاطميين، وسموا بذلك لحملهم القضب فى أيديهم . وقد سمى أمراء الطبلخانات بعدد المماليك الذين يملكونهم – وهم أقل مما يملكه أمراء المئين – فسموا بأمراء ثمانين وسبعين، وأقلهم أمراء أربعين، فهذا الرقم هو أدناها . ومع أن المؤرخين لا يذكرون عدد الجنود تحت قيادتهم إلا أنه ولا ريب كانت تحت أيديهم أجناد أقل فى العدد من الأجناد، التى تحت قيادة أمراء الألوف . وعلى هذا فأمراء الطبلخانات كانوا تحت قيادة أمراء الألوف . وقد كان عدد =

كل واحد منهم أمير بابه مقدم ألف بمنزلة البيكلاربيكية عندهم، ودونهم أمير عشرة[١] مقدم مائة بمنزلة السنجق[٢]، كل واحد منهم عمامته بقرنين فقط، ودونهم الخاصكية[٣] يكون له فرس، وخادم، وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعذبة يديرها تحت حنكه، ودونهم - وهم المشاة - على رءوسهم طواقٍ من جوخ أحمر ضيق مدخله واسع آخره لاطئ برأسه، وملبوسُ أكثرِهم اللطةُ البيضاء المصقولة يكون على كتفيه طرازان من مخمل وأطلس مزركش، وفي أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدونها ويسدلونها، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم، وكأن خيال السلطنة في دماغ كل واحد منهم من حين يُجلب إلى السوق إلى أن يموت.

حتى إن واحدًا منهم جلب، وهو حقير فاحش القرعة فاحش العرَج، قال للدلال الذي يبيعه: هل اتفق تولي الأقرع الأعرج سلطانًا في مصر ؟ وبالجملة فقد كانت

= أمراء الطبلخانات فى الجيش أو الوظائف أكثر من عدد أمراء الألوف، فهم أربعون أو ثلاثون أميرًا . ينظر: صبح الأعشى (٣/ ٤٨٠)، (٤/ ١٥ و ٦١)، النجوم الزاهرة (٦/ ٦٤٤) .

(١) أمراء العشرات أو العشراوات: تسمى وظيفتهم أمريات عشرة، ليس لهم الحق فى دق الطبول تشريفًا لهم، وكان لكل أمير من هؤلاء عشرة مماليك خاصة به، وقد يكون تحت إمرته أكثر كعشرين مثلاً: فيسمون أمراء العشرينات أو أقل مثل خمسة، فيسمون أمراء الخمسات أو الخمسوات . وهؤلاء الأمراء معظمهم من أبناء الأمراء المقدمين أو الطبلخانات تقديرًا لخدمات آبائهم . وقد وصل عددهم فى الجيش إلى عشرين أميرًا من أمراء العشرينات وخمسين من أمراء العشرات وثلاثين من الخمسوات . ولا ريب أن عدد الأجناد تحت قيادتهم أقل من عدد الأجناد تحت قيادة فئتى أمراء المماليك السابقين . ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٥)، والخطط (٣/ ٣٥٠)، وبدائع الزهور (٢/ ٢٥)، والسلوك (٢/ ٣١٤) .

(٢) السنجق: لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهى رايات صفر صغار يحملها السنجقدار . ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان فى المواكب زمن السلم بالسناجق فقط . أما مواكب الحرب فكان سير السلطان فيها بالأعلام، ومنها السناجق . ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقابه واسمه وتسمى العصابة ثم راية أخرى عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم. ينظر: صبح الأعشى (٤/٨) و (٥/ ٤٥٦ و٤٥٨) .

(٣) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ويسوقون المحمل الشريف ويتعينون بكوامل الكفال ويجهزون فى المهمات الشريفة والمتعينون للإمرة والمقربون فى المملكة، وكان عدتهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الملك الأشرف برسباى نحو ألف ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من لا وظيفة له . ينظر: زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهرى (ص ١١٦) .

لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه، وكانت أرزاق مصر بأيديهم، وأهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق.

ثم لما تسلطن برقوق استمر سلطانًا، وأنشأ المدرسة التي بمصر بين القصرين[(١)]، كان مشد عمارتها شركس الخليلي، فقيل في ذلك العمل: [من البسيط]

قَدْ أَنْشَأَ الظَّاهِرُ السُّلْطَان مَدْرَسَةً ... فَاقَتْ عَلَى إِرَم فِي سُرْعَةِ العَمَلِ
يَكْفِي الخَلِيلَ بِأَنْ جَاءَتْ لخدْمَته ... صمُّ الجِبَالِ لَها تَمشي عَلَىٰ عَجَلِ

فأقام سلطانًا إلى أن اختلف عليه الأمراء، فخرج عليه تمربغا الأفضلي ويلبغا العمري فجهَّز عليهما عساكر فكسر، وقوى أمرهما وملكا مصر، فإن برقوقًا عجز عن النهوض وقبض عليه، فأخرج حاجي من دور القلعة وأعيد إلى السلطنة، وحبس برقوق بالكرك ثم تسحب من الحبس، وجمع الجيوش، وقاتل وغلب على المملكة، وأعيد إلى السلطنة، وصار يتتبع أعداءه ومن خرج عليه، ويقدم من وافقه وحالفه إلى أن اصطفاهم وما صفا له الزمان، وظن أنه آمن وأين الأمان، وبرق برق الزيال على برقوق وشاهد الانفصال، فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج، وتوفى إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة واحد وثمانمائة، وفي ذلك يقول أحمد المقرى رحمه الله تعالى: [من الطويل]

مَضَى الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ أَكْرَمُ مَالِكٍ ... إِلَىٰ رَبِّهِ يَرْقَىٰ إِلَى الخُلْدِ فِي الدَّرَجْ
وقَالُوا سَتَأْتِي شِدَّةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ ... فَأَكْذَبَهُمْ رَبِّي وَمَا جا سِوَى فَرَجْ

وخلَّف برقوق من الذهب العين ألفي ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الخيل المسومة والبغال الفارهة ستة آلاف، ومن الجمال خمسة آلاف، وكان عليق دوابه كل شهر أحد عشر ألف أردب شعير وفول، وكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وأربعة أشهر[(٢)] .

---

(١) ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٢٦٥، السلوك ٣/ ٥٤٦، تاريخ قاضى شهبة ٣/ ١٨٣ - ١٨٥، إنباء الغمر ١/ ٣١٣، المنهل الصافى ٣/ ٢٨٨، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٤٠، الضوء اللامع ٣/ ١٢ .
(٢) فى نزهة الأساطين ص ١١٩ « ست عشرة سنة وأيامًا » .

ثم تولى ابنه الملك الناصر(١)

أبو السعادات فرج بن برقوق عند وفاة أبيه كما تقدم، صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة ثمانمائة وواحدة، وصار الأمير أيتمش مدبر مملكته، والأمير يشبك خازنداره، فوقعت بينهما منافرات أدت إلى مشاجرة، ثم إلى قتال، فانكسر أيتمش، فهرب إلى نائب الشام وجيش جيوشًا على الناصر ويشبك، فخرج الناصر لقتالهم فهزمهم، واضطربت أحوال مصر؛ لاختلاف الكلمة.

ثم وصل تيمورلنك إلى بلاد الشام، وأخذها من سردون الظاهري، فخرج إليه الناصر فرج فوجده قد توجه إلى بلاد الروم، فأعطى الشام لتغري بردي، وعاد إلى مصر سنة ثلاث وثمانمائة.

ومن خيرات فرج: تعميره المسجد الحرام من الحريق الواقع به ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة ثمانمائة واثنتين، وسببه ظهور نار من رباط راشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد في الجانب الغربي منه، وراشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي، وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة ٥٢٩ خمسمائة وتسع وعشرين، فوشت النار من سراج تركه في الخلوة، فاحترق ما في الخلوة وعلق الحريق من شباك الخلوة إلى سقف المسجد فاشتعل سقف المسجد، وعجزوا عن إطفائه، لارتفاع السقف فاحترقت الأروقة من ابتداء الحريق إلى باب العجلة، فأرسل فرج الأمير بيسق سنة ثمانمائة وثلاث إلى مكة، وكان هو أمير الحاج المصري، فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة، وكملت في أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة.

ومن جملة خيراته: أنه لما رأى رباط راشت وما آل إليه بعد الحريق من الخراب حتى صار سباطة بذلك المحل، أمر بإعادته رباطًا كما كان، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول، ويسمى هذا الرباط الآن رباط الخاص، سببه أنه استأجره وعمره بعد تهدمه في أواسط القرن العاشر، والخاص من طائفة المباشرين

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٠، الخطط ٢/ ٢٤١، إنباء الغمر ٢/ ٥٣٠، النجوم الزاهرة ١٢/ ١٦٨، السلوك ٣/ ٩٥٩، بدائع الزهور ١/ ٣١٧ و٣٥٠ و٣٥٤ - ٣٥٧، الضوء اللامع ٦/ ١٦٨، الأعلام ٥/ ١٤٠ .

في ديوان السلطان بمصر من خدمة السلطان جقمق العلائي ومن بعده، وكان هذا بيسق الأمير من أهل الخير رحمه الله.

ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية على فرج، إلى أن ضجر من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الإثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، فاختفى عند سعد الدين بن عرب أحد رءوس المباشرين فأخفاه عنده، فأصبح الأمراء فاقديه، فأقاموا في السلطنة أخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق[1]، فتلاشت أمور المملكة لصغر سنه واختلاف الأمراء عليه، فظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه أمراء من مماليك أبيه، فأخذ القلعة في جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وثمان ونفى أخويه عبد العزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية فتوفيا بها، واتهم فرج بقتلهما في سنة تسع وثمانمائة.

ثم صار الملك الناصر يتتبع أعداءه من الأمراء فيقتلهم واحدًا بعد واحد، فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته، وقاتلوه فهزمهم، وخرجوا إلى الشام فتبعهم وصاروا يمكرون به ويهربون عنه، ويتعبونه في طلبهم، إلى أن مل منه الخدم والأتباع فصادفوه في طلبهم بعد التعب والدأب، وهو ومن معه قد أتعبوا خيولهم في طلبهم من العشاء إلى الصباح وأشرفوا عليه. فحمل الناصر ومن معه وهم نفر قليل على أعدائه وهم متوفرون كثيرون، فمنعه أصحابه من هذه الحملة، وعلموا أنهم في قلة فلم يطعهم وأطاع غروره وجهله، واغتر بشجاعته وظن أن لا يقابله أحد، فدارت عليه الدوائر، فما كان للناصر من قوة ولا ناصر. فأُخِذَ وقيد، وحبس بقلعة دمشق إلى أن قتل بأيدي المشاعلية بالسكاكين في ليلة السبت منتصف صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة وألقي بعد هذه القتلة على سباطة مزبلة، وهو عريان عن اللباس تمر به الناس تنظر إلى ذلك البدن الممتهن والجسد العاري الممتحن، إلى أن عطف الله بعض الأنام بعد عدة أيام فحمله وغسله وكفنه وواراه في مقبرة باب الفراديس.

ووقع في أيام فرج بن برقوق المذكور أن سلطان كاله من سلاطين الهند وهو غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٣، النجوم الزاهرة ١٣/ ٤١، الضوء اللامع ٤/ ٢١٧، بدائع الزهور ١/ ٣٤٩ و٣٥١، الأعلام ٤/ ١٥ . وكانت مدته شهرين وعشرة أيام .

خادمه ياقوت الغياثي؛ ليتصدق بها على أهل الحرمين، ويعمر له بمكة مدرسة ورباطًا ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال البر كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خان جهان، فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا الشريف حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ مع هدايا جليلة إليه فقبلها وأن يفعل ما أمر به السلطان غياث الدين، لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه، ووزع الباقي على الفقهاء والعلماء والفقراء، فاشترى ياقوت الغياثي لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانئ، هدمهما وبناهما رباطًا ومدرسة، واشترى أصيلتين وأربع وجبات من ماء الريحاني، وجعلها وقفًا على المدرسة، وجعل لها أربعة مدرسين، واشترى دارًا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهبًا ووقفها على مصالح الرباط، وأخذ منه السيد حسن بن عجلان في الدارين اللتين بناهما رباطًا ومدرسة والأصيلتين والأربع وجبات من قرار عين الريحاني اثني عشر ألف مثقال ذهبًا، وأخذ منه مبلغًا لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه؛ لتعمير عين عرفة. فذكر مولانا أنه يصرف ذلك على عمارتها، فعين الشريف أحد قواده وهو الشهاب بركوت المكيني لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين وكانتا معطلتين فأصلحهما.

وكان خان جهان المذكور أرسل مع ياقوت الغياثي المذكور خادمًا له يسمى إقبال أرسله بصدقة أخرى من عنده لأهل المدينة، وجهز معه مالا يبنى له به مدرسة ورباطا وهدية لأمير المدينة يومئذ، وهو الأمير جماز الحسيني، فانكسرت السفينة التي بها الأموال بقرب جدة؛ فأخذ الشريف حسن ربع ما خرج من البحر على عادتهم في المكسر، وأخذ ما يتعلق بالأمير جماز؛ لأنه عصى وظهر منه شنائع في المدينة من أخذ مفتاح خزانة النبي ﷺ من قاضي المدينة جبرًا بعد إهانته، وهو القاضي زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغى، وضرب شيخ الخدام، وأخذ من خزانة النبي ﷺ إحدى عشرة خوشخانة وصندوقين كبيرين، وصندوقًا صغيرًا كلها ممهورة فيها ذهب مودعة لملوك العراق، وخمسة آلاف كفن أراده، وأخذ قناديل الذهب من الحجرة فمنعه الله ورجمته العامة، فهرب من المدينة الشريفة، وأخذه الله، ونهب العرب كل ما معه، فأرسل مولانا الشريف حسن بن عجلان إلى المدينة عسكرًا

وصلوا إليها بعد خراب البصرة، فولى عليها الشريف حسن بن عجلان غير الحسيني المذكور، وكل ذلك سنة إحدى عشرة وثمانمائة.

ولما قتل الناصر فرج ما أقدم أحد من الشراكسة على التلبس بالسلطنة خوفًا من مخاصمة العسكر.

ثم ولى الخليفة العباسي[(١)]

ولّوْه بالجبر، وهو المستعين بالله أبو الفضل العباسي المصري بعد تمنع شديد. وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ المحمودي، فاستمر المستعين بالله ستة أشهر وأيامًا[(٢)] وخلع، وكان استناب المؤيد شيخ، وشاركه في الخطبة والأمر للمؤيد.

ثم تولى الأمير شيخ المحمودي[(٣)]

وتلقب بالملك المؤيد في مستهل شعبان من السنة المذكورة سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزدي، فأعتقه فلذلك يقال له: المحمودي، ثم جعله أمير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف[(٤)] ثم ولى نيابة طرابلس فأسره تيمور لما أسر نواب البلاد الشامية، ثم هرب منه إلى أن آل أمره أن صار سلطانًا فخدم المستعين وعصى عليه

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٤، إنباء الغمر ٣/ ٤٤٥، الضوء اللامع ٤/ ١٩، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٩٠، السلوك ٤/ ٢١٤، الدليل الشافى ١/ ٢٠٦، بدائع الزهور ١/ ٣٥٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٤، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٢، التبر المسبوك ٢٥، الأعلام ٣/ ٢٦٥.

(٢) فى السلوك ٤/ ٢٤٤ «سبعة أشهر وخمسة أيام».

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣، إنباء الغمر ٣/ ٢٣٧، السلوك ٤/ ٢٤٣، النجوم الزاهرة ١٣/ ٢٠٩، الدليل الشافى ١/ ٣٤٧، بدائع الزهور ٢/ ٢، شذرات الذهب ٧/ ١٦٤، الضوء اللامع ٣/ ٣٠٨، الأعلام ٣/ ١٨٢.
بالإضافة إلى من تخصصوا فى كتابة سيرته كالبدر العينى الذى ألَّف سيرته فى كتاب أسماه «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد. شيخ المحمودى».

(٤) مقدم ألف (مقدمو ألوف): وظيفتهم تسمى تقدمة أو تقادم ألف أو ألوف أى تحت قيادتهم ألف من أمراء المئين - مفردها أمير مئين - أو ألوف من الجنود كما يسمون لأن الواحد منهم يملك مائة مملوك أو أكثر خاصة به، وقد وصل عدد هؤلاء الأمراء الكبار أربعة وعشرين، وإن نقص إلى الثمانية عشر أو العشرين، ولهم رئيس يسمى: رأس مقدمى الألوف.
ينظر: صبح الأعشى (٣/ ٤٥٠) و(٤/ ١٤).

نواب البلاد الشامية، فتوجه لقتالهم مرارًا كثيرة، وافتتح الشام وغيرها ثم عاد إلى مصر، وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يُحمل على الأكتاف ويركب المحفة، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا، وكانت أسواق ذوي الأدب نافقة عنده؛ لجودة فهمه وذوقه، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجلُّ قدرهم، وبنى مدرسته الموجودة[١] الآن فبدأ في عمارتها سنة سبع عشرة وثمانمائة وكان سنه عشرين سنة.

قلت: وهو الباني للجامع المشهور بجامع المؤيدية[٢] وبه المنارة التي توارد عليها شيخا الإسلام : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني الشافعي، والعلامة الإمام الهمام محمود العيني الحنفي، وذلك لما أن ظهر في المنارة اختلال بعد بنائها، فقال الحافظ المذكور هذين البيتين يعرض فيهما به في ستر التورية: [من الطويل]

لِجَامِعِ مَوْلَانَا المُؤَيّدِ بَهْجَةٌ   مَنَارَتُهُ بالحُسْنِ تَزْهُو وبالزَّيْنِ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَنِ القَصْدِ أَمْهِلُوا   فَلَيْسَ عَلَى جِسْمِي أَضَرُّ مِنَ العَيْنِ

فوصل خبر البيتين إلى الإمام العلامة محمود العيني، فقال في جوابهما معرضًا ستر التورية كذلك: [من البسيط]

مَنَارَةٌ كَعَرُوسِ الحُسْنِ إِذْ جُلِيَتْ   وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ والقَدَرِ
قَالُوا : أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ قُلْتُ : ذَا غَلَطٌ   مَا أَوْجَبَ الهَدْمَ إلاَّ خِسَّةُ الحَجَرِ

قال الحافظ ابن حجر: والبيتان قد عملهما له النواجي لا سامحه الله، سامح الله الجميع . ومن أعجب ما وقع له في أيامه أن جملاً لجمال يقال له : الفاروني يحمّله فوق طاقته فهرب أثناء جمادى الآخرة من تلك السنة، ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت، والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم ولا يمكن من نفسه، فتركوه حتى أتم ثلاثة أسابيع، ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله، ثم توجه إلى جهة مقام الحنفي، ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف، فبرك عنده وبكى، وألقى نفسه على الأرض ومات، فحمله الناس إلى بين الصفا والمروة، ودفنوه هناك.

---

(١) هى المدرسة المؤيدية تلك البناء العظيم الهائل الحافل بداخل باب زويلة . ينظر: نزهة الأساطين ص ١٢٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٢٨ - ٣٣٠ .

(٢) أشار إليه «السخاوى» فى الضوء اللامع ٣/ ١٠ بقوله: «لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة، ولا أحسن ترخيمًا بعد الجامع الأموى» .

وفي آخر سنة ثمان عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبرًا حسنًا إلى المسجد الحرام، ودرجة الكعبة، ووصل ذلك في موسم السنة المذكورة، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية يوم سابع ذي الحجة الحرام.

وكانت وفاة المؤيد شيخ المحمودي يوم الإثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر[(١)].

ثم تولى بعده ولده الملك المظفر[(٢)]

أبو السعادات أحمد بن المؤيد بعهد منه، وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

وصار مدبر مملكته الأمير ططر أمير مجلس أتابك العساكر، وخالف عليه أمير الشام ومن معه فتجهز ططر عليهم، ومعه الملك المظفر أحمد طفلا وقاتلهم وقتل كثيرًا منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر أحمد.

ثم تولى ططر[(٣)]

وتسلطن عوضه يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ورجع بالمظفر إلى مصر، واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية، فتوفى بها مطعونًا في السنة المذكورة، وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يومًا[(٤)]، ونقل إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويله، رحمه الله تعالى.

وكان ططر من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه، ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة[(٥)] ثم أمير مجلس، ثم تسلطن وتلقب بالملك الظاهر لقب

(١) فى الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣ «ثمان سنين، وخمسة شهور، وستة أيام».
(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٨، الضوء اللامع ١/ ٣١٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣، السلوك ٤/ ٥٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١١٠، بدائع الزهور ٢/ ١٠، الأعلام ١/ ١٣٧.
(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٩، الدليل الشافى ١/ ٣٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١٩٨، الضوء اللامع ٤/ ٨، بدائع الزهور ٢/ ١٣، إنباء الغمر ٣/ ٢٥٠، الخطط ٢/ ٢٤٣، السلوك ٤/ ٥٨٢، الأعلام ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧. بالإضافة إلى كتاب «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» للبدر العينى وهو كتاب أفرد لسيرته وأخباره.
(٤) فى خطط المقريزى أن مدته - المظفر أحمد - كانت ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام.
(٥) رأس نوبة: لصاحبها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. وفى هذه الوظيفة أربعة من الأمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخانات. ولكل أمير من أمراء المئين أو الطبلخاناة رأس نوبة. ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨ و٦٠).

أستاذه، ومهد الممالك وقبض على المخالفين عليه، وقرب المحالفين له.

وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان عشرين ألف دينار تحمل إليه من خزينة مصر كل عام، وجعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة، والفواكه والحبوب، وغيرها بمكة، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا، والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة إلى الآن في المسجد الحرام.

ثم توفي يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يومًا.

ثم تولى بعده ابنه الملك محمد بن الظاهر ططر(١)

وعمره نحو العشر سنوات .

وأتابكه ومدبر مملكته الأتابك جان بيك الصوفي إلى أن تغلب على الأتابك برسباي الدقماقي، فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية فصار أتابكا مكانه، واستبد بأمور الملك من غير مشارك، فخلع الملك الصالح يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، ومدة ملكه ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا(٢)، وعمره عشرون سنة، واستمر بعد الخلع عند والدته بالقلعة إلى أن توفي بالطاعون.

ثم تولى الملك الأشرف برسباي الدقماقي(٣)

اشتراه الأمير دقماق الظاهري نائب « ملطية » وقدمه إلى الظاهر برقوق هدية فأعتقه وقربه ورقاه إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف، واستمر إلى أن تسلطن بعد قبضه على محمد بن ططر.

ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس، وأسر ملكها في سنة تسع وعشرين

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٠، الخطط ٢/ ٢٤٤، السلوك ٤/ ٥٩٠، إنباء الغمر ٣/ ٢٧٠، الدليل الشافى ٢/ ٦٣٠، النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٠٨، بدائع الزهور ٢/ ١٣، الضوء اللامع ٧/ ٢٧٤، الأعلام ٦/ ١٧١ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٠: «كانت مدته أربعة شهور وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣١، السلوك ٤/ ٦٠٧، إنباء الغمر ٣/ ٢٧٠، الدليل الشافى ١/ ٢٨٦، المنهل الصافى ٣/ ٢٦٢، النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٤٢، الضوء اللامع ٣/ ٨، بدائع الزهور ٢/ ٨١، ديوان الإسلام ١/ ٢٠٢، الأعلام ٢/ ٤٨ .

وثمانمائة وهو في تخت مملكته لم يتحرك، وكان عاقلاً مدبرًا سيوسا محبا لجمع المال، اشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك شركسي، وفتح آمد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبنى مدرسته الأشرفية[١] التي أنشأها بمصر على رأس الوراقين، وعلق خوذة ملك آمد التي أخذها بعد قتله علقها بدهليز مدرسته بين البابين بسلسلة، وله خيرات كثيرة.

توفى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، ومدة ولايته ستة عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام[٢].

ثم تولى بعده ولده يوم موته[٣]

الملك العزيز يوسف بن برسباي وعمره أربعة عشر عامًا

وصار مدبر مملكته[٤] الأتابك جقمق العلائي[٥]، ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع العزيز بعد أن تسلطن نحوًا من ثلاثة أشهر وأربعة أيام، لم يكن له فيها سوى الاسم.

ثم ولي مكانه يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقب بالملك الظاهر -سيف الدين، وكني بأبي سعيد جقمق العلائي، وجلس على سرير المملكة، والعلائي نسبة إلى مشتريه علاء الدين فنسب إليه فقيل: العلائي، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل: الظاهري، وكان عند الظاهر

---

(١) هذه المدرسة كانت مدرسة وجامعًا فى آن واحد، وعمل فيها صوفية، ومدرس لكل من المذاهب الفقهية الأربعة. وهذه المدرسة ما تزال باقية حتى الآن. ينظر: إنباء الغمر ٣/ ٣٤٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١. سعاد ماهر. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٤/ ١٠٩ - ١١٧.

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٢ «كانت مدته ست عشرة سنة، وتسعة شهور، وعشرة أيام».

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٤، السلوك ٤/ ١٠٥٣، الدليل الشافى ٢/ ٧٩٩ - ٨٠٠، المنهل الصافى ٤/ ٢٨٣، الضوء اللامع ١٠/ ٣٠٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠٨، الشذرات ٧/ ٢٣٩ و٢٤٢ و٣٠٩، بدائع الزهور ٢/ ٢٣ و٢٥ - ٢٦، نظم العقيان ١٧٩، الأعلام ٨/ ٢٢١.

(٤) مدبر الملك: من ألقاب الوزراء. ينظر: صبح الأعشى (٦/ ٦٩).

(٥) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٤، السلوك ٤/ ١٠٨٦، الدليل الشافى ١/ ٢٤٦، المنهل الصافى ٤/ ٢٨٣، النجوم الزاهرة ١٥/ ٢٥٤، الضوء اللامع ٣/ ٧١، نظم العقيان ص ١٠٣، حوادث الدهور ١/ ٣٩٣، بدائع الزهور ٢/ ٢٤ و٣٤، الشذرات ٧/ ٢٩١، الأعلام ٢/ ١٣٢.

برقوق خاصكيًا، ثم صار في دولة الناصر فرج بن برقوف ساقيًا، ثم أمير عشرة مقدم مائة، ثم في دولة المؤيد خازندارًا[١]. ثم من مقدمي الألوف، ثم في الدولة الأشرفية حاجب الحجاب[٢]، ثم أمير آخور[٣] كبير، ثم أمير سلاح، ثم صار أتابكا إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماس، فقاتله وظفر به، وسجنه في الإسكندرية ثم قتله، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغري برمش، ثم أينال الحكمي نائب الشام، فجهز عليهما العساكر فقتلهما واحدًا بعد واحد، وبعد قتل هؤلاء صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطًا. وكان متواضعًا محبًّا للفقراء والعلماء والصالحين، يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم، عفيفًا عن المنكرات، طاهر الفم والذيل. لا يعلم من ملوك الشراكسة قبله ولا بعده أعف منه. وكان - على قاعدة الأتراك - الدعوى عنده لمن يسبق، يذاكر بمسائل فقهية، ويتعصب لمذهب الحنفية، وملك مصر نحو خمس عشرة سنة[٤].

ومن أول ما عمل في ولايته أن أرسل إلى شريف مكة الشريف بركات بن حسن ابن عجلان بخلَع ومراسيم، وأرسل إليه سودون المحمدي، ليكون أميرًا على خمسين فارسًا من الترك مقيمين بمكة.

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر أن الملك الظاهر جقمق زاد به المرض، فخلع نفسه من السلطنة يوم الخميس لسبع بقين من محرم السنة المذكورة

---

(١) الخازن: كاتب يتولى خزن الغلات وصرفها وعليه سداد ما يعجز من عهدته . وقد تضاف إليها اللفظ الفارسى «دار» فتكون: الخازندار، وهو الذى يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما وفى عهدته ما بها من أموال وغلال .
ينظر: صبح الأعشى (٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣)، قوانين الدواوين لابن مماتى (ص ٣٠٦) .

(٢) حاجب الحجاب: وظيفة حاجب الحجاب فى العصر المملوكى أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك . ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٩) و(٥/ ٤٤٩) .

(٣) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على إسطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإسطبلات . وهو مركب من لفظين وهو أمير والثانى فارس وهو آخور ومعناه المعلف، فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف لأنه المتولى لأمر الدواب . ينظر: صبح الأعشى (٥/ ٤٦١) .

(٤) فى نزهة الأساطين ص ١٣٥ «كانت مدته أربع عشرة سنة وعشرة شهور ويومين» .

ثم تولى بعده أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق[١]

ولقب بالملك المنصور، ورضي الناس به واطمأنوا، وسنه إذ ذاك دون العشرين، وركب في شعار السلطنة، وحمل الأتابك أينال العلائي أمير كبير القبة والطير على رأسه، وقد تقدم أن من قواعدهم أن لا يحملها إلا من يلي السلطنة بعد المتولي المحمولة له.

وجلس على تخت السلطنة في قلعة الجبل، وباشر الأمور إلى أن توفي والده بعد ولايته باثني عشر يومًا، فوقعت فتنة بين الأمراء، فخلع عثمان بن جقمق، فقاتل بعد الخلع قتالاً شديدًا، ثم حبس فتسحب من الحبس، فظفر به، وقبض عليه، وأرسل إلى سجن الإسكندرية، فسجن إلى سنة أربع وستين، فأطلقه السلطان خشقدم وأمر بإكرامه وهو بالإسكندرية. وكانت مدته نحو أربعين يومًا[٢].

ثم تولى الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال العلائي[٣]

يوم خلع عثمان صبيحة يوم الإثنين لثمان مضين من ربيع الأول من السنة المذكورة، وأينال مملوك لبرقوق اشتراه، ثم أعتقه ابنه فرج، ثم رقاه جقمق إلى أن جعله أتابكا، واستمر إلى أن تسلطن، وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرين. وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر بأينال الأجرود، وكان قليل الظلم، قليل سفك الدماء متجاوزًا عن التقصير.

وفي أيامه ولى الأمير جان بك مشدا على جدة، وهو الذي التمس منه الشريف بركات أن يلتمس من السلطان إقامة ولده محمد بن بركات مقامه في شرافة مكة، كما سيأتي في ذكر بركات بن حسن بن عجلان في الخاتمة - إن شاء الله تعالى -.

وهو الباني للبستان - أعني جان بك - الذي على يسار الذاهب إلى منى، المعروف ببستان جان بك، وحفر فيه عدة آبار، وغرس ما قدر عليه من الأشجار

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٦، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢٤، بدائع الزهور ٢/ ٣٧ و٢٤٢، الأعلام ٤/ ٢٠٤، حوادث الدهور ١/ ٣٣٥ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص١٣٦ «أن مدته ثلاثة وأربعين يومًا» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٧، حوادث الدهور ١/ ٣٥٧، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٦ - ٥٦، الدليل الشافى ١/ ١٧٦، الضوء اللامع ٢/ ٣٢٨، بدائع الزهور ٢/ ٣٩، الأعلام ٢/ ٣٥ - ٣٦ .

حتى شجر التمر هندي. قلت: وهو الآن موجود وفيه المربعة التي تحتها السبيل المعطل، وفي البستان شيء من الأشجار، وقليل من الخضر.

واستمر أينال سلطانًا إلى أن خلع نفسه من السلطنة لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبي الفتح أحمد بن أينال العلائي.

ثم تولى ابنه أحمد المذكور ابن أينال ولقب بالملك المؤيد(١)

كما مر آنفًا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، وتوفي والده أينال بعد ولايته بيوم واحد، فاستمر خمسة أشهر، وخمسة أيام(٢)، ثم خلع، فإن الطوائف اتفقوا على خلعه من غير موجب بالأتابك خشقدم، فخلعوه، ثم حبسوه بالإسكندرية إلى أن أطلقته تمربغا في أيام سلطنته يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

ثم تولى أتابكه الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري(٣)

وهو رومي اشتراه الملك المؤيد، وأعتقه وصار خاصكيا عنده، ثم تنقلت به الدولة إلى أن جعله أينال أتابكا لولده فخلعه بعد خمسة أشهر وتسلطن مكانه. وكان خشقدم محبًا للخير، وكسا الكعبة في أول ولايته على العادة. وكان حسن السيرة إلا أنه كان فيه شح وطمع، ويرضى بإفساد مماليكه في أمور المسلمين، فلذلك تمنى الناس زواله، حتى اليهود والنصارى.

ثم مرض، وطال مرضه، وتوفى يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، ومدة ملكه ست سنين وخمسة أشهر وأيام

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٩، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢١٨، الضوء اللامع ١/ ٢٤٦، بدائع الزهور ٢/ ٦٥ و٢٨٤، حوادث الدهور الفصل ٣ ص ٣٩٥ حوادث سنة ٨٦٥، الأعلام ١/ ١٠٢ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٩ «أن مدته كانت أربعة شهور وثلاثة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٠، الدليل الشافى ١/ ٢٨٦، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢٥٣، الضوء اللامع ٣/ ١٧٥، نظم العقيان ص ١٠٩، بدائع الزهور ٢/ ٧٠، حوادث الدهور ٣/ ٥٥٤ و٦٥٧، الأعلام ٢/ ٣٠٦ .

ثم تولى بعده في ذلك اليوم أتابكه بلباي المؤيد(١)

تلقب بالملك الظاهر أبي النصر وخلع على الأمير تمربغا الظاهري الأتابكية عوضًا عن نفسه، وكان بلباي ضعيفًا عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور، فخلعه الأمراء من السلطنة يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام.

ثم تولى مكانه الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري(٢)

ويقال : إنه رومي الأصل من مماليك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيرًا ورقاه إلى أن جعله خاصكيا ثم سلحدارًا ثم خازندارًا، ثم إلى أن صار أتابكا للعساكر ثم تسلطن، وكان له فضل وتودد إلى الناس، وحذق ببعض الصنائع بحيث كان يعمل القبي الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقًا، ويرمى بها أحسن رمي مع الفروسية التامة.

وما زال به الأمر حتى خلعوه ونفوه إلى الإسكندرية، وكانت مدة ولايته ثمانية وخمسين يومًا.

ثم إن السلطان قايتباي اعتذر إليه من وثوبه عليه، وأكرمه وأحسن مثواه، وأرسله إلى دمياط على أحسن حال، فقبل عذره ولم يقع لملك من الإكرام بعد الخلع ما وقع له لكونه جديرًا بذلك.

ثم تولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ السلطان الأشرف قايتباي(٣) المحمودي الظاهري الشركسي

ظهر يوم الإثنين لست مضين من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة يوم خلع تمربغا، وقيل له : المحمودي؛ لأنه جلبه الخوجا محمود إلى مصر، فنسب

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤١، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٥٦، الضوء اللامع ١٠/ ٢٢٨، بدائع الزهور ٢/ ٨٤ و١٠١، الشذرات ٧/ ٣١٥، الأعلام ٨/ ٢٠٨ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٢، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٧٣، الضوء اللامع ٣/ ٤٠، نظم العقيان ص ١٠٢، بدائع الزهور ٢/ ٨٧ و١٥٦، الأعلام ٢/ ٨٧ .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٣، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٩٥، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٨، أخبار الدول ص ٢١٦، الشذرات ٨/ ٧، الضوء اللامع ٦/ ٢٠٢، بدائع الزهور ٢/ ٩٠ - ٣٠٣، الأعلام ٥/ ١٨٨ .

إليه، فاشتراه الأشرف برسباي، وأعتقه الظاهر جقمق وإليه انتسب بالظاهري.

وكان محبًّا للخير معتقدًا في الصالحين. حكى عن نفسه أنه لما جلبه سيده إلى مصر للبيع وهو إما مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك والجلب، فتحادثا مع الجمال ليلة من الليالي في شهر رمضان فقالوا: لعل هذه الليلة ليلة القدر، والدعاء فيها مستجاب، فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه. قال قايتباي: فقلت : أما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى. فقال رفيقي: وأنا أطلب أن أكون أميرًا كبيرًا، والتفتنا إلى الجمال، فقلنا له: أي شيء تطلب أنت ؟ فقال: أنا أطلب من الله خاتمة الخير، فصار قايتباي سلطانًا وصار صاحبه أميرًا كبيرًا، فكنا إذا اجتمعنا نقول: فاز الجمال من بيننا.

وكان رحمه الله ملكًا جليلاً وسلطانًا نبيلاً، له اليد الطولى في الخيرات، والطول الطائل في إسداء المبرات، بنى في المساجد الثلاثة عدة رُبط ومدارس، وجوامع عظيمة الآثار باهرة الأنوار، وله بمصر والشام وغزة وغير ذلك آثار جميلة، وخيرات جزيلة، أكثرها باق إلى الآن، وجميع عمائره يلوح عليها لوائح النورانية والأنس، وفي أول ولايته أرسل إلى شريف مكة، بالمراسيم والخلع، وهو الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وإلى قاضي القضاة إبراهيم بن على بن ظهيرة تقليدًا لقضاء مكة، ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم، وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام.

وفي أواخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة - أو التي قبلها - بنى مسجد الخيف بناء عظيمًا محكمًا، وجعل في وسط المسجد قبة عظيمة هي حد مسجد رسول الله ﷺ، وبنيت جدرانه المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي ﷺ، وبلصق القبة مئذنة غير المئذنة التي على باب المسجد، وبنى دارًا بلصق باب المسجد كانت مسكن أمير الحاج، وعلى باب الدار سبيل على صهريج كبير جعل في صحن المسجد يمتلئ من المطر، وجدد العلمين الموضوعين لحد عرفة، والعلمين الموضوعين لحد الحرم، وجدد عين عرفات، وابتدأ العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان، فوجد الماء بكثرة، فاقتصر على ذلك ولم يصل إلى أم العين، وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين عامًا، فكان الحجاج

يقاسون في يوم عرفة من قلة الماء ما لا صبر عليه، ثم أصلح البرك وملأها بالماء، ثم أصلح عين خليص وأجراها وأصلح بركتها وبنى قبتها، وكان ذلك سنة تسع وسبعين وثمانمائة.

وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائه أمر السلطان وكيله وتاجره الخوجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشادَّ عمائره الأمير سنقر الجمالي أن يحصلا له موضعًا مشرفًا على الحرم الشريف ليبنى فيه مدرسة ليدرس فيها على المذاهب الأربعة، ورباطًا يسكنه الفقراء، ويعمل له ربوعًا ومسقفات، يحصُل منها ريع كبير، يصرف منه على المدرسين وعلى القراء، وأن تقرأ له ربعة في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة، والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتبًا للأيتام، وغير ذلك من جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة، ورباط المراغي، وكانا متصلين، وكان إلى جانب رباط المراغي دار الشريفة شمسية من شرائف بنى حسن اشتراها وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة، ومجمعًا كبيرًا مشرفًا على المسجد الحرام وعلى المسعى، وصير المجمع المذكور مدرسة، بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالبًا، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضورًا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء، يقرءون ثلاثين جزءًا من القرآن، وجعل لها معلم أربعين صبيًا من الأيتام، ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح كل سنة، وللمدرسين وقراء الربعة، وأهل الخدم مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة، وبنى عدة ربوع ودور تغل في كل عام نحوًا من ألفي دينار، ووقف عليهم بمصر قرى وضياعًا كثيرة تغل حبوبًا كثيرة تحمل كل عام إلى أهالي مكة، وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعمله سلطان قبله، وذلك باقٍ إلى الآن إلا أن الأكلة استولت على تلك الأوقاف فضعفت جدًا.

قلت: هذا في زمان قطب الدين رحمه الله تعالى، وأما الآن فقد تضاعفت لا ضعفت، إلا أنها - كما قال رحمه الله -: قد استولت عليها أكلة النظار، وقد صارت المدرسة سكنًا لأمراء الحج إذا وصلوا مكة أيام الموسم. وكان الفراغ من

بناء هذه المدرسة، والرباط والبيتين أحدهما: من ناحية باب السلام، والثاني: من ناحية باب الحريريين في سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد مُشَيِّدِ عمائره الأمير سنقر الجمالي.

وفي هذه السنة وردت أحكام سلطانية من السلطان قايتباي إلى صاحب مكة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله تتضمن أنه رأى منامًا وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف، وأنه أمره أن يفعل ذلك.

فحضر مولانا الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه، وقاضي القضاة إبراهيم ابن ظهيرة وناس من الترك المقيمين بمكة الأمير قاتي باي اليوسفي، والأمير سنقر الجمالي، والدوادار الكبير جان بك نائب جدة المعمورة، وبقية القضاة والأعيان، وفاتح الكعبة عمر بن أبي راجح الشيبي، والشيبيون والخدام، وغسلوا الكعبة الشريفة من ظاهرها وباطنها قدر قامة، وغسلوا أرض الكعبة وأرض المطاف الشريف، وطيبوها بالطيب والعود، وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ومن أعظم ما وقع في أيام السلطان قايتباي - من الأمور المهولة - حريق المسجد النبوي في ثلث الليل الأخير من ليلة الإثنين ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة، فعمره رحمه الله أحسن عمارة وبنى المقصورة، وأدار عليها الشبك الحديد جميعها[1].

وكان تمام ذلك في عام ثمان وثمانين وثمانمائة كما رأيته مرسومًا بالقلم الحديد في جهة الباب من الحجرة الشريفة. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك مفصلاً وغيره، وعمر السلطان المذكور بالمدينة مثل ما عمر بمكة من المدرسة والرباط، وأوقف كتبًا على طلبة العلم الشريف، فأرسل مصاحف كثيرة وكتبًا لخزانة المسجد الشريف، عوضًا عما احترق.

ولم يحج من ملوك الشراكسة غير السلطان قايتباي المذكور، وذلك لتمكنه في

---

(١) ينظر: تفاصيل ذلك فى: الضوء اللامع ٦/ ٢٠٦ - ٢١٠، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٩، الخطط . لعلى مبارك ٢/ ٣١٤، ٣٢٢ .

الملك وحسن تدبيره وضبطه للممالك فحج سنة أربع وثمانين وثمانمائة.

فأقام الأمير يشبك الدوادار الكبير نائبًا عنه بمصر، وخرج بعد الحاج بثلاثة أيام.

وكان أمير الحاج الخارج بالمحمل الشريف خشقدم، فخرج السلطان قاصدًا للحج والزيارة، ووصلت القصاد إلى شريف مكة يومئذ جمال الدين الشريف محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله رمسه صوب الرحمة والرضوان، فتهيأ هو والقاضي إبراهيم بن ظهيرة القاضي الشافعي لملاقاة السلطان؛ فإن القصاد أخبروهما أنهم فارقوه من عقبة « أيلة »، فأرسل الشريف أحد قواده يسبقه إلى ملاقاة السلطان بسماط حلوى. فوصل إلى « الحوراء »، ولاقى السلطان، ومد له سماط الحلوى هنالك فوصل عليه وأظهر غاية اللطف والمجابرة، وأكل وقسم على أمرائه وعسكره، وكان سماطًا كبيرًا جميلاً. ويحكى من لطافة السلطان أنه تناول شيئًا من الحلوى، وسأل الذي جاء به: ما اسم هذا عندكم ؟ فقال له القائد: اسمه: « كل واشكر ».

فقال له: سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا.

ثم لما وصل إلى ينبع عدل إلى المدينة الشريفة فأقام الشريف محمد ومن معه من القضاة والأعيان ببدر منتظرين قدوم السلطان، فلما وصل الخبر بعود السلطان من المدينة ركب الشريف محمد ومن معه لملاقاته، فاجتمعوا به في مسجد الصفراء، وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا، ومشى الشريف عن يمينه، والقاضي إبراهيم عن يساره، وباقي من معهما سلموا على السلطان من بُعْد، ومشوا أمامه، وصار السلطان يلاطفهما، ويسألهما عن أحوالهما، ويشكر مساعيهما ويطمن خواطرهما، وينصت لهما إذا تكلما، واستمر كذلك إلى أن وصل السلطان إلى وطاقه فرجعا عنه إلى مخيمهما، وصاروا يسايرونه في الطريق، ويبدى لهم وافر الانبساط وكمال النشاط، وألبسهم خلعًا فاخرة مرارًا عديدة، وتقدموا إلى وادي « مر » ورتبوا له سماطًا حافلاً، ولما كان صبح يوم الأحد مستهل ذي الحجة وصل السلطان إلى مخيمه بوادي مر ووجد السماط ممدودًا فجلس هو ومن معه عليه، وأكل وأطعم وخلع على الخدام خلعًا متعددة جميلة، ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان، فسلموا على السلطان فانصرفوا أمامه، وركب السلطان هو وشيخ الإسلام إبراهيم بن

ظهيرة وولده أبو السعود، وأخوه أبو البركات وأمام السلطان إبراهيم بن الكركي الحنفي، ودخلوا مكة عصرًا من أعلاها وشيخ الإسلام هو الذي تقدم لتطويف السلطان، وصار يلقنه الأدعية إلى أن دخل من باب السلام الأقصى، وطلع بفرسه منه فجفل به الفرس، فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهتار فشالها من الأرض ومسحها، فناولها السلطانَ فلبسها، وكان ذلك تأديبًا له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن ينزعها، ويدخل مكشوف الرأس متواضعًا.

ولما وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام الأدنى، ترجل وقرأ الريس بين يديه بصوت جهوري ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ. . . ﴾ [الفتح: ٢٧] الآية. ثم رفع يديه يدعو للسلطان، وأمن من حوله من أهل الأصوات، فقبل الحجر وطاف، والريس يدعو له من أعلى قبة زمزم، والناس محيطون بالطواف يشاهدونه ويدعون له، إلى أن تم طوافه وصلى خلف المقام ثم خرج إلى الصفا، فلما فرغ من سعيه عاد إلى الزاهر فبات به في مخيمه، وركب في الصبح في موكبه، ولاقاه الشريف وأولاده والقاضي، فخلع السلطان على الشريف والقاضي، وغيرهما، ومشوا أمامه في الموكب العظيم، والأبهة الجليلة، ولم يتخلف أحد بمكة حتى النساء المخدرات.

ودخل مكة بهذه الصفة إلى أن وصل مدرسته، فترجل له الناس، وسلم عليهم، ودخل المدرسة، ومد له الشريف سماطًا، واستمر على ذلك تمد له صبحًا وليلاً الأسمطة الجليلة الجميلة، ومد له ثاني يوم القاضي إبراهيم بن ظهيرة سماطًا بالمدرسة، واستمر بالمدرسة ما ظهر لأحد إلى أن طلع عرفة، وكانت الوقفة بالإثنين فأفاض مع الناس، وأتم حجه، وقرب أغنامًا كثيرة، وكان يناسب أن ينحر شيئًا من الإبل فما أشار عليه به أحد.

وركب مرة إلى درب اليمن يشاهد ما قدمه له الشريف محمد من الإبل، والخيل وتشكر من فضل الشريف، ثم سافر ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة بعد أن طاف للوداع، والريس يدعو له على قبة زمزم، ومشى القهقرى إلى أن خرج من باب الحزورة وركب معه الشريف وأولاده، والقاضي إبراهيم إلى الزاهر، ثم ودعهم وودعهم وسافر إلى مصر وعاد إلى مملكته، ولم يختل شيء من ملكه مع

غيبته عن تخت مصر نحو ثلاثة أشهر، وذلك لإتقانه أمر الملك وتدبيره وضبطه.

ولقد كان واسطة عقد الشراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية، وأجملهم حالاً وأحسنهم إحسانًا وأفضلهم عقلاً، وأكملهم نبلا، وأكثرهم في جهات الخير إيثارًا وآثارًا، وأكبرهم عمائر وأوقافًا وأدوارًا، وأطولهم طولاً وزمانًا، وأمكنهم ملكًا وقوة وإمكانًا. وكانت أيامه كالطراز المذهب، ودولته تنجلي كالعروس في حلل الجوهر والذهب، حتى قدم عليه بريد الأجل، وما أغنى عنه ما جمعه من الخيل والخول، وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة، وكانت مدة تصرفه ثلاثين سنة إلا ثلاثة أشهر[(١)].

ثم تولى الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان قايتباي[(٢)]

وكان يغلب عليه الجنون والسفه، وما كان له التفات إلى الملك، ولا تدبير السلطنة، بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة.

يحكى عنه أمور قبيحة منها: أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها، وقطع دائر فرجها ونظمه في خيط أعده لنظم فروج النساء.

ومنها: أن والدته كانت من عقلاء النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة، وجمعتها به في بيت مزين أعدته لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها، وربطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجلاد، وهي بالحياة، وهي تصرخ، فلما سمعوا صراخها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل واستمر كذلك إلى أن سلخها، وحشا جلدها بالأثواب السندسية وخرج يظهر للناس أستاذيته في السلخ، وأن الجلادين يعجزون عن كماله في صنعته قُبِّحَ هو وصنعته.

ومنها: أنه مر في موكبه بدكان حلواني، ودار حوله أمراؤه فأقامه من دكانه، وجلس كأنه ببيع الحلاوة، وأخذ بيده الميزان فصار يزن لهم حتى جبرت الحلاوة.

وكان يقلي الجبن المقلي بنفسه يبيعه للجند ويأمرهم بشرائه منه، ويأخذ أكياس الذهب إلى طرف النيل فيرمى دينارًا فيقول: هذا قال : بق، ويرمى الآخر فيقول:

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٤٦ «أن مدته كانت تسعًا وعشرين سنةً وأربعةَ شهورٍ وأحدًا وعشرين يومًا» .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٧، بدائع الزهور ٢/ ٣٠٣، وليم موير ١٦٣، النور السافر ٤٠، الشذرات ٨/ ٢٢، الأعلام ٧/ ٩ .

هذا ما قال : بق، ثم يحضر الأمراء الكبار ويأمر بذبحهم في الديوان، فصار الشخص منهم إذا أضجع للذبح صوت صوت الغنم، فيضحك ويطلقه.

وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكي، إلى أن سقط من أعين الناس والعسكر وسطوا عليه كما سطا بالحسام الأبتر، وسلخوه من الملك كما سلخ الضعيفة بالخنجر، ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر.

وسبب قتله أنه من غروره خرج مختفيًا منفردًا من خدمه وعبيده متباعدًا عن خوله وحشمه، فتوجه يمشي وحده إلى بر الجزيرة، فكمن له عشرة أنفس من مماليك أبيه في خيمة على ممره، فلما وصل إليهم خرجوا له من الخيمة، فأمسكوا بلجام فرسه، وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه، وجاءوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه في تربة أبيه سنة ٩٠٤ أربع وتسعمائة، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين[١] .

ثم تولى بعده خاله الملك الظاهر قانصوه[٢]

وهو خال هذا المقتول، وكان أميًا لا يعرف إلا بلسان الشركس قريب العهد ببلده؛ لأنه جلب للسلطان قايتباي من بلاده وهو كبير قد وخطه الشيب، وصار يرقيه بواسطة أخته زوجة قايتباي خوندام الناصر ولده، وهي التي أقامته مقام ولدها الناصر، وبذلت له الأموال والخزائن، وأرادت إقامته وإصلاحه، ولن يُصْلِحَ العطَّارُ ما أفسَد الدهرُ، فما استكملته الإيالة، وما أهلوه للسلطنة والولاية، فخلعوه من الملك أواخر سنة ٩٠٥ خمس وتسعمائة، وكانت مدته سنة وسبعة أشهر[٣].

ثم تولى بعده السلطنة أمير كبير جانبُلاط[٤]

وتلقب بالملك الأشرف في أوائل سنة خمس وتسعمائة، ولم يتهنَّ بالسلطنة، ولا وافقه أحد عليها، وخلع بعد ستة أشهر.

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٤٨ «كانت مدته سنتين وعشرين يومًا» .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٠ ، بدائع الزهور ٢/ ٣٤٩، الأعلام ٥/ ١٨٧ .

(٣) فى نزهة الأساطين ص ١٥١ «أن مدته كانت عشرين شهرًا وتسعة أيام» .

(٤) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٢ ، الكواكب السائرة ١/ ١٧١ ، أخبار الدول ٢١٨ ، شذرات الذهب ٨/ ٢٨ ، بدائع الزهور ٢/ ٣٧٠ ، الأعلام ٢/ ١٠٧ .

ثم تولى مكانه الملك العادل طومان باي[(١)]

وما استكمل يومًا واحدًا بل هجم عليه العسكر وقتلوه، فما أقدم أحد على السلطنة، وكانت الأمراء متوفرة، وبعضهم يشير إلى بعض في الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على تولية قانصوه الغوري، لأنهم رأوه سهل الإزالة أي وقت أرادوا إزالته أزالوه؛ لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوة، وأشاروا أن يتقدم فأبى فألزموه بذلك، فقال: أقبل ذلك بشرط أن لا تقتلوني، فإذا أردتم خلعي من السلطنة فأخبروني بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل.

ثم تولى قانصوه الغوري السلطنة[(٢)]

ولقبوه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري، وذلك في سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضّي ملكهم، بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم في الجملة.

وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ، إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والفسق، بخيلا محبًا للعمارة، فمن جملة عمارته: الجامع والتربة، وكان في نيته أن يدفن بها، ووقف عليها أوقافًا كثيرة وما قدر له دفنه بها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف شخصه، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وله آثار جميلة في طريق الحاج في عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها، وكان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهى، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه.

حكى العلامة قطب الدين عن شيخه أحمد بن عبد الغفار عن والده وكان من

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٤، بدائع الزهور ٣/ ٦٨ - ١١٦، وليم موير ١٧٦، الأعلام ٣/ ٢٣٤، أخبار الدول ٢١٩ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٥، مفاكهة الخلان ٢/ ٢٣٧، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٥، الشذرات ٨/ ٢٨ و١١٣، أخبار الدول ص ٢١٩، ديوان الإسلام ٣/ ٣٩٥، معجم المؤلفين ٨/ ١٢٧، بدائع الزهور ٣/ ٨٥، سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٢ - ١٦٤ ثم ٥/ ٣٩٠، البدر الطالع ٢/ ٥٥، الأعلام ٥/ ١٨٧ .

أرباب الأقلام في ديوان قانصوه قال: استشم الغوري مبادئ فتنة أراد الأمراء إحداثها، وأرادوا أن يجعلوها مقدمة لخلعة من السلطنة، فلما استشعر ذلك منهم عمل ديوانًا وجمع فيه الأمراء والمقدمين، وأمرهم بالجلوس، وجلس بينهم كأحدهم، وكانت عادة الأمراء الوقوف بين يدي السلطان ولا يجلسون معه إلا في السماط فقط، فلما جلسوا وجلس، أنكروا ذلك وكانوا يتعجبون من ذلك وكلٌّ مصغٍ إلى ما يقول السلطان؛ فقال: ما جمعتكم يا أغوات إلا لأسألكم سؤالا خطر لي، وأطلب منكم جوابه على الوجه الذي ترونه صوابًا. فقالوا: نعم، فقال: أسألكم عن جماعة جاءوا إلى رجل، وأودعوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة، فقال: أنا أستودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتوني وتطلبوا وديعتكم بلا نزاع معي ولا خصومة فأرد وديعتكم إليكم، فقالوا: نعم قبلنا منك هذا الشرط، وأودعوه ومضوا، ثم عادوا إليه بعد مدة وقالوا: نريد الوديعة بنزاع شديد ومخاصمة ومضاربة قوية، فقال لهم: هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع ولا ضراب معي كما شرطت عليكم، فقالوا: لا بد من المخاصمة والنزاع معك، فأيهم على الباطل، وأيهم على الحق؟ ففهموا مراده واستعفوا منه، فقال لهم: أنا ما جلست معكم إلا لتعلموا أني كأحدكم لا أمتاز عليكم بشيء، وهذه السلطنة أسلمها لأيكم أرادها ولا أنازع عليها، فإنما أنا رجل من الجند، فقبَّل كل منهم يده، وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه استمراره فيها.

وسكنت الفتنة بهذا التدبير، وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضروريات وطالت معه الحيل إلى أن صار يأخذ منهم واحدًا بعد واحد، ويتغافل عنهم، ثم يحصل حيلة أخرى، وعلة أخرى لأحدهم، فيأخذه بها، ويوقع بين الاثنين، ويأخذ هذا بذاك، وذاك بذا، ويدس لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه، حتى أفنى قرانصتهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم.

واتخذ مماليك جددًا، واستجلب جلبًا وأعد عددًا، وصاروا يظلمون الناس ويعاملون الخلق عسفًا وغشما، وهو يغضي عنهم ويتغافل، فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس.

وكثرت العوانية في أيامه؛ لكثرة ما يصغي إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحدًا توسع

في دنياه، وأظهر التجمل فى ملبسه ومثواه، وشوا به إلى السلطان فيرسل إليه يطلب القرض، ويصفي أمواله، ويسلمه إلى الصوباشي ليأخذ ماله، ويهلك أهله وعياله.

وجمع من هذا الباب أموالا عظيمة، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى، وتمزقت بددًا.

وأما الميراث فبطل في أيامه، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة، ويترك أولاده فقراء إلا إن اعتني به اعتناء كبيرًا جعل له نزرًا يسيرًا من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقيه. وكثر ظلمه في آخر أيامه، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وحكي عن شخص من أولياء الله تعالى مجاب الدعوة أنه رأى بمصر في أيام الغوري جنديًا من الشراكسة أخذ متاعًا من دلال ولم يُرضِه في قيمته، فتبعه الدَّلال يطلب منه حقه وهو ممتنع، فقال له الدلال: بيني وبينك شرع الله، فضربه الجندي بالدبوس، فشج رأسه، وقال: هذا شرع الله، فسقط الدلال مغشيًا عليه، ومضى الجندي بالمتاع وما قدر أحد من المسلمين على منعه من فعله. قال الشخص: فصعب عليّ هذا الحال، فرفعت يدي إلى الله تعالى، ودعوت الله عز وجل على الجندي المزبور وسلطانه وحزبه وإخوانه، وعلى الظلمة من أعوانه، فصادف ساعة إجابة وقبول، واقترن السؤال بحصول المسئول، فبت تلك الليلة على طهارة، وأنا أفكر في أمرهم، وأحدث نفسي كيف يزول ملك هذا السلطان الجائر، وقد ملأت جنوده الأرض. وأنَّى للمسلمين بسلطان رءوف رحيم، عادل كريم؟ فنمت فرأيت فيما يرى النائم ملائكة من السماء بأيديهم مكانس يكنسون الشراكسة من أرض مصر، ويلقونهم في بحر النيل، فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى وقع ذلك.

ثم إني استيقظت من نومي وسمعت قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، فعلمت أن الله سوف يأخذهم أخذًا وبيلا.

فما مضى على هذه الوقعة قليل من الزمان إلا وبرز الغوري بجنوده، وأمواله وبنوده، وأثقاله وخزائنه، وأنصاره وأعوانه من مصر لقتال السلطان سليمان خان إلى حلب، فجاء الخبر بعد قليل بأنه كسر وقتل أكثر جنوده وفقد هو تحت سنابك الخيل

في « مرج دابق »، وكان قتله بين الظهر والعصر، يوم الأحد خامس عشر رجب سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وقيل: إنه فقد من الحرب وأنه عاش مدة ببلاد المغرب، وقيل: بل عاش بمصر مدة طويلة.

قال شيخنا: وعلم بما قدمته من أن شخصًا مات بالقرب من زمن الوقعة ببعض مدارس مصر فوجد في عنقه كيس فيه ختم باسم الغوري فقيل: إنه هو، وكانت مدة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يومًا.

وللأشرف قانصوه الغورى مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة. فمما عمره بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصرًا، وجعل في جانبه مسكنين لطيفين، وبيوتًا ممتدة حول باب إبراهيم، ووقف الجميع على جهات خير، ولا يصح وقف ذلك؛ لأنه في المسجد، وكذلك السكنان؛ لأن أكثرهما في المسجد الحرام، وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك في أيام سلطنته؛ لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع، وبنى أيضًا ميضأة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج، وقد أبطلت؛ لأن روائحها تصل إلى المسجد فيتأذى المصلون، فأبطلت وأغلق بابها قريبًا في سنة ٩٨٠ تسعمائة وثمانين بأمر شريف سلطاني.

قلت: هي الآن مفتوحة ينتفع بها المسلمون عامرة.

ومن أثره الترخيم الواقع في الحجر الشريف، عمل بأمره في أيامه، واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمارته سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة، وبنى بركة بدر وعدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري، وبنى خانًا في عقبة أيلة والأزلم، ومدرسة أنشأها علوّ سقف الجملون بالقاهرة، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى قلعة الجبل.

ومن آثاره بناء سور جدة وكانت العربان تهجم في أيام الفتن وتنهبها، ونهبت مرارًا أيام الوقائع بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وبعد هزاع جازان، فأرسل الغوري أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهز معه عسكرًا من الترك والمغاربة واللوند في خمسين غرابًا لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند، فلما وصل إلى جدة بنى سورها وهدم كثيرًا من بيوتها وأخذ حجارتها، وبنى بها السور في شدة وبأس، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر واللَّبِن حتى التجار المعتبرين

وسائر المنتسبين، وضيق على الناس بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه فبني، واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد، وبنى السور جميعه فى أقل من سنة.

وكان ظلومًا غشومًا أكولا يستوفي الخروف مع عدة أرغفة ونفائس له معدَّة. واستمر حاكما بـ« جدة » إلى أن تقوى بالمال، وتأثل وجمع جنودًا من كل صنف، ثم توجه إلى « الهند » سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ثم رجع إلى مكة.

وقد انقضت دولة الشراكسة بمصر، وملكها السلطان سليم خان، فورد حكم سلطاني إلى شريف مكة بركات بن محمد بن حسن بن عجلان بقتل الأمير حسين الكردي المذكور، وكان الشريف بركات هو المستخرج لذلك الحكم لعداوة سابقة بينه وبين حسين المذكور، فأخذ مقيدًا إلى جدة، وربط في رجله حجر كبير، وغرق في بحر جدة في موضع يقال له: « أم السمك » فأكلته الأسماك بعد أن كان يعد من الأملاك.

ولما قتل الغوري وانكسرت عساكره هرب بقية الشراكسة من السيوف إلى مصر وصيروا الدوادار الكبير طومان باي سلطانًا، فتولى والسلطان سليم في إثرهم، همْ في الهرب وهو من ورائهم للطلب، فأرسل إليه السلطان سليم بعد أن ملك حلب والشام وما بينهما من البلاد بقاصد، وكتب معه كتبًا يستميل بها خاطره، ويستجلب بها قلبه، ويعده بكل جميل إن دخل في الطاعة، وكف القتال بين المسلمين، فلم يلتفت لشيء من ذلك، بل قتل القاصد وعين مَنْ يهجم في العسكر والأمراء، وسير من المماليك الخاصة ألفين وخمسمائة، وجمع من مشايخ العربان ما كمل به سبعة آلاف خيال، وساروا جميعًا إلى العريش.

ثم إن السلطان سليم خان أرسل إلى الوزير الأعظم سنان باشا بأربعة آلاف خيال ليلحق من قدَّمه من العسكر، وهم ألفان عليهم الأمير محمد بير بن عيسى، وقصد بتقدمتهم تمهيد الطريق، فلما خشي عليهم أتبعهم بالوزير المذكور، فأدركهم بـ« غِزة ». فلما بلغ الشراكسة ذلك توقفوا عن الحرب، لكنهم سعوا في جمع الناس من القرى والنواحي، فأقاموا في العريش ثلاثة أيام، فجمع سنان باشا من معه من الأمراء والأعيان، واستشارهم في المقاتلة أو الانتظار حتى يرد السلطان فأجمعوا

على المقاتلة؛ خشية من الهجوم.

ففي ليلة السبت سابع عشري ذي القعدة الحرام ركب سنان، وخرج من غزة وأظهر أنه راجع لجهة الرملة، فسار طول ليلته، وأصبح بالقرب من خان يوسف، وكان بالقرب منه عسكر الشراكسة، فلما رأى جانبرد الغزالي وكان رئيس من تقدم من الشراكسة العسكر العثماني هيأ عسكره، وعين الميمنة والميسرة، وكذلك سنان باشا جعل على ميمنته فرهاد بمن معه، وعلى ميسرته محمد بن عيسى، فلما رأى الغزالي ذلك عين بعض جماعة من عسكره مع المشاة وأمرهم أن يقروا على ساقة العسكر أولا، فلما رأى سنان باشا ذلك أخرج من عسكره مقدار ألف خيال وماش ترمي البندق، وأمرهم أن يكونوا خلف العسكر وحوله، فلما رأى الشراكسة ذلك تربصوا وسايروا العسكر قليلاً قليلاً ينتهزون الفرصة، فلما نزل سنان بمحل المنزل هجم الغزالي، وكان سنان أمر الينيشرية، وغالب العسكر أن لا يخرجوا سلاحهم وأن يكونوا حول ثقلهم، فلما هجم الغزالي قابله طائفة الينيشرية برمي البندق، ثم ركب سنان وتلاحق العسكر، والتحم القتال إلى وقت الغروب، فانهزم الغزالي وقتل غالب الأمراء الذين معه وأرسلت رءوسهم مع من قبض عليه أيضًا إلى السلطان سليم فسر بذلك، وذهب الغزالي إلى مصر، وسار السلطان سليم حتى نزل ببركة الحج، وتهيأ منها لفتح قلعة مصر، وأخذ البلاد، فاتفقت الشراكسة المقيمون بها، وغيرهم من العرب على إعانة طومان باي، فبلغت عدتهم عشرين ألفًا، فجمع طومان باي المدافع الكثيرة، وأخرجها للريدانية وقررها في الأرض، وأرسل إلى الإسكندرية، وطلب من يضرب بالمدافع، فاجتمع عنده خلق كثير، فنزل بمخيمه، فلما بلغ السلطان ذلك وكان قد صف عسكره ميمنة وميسرة ترك استقبال طومان باي، وسلك طريقًا أخرى من خلف جبل المقطم من وراء عسكر الشراكسة، واستمرت مدافع الشراكسة مركوزة لمن يأتي من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع، وبادرهم برمي المدافع والبنادق، واستقبلته خيول الجند وفرسانها، والتحم الحرب وحمي الوطيس، حتى أظلمت الدنيا ولم تزل الشراكسة تهجم مع تلك الظلمات على العساكر العثمانية المرة بعد المرة وتكر وتفر، والقتل فيهم وهم لا يصدهم شيء حتى قتل منهم جانب عظيم من أعيانهم، وقتل من العساكر العثمانية أقل من ذلك،

فانكسرت الشراكسة، ولم يزل عسكر السلطان خلفهم إلى أن أدخلوهم بيوتهم فنهبت بيوتهم وأموالهم، وكان ذلك يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة الحرام سلخ سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وفي صبح يوم الجمعة غرة محرم الحرام افتتاح سنة ٩٢٣ ثلاث وعشرين وتسعمائة أمر السلطان في المسجد والجوامع بالخطبة باسمه الشريف، وضرب السكة كذلك باسمه، وأقام بالعادلية ثلاثة أيام، ثم ارتحل ودخل البلاد وتعدى إلى الجيزة، ونزل بعسكره فيها، فجمع طومان باي من بقي من الشراكسة نحو سبعة آلاف، وهجم على البلاد ليلا، واتفق معه بعض العرب وتبعه خلق من أهل مصر، وقتلوا جميع من وجد في البلد من العسكر العثماني، وقصد الهجوم ليلاً على السلطان في الجيزة، وهيأ مراكب البحر للذهاب، فلما بلغ ذلك السلطان سليم خان عين جماعة على المعابر، وأمر العساكر بالتقيد، وعدم الغفلة، فلم يقدر طومان باي على الهجوم ليلاً، وبعث جماعة وأمرهم بالهجوم على مصر، وكل من وجدوه من آدمي أو بهيمة قتلوه أو محل قابل للحرق أحرقوه، وأغاروا على الناس، والمصريون يقاتلونهم من الأماكن الحصينة بالسهام والحجارة، واستمر الحرب على هذا الأسلوب ثلاثة أيام، فوصل السلطان بنفسه، وسار على البلاد، ورمى المدافع على جميع من لاقاه، واشتد الحرب في الرميلة، وهلك خلق كثير من الجهتين، ثم هرب طومان باي إلى جامع الشيخونية وحارب، هناك ضجت الرعايا بطلب الأمان وكثر الصياح منهم، فأمنهم السلطان وأمر بتتبع الشراكسة خاصة، فلم يجد طومان باي بدًا من الهروب، فخرج في نحو عشرة أنفس هاربًا لجهة الصعيد، وقتل ذلك اليوم ما ينيف على أربعة آلاف نفس حتى سالت الدماء، وتكدر بحر النيل وتعفن الهواء لذلك، فرميت أجسامهم في البحر، وجمعت رءوسهم أكوامًا بعد أكوام، فعاد السلطان لمخيمه بالجيزة، وبنى له كوشكا عاليًا يسكنه مدة مقامه بمصر هربًا من العفونة، ونقل إليه من قبض عليه من أعيان أمراء الشراكسة، فأمر بضرب أعناقهم على ضوء المشاعل، وقتل سنان باشا ذلك اليوم، فأسف عليه السلطان سليم وقال: أي فائدة في مصر بلا يوسف؟ لأن سنان لقبه يوسف.

وفي صبيحة ذلك اليوم دون ديوانًا رتب فيه للعساكر العطايا، وعين أرباب

المناصب فأرسل إليه الغزالي - وكان قد هرب في الوقعة الأولى من الريدانية إلى جهة الصالحية - فطلب الأمان، فلما علم السلطان أنه لم يحضر الوقعة التي داخل البلد عفا عنه وطلبه، فجاء تائبًا مستغفرًا، فأنعم عليه ببلدة « سجاع »، ثم أقام السلطان في محله إلى ثالث عشري محرم، وارتحل وصعد إلى القلعة.

ثم إن طومان باي أرسل بطلب الأمان والعفو عما مضى، فقبل السلطان منه ذلك واستمال خاطره، وأرسل بجوابه وإجابته كيخية عسكر أنادول مصطفى شلبي والقضاة الأربعة قضاة مصر، وكتب إليه بالعهد والأمان معهم، فلما وصلوا إليه منعه بعض المفسدين من الشراكسة وحرضوه على العصيان فقتل مصطفى شلبي المذكور والقضاة الأربعة، وأظهر عدم الانقياد، واجتمع عنده بقية الشراكسة وطائفة من العربان، وقصد العود إلى مصر وتعدى على المراكب ووصل قريب مصر حتى نزل ببركة الحبش، فعين السلطان بعض الأمراء والعساكر لحربه، فتوجهوا لقتاله، وخرج السلطان أيضًا بنفسه فنزل بالقرب من النيل، فارتحل طومان باي من محله وهرب، فتبعه العسكر منازل، فعلم الأمراء أنه لا راحة لهم ما دام موجودًا فتركوا أثقالهم وسعوا في طلبه فأدركوه بين الإسكندرية ورشيد، فحصل حرب عظيم وقبض على جماعة ممن معه، وهرب هو، وتوجه فى طلبه بعض الأمراء فأدركه في بحيرة، وأحاط به وقتل جميع من معه، فألقى طومان باي نفسه في البحر، فلما أشرف على الغرق طلب الأمان، فرموا له حبلا وتمسك به فجروه إلى البر ومسكوه، وقيدوه وجاءوا به إلى السلطان، ويقال: إنه هرب واستجار بشيخ عرب بنى جذام عبد الدائم ابن مقر، وأنه هرب إلى خياط السلطان سليم وسلم إليه السلطان طومان باي، ذكر هذا العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى، فقصد السلطان العفو عنه لما رآه، ثم تذكر جرائمه، ونقض العهد وقتل القضاة الأربعة والكيخية وعلم أن الفتنة لا تنام ما دام موجودًا فأمر بشنقه فشنق على باب زويلة فتم أمر السلطان سليم خان على مصر.

وقد مهد القوانين والقواعد ونصب القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة، وولى ملك الأمراء الأمير خير بك على مصر المحروسة، وولى جان بردي الغزالي على الشام، وكان وعدهما بذلك وهما من خواص أمراء الغورى، وكانا يكرهانه في الباطن، ويكرههما كذلك فأرسل لهما السلطان الأمان وعهد لهما أن يوليهما مصر

والشام، فوافقاه على ذلك، فلما تلاقى العسكران فرا بالميمنة والميسرة، فبقي الغوري وخواص من معه في القلب، فغار الغوري تحت سنابك الخيل، ومحي كما يمحى النهار بالليل، كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر حرب الغوري.

ومهد السلطان سليم الأمور على ما ينبغي، وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم توجه من مصر إلى تخت الملك القسطنطينية، وقد تمهدت له البلاد، وعم حكمه العباد، ودخل أمر الحرمين الشريفين تحت حكمه، وخطب له فيهما بأمره ورسمه، وفي سائر هذه الأقطار بشريف لقبه واسمه. وانقضت دولة الشراكسة عن آخرها(١). ولله البقاء سبحانه.

* * *

(١) عن سقوط هذه الدولة يمكن مراجعة د . محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر » ضمن أبحاث مجلة الجمعية التاريخية، مج ٤ لسنة ١٩٥١، د. سعيد عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٩ - ١٩١، د . عبد المنعم ماجد . طومان باى آخر سلاطين المماليك .

الباب السابع
في ذكر ملوك آل عثمان[1]

خلد الله سلطنتهم القائمة إلى آخر الزمان، أصلحُ الدول بعد الصحابة والتابعين دولتُهم وذلك لانقيادهم للشرع، وتمكنهم من رتبة العبادة كالصلاة والصوم والحج، والجهاد وملازمة الجماعة، واتباع السنة وحسن العقيدة، والشفقة على الأمة، وكشف كل كربة وغمة، وقل أن يوجد جميع ذلك في دولة من الدول السابقة.

فأصلهم ومبدأ ظهورهم وسبب ملكهم أن آل سلجوق لما تركوا وطنهم من فتنة جنكز خان ملك التتار، وعزموا إلى جانب بلاد الروم جاء معهم من طائفة أغوز رجل اسمه أرطغرل[2] يتصل نسبه بيافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وكان بصحبته نحو ثلاثمائة وأربعين رجلًا، وكان شجاعًا ثم تشمر في خدمة السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن طغرل السلجوقي، وكان يحبه السلطان علاء الدين لكونه شجاعًا، وفتحت على يديه بلاد كثيرة من بلاد الكفار.

---

(١) تمتد جذور الدولة العثمانية إلى جماعات الأتراك التى اتصلت بالدولة الإسلامية أيام الخلافة الأموية وازدادوا أيام العباسيين وخاصة المعتصم . ثم اجتذب السلاجقة كثيرًا من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية فى غرب آسيا . . ثم لما تفككت دولة السلاجقة استقر «أرطغول» - وهو أبو عثمان مؤسس الخلافة العثمانية - بجزء منها ثم جاء عثمان فنظم الجيوش وفتح الفتوحات معلنًا - هو ومن جاء بعده - قيام خلافة إسلامية أرهبت الأعداء . . . وتوهت أوروبا ونصرت الإسلام قرونًا عديدة وهكذا شاءت الإرادة الإلهية أن تحفظ الأمة الإسلامية فى ظل شجرة الخلافة التى استمرت وارفة الظلال على مدى ثلاثة عشر قرنًا ونيف رغم تقلب العهود والحكام حتى كان السقوط فى غفلة منها على أيدى القوى الصليبية والصهيونية الطامعة والحاقدة والمغرضة تحت شعارات الحرية والإخاء والمساواة والأمن والسلام العالمى!!!

ينظر فى الخلافة العثمانية: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب - د . سيد رجب حراز، التاريخ الموحد للأمة الإسلامية - د . على حسن الخربوطلى، الإسلام والخلافة - د . على حسن الخربوطلى، العرب والعثمانيون - د . عبد الكريم رافق، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية - د . على حسون، الدولة الإسلامية - تقى الدين النبهانى، الخلافة - تقى الدين النبهانى، معالم التاريخ فى العصور الوسطى - لمحمد رفعت ومحمد أحسن حسونه، السلطان عبد الحميد الثانى ومشروع الجامعة الإسلامية - لموفق بني المرجة، تاريخ الدولة العثمانية العلية - إبراهيم بك حليم .

(٢) ينظر: الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها . . - د . عبد العزيز محمد الشناوى، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١ .

ولما كانت سنة ٦٩٧ سبع وتسعين وستمائة توفي الغازي أرطغرل فكتب السلطان علاء الدين لعثمان بن أرطغرل[١] بموافقة السلطنة وأرسل إليه خلعة وسيفًا ونقارة وخصه بالغزو على الكفار، فسار عثمان بن أرطغرل ففتح اينه كولي وبني شهر وكوبري حصار وبلجك وغير ذلك.

ثم لما توفي السلطان علاء الدين سنة تسع وتسعين وستمائة، اجتمع أكثر الغزاة عند عثمان بن أرطغرل، فتسلطن عثمان الغازي وجلس على تخت السلطنة في السنة المذكورة، واشتغل بالجهاد وافتتاح البلاد، وكان مولده سنة ست وخمسين وستمائة، دأب في خدمة والده في الجهاد، وتمرس بالغزو في سبيل الله، واستمر بعد والده مع الكفار في الجلاد فرأى السلطان علاء الدين السلجوقي جده وجهده في الجهاد، وعلم قابليته ونجابته في فتح أطراف البلاد، فأكرمه وأمره، وأمده بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل الراية السلطانية والطبل والزمر إليه، وعملوا نوبة بين يديه، فعند أول سماعه صوت الطبل والزمر قام على قدميه تعظيما لذلك فصار ذلك قانونًا لآل عثمان باقيًا مستمرًا إلى الآن، فإنهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم.

وكان جلوس السلطان عثمان على تخت السلطنة عام تسع وتسعين بتقديم التاء فى الموضعين وستمائة، وافتتح فيها كوبرى حصار من الكفار، وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه حوله من أهل العلم اسمه طورسن، ثم افتتح قلعة قره حصار، ثم قلعة اينه كولي، ثم قلعة يني شهر، وافتتح قلعة يار حصار، وصارت من جملة مملكته، فزوج ولده أورخان على نيلوفر خان ابنة صاحب يارحصار، واستمر في الغزاة والجهاد وفتح البلاد، وقتل الكفار أهل العناد، إلى أن دعاه الله إلى جنته، وأبدله سلطنة خيرًا من سلطنته، فأجاب داعي الحق لما دعاه، وبادر إلى إجابته ولبى نداه، فعاش سعيدًا، ومات حميدًا إلى رحمة الله عن ست وستين سنة.

وكان للسيف والضيف كثير الإطعام فاتك الحسام، كثير البذل واسع العطاء، شجاعًا مقدامًا على الأعداء، ما خلف نقدًا ولا متاعًا إلا درعًا وسيفًا يقاتل بهما الأعداء الكفار، وبعض خيل وقطيعًا من الغنم اتخذها للضيفان، وأنسالها باقية إلى

(١) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١: ص ٣٤، الشذرات ٦/٦٨ و٧٨ .

الآن ترعى حول بلاد بروسا أبقوها تيمنًا وتبركا، وهو أول من أظهر عظمة هذا الملك، وسلك سبيل العدل فيه حتى قيل فيه: ثالث العمرين.

وكان جميل الصورة حتى قيل : ثالث القمرين. وكان يحب الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام فيجمع أنواع الطعام وأصناف الحلوى، فيطبخ لهم بعد كل ثلاثة أيام سماطًا عظيما يأكل منه الخاص والعام ممن ذكر وغيرهم.

وكان الموجود له عند موته فرس وسيف ودرع ونحو ذلك من اللباس والفراش. كذا قاله العلامة محمد شلبي والد أحمد شلبي النشانجي قاضي محكمة مكة الشريفة سابقًا، وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وكان لجده سليمان أربعة أولاد منهم اثنان توجها إلى بلاد العجم وهما سنقر ودندار، وتوجه إلى بلاد الروم اثنان أرطغرل وكون وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي وكان سلطان بلاد قرمان، فأكرمهما وأذن لهما في الإقامة، وصار دأبهم الجهاد في سبيل الله إلى أن صار أمر أرطغرل إلى ما صار كما تقدم ذكر ذلك. وخلف أرطغرل أولادًا نجباء أقواهم جأشًا السلطان عثمان، فاستمر إلى أن توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدته ستا وعشرين سنة.

ثم تولى السلطان أورخان الغازي(١) ابن السلطان عثمان خان

مولده سنة سبع وثمانين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وسبعمائة وفتح إزنيق وبروسا وغيرهما.

وأرسل ابنه سليمان باشا إلى روم إيلي مع أربعين نفرًا ففتحوا قلعة ملقرة وأبسالة وبولاير، ووزه، وكان السلطان أورخان فاق والده في الجهاد وفتح البلاد وبذل الاجتهاد، وهو الذي افتتح بروسا في حياة والده ثم جعلها مقر سلطنته، واتسعت مملكته ونفذت كلمته.

واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر السلطانية الإسلامية واجتمعوا على أن يتعدوا من بلاد روميلي إلى جهة أنادول ويقاتلوا السلطان أورخان، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك، فاستأذن والده في قتالهم، فوقع حرب شديد كان الظفر فيه لسليمان بك، وهو أول من كتب على السكة من آل

(١) ينظر ترجمته في: تاريخ الدولة العلية ص ٣٦ - ٣٨، الشذرات ٦/ ١٨٩ .

عثمان فكتب في وجهٍ : محمد رسول الله، وفي الوجه الآخر اسمه الشريف، وهو أول من رتب طبقات العساكر وسمى الطبقات المذكورة بأسمائها المشهورة، وكان أول سلطنته بـ« بروسا » وأعمالها، ثم ملك عدة من البلاد الإسلامية وغزا الكفار وفتح ممالك متعددة، وغنم بلادًا وأموالاً، وبنى الجوامع ومساجد ومدارس ومطبخًا للمسافرين، وللمقيمين في غالب الممالك التي تحت سلطانه، وعمر في الطرقات والمفاوز، ومحال الخوف والمقطعة سبلا وخانات وقصورًا وجسورًا وأمثال ذلك من الخيرات العميمة، وسلك سبيل العدل والجود والفضل والإحسان على نمط والده المرحوم الساكن بأعالى الجنان. وتوفي السلطان أورخان حميدًا سنة إحدى وستين وسبعمائة عن ثلاث وثمانين سنة.

ثم تولى السلطان مراد خان[1] الغازي خدا وندكار ابن السلطان أورخان

وجلس على سرير الملك والسلطنة سنة إحدى وستين وسبعمائة في « بروسا »، ولي السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة، وافتتح كثيرًا من البلاد منها أدرنة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو أول من اتخذ المماليك، وسماهم ينيشري يعني: العسكر الجديد، وألبسهم اللباد الأبيض المثني إلى خلف، وسماهُ بُرْكلة بالضم للموحدة وسكون الراء، ثم توجه إلى فتح قوصوة، فلما وصل إليها التقى الجمعان، وانهزمت الكفار، ثم اجتمعت النصارى على سلطانهم أسبوت فقاتلهم السلطان مراد قتالاً عظيما فقتل سلطانهم، فأظهر واحد من ملوكهم الطاعة، وتقدم ليقبل يد السلطان، فلما قرب أخرج خنجرًا فضرب به السلطان مرادًا فاستشهد، فصار من يومئذ لا يدخل على السلطان أحد بسلاح، بل يدخل بين رجلين يكتنفانه، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

وفي « مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة » عن السلطان مراد ما نصه:

كان ملكًا جليلاً، ذا هيبة وعظمة، وشدة بطش، فتح الممالك العظيمة كقلعة نكبولي ونحوها، وحاصر الفرنج برًا وبحرًا، وضيق عليهم المسالك فانتدب لحربه بعض ملوكهم، فلما التقى الجمعان، وتصاف العسكران تحاربا وتعاركا وتضاربا،

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الدولة العلية ص ٣٩ - ٤٥، الشذرات ٦/ ٣٣٢ .

فقصد السلطان ملك الفرنج وحمل عليه مرة بعد أخرى فتقاربا وتعاركا وتضاربا وهما على ظهور الخيل، فسقطا معًا على الأرض فانقلب عدو الله على السلطان وضربه بالخنجر صادف مقتله، فأدركه عسكره، واحتملوه إلى خيمته وهو يجود بنفسه، فعهد بالملك إلى ابنه يلدرم بايزيد في التاريخ الآتي ذكره، ومات بعد ذلك سنة ست وتسعين وسبعمائة رحمه الله تعالى.

ثم تولى السلطان يلدرم با يزيد(١) ابن السلطان مراد الغازي

ولما سمع بوفاة أبيه خنق أخاه يعقوب شلبي واشتغل بالفتوحات، ففتح الأفلاق وقونية وآق سراى ونيكده وقيصرية وسلانيك، وغيرها من البلاد، ثم هرب بعض الأمراء من خدمة السلطان يلدرم ودخلوا عند تيمورلنك، فحركوه وجاءوا به إلى بلاد الروم، فالتقى العسكران في موضع يقال : جبوق أواسي، فانكسر السلطان يلدرم، لكثرة من مع تيمور من العسكر كالجراد المنتشر، فأخذ السلطان يلدرم وحبس ثم توفي بالحمى المحرقة سنة سبع وثمانمائة وكان ابنه الأمير محمد أمير أماسية فلما سمع بذكر ذلك خرج بعسكر أماسية خلف تيمور فأخذ جثة والده بعد حرب شديدة. وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة.

وتيمور ويقال: تيمورلنك(٢)، واللنك - في اللغة الفارسية -: الأعرج؛ لأنه كان به عرج، كان ظهوره في عام سبعمائة وثلاث وسبعين، وكان تاريخ ذلك لفظ « عذاب » قاله العلامة السيوطي في « تاريخه ».

وكان أول أمره راعيًا للغنم، ثم صار أمير آخور لبعض سلاطين العجم في سمرقند و« بخارى » فتغلب على مخدومه، ولم يزل حتى تفرد بالسلطان وملك البلاد طرفًا بعد طرف في أسرع زمن على أعجب أسلوب، وذلك أنه إذا قصد محلا ورَّى بغيره فيهجم على ذلك المحل وأهله غافلون، ثم يبدأ بقتل جميع من فيه من كل ذي روح، ثم يتملك البلاد ويأخذ جميع ما فيها من الأموال والسلاح والطعام

---

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الدولة العلية ص ٤٦ - ٤٩، الشذرات ٨/ ٣٢٩، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) ينظر ترجمته الوافية فى: «تاريخ بخارى» لأرمينوس بن فامبرى . ترجمة أحمد بن محمود الساداتى مراجعة يحيى الخشاب . بالإضافة إلى مؤلَّف خاص بسيرته وهو «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» لابن عرب شاه .

بحيث خربت جميع الممالك التي دخلها مما وراء النهر.

فلما خرج إلى البلاد الإسلامية كبغداد والروم والشام وحلب كان عادته يقتل أعيان البلاد وأركان دولتها، ثم ينصب فيها من يقوم بأمرها من جماعته، فهابته أكثر سلاطين الإسلام وملوكه، وقصدوه بالهدايا والتحف اتقاء شره.

ومولانا السلطان يلدرم صاحب الترجمة لم يلتفت إليه، ولم يكترث بشأنه لاشتغاله بالغزوات وما فيه سعادة الدنيا والآخرة فهجم على بلاد الروم على غرة وأسرع في السير إلى المحل الذي فيه السلطان المشار إليه قبل أن يعلم أحد بوصوله، فما وسع السلطان إلا مقابلته لأن شهامته أبت أن يعرض عنه ويترك قتاله، فاتفق بمراد الله أن كسر عسكر السلطان المذكور وحبسه إلى أن كانت وفاته بالحمى كما تقدم ذكر ذلك.

وفي «عجائب المقدور في أخبار تيمور» للإمام العلامة أحمد بن محمد الحنفي الدمشقي عرف بابن عرب شاه رحمه الله تعالى: ومعنى يلدرم البرق فوجه الأخذ المذكور من هذا اللقب سرعة الحركة، وقوة الظهور مع النور واللمعان، رحمه الله تعالى.

قلت: أخبرني بعض فضلاء أهل الهند أن ملكهم الآن، وهو المسمى أورنك زيب ابن شاه جهان يتصل نسبه بتيمور هذا، ومنه إلى جنكزخان طاغية التتار، وينكرون كونه راعيًا أو خادمًا لبعض ملوك العجم فتغلب على مخدومه في السلطنة، ويدّعون عراقته فيها. والله أعلم بالحقائق.

قلت: وذكر الإمام المذكور في كتابه المذكور واقعة لتيمور مع العلامة القاضي محب الدين أبي الوليد محمد بن محمد بن محمود الحلبي قاضيها الحنفي المعروف بابن الشحنة أحببت ذكر نصها(١):

لما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول من عام ثمان وثمانمائة أخذ يعني تيمور قلعة حلب بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان، فاستحضر علماءها وقضاتها فحضروا إليه، وطلب من معه من أهل العلم فقال لكبيرهم عنده، وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي، قل لهم: إني سائلهم عن مسائل سألت

---

(١) ينظر تفاصيل تلك المناظرة فى: «عجائب المقدور» ص ١٣٨ - ١٤٣ .

عنها علماء « سمرقند » و« بخارى » و« هراة » و« خراسان »، وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا الجواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبنى إلا أعلمكم وأفضلكم وليعرف ما يتكلم به، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم. قال صاحب الكتاب: وكان يبلغنا عنه أنه يتعنت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سببًا إلى قتلهم أو تعذيبهم.

قال القاضي ابن الشحنة: فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها - مشيرًا إليَّ - سلوه والله المستعان. قال: فقال لي قاضيه عبد الجبار: سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد: قتيلنا أم قتيلكم؟ فوجم الجميع، وقلنا في أنفسنا: هذا الذي كان يبلغنا عنه من التعنت. وسكت القوم، ففتح الله على بجواب سريع بديع. فقلت: هذا سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ، قال لي صاحبي شرف الدين المذكور بعد أن انقضت الحادثة: والله العظيم لما قلت : هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأنا محدث زماني، قلت: عالمنا قد اختل عقله، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبد الجبار قاضيه مثل ذلك وألقى إليّ تيمور سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار يسخر من كلامي: كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا، وكيف أجاب؟ فقلت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حميَّة، ويقاتل ليُري مكانه من الشجاعة، فأيّنا الشهيد في سبيل الله؟ فقال ﷺ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمةُ اللهِ هى العُلْيَا فَهُوَ الشَّهِيدُ ».

فقال تيمور لنك: خوب خوب. فانفتح باب المؤانسة فكثر منه السؤال، وكثر مني الجواب.

وكان آخر ما سأل أن قال: ما تقولون في على ومعاوية ويزيد؟ فأسرّ إلىّ القاضي شرف الدين: أن اعرف كيف تجاوبه فإنه شيعى، فلم أفرغ من سماع كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفصي المالكي كلامًا معناه: إن الكل مجتهدون، فغضب لذلك غضبًا شديدًا، وقال: عَلِيٌّ عَلَى الحقِّ، ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق، وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين.

قال: فأخذت في ملاطفته والاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده في

كتاب لا يعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط.

قال: ولما كان آخر شهر ربيع المذكور طلبنى ورفيقي القاضي شرف الدين وأعاد السؤال عن على ومعاوية، فقلت: لا شك أن الحق كان مع على في نوبته، وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » وقد تمت بعلي وابنه الحسن.

فقال تيمور لنك: قُلْ عَلِيٌّ عَلَى الحق، ومعاوية ظالم. فقلت: قال صاحب الهداية: يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع على في نوبته، فأنس لذلك. انتهى من الكتاب المذكور ملخصًا.

قلت: في قوله : « في نوبته » احتراز لطيف عن نسبة التعدي إلى الصديق، وتاليبه كما هو مذهبنا معشر أهل السنة والجماعة، ومرت على تيمور ولم يفطن لذلك.

وفي رواية: لما استولى على كثير من قلاع النصارى، هرب بعض وزرائه وحلق لحيته وحواجبه وصار فى صورة قلندري، ووصل معه جماعة إلى تيمور، وشكوا من السلطان يلدرم وحسنوا له الوصول إلى بلاد الروم، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية، وقتل من بها وأسر ونهب، واستمر إلى أن وصل أذربيجان، وخرج إليه السلطان فغدر به العساكر، وذهبوا إلى تيمور، ووثب هو ومَنْ بقي معه وقتل ولده السلطان مصطفى واستمر يقاتل إلى أن وصل بسيفه إلى تيمور، فألقى عليه بساط، فأمسك وتوفي. كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان محمد ابن السلطان يلدرم(١)

واستقر في السلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة، وكانت مدته تسع سنين.

وافتتح عدة من الحصون منها: بلدة اسكب وآق شهر وغيرهما.

وكان شجاعًا مقدامًا مجاهدًا في سبيل الله تعالى، وله خيرات متعددة منها بـ« برسا » جامع عظيم، ومدرسة علمية، وتربة سلطانية، ومنها بولاية مرزفون جدد، وأنشأ جامعين وحمامين، وأوقافًا عديدة كثيرة الغلة، وقفها وشرط أن تحمل غلتها إلى الحرمين الشريفين.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٥٢ - ٥٥ .

فهو أول من عمل الصر لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان أدام الله دولتهم وصولتهم.

ولما تم أجله المسمى في أم الكتاب، دعاه ملَك الفناء إلى دار البقاء المستطاب. فعاش سعيدًا، ومضى حميدًا، وتحول من دار البلى إلى دار البقا ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق: ٨].

وكانت وفاته بمرض الإسهال، فتكون له مرتبة الشهادة، وذلك في سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

ثم تولى السلطان مراد الثاني[١] ابن السلطان محمد بن يلدرم

وجلس على تخت السلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، وظهر في أيامه رجل وادعى أنه ابن السلطان يلدرم، واسمه مصطفى الذي فقد في فتنة تيمور، فظهر تزويره فصلبوه في برج قلعة أدرنة. وفتح في زمنه سمندرة ومورة. ثم إنه بحسن اختياره أقعد ولده محمدًا الآتي بعده واختار التقاعد ببلدة « مغنيسا » مدة.

ثم قامت عليه طائفة الينيشرية، فأرسلوا إلى مغنيسا وأتوا بوالده منها، وأجلسوه ثانيًا على سرير السلطنة.

فلما توفي أجلس ابنه السلطان محمد على تخت السلطنة، وعمره ثمانية عشر عامًا، وعاش تسعًا وخمسين سنة، وكان ملكًا عظيمًا مطاعًا، عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبًا، وللشرفاء مثلها في كل عام، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين عامًا.

قال ابن تغري بردي في « تاريخه »: لم يكن في زمانه شرقًا ولا غربًا مثله في غزو الكفار أهلك الله على يده الملك قزال، عظيم ملوك الفرنج؛ في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، وكانت وقعة عظيمة مشهورة هلك فيها من الفريقين ما يزيد على عشرين ألفًا، كانت طوائف الكفار اجتمعوا من كل ناحية في هذه الوقعة، وعزموا على استئصال ثغور الإسلام خصوصًا بيت المقدس، فلما التقى الجمعان ظهر أن طائفة الكفار فوق عدد المسلمين بأضعاف مضاعفة، فلما وقع الحرب ظهرت الغلبة على المسلمين.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٥٦ - ٦٣ .

فأرسل الله تعالى ريحًا عاصفًا بتراب عظيم على جانب الكفار فأدبروا وركب المسلمون أكتافهم قتلاً وأسرًا، وغنموا غنائم جزيلة لا حد لها ولا عد، من النقود والخيول والسلاح وغير ذلك، ومحاسنه كثيرة ومآثره شهيرة.

ثم تولى السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية[1] ابن مراد

مولده: عام خمس وثلاثين وثمانمائة، جلوسه أولا بفراغ من والده له في عام سبع وأربعين وثمانمائة، وتقاعد والده بولاية مغنيسا إلى نيف وخمسين، فقامت طائفة الينيشرية واجتمعت على عود السلطان مراد خان لصغر ولده محمد المذكور، فعاد السلطان مراد مدة يسيرة ثم أدركته الوفاة.

واستقر السلطان محمد المذكور في الملك عام وفاة والده الموافق لسنة ست وخمسين وثمانمائة.

ثم إن السلطان محمد سلك طريق العدل وأقام نظام الملك، وأظهر أبهة السلطنة وذلك جميعه ببركة والده ونفع ما جمعه له من المال والرجال، والمدن الواسعة، والأمصار النافعة، وهابته الملوك ودخلت في طاعته أكابر الممالك وأعيانها، فملك تسعة سلاطين أربعة من المسلمين وخمسة من النصارى، أما المسلمون فسلطان ولاية « قرمن »، وسلطان « كرميا »، وسلطان « النكا »، وسلطان « اسفنديار »، وفتوحاته مشهورة.

وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وأقواهم اجتهادًا، له غزوات كثيرة لا تحصى، من أعظمها: فتح القسطنطينية في اليوم الحادي والخمسين من حصارها، وهو الرابع والعشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وله كرامات عجيبة وآثار بديعة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة. ولما افتتح القسطنطينية صلى فى أكبر كنائسها وهي أيا صوفية صلاة الجمعة وهي باقية تسامي قباب السماء وتحاكي في الاستحكام متين الأهرام، فما وهت ولا وهنت كبرًا ولا هرمًا.

دام سلطانه إلى أن مات سنة ست وثمانين وثمانمائة.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٦٤ - ٦٩، صحوة الرجل المريض ص٤٠ - ٤١ .

ثم تولى السلطان بايزيد[١] ابن السلطان محمد وجلس في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وافتتح الفتوحات

وفي أيامه في سنة ثمان وثمانين أو خمس وتسعين وثمانمائة ظهر من بلاد العجم شاه إسماعيل ابن حيدر الصفوي وكان له ظهور عجيب وفتك في البلاد، وسفك دماء العباد، فأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغير اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد. وأخرب ممالك العجم، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد، والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن في جميع البلاد.

وظهر من أتباع شاه إسماعيل المذكور ببلاد الروم شخص ملحد زنديق، يقال له: سلطان قولي. أهلك الحرث والنسل، وعم بالفساد والقتل، فأرسل السلطان وزيره الأعظم علي باشا بعسكر كثير إلى قتال هذا الطاغي وأمده بجيش عظيم لقطع جاذرة هذا الباغي فاستشهد علي باشا في ذلك القتال، ووفد بأكفان شهادته على الكبير المتعال، وانكسر الشيطان فولى المفسد التعيس وعسكره جنود إبليس، وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما أطلقت، وكفى الله شر أولئك الأشرار بعد أن عظمت محنتهم وعمت .

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة قاتله أخوه السلطان جم شيد، فبرز السلطان بايزيد لقتاله فهزمه، ففر إلى مصر ونجح زمن السلطان قايتباي، وعاد فأكرمه السلطان قايتباي إكرامًا عظيمًا، فذهب إلى دوسق وجمع طائفة من الغزاة، ونازع أخاه على الملك ثانيًا، فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانيًا، وفر إلى بلاد النصارى في سنة ٨٨٨ ثمان وثمانين وثمانمائة، فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده في صورة حلاق، فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموسى مسموم، وهرب في الحال، وأثر السم في رأسه وسرى إلى بدنه فمات سنة خمس عشرة وتسعمائة.

وكان السلطان بايزيد ملكًا جليلاً عالمًا عاملاً، ترقى فى مراتب الكمال الجليلة وتسنَّم ذرى المفاخر الأثيلة، جمع الله له بين السلطنة العظمى الظاهرة، والإمامة

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٠ - ٧٨ .

الكبرى الباطنة حتى نقل عنه أنه كان يرى القبلة المعظمة في افتتاح كل صلاة، وكانت أيامه كثيرة الخيرات والفتوحات.

وكان يجهز إلى أهل الحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهبًا يصرف نصفها على فقهاء مكة والآخر للمدينة.

وممن ورد عليه في شبابه خطيب مكة الشيخ محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن العراقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن العُليف شاعر البطحاء، وفاضلها فنالا منه خيرًا كثيرًا. وصنف له العليف تاريخًا « سماه الدر المنظوم، في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم »، وامتدحه بقصيدة رائية طنانة أولها: [من الطويل]

خُذُوا من ثنائِي موجبَ الحمدِ والشكرِ ... ومِنْ در لفظِي طيب النظمِ والنثرِ
فيا راكبًا يسرى على ظَهْر ضامر ... إلى الروم يهدي نحوها طيبَ النشرِ
لك الخير إن وافيت بروص عُجْ بها ... رويدًا لإسطنبولَ سامية الذكْرِ
لدي ملك لا يبلغُ الوصْفُ كنهَهُ ... شريف المساعي نافذ النهْيِ والأمرِ
إلى بايزيد الخَيْر والملك الذى ... حمى بيضة الإسلام بالبيضِ والسمرِ
وجرّد للدين الحنيفيِّ صارمًا ... أباد به جمع الطواغيتِ والكُفْرِ
وجاهدهم في الله حقَّ جهادِهِ ... رجاءَ لما يبقَى من الفوزِ والأجرِ
له همة تملأ الصدور وصولة ... مقسَّمة بين المخافةِ والذكْرِ
أطاعَ له ما بَيْن روم وفارسٍ ... ودان له ما بين بُصْرى إلى مصرِ
هو البحرُ إلا أنه دائمُ العطا ... وذلكَ لا يخلو من المدِّ والجزرِ
هو البدرُ إلا أنه كامل الضيَا ... وذاك حليفُ النقْصِ في معظمِ الشهرِ
هو الغيثُ إلا أن للغيثِ مسكةً ... وذا لا يزالُ الدهر ينهل بالقطرِ
هو السيفُ إلا أن للسيفِ نبوةً ... وفلًّا وذا ماضى العزيمةِ في الأمْرِ
سليلُ بنى عثمان والقادةِ الألَى ... علا مجدهُمْ فوقَ السماكَيْنِ والنسرِ
ملوكٌ كرامُ الأصلِ طابَتْ فروعُهُمْ ... وهل ينسبُ الدينار إلا إلى التبرِ
محا أثر الكفارِ بالسيفِ فاغتدَتْ ... به حوزة الإسْلام سامية القَدْرِ
فيا ملكًا فاق الملوك مكارمًا ... فكلٌّ إلى أدنى مكارمه يجري
لئن فقتهُمْ في رتبة الملكِ والعلا ... فإنَّ الليالي بعضها ليلةُ القدرِ

فدتك ملوكُ الأرضِ طرًا لأنها سراجٌ وأنتَ البدرُ في غرة الشهرِ
تعاليْتَ عنهم رفعةً ومكانةً وذاتًا وأوصافًا تجلُّ عن الحصرِ
لك العزةُ القعساءُ والرتبةُ التى قواعدهَا تسمو على أبرجِ النسرِ
سموتَ علوًا إذ دنوتَ تواضعًا وقمتَ بحق الله في السر والجهرِ
غدت بك أرضُ الرومِ تزهو ملاحةً وترفل في ثوبِ الجلالةِ والفخرِ
إليك ابن عثمان الذي سَارَ ذكْرُهُ مسير ضياء الشمسِ في البَرِّ والبَحْرِ
يمينكَ تروى عن يسارٍ ونائلٍ ووجهُكَ يروى فى البشاشة عن بشرِ
وإني لصوَّانٌ لدرٍّ قلائدي عن المدحِ إلا فيك يا مالك العصرِ
فقابل رعاكَ الله شكري بمثلِهِ فإنك للمعروف من أعظمِ الذخر
فلا زلتَ محروسَ الجنابِ مؤيدًا من الله بالتوفيقِ والعزِّ والنصرِ

فأمر للعليف بعد وصولها إليه، وفرحه بها بألف دينار ذهبًا جائزة، ورتب له في دفتر الصر لكل عام مائة دينار ذهبًا فصارت بعده لأولاده رحمهم الله تعالى.

وكان للسلطان بايزيد أولاد، ولم يخلع بالملك إلا لولده سليم خان، ودام سلطانه اثنين وثلاثين عاما، إلى أن مات سنة ٩١٨ تسعمائة وثمانية عشر.

ثم تولى السلطان سليم ابن السلطان با يزيد كاسر العجم وفاتح بلاد العرب(١)

وجلس في سنة ثمان عشرة وتسعمائة، وفي سنة عشرين وتسعمائة ركب على إسماعيل شاه العجم ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد ابن الشيخ إبراهيم ابن سلطان خوجه شيخ على ابن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي، وإليه ينسب أولاده فيقال لهم : الصفويون.

وكان الشيخ صفي الدين صاحب زاوية في أردبيل، وله سلسلة في المشايخ أخذ عن الشيخ زاهد الكيلاني، وتنتهي بوسائط إلى الإمام حجة الإسلام أحمد الغزالي فرجع بالظفر المبين.

ثم في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ركب على السلطان الغوري، وكسره في مرج دابق قرب حلب وأباد ملكه، وقد مرت قصته.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٩ - ٨٦ .

ومن وزرائه الأجلة بير باشا، وابن هرسك أحمد، وسنان باشا، وزنبيلى وغيرهم.

مولده في « أماسية » سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكان عمره جميعه أربعا وخمسين سنة ولم تطل سلطنته لأنه كان سفاكا، وهذه عادة الله تعالى فى السلاطين والأمراء إذا أكثروا من القتل، وكان سلطانًا قهارًا، ملكًا جبارًا، يغير زيه في لباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الأخبار، وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة، وفي الأسواق والمحافل والجمعيات ومهما سمعوه ذكروه له فيعمل بمقتضى ما يسمعه، وله معرفة باللسانيْن الرومي والفارسي، وشعر رائق ونظم فائق، ورأيت له بيتين في الكوشك الذي بنى له، لما فتح مصر وهما بالعربي بخطه قوله: [من البسيط]

أَلمُلْكُ لِلَّهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنَى ... يَتْرُكْهُ قَسْرًا وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ الدَّرَكَا

لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِغَيْرِي قَدْر أُنْمُلَةٍ ... فَوْقَ التُّرَابِ لَكَانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكَا

وتحتها ما صورته: كتبه سليم بذلك الخط والقلم.

كذا ذكره العلامة قطب الدين النهروالى عن نفسه فهو فاعل رأيت.

وسليم هذا هو أول من ملك مصر من آل عثمان سلاطين الزمان أدام الله تعالى دولتهم إلى يوم القيامة، ومد على ملكهم فسطاط الإجلال والكرامة. فإنهم ظل الله تعالى الممدود على الأرض، والقائمون بشعائر الإسلام من السنة والفرض.

كان عظيم الهيبة، سعيد الحركة، كثير المبرات دائم الأسفار، مستيقظًا للأمور الجليلة، نظره إلى معالي الأمور، لو انتظم في سلكه كل لحظة أعظم الأمصار هو عنده في غاية الاحتقار والاستصغار، ويكفيه فتح مصر أم الدنيا، طاب ثراه في الجنان العليا.

ولد السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته بنزوله له عن الملك لأمر اقتضاه الحال.

وأما سبب ركوبه، ومقاتلته لإسماعيل شاه، فإن إسماعيل هذا طغى وبغى وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعًا، ولا يمسك شيئًا من الخزائن بل يفرقها في الحال على عساكره، إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وخراسان.

وكان يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقتل خلقًا لا يحصون ينيفون

على ألف ألف أو يزيدون بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية مقدار ما قتله شاه إسماعيل هذا، وهو من ملوك العجم الموسومين بقزل باش وكان ركوبه عليه سنة عشرين وتسعمائة، فحاربهم الحرب الشديد، وانتصر عليهم، وملك غالب بلادهم مع مزيد قوتهم وعزتهم، وكان قبل الحرب كتب إليهم كتابًا فلم يعبئوا به ثم كتب إليهم كتابًا آخر أغلظ عليهم فيه، ووسمهم بالخوف والجبن عن اللقاء فاستنهضهم به؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وصورة الكتاب الأول: ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام، وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفرك وفسادك، وضلالك وعنادك، لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسدة، والأحوال الفظيعة، والأقوال القبيحة الشنيعة. ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية، والرايات الدينية. وسرتُ إلى بلادك لإمحاء رسمك ووجودك. واضمحلال اسمك وجنودك. لكن لما كان من سنة الدين، وطريق الحق المبين، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام، قبل الإلجاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف؛ أرسلت إليك مخبرًا بأنك إن أخلصت التوبة، وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة فقد فزت بالمقصد الأسنى، ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى.

وإن لم ترجع فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، ورايات الظفر المبين، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، لترمى بالعذاب مجاهرة، والنكال مباهرة، والسلام على من اتبع الهدى.

فلم يرتدع لذلك، فأرسل إليه بكتاب ثانٍ بديع اللفظ والمعاني، فلم يرتدع لفرط العتو والطغيان. فسار إليه السلطان سليم، فتلاقيا في « شالدران » بقرب « تبريز ».

وأراد أن يقيم بتبريز لأخذ إقليم العجم جميعه فما أمكنه ذلك لكثرة الغلاء والقحط، وسبب ذلك أن القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق تخلفت عنه في محل الاحتياج إليها وما وُجد في تبريز شيء من المأكولات والحبوب؛ لأن إسماعيل شاه حرقها عند انكساره، فاشتد الغلاء بحيث بيعت العليقة بنحو مائتي درهم، والرغيف الخبز بمائة درهم، فاضطر السلطان سليم إلى العود

عن تبريز إلى بلاد الروم، وتركها خاوية على عروشها، ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل وتأخرها عنه وقت الحاجة، فأخبر أن سبب ذلك أن سلطان مصر الغوري قانصوه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات، بحيث كان السلطان الغوري يتهم بالرفض وعقيدته سبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنهم صمم على قتال الغوري أولاً، وبعد استيلائه عليه وعلى بلاده يتوجه على شاه إسماعيل ثانيًا.

فلما استقر ركابه في تخت ملكه، تهيأ لأخذ مصر، وإزالة دولة الشراكسة عنها.

وتوجه إلى ناحيته من جهة حلب، فالتقيا بـ« مرج دابق » كما تقدم ذكر ذلك مفصلا.

كانت مدته ثمان سنين وأيامًا، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله برحمته، وأسكنه بحابيح جنته.

ثم تولى السلطان سليمان بن سليم خان(١)
سنة ست وعشرين وتسعمائة

ولد سنة تسعمائة تقريبًا، فتكون سنُّه حين التولية ستًّا وعشرين سنة، سلك طريق المعدلة وجادة الإنصاف، وتفقد أحوال الرعايا والعساكر، ورفع الظلم والاعتساف، وأعرض عن المنهيَّات.

وله خيرات لا تحصى معروفة في الآفاق، وفتوحات وغزوات، رفعت أهل الإيمان، وخفضت أرباب الشقاق والنفاق، منها: انكروس ورودس وبُدِن وبلغراديج وغزوة العجم، وألمان وأولونية وبغداد واسطنبول والستوراغون وسكتوار آخر غزواته، وتوفي فيها سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

ومن مشاهير العلماء فى أيام دولته المفتي على شلبي وكمال باشا زاده وسعدي شلبي وجوي زاده ومفتي خواجه شلبي وأبو السعود أفندي صاحب التفسير وغيرهم.

ووزراؤه بيري باشا وإبراهيم باشا وإياس باشا ولطفى باشا وسليمان باشا ورستم باشا وعلي باشا ومحمد باشا، كلهم كانوا أرباب خيرات ومبرات.

افتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بالطعن

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٨٧ - ٩٦، صحوة الرجل المريض ص ٤٢ - ٤٣ .

والضرب. وأيد الدين الحنيفي بمجده وسيفه الباتر.

وأقام الملة الحنيفية، وأحيا ما لها من مآثر، ونصر مذهب السنة السنية، وأظهر شعائر الإسلام البهية، وردع أهل الإلحاد فما لهم من قوة ولا ناصر.

وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر، كما ورد: « لِكُلِّ قَرْنٍ مُجَددٌ ظَاهر » .

وبنى المدارس المعروفة بالسليمانية للأربعة الأئمة : المالكي ثم الحنفي ثم الشافعي ثم الحنبلي.

وقد جعلت مدرسة دار حديث لعدم متأهل من الحنابلة، وبسط بساط العدل في سائر الممالك، وفتح القلاع والحصون، ومهد المسالك.

وكانت أيام سلطنته باسمة الثغور، ودولته الشريفة غرة في جباه الدهور.

وله فتوحات عديدة منها، وهو أولها: رودس، وغيرها مما تقدم ذكره.

ومنها: الأقطار اليمنية وثغورها الإسلامية، وكانت في القديم لعدة سلاطين وملوك.

وههنا أحببت ذكر رسالته إلى الإمام المطهر بن شرف الدين الحسني الداعي بقطر اليمن لحسن تنميقها وكثرة تحقيقها ومتانة ألفاظها وإيراقها، ورصانة إرعادها وإبراقها. وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا مثالنا الشريف السلطاني، وخطابنا المنيف العالي الخاقاني، لا زال نافذًا مطاعًا بالعون الرباني، واليمن الصمداني، أرسلناه إلى الأميري الكبيري، العوني النصيري، الهمامي المطهري، الشريفي الحسيبي النسيبي، فرع الشجرة الزكية، طراز العصابة النبوية العلوية، ونسل السلالة الهاشمية السنية المطهر بن شرف الدين. نخصه بسلام أتم، وثناء أعم.

ونبدي لعلمه الكريم أنه لا يزال يتصل بمسامعنا الشريفة إخلاصه لدينا، وقيامه بقلبه وقالبه بمرضاة سلطاننا وانقياده إلى جانبنا، وبمقتضى ذلك حصل شكرنا التام، والثناء العام، على مناصحته ومكاتبته.

ولما برز أمراؤنا الشريفة مسابقين متتابعين مع وزيرنا المعظم سليمان باشا إلى البلاد الهندية لفتح تلك الجهات السنية؛ إحياء لسنة الجهاد، وقطع دابر الفساد وأهل

العناد. فاستبشر بذلك كل مسلم وصار فرحا مسرورًا، فوقع قدر الله وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

فرجع وزيرنا المشار إليه فوجد طائفة من اللوند قد تملكوا « زبيد » من المملكة اليمنية، وحصل منهم غاية المشاق بأذى الرعية، وزاد ظلمهم على العباد والبلاد، وعم ضررهم كل حاضر وباد، فتتبع آثارهم وقطع دابرهم، واستنقذ الرعايا من أيديهم وصارت مملكة زبيد من ممالكنا الشريفة، وعاد إلى أعتابنا المنيفة، وأبرز من يديه مكتوبكم ومكتوب والدكم يتضمن الإخلاص لطاعة سلطاننا، وأنهما صارا من أتباعنا، اللائذين بأعتابنا، وبموجب ذلك حصل عندنا لكم زيادة المحبة الصادقة وحسن المودة، وتحققنا ما كان يبلغنا عنه على ألسنة الناس السفار، المترددين على أعتابنا الشريفة من تلك الديار، وبلغنا الآن عنهما خلاف ذلك وتغير ما كاتبنا به في السابق، مثل غير مطابق. وأنه وقع بينهما وبين أمرائنا وعساكر دولتنا بتلك البلاد خُلف كبير، ووقائع عم ضررها المأمور والأمير، وهذا عين الخطأ المحض الذي يترتب عليه ذهاب الروح لمن عقل وفهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، فالآن ملكنا الشريف السامي قد ملك بعون الله تعالى بساط الأرض شرقًا وغربًا، وصارت سلطنتنا القاهرة كالإبريز المصفى، بعون النبي المصطفى، ورقم سجل سعادتنا بآيات النصر، على أهل العصر، وعلى سائر الملوك بإحياء سنة الجهاد إلى يوم العرض ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الجمعة: ٤]، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وعساكرنا المنصورة أينما انخرطت خرطت، وأينما سقطت التقطت، وحيثما سلكت ملكت، وأين حلت فتكت، لا يعجزهم صغير ولا كبير، ولا جليل ولا حقير، ولو شئنا لعينا من عساكرنا المنصورة شرذمة قليلون. نحو مائة ألف أو يزيدون، مشاة وركبانًا من البر والبحر، لأمرائنا ولأمرنا ممتثلون، ونقوى عددهم بالاستعداد، ونشدهم بالقوة والآلة والزاد، ونتبع العسكر بالعسكر، ونملأ البر والبحر، ونلحق الجيش بالجيش من كل أسود وأحمر، حتى يتصل أول عساكرنا بآخرهم، ووواردهم بصادرهم، ويكون أولهم في البلاد اليمانية، وآخرهم في بلادنا المحمية.

ولا نحتاج نعرفكم بقدرة سلطاننا وتشييد أركان دولتنا وتشديد عزمتنا. فإن

الملوك ذوي التيجان، وأصحاب القوة والإمكان، لا يزالون خاضعين لهيبتنا الشريفة قهرًا عليهم، مطأطئين رءوسهم خشية مما يلحق بهم عند المخالفة ويصير إليهم، وذلك مشهور ومعلوم، وظاهر ليس بمكتوم، لكن غلب حلمنا عليه من تعجيل النكاية إليه كونه من سلالة سيد المرسلين، ومن أهل بيت النبوة الطاهرين، ولازم على ناموس سلطنتنا الشريفة أن ننبه قبل اتساع الخرق عليه، ونعرفه بما يحل به ويصير إليه، وكونه آوى إلى الجبال يتحصن بها عن الزوال، ويزعم أن ذلك ينجيه فهذا عين المحال، وتدبيره تدميره على كل حال، جهل ذلك أم علم ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣]، ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ [القيامة: ١٠، ١١] ولا لهارب من سلطنتنا مفر.

وقد اقتضت أوامرنا الشريفة تعيين افتخار الأمراء الكرام، صاحب العز والاحتشام، المختص بعناية الملك العلام مصطفى باشا، دامت معدلته، ونفذت كلمته باشا على العساكر المنصورة، وصحبته ثلاثة آلاف من الجند المؤيدة بالله مشاة ورماة، حماة كفاة، إعانة لأمير الأمراء الكرام، ذوي القدر والاحترام، المخصوص بمزيد عناية الملك العلام، ازدمر باشا دامت معدلته وحرست نعمته، وعينا من البر ألفي فارس، وهيأنا مثلها بعددها وعليقتها من البحر، فعرض على مسامعنا الشريف مصطفى باشا أن أن يؤخر تجهيز الجيش المذكور من البحر إلى حين يتوجه إلى تلك الجهات وينظر في الأحوال، وما عليه أهل تلك الأقطار من الحال، وإذا وقع من أحد خلاف، واحتاج إلى الخيول المذكورة فيجهز إلينا لطلبهم فتصل إليه على ما يحب، فأخرنا ذلك إلى حين يعود الجواب بتحقيق الأخبار عن الإمام وولده. فحال وصول مصطفى باشا المشار إليه إلى تلك الديار، واستقراره بتلك الأقطار، ولابد أن تحضر إلى خدمته، ممتثلا لكلمته، وتقابله بقلب منشرح، وصدر منفسح، وتمشي تحت صناجقنا الشريفة، وتدخل تحت طاعتنا المنيفة، وتكون مع عساكرنا منضما لأوامرنا المذكورة على قلب رجل واحد، غير متقاعس ولا متقاعد. فإن مصطفى باشا المشار إليه، باشا عساكرنا وخليفة أمرنا، وكلامه من كلامنا. وأمره من أمرنا، ونهيه من نهينا، ومن أطاعه فقد أطاعنا، ومن خالفه فقد خالفنا، ونعوذ بالله من المخالفة، وعدم الانقياد والمؤالفة، فليتفكر المطهر في

نفسه، قبل حلول رمسه، وليتنبه من رقدته، ويصحو من غفلته، ويفيق من سكرته.

فإن فعل ذلك وانضم إلى سلطنتنا الشريفه، فقد رحم نفسه وصان مهجته ويرى من دولتنا العادلة غاية الرعاية، وبلوغ الأمنية مع الزيادة إلى حد النهاية.

وأنه إذا دخل تحت طاعتنا ومشى على الاستقامة لدينا، وانضم إلى عساكرنا فننعم عليه بأمرنا الشريف بما يستحق به فى مملكته مستقلا به من غير معارض له في ذلك، ولا منازع له فيما هنالك، فحيث فعلت فأنت من الفائزين، لا تخف ولا تحزن، إنك اليوم لدينا مكين أمين، وإن حصل والعياذ بالله مخالفة، واستمر على العناد والمجانفة، وانهمك في الضلال، والمكابرة والخيال، فيصبح ذنبه في رقبته، ويهلك نفسه بيده ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨]، ويدخل في قول أصدق القائلين: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: ٢] ويصير بعد الوجود إلى العدم، ويندم حيث لا ينفعه الندم، وقد حذرنا رأفة به وتحننا عليه، بإصدار هذا الكتاب إليه، فإن خالف أتيناه بجنود لا قبل له بها، وأخرجناه منها ذليلا حقيرًا، لا ملجأ له من سلطنتنا إلا إليها التي هى لمن سالمها ظلا ظليلا، وعلى من خالفها عذابًا وبيلا، ومثله لا يدل على الصواب فليعتمد على ذلك وعلامتنا الشريفة حجة عليه والسلام عليه.

فكتب إليه الإمام المطهر الجواب وهو: نور الله شمس الإسلام وأطلعها، وفجر عيون الشريعة وأنبعها، ولألأ كواكب الدين الحنيفي وأسطعها، وأعلى منار الملة البيضاء ورفعها، وزلزل جموع الظلم والعداوة وزعزعها، وأرعد قلوب الجبابرة المردة وأرعبها، وألف بين قلوب المسلمين وجمعها، بدوام دولة مولانا السلطان المعظم العظيم، ذي الملك الباهر القاهر العقيم، القاطع بسيوف عزمه عنق كل جبار أثيم، الذي أوتي الحكمة والتحية والله يؤتي من يشاء فضله العميم. شمس الخلافة المضيئة في الليل البهيم، ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه القويم، حجة الله الواضحة للحق على التعميم. أمينه على خلقه، وخليفته القائم بحقه بتقدير العزيز العليم. المتسم بحماية آل الرسول، وأبناء فاطمة البتول، سلالة النبي الكريم، الباسط عليهم ظل عدله فلا ينالهم حَر الجحيم، فهم راتعون في رياض إحسانه ولها نبت وسيم، وكارعون من حياض امتنانه التي لا يشوب صفوها الدهر المليم. سامي

الفخار، زكي الأصل والنجار.

الفائز بحوز قصبات السبق في الحسب الصميم. الكافِّ لأكُفِّ من تعاشى عن الهداية، وسلك مسالك الغواية، وكان له في العجرفة تصميم.

الذي لا تحصى صفاته بتعداد، ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد، واسأل بذلك كل خبير عليم. الخنكار الكبير، والخاقان الشهير سليمان بن سليم.

أهدي إلى مقامه نجائب التحية والتسليم، ورحمته الطيبة، وبركاته الصيِّبة، الموصولة بنعيم دار النعيم. وحرس جنابه العالي، وحرمه المحترم من صروف الليالي، بما حفظ به الآيات والذكر الحكيم. فإنه ورد من تلقائه - أطال الله للمسلمين في بقائه - مرسوم سطعت أنواره، وطلعت بالمسرة شموسه وأقماره، وتضاحكت في عرصات المجد كمائمه وأزهاره، وجرت في جداول الحمد أنهاره، وتحاسد على مشرفه ليل الزمان ونهاره. مرسوم تقر به العيون، وتصلح به الأحوال والشئون. أنشئ لله نجاره فوجدناه أشفى من الترياق، وأبهى من الإثمد في دعج الأحداق. يتبلج تبلج البرق، ويحلب الخيرات تحلب الودق، يفوق اللؤلؤ الثمين منشورًا، ويفضح شقائق النعمان زهورًا، ويجعل ممدود الثناء عليه مقصورًا. فتعطرت الأندية بنشره، وأعلنت الألسن بحمده وشكره، وهبَّ في البوادي والأمصار نسيم ذكره، ودخلت الناس أفواجًا تحت نهيه وأمره: [من الخفيف]

حَبَّذا مُدْرَجًا كَرِيمًا جَلِيْلاً ... زَانَهُ مُنْشِئٌ كَرِيمٌ جَلِيلُ

لَفظهُ الدُّرُّ في السُّمُوطِ وفَخْرًا ... وبِمَعْنَاهُ سَلْسَلٌ سَلْسَبِيلُ

وإِذَا المُدْرَجَاتُ كَانَتْ مُلُوكًا ... فَهْوَ فِيهَا وبَيْنَها إِكْلِيلُ

مُدْرَجٌ فيه لِلْبَهَاءِ غُدُوٌّ ... ومَرَاحٌ ومَسْرحٌ ومَقِيلُ

فلله در أنامل صاغته بالبلاغة، وضمنته ما يعجز عنه قدامة وابن المراغة، فلو رآه الملك الضليل لطأطأ رأسه خاضعًا، أو لبيدٌ خر ساجدًا وراكعًا.

وعرفنا ما ذكره سلطان الأمم، وملك رقاب العرب والعجم، المتسم بحماية الحرم، من الإحاطة بطاعتنا، ودخولنا تحت لوائه وأقواله وأفعاله، والحمد لله الذي وفقنا لطاعته، وردنا عن السلوك في مخالفته، فإن لنا بكم الحظ الأوفر مع زيادة الحسنى، والنصيب الأفخر الأهنى.

ونرجو نيل الشرف الكامل الأكمل، ونجح المُنَى والمطالب، وبلوغ نهاية الأماني والمآرب. فمن استمسك بعروتكم الوثقى فاز بمطالبه، ونال الغاية القصوى من مآربه، ورفع له الدرجات السامية العلية، وتم له بذلك كل سؤال وأمنية، ويحظى بعيشة هنية، راضية مرضية. وهذه طريقة معروفة، وسنة قديمة مألوفة. لا تميل عن الوفا، ولا تكدر من ذلك المشرب ما صفا. كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق، ومعصيتكم تظلم منها المغارب والمشارق، ونحن من مودتكم على يقين، ونرجو أن لا تصغوا أذنًا لكلام الفاسقين، ولا تهملوا رعاية الصالحين المتقين، ولا تقطعوا حق ذرية النبي الأمين، وأبناء عليّ الأنزع البطين، كرم الله وجهه في عليين ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]، وذلك نص الكتاب المبين.

فأنتم أولى برعاية من أمر الله أن يرعى، ومن تقر به من عِتْرَةِ النبي أذنًا وسمعًا، فكم لكم من محامد مشكورة، ومفاخر مشهورة، ومعاني جميلة منثورة، نؤمل أن تشقوا بحسامها نوافج الوشاة، وتردوا كيد كل كذاب لا يراقب الله ولا يخشاه، والذي ينقله إليكم أرباب الزور، والإفك والفجور. من تحولنا عن طاعة السلطان الأعظم، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم. كذب يعلمه الداني والقاصي، ومن التمويه الذي لناقله أشد الاقتصاص. حاشا وكلا أن نرضى مخالفة، أو نميل عن الأحوال السالفة، أو ننكر تلك المعارف العارفة، نعوذ بالله من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، أو نكون ممن تعدى الحد بعد الطور، وتقاعد عن طاعتكم وهي محل السعي إليهَا على الفور، فنكون كمن اشترى الضلالة بالهدى، وتحول عن السلامة إلى مخاوف الردى، وآل الرسول عليه الصلاة والسلام أعرف الناس بالصواب. وأعلمهم بمعاني السنة والكتاب. أطيعوا الحديث. ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو خبيث نبيث. فثقوا منا بالمحبة الراسخة أطنابها، والمودة الشامخة قبابها، والرعاية المفتحة أبوابها.

والذي أشرتم إليه في سامي الخطاب، وبطاقة الكتاب، من بلوغ مخالفتنا لعساكركم المنصورة، وكتائبكم الواسعة الموفورة، ليس له صحة ولا ثبات، ولا كان لنا إلى حربهم تعد ولا التفات، بل قصدونا إلى تلك الجهات، وجلبوا علينا

أتراكا وأرْوامًا، وهتكوا أستارًا كانت بيننا وبينهم وذمامًا، ولا راعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكامًا، وضيقوا علينا مسالك المعيشة خلفًا وأمامًا، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون أوثانًا وأصنامًا.

ونحن من الذين أوجب الله لهم احترامًا، نقيم الشرائع ونميت البدائع ولم نلق أثامًا، ومن الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا. فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا بما أمكن من الدفاع، وترك الزيادة عنها لا يستطاع. ونحن في مهاجر يسير، ومكان يأوي إليه البائس الفقير، لا ينافس من اعتصم به، واقتصر على طاعة ربه.

ولو أن عساكركم المنصورة الألوية، المسلمة من صروف الأقضية، وجهوا هممهم العلية، وعزائمهم الصلبة القوية، إلى الجهات العصية الكفرية. إذًا لنالوا من الخيرات نيلا عظيمًا، ولسلكوا سبيل السعادة صراطًا مستقيمًا، وأدركوا من فضل الله سبحانه وتعالى خيرًا ونعيما.

بيد أن تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل غرض لهم ومطلوب، وأهملوا جهات الكفار حتى سقط الجنوب، وهبت في دار الإسلام للشرك جنوب. وحين وصل المرسوم المشرف، والمثال الكريم المعرف، طبنا به نفوسًا، وسلكنا به محلا من الأمن مأنوسًا، ودفعنا به عن وجوه الحق ظلامًا وعبوسًا، وضلالا وبوسًا.

وخمدت نيران الحرب، وغلت أيدي الطعن والضرب. فقررنا بما قررتموه كل قلب، فإن امتثل من حوالينا من الأمراء الأكابر، لما صدر عنكم من الموارد والمصادر، فتلك المنية المقصودة، والضالة المفقودة، والدرة الثمينة المنقودة، والغنيمة العظيمة الشاملة الممدودة. وإن خالفوا أوامركم المطاعة، وقابلوا نواهيكم بالإضاعة، فحسبهم عذابكم الوبيل، وما تعدونه لمن خالفكم من التنكيل. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة ما تكنُّ القلوب والصدور.

إلا أن هؤلاء الذين يلوننا قطعوا وسدوا من التواصل أوصالا، وقعدوا لرسلنا بكرًا وآصالا، وصدوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية عن جميع الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهاب والإياب.

فلولا ما كان منهم من المنع لما نريد، لكان يصدر إلى أبوابكم العالية في كل شهر بريد.

وحين وصل وكيلكم المعظم الباشا مصطفى إلى الجهات اليمنية، والديار التي هي بسيف قهركم محمية. بسط عدله في أهل اليمن، وأخمد نيران الفتن والمحن، وأصلح من الأمور ما ظهر وما بطن، واطلع على الحقائق في الماضي واللاحق، وما نحن عليه بحمد الله من حسن المساعي والطرائق، وكرم الأصول الشريفة والمعارق.

وقد أرسل إلينا قصاد أمجاد، محبون أوداد، عرفوا جميع الأمور، وأحاطوا بالظاهر منها والمستور.

ولعل الله سبحانه وتعالى يهيئ قدومه إلى صنعا. ويحيى به للإله دينًا وشرعًا، ويقطع به دابر من خالف أمركم قطعًا.

ولعمري إنه رجل عظيم، وذو خطب جسيم، بأرباب الدين رءوف رحيم.

قد طابت شمائله، وراقت أوصافه ومخايله. فهو بكل خير يجود، ويحمل من طاعتكم ما يشق على غيره ويئود.

فالله يجعل سعيه مشكورًا، ويشرح بأعماله من الاستقامة قلوبًا وصدورًا، ويدفع بعين عنايته عن الأنام والإسلام شرورًا. ويملأ الأنفس والأفئدة حبورًا إن شاء الله وسرورًا. وبعد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومنها: بغداد وأعمالها والمشاهد الشريفة النبوية العلوية الحسنية، والموسوية الكاظمية، والعلوية الرضوية.

ومنها: بلاد المغرب وما فيه من الجزائر، وكانت في القديم جامعة لعدة سلاطين، بل كانت دار الخلافة الأموية ثم العباسية ثم العمرية الحفصية ثم الشريفية الحسنية ثم للخلافة العبيدية.

ومنها: الممالك المعروفة بروملي وما اتصل بها من بلاد الكفار على اختلاف أنواعهم وأجناسهم مما لا يحصى كثرة.

ومنها: ما فتح من الممالك الإسلامية بناحية العجم لما خرج لمقابلة قزل باش طهماسب.

ومنها: السفر الأخير وهي الغزاة العظمى التي شرفه الله تعالى فيها بالشهادة، فهو

الملك الذي عاش سعيدًا، ومات شهيدًا.

وهذه الفتوحات بعض ما اشتهر. وأما ما هو حقير من جهة أهله أو من قلة محصوله أو مما يكون تابعًا لغيره فذلك لا يحصى ولا يحصر.

وأما الخيرات التي فعلها في الحرمين الشريفين والقدس، وغيرها من البلاد فلا يمكن حصرها، يذكر شيء منها على سبيل الاختصار نتشرف بذكره.

منها: الصرة العظيمة الرومية الواصلة كل عام وقدرها أحد وثلاثون ألفًا من الدنانير الذهب في كل عام على الدوام.

ومنها: عمارة سور المدينة المنورة، وقدر مساحته: أربعة آلاف ذراع، وعرض جداره: ثلاثة أذرع، وارتفاعه: سبعة عشر ذراعًا، وجميعه بالحجر والنورة، وأبوابه: ستة مصفحة جميعها بالحديد.

قلت: المعروف أن أبواب سور المدينة الشريفة أربعة، باب غربي وباب قبلي وباب شامي وباب شرقي: يسمى الأول في عرف الناس باب المصري. والثاني الباب الصغير. والثالث باب الشامي؛ لنزوله عنده ذهابًا وإيابًا. والرابع: باب الجمعة.

فلعل المؤرخ عد باب القلعة وبابا صغيرًا فى أسفل أكبر البروج وأعلاها يسمى عند أهل المدينة باب السر، فهما الخامس والسادس، فيصح العدد حينئذ. وقدر النفقة عليه من الذهب الجديد سبعون ألفا، ومن الحبوب أربعة عشر ألف إردب حنطة وفولا وغير ذلك، وذلك غير الواصل من مصر المحروسة من الحديد والخشب والرصاص والنحاس والجمال والحمير.

ومنها: محراب السادة الحنفية بقرب الروضة النبوية.

قلت: ويعرف اليوم بالمحراب السليماني منقوش بالرخام الملون.

ومنها: تجديد عدة من المساجد النبوية، وأنشأ عدة من القباب على من عرف قبره من أعيان السلالة المحمدية.

ومنها: ترصيص القبة الشريفة النبوية وهلال القبة المذكورة أعلاه ذهب خالص صرف وباقيه مموه وأهلة المنابر ومنبر الحرم النبوي.

ومنها: إنشاء الجدار الغربي بالحرم النبوي وإنشاء منارة عظيمة به.

ومنها: عدة شماعدين من النحاس المطلي بالذهب بالحجرة المطهرة. وإنشاء عدة من الربط وترميم بعضها مما يقرب عددًا إلى العشرين. ومنها: شراؤه ديار العشرة لاتصالها بقبلي المسجد النبوي والغرض الأعظم من ذلك هدمها ليذهب عين ما فيها من المراحيض والبلاليع، وما فيه رائحة كريهة، فهدمت جميعها وبقيت بعد هدمها وتعميرهما نافعة لكل خير تجدد بها، قابلة للإلحاق بالمسجد النبوي.

ومنها: عمارة تكية باسم والدة السلاطين العظام يعمل فيها في كل يوم للفقراء خبز وطعام.

ومنها: أنه لما بلغه احتياج المطاف الشريف إلى أساطين، وعرضوا له أن أساطين المسجد الحرام جميعها بالرخام وعرضوا بتعظيم ذلك وكونها من حجر واحد أمر أن تجعل أعمدة من النحاس، فجعلت وقيمتها تعدل وزنها فضة في القياس.

ومنها: منبر عظيم للبيت العتيق الكريم كانت النفقة عليه ثلاثين ألفا من الدنانير الذهب الجديد خارجا عما حمل معه من آلات الحديد والفولاذ والرصاص والمؤن العديدة، ووصل إلى مكة عام ست وستين وتسعمائة. فقال بعض علماء مكة فيه تاريخًا أبياتا آخرها بيت التاريخ هو: [من مجزوء الخفيف]

لِسُلَيْمَانَ مِنْبَرٌ شَاهِدٌ بِالدُّعَا لَهُ

ومنها: تعمير المدارس التى هى من العجائب برسم المدرسين من الأربعة المذاهب كما تقدم ذكره، ومنارة عظيمة من جنسهن جنب أولاهن.

ومنها: عمارة مهبط الوحي والأماكن الشريفة.

ومنها: إجراء الماء من الفرات إلى مشهد الإمام الحسين بن على رضي الله عنهما. ومنها: بالمسجد الأقصى خيرات لا تحصى.

ومنها عمارة قبة عظيمة على الصخرة الرفيعة الدرجات وجعل عوض التجصيص ألواح من فخار إزنيق بأنواع النقوش وأجل الكتابات.

ومنها: للمساجد الثلاثة المشرفة المذكورة قدر الكفاية من الحبوب والمرتبات والخبز والطعام والصلة المبرورة.

ومنها: بدار الخلافة العظمى قسطنطينية الكبرى إجراء عين من مسيرة ستة أيام أنفق على ذلك من الأموال ما لا يحصره كتب ولا ثرثرة أقلام.

ومنها: عمارة عظيمة سلطانية جامعة للخيرات الدينية والدنيوية بالشام بالمحل المعروف بالصالحية، وما ذكر هو من بعض خيراته السنية.

ومنها: وهو أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة. وسبب ذلك: أن العين التي كانت بمكة هى عين حنين التي أجرتها زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة الرشيد، واسمها: أمة العزيز، لأن جدها المنصور كان يرقصها وهي طفلة ويقول : أنت زبيده. فغلب على اسمها، وكانت من أهل الخيرات فصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت وهي في واد قليل الأمطار بين جبال شواهق عاليات خاليات من المياه والنبات، وشقت له القناة في الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى الحرم، وجعلت لها شحاحيذ من كل جبل يكون ذيله مظنة للماء وجعلت منه قناة متصلة، ومنبع هذه العين جبل شامخ من تلك الجبال يقال له: « طاد » بالطاء المهملة والألف بعدها دال مهملة من جبال الثنية من طريق الطائف، وكان الماء يجرى إلى أرض حنين تسقى به مزارع ونخل مملوكة للناس، فاشترت زبيدة ذلك المحل وأبطلت تلك المزارع والنخل فصارت تلك الشحاحيذ يحصل منها المدد لهذه العين، وصار كل شحاذ عينًا يساعد عين حنين، منها: عين مشاش، وعين ميمون، وعين الزعفران، وعين البارود، وعين الطان، وعين ثقبة، كلها تنصب في ذيل عين، ويزيد بعضها، وينقص بحسب الأمطار إلى أن وصلت عين حنين إلى مكة المشرفة.

ثم إنها أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة وهي عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل معروف فيصب الماء من ذيله في قناة إلى موضع يقال له : الأوجر من وادي نعمان، ومنه إلى موضع بين جبلين شاهقين علو عرفات، ثم منه يجري في القناة إلى أرض عرفات، ثم أدارت القناة إلى جبل الرحمة محل الموقف الشريف، وجعلت الماء ينصب إلى البرك التي في أرض عرفات فتملأ ماء يشرب منه الحاج يوم عرفة، ثم استمرت في عمل القناة إلى أن خرجت من عرفات إلى مزدلفة، ثم إلى جبل خلف منى في قبلتها، ثم ينصب الماء إلى بئر عظيمة مطوية بالأحجار كبيرة جدًا تسمى بئر زبيدة إليها انتهى عمل زبيدة فوقف، وهي من الأبنية المهولة ربما يوهم بناؤها أنه من عمل الجن، ثم صارت عين حنين تنقطع عن الوصول إلى مكة،

وكذلك عين عرفات تنقطع عن وصولها إلى منتهاها لتهدُّم قنواتهما وتخريبهما بالسيول.

وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها عند انتظام سلطنتهم وقوة تمكنهم فتجرى تارة وتنقطع أخرى، فعمرها مظفر الدين صاحب إربل سنة خمس وستمائة ثم المستنصر العباسي سنة ستمائة وتسع وعشرين. ثم في ستمائة وثلاث وثلاثين، ثم في سنة ستمائة وأربع وثلاثين، وجد ذلك مكتوبًا في حجر مبنى في قرب الموقف الشريف، ثم عمَّر عين حنين الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراقين سنة ست وعشرين وسبعمائة، فأجراها إلى مكة وتم نفعها فإنهم كانوا في جهد عظيم لقلة الماء، ثم عمرها شريف مكة الشريف حسن بن عجلان جد ساداتنا الأشراف أشراف مكة وملوكها الآن، أدام الله سعادتهم مدى الزمان في سنة إحدى وثمانمائة فجرت وانفجرت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد، ثم انقطعت ولقي الناس لذلك شدة عظيمة إلى أن عمرها الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، ثم عمرها وعمر عين عرفات السلطان قايتباي أجرى الأولى إلى أن دخلت مكة، وأجرى الثانية إلى أن وصلت إلى أرض عرفات، وذلك بمباشرة الأمير يوسف الجمالي وأخيه سنقر الجمالي في سنة ثمانمائة وسبعين، ثم عمر عين حنين آخر ملوك الشراكسة قانصوه الغوري إلى أن جرت وملأت برك الحجاج بالمعلاة، ثم جرت إلى بازان، ثم إلى بركة الماجن بأسفل مكة، ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية وصار أهل مكة يستقون من آبار حول مكة يقال لها: العسيلات علو مكة ومن آبار بأسفلها بمكان يقال له : الزاهر وسُمِّي الآن بالجوخي في طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأماكن البعيدة، وصار الفقراء من الحجاج وغيرهم في يوم عرفة لا يطلبون إلا الماء لغلو الماء وعزته جدًا.

قال العلامة القطب: وإني أذكر سنة تسعمائة وثلاثين، وأنا يومئذ مراهق في خدمة والدي أني اشتريت قربة صغيرة جدًا يحملها الإنسان بإصبعيه بدينار ذهب، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون ما يبل حلوقهم في ذلك اليوم الشديد، فلما كان وقت الوقوف، والناس عطاش يلهثون أمطرت السماء وسالت السيول من فضل

الله والناس واقفون، فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم، وذلك من رحمة الله ولطفه بعباده.

فبرزت الأوامر السلطانية السليمانية بإصلاحهما، وعُيِّن لذلك ناظر اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتهما، فجرت عين حنين إلى مكة، وعين نعمان إلى عرفات وذلك سنة ٩٣١ إحدى وثلاثين وتسعمائة، ثم اشترى الناظر المذكور عبيدًا سودًا من مال السلطنة وزوجهم بمثلهم وجعل لهم جرايات وعلوفات برسم خدمة العين، وإصلاح قنواتها، فهي خدمتهم دائمًا وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة، ثم توجه الناظر إلى الأبواب لعرض أمور في شأن العين، فأجيب إلى ما أراد وعاد إلى مصر.

ثم ركب من بندر السويس قاصدًا مكة فغرق في بحر القلزم شهيدًا، وما غرق إلا في بحر رحمة الله تعالى سنة ٩٣٩ تسع وثلاثين وتسعمائة.

ثم انقطعت سنة ستين وتسعمائة فعرضت أحوال العيون لى الأبواب السلطانية السليمانية، فالتفت الخاطر السلطاني وتوجه العطف العثماني إلى تدارك ذلك بأي وجه يكون، وأمر بالفحص عن أحوال العيون، فاجتمع قاضي مكة يومئذ عبد الباقي بن على الغزي، والأمير خير الدين سنجق جدة يومئذ، وغيرهما من الأعيان، وتفحصوا وداروا، وكشفوا فأجمع رأيهم أن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهر ودبولها مبنية إلى بئر زبيدة، وأن الذي يغلب على الظن أن دبولها من البئر إلى مكة مبنية أيضًا وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر، فإذا وجدوا من الدبل متهدمًا بنوه، وإذا وجدوا مختلا أصلحوه، فخمنوا أنهم يحتاجون في ذلك إلى ثلاثين ألف دينار ذهبًا، وذرعوه وقاسوه فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بذراع العمل، وهو أزيد من الذراع الشرعي بنحو الربع.

وهذا الذي ظنوه من وجود دبل تحت الأرض من بئر زبيدة إلى مكة لم يوجد في كتب التاريخ ولم يذكره أحد، وإنما أدَّاهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا على المسامع الشريفة السلطانية في أوائل سنة ٩٦٠ ستين وتسعمائة، فلما وصل علم ذلك التمست جانم سلطان كريمة السلطان سليمان أن يأذن لها في عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولا أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون

هي صاحبة هذا الخير أخيرًا، فاختارت بعد أن استطارت لهذه الخدمة إبراهيم بن تغري بردي الدفتردار، وأعطته خمسين ألف دينار ذهبًا زيادة على ما خمنوه، فسار بحرًا فوصل إلى جدة يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة من سنة تسع وستين وتسعمائة ونزل بوطاقه خارج جدة من الجهة الشامية وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا الشريف محمد أبي نمي وكان نازلا بوادي « مر » فقابله بالإجلال والتعظيم ومد له سماطًا عظيمًا ولاطفه وواكله وباسطه وجابره، فعرض على حضرته الشريفة الخط السلطاني، وبذل الهمة والاجتهاد في إتمام هذا الأمر، فأجاب الشريف أبو نمي بالسمع والطاعة، ثم ركب إبراهيم المذكور من عنده متوجهًا إلى مكة، فلاقاه عند دخوله مولانا الشريف حسن بن أبي نمي وقابله بالترحيب والإكرام وغاية الإجلال والاحترام، واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام، فدخل فطاف طواف القدوم وكان محرمًا بالحج وسعى. وعاد إلى مجمع السلطان قايتباي، وهو المحل الذي عين لنزوله، ومد له من قبل الشريف حسن سماط عظيم، ثم جاء إليه مولانا القاضي الحسين المالكي ثم كان أول ما بدأ به تنظيف الآبار التي يستسقي الناس منها، وإخراج ترابها وزيادة حفرها ليكثر ماؤها، وحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم توجه للكشف إلى أعلى عرفات وكثر تردده إليها، ثم أسرع في الكشف عن دبول عين عرفة وضرب أوطاقه في الأوجر من وادي نعمان علو عرفات، وشرع في حفر فقرها، وتنظيف دبولها بهمة عالية جدًا.

وكانت مماليكه القائمون في خدمته نحو أربعمائة مملوك في غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللباقة، وكتب نحو ألف نفس من العمال والمهندسين والحفارين، وجلب من مصر وبلاد الصعيد والشام وحلب واسطنبول طوائف بعد طوائف من خدام العيون والآبار والحدادين والحجارين والبنائين.

وأتى بآلات العمارة من مكاتل ومساحي ومجاريف وحديد وبولاد ورصاص ونحاس.

وعين لكل طائفة قطعة من الأرض تحفرها وتنظف ما فيها، واستمر إلى أن وصل عمله إلى بئر زبيدة التي انتهى عملها إليها، ولم يجد بعدها دبلا، ولا أثر عمل ولا بقايا قناة، فضاق ذرعه لذلك، وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر

الباقي من هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطرارًا لا اختيارًا وعدلت إلى عمل حنين، وتركت العمل من بعد البئر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه، وأنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه فيصِلاً إلى مكة. ولا يمكن نقر ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراع في العمق، وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظًا لناموس السلطنة، فأوجد الأمير إبراهيم حيلة هي أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حِمْل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو، وأما السفل فعملها فيه مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطًا من ذراع.

فيكسر بالحديد إلى أن يصل الحجر الشديد فيوقد عليه الحطب الجزل ليلة أخرى إلى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعًا في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذا الحكم، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب، وما رأى عن ذلك محيصًا، فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة وصار يجلب من المسافة البعيدة، وغلا سعره وضاق الناس لذلك، وتعب الأمير وذهبت أمواله وخدّامه ومماليكه وهو يتجلّد، إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع، وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب فجاءه، ثم مات له ولد طفل كان خلّفه بمصر احترق عليه كثيرًا، ثم مات له ولدان مراهقان، ثم مات أكثر مماليكه، ثم مات هو غريبًا شهيدًا ليلة الإثنين ثاني رجب سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة، وكانت جنازته حافلة، وأسف الناس على فقده لكثرة إحسانه ودفن فيها ولديه قبله.

ثم أقيم في هذه الخدمة سنجق جدة الأمير قاسم بك، أقامه سيدنا شيخ الإسلام القاضي الحسين إلى أن يصل مَن تعيِّنه السلطنة العلية.

وفي هذا العام المذكور انتقلت السلطنة من السلطان سليمان صاحب الترجمة إلى ولده الآتي بعده مولانا السلطان سليم بن سليمان، فعين لهذه الخدمة دفتردار مصر يومئذ محمد بك يكمكجي زاده وكان من أعبد السناجق، فوصل إلى هذه الخدمة

وبذل فيها نفسه وماله، وقطع مسافة وما بلغ التمام، بل وافاه الحِمام ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وتسعمائة ودفن بالمعلاة قبالة تربة الأمير إبراهيم الدفتردار على يسار الذاهب إلى الأبطح، ثم رجع في خدمة العين الأمير قاسم سنجق جدة المذكور آنفًا أرجعه فيها القاضي الحسين وعرض ذلك إلى الأبواب، فأنهى الأمر باستقرار قاسم بك في الخدمة أمينًا على مصارفها. وأن يكون مولانا القاضي الحسين ناظرًا على ما بقي من عمل هذه العين إلى أن يصل إلى عرفات، فاستمر قاسم بك مباشرًا لهذه الخدمة، إلى أن طرقه الحيْن فصار ثالثًا للأميرين السابقيْن، وصار من شهداء العين، وذلك لليلة خلت من رجب الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، ودفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بك اليكمكجى المتوفى بمكة.

ثم توجه مولانا القاضي الحسين توجها تامًّا إلى تكميل عمل ما بقي من العين باعتبار ما بيده من النظر، وعرض للسلطنة الشريفة بوفاة قاسم بك فبرزت الأوامر إلى حضرته الشريفة فأقدم بهمته العالية أتم إقدام، فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام، فكمل عملها فيما دون خمسة أشهر، بعد أن عجزوا عنه في قريب من عشرة أعوام، فجرت عين عرفات ووصل الماء، وهو يجري في تلك الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكان ذلك اليوم يوم عيد أكبر عند الناس، وعمل في ذلك اليوم أسمطة بالأبطح ببستانه الواسع الأفيح، جمع الأكابر والأعيان، ونصب لهم السرادقات والصوان، وذبح أكثر من مائة من الغنم، وقدم للناس على قدر طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والمهندسين خلعًا فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالحسنات الوافرة.

ومما رأيته بخط جدي العلامة جمال الدين بن إسماعيل العصامي ما نصُّه: لما أكمل مولانا وعزيزنا شيخ الإسلام والمسلمين ناظر النظار ببلد الله الأمين مولانا السيد الشريف القاضي الحسين بن أحمد المالكي عمارة عين عرفات كتبت إليه قولى: [من مخلع البسيط]

أَقضَى القُضَاةِ الحسينُ أَغْنَىٰ مـكـانَ أُمِّ الـقُـرَىٰ بِـعَـيْـنـه

وجـاءَ بـالـعَـيْـنِ بَـعْـدَ يَـأْسٍ فَـشـكْـرُهُ وَاجِـبٌ لِـعَـيْـنِـهْ

ففتح لقبولهما كل باب، وأعجب به غاية الإعجاب.

قلت: يمكن أن يقصد فيه التورية فيراد بقوله: « لعينه » الذهب، ويرشحه قوله: « أغنى » إلى آخره.

وأن يراد بها الماء الجاري ويرشحه « جاء بالعين بعد يأس ».

وعندى: سلبهما من لباس التورية أستر، وأذكى لشذى المدح وأعطر، بأن يكون المراد بالعين ذاته وشخصه، ليكون وجوب الشكر لذاته في كماله، لا لعارض يزول بزواله.

ثم جهز أخبار هذه البشائر إلى السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان، وإلى سرادقات الحجاب الرفيع مليكة الملكات بلقيس الزمان جانم سلطان أخت مولانا السلطان سليمان، فأنعمت بالإنعامات الجزيلة، والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر العمالين والمباشرين والمتعاطين لهذه الخدمة، ورقت مدرسة مولانا القاضي حسين - وهي الأولى مما يلي باب الزيادة - فصارت بمائة عثماني.

واستمرت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام، والأعمال الصالحات الباقيات على تكرار السنين والأعوام.

وما عنده سبحانه من تضعيف الأجر والثواب، خير وأبقى عند أولي الألباب.

وكان جملة النفقة خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ذهبًا أحمر جديدًا، وذلك غير ما صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدَّادين والحجَّارين والقطَّاعين والنجَّارين، وأهل الصناعات الدقيقة من البلاد البعيدة، وغير ما صرف على خدامها وخدامهم.

وقد كانت عمارتها في آخر الدولة السلطانية السليمانية وفي أول الدولة السلطانية السليمية.

وكان له من الأولاد مصطفى وهو أكبرهم؛ توهم منه والده أمرًا، فأمر بخنقه طائفةً من البكمان أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة.

قال في « بغية الخاطر » للعلامة الكاتي: وفي سنة ستين وتسعمائة أمر السلطان سليم بقتل ولده مصطفى، وكان ذلك من مكر رستم باشا الوزير، فجاء تاريخ وفاته « مكر رستم » وقال آخر باللغة الفارسية: « ظلم بي حد در آخر شوال » ذكره الكاتي في تاريخه.

قلت: يريد أن لفظ لا حد له؛ أي لا نهاية؛ أي لا ميم فيبقى حرفان الظاء واللام وهما بتسعمائة وثلاثين، وآخر شوال اللام، وهى بثلاثين، فيتم العدد تسعمائة وستين وهى سنة وفاته، وهو آخر شوال، وهذا اتفاق عجيب يروق كل أديب.

وطفل اسمه مراد كذلك خنقه فألحقه بولده مصطفى.

وولده الثاني: محمد بن سليمان مات على فراشه مولدَه سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وولده الآخر با يزيد بن سليمان، فوقعت بينه وبين أخيه السلطان سليم محاربات قتل فيها نحو خمسين ألفًا.

ثم لما عجز عن محاربة أخيه السلطان سليم هرب هو وأولاده الأربعة وهم: أورخان ومحمود خان وعبد الله خان وعثمان، فظفر بهم السلطان سليم وأخذ أنفاسهم بالأوتار وما لهم من آثار.

وكان له ابن خامس طفل في « بروسا » فأمر بخنقه أيضًا فتبع والده وإخوته.

ومن أولاد سليمان: السلطان جهان كير، كان أحدب ظريفًا لطيف الروح خفيفًا، كان يحبه والده ولم يفارقه، توفي بأجله بمرض الخناق سنة ٩٦٥ خمس وستين وتسعمائة.

ومنهم السلطان شاه زاده بن سليمان توفي بأجله سنة ٩٦٧ سبع وستين وتسعمائة.

وعدة غزواته الكبار المشهورة ثلاث عشرة غزوة السادسة، منها: غزوة العراق كانت أواخر ذي القعدة سنة ٩٤١ إحدى وأربعين وتسعمائة.

وأنشأ القاضي عبد اللطيف بن عبد الله باكثير عند ورود خبر النصرة في تلك الغزوة تاريخًا وضمنه بيتين هما: [من المتقارب]

ولَـمَّـا أَحَـلَّـتْ ظِـبَـانـا لَـنَـا دمَ الشَّاهِ واسْتَحْكَمَتْ سَلْخَهُ
« فَتَحْنَا العِرَاقَ » وذَا اللَّفْظُ مِنْ لَـطَـافَـتِـهِ جَـاءَ تَـارِيْـخَـهُ

وكان عبد اللطيف المذكور سافر إلى الديار الرومية، واجتمع فيها بالسلطان سليمان خان بواسطة قاضي العسكر قادري أفندي فصادف قدومه إلى الروم توجُّه مولانا السلطان إلى حرب العجم، ثم ورد خبر النصرة - كما تقدم - فعمل ذينك البيتين وقدمهما إلى صاحبه قاضي العسكر قادري أفندي، فبعد ورود السلطان من

السفر أشرفه على التاريخ وجمعه بقائله عبد اللطيف المذكور فنال منه مزيد الإكرام، وأنعم عليه بقضاء مكة المشرفة.

وكانت سلاطين مصر وغيرهم يعقدون ولاة منفردين على المذاهب الأربعة، وكان غالبًا لا يقيم النواب إلا قاضي القضاة الشافعي، والباقون يتعاطون الأحكام ولا يقيمون نوابًا. واستمر القاضي عبد اللطيف متوليًا إلى أن عزل بأول قضاة الأروام من الحنفية وهو القاضي صدر الدين، فورد إلى مكة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة، ومن حينئذ صار الأفندي الأعظم يرد من الجهات الرومية، ويعقد له الولاية من هناك، إلا أن القضاة كانوا يقيمون القاضي الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي بطريق النيابة.

ففي زمن الأفندي ميرزا مخدوم أقام عم جدي القاضي العلامة نور الدين على زاده ابن مولانا المرحوم إسماعيل العصامي قاضيًا شافعيًا، وأقام القاضي نجم الدين المالكي نائبًا مالكيًا، وأراد إقامة حنبلي فلم يتيسر ذلك لعدم وجود حنبلي يقوم بهذا الشأن.

وآخر من أقام ذلك بمكة الأفندي عبد الرحيم الشعراوي عام توليته لها عام خمس وثلاثين وألف.

ولما كان اليوم الثاني من استقراره في الملك جعل ديوانا وأنعم على الوزراء وأمرهم بترك شعار الحزن، ورقى العسكر في الجوامك على حسب مراتبهم وانتظم الحال.

وكان ملكًا صالحًا يترجم بالولاية كثير الخير والإحسان، للقاصي والدان.

وكانت مدة سلطنته ثمانا وأربعين سنة، وهي عديمة النظير، فيمن مضى من هذا البيت المنير.

واستقر بها إلى أن توفي سنة أربع وسبعين في سابع عشر صفر وهو في محاصرة العدو، فأخفى الوزير موته وأركان الدولة وأرسلوا أوراقا إلى كوتاهية لمولانا السلطان سليم - وبين المحلين نحو ثلاثة أشهر بسير الأثقال - فركب مولانا السلطان سليم وجدَّ في السير إلى بلاد اسطنبول، ودخلها في ثامن ربيع الأول سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

وحمل السلطان سليمان إلى دار الخلافة ودفن في المحل الذي عمره في عمارته

المذكورة، طاب ثراه.

ورثاه عالم زمانه أبو المسعود أفندي المفتي بقصيدة بليغة وهي هذه: [من البسيط]

أَصَوْتُ صَاعِقَةٍ أَمْ نَفْخَةُ الصُّورِ ... فالأَرْضُ قَدْ قُلِبَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُورِ
أَصَابَ مِنْهَا الوَرَى دَهْيَاءُ دَاهِيَةٌ ... وذَاقَ مِنْهَا البَرَايَا صَعْقَةَ الصُّورِ
فَهُدِّمتْ بَنْيَةُ الدُّنيا لوَقْعَتِهَا ... وانْهَدَّ مَا كَانَ مِنْ دُورٍ ومِنْ سُورِ
أَمْسَتْ مَعَالِمُهَا بَهْمَاءَ مُقْفِرَةً ... مَا فِي المَنَازِلِ مِنْ دَوَّار دَيُّورِ
تَهَدَّمَتْ قُلَلُ الأَطْوَادِ وارْتَعَدَتْ ... كَأَنَّهَا قَلْبُ مَرْعُوبٍ ومَذْعُورِ
واغْبَرَّ نَاصِيَةُ الخَضْرَاءِ وانْكَدَرَتْ ... وَكَادَ تَمْتَلِئُ الغَبْرَاءُ بِالمُورِ
فَمِنْ كَئِيبٍ ومَلْهُوفٍ ومِنْ دَنِفٍ ... عَانٍ بِسِلْسِلَةِ الأَحْزَانِ مَأْسُورِ
فَيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ مُوْحِشٍ نكرٍ ... يَعَافُهُ السَّمْعُ مَكْرُوهٍ ومَنْفُورِ
تَاهَتْ عُقُولُ الورَى مِنْ هَوْلِ وَحْشَتِهِ ... فَأَصْبَحُوا مِثْلَ مَخْمُورٍ ومَسْحُورِ
تَقَطَّعَتْ قِطَعًا مِنه القُلُوبُ فَلاَ ... يَكَادُ يُوجَدُ قَلْبٌ غَيْرُ مَكْسُورِ
أَجْفَانُهُمْ سُفُنٌ مَشْحُونَةٌ بِدَمٍ ... تَجْرِي بِبَحْرٍ مِنَ العَبراتِ مَسْجُورِ
أَتَىٰ بِوَجْهِ نَهَارٍ لاَ ضِيَاءَ لَهُ ... كَأَنَّها غُرةٌ شِيبَتْ بِدَيْجُورِ
أَمْ ذَاكَ نَعْيُ سُلَيْمَانَ الزَّمانِ ومَنْ ... مَضَتْ أَوَامِرُهُ في كُلِّ مَأْمُورِ
حَقًّا وَمَنْ مَلأَ الدُّنْيَا مَهَابَتُهُ ... وسَخَّرَتْ كُلَّ جبارٍ وقيهورِ
مَدَارِ سَلْطَنَةِ الدُّنْيَا ومَرْكَزِهَا ... خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الآفاقِ مَذْكورِ
مُعْلِي مَعَالِمِ دِينِ اللهِ مُظْهِرِهَا ... في العَالَمِينَ بِسَعْيٍ مِنه مَشْكورِ
وحُسْنِ رَأْيٍ إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْصَرِفٍ ... وصِدْقِ عَزْمٍ عَلَى الأَلْطَافِ مَقْصُورِ
لآيَةِ العَدْلِ والإِحْسَانِ مُمْتَثِلٌ ... بِغَايَةِ القِسْطِ والإلطَافِ مَوْفُورِ
مُجَاهِدٍ في سَبِيلِ اللهِ مُجْتَهِدٍ ... مُؤَيَّدٍ مِنْ جَنَابِ القُدْسِ مَنْصُورِ
بِلهْذَمِيٍّ إِلَى الأَعْدَاءِ مُنْعَطِفٍ ... ومشْرَفِيٍّ عَلَى الكُفَّارِ مَشْهُورِ
وَرايَةٍ رُفِعَتْ لِلمَجْدِ خَافِقَةٍ ... تَلْوِي عَلَىٰ عَلَمٍ بالنَّصْرِ مَنْشُورِ
وعَسْكَرٍ مَلأَ الآفَاقَ مُحْتَشِدٍ ... مِنْ كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الأَقْطَارِ مَحْشُورِ
لَهُ وَقَائعُ في الأَكْنَافِ شَائِعَةٌ ... أَخْبَارُهَا زُبِرَتْ فِي كُلِّ طَامُورِ

يَا نَفسُ ما لك في الدُّنيَا مُخَلَّفَةٌ ... مِنْ بَعْدِ رِحلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الدُّورِ
حقٌّ على كل نفسٍ أن تموتَ أسى ... لَكِنَّ ذَلِكَ أَمرٌ غَيْرُ مَقْدُورِ
فَلِلْمَنَايَا مَقَادِيرٌ مُعَدَّدَةٌ ... تَأْتِي عَلَىٰ قَدَرٍ فِي اللَّوحِ مَسْطورِ
وَلَيْسَ فِي شَأْنِهَا للنَّاسِ مِنْ أَثَرٍ ... ومَدْخَلٍ مَا بِتَقْدِيمٍ وتَأْخِيرِ
يَا نَفسُ فاتَّئِدي لاَ تَهْلِكِي أَسَفًا ... فَأَنْتِ مَنْظُومَةٌ فِى سِلْكِ مَقْدُورِ
إِذْ لَسْتِ مَأْمُورَةً بالمُسْتَحِيلِ وَلاَ ... بِمَا سِوَى بَذْلِ مَجْهُودٍ ومَيْسُورِ
ولاَ تَظُنِّينَهُ قَدْ مَاتَ بَلْ هُوَ ذَا ... حَيٌّ بِنَصٍّ مِنَ القُرْآنِ مَزْبُورِ
لَهُ نَعِيمٌ وَأَرْزَاقٌ مُقَدَّرَةٌ ... تَجْرِي عَلَيْه بِوَجْهِ غَيْرِ مَشْعُورِ
إِنَّ المَنَايَا وإِنْ عَمَّتْ مُحَرَّمَةٌ ... عَلَىٰ شَهِيدٍ جَمِيلِ الحَالِ مَبْرُورِ
مُرَابِطٍ فِي سَبِيلِ اللهِ مُقْتَحِمٍ ... مَعَارِكَ الحَتْفِ بِالرِّضْوَانِ مَأْجُورِ
مَا مَاتَ بَلْ نَالَ عَيْشًا بَاقِيًا أَبَدًا ... عَنْ عَيْشٍ فَانٍ بِكُلِّ الشَّرِّ مَعْمُورِ
إِبْتَاعَ سَلْطَنَةَ العُقْبَىٰ بِسَلْطَنَةِ الدْ ... دُنْيَا فَأَعْظِمْ بِرِبْحٍ غَيْرِ مَحْصُورِ
بَلْ حَازَ كِلتَيْهِمَا إِذْ حَلَّ مَنْزِلَةً ... مَنْ لَمْ يُغَايِرْهُ فِي أَمْرٍ ومَأْمُورِ
أَمَا تَرَىٰ مُلْكَهُ المَحْمِيَّ آلَ إِلَىٰ ... سِرٍّ سَرِيٍّ له في الدَّهْرِ مَشْهُورِ
وَلِيِّ سَلْطَنَةِ الآفَاقِ مَالِكِهَا ... بَرًّا وبَحْرًا بعَيْنِ اللُّطْفِ مَنْظُورِ
ظِلِّ الإِلَهِ مَلاَذِ الخَلْقِ قَاطِبَةً ... ومُلْتَجَا كُلِّ مَشْهُورٍ ومَذْكُورِ
فَإِنَّهُ عَيْنُهُ فِي كُلِّ مَأْثَرَةٍ ... وَكُلِّ أَمْرٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ مَأْثُورِ
وَلاَ امْتِيَازَ وَلاَ فُرْقَانَ بَيْنَهُمَا ... وَهَلْ يُمَيَّزُ بَيْنَ الشَّمْسِ والنُّورِ
سَمَيْدَعٍ مَاجِدٍ زَادَتْ مَهَابَتُهُ ... تَحْتَ الخلافةِ في عِزٍّ وتَيْقُورِ
جَدَّ الجَدِيدَانِ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ ... صَارَا كَأَنَّهُمَا مِسْكٌ بِكَافُورِ
أَضْحَتْ بِقَبْضَتِهِ الدُّنْيَا بِرُمَّتِهَا ... مَا كَانَ مِنْ مجهلٍ مِنْهَا ومَعْمُورِ
بَدَا بِطَلْعَتِهِ والنَّاسُ فِي كَرْبٍ ... وسُوءِ حَالٍ مِنَ الأَحْوالِ مَنْكُورِ
فأَصْبَحَتْ صَفَحَاتُ الأَرْضِ مُشْرِقَةً ... وعَادَ أَكْنَافُهَا نُورًا عَلَىٰ نُورِ
سُبْحَانَ مِنْ مَلِكٍ حلَّتْ مَفَاخِرُهُ ... بَحْرَ البَيَانِ بِمَنْظُومٍ ومَنْثُورِ
كَأَنَّهَا وَيَرَاعَ الوَاصِفِينَ لَهَا ... بَحْرٌ خَمِيسٌ إِلَىٰ مِنْقَارِ عُصْفُورِ
لاَ زَالَ أَحْكَامُهُ بالعَدْلِ جَارِيَةً ... بَيْنَ البَرِيَّةِ حَتَّىٰ نَفْخَةِ الصُّورِ

ثم تولى السلطان سليم الثاني ابن سليمان خان(١) وجلس على سرير السلطنة في سنة أربع وسبعين وتسعمائة

بويع بعد موت والده في التاريخ المذكور، فلما جلس على سرير السلطنة سار على نمط والده في العدل والإنصاف، ثم بادر في قيام شرائع الدين، فبنى جامعًا عظيما بأربع منائر كاملة الارتفاع بـ« أدرنة »، ومدرسة عظيمة للعلم بعمومه ومدرسة مفخمة برسم القراءات، وهو أول من عمر ذلك المحل المذكور، وعمر عمارة برسم الطعام للخاص والعام بمدينة قونية، وعمر خانات للمسافرين فيها كفاية النازلين بها مع دوابهم من الطعام والشراب، وأنشأ بلدة كاملة تعرف بقره نكار، وكانت خربة جميعها فحصل بها غاية النفع للمسلمين سيما المسافرين لأنها كانت معقلا لقطاع الطريق الكسجية.

وله فتوحات عظيمة من أعظمها الأقطار اليمنية؛ لأنها في آخر الدولة السليمانية اختل أمرها وهجم أهلها الطاغون على أعظم مدنها وملكوه، بل سمعنا أنه لم يبق في الحماية العثمانية إلا مدينة « زبيد » فقط، فلما جلس مولانا صاحب الترجمة على سرير السلطنة أمر بالتجهيز إليها، فعين لذلك وزيره الأكبر سنان باشا، فبرز من الديار المصرية أواخر عشر السبعين وتسعمائة في جيش كثيف بالخيل المسومة، والعساكر الشجعان المعظمة، وطوائف من السناجق السلطانية، وعدة من المدافع فوق المائة، فلما وصلوا إلى مكة البهية عرضوا لها عرضة عظيمة وأظهر أبهة الملك والسلطان.

قال السيد محمد الحسيني في تاريخه المسمى « الروضة الأنيقة في سلطان الحجاز على الحقيقة »: أخبرني الثقة أنه سمع كاتب العساكر أنهم يعلقون كل ليلة أربعة وعشرين ألف عليقة.

وله فتوحات عظيمة منها: فتح جزائر ساقس، وكل جزيرة فيها مدن عظيمة وكنائس وقلاع حصينة.

وعاد على المسلمين من هذه الفتوحات غنائم وأسرى لا تعد ولا تحصى، وانتفع بها بيت المال وجميع أركان الدولة، وسائر الرعايا انتفاعًا ظاهرًا غزير المحصول كثير المنافع، وأمن بذلك الصادرون والواردون بحرًا وبرًا.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٩٧ - ١٠٢ .

وله خيرات كثيرة بالحرمين الشريفين من الأجزاء القرآنية، والنقود والحبوب المرتبة كل عام أسوة أسلافه الكرام طاب ثراهم بدار السلام.

وكان مولانا صاحب الترجمة من طاعة والده المرحوم المبرور السلطان سليمان بمحل لا يمكن عنه التعبير، بحيث يراجعه في الجليل والحقير، ويصبر في رضاه على مضض الدهر وضيق العيش والضنك والقهر، وكل ما يبلغه من حاسد ونمام عن والده بالانتقاص والإعراض عنه، والإشارة بالسلطنة إلى غيره من إخوته بالإعطاء، وتمهيد أحوال السلطنة لغيره لا يمنعه ذلك من أنواع البر لوالده بالقول والفعل، ولا يحمله على العقوق، خصوصًا عن والدته فإنها كانت تصرح بعدم صلاحه للملك وقابلية غيره للدولة، وهو على غاية من الصبر وتحمل الجفاء، والتصريح بالتفويض إلى رب السماء، فكانت طاعته لوالديه موجبة لإنعام الله بالملك عليه، فانقرضت إخوته وأعقابهم ووالدته في حياة والده طاب ثراه. فلما مات والده كما ذكرنا شرفه الله بالملك على حالة هينة لم تقع لأحد من أهل هذا البيت أبدًا.

ودام سلطانه إلى أن مات على سرير ملكه وعزه في ثامن شهر رمضان المعظم قدره في عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فدرج عتيق رمضان تغمده الله بالرحمة والرضوان.

ومن أعظم حسناته عمارة العين، فقد تقدم أن ابتداء العمارة فى أواخر دولة والده السلطان سليمان وتمامها في أول دولته. وقد قدمنا ذكرهما ومعاناتهما وما صرف على ذلك.

ومن خيراته: ابتداء عمارة المسجد الحرام سنة ثمانين وتسعمائة قبل وفاته بسنتين وإن كان تمامها إنما كان في دولة ولده الآتي بعده مولانا السلطان مراد بن سليم كما سيأتي ذكر ذلك.

وله غزوات شهيرة بالإرسال وهو جالس مكانه، فتح في أيامه السعيدة جزيرة قبرس بالسين المهملة لا بالصاد كما تقوله العامة، ومدينة تونس الخضراء، وممالك اليمن بأسرها. وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ومدة سلطنته ثمان سنين، وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة. وكان شجاعًا كريمًا مهابًا كثير الإحسان من قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده.

ومن غزواته: فتح تونس الغرب وحلتي الوادي، وفتح ممالك اليمن واسترجاعها من أيدي العصاة البغاة أهل الإلحاد.

ومنها: فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، وهي جزيرة على البحر الشامي كثيرة القطر، ومقدارها مسيرة عشرين يومًا، وبها قرى ومزارع وأشجار ومعادن الزاج القبرسي وهي على مر الأيام، رخاؤها شامل، وخيرها كامل، وبها معادن الصفر واللادن الذي يغلب العود في طيبه.

وكان معاوية رضي الله عنه غزاها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه، فغزاهم ثانية فقتل وسَبَىٰ شيئًا كثيرًا.

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس يوم واحد.

وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابرس.

وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية شهدت غزوة قبرس فتوفيت بها.

وأهل قبرس يتبركون بقبرها، ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله ﷺ أن يدعو لها أن يجعلها الله من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين في سبيل الله ففعل، وهو حديث معروف.

وكان الأوزاعي يقول: إنا نرى هؤلاء - يعني أهل قبرس - أهل عهد، وإن عهدهم وقع على شرط، وأنه لا يسع المسلمين نقضه إلا بأمر يعرف به غدرهم، ورأى عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم، فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه، وأجاب كل واحد بما ظهر له.

وقد فتحت أيضًا في دولة الشراكسة في دولة الملك الأشرف برسباي، وأسر ملكها، وذلك سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ثم فتحت على يد السلطان سليم خان هذا المذكور، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين كما تقدم ذكر ذلك.

* * *

ثم تولى السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان(١)

وجلس بعد وفاة والده سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة.

كان مولده الشريف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وبذلك انتظم في سلك كريمة قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بحساب الجمل لأن لفظ الذكر تسعمائة وأحد وخمسون والقاعدة في ذلك مقررة في محلها.

ثم ظهر من خالق السموات، عنايات له وخصوصيات.

منها: أنه نشأ في ظل والده وجده المذكورين على مهاد العز والسلطان في حِجْر الخلافة، راضعًا ثدي العلم والعرفان. لم تعلم له صبوة مع توفر دواعيها، ولم يتناول شيئًا من المحرمات، بل ولا من المكروهات لما فيها، حتى قال أعاظم عرفاء العصر: مولانا المشار إليه ليس له نظير في هذا الدهر.

ومنها: أنه منذ ترعرع في شبابه صانه الله عن المحاربة والمخاصمة الناشئة عن حظوظ النفس وحب الرئاسة، واستعمل نفسه في العلم والعمل، ثم في الاستعداد للخلافة الإسلامية مع كمال النزاهة والعفة والنفاسة.

ومنها: أن طريقته في الملبس والمأكل والمشرب والمركب طريقة الصالحين والزهاد، ما عدا ما فيه خلل لنظام الملك أو ضرر للعباد.

وكان جلوسه على تخت الخلافة الإسلامية في ثامن شهر رمضان في اليوم الذي توفي أبوه فيه من عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فجلس جلوسًا جامعًا لفضل الزمان والمكان، والافتنان في فعل الخيرات والمرتبات في مباديه. مما فعله أسلافه في غاياتهم مما لا شك فيه. ومنحه الله تعالى من كثرة الخراج والخزائن والعساكر ما لم يجمعه أحد من أسلافه الأكابر. فإذا عزم على فتح أعظم الممالك جهز شرذمة من عساكره المنصورة ففتح كل صعب المسالك.

ومن النعمة العظمى: إتمام عمارة المسجد الحرام، وكان ترميمه في زمان جده مولانا السلطان سليمان، ثم كان ابتداء هدمه وتعميره في زمان والده السلطان سليم

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٣ - ١٠٧ .

سنة تسعمائة وثمانين. وتمام التعمير في زمانه، فأرخ ذلك جدي العلامة جمال الدين العصامي بشطر بيت هو قوله: [من الرجز]

تَـاريـخُ هَـدْمِ الـمَـسْـجِـدِ فِـى رَابِـعِ الـعَـشْـرِ بُـدِي

وهو تاريخ عجيب إذا معناه الحسابي يؤدي إلى تعيين السنة، ومعناه اللفظي يؤدى إلى تعيين يوم البدأة.

وسبب أمره الشريف بتعمير المسجد أن الرواق الشرقى منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رءوس خشب سقفه الثاني لأنه كان مسقفًا سقفين بينهما قدر ذراعين بذراع العمل عن محل تركيبهما من جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي، وجدر مدرسة الأفضل التي هي الآن وقف عباد الله، وقدر مفارقة الخشب عن موضع تركيبه أكثر من ذراع، ومال وجه الرواق الشرقى إلى صحن المسجد ميلا ظاهرًا، فبادر نظّار الحرم يصلحون ذلك المحل الذي فارق بتعديل خشب السقف بأطول منه، وأعمدوا الرواق المائل إلى صحن المسجد بأخشاب كبار حفر لها في المسجد تمسكه عن السقوط، وذلك كله في دولة السلطان سليمان، واستمر متماسكا على هذا الأسلوب من أواخر دولته إلى صدر دولة ابنه مولانا السلطان سليم، ففحش ميل ذلك الرواق، وعرض على الأبواب فبرزت الأوامر من السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء المسجد جميعه على وجه الإتقان والإحكام، وأن يجعل عرض السقف قببًا دائرة بأروقة المسجد ليؤمن تآكل الخشب، فعين لذلك بكلربكي مصر سابقًا فخر الأمراء العظام أحمد بك، وأضيف إليه في هذه الخدمة سنجق جدة، فوصل الأمير أحمد بك في آخر ذي الحجة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكانت الأوامر الشريفة وردت أن يكون الناظر على هذه العمارة والمتكلم عليها عن جانب السلطنة سيدنا ومولانا القاضي الحسين المالكي ففرح بهذه الخدمة الفرح التام، وشد نطاق حزمه على ناطق عزمه، وقام.

وحصل بين مولانا القاضي وبين أحمد بك الملاءمة والاتفاق، وبذلك يحصل تمام النجح والارتفاق، فاتفق رأي الناظر والأمين والمعمار على الشروع في الهدم، فشرع فيه رابع عشر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسعمائة كما تقدمت الإشارة إليه بتاريخ الجد جمال الدين العصامي، وكان ابتداء الهدم مكانًا من باب السلام من

تحت منارته إلى باب على، ومنه أيضًا إلى باب بني سهم المعروف بباب العمرة، وأخذت المعاول تعمل في شرفات المسجد وطبطاب سقفه ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا، وكان جدارًا عظيمًا نازلا في الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج، وكان على موضع التقاطع على وجه الأرض قاعدة تركب الأسطوانة عليها فشرع في وضع الأساس على وجه الإتقان والإحكام بالنورة المخمرة إلى أن طلع الأساس على وجه الأرض، وكانت الأسطوانات المبنية سابقًا على نسق واحد في جميع الأروقة من الرخام جميعها، إلى أن وقع الحريق في الجانب الغربي بالنار الناشئة من رباط « رشت » سنة أربع وثمانمائة في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق من الشراكسة فاحترق منه أساطين الرخام وذابت، فأرسل - من أمرائه - الأمير بيسق إلى مكة فعمر الجانب الذي احترق، وأبدل من الأعمدة الرخام المحترقة أعمدة من الحجر الصوان المنحوت، وصارت الجوانب الثلاثة بالأعمدة الرخام ما عدا هذا الجانب الغربي فهو من الحجر الصوان المنحوت، فلما وقع هذا التعمير أدخلت في هذه العمارة العثمانية دعائم من الحجر الشميسي الأصفر غلاظ بعد كل ثلاث دعائم من الرخام دعامة منها لتقوى على تركيب القبب فوقها، وبإدخال الدعائم الشميسي الأصفر، صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة، وهي أن كل ثلاث من الرخام رابعتها واحدة من الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كأنها قائمة بغاية الأدب حول بيت الله المنيف، وهي أعلى من ارتفاع سقفها السابق كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها: [من الكامل]

إنَّ الذي سمَكَ السَّماءَ بنَىٰ لها ... بيتًا دَعَائِمُهُ أعزُّ وأَطْوَلُ

واستمر الحال في هذه العمارة على هذا المنوال إلى أن تم منه الجانب الشرقى والجانب الشمالي إلى باب العمرة فما عمر مولانا السلطان سليم - أسكنه الله جنات النعيم - إلى أن تتم العمارة، وسلم ملكة الشريف السعيد إلى نجله السعيد صاحب الترجمة مولانا السلطان مراد ابن السلطان سليم خان فبرز أمره الشريف لأمير العمارة الشريفة المشار إليه أحمد بك المذكور، وأن يبذل جهده وجده في الإتمام لعمارة المسجد الحرام، فأعانه الله تعالى على إتمامها وأمد كذلك سائر خدامها، إلى أن تمت عمارة الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع أبوابه وأعتابه،

ودرجاته من داخله وخارجه، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة، وصار المسجد الحرام نزهة المناظر، وبغية للخاطر، وجلاء للنواظر والخواطر، بحيث صار ما عمره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف؛ لأن هذا البناء أمكن وأزين وأعلى وأشرف.

وكان جملة ما أنفق على عمارته مائة ألف وعشرة آلاف دينار ذهبًا غير الآلات والرصاص والنحاس والخشب، وأهلَّة القبب المعمولة بمصر المطلية بالذهب.

وجدد خيرات تفرد بها منها: مدرسة وتكية بالمدينة الشريفة، ومدرسة بمكة، وسبيل عظيم في بنائه وفرشه وعذوبة مائه.

وجدد بالروضة جملة من الدروس العلمية بمعلوم قدره كل عام مائة وخمسون دينارًا ذهبًا جديدًا للمدرس ومائة دينار جديد للطلبة لكل واحد عشرة على الدوام، وحدد في كل عام ألف دينار ذهبًا لمائة نفر من الحجاج يدعون له بخير الدنيا والآخرة عند البيت العتيق.

وفي عام ست وثمانين وتسعمائة شرع في فتح الممالك العجمية الطهماسبية وعساكره المنصورة يتبع بعضها بعضًا من غير انقطاع، فملكه الله تعالى أعظم تلك البقاع وأحصن تلك القلاع.

وفي سنة ٩٨٨ ثمان وثمانين وتسعمائة أمر بكتب أسماء الخلفاء الأربعة بعد الله ورسوله بخط كبير عظيم نقرًا في جدر المسجد الشرقي مموهًا بالذهب الصرف على أحسن قاعدة خط بديع رائق قل أن تحاكيه المهرة في بطون المهارق بين الباب المنسوب إلى سيدنا على كرم الله وجهه، والباب المنسوب إلى عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، ولم أظفر على حقيقة السبب لذلك إلا ما يسمع من أفواه الرواة ولم تروه أخبار الثقات.

وجملة عدد الأسطوانات الرخام ثلاثمائة وأحد عشر، والأسطوانات الشميسي مائتان وأربع وأربعون، وعدد القبب مائة واثنتان وخمسون فيه شرقية أربع وعشرون ومثلها غربية، وشامية ست وثلاثون ومثلها جنوبية، وواحدة في ركنه من جهة منارة « حزورة »، والطواجن مائتان واثنان وثمانون طاجنًا. وعدد شرفاته ألف وثلاثمائة وثمانون شرفة.

وجملة أبوابه تسعة عشر بابًا تفتح على تسعة وثلاثين طاقًا كل ذلك مسمى معلوم مشاهد.

وجعلت في عمارة المسجد الشريف تواريخ عديدة.

قال القطب النهروالى: رأيت لبعض الفضلاء تاريخًا لتمام عمارته وذلك في سنة ٩٨٤ أربع وثمانين وتسعمائة في بيت مفرد فأعجبنى نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكر به وهو هذا البيت:[من الخفيف]

جَدَّدَ المَسْجِدَ الحَرَامَ مُرَادٌ   دَامَ سُلْطَانُهُ وطَالَ أَوَانُهْ

قلت: هذا البيت هو لجدي العلامة جمال الدين العصامى كما رأيته بخطه في تذكرته عزاه إلى نفسه.

ولمولانا القاضي الحسين تاريخ منثور هو قوله : « أطال الله لمن أتمه عمرا » وورد تاريخ من الأبواب السلطانية معه حكم شريف برسمه على طراز باب سيدنا العباس في ظاهر الرواق فرسم هنالك وهو لقاضي العسكر نثرًا قوله : « الحمد لله الذي أسس بنيان الدين المتين بنبي الرحمة والرشاد، وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد » وهو فيه بعض تطويل وفي آخره نظم ثلاثة أبيات تتضمن التاريخ وهي هذه:[من الرمل]

جَدَّدَ السلطانُ مرادُ بنُ سَلِيم   مَسْجِدَ البيتِ العَتِيْقِ المُحْتَرَمْ
سُرَّ مِنْهُ المُسْلِمُونَ كلُّهُمْ   دَامَ منصورَ اللواءِ والعَلَمْ
قال رُوحُ القدسِ في تاريخِهِ   عَمَّرَ سُلْطَانُ مُرَادُ الحَرَمْ

وفي سنة الألف عزل مولانا السلطان مراد آغاة الينيشرية، وكان ظالمًا فأرخ عزله شاعر نظما باللغة التركية معناه: لو قطع السلطان رأس الأغا ورجله لكان له تاريخًا عجيبًا: رأس الأغا الهمزة من لفظه، ورجله الألف الأخيرة فيبقى الغين بألف هى سنة عزله.

وكانت وفاة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٠٣ ثلاث بعد الألف، وسنه الشريف يوم ولي ثلاثون سنة، ومدة سلطنته عشرون سنة وتسعة أشهر وستة أيام.

ثم تولى السلطان محمد(١) ابن السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان

وجلس سنة ثلاث وألف، وغزا بعسكره إلى غزوة مجر، وحصل هناك قتال، ومَنَّ الله عليه بالنصر فعاد مؤيدًا منصورًا.

ولي الملك بعد وفاة أبيه، وبدأ بترخيم المطاف الشريف، والتجهز بنفسه إلى جهاد الفرنج أعداء الدين وأيده الله بالنصر والظفر المبين، وأبدى في مباشرته الحرب بنفسه ما أبهر، وأنبأ بعلو همته وقوة سجيته، فإن ذلك لم يتفق إلا نادرًا، ثم عاد بالنصر التام إلى تخت مملكته وفي تاريخ ترخيم المطاف أبيات للإمام عبد القادر مطلعها: [من الكامل]

يَا مَنْ يَلُوذُ بكَعْبَةٍ وحَطِيمِ وبِهَا يَطُوفُ بِخَالِصِ التَّعْظِيمِ

وهي نحو أربعة وعشرين آخرها بيت التاريخ وهو:

قد دبَّرَ السُّلْطَانُ أيد مُلْكَهُ بَدْءَ المَطَافِ جَرَىٰ بِكُلِّ نعيْمِ

توفي إلى رحمة ربه سنة اثنتي عشرة وألف.

وكانت مدة سلطنته تسع سنين ونصف شهر، تغشاه الله بالرحمة والرضوان.

ثم تولى السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان بن سليم خان(٢)

وجلس على سرير الملك سنة اثنتي عشرة وألف وبنى جامعه المعروف، المزخرف بأنواع الزينة، وقتل من كان في أيامه من البغاة والجلالية.

وله خيرات عديدة.

وكان كثير الخير والمعروف بحيث إنه جعل لأهل الحرمين وقفًا بمصر يجمع مغله في كل عام ويرسل إلى مكة صحبة الركب المصري عوضًا عن مال بندر جدة المعمورة لانقطاعه بموجب عدم وصول المراكب الهندية فهو المعروف بالأحمدية.

وفي سنة ست وعشرين بعد الألف أرسل إلى أعيان مكة المشرفة من شريفها وقضاتها وأئمتها وخطبائها كسوة عظيمة، فلبس كل من المذكورين ما أرسل به إليه،

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٨ - ١١٢ .
(٢) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٣ - ١١٨ .

وكان ذلك أول النهار تجاه البيت الشريف.

وأرسل في عام عشرين الباشا حسن المعمار لعمارة عين مكة المشرفة، فوصل في أوائل ذي الحجة من العام المذكور وعمَّر العين وأصلح بعض إصلاحات كانت بالكعبة الشريفة جزاه الله خيرًا.

وموجب الإصلاح حصول تشعُّب قليل في الجانب الشمالي، فأصلحه بحزام حديد تحت الطراز كالطراز مصفح بالفضة مطلي بالذهب.

ووصل معه من الديار الرومية بميزاب الكعبة الشريفة ثم ركبه بمحله بعد أن قلع الميزاب الأول، وأرسله إلى الحضرة الشريفة السلطانية، واستمر بها إلى أن وقع سقوط الجدران في دولة السلطان مراد بن أحمد سنة تسع وثلاثين، فرفع ذلك الإزار الحديد، وسبك فضته متعاطو العمارة ولم يجعلوا عوضه عليها لعدم الاحتياج إليها بعد عمارتها.

قلت: وكان تمام ذلك الإصلاح عام أحد وعشرين بعد الألف.

وفي مصلى الجمعة لوح رخام مثبت في شاذروان البيت الشريف منقور فيه ذكر ذلك.

وفيه « وقد جاء تاريخه من القرآن العظيم: أسس بنيانه على تقوى من الله »، وهو حساب إحدى وعشرين وألف وهو من عجيب الاتفاق وأيمنه.

وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر.

ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد أخوه[(١)]

وجلس على تخت الملك سنة سبع وعشرين وألف، كان السلطان أحمد بن محمد عند موته عهد بالسلطنة له، وذلك لصغر سن السلطان عثمان ابنه، فاستقر فيها بعد موت أخيه السلطان أحمد بن محمد ثلاثة أشهر، ثم دبر كزلار أغاسى الطواشي في خلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان بن أحمد، فخلع مصطفى وبقي في السرايا مخلوعًا إلى أن تولى التولية الثانية كما سيأتي، وكان خلعه ليلة الأربعاء ثالث ربيع أول من سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر وعشرة أيام.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .

ثم تولى السلطان عثمان بن أحمد خان بن محمد خان(١)

فهو ابن أخي السلطان مصطفى بن محمد، وجلس على تخت الملك ثالث ربيع الأول سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف، تولى بعد القبض على عمه مصطفى في التاريخ المذكور.

وكان عالمًا فاضلاً شجاعًا مطاعًا شريفًا يدور بالسيف والسنان، ويحمى بطوقه وطوعه بيضة الإسلام والإيمان، ثم شغب الجند على قزلار أغاسي، فنفوه إلى مصر بعد أن أرادوا قتله، وكان مقرب الحضرة السلطانية، ومدبر الدولة العثمانية.

ثم قبضوا على السلطان عثمان، وأحضروا عمه مصطفى وأجلسوه على تخت السلطنة ثانيًا، وقتلوا عثمان وكانت سنه حين التولية نحو عشر سنين، وسنه عند القتل نحو تسع عشرة سنة.

وسبب قتله أنه عزم على الحج سنة إحدى وثلاثين وألف، وصمم على ذلك، وأمر بالخيام والمضارب والوطاق أن يضرب ظاهر القسطنطينية، فأجمع رأى أرباب دولته، وأركان سلطنته على خلعه إن لم يرجع، فدخلوا عليه وأشاروا عليه بالترك وقالوا: إنك غزوت الفرنج وقتلتهم وسبيتهم، وفي قلوبهم منك أمر عظيم فنخاف بعد عزمك، وانفصالك عن التخت إلى الحجاز مع بعد المسافة أن تثب الفرنج على المملكة، ويصعب خروجهم منها، مع أن هذا ليس قانون آبائك وأجدادك، وخوفوه بذلك فلم يمتنع، وصمم على العزم إلى الحج وخرج لذلك وسلك أول طرق هذه المسالك فكتب له الثواب، وحصل له أجر القصد في الحال والمآب. قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ [النساء: ١٠٠] الآية، فلما عرفوا منه التصميم قتلوه وأعادوا عمه السلطان مصطفى كما ذكرنا، كذا في « منهل الظمآن لأخبار دولة آل عثمان » للشيخ العلامة محمد على بن علان.

وكان قتله يوم الخميس سابع رجب الأصب من سنة ١٠٣١ وفيه يقول بعض أدباء الشام مؤرخًا: [من الوافر]

قَضَى عُثْمَانُ سُلْطَانُ البَرَايَا   بِأَسْيَافِ العَسَاكِرِ والجُنُودِ
وَوَافَتْهُ المَنِيَّةُ فِي السَّرَايَا   مؤرِّخةً كَعُثْمَانَ الشَّهِيْدِ

سنة ١٠٣١

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ - ١٢٥ .

وقال آخر مؤرخًا أيضًا: [من مجزوء الرمل]

قَـدْ قَـضَـىٰ عُـثْـمَـانُ ظُـلْـمًـا حِـيـنَ خَـانَـتْـهُ الـجُـنُـودُ
والـلَّـيَـالِـي أَرَّخَـتْـهُ إنَّ عـثـمـانَ شَـهِـيـدُ
سنة ١٠٣١

ومدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وأربعة أيام.

ثم تولى السلطان مصطفى[1] بن محمد خان وهذه هى التَوْلِيَةُ الثانية

وذلك أنه لما كان يوم خامس رمضان سنة إحدى وثلاثين ورد الخبر بوفاة السلطان عثمان، وتولية السلطان مصطفى عمه، وكان ذلك في سابع رجب من السنة المذكورة، فزينت مكة سبعة أيام ودعى له على المنبر الشريف المكي يوم الجمعة عاشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وصلي على السلطان عثمان صلاة الغائب، وقرئت له ربعة حضرها الأعيان وذلك بأمر مولانا الشريف إدريس، واستمر إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة الحرام من السنة الثانية والثلاثين بعد الألف، فكانت مدة تصرفه في التولية الثانية سنة وثلاثة أشهر ونصفًا.

ثم تولى السلطان مراد الغازي ابن أحمد ابن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان[2]

جلس على سرير الملك منتصف ذي القعدة الحرام عام اثنين وثلاثين وألف جلوسًا عامًا، وأخذ السيف في يده، وأخذ ثأره من الأعداء، وهم قتلة أخيه عثمان ابن أحمد، وفتح قلعة وان.

ثم بعد سنين توجه بعسكر عظيم، وفتح بغداد، وذلك سنة ثمان وأربعين وألف وجعل جميع من كان فيها من الروافض طعمة سيفه.

وهو السلطان القائم بشعائر الإسلام المتأيد بعناية الملك العلام. فارس ميدان المنازلة إذا حمي الوطيس، وقيل: هل من مبارز، ومسقي رءوس الأسل من صدور يؤكد الشر فيها الضمير البارز، ذو الهمة التي لو تعلقت بالجو لاستنزلت منه ما تعلق بالثريا، والفواضل التي لو كفت سحائب المزن لكفت القلوب ريه، والشيم التي لا

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .
(٢) ينظر السابق (ص ١٢٦ - ١٣٥) .

يدانيه فيها أحد، والمزايا التي لا تحصرها العبارة ولا يستقصيها العد.

ولي بعد عمه السلطان مصطفى في التاريخ المتقدم ذكره، وورد الخبر أوائل ذي الحجة منها إلى مصر فخطب له بها وزينت مكة سبعة أيام وقام بالملك على وجه السداد، وأعلى ذكره على السبع الشداد.

وكانت سنه حين ولي أربع عشرة سنة. وفي ذلك يقول فخر الأدباء بكري الصراف: [من الكامل]

لـمَّـا أَرَادَ الـلـهُ نَـفْـعَ عِـبَـادِهِ ... وَلَّـى مُـرَادًا مُـلْـكَ خيـرِ بِـلادِهِ
وأَمَـدَّهُ مِـنْ فَـضْـلِـهِ بِـعِـنَـايَـةٍ ... جَعَلَتْ عِدَاهُ تَحْتَ نَعْلِ جَوَادِهِ
وَشَدَا لِسَانُ الحَالِ فِي تَارِيخِهِ ... بُشْرَىٰ لَهُ قَدْ نَالَ كُلَّ مُرادِهِ
سنة ١٠٣٢

ولم يزل قائما بشعار الملك مقيما لشعائر الإسلام، مجهزًا عساكره المنصورة إلى افتتاح البلدان، وتوجه بنفسه الشريفة في عام خمس وأربعين إلى غزو العجم فافتتح كثيرًا من بلدانهم وافتتح بغداد عام ثمان وأربعين بعد الألف، ثم رجع إلى تخت مملكته اسطنبول، وأبقى على عسكره المنصور سردارًا معينا.

ويحكى أنه أرسل إلى مصر المحروسة درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها، وبرز أمره الشريف إلى العساكر المصرية بإخراج العود منها، وأن من أخرجه يزاد في جامكيته كذا وكذا، فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك.

ثم أرسل قوسًا ومعها همايون شريف يخاطب به وزير مصر مضمونه أمر العساكر والأجناد بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك، فحاول العسكر جره فلم يقدروا، ثم علقت الدرقة بالديوان الشريف العالي بمصر المحروسة وعلق القوس بباب زويلة.

وقد جعل بعض الأروام تاريخًا بالتركى لسنة مجيء القوس وهى سنة ١٠٣٣ ثلاث وثلاثين وألف، وترجم بالعربية بما نصه « يا سلطان الوجود لساعدك القوة ».

ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره الشريف إلى أهالي الحرمين، وأمره المتولي الجهات خصوصًا مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم، فما من همايون يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك.

ومما يدل على عناية الله به أن كانت عمارة بيت الله الشريف في زمنه ابتداؤها

وانتهاؤها في أيام دولته، وقد أرخ تلك العمارة مولانا الإمام عبد القادر الطبري في قصيدة قدمها إلى السيد محمد المتولي عمارة البيت الشريف، وهي نحو الثمانية عشر بيتًا مطلعها: [من الخفيف]

عَادَ بَيْتُ الإِلهِ بَعْدَ انْهِدَامِهْ ... وغَدَا فَائِقًا بِحُسْنِ نِظَامِهْ

إلى أن يقول:

فِلهَذَا طَيْرُ المَسَرَّةِ أَمْسَىٰ ... مُنْشِدًا عِنْدَ بدئه وختامِهْ

حـالـمَـا أَتَـمَّـهُ بِـمُـرَادِ ... شيد بَيْت الإله تاريخ عامِهْ

وسجود البيت الشريف وعمارته وما يتعلق بهما مذكور مفرد بالتصنيف لا نطول بذكره، وسنشير إلى طرف من أخباره في دولة مولانا الشريف مسعود بن إدريس فإنها موافقة لدولة السلطان مراد في الزمان المذكور سقوطًا وابتداء تعمير، واستمر مولانا السلطان مراد إلى أن توفي سنة ١٠٤٩ تسع وأربعين وألف، وكانت مدة سلطنته سبع عشرة سنة.

ثم تولى السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد[(١)] أخو السلطان مراد المذكور قبله

جلس على تخت الملك سنة وفاة أخيه السلطان مراد وهي سنة تسع وأربعين وألف، وشرع في أيامه في فتح جزيرة كريد، ففتحها إلا قلعة واحدة؛ وذلك لمتانتها غاية المتانة، فاستمر في الملك إلى أن انفتل من مدته سنة ثمان وخمسين وألف، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وثمانية أشهر[(٢)].

ثم تولى السلطان محمد خان الغازي المجاهد[(٣)]

السلطان محمد خان ابن المرحوم السلطان إبراهيم خان ابن مولانا السلطان أحمد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان سليم خان ابن مولانا السلطان سليمان خان ابن مولانا السلطان سليم خان فاتح مصر والشام ابن مولانا السلطان بايزيد خان ابن مولانا السلطان محمد خان

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٢) بياض بالمخطوط بقدر ستة أسطر.

(٣) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٤١ - ١٤٧ .

فاتح القسطنطينية العظمى ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان يلدرم بايزيد ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان أورخان ابن مولانا السلطان عثمان خان الغازي.

مولده: سنة تسع وأربعين وألف، وهي السنة التي توفي فيها عمه السلطان مراد ابن أحمد.

وجلس على تخت السلطنة في شهر رجب المبارك من شهور سنة ١٠٥٨ ثمان وخمسين وألف، وعمره الشريف إذ ذاك تسع سنين.

له الفتوحات التي لا تحصى والمغازي التي لا تستقصى، أذل بغزواته أعداء الدين، واستباح قلاعهم، وجعلها دارا للمسلمين.

لم تزل أعلام نصره ظاهرة، وآيات سعده باهرة.

فمن فتوحاته الميمونة التي لم تزل بالعز والنصر مقرونة، مدينة قوش آضه وأيوار وزغره ويانق وورط ويانوا وقمانيصه وقندية التي هي كريد؛ لأنها جزيرة وقندية في طرفها، وكان فتحها سنة ثمانين أعني قلعة كريد.

وخذل بذلك كل جبار عنيد وحصل للمسلمين به المسرة ولأعينهم أعظم قرّة، وكان الفتح بها مع عقد هدنة إلى مدة مائة عام.

وهذا على مقتضى مذهب أبي حنيفة النعمان، لأن عقدها موكول إلى نظر السلطان.

وأما عند إمامنا الشافعي فلا يجوز عقدها فوق أربعة أشهر عند قوتنا وفوق عشر سنين عند ضعفنا. ثم إنهم نقضوا العقد ونكثوا العهد فعاد نقضهم عليهم ورجع وباله إليهم.

وقد أرخ الفتح المذكور الشيخ عبد الباقي بن أحمد الشامي في أبيات يقول آخرها: [من السريع]

وحِينَ كَرْبٌ زَالَ أَرَّخْتُهُ   نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قريبْ

قلت: هو تاريخ لطيف، وحسن الإخراج فيه ألطف، يشير إلى أن مدلول لفظ كرب الحسابي وهو مائتان واثنان وعشرون يسقط فيصير الباقي تاريخ تلك السنة.

وأرخه أيضا الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحمن الخياري المدني بأبيات أولها قوله: [من السريع]

يا مَعْشَرَ الإسْلامِ قَدْ عَمَّكُمْ فَضْلٌ عَظِيمٌ يَقْتَضِي شُكْرَكُمْ

وآخر قوله:

إنْ قيلَ ما تاريخُ عام أتَى أَلْفَتْحُ والنَّصْرُ إلىٰ شَهْرِكُمْ

فَقُلْ مُجِيبًا صَحَّ تَارِيخُهُ نَصْرٌ مِنَ الله وفَتْحٌ لَكُمْ

هذه المدن الكبار، ولا يحصى ما سواها من الصغار.

واستمر إلى أن ثار عليه الجند فخلعوه وأدخلوه معتقَلاً، وأخرجوا من كان فيه معتقِلاً أخاه مولانا السلطان سليمان بن إبراهيم، وسلموا عليه بالولاية، وضربت باسمه السكة وخفق في موكبه اللواء والراية، فهو سلطان زماننا الآن، أيده الله في المكانة والإمكان. ولم يمكث أن التفت إلى قتال أعداء الدين، وتهيأ لغزو الكفرة الملحدين، فطلبوا الهدنة أربع سنين، فوافقهم على ذلك لما اقتضاه نظره في مصالح المسلمين.

وكان توليته يوم خلع أخيه، وهو يوم السبت ثاني محرم الحرام مفتتح سنة تسع وتسعين وألف، جل من لا يزول ملكه ولا يتبدل، لا إله غيره.

الخاتمة: نسأل الله تعالى حسنها، تحتوي على ثلاثة أبواب

الباب الأول: في ذكر نسب الطالبيين، وذكر المشاهير من أعقابهم.

الباب الثاني: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه إليها وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم من على بن أبي طالب إلى يومنا هذا، حتى لا تخلو الأرض من قائم من آل محمد يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم إلى أن يظهر مهديها المنتظر، وهذا على غير رأى الإمامية، أما على رأيهم فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام كما سنذكر ذلك.

الباب الثالث: في ذكر من ولى مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا فنقول وبالله العون:

الباب الأول
في ذكر نسب الطالبيين، وذكر المشاهير من أعقابهم

أما أنساب الطالبيين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني على بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام، وهما سبطا الرسول ﷺ، وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان لعلي رضي الله تعالى عنه غيرهم من الولد، إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة، وتعصب لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم من هؤلاء الثلاثة لا من غيرهم.

فأما الحسن: فمن ولده: الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة. أما الحسن المثنى، فكان جليلاً فاضلاً ورعًا، أمه خولة بنت منظور بن ريان بن سيار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن مازن، وكانت قبل الحسن السبط تحت محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة رضوان الله تعالى عليهم، فقتل عنها يوم الجمل وله منها أولاد، فتزوجها الحسن بن على بن أبي طالب، فسمع بذلك أبوها منظور فدخل المدينة الشريفة، وركز راية سوداء عند باب مسجد رسول الله ﷺ فلم يبق قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يفتات عليه في ابنته؟ فقالوا: لا.

فلما رأى الحسن ذلك سلم إليه ابنته فحملها في هودج، وخرج بها من المدينة، فلما صارت بالبقيع قالت: يا أبت أين تذهب بي؟ إنه الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لها: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا.

فلما صارا في نخل المدينة إذا بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر قد لحقوا بهم، فأعطاه إياها فردها إلى المدينة، وفي ذلك يقول جد حفيز العبسي: [من البسيط]

إنَّ الندَى مِنْ بني ذُبْيَانَ قَدْ عَلِمُوا ... والجودَ في آلِ مَنْظورِ بنِ سَيَّارِ
ألماطرِينَ بِأَيْدِيهِمْ نَدَى ديمًا ... وكلَّ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ مِدْرَارِ
تَزُورُ جارَهَمُ وهنًا هديتُهُمْ ... وما نهاهم لها وهْنًا بزوارِ

وكان الحسن وصيَّ أبيه، وولى صدقة على بن أبي طالب في عصره.

قال في كتاب « أنساب قريش »: كان الحجاج بن يوسف قال للحسن وهو

يسايره في موكبه بالمدينة، والحجاج يومئذ أمير المدينة: أدخل عمك عمر بن على معك في صدقة على، فإنه عمك وبقية أهلك. فقال: لا أغير شرط على ولا أدخل فيها من لم يدخل.

قال: إذن أدخله معك. فنكص عنه الحسن حتى غفل عنه الحجاج، ثم كان وجهه إلى عبد الملك حتى قدم عليه، فوقف ببابه يطلب الإذن، فمر به يحيى بن الحكم فلما رآه يحيى، عدل إليه فسلم عليه، وسأله عن مقدمه وخبره وتحفى به، وقال له: إني سأنفعك عند أمير المؤمنين يعني عبد الملك.

فدخل الحسن على عبد الملك فرحب به وأحسن مسألته: وكان الحسن قد أسرع إليه الشيب، ويحيى بن الحكم في المجلس، فقال له يحيى: وما يمنعه يا أمير المؤمنين شيبته أماني أهل العراق كل عام يقدم عليه منهم ركب يمنونه الخلافة. فأقبل عليه الحسن بن الحسن، فقال: بئس والله الرفد رفدت، وليس كما قلت، ولكنا أهل بيت يسرع إلينا الشيب، فأقبل عليه عبد الملك، فقال: هلم ما قدمت له؟ فأخبره بقول الحجاج فقال له: ذلك إليك، اكتبوا إليه كتابا لا يجاوزه ووصله، فلما خرج من عنده لقيه يحيى بن الحكم، فعاتبه الحسن على سوء محضره، وقال: ما هذا الذي وعدتني.

فقال له: إيهًا عنك فوالله لا يزال يهابك، ولولا هيبته إياك ما قضى لك حاجة، وما آلوتك رفدًا.

وكان عبد الملك بن مروان غضب عليه، فكتب إلى هشام بن إسماعيل بن هشام ابن الوليد بن المغيرة عامله على المدينة، وكانت بنت هشام تحت عبد الملك بن مروان، وولدت له هشام بن عبد الملك: أن أقم آل على يشتمون على بن أبي طالب، وأقم آل الزبير يشتمون الزبير. فقدم كتابه على هشام، فأبى كل منهما ذلك، وكتبوا وصاياهم، فركبت أخت هشام إليه وكانت جزلة عاقلة فقالت: يا هشام أتراك الذي تهلك عشيرته على يده؟ راجع أمير المؤمنين. فقال: ما أنا بفاعل، قالت: فإن كان لابد من ذلك فمر آل على يشتمون الزبير، وآل الزبير يشتمون عليًا.

قال: هذه أفعلها. فاستبشر الناس بذلك وكان أهون عليهم. فكان أول من أقيم إلى جانب المرمر الحسن المذكور وكان رجلاً رقيق البشرة عليه يومئذ قميص كتان

رقيق، فقال له هشام: تكلم فسب الزبير، فقال: إن لآل الزبير رحماً أبلها ببلالها وأربها بربابها، يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار.

فقال هشام لحرسي عنده: اضربه، فضربه سوطًا واحدًا من فوق قميصه، فخلص إلى جسده، فشرحه حتى سأل دمه تحت قدميه في المرمر. فقام أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، فقال: أنا دونه أكفيك أيها الأمير فنال من آل الزبير فشتمهم.

ولم يحضر على بن الحسين -كان مريضًا أو تمارض - ولم يحضر عامر بن عبد الله بن الزبير، فهم هشام أن يرسل إليه، فقيل له: لا تفعل أفتقتله؟ فأمسك، وحضر من آل الزبير من كفاه.

وكان عامر يقول: إن الله لم يرفع شيئًا فيستطيع الناس خفضه، انظروا إلى ما تصنع بنو أمية يخفضون عليًا، ويغرون بشتمه، وما يزيده الله بذلك إلا رفعة.

وكان ثابت بن عبد الله بن الزبير غائبًا، فقدم فقال لهشام بن إسماعيل: إني لم أحضر هذا الجمع فاجمع الناس حتى آخذ بنصيبي. فقال هشام: وما تريد بذلك ولود من حضر أنه لم يحضر.

فقال: لتفعلن أو لأكتبن إلى أمير المؤمنين بعرضي نفسي عليك فلم تفعل، فجمع له الناس فقام فيهم فقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ إلى ﴿ كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨:٧٩] لعن الله من لعن، ولعنته قوارع القرآن، لعن الله المندوب يلعنه الله بين عينيه إلا شدة لطيم الشيطان، المتناول ما ليس له هو أقصر ذراعًا وأضيق باعًا.

لعن الله الأثعل المترادف الأسنان المتوثب في الفتن توثب الحمار في القيد محمد ابن أبي حذيفة الرامي أمير المؤمنين عثمان برءوس الأفانين.

ثم قال: إن الله رماك، وكذب، لو رماه الله ما أخطأه.

لعن الله الأعور بن سمرة ابن شر العضاه، وألأمها مرعى، وأقصرها فرعا، لعنه الله ولعن من أخذ حباه، يعرض بأم هشام بن إسماعيل، وكان عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة خلف عليها بعد إسماعيل بن هشام. وعبيد الله بن عبد الرحمن هو الذي عناه ثابت بن عبد الله بن الزبير. فلما بلغ ثابت هذا من القول في هشام أمر به إلى السجن وقال: ما أراك تشتم إلا رحم أمير المؤمنين. فقال له

ثابت: إنهم عصاة مخالفون، فدعني حتى أشفى أمير المؤمنين منهم. فلم يزل ثابت في السجن حتى بلغ خبره عبد الملك فكتب: أن أطلقه فإنما شتم أهل الخلاف.

أولاده: محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وفيه البقية، وحسن وإبراهيم، وزينب وأم كلثوم ولما خطب الحسن بن الحسن إلى عمه الحسين بن على بن أبي طالب، قال له الحسين: يابن أخي قد انتظرت هذا منك قبل اليوم، فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج له ابنتيه فاطمة وسكينة فقال: اختر. فاختار فاطمة فزوجه إياها. فكان يقال: إن امرأة سكينة مرذولتها لمنقطعة الحسن.

وأتت منه بأولاده المذكورين حسن المسمى حسن المثلث، وعبد الله وزينب وأم كلثوم ما عدا محمد فإن أمه رملة بنت سعيد بن زيد أحد العشرة.

فلما حضرت الوفاة الحسن قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيك، فكأني بعبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان قد جاء على فرس مرجلا جمته، لابسا حلته، يسير في جانب الناس يتعرض لك، فانكحي من شئت سواه، فإني لا أدع من ورائي هما غيرك.

فقالت: آمن من ذلك وأثلجته بالإيمان من العتق والصدقة لا نتزوجه.

ومات الحسن رضي الله عنه وخرج به فوافى عبد الله بن عمرو بالحال التي وصفها الحسن.

وكان يقال لعبد الله بن عمرو « المطرف » من حسنه.

فنظر إلى فاطمة حاسرًا تضرب وجهها فأرسل إليها: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به. فاسترخت يداها وعرف ذلك فيها وخمرت وجهها.

فلما جاءت رسله تخطبها قالت: كيف بيميني التي حلفت بها؟ فأرسل إليها: لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيئان، فعوضها عن يمينها فنكحته وزوجها به ابنها عبد الله بن الحسن، وولدت له محمدا الديباج والقاسم ورقية بني عبد الله بن عمرو بن عثمان، فكان عبد الله بن الحسن، وهو أكبر أولادها يقول: ما أبغضت بغض عبد الله بن عمرو أحدًا، ولا أحببت حب ابنه محمد أخي أحدًا.

مات الحسن وسنه خمس وثلاثون سنة في حياة أخيه زيد بن الحسن السبط، ولم يدَّع الإمامة ولا ادعاها له أحد، والعقب منه في خمسة أشخاص: عبد الله المحض،

والكامل يلقب بهما، وسيأتي ذكره عند ذكر قيام ولده محمد النفس الزكية.

ومن بنيه: الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى، وهم بنو إدريس بن إدريس المحض، ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم، وهم بنو حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبد الله بن عمر بن إدريس .

ومنهم: بنو سليمان بن عبد الله المحض الملوك بنواحي « تلمسان » .

ومنهم: بنو موسى الجون بن عبد الله المحض، كان من عقبه ملوك اليمامة بنو محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض.

ومنهم: بنو صالح بن موسى بن عبد الله الثاني، ويلقب بأبي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكا بـ « غانة » من بلاد السودان بالمغرب الأقصى وعقبهم هنالك معروف.

ومن عقبه أيضًا: الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون، كانوا أمراء مكة بعهد العبيديين.

ومن عقبه: بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، ملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا، فمنهم بنو أبي نمى بن أبي سعيد الحسن بن على بن قتادة أمراء مكة إلى عهدنا الآن.

والثاني من أولاد الحسن المثنى الخمسة: داود بن الحسن المثنى، وكان رضيع جعفر الصادق، وكان المنصور حبسه فأفلت منه بالدعاء الذي علمه جعفر أمه، ويعرف بدعاء أم داود.

ومن عقبه السليمانيون، الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود، وغلبهم عليها الهواشم آخرًا وهم المسمون بآل أبي الطيب، كما ذكر ذلك الفاسي في تاريخه: « شفاء الغرام » فساروا إلى اليمن، فقامت الزيدية بدعوتهم، وغلبوا على بني طباطبا بـ « صعدة » .

والثالث من أولاد الحسن المثنى الخمسة: حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب، ومن عقبه قتيل فخ حسين بن على بن الحسن

المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط الفخي الخارج على الهادي بن الرشيد، وسيأتي ذكره.

والرابع من أولاد الحسن المثنى: إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى. ومن عقبه بنو طباطبا أبي الأئمة بـ « صعدة » الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن الحسن المثنى حين جاءوا من مكة ثم غلبهم عليها بنو الرسي، ورجعوا إلى إمامتهم بصعدة، وهم فيها إلى عهدنا الآن.

والخامس جعفر بن الحسن المثنى، وكان يكنى أبا الحسن، وكان أكبر إخوته سنًّا.

ومن عقبه من بني علي: باغرآل حمزة ويعرفون ببني الشجري، منهم: السيد أبو السعادات بن الشجري، له « أمالي » في النحو. انقرض عقبه. ومن عقبه أيضًا: بنو الكشيش، وآل أبي زيد، لهم أعقاب. فهذه خمسة أسباط من الحسن المثنى.

وأما أخوه زيد بن الحسن السبط فكنيته أبو الحسين، عاش تسعين سنة، وقيل: خمسًا وتسعين، وقيل: مائة.

وكان زيد قد تخلف عن عمه الحسين بن على فلم يخرج إلى العراق معه، مات زيد ولم يدَّع الإمامة، ولا ادعاها له مدع من الشيعة.

والإمامة لأولاد الحسين بن على بن أبي طالب، وهو أعقب سبطًا واحدًا، وهو مع الخمسة الأول.

السبط السادس من ولد الحسن بن على بن أبي طالب: وهو الحسن بن زيد، ويكنى أبا محمد، وكان أمير المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وعمل له على غيرها.

وكان مظاهرًا لبني العباس على بني عمه الحسن المثنى. وهو أول من لبس السواد من العلويين، ولا عقب لزيد إلا من ابنه الحسن هذا.

وكانت لزيد بنت اسمها نفيسة أخت للحسن بن زيد، وهي التي يسميها أهل مصر الست نفيسة ويعظمونها ويقسمون بها، وكانت زوجة الوليد بن عبد الملك.

وكان زيد يفد على الوليد فيقعده على السرير معه، ويكرمه لمكان ابنته، ووهب له ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة.

وزعم بعض الناس أن نفيسة المذكورة بنت الحسن بن زيد بن الحسن لا أخت

له، وقد كانت تزوجت بإسحاق بن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يروى عنها، ولما مات أدخلت جنازته عليها فصلت عليه. والله أعلم.

قال الزبير بن بكار: حدثني نوفل بن ميمون، قال: حدثني أبو مالك محمد بن مالك بن علي بن هرمة، أنه قال يمدح الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرض بعبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وبابنيه محمد النفس الزكية، وإبراهيم بن عبد الله المحض: [من البسيط]

إني امرؤٌ مَنْ رعَى غَيْبي رَعَيْتُ لَهُ ... غَيْبَ الذِّمامِ، ومن أنكرْتُ أنكرَني
أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ حَوْلِي وَقَدْ رَدَعُوا ... نَبْلي الصِّيَابَ التي جمَّعْتُ في قَرنِ
فَمَا بِيَثْرِبَ مِنْهُمْ مَنْ أُعَاتبُه ... إلا عَوَائِدُ أرْجُوهُنَّ مِنْ حَسَنِ
وذَاكَ مَنْ يَأْتِهِ يَعْمِدْ إلى رَجُلٍ ... مِنْ كُلِّ صَالحَةٍ أَوْ صَالحٍ قَمِنِ
لاَ يُسْلِمِ الحمْدَ للُّوامِ إنْ شَحطُوا ... بَلْ يَأْخُذ الحمد بالغالي من الثَّمَنِ
ما زَالَ يَنْمى وزَالَ الله يَرْفعُهُ ... طولاً عَلَى بغْضَةِ الأَعْدَاءِ والإِحَنِ
أَمَات فِي جَوْفِ ذي الشَّحْنَاءِ ظنَّتَه ... وكانَ داءً لذي الشَّحْنَاءِ والظنِنِ
إذا بَنُو هَاشِمٍ آلَتْ بأَقْدُحِهَا ... إلى المفِيضِ وخَافَتْ دَوْلَةَ الغَبَنِ
حازتْ يَدَا حسنٍ قِدْحَيْنِ من كرمٍ ... لَمْ يُعْمَلا بِشبَا المبراةِ والسفنِ
لا يَسْتَريحُ إلى إثمٍ ولا كَذِبٍ ... عندَ السُّؤالِ ولا يجتنُّ بالجُنَنِ
مَا قَالَ أَفْعَلُ أمضَاهُ لِوجْهَتِهِ ... وَما أبَى لح ما يَأْتِي فَلَمْ يَكُنِ
ما أَطْلَعَت رَأْسَهَا كَيْمَا تُهَددني ... حَضْباءُ تطرح من نفسي على شزنِ
إلاَّ ذَكَرْتُ ابنَ زَيْدٍ وهْوَ ذُو صلةٍ ... عند السنينَ وعواد على الزمنِ
فاسلَمْ ولا زالَ من عَاداكَ محتملاً ... غيظًا ولا زالَ معفورًا على الذَّقَنِ
لم يعتب اللهُ أنفًا فيك أرغَمَهُ ... حتى تزولَ رواسي الصخْرِ من حضنِ
إذا خَلوت به ناجَيْت ذا طهرٍ ... يأوي إلى عقل صافي العقلِ مؤتمنِ
طَلْق اليدَيْنِ إذا أضيافه طرقوا ... يشكُونَ من قرة شكوى ومِنْ وَسَنِ
بَاتُوا يَعُدُّونَ نَجْمَ اللَّيْلِ بَيْنَهُمُ ... في مستجيرِ النواحي زاهق السمنِ
ثم اغتدَوْا وهُمُ دُسم شواربهم ... ولم يبيتوا على ضَيْح من اللبنِ
قد جعل الناس حقبًا نحو منزلِهِ ... شقا كقرنِ أثيثِ الرأسِ مدَّهنِ

فهم إلى نائلٍ منه ومنفعةٍ يعطونها سكنًا تهوى إلى سكنِ
أوصاك زيْدٌ بأغلى الأمرِ منزلةً فما أخذتَ قبيحَ الأمرِ بالحسنِ
خَلَّات صدقٍ وأخلاق خُصِصْتَ بها فلم يُضَعْن ولم يُخلْطَن بالدرنِ
يلقى الأيامِن مَنْ لاقاك سانحة وجه طليق وعُود غَيْر ذي أُبنِ
وأنتَ من هاشم حقًّا إذا نسبوا في المنكب اللينِ لا في المنكبِ الخشنِ
بنوكَ خَيْرُ بنيها إن حفلت بهم وأنتَ خيرُهُم في اليسرِ واللَّزَنِ
واللهُ أعطاك فضلاً من عطيته على هَنٍ وهنٍ فيما مضَى وهنِ

قال: فقال له إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - وجاءهم بعد ذلك -: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، ألست الذي تقول للحسن بن زيد:

اللَّهُ أَعْطَاكَ فَضْلاً مِنْ عَطِيتهِ عَلَى هَنٍ وَهَنٍ فيما مضَى وَهَنِ

تريد أبي عبد الله المحض، وأخي محمدًا النفس الزكية وإياي؟ فقال ابن هرمة: والله ما أردتكم بذلك. قال له إبراهيم: فمن أردت؟ قال: قارون وفرعون وهامان.

قلت: هذا التوجيه عما الكلام فيه أبعد من زمان المذكورين عن زمان نحن فيه. لكنه قد حلف بالله والله عليم بالنيات. ثم قال ابن هرمة يعتذر إلى إبراهيم الغمر من ذلك ويمدحه وأباه وأخاه [من البسيط]

يا ذا النُّبُوَّةِ يَدْعُونِي لِيُسْمِعَنِي مواعظًا من جَمِيلِ رَأْيِهِ الحَسَنِ
أَقْبِلْ عَلَيَّ بوَجْهٍ منْكَ أَعْرِفُهُ فقد فَهِمْتُ وسُدَّ السَّمْعُ للأُذُنِ
لا والذي أنتَ مِنه رَحْمَةٌ نَزَلَتْ نَرجُو عَواقِبَهَا في غَابِرِ الزَّمَنِ
لَقَد أَتَيْت بِأَمْرٍ ما أَبهْتُ له وَلا تَعَمَّدَهُ قَصْدى ولا عنني
إلا مَـقَـالَـةَ أقـوام ذوي إحَـن وما مَقَالُ ذَوِي الشَّحْنَاءِ والإحَنِ؟!
لَمْ يُحْسنُوا الظَّنَّ إذْ ظَنّوا لِذِي حَسَبٍ وفِيهِمُ الغَدْرُ مَقْرُون إلى الظنَنِ
ما غـيرت وجـهـه أم مـقـصـرةٌ إذا القتامُ تغشّى أوجه الهجنِ
وكَيْفَ أَمْشِي مَعَ الأَقْوام مُعْتَدِلاً وَقد رَميتُ صَحِيحَ العودِ بالأُبنِ؟
وكيف يأْخذُ مثلي في تحيزهِ وسط المعاشِرِ مَبْخُوسًا من الثَّمَنِ
وقد صَحِبْتُ وجَاوَزْتُ الرِّجَالَ فلمْ أَمْلُلْ إخَاءً وَلَمْ أَغدرْ ولَمْ أَخُنِ
ومَا بَرِحْتُ بِحَمْدِ اللهِ في سَنَنٍ مِن صَالح العَهْدِ أُمْضِيهَا إلى سَنَنِ

يابْنَ الفَوَاطِمِ خَيرِ النَّاسِ كلِّهِمُ بَيْتًا وأولاهُمُ بالفَوْزِ لا الغَبَنِ
إنْ لِنْتَ نَحْوِي فإنَّ الله جَابِرُنا ولا اخْتِيارَ لنا إنْ أنْتَ لَمْ تَلِنِ
ومَا لَبِسْتُ عنانِي في مساءتِكُمْ ولا خَلَعْتُ لغشٍّ نَحْوَكُمْ رَسَني
وأنتَ مِنْ هَاشِمٍ في سِرِّ نَبْعَتِها وطينةٍ لم تُقَارِفْ هُجْنَةَ الطينِ
لَوْ رَاهنَتْ هاشمٌ عَنْ خَيْرِهَا رَجُلاً لكان ابُوكَ الذي يَخْتَصُّ بالرَّهنِ
واللهِ لَوْلا أَبُوكَ الخَيْرُ قَدْ نَزَلَتْ منِّى قَوَافٍ بِأَهْلِ اللُّؤْمِ والوَهَنِ
تَبْرِي العِظَامَ فَتُبدي عَنْ جَنَاجِنِها أَخْذَ الشَّرِيحَةِ بالمبراةِ والسفنِ
أنت الجَوَادُ الذي نَدْعُو فَتلْحقُنَا إذا تَرَاخَى المَدى بالقرحِ والحصنِ
فما أبالي إذا ما كُنْتَ لي كنفًا مَنْ صدَّ أو بَتَّ مِنْ أَقْرانِهِ قَرنِي
ومَا أُبالي عَدُوَّ اللهِ شَاحَنني أَمْ زَاحَمَتْ شعفات الصُّمِّ من حضنِ
أنتَ المُرَجَّى لأَمْرِ النَّاس إنْ أَزِمَتْ جَدَّاءُ صَرمَاءُ لَمْ تَصْدُرْ على لبنِ
يأوونَ مِنكَ إلى حِصْنٍ يُلاذُ به تأوِى إلَيْه الطَّرادى وَاسِع العطنِ

وأعقب الحسن بن زيد من سبعة رجال، ثلاثة منهم مكثرون: أبو محمد القاسم، وعلي الشريد، وأبو محمد إسماعيل. وأربعة مقلون أبو الحسن إسحاق، وأبو طاهر زيد، وأبو زيد عبد الله، وأبو إسحاق إبراهيم.

أعقب القاسم بن الحسن، وهو الفرع الأول من رجلين: محمد البطحاني، وعبد الرحمن الشجري.

أما محمد البطحاني ونسبه إلى بطحان بالضم. موضع بالمدينة، وبالفتح إلى البطحاء، وكلاهما ورد، وكان فقيها له عقب كثير منهم: إبراهيم بن محمد البطحاني، أعقب في بلاد شتى وفيهم مجانين وبله ونقص وسفهاء.

من ولده الوزير أبو منصور ناصر بن مهدي، كان فاضلا تولى الوزارة ببغداد للخليفة الناصر العباسي في عشر ذي الحجة سنة اثنتين وستمائة. وعزل في ثالث عشر جمادى الآخرة، ونقل وعياله إلى دار الخلافة وأجري عليه النفقة إلى أن مات ليلة السبت لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة في السنة التي توفي فيها الشريف قتادة النابغة جد ساداتنا ولاة مكة المشرفة وانقرض عقبه.

قال في « عمدة الطالب »: كان فيه تجبر وتكبر. فحكي أنه وجد يوما في دواته

رقعة فأنكرها فأخذها فإذا فيها [من السريع]

لاَ قَاتَلَ الله يَزِيدًا وَلاَ مُدَّتْ يَدُ السُّوءِ إلَى نَعْلِهِ
لأنَّهُ قَدْ كَانَ ذا قدرةٍ عَلى اجْتِثَاثِ الفَرْعِ مِنْ أصلِهِ
لَكِنَّهُ أَبْقَى لَنَا مِثْلَكُمْ أَحْيَاءَ كَيْ يُعْذَرَ فِي فِعْلِهِ

فاضطرب لذلك واجتهد أن يعلم واضعها.

قلت: هذا تجرؤ إلى الغاية والعياذ بالله لكن الابن السوء يكسب الآباء الكرام السوء.

ومنهم: الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد. وكان بين هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب.

وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ومن عقبه أيضا: القاسم بن على بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد وهم غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بهجتهم، وكانوا سببًا لتورد الديلم دار الإسلام بما يستجيشونهم، خرج معهم ومع الحسيني ماكانُ بن ماهان ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرتهم قواد ورجال يسمون بأسماء الديلم من أجل مرباهم بينهم. والله يخلق ما يشاء.

وأما عبد الرحمن الشجري: فنسبته إلى قرية قريبة من المدينة الشريفة، يكنى أبا جعفر، له عقب من ثلاثة: على ومحمد وجعفر. ومنهم بنو المنقوب، وبنو أبي الغيث، وبنو أبي نفيشة، وبنو شكر، وبنو أسود.

الفرع الثاني: على الشريد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، سمي بذلك لقوته. مات في حبس المنصور. وأعقب من ولده عبد الله. ولعبد الله هذا عقب منهم السبعية، وهذه نسبة إلى محلة بالكوفة.

الفرع الثالث: أبو محمد إسماعيل، ويلقب جالب الحجارة بالجيم، وقيل بالحاء لشدته وقوته. ويلقب بالمهفهف أيضا. أعقب من محمد وعلي النازوكي. أما على هذا فله عقب منهم: بنو طرخان. وأما محمد فأعقب من ولده زيد. ومنه محمد الداعي، وأخوه الحسن ملكا طبرستان فملكها أولا الحسن ولقب بالداعي الكبير وبالداعي الأول سنة خمسين ومائتين. وتوفي سنة سبعين ومائتين ولم يعقب. وكان

جريئا على سفك الدماء على ما حكاه صاحب « عمدة الطالب » .

الفرع الرابع: أبو الحسن إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، وكان أعور ويلقب بالكوكبي، وكان مع الرشيد، قيل: إنه كان يسعى بآل أبي طالب فكان عينا للرشيد عليهم، وسعى بجماعة من العلويين فقتلوا برأيه. وغضب الرشيد عليه آخر الأمر فحبسه حتى مات في الحبس.

قال أبو عبد الله: أولد من هارون والحسن، وقيل: إسحاق ليس له ولد.

الفرع الخامس: أبو طاهر زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. عقبه من ولد طاهر، ومنه في محمد بن طاهر.

الفرع السادس: أبو زيد عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. له خمسة: على والحسن ومحمد ويزيد وإسحاق. لهم أعقاب.

الفرع السابع: أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. أعقب من ولده إبراهيم بن إبراهيم، وأعقب إبراهيم من الحسن ومحمد لهما عقب.

قال ابن خلدون[1]: ومن عقب إبراهيم بن الحسن: محمد بن الحسن بن محمد ابن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، أقام بالمدينة أيام المعتمد، وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات، ولا قوة إلا بالله.

وأما الحسين بن على رضي الله تعالى عنهما وهو القتيل بالطف أيام يزيد. أولاده اثنا عشر، وقيل أقل، قتل غالبهم بـ « كربلاء » ولم يعقب منهم إلا على زين العابدين فقط، فجميع بني حسين ينسبون إليه، وهو الإمام بعد أبيه الحسين، ولد بالمدينة يوم الخميس خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة في حياة جده على ابن أبي طالب قبل وفاته بسنتين. كنيته أبو الحسن، وقيل أبو محمد، وقيل أبو بكر، ألقابه زين العابدين، والزكي، والأمين، وذو الثفنات، وزين العابدين أشهرها.

صفته: أسمر قصير رقيق. معاصروه: مروان وعبد الملك والوليد ابنه. عمره سبع وخمسون سنة أقام منها مع جده على بن أبي طالب سنتين، ومع عمه الحسن بعد وفاة جده عشر سنين، ومع أبيه بعد وفاة عمه إحدى وعشرين سنة، وبقي بعد

---

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون: المجلد الرابع، القسم الأول ص ٢٤٦ .

وفاة أبيه أربعا وعشرين سنة وهي مدة إمامته.

قال السيد نور الدين على السمهودي مؤرخ المدينة الشريفة في كتابه «جواهر العقدين»: كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس. وكانت له ثلاث بنات، وسبين في زمن عمر بن الخطاب، فحصلت واحدة منهن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فأولدها سالم بن عبد الله بن عمر، وحصلت الأخرى لمحمد بن أبي الصديق، فأولدها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وحصلت الثالثة للحسين بن علي، فأولدها عليا زين العابدين المذكور، فهم بنو خاله.

كان زين العابدين مع أبيه رضي الله عنهما بـ «كربلاء» فاستبقي، قيل لصغر سنه لأنهم قتلوا كل من أنبت، وكان قد أمرهم عبيد الله بن زياد بقتله ثم صرفه الله تعالى عنه. وأشار بعض الفجرة على يزيد بقتله أيضا فحماه الله منه، والحمد لله والمنة.

ثم إن يزيد صار يكرمه ويعظمه، ويجلس معه ولا يأكل إلا وهو معه. ثم بعثه إلى المدينة فكان بها محترما معظما.

قال ابن عساكر: ومسجده بدمشق معروف وهو الذي يقال له «مشهد» على بجامع دمشق.

قال الإمام الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه.

وقال محمد بن سعد: كان زين العابدين ثقة مأمونًا، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ عالما لم يكن في أهل بيته مثله، وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة أرعد من الفزع، فقيل له في ذلك. فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ولمن أناجي؟ ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قيل له ما بالك لم تنصرف حين وقعت النار؟ فقال: إني شغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وروى أنه لما حج وأراد أن يلبي أرعد واصفر وخر مغشيا عليه. فلما سئل قال: إني أخشى إذا قلت لبيك اللهم لبيك أن يقول لي لا لبيك ولا سعديك. فشجعوه وقالوا: لا بد من التلبية، فلما لبى غشي عليه حتى سقط من الراحلة. وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وكان رضي الله عنه يقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل.

وكان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني أتصدق اليوم وأهب عرضي لمن يغتابني.

ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه فقال له على رضي الله عنه: إن من وراء ذلك لخلالا ثلاثا: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله ﷺ، ورحمة الله تعالى.

واختلف في تاريخ وفاته، والجمهور أنها سنة أربع وتسعين في أولها.

وأغرب المدائني فقال: في سنة مائة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه عمه الحسن ابن على بقبة العباس بن عبد المطلب، ودفن في هذا القبر ابنه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق فهم أربعة في قبر واحد فأكرم به قبرا ويقال: إن رأس الحسين أرسل به إلى المدينة فدفن فيه. والله أعلم.

أولاده خمسة عشر ولدًا، وقيل أكثر، وقيل أقل. العقب منه في ستة أسباط فقط وهم: محمد الباقر، وعبد الله الباهر، وزيد الشهيد، وعمر الأشرف، والحسين الأصغر، وعلي الأصغر السبط الأول الإمام بعد أبيه هو: محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. وسيأتي ذكر ترجمته أيضا عن ذكر الأئمة الاثني عشر قريبا. أولاده ستة العقب منه في جعفر.

السبط الثاني: عبد الله الباهر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. لقب بالباهر لجماله. قالوا: ما حضر مجلسا إلا بهر جماله وحسنه من حضر.

توفي وهو ابن سبع وخمسين سنة. يكنى أبا محمد. وعقبه قليل. أعقب من ابنه محمد الأرقط وحده. ويكنى محمد هذا أبا عبد الله، وكان محدثا. وأقطعه السفاح عين خالد بن سعيد ويلقب بالأزرق. قال العمري: كان مجدرًا فلقب بالأرقط.

قال أبو نصر البخاري: من يطعن في الأرقط فلا يطعن من حيث النسب وإنما يطعن بشيء آخر جرى بينه وبين جعفر الصادق.

ويقال: إنه بصق في وجه الصادق فدعا عليه فصار أرقط الوجه به نمش كريه المنظر، وأما نسبه فلا مطعن فيه.

وأعقب الأرقط من إسماعيل وحده، وإسماعيل من اثنين محمد والحسين البنفسج.

أما محمد فله أحمد الدح وإسماعيل الناصب ولهما أعقاب. وأما الحسين فعقبه

في عبد الله وأحمد وإسماعيل الدح لهم أعقاب. ومن ولد الأرقط الحسين الكوكبي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الأرقط.

السبط الثالث: زيد الشهيد بن على زين العابدين بن الحسين يكنى أبا الحسن وستأتي ترجمته عند ذكر قيامه في الباب الثاني المعقود لمن دعا من الأهل إلى المبايعة.

أعقب من ثلاثة: الحسين ذي الدمعة، قيل له ذلك لكثرة بكائه. وعيسى موتم الأشبال وهو الذي حارب المنصور أول خلافته. ومحمد. وأما ابنه يحيى فلم يعقب وخرج بعد قتل أبيه. وسيأتي ذكره في الدعاة في الباب المشار إليه.

أعقب الحسين من ثلاثة: يحيى والحسين وعلي، وأعقب عيسى من أربعة: أحمد المختفى وزيد ومحمد والحسين عصارة.

وأعقب محمد من رجل واحد وهو أبو عبد الله جعفر الشاعر. وأعقب الشاعر من ثلاثة: محمد الخطيب وأحمد مسكين والقائم.

ولهم أعقاب منهم: على بن محمد الخطيب. ولعلي المذكور قوله [من المتقارب]

وإنَّـا لـنُـصْـبِـحُ أَسْـيَـافَـنَـا إِذَا مَا اصْطَبَحْنَا بيَوْم سَفوكِ
مَـنَـابِـرهُـنَّ بُـطُـونُ الأَكُـفِّ وأَغْـمَـادُهُـنَّ رُءوسُ الـمُـلُـوك

وله أيضا [من الوافر]

لَنَا مِنْ هَاشِم هَضَبَات غُر مُـطَـنَّـبـةٌ بِـأَوْتَـادِ الـسَّـمَـاءِ
تُطِيفُ بِنَا المَلَائكُ كُلَّ يَوْم ونـكـفـلُ فـي حُـجُـورِ الأَنْـبِـيَـاءِ
ويَـهْـتَـزُّ الـمَـقَـامُ لَـنَـا ارتِـيـاحـاً ويَـلْـقَـانَـا صـفـاه بـالـصـفـاءِ

ومن ولد الحسين ذي الدمعة: الحسن بن الحسين بن زيد. وقتل مع أبي السرايا، ويحيى بن الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وسيأتي ذكره في الباب الثاني المذكور، وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة، فقتله وأخذ جارية له كان سباها من البصرة.

السبط الرابع: عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضي الله

تعالى عنهم. وهو أخو زيد الشهيد لأبويه وأسن. ويكنى أبا على وقيل أبا جعفر.

وكان محدثًا فاضلا أعقب من رجل واحد وهو على الأصغر والعقب من على الأصغر هذا في ثلاثة: القاسم وعمر الشجري وأبو محمد الحسن من ابنه علي، وأعقب على من ثلاثة رجال أبو على الصوفي، وأبو عبد الله الحسين الشاعر المحدث، وأبو محمد الحسن الناصر الكبير الأطروش إمام الزيدية ملك الديلم صاحب المقالة، إليه تنتسب الناصرية من الزيدية، ورد الديلم سنة سبعين ومائتين وكان بطبرستان، فلما غلب رافع عليها أخذه فضربه ألف سوط فطرش، وأقام بأرض الديلم يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الإسلام أربع عشرة سنة، ودخل طبرستان في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فملكها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ويلقب بالناصر للحق، وأسلموا على يده وعظم أمره. وتوفى بـ «آمُل» عن سبع وتسعين سنة، له عقب، وعمر الشجري له عقب.

السبط الخامس: أبو عبد الله الحسين الأصغر ابن على زين العابدين بن الحسين رضي الله تعالى عنهم.

كان عفيفًا محدثًا عالمًا توفي سنة تسع وخمسين ومائة عن سبع وخمسين سنة ودفن بالبقيع، وعقبه عالم كثير بالحجاز والعراق والشام والمغرب وبلاد العجم، منهم أمراء المدينة، وسادات العراق، وملوك الري.

أعقب من خمسة رجال: عبيد الله الأعرج وعبد الله وعلي وأبي محمد الحسن وسليمان.

أما سليمان بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين فأعقب من ابنه سليمان بن سليمان، وعقبه بالمغرب يقال لهم الفواطم.

وأما أبو محمد الحسن بن الحسين الأصغر، فعقبه من ابنه محمد بن الحسن، ومنه من عبد الله ولعبد الله محمد السليق وعلى المرعش وعقبهما كثير ببلاد العجم.

وأما على بن الحسين الأصغر، فأعقب من ثلاثة: عيسى الكوفي وأحمد جفينة وموسى حمضة لهم أعقاب.

وأما عبد الله بن الحسين الأصغر مات في حياة أبيه فعقبه من جعفر صحصح بن عبد الله، وكان له عشرة وانقرضوا. ابنته زينب بنت عبد الله بن الحسين الأصغر

تزوجها الرشيد، وفارقها ليلة دخوله بها، وذلك أنه بعث إليها تلك الليلة خادمًا ومعه تكة يريد أن يربطها لئلا تمتنع على الرشيد فلما دنا الخادم منها ركلته برجلها فكسرت ضعلين من أضلاعه، فخافها الرشيد، ولم يدخل بها، وردها من غدها إلى الحجاز، وأجرى عليها في كل سنة أربعة آلاف مثقال، وأدرها عليها بعده ابنه المأمون. فأعقب جعفر صحصح بن عبد الله بن الحسين الأصغر من ثلاثة: محمد العقيقي وإسماعيل المنقذي ويقال لولدهما المنقذيون سموا بذلك لأنهم سكنوا دار المنقذ بالمدينة فنسبوا إليها.

وبنو محمد العقيقيون لهم أعقاب، وتنسب إليهم بنو ميمون، وآل البكري، وآل عدنان.

قال ابن خلدون: ومن ولد الحسين عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي، قتله الحسن بن زيد صاحب « طبرستان ».

وأما عبيد الله الأعرج بن الحسن الأصغر بن على زين العابدين، فيكنى أبا علي، كان في إحدى رجليه نقص.

وفد على أبي العباس السفاح، فأقطعه ضيعة بالمدائن تغل في السنة ثمانين ألف دينار.

وكان عبيد الله قد تخلف عن بيعة محمد النفس الزكية لما خرج بالمدينة، فحلف محمد إن رآه ليقتلنه فلما جيء به إليه غمض محمد إحدى عينيه مخافة أن يحنث.

توفي عبيد الله في حياة أبيه عن سبع وثلاثين سنة.

وانقسم عقبه بطونًا وأفخاذًا وعشائر.

أعقب من أربعة رجال: جعفر الحجة وعلى الصالح ومحمد الجوابي وحمزة مختلس الوصية.

أما حمزة مختلس الوصية، فأعقب من ثلاثة رجال محمد والحسين وعلي، وكان له عبيد الله لم يطل له ذيل.

وأعقب محمد من رجلين: أبي على ويلقب سنُّور الله، له عقب ببلاد العجم، والحسين الحرون وكان أحد الأبطال المشهورين، مات في حبس المهدي العباسي.

وأما الحسين بن حمزة، ويكنى أبا الشنف له عقب من ابنه محمد. منهم بنو ميمون وبنو حمزة. وأما على فأعقب على بن على وله عقب وقيل انقرض.

وأما محمد الجوابي بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر - والجواب قرية بالمدينة إليها نسب - له عقب من ولده الحسن بن محمد.

وأما على الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر، أعقب من رجلين عبيد الله الثاني وإبراهيم، ولهما أعقاب مبسوطة التفاريع في محالها. ومن أعقاب عبيد الله الثاني: الأمير أبو الحسين محمد الأشتر، ممدوح أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي بالقصيدة الدالية التي مطلعها: [من المنسرح]

أَهْـلاً بـدارٍ سـبـاك أَغْـيـدهـا ... ...

وأما جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين فكان من أئمة الزيدية، وكان له شيعة يسمون الحجة، وكان القاسم الرسي بن طباطبا يقول: جعفر بن عبيد الله إمام آل محمد وكان فصيحا.

ومن عقبه الملقب بمسلم الذي يريد مصر أيام كافور وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر حجة الله، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة إلى هذا العهد بنو جماز بن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن القاسم بن مهنا.

ومهنا هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

قال ابن خلدون: هكذا قال المسبحي مؤرخ العبيديين.

وقال العتبي مؤرخ دولة بني سبكتكين: إن مهنا هو ابن داود بن القاسم أخي مسلم وعم طاهر.

قلت: رأيت في «جواهر العقدين» ما نصه: جد أهل بيت بني مهنا أمراء المدينة من الولاة والمعزولين يحيى المحدث ابن الحسن بن جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب؛ لأن مهنا المذكور هو ابن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المذكور.

بل غالب من بالمدينة اليوم من أشراف بني حسين من نسله، وهو مؤيد لما قاله العتبي لا كما تراه كما قال المسبحي.

وزعم ابن سعيد أن بني جماز بن شيحة أمراء المدينة من عقب عيسى بن زيد الشهيد وفيه نظر.

ومن ولد عبيد الله الأعرج حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان بن حسين ملك هاز في أرض المغرب، وملك قطيعا بلد « صنهاجة » وإليه ينسب سوق حمزة هنالك فيما قاله ابن حزم وولده بها كثير، وعم أبيه الحسن بن سليمان من قواد الحسن بن زيد بطبرستان.

السبط السادس: على الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم يكنى أبا الحسن.

أعقب من ابنه الحسن الأفطس. مات أبوه وهو حمل وأعقب الأفطس وأنجب وأكثر.

وعقبه من خمسة رجال: على حروري وعمر والحسين والحسن المكفوف وعبد الله الشهيد قتيل البرامكة.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس الذي قام بمكة أيام أبي السرايا من قبل محمد الديباج بن الصادق ثم دعا لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر وأخذ مال الكعبة وفيه يطعنون لقبح سيرته.

وقد تكلم فيه قوم، منهم: الشريف أبو جعفر بن معية الحسنى صاحب المبسوط وأبو عبد الله الحسين بن طباطبا، وأثبته أكثر العلماء.

وعمل شيخ الشرف العبيدلي كتابا سماه «الانتصار، لبني فاطمة الأبرار » . ذكر الأفطس وولده بصحة النسب وذم الطاعن عليهم. قال العمري: وهو في الجرائد والمشجرات ما دفعهم دافع.

وقال الشيخ تاج الدين بن النقيب لما سئل عن الأفطس وولده قال: إن رسول الله ﷺ وعد أن يفترق من ذريته عدد أسباط بني إسرائيل، وقد افترق من ولد الحسين ستة أسباط هم أولاد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. فلو توجه الطعن على الأفطس لم يكن لعلي بن على بن الحسين عقب ولا يكون أولاد فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها اثني عشر سبطًا.

قال: وهذه حجة ظاهرة على صحة نسبهم.

وقيل: إن الحسين بن الحسن الأفطس كان حامل راية محمد النفس الزكية، ولم يخرج معه أسمع منه ولا أبصر.

وكان يقال له رمح أبي طالب، لطَوْلِهِ وطُولِهِ.

ولما قتل محمد النفس الزكية اختفى الحسن الأفطس، فلما دخل الصادق العراق ولقى المنصور قال له: يا أمير المؤمنين أتريد أن تسدي إلى رسول الله ﷺ يدًا.

قال: نعم يا أبا عبد الله. قال الصادق: تعفو عن الحسن بن على بن على زين العابدين بن الحسين فعفا عنه.

قال أبو نصر البخاري: فهذه شهادة قاطعة من الصادق أنه ابن رسول الله ﷺ. وعلى ومحمد ابنا الأفطس قتلهما المأمون.

وأما محمد الباقر يكنى أبا جعفر الغاية الساكن والهادي وأشهرها الباقر لقول النبي ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري: إنك ستعيش حتى ترى رجلاً من أولادي اسمه اسمي يبقر العلم بقرًا فإذا لقيته فأقره مني السلام فلقيه جابر وأقرأه السلام من رسول الله ﷺ، ومات جابر بعد ذلك بقليل.

ولد بالمدينة يوم الخميس ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين جده بثلاث سنين.

صفته: معتدل السمرة، معاصره الوليد، وولداه يزيد وإبراهيم.

عمره ثمان وخمسون سنة وقيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع ابنه على زين العابدين ثلاثًا وثلاثين سنة وقيل خمسًا وثلاثين سنة، وبقي بعد موت أبيه سبع عشرة سنة وهي مدة إمامته.

يقال: مات بالسم في زمن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك سنة عشر ومائة، وقيل: سنة أربع عشرة، ودفن بالبقيع بالقبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن على رضي الله تعالى عنهم.

أولاده ستة: أربعة ذكور: جعفر الصادق، وعبد الله الأفطح أمهما زُرَيْوَةُ بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وإبراهيم وعلي.

وبنتان: زينب وأم سلمة، والعقب منه في جعفر الصادق فقط.

فأما عبد الله الأفطح فكانت له شيعة يدعون إمامته، منهم زرارة بن أعين الكوفي،

ثم قام بالمدينة، وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلا، فرجع عن القول بإمامته، وانقطعت الشيعة الأبطحية، وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينتسبون إليه، وليس ذلك بصحيح.

وأما الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب، وهو القائم بعد أبيه، وهو سادس الأئمة فيكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا إسماعيل، وله ألقاب: الفاضل والطاهر، وأشهرها الصادق، وكان يقال له عمود الشرف.

صفته: معتدل، آدم اللون، معاصره أبو جعفر المنصور، أمه فُرَيْوَةُ بنت القاسم ابن محمد كما تقدم ذلك، وولد بالمدينة يوم الإثنين لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثمانين من الهجرة وقيل ثلاث وثمانين. عمره ثمان وستون سنة.

أقام منها مع جده على زين العابدين اثنتي عشرة سنة وأيامًا، ومع أبيه محمد الباقر ثلاث عشرة سنة وأياما، وبقي بعد موت أبيه أربعًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته.

وتوفي بالمدينة يوم الإثنين منتصف رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

يقال: مات بالسم في زمن المنصور، ودفن مع أبيه وجده، وعم جده الحسن بن على بن أبي طالب، وعم جد جده العباس بن عبد المطلب بالبقيع بقبة العباس، فلله دره من قبر ما أشرفه وأطهره وأكرمه وأنوره.

أولاده سبعة، وقيل أكثر، العقب منه في خمسة رجال، وهم الإمام موسى الكاظم وإسماعيل وعلي العريضي، ومحمد المأمون وإسحاق، وليس له ابن اسمه ناصر معقب ولا غير معقب بإجماع أهل النسب، وبنواحي أهل خراسان قوم ينسبون إلى ناصر بن جعفر وهم أدعياء كذابون لا محالة، وهم هناك يخاطبون بالشرف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أولاد جعفر الصادق محمد الديباج خرج بمكة أيام المأمون، وبايع له أهل الحجاز بالخلافة، وحمله المعتصم لما حج وجاء به إلى المأمون فعفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين بجرجان.

وأما إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم فعليهما وعلى بنيهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مائلا إلى السواد، وكان الرشيد يؤثره،

ويتجافى عن قبول السعاية فيه ثم حبسه.

ومن عقبه بقيه الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية من لدن على بن أبي طالب فهو أولهم، وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافته، ثم ابنه الحسن بن على وقد تقدم كذلك، وبيان ترجمته، وتاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، ثم ابنه على زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، وقد ذكرت تراجم هؤلاء.

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين، وسفكا الدماء، وانتهبا الأموال واستلحما آل جعفر بن أبي طالب، وأقامت المدينة شهرا لا تقام فيها جمعة ولا جماعة.

ومن عقب إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد تقدم ذكرهم. وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطرح كله وهذا أصح ما فيه، هذه عبارة ابن خلدون وهو ممن يرجح القول بصحة نسبهم، وأنه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كما ترى، والله أعلم بالحقائق.

الإمام السابع موسى الكاظم: يكنى إسحاق وأبا إبراهيم، وهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم.

ألقابه: الكاظم والصابر والصالح أشهرها الأول، لقب به لفرط تحمله وتجاوزه عن المعتدين عليه. أمه أم ولد اسمها حميدة.

ولد بالأبواء بين مكة والمدينة يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر سنة ثمان وعشرين ومائة.

وأقدمه المهدي بغداد ثم رده إلى المدينة فأقام بها إلى أيام الرشيد، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفى في رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة.

وفي «شواهد النبوة»: مات في حبس الرشيد ببغداد يوم الجمعة لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة فقبره ببغداد.

ويقال: إن يحيى بن خالد البرمكي سمه في رطب بأمر الرشيد، وقيل لف في

بساط، وغم حتى مات رحمه الله من شهيد.

معاصره: المهدي والهادي والرشيد. عمره خمس وخمسون سنة منها مقامه مع أبيه عشرون سنة، وبقي بعد وفاة أبيه خمسًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته ودفن في مقابر قريش.

أولاده سبعة وثلاثون ولدًا بين ذكر وأنثى، العقب منهم في أربعة عشر رجلاً هم: الحسن والحسين وعلي الرضا وإبراهيم المرتضى وزيد النار وعبد الله وعبيد الله والعباس وحمزة وجعفر وهارون وإسحاق وإسماعيل ومحمد العابد، وإبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم هو الذي ولى محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عند ما عهد المأمون لأخيه على الرضا بن موسى الكاظم، ثم اتهم المأمون بقتله، فجاء هو وطلب الإمامة لنفسه، ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء، فأوقع بهم مرارًا وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم.

ومن عقب إبراهيم المرتضى هذا الشريف الرضى وأخوه المرتضى واسم كل منهما على بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم.

وزيد النار بن موسى الكاظم هو الذي ولاه أبو السرايا أيضا على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها، وأحرق دور العباسيين بها فسمى زيد النار، ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسين بن زيد النار، من أفاضل أهل البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه.

ومن عقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم من غير الأئمة السيد أبو جعفر محمد ابن موسى بن أحمد بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى الكاظم.

قال العتبي في تاريخه المسمى باليميني لدولة محمود بن سبكتكين وابنه يمين الدولة - والعتبي صاحب هذا التاريخ نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس - في ترجمته السيد المذكور: ألفاظه منابع العلوم، وأقواله مراتع العقول، ومجاله حدائق الجد والهزل، وجوامع الكلم الفصل. فلم تبق يتيمة

خطاب، ولا كريمة صواب، ولا غرة حكمة، ولا درة نكتة، ولا طرفة حكاية، ولا فقرة رواية إلا هي عرضة خاطره، وثمرة هاجسه، ونصب تذكره، ومثال تصوره. لا تصدأ صفيحة حفظه، ولا تدرس صحيفة ذكره، ولا يكسف بدر معارفه، ولا ينزف بحر لطائفه. هو واحد خراسان من بين الأشراف العلوية في قوة الحال، وسعة المجال، واشتداد باع العز، وامتداد شعاع الجاه، والعلم الغامر، والأدب الباهر، والشعر الزاهر. فمن شعره قوله [من البسيط]

وشَادنٍ وَجْهُهُ بالحُسْنِ مَخْطُوطُ ... وَخَدُّهُ بِمدادِ الخَالِ مَنْقُوطُ
تَرَاهُ قَدْ جَمَعَ الضدَّيْنِ في قَرنٍ ... فالخِصْرُ مُخْتَصَرٌ والرِّدْفُ مَبْسوطُ

وقد أكثر الشعراء والأدباء في مدائحه، فمن ذلك قول أبي الفتح البستي [من الخفيف]

أنا للسيِّدِ الشَّريفِ غُلامٌ ... حَيْثُ مَا كَانَ فَلْيُبَلَّغْ سَلاَمي
وإِذَا كُنْتُ للشَّريفِ غُلاَمًا ... فَأَنَا الحُرُّ والزَّمَانُ غُلاَمِي

وقد اتفق في مجلس السيد المذكور - وكان مجمعًا للعلماء الفضلاء والجهابذة النبلاء - مناظرة بين أبي الفضل الهمذاني المعروف بالبديع، وبين أبي بكر الخوارزمي سببها معارضة الهمذاني والمجلس غاص، والمصدر فيه السيد أبو جعفر المذكور، وكان الخوارزمي ينسب البديع الهمذاني إلى مذهب الخوارج والنواصب، يريد بذلك الوضع من قدره عند السيد أبي جعفر المذكور، فقال البديع هذه الأبيات الخمسة مخاطبًا بها السيد ومبينًا له طهارة اعتقاده مما نسبه إليه الخوارزمي من النصب.

قلت: قد خلبت خلبي، واستلبت لبي، بجنسها وفصلها، فكانت هي السبب لذكر الترجمة من أصلها وهي [من مجزوء الكامل]

أنا في اعتقادي للتَّسنْ ... نُنِ رافضيٌّ في ولائِك
فَلَئِنْ شُغِلْتُ بهَؤُلا ... ءِ فَلَسْتُ أَغْفُلُ عَنْ أولئِك
يا عقْدَ مُنْتَظِمِ النُّبُوْ ... وةِ بَيْتَ مُخْتَلِفِ الملائِكْ
يابْنَ الفَوَاطِمِ والعَوَا ... تِكِ والتَّرائِكِ والأرائِكْ
أَنَا حَائِكٌ إِنْ لَمْ أكُنْ ... عَبْدًا لِعَبْدِكَ وابْنُ حائِكْ

وقوله « يابن الفواطم » يريد بهن فاطمة بنت عمرو المخزومية أم أبي طالب وعبد الله والزبير بني عبد المطلب فإن هؤلاء أشقاء أمهم فاطمة بنت عمرو المذكورة، والثانية فاطمة بنت الأصم أم خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ.

والثالثة: فاطمة بنت أسد أم على بن أبي طالب.

والرابعة: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وقوله « والعواتك » يريد بهن عاتكة بنت هلال بن فالح بن ذكوان أم عبد مناف ابن قصي، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص ابن هلال أم وهب أبي آمنة أم رسول الله ﷺ، وهذه العواتك كلهن من سليم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « أنا ابن العواتك من سُلَيم » [1] وقوله « والترائك »: جمع تريكه وهي الخوذة. قال الشاعر البحتري [من الكامل]

حَصَّ التَّرِيكُ رُءُوسَهُمْ فَرُءُوسُهُمْ فِي مِثْلِ لَألاَءِ التَّرِيكِ المُذْهَبِ

وأراد بالترائك أسلحة الحرب جميعها مجازا مرسلا.

فكأنه قال: يابن الفواطم والعواتك وابن أسلحة الحرب لملازمتك إياها وملازمة آبائك من قريش. وابن الأرائك يعني ابن الجالسين عليها من الملوك.

وقوله: أنا حائك.... إلى آخره، هذه طريقة للشعراء يدعون على أنفسهم تأكيدًا وحثا على فعل ما يحمد أو ترك ما يذم، فمن ذلك قول مالك الحارثي بن الأشتر النخعي من شيعة عليٍّ - كرم الله تعالى وجهه - وأمرائه المشهورين [من الكامل]

بَقيتُ وفرى وانحرفتُ عَنِ العلا وَلَقِيتُ أَضْيافي بِوَجْهِ عَبُوسِ

إِنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ابْنِ هِنْدٍ غَارَةً لَمْ تَخْلُ يَومًا مِنْ ذَهَابِ نُفُوسِ

والحائك من شأنه الرذالة والسقاطة وقلة العقل، فكيف إذا كان أبوه أيضا حائكا، فجعل الهمداني كونه حائكًا وابن حائك دعاء على نفسه إن لم يكن عبدًا لعبد السيد

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى الكنز (٣١٨٧٤) باللفظ المذكور، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبرانى فى الكبير، وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٨٤١) . والطبرانى فى الكبير (٦٧٢٤) عن هشيم ثنا يحيى بن سعيد عن عمرو بن سعيد بن العاص أنا سيابة بن عاصم السلمى أن رسول الله (قال يوم حنين: أنا ابن العواتك . وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٢): ورجاله رجال الصحيح .

المذكور يريد بذلك تبيين محبته له وصدق ولائه وإكذاب ما رماه الخوارزمي به.

الإمام على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب، وهو ثامن الأئمة والإمام بعد أبيه يكنى أبا الحسن ككنية أبيه.

ألقابه: الصابر والمزكى والولي، وأشهرها الرضا. أمه أم ولد اسمها أروى. ولد بالمدينة يوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائة.

معاصره: الأمين والمأمون. عمره خمس وخمسون سنة.

مدة إمامته: عشرون سنة. كان أولها في بقية ملك الرشيد ثم ملك ولده محمد الأمين بعده ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما، ثم خلع الأمين وجلس مكانه عمه إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة أربعة عشر يوما، ثم أخرج الأمين ثانية، وبويع له وبقي سنة وسبعة أشهر وقتله طاهر بن الحسين، ثم ملك بعده المأمون بن هارون الرشيد عشرين سنة.

عهد المأمون له بالخلافة، وزوجه ابنته أم الفضل، دخل عليه دعبل الخزاعي الشاعر بمرو فقال: يابن رسول الله، إني قلت فيكم أهل البيت قصيدة وآليت على نفسي لا أنشدها أحدا قبلك.

فقال له الرضا: هاتها. فأنشد [من الطويل]

ذكرتُ مَحلَّ الرَّبْعِ مِنْ عَرَفَاتِ فأَجْرَيْتُ دَمْعَ العَيْنِ بالعَبَرَاتِ
وقَدْ عَزَّنِي صَبْرِي وهاجَتْ صبابتي رُسُومُ دِيَارِ قَفرةٍ وَعِرَاتِ
مَدَارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ وَمَنْزل وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصَاتِ
لِآلِ رَسُولِ اللهِ بِالخيفِ مِنْ مِنًى وبِالبَيْتِ والتَّعْرِيفِ والجَمَرَاتِ
ديار عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ وحمزةَ والسجادِ ذي الثفناتِ
دِيَارٌ لعَبْدِ اللهِ والفَضْلِ صِنْوِهِ نَجِيِّ رَسُولِ الله فِي الخَلَوَاتِ
مَنَازلُ كانَتْ للصَّلَاةِ وللتُّقَى وللصَّوْمِ والتَّطهيرِ والحَسَنَاتِ
مَنَازل جِبْرِيلُ الأمين يَحُلُّهَا مِنَ اللهِ بالتَّسْلِيمِ والرَّحَمَاتِ
مَنَازِلُ وَحْيِ اللهِ مَعْدِن عِلمِهِ سَبِيل رَشَادٍ وَاضِح الطُّرُقَاتِ
فَأَيْنَ الألى شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى فأَمْسَيْنَ في الأقطارِ مُفْتَرِقَاتِ

هُمُ آلُ مِيراثِ النَّبيِّ إذا انْتَمَوا وهُمْ خيرُ ساداتٍ وخَيرُ حُمَاةِ
مَطَاعيم فِي الإِعْسَارِ في كُلِّ مَشْهَدٍ لَقَدْ شَرُفُوا بِالفَضْلِ والبَرَكَاتِ
أئمةُ عَدْلٍ يُقْتَدَى بِفعَالِهِم وتُؤْمَنُ مِنهُمْ زَلَّةُ العَثَرَاتِ
فَيَا رَبِّ زِدْ قَلْبِي هدى وبَصِيرَةً وزِدْ حُبَّهُم يَا ربِّ في حَسَنَاتي
لَقَدْ أَمنتْ نَفْسِي بِهِمْ فِي حَيَاتِها وإِنِّي لأَرْجُو الأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي
أَلَمْ تَرَ أنِّى مذْ ثَلاثِينَ حِجَّةً أَروحُ وأَغْدُو دائمَ الحَسَرَاتِ
أَرَى فَيْئَهُم فِي غَيْرِهم مُتَقَسَّمًا وأَيْدِيَهُمْ مِنْ فَيئهمْ صفرَاتِ
سَأَبْكِيهمُ ما ذَرَّ في الأُفْقِ شَارِقٌ ونادَى مُنَادِي الخَيْرِ بالصَّلَوَاتِ
ومَا طَلَعتْ شَمْسٌ وَحَانَ غُرُوبُها وبِالليلِ أبكيهمْ وبِالغدوَاتِ
دِيارُ رَسُولِ اللهِ أَصْبحن بَلْقَعًا وآلُ زِيادٍ تَسْكُنُ الحُجُرَاتِ
وآلُ زِيادٍ في القُصُورِ مَصُونَةٌ وآلُ رَسُولِ اللهِ في الفَلَوَاتِ
فلوْلا الذي أرْجُوه في اليَومِ أو غَدٍ لَقُطِّع نَفْسِي إثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
خُرُوجُ إِمَامٍ لا مَحَالَةَ خَارِجٌ يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللهِ بِالبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وبَاطِلٍ ويَجزى عَلَى النَّعْمَاءِ والنَّقَمَاتِ
فَيَا نَفْسُ طِيبى ثُمَّ يَا نَفْسُ فاصْبِرِي فَغَيرُ بَعِيدٍ كلُّ مَا هُوَ آتِ

قلت: دعبل هذا محب لأهل البيت، ومن ذا الذي لا يحبهم فمن لا يحبهم لا يحبه الله، ولكنه كان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس، هجا الخلفاء وغيرهم، هجا المأمون بأبيات منها [من الكامل]

إنِّي مِنَ القَوْمِ الذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلَتْ أَخَاك وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بِحُسْنِ فَعَالِهِمْ لَكَ مَنْصِبًا واسْتَرْفَعُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

يُشيرُ بذلك إلى ما فعله طاهر بن الحسين، مقدم عساكر المأمون فإنه خزاعي، ودعبل هذا خزاعي. ولما بلغ هذا المأمون قال: تعس دعبل، ومتى كنت خاملاً فرفعني قومه. وطال عمر دعبل، وكان يقول لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك. كان مولده بين واسط العراق وكور الأهواز سنة ثمان وأربعين ومائة. والدعبل بكسر الدال المهملة وإسكان العين وكسر الباء الموحدة اسم الناقة الشارف وهو لقبه. واسمه على بن

رزين بن سليمان، قاله ابن الأثير.

واستشهد الرضا في أيام المأمون مسمومًا بطوس في قرية شاه باز يوم الجمعة لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث ومائتين ودفن إلى جنب قبر الرشيد. أولاده خمسة، العقب منه في ابنه:

الإمام محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب وهو التاسع من الأئمة، ولد بالمدينة يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة تسعين ومائة.

كنتيته: أبو جعفر.

ألقابه: القانع والمرتضى وأشهرها الجواد، زوجه المأمون ابنته أم حبيب.

صفته: أبيض اللون معتدل القامة. معاصره: المأمون والمعتصم.

عمره: خمس وعشرون سنة وأشهر.

مات ببغداد يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وكانت مدة إمامته سبع عشرة سنة أوائلها في بقية ملك المأمون، وآخرها في أول ملك المعتصم، قيل: مسموما، ولكن لم يصح، ودفن بمقابر قريش إلى جنب قبر جده موسى الكاظم.

أولاده أربعة، العقب منه في رجلين هما الهادي وموسى المبرقع.

فالإمام على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: هو الإمام بعد أبيه وعاشر الأئمة.

أمه أم ولد: اسمها شهامة. ويلقب: بالتقي والهادي، أشهرهما الأول. ولد بالمدينة ثالث عشر رجب سنة أربع عشرة ومائتين. مات بـ« سر من رأى » مسموما يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره بـ «سر من رأى» .

أولاده أربعة. أعقب من ثلاثة: أبي جعفر محمد وأبي عبد الله جعفر، وأبي محمد:

الإمام الحسن العسكري بن على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام بعد أبيه وحادي عشر الأئمة. أمه أم ولد، اسمها سوسن.

كنيته: أبو محمد.

ألقابه: الخالص والسراج وأشهرها العسكري.

ولد بالمدينة سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين ومائتين.

صفته: بين السمرة والبياض.

معاصره: المعتز والمهتدي والمعتمد.

عمره ثمان وعشرون سنة، ومدة إمامته ست سنين.

مات في أوائل خلافة المعتمد مسمومًا في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين بـ«سر من رأى»، ودفن عند قبر أبيه الهادي. خلَّف ولده محمدًا أوحده.

وهو الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري بن على التقي بن محمد الجواد ابن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولد يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقيل: سنة ست وهو الصحيح.

أمه أم ولد: اسمها أصقيل، وقيل سوسن، وقيل نرجس.

كنيته: أبو القاسم.

ألقابه: الحجة، والخلف الصالح، والقائم، والمنتظر، وصاحب الزمان، والمهدي وهو أشهرها.

صفته: شاب مربوع القامة، حسن الوجه والشعر، أقنى الأنف، أجلى الجبهة.

ولما توفى أبوه كان عمره خمس سنين وشيعته يقولون: إنه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين، وعمره سبع عشرة سنة، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان من السرداب، وأقاويلهم فيه كثيرة، والله أعلم أي ذلك يكون.

قال الشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السماني في ذكر الأبدال والأقطاب: وقد وصل إلى رتبة القطبية محمد المهدي بن الحسن العسكري، وهو إذ اختفى دخل في دائرة الأبدال متدرجًا طبقة بعد طبقة إلى أن صار سيد الأبدال.

وكان القطب حينئذ على بن الحسين البغدادي، فلما حانت منيته صلى عليه

المهدي هذا، ودفنه وجلس مجلسه، وبقي في رتبة القطبية تسع عشرة سنة، والله أعلم.

وأما محمد بن الحنفية - وهو الفرع الثالث من أولاد على بن أبي طالب لصلبه الذين ذكرنا أن أنساب الطالبيين أكثرها راجع إلى الحسن والحسين وإليه - فهو محمد بن أمير المؤمنين على بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، يكنى أبا القاسم، روى أنه عليه الصلاة والسلام رخص لأمير المؤمنين في تسمية ابنه هذا، وتكنيته بأبي القاسم [١].

قال في «أنساب قريش: يقولون أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن عبد الله بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم وتسميه الشيعة. . .[المهدىّ][٢]

حدثني محمد بن إسماعيل بن جعفر عن قيس بن سعيد بن عقبة الجهني عن أبيه، قال: سمعت كثيرا ينشد على بن عبد الله بن جعفر لنفسه في محمد بن الحنفية [من الوافر]:

أَقَــرَّ الله عَـيْـنـي إذْ رَعَـانِـي ... أَمِينُ اللهِ يُلْطِفُ في السُّؤالِ
وأَثْنَى في هَوَايَ عَلَيَّ خيرًا ... وساءَلَ عَنْ بَنِيَّ وَكَيْفَ حَالي
وكَيْفَ ذَكَرْتُ شَأْنَ أَبِي خبيبٍ ... وَزَلَّـةَ نَـعْـلِـهِ عِـنْـدَ الـنِّـضَـالِ
هُـوَ الـمَـهْـدِيُّ خَـبَّـرنَـاهُ كَـعْـبٌ ... أخو الأَحْبَارِ في الحِقَبِ الخَوَالِي

وكان كثير كيسانيا يقول بإمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٨] ويقول: ألا ترى أنه يحوله في صورة بعد صورة. فقال له على بن عبد الله بن جعفر: يا أبا صخر ما يثني عليك في هواك خيرًا إلا من كان على مثل رأيك.

وقيل له: إنك تقول خبرناه كعب، ألقيت كعب الأحبار؟ قال: لا. قيل: فلم قلت: خبرناه كعب؟ قال: هو بالوهم.

وكانت شيعة محمد يزعمون أنه لم يمت.

وفي ذلك يقول كثير أيضًا [من الوافر]

أَلا إنَّ الأئِـمَّـةَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ ... وُلَاةَ الـحَـقِّ أَرْبَـعَـةٌ سَـوَاءُ

---

(١) تقدم هذا فى فضائل على بن أبى طالب .
(٢) بياض بالأصل والمثبت من نسب قريش (١/ ٤١)

عَلِيٌّ والثَّلاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِم خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرٍّ وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبِلاَءُ
وسِبْطٌ لاَ تَرَاه العَيْنُ حَتَّى يقودَ الخيلَ يَقْدُمُهَا اللِّواءُ
تَغَيَّبَ لاَ يُرَى عَنْهُم زَمَانًا بِرَضْوى عِنْدَهُ عَسَلٌ ومَاءُ

وفي محمد بن الحنفية يقول الحميري [من الوافر]

أَلا قُلْ لِلْوصيِّ فَدَتْكَ نَفْسِي أَطَلْتَ بذَلكَ الشِّعْبِ المُقَامَا
أَضَرَّ بِمعشرٍ وَالَوْكَ مِنَّا وسَمَّوْك الخليفَةَ والإمَامَا
وعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الأَرْضِ طُرًّا مقَامك عَنْهُمُ سِتِّينَ عَامَا
وَما ذَاقَ ابنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ وَلاَ وَارَت لَهُ أَرْضٌ عِظَاما
لَقَدْ أَمْسَى بمُورِقِ شعب رَضْوَى تُراجِعُهُ الملائِكَةُ الكَلامَا
وإِن لَهُ بِه لمِقيل صدْقٍ وأَنْدِيةً تُحَدِّثُهُ كِرَامَا
هَدَانَا اللهُ إذْ جِرتُمْ لأمرٍ بِهِ وعليه نَلْتَمِسُ التَّمَاما
تَمامَ مَوَدَّةِ المَهدِيِّ حَتَّى تَروْا راياتِنَا تَتْرَى نِظَاما

وقال أيضا [من الكامل]

يا شِعْبَ رَضْوَى مَا لِمَنْ بِكَ لاَ يُرَى وبِنَا إِلَيْهِ مِنَ الصبابة أَوْلَقُ
حتى متَى وإِلَى متَى وكَم المَدَى يابْنَ الوصيِّ وأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ؟!

قال المسعودي في « المروج »[1]: وشيعته تسمى الكيسانية وقد تنازعوا بعد قولهم بإمامته: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي مقيم بجبل رضوى المعروف بقرب ينبع.

وإنما سموا الكيسانية؛ لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرو، كان يدعي أن على بن أبي طالب لقبه بذلك.

أولاد محمد بن الحنفية أربعة وعشرون، منهم أربعة عشر ذكرًا.

وقال النقيب تاج الدين: أولاد محمد بن الحنفية قليل جدا، ليس بالعراق ولا بالحجاز منهم أحد، وإن كان فبالكوفة.

وقال في « عمدة الطالب »: بشيراز وأصفهان وقزوين وبمصر والصعيد منهم

(١) ينظر: المروج (٣/ ٨٧).

جماعة. والعقب المتصل الآن من ولده في رجلين: على وجعفر قتيل الحرة.

وأما عقب ابنه أبي هاشم عبد الله الأكبر إمام الشيعة الكيسانية فمنقرض، وهذا أبو هاشم هو الذي أسند وصيته فيما قاله الشيعة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وأخوه على بن محمد بن الحنفية وابنه الحسن بن على بن محمد بن الحنفية، وكلهم ادعت الشيعة إمامتهم.

قال ابن خلدون (١): وخرج باليمن على المأمون، ومن ولد على بن أبي طالب من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن على بن أبي طالب.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس وبويع بالكوفة، وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنعه أبو مسلم الخراساني من ذلك، وكانت له شيعة ينتظرونه وساقوا الخلافة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية.

وكان فاسقًا.

وكان ابنه معاوية بن عبيد الله نظير أبيه في الشر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ١٨).

الباب الثاني
في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة

وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم من خليفة زمانه وتعدادهم من لدن على بن أبي طالب إلى يومنا هذا، وهذا على رأي غير الإمامية من الشيعة وهم الزيدية.

أما على رأى الإمامية فلا يجوزون الإمامة لغير الاثني عشر الإمام الذين أولهم على بن أبي طالب وآخرهم الإمام محمد المهدي المنتظر، وسيأتي الدليل على تصحيح جوازها لغير الاثنى عشر الإمام بل تعينه بحيث لا تخلو الأرض من قائم من آل بيت محمد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

قد تقدم ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب، وبنيه رضي الله تعالى عنهم وما كان من شأنهم بالكوفة ومؤاخذتهم الحسن في تسليم الأمر لمعاوية، واضطراب الأمر على زياد ابن أبيه بالكوفة من أجلهم حتى قتل المتولون كبر ذلك، منهم حجر ابن عدي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بن على بعد وفاة معاوية فكان من قتله بـ « كربلاء » ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان، وخروج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوابين، وولوا عليهم سليمان بن صُرَد الخزاعي، ولحقتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستجموهم، ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالبا بدم الحسين، وداعيا لمحمد بن الحنفية، وتبعه على ذلك جموع من الشيعة، وسماهم شرطة الله، وزحف عليه عبيد الله بن زياد، فهزمه المختار وقتله.

وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه، فصار المختار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير، ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن على بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر، وصلبه كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكر قيامه بالدعوة، وخرج يحيى بن زيد بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب لذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية.

ثم اختلف الشيعة، وانقسمت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية، وذهبوا

طرائق مع اتفاقهم على تفضيل على كرم الله وجهه على جميع الصحابة:

إلى الزيدية القائلين بإمامة بني فاطمة لفضل على وبنيه على سائر الصحابة على شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان على أفضل منهما لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وهو مذهب زيد وأتباعه المسمين بالزيدية، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

وإلى الرافضة: وسموا رافضة قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة، واختلفت عليه فرقة من الشيعة، وناظروه في أمر الشيخين، ودعوه إلى البراءة منهما، وأنهما ظلما عليا أنكر ذلك عليهم وامتنع عن البراءة منهما.

فقالوا له: وأنت أيضا لم يظلمك أحد ولا حق لك في الأمر فنحن نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. فانصرفوا عنه فسموا الرافضة.

وأقام معه أتباعه الآخرون فسموا زيدية.

ثم ساق الرافضة الإمامة من على كرم الله وجهه - إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى ابنه زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصية، وهم ستة أئمة لم يخالف فيهم أحد من الرافضة المذكورين.

ثم افترقوا من ههنا إلى فرقتين: إلى الاثنى عشرية، واختصوا باسم الإمامية إلى هذا العهد، ومذهبهم أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم.

وخرج دعاته بعد موت أبيه، فحمله هارون الرشيد معه من المدينة، وحبسه عند عيسى بن جعفر ثم إشخاصه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك.

ويقال: إن يحيى بن خالد سمه في رطب فتوفى سنة ١٨٣ ثلاث وثمانين ومائة.

وزعم شيعته أن الإمام بعده ابنه على الرضا، وكان عظيمًا في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وزوجه ابنته أم الفضل، وعهد له بالأمر من بعده.

وقد تقدم ذكرنا لكتاب العهد في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وكان عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر سنة ٢٠١ إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبيين في كل ناحية، وكان المأمون بـ « خراسان » لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين، فنكر ذلك عليه شيعة العباسيين وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون من العراق وعلي الرضا معه، فهلك على الرضا في طريقه

سنة ثلاث ومائتين ودفن بـ « طوس » .

ثم زعموا أن الأمر بعده لابنه محمد التقي، وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته أم حبيب، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين، ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش.

ثم زعموا أن الأمر من بعده إلى علي، ويلقبونه بالهادي ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بـ « قم »، وزعم ابن سعيد أن المعتز سمه (١).

ثم إلى ابنه الحسن العسكري ويلقب بذلك لأنه ولد بـ«سر من رأى»، وكانت تسمى العسكر وجلس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه بالمشهد، وترك حملا ولد منه ابنه محمد، فاعتقل، وقيل: دخل السرداب بدار أبيه، قيل مع أمه، وقيل وأمه تنظر إليه ففقد، فزعمت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه ولقبوه المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يمت، وهم الآن ينتظرونه ووقفوا عند هذا الانتظار (٢).

وهذا هو الثاني عشر من ولد علي ولذلك سموا شيعته الاثنى عشرية.

وهذا المذهب بالمدينة والكرخ والشام والحلة والعراق.

قال العلامة ابن خلدون(٣): [والسرداب بالحلة]، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب فإذا قضوا الصلاة قربوا مركبًا إلى باب السرداب بجهازه وحليته، ونادوا بأصوات متوسطة: أيها الإمام اخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود، فاخرج إلينا نتعرف الرحمة من الله في آثارك.

ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم، وربما يحتجون لحياته بقصة الخضر، فسبحان عالم الحقائق.

قلت: قد ذكر غير ابن خلدون أن السرداب ببغداد لا بالحلة، فالله أعلم أيا كان ذلك.

لطيفة: قال ابن العربي، قال أصحابنا النصرية بالمسجد الأقصى: إن شيخنا

---

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٠ .
(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص٦١ .
(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦١ .
وعبارة [السرداب بالحلة] لم ترد عند ابن خلدون .

أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي اجتمع برئيس من رؤساء الشيعة، فشكا إليه فساد الخلق، وأن هذا الأمر لا يصلح إلا بخروج الإمام المنتظر، فقال له نصر: فهل لخروجه ميقات معلوم أم لا؟ فقال الشيعي: نعم إذا فسد الخلق.

فقال له نصر: فلم تحبسونه عن الخلق؟ قد فسد جميعهم إلا أنتم، فلو فسدتم لخرج، فأسرعوا به وأطلقوه من سجنه، وعجلوا بالرجوع إلى مذهبنا لتفسدوا فيخرج، فبهت الشيعي انتهى. كذا في « العواصم من القواصم » .

وإلى الإسماعيلية: وهم الذين نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم ساقوها في عقبه فمنهم من أنهى بها إلى عبيد الله المهدى أحد الخلفاء العبيديين ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر وهم الفرقة الزاعمون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل وتوفى قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة أنه مات. وفائدة النص عندهم على إسماعيل، وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما، ومات قبله، والنص عندهم لا يرجع وراءه، لأن البداء على الله محال.

ويقولون في ابنه محمد: إنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون، ويظهرون الدعاة وعددهم ثلاثة ولن تخلو الأرض من إمام، إما ظاهر بذاته، أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعاته.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة، سبعة عدد الأسبوع والسماوات والكواكب.

وأول الأئمة المستورين عندهم: محمد بن إسماعيل المذكور، وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد، ثم ابنه عبيد الله المهدى صاحب الدولة بإفريقية جد الخلفاء العبيديين بها أولا وبـ«مصر» ثانيا المتقدم ذكرهم في الباب الثالث من المقصد الرابع، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبد الله بن محمد المكتوم، وهؤلاء طائفة من القرامطة، وهذا من كذباتهم ولا يعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله.

ومن شيعة آل البيت: الكيسانية نسبة إلى كيسان وهو المختار بن أبى عبيد، يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية، وبنيه من بعد الحسن والحسين، ومن هؤلاء

كانت شيعة بنى العباس القائلون بوصية أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب وهى: مذهب الزيدية، ومذهب الرافضة المنقسمين إلى الإمامية الاثنى عشرية وإلى الإسماعيلية، ومذهب الكيسانية، وهم شيعة محمد بن الحنفية الذين صاروا شيعة لبنى العباس بإيصاء أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى جدهم محمد بن عبد الله بن العباس المذكور.

وكان أكثر الكيسانية بالعراق، وخراسان بين الشيعة، وافترق أهل كل مذهب منها إلى طرائق بحسب اختلافهم: [من الوافر]

وكُلٌّ يَـدَّعِـى وصْـلا بِـلـيْـلَـى ... ...

واعلم أن سبب انتصاب الأشراف للإمامة وادعائهم لها مع ما يشاهدونه من النكد والشدائد والقتل والحبس والمكائد بعد قتل على بن أبي طالب لما تقلد الخلافة والعقد عليهِ إجماع أهل بدر واختيار أكابر الصحابة وبايعوه علانية، نازعه في الخلافة معاوية بن أبى سفيان وتعلل بعلل كثيرة لبلوغ المنى وكل منهما مجتهد، لكن معاوية مجتهد مخطئ.

قال الإمام الغزالى في «قواعد العقائد» ولم يذهب لتخطئة علىّ ذو تحصيل أصلا ولا شبهة أن الحق مع على، وأن معاوية ليس ممن يعادل أحد العشرة المبشرة بالجنة فضلا عن أن يعادل عليًا، وأين الحسام من المنجل، وأين معاوية من على، فاشتبه على العامة أمرهما وصاروا فريقين، فوقعت الحرب بينهما كما قدره الله تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يقع في ملكه إلا ما أراد ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

فلما استشهد على - رضي الله تعالى عنه - بعد ذلك قام الحسن بن على بعده، وقد سبق في خلافته تفصيل ذلك، وذكر صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، فلما سم ومات رضي الله عنه قام أخوه الحسين بن على تاليا ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]، الآية، وكان قيامه زمن يزيد بن معاوية فقتل بـ«كربلاء» عطشانا، سير عليه عبيد الله بن زياد سرية عليها عمر بن سعد بن أبى وقاص، وكان من أمره ما شرح فيما تقدم مما يجرح القلوب، ويجرى الغروب.

ثم قام من بعده على زين العابدين، ثم قام من بعده زيد بن على فقتل وصلب، ثم قام ولده يحيى بن زيد فقتل، ثم هلم جرا.

فذهب الزيدية من الشيعة أن القيام افترض عليهم لطلب الحق وأن إظهار الدعوة والقيام بأمر الإمامة للأمة واجب عليهم، وهذا مكتوب في تواريخ الزيدية.

وأما الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام الذين أولهم علي، وآخرهم المهدي محمد المنتظر صاحب السرداب.

ودليل الزيدية على تصحيح جوازها لغير الأئمة الاثنى عشر أو تعينه - وهو ما وعدنا به سابقا - هو ما أخرج أبو إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والدولابى في «الذرية الطاهرة» أن النبى ﷺ قال: «إنى تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله طرف بيده وطرف بأيديكم، وأهل بيتى» [١] ورواه الجعابى في «الطالبيين» ولفظَه: إن رسول الله ﷺ قال: «إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله تعالى طرف بيد الله وطرف بأيديكم، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض» [٢]. ورواه البزار، ولفظه: «إنى مقبوض وإنى قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتى أهل بيتى وإنكم لن تضلوا بعدهما» [٣]، وفى رواية: « والله

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١٥٥٨) والطحاوى فى مشكل الآثار (٢/ ٣٠٧) من طريق «أبى عامر، حدثنا كثير بن زيد، عن محمد بن عمر بن على عن أبيه، عن علىّ مرفوعًا: إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله . سببه بيد الله وسببه بأيديكم، وأهل بيتي » وهذا إسناد رجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٤، ١٧، ٢٦ ، ٥٩)، والترمذى (٣٧٨٨) . والطبرانى فى الصغير (١/ ١٣١)، وفى الكبير (٢٦٧٨، ٢٦٧٩) . وابن أبى عاصم فى السنة (١٥٥٣، ١٥٥٤) من طريقٍ عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا . إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض . وعترتى: أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض . فانظروا كيف تخلفونى فيهما » وعند الترمذى عن أبى سعيد وزيد بن أرقم، وقال: هذا حديث حسن غريب .

وللحديث شواهد كثيرة . ينظر كنز العمال (١/ ١٧٢) وما بعدها ومجمع الزوائد (٩/ ١٦٥- ١٦٧) .

والحديث صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٧٦١) بلفظ: « يا أيها الناس، إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله، وعترتى أهل بيتى» . وهذا لفظ الترمذى (٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٦٦)، وعزاه للبزار من حديث على بن أبى طالب . وقال: فيه الحارث، وهو ضعيف .

سائلكم كيف خلفتمونى في كتابه وأهل بيتى» . وأخرج محمد بن جعفر الرزاز عن أم سلمة: «ألا إنى مخلف فيكم كتاب ربى عز وجل وعترتى أهل بيتى. ثم أخذ بيد على فرفعها فقال: هذا عَلِي مع القرآن والقرآن مع عَلِيّ لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فأسألهما ما خلفت فيهما» [١]، وأخرج أبو سعد والملا في سيرته حديث: «استوصوا بأهل بيتى خيرا، فإنى أخاصمكم عنهم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار» .

قال في «جواهر العقدين»: ولما كان كل من القرآن العظيم، والعترة الطاهرة معدنًا للعلوم الدينية والأسرار، والحكم النفيسة الشرعية، وكنوز دقائقها، واستخراج حقائقها أطلق عليه الصلاة والسلام عليهما الثقلين، ويرشد لذلك حثه على الاقتداء والتمسك والتعلم من أهل بيته.

ولا شك أن الذين وقع الحث على التمسك بهم من أهل البيت النبوى والعترة الطاهرة هم العلماء بكتاب الله، إذ لا يحث عليه الصلاة والسلام بالتمسك بغيرهم وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب اقتراب، ولهذا قال: «لا تقدموها فتهلكوا ولا تقصروا عنها فتهلكوا»[٢] .

وقال في طريق آخر في عترته: «فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلموهم فهم أعلم منكم» فاختصوا بمزيد الحث عن غيرهم من العلماء لما تضمنته الأحاديث في ذلك، ولحديث أحمد: ذُكِر عند النبى ﷺ قَضَاءٌ قضى به على، فأعجب النبى ﷺ وقال: «الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت» [٣].

وكل هذا يفهم وجوب من يكون أهلا للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمان وجدوا فيه إلى قيام الساعة حتى يتوجَّهَ الحث المذكور على التمسك به

---

(١) تقدم تخريجه فى مناقب علىّ بن أبى طالب .

(٢) هاتان الروايتان ورد نحوهما فى حديث زيد بن أرقم المطول أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/ ١٦٦ - ١٦٧) رقم (٤٩٧١) وفيه «كتاب الله طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتى وإن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يتفرقا حتى يردا علىَّ الحوض وسألت ذلك لهما ربى، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم» . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦٧): فيه حكيم بن جبير، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد فى المناقب، كما فى الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) من طريق جميل بن عبد الله بن يزيد المدنى .

كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أمانًا لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض.

وأما احتجاج الشيعة لمنعهم ذلك بالحديث: «يكون من أهل بيتى اثنا عشر خليفة»،[١] أو كما قال ﷺ، فليس لهم في ذلك حجة، إذ مفهوم العدد[٢] غير معتبر دليلًا يبطل معنى الحث والتمسك إذ لو لم نقل بوجود ذلك التمسك به لم يتعقل الحث على التمسك بمعدوم[٣].

وأخرج أبو الحسن بن المغازلى من طريق موسى بن القاسم عن على بن جعفر: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥]، قال: المشكاة فاطمة والشجرة المباركة: إبراهيم. لا شرقية ولا غربية: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ ﴾ [النور: ٣٥] قال: منها إمام بعد إمام يهدى الله لنوره من يشاء. قال: يهدى لولايتنا من يشاء.

وقوله: منها إمام بعد إمام، يعنى أئمة يقتدى بهم في الدين، ويتمسك بهم فيه ويرجع إليهم، وهذا أوضح دليل على صحة إمامة غيرهم بل تعينها.

وههنا نقل غريب وهو وإن كان لا تعلق له بما نحن فيه من وجه فله تعلق من وجه آخر إذ هو في شأن العترة الطاهرة الذين الكلام في شأنهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ونصه: روى الثعلبى في تفسيره: أن سفيان بن عيينة رحمه الله: سئل عن قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] فيمن نزلت؟ فقال للسائل: سألتنى عن مسألة ما سألنى عنها أحد قبلك، حدثنى أبي عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ لما كان بغدير «خم» فنادى في الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد على وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه» إلى آخر

---

(١) أخرجه البخارى (٧٢٢٢، ٧٢٢٣) «من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا: يكون اثنا عشر أميرًا كلهم من قريش».

(٢) ينظر: البحر المحيط للزركشى ٤/ ٣٧، البرهان لإمام الحرمين ١/ ٤٦٦، التمهيد للإسنوى ٢٥٢، نهاية السول له ٢/ ٢٢١، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصارى ٣٩، حاشية البنانى ١/ ٢٥١، الآيات البينات لابن قاسم العبادى ٢/ ٣٠، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/ ٣٢٨، تيسير التحرير لأمير بادشاه ١/ ١٠٠.

(٣) أخرجه النسائى فى التفسير (٦٤٠)، والحاكم (٢/ ٥٠٢) عن ابن عباس، مختصرًا، وليس فيه موضع الشاهد «من كنت مولاه فعلىٌ مولاه».

الحديث، فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهرى فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له، فنزل بالأبطح عن ناقته وأناخها، فقال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلى خمسًا فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهرا فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى ترفع بضبعى ابن عمك تفضله علينا، وقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شيء منك أو من الله عز وجل؟.

فقال رسول الله ﷺ: «والله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل» . فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله فأنزل الله عز وجل: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١]، كذا في «جواهر العقدين في فضل الشرفين، شرف العلم الجلى، وشرف النسب العلى» .

وها أنا أذكر من قام منهم من لدن على بن أبي طالب إلى زماننا اليوم، وهو عام سبع وتسعين وألف، فأقول:

أولهم على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وبعده ابناه الحسن في زمن معاوية، ثم الحسين في زمن يزيد، وقد سبق ذكرهما بما لا مزيد عليه، ثم بعد الحسين الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب قام في زمان عبد الملك بن مروان ثم استتر، فلما ولي الأمر الوليد بن عبد الملك شدد في طلبه فلم يظفر به، وكان مستترا بالحجاز فدس إليه من سقاه السم فمات مسموما، وحمل إلى المدينة المنورة ودفن بالبقيع، وكان قيامه سنة ثلاث وثمانين ووفاته سنة ست وثمانين، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

قلت: قد تقدم في الرواية السابقة أن الحسن المثنى لم يدع الإمامة، ولم يدعُ إلى مبايعة، ولم يدّعها له أحد فعدّه ههنا في الدعاة على غير تلك الرواية.

ثم قام بالدعوة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ظهر زيد بالكوفة خارجا على هشام بن عبد الملك داعيا للكتاب والسنة وإلى

جهاد الظالمين وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورد المظالم ونصر أهل البيت.

واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما نكب خالد بن عبد الله القسرى كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضا بالمدينة بعشرة آلاف دينار، وأنه رد الأرض عليه وأنه أودع زيدا وأصحابه مالا، وكان زيد قد قدم على خالد بالعراق، هو ومحمد بن عمر بن أبي طالب، وداود بن على بن عبد الله بن عباس، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة، فبحث هشام عنهم، وسألهم فأقروا بالجائزة، وحلفوا على ما سوى ذلك فصرفهم هشام، وبعث إلى يوسف بن عمر فقابلوا خالدًا، وصدقهم وعادوا إلى المدينة، ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم.

وقيل: سبب ذلك أن زيدًا اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف على، ثم مات جعفر فخاصم أخوه عبيد الله زيدًا، وكانا يحضران عند عامل خالد فوقعت بينهما في مجلسه مشاتمات، وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة ويسمع مثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه ثم أذن له بعد حين، فحاوره طويلا ثم عرض له بأنه يذكر الخلافة وتنقصه ثم قال اخرج، قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة وقال له محمد بن عمر بن على بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة، وذكره بفعلهم مع جده وجده.

فأخذ يتظلم مما وقع به، وأقبل إلى الكوفة، وأقام بها مستخفيًا يتنقل في المنازل، واختلفت إليه الشيعة، وبايعه جماعات، وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته، ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم، فيضع يده على أيديهم، ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة نبيه لتتبعني، ولتقاتلن عدوى، ولتنصحن لى في السر والعلانية.

فإذا قال: نعم، مسح يده على يده، ثم قال: اللهم اشهد، فبايعه على ذلك خمسة عشر ألفا وأمرهم بالاستعداد، وشاع أمره في الناس، وبلغ الخبر إلى يوسف ابن عمر، فأخرجه من الكوفة. ولحقه الشيعة بالقادسية أو الثعلبية، وعذله داود بن على بن عبد الله بن عباس على الرجوع معهم وذكره حال جده الحسين، فقالت

الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته، فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى زيد الكوفة، جاءه مسلمة بن كهيل، فصده عن ذلك، وقال: أهل الكوفة لا يفون لك، وقد كان مع جدك منهم أضعاف من معك ولم يفوا له، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء.

فقال له زيد: قد بايعونى ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم.

قال: فتأذن لي أن أخرج من هذه البلد فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا آمن نفسي، فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه.

وتزوج نساء بالكوفه وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونمى الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه، وخاف زيد فتعجل الخروج، وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن.

ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم، فقالوا له: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أحدًا من أهل بيتى يذكرهما إلا بخير، وغاية ما أقول: إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلا في الناس، وعملا بالكتاب والسنة.

قالوا: فإذا كان أولئك لم يظلموك، وهؤلاء لم يظلموك فلم تدعونا إلى قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين، وإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن نحيي السنن، ونطفىء البدع، فإن أجبتم سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل.

فقالوا: إِذَنْ نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. ففارقوه ونكثوا بيعته.

وقالوا: سبق الإمام الحق، يعنون محمدًا الباقر، وإن جعفرًا ابنه إمامنا بعده، فمن ذلك سموا بهذا الاسم.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بن الصلت عامل الكوفة أن يجمع أهل الكوفة في المسجد فجمعوا، وطلبوا زيدًا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلا، واجتمع عليه ناس من الشيعة الذين بقوا معه ولم يفارقوه، وهم الفرقة المخصوصة باسم الزيدية، وأشعلوا النيران، ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر.

وأصبح جعفر بن أبي العباس فلقى اثنين من أصحاب زيد ينادون بشعاره، فقتل واحدًا وأتى بالآخر إلى الحكم بن الصلت فقتله، وغلق أبواب المسجد على الناس، وبعث إلى يوسف بن عمر بالخبر، فسار من الحيرة.

وقدم الريان بن سلمة الأراشى في ألفين خيالة، وثلاثمائة ماشية، وافتقد زيد الناس فقيل له: إنهم بالجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين رجلا، وخرج صاحب شرطته في خيل فلقي نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهبًا إليه، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه، وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم، وانتهى إلى دار أنس بن عمرو الأزدى ممن بايعه فناداه ولم يجبه ولم يخرج إليه. ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام، فهزمهم ثم دخل الكوفة والريان في اتباعه، فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة: أفعلتموها حسينية؟ فقال نصر: أما أنا فوالله لأموتن معك، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم، فجاء زيد إلى المسجد ينادى في الناس بالخروج إليه، فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد وانصرفوا عند المساء، وأرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزنى في أهل الشام، فجاءه في دار الرزق وقد كان آوى إليها عند المساء، فلقيه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت، فاقتتلوا فحمل نصر على أصحاب العباس، فهزمهم زيد وأصحابه، وعبأهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم، فكشفهم أصحاب زيد، ولم تثبت خيلهم لخيله، وبعث إليه يوسف بن عمر بالناشبة، واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد، ثم رمي زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه، وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزل النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء، وأصبح الحكم يوم الجمعة يتتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه، وقطع رأسه وبعث به إلى يوسف بن عمر بالحيرة فبعثه إلى هشام فصلبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم بن الصلت

أن يصلب جثة زيد بالكناسة ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق ويحرسهم، واستمر نحوًا من سنتين أو أربع مصلوبًا، ويذكر أن العنكبوت نسجت على عورة زيد رضى الله تعالى عنه، فلما ولى الوليد أمر بإحراقهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت: كان يوسف بن عمر هذا متولى العراقين لهشام بن عبد الملك ومروان وهو الآمر للحكم بن الصلت أن يصلب جثة زيد بالكناسة مذمومًا في عمله مخدوشًا في عقله متنطعًا في حمقه. حدث عنه المدائني قال: وزن يوسف بن عمر درهمًا فنقص حبة فكتب إلى صاحب دار الضرب بالعراق فضرب ألف سوط، وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخل مجانينكم المسجد اضربوا عنقه فضربت.

وتخلف عنه يومًا كاتبه، فقال له: ما حبسك؟ فقال: اشتكيت ضرسى. فقال: تشتكى ضرسك وتقعد عن الديوان، فدعا بالحجام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه.

وعنه أيضًا قال: حدثنى رضيع ليوسف بن عمر من بنى عبس قال: كنت لا أحجب عنه ولا عن حريمه، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بخصى له أسود، يقال له: خديج فقرب إليه واحدة، فقال لها: إني أريد الشخوص فأخلفك أم أشخصك معى. فقالت: صحبة الأمير أحب إلى ولكن أحسب أن مقامي وتخلفي أعفى عليه وأخف.

فقال: أحببت التخلف للفجور. اضربها يا خديج. فضربها حتى أوجعها. ثم أمره بأن يأتيه بالأخرى، فقال لها: إني أريد الشخوص - مثل قوله للأولى - فقالت وقد رأت ما لقيت صاحبتها المتقدمة: ما أعدل بصحبة الأمير شيئًا بل يخرجني معه. فقال: أحببت الجماع ما تريدين أن يفوتك، اضربها يا خديج، فضربها حتى أوجعها. ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما وقع لأولتيها. فقال لها كما قال لهما. فقالت: الأمير أعلم. لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله. فقال لها: اختاري لنفسك. فقالت: ما عندي لهذا اختيارفليختر الأمير. فقال: هل فرغت أنا الآن من كل عملى ولم يبق على إلا أن أختار لك. أوجعها يا خديج ضربًا. قال الرجل: فكأنما هو يضربني في الثلاث من شدة غيظي عليه وعلى آمره. فولت الجارية وتبعها الخصي، فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك لا تقر عين أحد بصحبتك فلم يفهم

يوسف كلامها فقال: ما تقول يا خديج؟ قال: قالت كذا وكذا. قال: يابن الخبيثة، من أمرك أن تخبرني؟ يا غلام: خذ السوط من يده فأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفيت منه. كذا في «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

قلت: فانظر إلى هؤلاء المتخلفين وإلى من يولونه تجد الوصلة بينهما قريبة غير غريبة.

واستجار يحيى بن زيد بعبد الملك بن بشر بن مروان، فأجازه حتى سكن الطلب، ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية فقام بالدعوة كما سيذكر. كان قتله في شهر شعبان سنة ١٢١ إحدي وعشرين ومائة.

وقتل في صفر سنة اثنتين وعشرين. عمره ثلاث وأربعون سنة.

ثم قام بالدعوة ابنه الإمام يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن على بن أبي طالب، وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان.

ثم انتقل إلى «بيهق» وأظهر دعوته هناك فقصدته جنود الوليد، فقاتلهم فضعف عن المقاتلة، فتوجه إلى «جوزجان»، واجتمع عليه الجنود فقاتلوا فأصابه سهمٌ آخر نهار الجمعة من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة، فحز رأسه وحمل إلى الوليد ابن يزيد، وصلبت جثته على جذع عند باب جوزجان، وبقي مصلوبًا إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة العباسيين، فأنزله من الجذع وصلى عليه وعمره ثمان وعشرون سنة. فهؤلاء [في] دولة بني أمية.

وأما في دولة العباسيين فكان زمان عبيد الله السفاح - أول من ولي منهم - زمان صلح وسداد وبر منه بهم، ما ظهر في زمانه أحد ولا دعا داع، وكانوا شيئًا واحدا على ما تقتضيه القرابة واللحمة.

فلما مات السفاح وولي أخوه المنصور عبد الله الدوانيقي قام بالدعوة محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب.

وسبب ذلك أنه لما صار أمر بني أمية إلى الاختلاف، واضطرب أمر مروان بن محمد اجتمع أهل البيت بالمدينة الشريفة، وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة، فاتفقوا على محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن

السبط، وبايعوه سرًّا وسلم له جميعهم.

ويقال: إنه حضر هذه البيعة أبو جعفر عبد الله المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله تعالى - يجنحان إليه حين خرج من الحجاز، ويريان إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية إليه من زيد بن علي، وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويجنح إلى حقه، فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

ولما حج المنصور أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد هذا وأخوه إبراهيم ولم يحضرا عنده مع بني هاشم، فسأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان معه بمكة فرده المنصور إلى المدينة.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأن محمد ابن عبد الله يروم الخروج وأن دعاته ظهروا بخراسان، فطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سرًّا فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه بهذا الأمر فخافك ويحسّن العذر عنه، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، فإنه قال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فكان موسى الجون بن عبد الله المحض يقول بعد هذه: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا.

ثم إن المنصور حج سنة أربعين ومائة، وألح على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد، فاستشار عبد الله بن سليمان بن علي في إحضاره.

فقال له سليمان: لو كان عافيًا لعفا عن عمه، فاستمر عبد الله على الكتمان. ثم استعمل المنصور على المدينة رياح بن عثمان المري في رمضان سنة أربع وأربعين فقدم المدينة.

وتهدد عبد الله المحض في إحضار ابنيه محمد وإبراهيم، فقال له عبد الله: إنك لأزرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجم، فقال له حاجبه أبو البختري: إن هذا ما اطلع على الغيب، فقال له: والله ما قال هذا إلا ما سمع، فكان كذلك كما سيذكر.

ثم جد رياح في طلب محمد فأخبر أنه في شعاب رضوى من عمل ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلبه فأفلت.

ثم إن رياح حبس بني حسن وقيدهم، وهم عبد الله المحض وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى الجون بن عبد الله المحض، وسليمان وعبد الله ابني أخيه داود وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه على العابد، ثم حضر من الغد وقال: جئتك لتحبسنى مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالديباجة وكان أخا عبد الله المحض لأمه، أمهما فاطمة بنت الحسين، وكان عامل مصر قد عثر على على بن محمد بن عبد الله المحض بعثه أبوه محمد النفس الزكية إلى مصر يدعو له فأخذه عاملها وبعث به إلى المنصور.

ثم إن المنصور حج سنة أربع وأربعين فلما قضى حجه وخرج إلى الرَّبذة، وجاء رياح بن عثمان ليودعه أمره بإشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق، فأخرجهم في القيود والأغلال وأركبهم في محامل بغير وطاء وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويبكي، وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما يسايرانه مستترين بزي الأعراب، ويستأذنانه في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعتما أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين.

وانتهوا بهم إلى الربذة، وأحضر العثماني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان المعروف بالديباجة عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطًا بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور، ويقال: إن رياحًا أغرى المنصور به، وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف منهم عنه أحد، ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور: إن أهل خراسان ينتظرون محمد بن عبد الله المحض وأنه جفل منهم، فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان وبعث معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله المحض وأن أمه فاطمة بنت رسول الله، ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هبيرة ويقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن، بنى عليه أسطوانة وهو حى فمات، ثم مات بعده عبد الله المحض، ثم على بن حسن.

ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود

وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن.

ثم إن المنصور أرجع رياحًا إلى المدينة وأمره بإمعان الطلب لمحمد فوصلها وألح في طلب محمد وهو مختف يتنقل في اختفائه من مكان إلى مكان، وقد أرهقه الطلب حتى تدلى في بئر وانغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع، ودل عليه رياح بالمدينة فركب في طلبه فاختفى عنه ولم يره، ولما اشتد الطلب عليه أجمع على الخروج، وأغراه أصحابه بذلك.

وجاء الخبر إلى رياح بأنه الليلة خارج، وحضر العباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمدًا شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم، والله لئن خرج ليقتلنكم أجمعين.

فأمر القاضي بإحضار عشيرته بني زهرة فجاءوا في جمع كثير وأجلسهم بالباب، ثم أحضر نفرًا من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن على بن حسين بن على وحسن بن على بن حسين بن على ورجالا من قريش، وبينما هم عنده سمعوا التكبير وقيل خرج محمد، فقال ابن مسلم بن عقبة لرياح بن عثمان: أطعني واضرب أعناق هؤلاء العلويين، فأبى.

فأقبل محمد النفس الزكية في مائة وخمسين رجلًا، وقصدوا السجن، وأخرج محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه ومن كان معهما محبوسًا بالظلم، وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل، فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رياح بن عثمان عامل المدينة وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة وحبسهم، ثم خرج إلى المسجد فخطب الناس، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصرهم، واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلي قضائها عبد الملك بن عبد المطلب بن عبد الله المخزومي، ولم يتخلف عن محمد ابن المحض من وجوه الناس إلا نفر قليل، منهم خبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

واستفتى أهل المدينة مالكًا في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال الإمام مالك: إنما بايعتم مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد، ولزم

مالك بيته، وأرسل محمد المذكور إلى إسماعيل عبد الله بن جعفر يدعوه إلى بيعته - وكان شيخًا كبيرًا - فقال: أنت والله يابن أخي مقتول، فكيف أبايعك، فرجع الناس عنه قليلاً قليلاً، وأسرع بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى محمد، فجاءت أختهم حمادة إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقالتك ثبطت الناس عن محمد، وإخوتي معه فأخشى أن يقتلوا، فطردها. فيقال: إنها غدت عليه فقتلته.

ولما استوى أمر محمد بن المحض المذكور ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع وخبره الخبر، فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم، وكلمته على منبر رسول الله ﷺ، ثم تتابع الخبر، وأشفق المنصور من أمره فاستشار أهل بيته ودولته، فبعث إلى عمه عبد الله وهو محبوس يستشيره، فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعة أهل البيت، فيملك عليهم أمرهم، ويحفها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن قتيبة من الري فيحشد معه كافة أهل الشام ويبعثه، وأن يثبت العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة وتبعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان.

ولما قد الكوفة أرسل إلى بديل بن يحيى - وكان السفاح يشاوره - فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود، وأشار عليه جعفر بن حنظلة البهراني بأن يبعث الجند إلى البصرة، فلما ظهر إبراهيم أخو محمد المذكور بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما.

وقال المنصور لجعفر بن حنظلة: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حسبهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبيين، ولم يبق إلا أهل البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله المحض المذكور كتاب أمان فأجاب عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور بمثل ذلك، وانتصف كل منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان.

وذكرهما المبرد في كامله. فمن أراد الوقوف عليهما فليلتمسهما في أماكنهما. ذكر جميع هذا العلامة ابن خلدون في كتابه المسمي «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في دولة العرب والعجم والبربر» . قلت: قد أحببت ذكرهما تجميلا للجامع

القاصر، وتكميلا يكون فيه شفاء الخاطر.

قال لسان الأدب وترجمان العرب أبو العباس محمد بن يزيد الشهير بالمبرد في كتابه المسمي «الكامل» (١): وفي سنة خمس وأربعين ومائة اشتد الطلب على محمد النفس الزكية خرج بالمدينة الشريفة، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة داعيًا له فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية أو محمد بن معاوية من أولاد جعفر بن أبى طالب إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن فملكه. ودعا لنفسه وخطب على منبره عليه الصلاة والسلام، وكان يدعى بالنفس الزكية وتلقب بالمهدي، وحبس رياح بن عثمان المرى عامل المدينة للمنصور، وبلغ الخبر إلى المنصور بذلك فكتب إليه كتابًا نصه بعد البسملة:

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد ف ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا . . .﴾ إلى ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣: ٣٤]، ولك ذمة الله وعهده وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن تبتَ من قبل أن نقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه، وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان إن أحببت. والسلام.

فأجابه محمد المهدي بكتاب نصه بعد البسملة(٢):

من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد.

أما بعد ﴿ طسٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ. . .﴾ إلى ﴿ يَحۡذَرُونَ ﴾ [القصص: ١: ٦]، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى، فقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما أعطيتموه (٣)بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا عليًا - عليه

---

(١) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٧ - ١٤٨٨ .
(٢) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٨ - ١٤٩٠ .
(٣) فى الكامل: طلبتموه .

السلام - كان الوصى والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء، وقد علمتم أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم، وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم، فأنا أوسط بني هاشم نسبًا وخيرهم أمًّا وأبًا، لم تلدني العجم ولم تعرق بي أمهات الأولاد، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلامًا وأوسعهم علمًا وأكثرهم جهادًا على بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن، وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. ثم قد علمت أن هاشمًا ولد عليًّا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين.

وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة، وأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

ولك عهد إن دخلت في بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته، إلا حدًّا من حدود الله تعالى، أو حقًّا لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك، وأنت أحرى بقبول الأمان مني إليك.

وأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم الخراساني؟! والسلام.

فأجابه المنصور بقوله بعد البسملة(١):

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد فقد أتانى كتابك، وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أبًا، وبدأ به على الولد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف:٣٨]، ولقد

(١) ينظر: الكامل للمبرد (٣/ ١٤٩٠ - ١٤٩١)

علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبوك. وأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطين على قدر الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

وأما ما ذكرت عن فاطمة بنت عمرو أم أبي طالب، فإن الله لم يهد أحدًا من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن [والحسين] وأن هاشمًا ولد عليًا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحده. وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ﷺ، فإن الله قد أبى ذلك له فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فيكف تورث الإمامة من قبلها؟! ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، فأخرجها تخاصم ومرّضها سرًّا، ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم الشيخين.

ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره[1]، ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدًا إلى بيعته فأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم، وأسلم في يديه شيعته، وخرج إلى المدينة، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

وأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر، فجعل أباك أهون أهل النار عذابًا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ . . . ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، الآية. وأما

(١) يعنى أبا بكر، وقد تقدم ذلك فى مناقب أبى بكر الصديق .

قولك: لم تلدني العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسبًا، وخيرهم أمًّا وأبًا، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرًّا، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولى وأخرى وأصلا وفصلا، فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والدِ ولده، فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فينا مولود بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من على بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك عبد الله وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر الصادق وهو خير منك.

ولقد علمت أن جدك عليا حكم الحكمين، وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فأجمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن على فحاربه ابن مرجانة، وكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسبي المجلوب إلى الشام.

ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم، بنو أمية وحرقوكم بالنار، وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم، فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله، وأشدنا بذكره، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا - بما ذكرنا من فضل على - أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم، وابتلي أبوك بالدماء.

وقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته، فنازعنا فيهما أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بهما، وتوفي رسول الله ﷺ وليس أحد من عمومته حيا إلا العباس، فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ابني ربيعة فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلا يوم بدر، فقدمناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء،

وحزنا شرف الآباء، وأدركنا من ثأركم إذ عجزتم عنه، ومنعناكم حيث لم تمنعوا أنفسكم .والسلام.

ثم عقد أبو جعفر المنصور على حربه، لعيسى ابن عمه موسى بن على بن عبد الله بن العباس، فسار في الجنود، ومعه محمد بن أبي العباس السفاح،وكثير بن حصين العبدي، وحميد بن قخطبة، وهزار مرد وغيرهم. وهؤلاء المذكورون كل رجل منهم مذكور في مقاتلة ألف مشهور مخبور. وقال له: إن ظفرت بمحمد، فأغمد سيفك وابذل له الأمان، وإن تغيب، فخذ أهل المدينة به؛ فإنهم يعرفون مذاهبه. ومن لقيك من آل أبي طالب، فعرفني به. ومن لم يلقك فاقبض ماله. وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله.

ويقال: إن المنصور لما قدم المدينة بعد ذلك، طلبه جعفر بالمال، فقال المنصور: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى بن موسى إلى زيد، كتب إلى نفر من أهل المدينة يستدعيهم، واستشار محمد المهدي أصحابه في المقام بالمدينة، ثم في الخندق عليها، فآثر ذلك؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فحفر الخندق الذي حفره - عليه الصلاة والسلام - للأحزاب، ونزل عيسى بن موسى بالأعوص، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخيرهم؛ فخرج كثير منهم بأهليهم إلى الجبال، وبقي في شرذمةٍ قليلة، ثم تدارك أمره، وأمر بردهم فأعجزوه.

ونزل عيسى بن موسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكرا إلى طريق مكة يعترضون محمدا أن ينهزم إلى مكة، وأرسل إليه بالإحسان والدعاء إلى الكتاب والسنة، ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى ابن موسى بالجرف، لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، سنة خمس وأربعين، فأقام يومين، ثم وقف على سلع، ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخلوا بينه وبين صاحبه، فشتموه؛ فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة، وبرز مع أصحابه، ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وأبلى محمد المهدي يومئذ - بلاء عظيما، وقتل بيده سبعين رجلا.

ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة، فتقدم في مائة من الرجالة إلى حائط دون الخندق فهدمه واجتاز الخندق، وقاتلوا من ورائه، وصابرهم أصحاب محمد

إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فردموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليه الأبواب، وجازت الخيل، فاقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنط، ثم رجع، وقال له عبد الله بن جعفر: لو أتيت الحسن بن معاوية - يعني: عامله الذي أرسله إلى مكة - فإن معه جلَّ أصحابك، وليس لك بهؤلاء طاقة. فقال: أترك أهل المدينة يقتتلون؟! والله! لا أفعل أو أقتل، وأنت مني في سعة. فمشى معه قليلا ثم رجع، وافترق عنه جلُّ أصحابه، وبقي في ثلاثمائة أو نحوها، فقال له بعض أصحابه: نحن في عدة أهل بدر، ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رياح بن عثمان، عامل المدينة قبله من قبل المنصور، وأخاه عباسا.

وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الحمس؛ فعرقبوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا، وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثا. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، فانحدروا منه إلى المدينة، ورفع بعض نسوة آل العباس خمارا لهن أسود على منارة المسجد، فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون؛ هربوا. وفتح بنو غفار طريقا لأصحاب عيسى فجاءوا من وراء أصحاب محمد، ودعا محمدٌ حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن خفير عن أصحاب محمد بالأمان، فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراحة، ثم قتل. وقاتل محمد على شلوه يهذ الناس عنه هذًّا، حتى ضرب فسقط لركبته، فطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه فأتى به عيسى، فبعثه إلى المنصور، وأرسل معه رءوس بني شجاع، وكان قتله منتصف رمضان، سنة خمس وأربعين ومائة.

وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة بالأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت أخته في دفنه فدفنته بالبقيع، وقبره مشهور، عليه قبة يزار بها، رحمه الله تعالى، عمره اثنان وخمسون سنة. وقيل: خمس وأربعون.

ثم قام أخوه إبراهيم بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وكان قيامه بالبصرة، قد أرسله أخوه محمد النفس الزكية إليها فاستولى عليها، فبلغه الخبر بمقتل أخيه يوم العيد، غرة شهر شوال سنة خمس وأربعين، فخطب الناس

ونعاه إليهم، وأنشد [من الطويل]:

سَأَبْكِيكَ بالِبيضِ القَوَاضِبِ والقَنَا فَإِنَّ بِهَا مَا يُدْرِكُ الطالبُ الوتْرا
ولَسْتُ كمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بعَبْرَةٍ يُعَصِّرهَا مِنْ جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرا

فبايعوه بالإمامة، واستولى على واسط والأهواز، وكورها، وما والاها من بلاد فارس، ونهض لقتال المنصور، وكان يلاحظ آخرته أكثر من دنياه. فالتقى الجمعان بـ « باخمر » من أرض الأهواز، فجاءه سهم غرب، وحمل [عليه] جند المنصور وحزوا رأسه، وأرسلوه إلى المنصور.

وكان قتله غرة ذي الحجة من السنة المذكورة، وعمره: ثمان وستون سنة، وقيل: و خمسون.

ثم قام إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى، أخو عبد الله المحض، بعد قتل ابني أخيه: محمد، وإبراهيم؛ فعاجله المنصور قبل أن يستحكم أمره؛ فأسره وحبسه مع إخوته وأهل بيته، ومات في الحبس. وكان قيامه آخر سنة خمس وأربعين ومائة، عمره سبع وستون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المنصور - أيضا - وكان بالبصرة مستترا، وأرسل دعاته منها إلى كل ناحية؛ فسعى به إلى المنصور قر بن جلال الأزدى، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأرسل رجلا معه، يقال له: مرعيد النصراني، في جماعة من الأعوان، وكتب إلى عامله بالبصرة بالسمع والطاعة فيما يشير به مرعيد، فدخل في زي أهل الصلاح مظهرا للتشيع والعبادة، ومضى قر إلى الحسن وأخبره بقدوم رجل صالح في وصفه، ثم عرف قرين بين مرعيد وبين شيعة الحسن، فرأوا نسكه وصلاحه؛ فأنسوا به، وجعل الشيعة تصف صلاح حاله للحسن؛ حتى أحب لقاءه، ومرعيد مع ذلك - يحسن صلة الحسن بالأموال، ويرسل الجيران يستعين بهم في أمره ووصفه، وكلما كتب إليه الحسن كتابا قبله، ووضعه على رأسه وعينيه، وأكل خاتمه، يظهر أنه يريد التبرك به، إلى أن قالت له الشيعة: إن الحسن يشتهي لقاءك، فقال لهم: أخشى من اشتهار أمري، ولكن أنا في حجرة، فلو جاءني مع هذا - وأومأ إلى قرين - رجوت أن يكون الأمر مستورًا. فأجابته الشيعة إلى ذلك. وعمد مرعيد فهيأ القيد والرجال،

فخبأهم في مجلسه. فلما وصل قيدوه، وحمل بساعته إلى المنصور، فلما أوصلوه إليه أمر بحبسه وغيبه، ثم آل أمره إلى أن مات بالسم في حبسه، سنة نيف وستين ومائة.

ثم قام في أيام المنصور - أيضا - عبد الله الأشتر ابن محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب وكان ظهوره بالسند؛ لأنه هرب بعد قتل أبيه إليه، وبقي بالسند بأرض كابل يدعوهم إلى الإسلام؛ لأنهم كانوا مشركين، فأسلم على يده خلق كثير. وكان على السند من جهة المنصور: هشام بن عمرو التغلبي، فوقع بينهما قتال كثير، قدر خمسين وقعة في سنة واحدة، وقتل هناك ظلما. وكان قيامه سنة ست وأربعين ومائة، وقتل سنة إحدى وخمسين، وعمره: ثلاث وثلاثون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط في البصرة، أيام المهدي بن المنصور، وتوارى لقلة أصحابه، إلى أن مات.

ثم قام عيسى بن زيد بن على زين العابدين، في أيام المهدي، فبايعه أهل الكوفة وأهل البصرة والأهواز، ووردت عليه بيعة أهل الحجاز، وهو متوارٍ. واشتد الطلب له من المنصور وأخذ الناس على الظنة، فاستتر عيسى بالأهواز، وأكثر مقامه بها في زمن المنصور. فلما ولى الأمر المهدي أظهر نفسه، فدس إليه المهدي رجلا من أصحابه، قيل: إنه أعطاه مقدار مائتي ألف دينار؛ فسمه في طعامه، وهو بسواد الكوفة مما يلي البصرة؛ فمات فجر اليوم الثالث، ودفن سرًّا، ولا يعرف قبره. وكان قيامه سنة ست وخمسين ومائة، ووفاته سنة ست وستين ومائة. عمره: ست وأربعون سنة.

ثم قام على بن العباس بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المهدي - أيضا - ببغداد، فبايعه جماعة سرًّا. وهم بالانتقال من بغداد إلى غيرها من البلاد، فقبضه المهدي قبل استحكام أمره وحبسه، فلم يزل في حبسه إلى أن وفد عليه الحسين بن على الفخي - الآتي ذكره بعده- فكلم المهدي فيه واستوهبه منه؛ فوهبه له، ثم دس له شربة سم، فلم يزل يعمل فيه السم حتى قدم المدينة، فتفسخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، بعد دخول المدينة بثلاثة أيام، ومات.

ثم قام الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، أيام الهادي بن المهدي بن المنصور، سنة تسع وستين ومائة، وهو بالمدينة، وجده: الحسن المثلث: أخو عبد الله المحض؛ بويع بالمدينة، وخطب على منبرها، وهرب عاملها. فلما استقر أمره بالمدينة وصار إلى مكة، كتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن على - وقد كان قدم حاجًا من البصرة - فولاه حربه، فقتله بفخ على ثلاثة أميال من مكة بل دونها، فتقاتلوا يوم التروية، فقتل الحسين في أكثر من مائة من أصحابه، ولم ينج منهم إلا اليسير، كانوا بين القتلى إلى أن جن عليهم الليل هربوا، ودفن الحسين وأصحابه هنالك، وقبره مشهور يزار إلى الآن، في بناء على يمين الداخل إلى مكة من وادي مر. وحمل رأسه إلى الهادى موسى بن المهدي العباسي، فلم يحمد ذلك. وكان الحسين هذا شجاعا جوادا كريما، يحكى أن المهدي أعطاه لما قدم عليه ألف دينار فرقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج لا يملك ما يلبسه إلا فروة ليس تحتها قميص رحمه الله وغفر له وأعاد علينا من بركاته.

روى أبو الفرج الأصبهاني في « مقاتل الطالبيين » بإسناده إلى النبي ﷺ قال: « انتهى رسول الله ﷺ إلى فخ فصلى بأصحابه ثمة صلاة الجنائز ثم قال: تقتل ههنا رجال من أهل بيتي وعصابة من المسلمين تنزل لهم أكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهُم إلى الجنة أجسادَهم » .

وكان عمره حين قتل إحدى وأربعين سنة.

ثم قام يحيى بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب في زمان الهادي أيضا بعد أن نجا من وقعة الفخ فجال في البلدان، ولم يقر بمكان وآخر الأمر استقر بجبل الديلم وكان إذا ذاك في زمان هارون الرشيد،فسرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي، فبلغ الفضل إلى الطالقان وتلطف في استنزال يحيى بن عبد الله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فتم بينهما ذلك؛ وجاء به الفضل فوفى له الرشيد بكل ما أحبه، وأجرى له أرزاقا سنية حسنة.

ثم توجه يحيى بإذنه إلى المدينة ثم استرجعه هارون الرشيد من المدينة إلى بغداد بسعاية كانت فيه من بعض آل الزبير. فيقال: إنه لما حلف الزبيري بتلك اليمين التي فيها البراءة من حول الله وقوته والالتجاء إلى الحول والقوة ومات الزبيري بعد الثلاثة

الأيام أطلق الرشيد يحيى ووصله بمال، ثم بعد [ذلك] بمديدة أظهر له ذلك أنه قد صح عنده أنه يطلب الناس سرًا إلى بيعته، فكلم الرشيد الفقهاء فيما أعطاه من الأمان. فمنهم من أثبته، ومنهم من نقضه، ثم آخر الأمر أرسله إلى الحبس فمات بعد شهر من اعتقاله في الحبس.

واختلف في موته فقيل: خنقوه، وقيل: بنوا عليه، وقيل: سموه، وقيل: قتلوه بالجوع، ويقال: أطلقه الفضل بن يحيى افتئاتا على الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة والله أعلم أيا كان ذلك.

قلت: ذكر المسعودي[1] أن هذه المباهلة بهذه اليمين وقعت مع الزبير نفسه منسوبة إلى موسى الكاظم معه، والله أعلم من أيهما كانت.

كان قيام يحيى سنة ست وسبعين ومائة.

ثم قام من بعده أخوه إدريس بن عبد الله المحض، وذلك أنه لما أفلت ونجا من واقعة الحسين الفخي لحق بمصر إلى الغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس، وهو جد الأدارسة بالمغرب ومنهم طائفة بمكة أتوا إليها، وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفيًا وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلى سنة ثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير «أورند» من قبائل البربر، وكبيرهم، فأجاره وأكرمه، وأجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع، فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا وملك المغرب الأقصى، وملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زناتة أجمع في طاعته، واستفحل ملكه، وخافه إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وراسل الرشيد يخبره فدس إليه الرشيد مولى من موالى أبيه المهدي اسمه سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب، فأجازه ولحق بإدريس مظهرا للنزوع إليه فيمن نزع من وحدان العرب ومتبرئا من الدولة العباسية، فاختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبط سما في سنون فناوله إياه عند شكايته من وجع سنونه فكان فيما زعموا حتفه.

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٥١ - ٣٥٣) .

ودفن ببوليلى سنة سبع وسبعين ومائة.

ثم قام بالدعوة محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب، وأبوه إبراهيم طباطبا لقب بذلك للكنة كانت به صغيرا سببها أنه طلب يوما غلامه أن يأتيه بقباء فلم يفهم مراده فقال له إبراهيم: « طباطبا » يريد قبا قبا فلقب به.

حبسه المهدي وبقي في الحبس إلى زمان هارون ومات فيه، فظهر ابنه محمد هذا.

وسبب ظهوره: أنه لما بعث المأمون الحسن بن سهل وزيره إلى العراق وولاه ما كان افتتحه طاهر بن الحسين من البلاد والأعمال، تحدث الناس أن الحسن بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضبت بنو هاشم ووجوه الناس وأجهزوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة.

وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، وقيل من بني تميم كان بالجزيرة، وطلب ففر إلى شرقى الفرات، وأقام هنالك يخيف السابلة، ثم لحق بيزيد بن مزيد بأرمينية في ثلاثين فارسا فقوده أي جعله قائدًا، وقاتل معه الخرمية وأثر فيهم، وأخذ منهم غلامه المسمى أبا الشوك، ومات يزيد بن مزيد، فكان أبو السرايا مع ولده أسد كذلك، فعزل أسد فسار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، ولما بعث الأمين أحمد بن مزيد لحرب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون بعثه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة فاستماله هرثمة فمال إليه فلحق به وقصده قومه بنو شيبان من الجزيرة، فاجتمع إليه منهم أكثر من ألفي فارس، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة بن أعين، فلما قتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقهم، فغضب أبو السرايا واستأذن في الحج فأذن له هرثمة وأعطاه عشرين ألف درهم فصرفها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه فاجتمع له منهم نحو مائتين، وسار بهم أبو السرايا إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله. ولقوا عاملا آخر بمال موقر على ثلاثة أبغال فاقتسموه، فأرسل هرثمة خلفه فهزمهم ودخل البرية، ولحق به من تخلف من أصحابه فكثر أصحابه وجمعه، وسار نحو دقوقا، وعليها أبو ضرغامة العجلي في سبعمائة فارس فخرج وقاتله، فهزمه أبو السرايا، ورجع أبو ضرغامة إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان، وأخذ

أمواله وسار إلى الأنبار، وعليها إبراهيم الشروني مولى المنصور عاملا فقتله وأخذ ما فيها. ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك التغلبي واستجاشه على قيس، فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيسا بعصبية ربيعة، حتى انقادت قيس إلى طوق بن مالك، وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقى محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط صاحب الترجمة فدعاه إلى الخروج، واتعدوا إلى الكوفة فدخلاها وبايعه أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، ونهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ معه من الأموال والجواهر ما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين.

ولما ملك الكوفة هرع الناس إليه والأعراب من النواحي وبايعوه، وأرسل أخاه أبا القاسم بن إبراهيم إلى مصر وكان على الكوفة سليمان بن منصور من قبل، الحسن بن سهل، فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف، فخرج إليه ابن طباطبا، وأبو السرايا فهزماه، واستباحا عسكره وأصبح محمد بن إبراهيم طباطبا من الغد ميتا، فنصب أبو السرايا مكانه غلاما من العلويين وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين.

فنقول: ثم قام محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين المذكور، واستبد عليه أبو السرايا، وبعث الحسن بن سهل عيدروس بن محمد بن خالد المروروذي في أربعة آلاف، فلقيه أبو السرايا منتصف رجب، وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة باسمه، وبعث جيوشا إلى البصرة وواسط.

وولى بالبصرة العباس بن محمد بن عيسى الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسين بن على زين العابدين بن الحسين وجعل إليه الموسم.

وعلى اليمن محمد - أو إبراهيم - بن موسى بن جعفر الصادق. فسار أبو السرايا إلى البصرة، وأخرج ابن سهل ففر أمامهم، فبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وقد كان سار إلى خراسان مغاضبا له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة، وبعث الحسن بن سهل إلى المدائن وواسط على بن سعيد، فبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة بالكوفة، فوجه جيشا إلى

المدائن، فملكوها في رمضان، وتقدم فنزل نهر صرصر، وعسكر هرثمة بإزائه غدوة، وسار على بن سعيد في شوال إلى المدائن، فحاصرهم بها أصحاب أبي السرايا، فرجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة في اتباعه، ثم حاصره هرثمة وقتل جماعة من أصحابه، فانحاز إلى الكوفة، فوثب الطالبيون على دور العباسيين، وشيعتهم فنهبوها وخربوها وأخرجوهم، واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي، وكاتب رؤساء الكوفة، واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس، ومعه صاحبه الذي نصبه، وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين صاحب الترجمة.

ودخلها هرثمة منتصف محرم ابتداء سنة ٢٠٠ مائتين وأقام بها يوما، وولى عليها بعض قواده.

وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس. ولقي بخوزستان مالا حمل من الأهواز فقسمه في أصحابه، وكان على الأهواز الحسن بن على المأموني فخرج إلى أبي السرايا فهزمه الحسن وافترق أصحاب أبي السرايا، وجاء إلى منزله برأس عين زحلولا ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن محمد صاحب الترجمة المذكورة وغلامه أبو الشوك، فظفر بهم حماد الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان، فقتل أبا السرايا وبعث إلى المأمون برأسه وبمحمد بن محمد مع الرأس حيا فحبسه المأمون إلى أن مات قيل مسموما.

كان قيامه في رجب سنة تسع وتسعين ومائة، وبعد موت محمد بن محمد هذا استقل كل واحد من دعاته ودعا كل واحد منهم إلى نفسه، وسار على بن سعيد الحرشي إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق وكان يسمى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم، فاستأمن إليه زيد فأمنه على وأخذه، وبعث المعتصم الجيوش العباسية إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر - لما ولاه أبو السرايا اليمن - سار إليها وبها إسحاق بن موسى بن عيسى، فهرب إسحاق إلى مكة واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله، ثم بعث رجلا من بني عقيل بن أبي طالب إلى

مكة ليحج بالناس، وقد جاء لذلك أبو إسحاق في جماعة من القواد فيهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان واليا على اليمن من قبل الحسن بن سهل فَحُمَّ العقيلي عن لقائهم، واعترض قافلة الكسوة والطيب، فأخذها ونهب أموال التجار، ودخل الحُجاج إلى مكة عراة، فبعث الجلودي من القواد فصبحهم وهزمهم، وأسر منهم وتنقذ كسوة الكعبة وطيبها وأموال التجار وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم.

وحج بالناس تلك السنة المعتصم العباسي قبل خلافته.

وفي سنة مائتين وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك ليشخص إليه علي الرضا بن موسى الكاظم، فوصل إليه علي الرضا، فولاه العهد من بعده ولقبه الرضا وضرب الدراهم باسمه وكتب له بالبيعة إلى الآفاق وزوجه بابنته أم الفضل، وصورة كتاب العهد قد ذكرناها فيما تقدم عند ذكر خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق وكان داعية لمحمد ابن محمد المذكور قبله، فاستحكم أمره باليمن وكان له بها وقائع، ثم انتقل إلى خراسان فقتل بها بجرجان بالسم.

ثم قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى فخذلته أنصاره، فتوارى بالمدينة إلى أن مات بها.

ثم قام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى في بلاد المغرب بعد أبيه واستفحل أمره، ثم بقي أولاده إلى الآن أمرهم قائم بالمغرب.

ثم قام القاسم الرسي بن إبراهيم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أيام المأمون أيضا، وكان القاسم بمصر، وبث دعاته في الأقطار، وحثوه على إظهار دعوته وكان مستترا بمصر عشر سنين، فاشتد طلب عبيد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر له فانتقل إلى الحجاز. ولم يزل مختفيا إلى أن مات المأمون وولى أخوه المعتصم، فكثر طلب المعتصم له فلم يتم أمره، فاستأوى جبلاً بالحجاز وهو المسمى بالرس وتحصن به هو وأولاده وسكن به إلى أن مات فنسب إليه وكان يقال له نجم آل الرسول، وكان قيامه سنة عشرين ومائتين، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين في أيام المتوكل بن المعتصم العباسي.

ثم قام صاحب الطالقان محمد بن القاسم بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب، وكانت العامة تسميه الصوفي لاختياره لبس الصوف الأبيض، وكان له وقعات مع آل طاهر بن الحسين أيام المعتصم، وعظم أمره، ودخل بعدها إلى « نسأ » وبقى فيها مستترا، ثم أخذ من نسأ فحبس ثم هرب من الحبس، فاختلفوا في أمره، فقيل رجع إلى الطالقان، وقيل إلى واسط فدس المعتصم له سما فمات به.

ثم قام محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط. قيامه أيام الواثق بن المعتصم غلب على هراة السفلى وملكها، وأولاده بعده إلى سنة تسعين ومائتين.

ثم قام بعده محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ظهر بسويقة قرية معروفة بقرب المدينة المنورة.

وكان أبو الساج المتولى للموسم من قبل الخليفة المتوكل العباسي في جند كثيف، فخودع محمد بن صالح حتى لزمه أبو الساج فحبس بـ« سُرَّمَنْ رَأى » إلى أن مات في السجن، وفي زمانه انضوى أكثر الأشراف واستتروا وتوقفوا عن إظهار الدعوة.

ثم قام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب غلب على طبرستان ونواحي الديلم وملكها أربعين سنة، وتوفي سنة خمسين ومائتين.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبي طالب ، كان قيامه ببلاد العجم في زمان المتوكل فأسره المتوكل أيضا .

وقيل: إن من الطالبيين من قام غير هؤلاء في زمن المتوكل وظهر من ظهر واستتر من استتر وحبس من حبس، وقتل من قتل فلله الأمر سبحانه.

ثم قام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن على زين العابدين، ظهر بالكوفة وأحبه الناس حبًا شديدًا كان قيامه في خلافة المستعين.

ثم قام الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن على زين العابدين،

فأسره المستعين وحبسه ومات في الحبس.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن، قيامه في أيام المستعين بأرمينية وقيل بالكوفة فخودع، وأسر فحبس ومات في الحبس سنة خمسين ومائتين.

ثم قام الكوكبي أحمد بن عيسى بن على بن الحسين بن على زين العابدين.

قيامه بالكوفة في خلافة المهدي سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم قام أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

قيامه في خلافة المعتمد، وكانت له حروب مع ابن طولون، ثم قتل على باب أسوان وحمل رأسه إلى المعتمد.

ثم قام الداعي محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن على بن أبي طالب سنة سبع وسبعين ومائتين في خلافة المعتضد، وله وقائع قتل في إحداها في بلاد جرجان.

ثم قام الناصر الأطروش الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين.

قيامه في الجيل والديلم سنة أربع وثمانين ومائتين، واستفحل أمره إلى أن مات في خلافة المقتدر سنة أربع وثلاثمائة.

ثم قام الداعي الحسن بن القاسم بن الحسن بن على بن عبد الرحمن بن القاسم ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

كان قيامه بعد الناصر قبله في خلافة الراضي بالله العباسي.

وكان أولاد الناصر قد تملكوا بعد الناصر، وقاتلوا الداعي المذكور، فاستفحل أمر الداعي، وملك طبرستان ونيسابور والري، ثم توفوا، فصفا له الأمر اثنتي عشرة سنة.

ثم قام ولده المهدي محمد بن الحسن بن القاسم بن الحسن، وكان قيامه أيام المطيع العباسي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فملك الجيل والديلم، ثم توفي سنة ستين وثلاثمائة.

ثم قام الثائر في الله جعفر بن محمد بن الحسين بن على بن الحسن بن على بن

عمر الأشرف بن على زين العابدين، واستفحل أمره إلى أن مات سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ثم قام ولده أبو الحسين المهدي بن جعفر الثائر بن محمد بن الحسين في خلافة القادر بالله العباسي، ولم تطل أيامه ومات بالجدري.

ثم قام من بعده أخوه الحسين بن جعفر الثائر في أيام القادر بالله أيضا، واستقام أمره إلى أن مات.

ثم قام أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين بن محمد بن هارون بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

قيامه في خلافة القادر أيضا سنة ثمانين وثلاثمائة وكانت له وقائع، ولم يزل على حالته في الحروب إلى أن ملك طبرستان، ثم مات سنة، إحدى عشرة وأربعمائة، وعمره تسع وسبعون سنة.

ثم قام من بعده أخوه الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون بن الحسين، قيامه في زمان القائم بأمر الله العباسي، واستقام له الأمر إلى أن توفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة وعمره نيف وثمانون سنة.

ثم قام من بعده العقيقي على بن جعفر بن الحسن بن عبد الله بن على بن أحمد بن على بن الحسين بن على زين العابدين.

قيامه في خلافة القائم أيضا سنة أربع وأربعمائة.

ثم قام مانلديم سنديم أحمد بن محمد بن على بن محمد بن الحسن بن محمد ابن أحمد الأعرابي بن محمد بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين وكان على منهاج سلفه.

كان قيامه بأنجاشية سنة سبع عشرة وأربعمائة. ووفاته في نيف وعشرين وأربعمائة.

ثم قام الناصر الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسن بن على بن الناصر الأطروش، سبق ذكره في جهات الديلم.

ثم قام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل بن زيد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن ابن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم قام ولده المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل على منهاج سلفه.

ثم قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الآمر أبي القاسم الحسين بن المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون المتقدم ذكره.

قيامه سنة نيف وتسعين وأربعمائة في خلافة المستظهر العباسي بالجيل والديلم.

وكان حربه مع الباطنية.

وكان بنو العباس يظهرون المحبة إليه. وكانت وفاته سنة عشرين وخمسائة.

والذين لم يعرف تاريخهم وزمان قيامهم: الإمام محمد بن أبي الأعرابي بن محمد بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين.

والإمام على العراقي بن الحسين بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام الهادي بن المهدي بن الحسن بن عبد الله بن على بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام الراضي بالله ناصر بن الحسين بن زيد بن صالح بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح ابن عمر الناصر المذكور.

والإمام على بن محسن بن أحمد بن عبيد الله بن الحسن السلق بن على بن محمد ابن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام الحسين بن محمد بن على بن جعفر بن عبيد الله بن السلق المذكور.

وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن على المذكور.

والذين لم تعرف كيفية اتصال أنسابهم الإمام أشرف بن زيد من ذرية زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، مات سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

والإمام السيد الأزرقي. والإمام أبو الرها الكيتمي.

وهؤلاء جميعًا في جهات قزوين وطبرستان والجيل والديلم وجرجان والحجاز والعراق وبالمغرب.

أما الذين ظهروا باليمن خاصة فأولهم: الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب. مولده بـ « الرس » سنة خمس وأربعين ومائتين.

قيامه في صعدة من بلاد اليمن سنة ثمانين ومائتين.

وقال في تاريخ الخزرجي: قام سنة أربع وثمانين، ودخل صنعاء في المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد العباسي.

فاجتمعت همدان وغيرها من قبائل العرب فأخرجوه من صنعاء ثم رجع إلى صعدة وأخذها.

وكان في زمنه قد تغلب على بن الفضل القرمطي الحميري - ينتهي نسبه إلى سبأ الأصغر - على اليمن في سنة ثلاث وستين ومائتين، فسار على المذكور بسيرة شنيعة، وأعلن بالكفر والفجور، وقهر العالم، وأمرهم بارتكاب كل محرم ومحذور.

وكان عنوان كتبه إذا أرسل إلى أحد من الملوك: من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل إلى عبده فلان.

وكان مؤذنه يؤذن في حضرته: وأشهد أن على بن الفضل رسول الله.

ومن شعره ما أنشده الخبيث على منبر جامع صنعاء قوله [من المتقارب]

خُذي الدُّفَّ يَا هَذِهِ واضْرِبِي ... وغَنِّى هَزَارِيكِ ثُمَّ اطْرِبِي
تَولَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِمٍ ... وَهَذَا نَبِيُّ بَنِي يَعْرُبِ
لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شِرْعَةٌ ... وهَاتَان شِرْعَةُ هَذَا النَّبِي
فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوضَ الصَّلاَةِ ... وَفَرْضَ الصِّيام وَلَمْ يُعْقِبِ
إِذَا النَّاسُ صَلَّوْا فَلاَ تَنْهَضِي ... وإِنْ صَوَّمُوا فَكُلِي واشْرَبِي
وَلاَ تَطْلُبِي السَّعْىَ عِندَ الصَّفَا ... وَلاَ زَوْرَةَ القَبْرِ فِي يَثْرِبِ

وهذا كاف في بيان مزيد كفره، فحاربه الإمام الهادي المذكور إلى أن مات بـ « صعدة » مسمومًا سنة ثمان وتسعين ومائتين في خلافة المقتدر بالله العباسي.

ثم قام ولده المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم في بلاد صعدة في مكان أبيه زمن المقتدر العباسي أيضا فأقام سنة واحدة، ثم تنحى عن

الإمامة، فطلب الفقهاء الزيدية أخاه أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم طلبوه من الرس، ثم توفى محمد سنة عشر وثلاثمائة وعمره اثنان وثلاثون سنة.

ثم قام أخوه الناصر لدين الله أحمد بن الهادي يحيى بعد أن دعاه فقهاء الزيدية من الرس كما ذكر.

وكان قيامه في خلافة المقتدر أيضا سنة إحدى وثلاثمائة.

ووفاته فيها بـ « صعدة » سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

ثم قام ولده المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، وكان مقره صعدة إلى أن توفى سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

ثم قام أخوه المختار القاسم بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم.

كان قيامه في صعدة وقتله في « زبيد » .

ثم قام ولده المنتصر محمد بن القاسم بن أحمد الناصر، وأكثر وقائعه مع همدان، وهي قبيلة كبيرة باليمن.

ثم قام الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، فعانده فقهاء مذهبه وأرسلوا الإمام القاسم العياني وتعارضا.

كان قيامه سنة ثمان وستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله العباسي. مدته خمس وثلاثون سنة.

ثم قام المنصور العياني بن على بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

ولما كان في « بيشة » من بلاد رفيدة فراسله فقهاء الزيدية، فطلع إلى صعدة ثم تقدم إلى صنعاء فضبطها.

وتعاقد الإمام يوسف الداعي في مدة العياني.

وكان قيام العياني سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقبره في بلدة يقال لها «العيَّان» في طريق صعدة من صنعاء.

ثم قام ولده الحسين بن القاسم العياني، وكان له وقائع مع همدان.

وكان قيامه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وقتل في ريدة من البون سنة أربع وأربعمائة.

وخلف الحسين المذكور ابن أخيه ويسمى الفاضل، وهو القاسم بن جعفر بن القاسم بن علي العياني، وكان بينه وبين الصليحي وقعات، ولم يكن إمامًا.

ثم قام الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

وكان قيامه في قرية « الناعط » فوق « البون » ودخل صنعاء.

قيامه سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ومات بقرية « الناعط » .

ثم قام الناصر الديلمي، وهو: أبو الفتح الناصر بن الحسن بن محمد بن عيسى ابن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، دعا في الديلم ثم خرج إلى أرض اليمن فاستولى على كثير من البلاد مذحج وهمدان وخولان، وكان وصوله من الديلم في سني الثلاثين وأربعمائة، وكانت الحرب تدور بينه وبين الصليحي، فقتله الصليحي بنجد الحاج.

وقبره بـ « ردمان » من بلاد « عنس » قبل سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

ثم قام علي بن زيد بن إبراهيم المليح بن المنتصر بن محمد المختار قاسم بن الناصر بن الهادي يحيى.

وتقدم إلى « شظب » لحرب بني الصليحي، فقتل في « شظب » سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ثم قام أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر بن الهادي يحيى، وولي صعدة ونجران والجوف وصنعاء، وقصد زبيد فرجع بغير حصول مرامه في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

مات بحيدان من مغارب صعدة وعمره ست وستون سنة.

ثم قام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا فملك صعدة وتقدم إلى صنعاء، وكان يقف في كوكبان بعد ما أخرجوه من صنعاء، ثم خلطوا عليه فمات فيها.

قيامه سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ووفاته سنة أربع عشرة وستمائة.

ثم قام الداعي يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن المنتصر محمد بن المختار قاسم بن الناصر أحمد ابن الهادي، قام في بلاد خولان وصعدة.

وفي مدينة صعدة ولد المنصور محمد بن المنصور، فحارب الداعي، مات سنة ست وثلاثين وستمائة.

ثم قام المهدي أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، قام في حصن «ثلا» فحاربه ولده المنصور، ثم اتفقا، ثم تعاديا فتحاربا فقتل الإمام.

وكان قيامه في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وكانت هذه السنة هي انتهاء دولة بني العباس بالعراق؛ لأنها هي السنة التي قتل التتار فيها الخليفة المستعصم العباسي كما قدمت ذلك مستوفى في بابهم.

ثم قام المنصور بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى السابق ذكره، فقام من هجرة قطابر وملك مغارب صعدة.

وكان بينه وبين أولاد المنصور محاربات. فقتل سنة ست وخمسين وستمائة.

ثم قام المهدي بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى. قيامه سنة سبعين وستمائة.

أسره فحبسه الملك المظفر الغساني في سنة أربع وسبعين وستمائة، ومات في الحبس سنة ثمانين وستمائة.

ثم قام المتوكل المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن أحمد بن الهادي.

قيامه سنة ست وسبعين. ومات سنة سبع وثمانين وستمائة.

ثم قام ولده المهدي بن محمد بن محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم.

قيامه سنة إحدى وسبعمائة. مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ثم قام السراجي يحيى بن أحمد بن محمد بن عبيد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على

ابن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم قام المؤيد يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم بن يوسف بن على بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب.

قيامه سنة تسع وعشرين وسبعمائة. مات سنة تسع وستين وسبعمائة. عمره ثمانون سنة.

ثم قام بعده على بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ثم قام بعده الواثق المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى ابن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر من أولاد سابق الذكر.

ثم قام أحمد بن على بن مدافع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين الديلمي. سبق ذكر نسبه.

ثم قام المهدي على بن محمد بن على بن يحيى بن منصور بن مفضل بن الحجاج ابن عبد الله بن على بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل ابن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب.

قيامه سنة خمس وخمسين وسبعمائة. وفاته سنة أربع وسبعين وسبعمائة. عمره تسع وستون سنة.

ثم قام من بعده ولده الناصر صلاح الدين بن المهدي بن على بن محمد بن علي.

قيامه سنة أربع وسبعين وسبعمائة. وفاته سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

ثم قام من بعده المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن مفضل بن الحجاج.

قيامه سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة أربعين وثمانمائة.

ثم قام من بعده الهادي على بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة ست و ثمانين وثمانمائة.

ثم قام من بعده المطهر بن محمد بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن

ابن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل.

ثم قام من بعده صلاح بن على بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحسن بن جعفر بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن المنصور بن أحمد بن الناصر بن الهادي.

ثم قام الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن أحمد بن الهادي.

ثم قام الهادي عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى.

قيامه سنة ثمانين وثمانمائة. وفاته سنة تسع وعشرين وتسعمائة. عمره سبع وستون سنة.

ثم قام ولده مجد الدين بن الحسن بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة تسع وعشرين وتسعمائه. وفاته سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة.

ثم قام الوشلي محمد بن على بن محمد بن أحمد بن على بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم كانت دعوة الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد ابن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي بن يحيى بن أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - حادي عشر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وتسعمائة، وكان أول ظهوره بجهات المغرب من جهات صنعاء، وما ساعدته القبائل لقوة سلطان اليمن إذ ذاك عامر بن عبد الوهاب.

فلما انقضت دولته باستيلاء الشراكسة، وتملكهم أرض اليمن كانت بصنعاء طائفة من الشراكسة فكاتب أهل صنعاء الإمام شرف الدين المذكور، وتكفلوا له بإدراك

ذلك سنة أربع وعشرين وتسعمائة.

وفي شوال قصد صنعاء فلما وصل إليها مال إليه أهلها، وأخرج من كان فيها من الجند المصري بالأمان، ودخل صنعاء، ودانت له البلاد إلى أن كانت وفاته سنة خمس وستين وتسعمائة في دولة السلطان سليمان خان بن سليم خان.

ثم قام الهادي أحمد بن عز الدين بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

ثم قام الناصر الحسن بن على بن داود بن الحسن بن على بن المؤيد.

قيامه سنة ست وثمانين وتسعمائة.

ثم قبض عليه الوزير حسن باشا سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وأرسله إلى الأبواب العالية سنة أربع وتسعين وتسعمائة.

ثم قام المتوكل عبد الله بن على بن الحسين بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة أربع وتسعين وتسعمائة. وفاته سنة سبع عشرة وألف.

ثم قام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن محمد بن يوسف الأكبر بن المنصور بن يحيى بن الناصر بن أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبي طالب.

نشأ منشأ آبائه الأئمة حتى بذ بعلمه وبهر بجودة فهمه، وصار في أيام طلبه يشار إليه، مقصورة خلال الخلافة عليه. كانت دعوته في صفر الخير سنة ست وألف.

وله وقائع في أيامه مشهورة، ومواطن معروفة مأثورة. كان آية في العلوم، ومعجزة في المنطوق والمفهوم.

له التصانيف المشهورة، والنظم والنثر. وكان محط رحال الأفاضل، ومقصد الأكابر من كل قنة وساحل.

ولم يزل قائما بأعباء الخلافة حتى توفاه الله تعالى في شهر ربيع الأول عام تسع وعشرين وألف.

ثم قام من بعده ولده الإمام العظيم المؤيد بالله محمد بن أمير المؤمنين المنصور

بالله القاسم بن محمد، وظهرت فضائله في البلاد، وأذعن لفضله الحاضر والباد، وأوتي من الإحاطة بالعلوم، وصدق الفراسة، وتنوير القلب، وصفاء الخاطر، ما لم يؤت غيره، وأقبلت عليه الفتوحات من كل وجهة، وقام بنصرته أخواه السيدان الإمامان الحسن والحسين وأخوهما شمس الإسلام أبو طالب ابن الإمام المنصور.

وفي سنة خمس وأربعين وألف استولى الإمام المؤيد المذكور على جميع إقليم اليمن ما عدا زبيد والمخا، وذلك أن الباشا قانصوه لما توجه إلى اليمن عام تسع وثلاثين بعد أن قتل الشريف أحمد بن عبد المطلب وولي مسعود بن إدريس صار كلما دخل قرية ظلم أهلها ونهبهم أرسل إلى عابدين باشا، وخنقه واستولى على خزائنه، وعساكره، ونهب البلد، ونهب من يرد إليه من البنادر، وأرسل أغربة في البحر يأخذون من ظفروا به، واغتصب أماكن مأثورة وعمرها بزخارف في الصورة، فآلت أمواله إلى يد العدى ﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. والتقى عسكره مع عسكر الإمام المؤيد محمد بن القاسم صاحب الترجمة، وعليهم أخوه الإمام الحسين بن القاسم، وكمنوا له ثم هجموا عليهم، وهم غارون، فقتلوا من عسكر قانصوه أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وتحصن هو ومن بقي بزبيد، فتنزل عليه أخوه الآخر الإمام الحسن بعساكر كثيرة، وحاصروا زبيد، وأنفق قانصوه ما حازه من الأموال على عسكره، ثم صاروا يهددونه، ويعززونه لضيق أرزاقهم، فتعب لذلك وكاتب الإمام الحسن على أن يصل إليه آمنا، فأرسل الحسن له بالأمان، فركب هو وخواصه وأظهر أنه يريد زيارة بعض الأولياء وهرب إلى محطة الإمام الحسن فأكرمه وجهزه إلى مكة. فرجع راضيا من الغنيمة بالإياب لا يملك إلا ما عليه من الثياب، فوصل إليها في دولة مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن ومعه من أتباعه دون العشرين، ونزل بحوش السلطان في الكوشك المطل على البركة المعروفة ببركة الشامي، فحصل من أتباعه نوع تَعدٍّ إلى بعض الرعايا فألزمه مولانا الشريف زيد بالرحيل من يومه، وأحضر له الرحلة، فلم تغرب عليه شمس ذلك اليوم في مكة، ولما تحقق عسكره فراره عنهم بتلك الحيلة أقاموا عليهم أميرًا منهم يقال له مصطفى فضبط زبيد، واستمر محاصرا فوق سنتين منتظرًا المدد يأتيه من مصر فلم يصل إليه شيء، ولما سئم طلب الأمان فأعطاه الإمام الأمان وجهزه بعشرين ألف قرش،

فخرج إلى مكة سنة تسع وأربعين وألف ومعه المحمل اليماني السلطاني، ووضع بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام.

قلت: قد رأيته كثيرًا ملقى في القبة المذكورة عام سبع وستين وألف، وهو أكبر من المحمل المصري شكلا. ومن عامئذ استبدت الأئمة الزيدية بالممالك اليمنية، وقضت ما في نفسها من الأمنية، فهم حتى اليوم ولاتها حزنًا وسهلاً، ورؤساؤها فتى وكهلا. وأخرجوا جميع الأروام منها، وكفوا أكف المتغلبين عنها، بعد أن قتلوهم القتل الذريع. وتركوهم بين سليب وصريع.

وفي سنة ثمان وأربعين كانت وفاة أخيه السيد الحسن ابن الإمام القاسم وهو والد أحمد بن الحسن.

وكان أخوه الإمام محمد المؤيد صاحب الترجمة يقدمه على العساكر في الحروب كلها رحمه الله، واستمر الإمام المؤيد إلى أن حانت وفاته وانقضت أوقاته في سابع عشرى رجب الفرد سنة أربع وخمسين وألف.

ثم قام من بعده أخوه الإمام الشهير المتوكل على الله إسماعيل ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن الرشيد بن أحمد.

وقد تقدم بقية نسبه إلى على بن أبي طالب في ترجمة والده المنصور بالله القاسم. كانت له الكرامات الظاهرة، والمفاخر السائرة، مع الإحاطة بجميع العلوم.

وأقبلت الفتوحات إليه من كل أوب، وجاءت إليه الوفود من كل أرض وصوب.

أرخ ابتداء دعوته السيد ناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله المهلا فقال [من الخفيف]

وتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ ... عَزَّ تاريخُ دَعْوَةٍ مِنْ كَريمِ

آيَةٌ يُعْرَفُ التَّوَكُّلُ مِنْهَا ... مَعَهُ العِزُّ للإمامِ الكريمِ

وأرخه أيضًا نثرًا فجاء التاريخ «توكلت على الله وحده أبدًا».

وفي سنة ست وخمسين: جهز ابن أخيه أحمد بن الحسن إلى حضرموت، فوصل إلى الجوف، واستولى عليه الخوف، فرجع مكسوراً، وفي سنة ثمان خمسين: استولى بدر بن عبد الله الكثيري على حضرموت وقبض على عمه السلطان بدر بن علي، وسببه أنه ظلم وتعدى الحدود، فأشار بعض السادة على بدر ابن عبد الله بالقبض على عمه، فهجم عليه ليلاً وحبسه هو وأولاده.

وفي سنة خمس وستين جهز الإمام إسماعيل ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن على حضرموت ونواحيها لكونهم لم يخطبوا له، فالتقى هو والأمير حسين الرصاص لكون بلده أقرب البلدان إلى دولة الإمام إسماعيل وحصل منهم قتال، فلما عجز الإمام أحمد بن الحسن أرسل إلى قبيلة يافع- وهم قبائل كثيرون- بالأموال خفية وطلب منهم أن يكونوا معه على الرصاص ووعدهم بأشياء كثيرة فاغتروا بكلامه، وتجهزوا على الرصاص، وأتوه على غرة، وبقي الرصاص بين الإمام أحمد، وبين قبائل يافع، فأبلى بلاء شديدا حتى قتل شهيدًا وتولى أخوه، وأرسل أحمد بن الحسن يرهبه، ويرغبه، والتزم له بجميع ما يطلبه، فطلب أشياء كثيرة فوفى له الإمام أحمد بها وملك البلاد.

وقبيلة الرصاص مشهورة بالشجاعة والكرم والصدق ولذلك كانوا مجللين محترمين، واستولى الزيدية على غالب حضرموت. ثم في سنة سبعين استولى على حضرموت كلها وأمرهم أن يزيدوا في الأذان « حي على خير العمل » وترك الترضي عن الشيخين، ومنع الدفوف واليراع في راتب السقاف. وانتهت دولة آل كثير من تلك الديار وقد انتهى صعود شرف آل كثير بالسلطان عبد الله بن عمر، وفي المثل: إذا تم شيء بدأ نقصه؛ فإنه لما خلع نفسه لعبادة ربه عن الملك الفاني، وصار إبراهيم بن أدهم ثاني، وتولى أخوه بدر الدين بن عمر، وفي آخر دولته ظلم وطغى، فهجم عليه ابن أخيه بدر الدين بن عبد الله وحبسه فدانت له العباد،وعمرت به البلاد إلى أن ظلم بالعدوان وصادر السادة والأعيان، ففوقوا إليه سهام الدعاء، فقدر الله أن كتب عمه المحبوس بدر بن عمر وهو بالحبس إلى الإمام إسماعيل وهون له أمر حضرموت، فكتب الإمام إسماعيل إلى السلطان بدر بن عبد الله بإخراج عمه بدر بن عمر من الحبس فأخرجه، ثم اتصل بالإمام وطلب منه التجهيز على حضرموت وتكفل له بأشياء وساعده على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودي شيخ العموديين وكان والده على أكثر وادي دوعن، فكاتبوا مشايخ العرب وأرسلوا لهم بالأموال، وصار إليه أحمد بن الحسن، فلما التقى الجيشان، انكسر جيش السلطان بدر، ولم يقاتل معه إلا خواصه، ثم انهزم منكسرا وولى مدبرًا إلى جبل أخواله فطلب الأمان لنفسه فأعطيه. ولما لم يطب لأحمد بن الحسن المقام بحضرموت أقام

بها بدر بن عمر الكثيري ورجع إلى عمه الإمام إسماعيل صاحب الترجمة. ثم لم يزل الإمام إسماعيل قائمًا بأعباء الإمامة الكبرى إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته سنة ٨٧ سبع وثمانين.

ثم قام بعده ابن أخيه الإمام الشهير أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم ولقب المهدي لدين الله، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام. وانتظم به الأمر أتم نظام.

وكانت حضرته محط رحال العلماء الأعلام. وفي أثناء دعوته دعا ابن عمه مولانا علم الإسلام وإمام علماء الآل الكرام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وخطب له على سابر الشرفين والأهنوم وشهارة وظليمة ولحج وأكثر التهائم، وبعد أمور كثيرة يطول شرحها حصل الاتفاق على إمامة المهدي لدين الله هذا.

وهو - أيده الله - من أعيان العترة كرما وشجاعة وتفقدا للمساكين وتعظيما للعلماء، ومستقره شهارة المحروسة، واستمر إلى أن كانت وفاته في شهر جمادى الأخرى سنة اثنتين وتسعين وألف.

ثم قام من بعده الإمام العظيم المؤيد بالله رب العالمين محمد الملقب بالعزى ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن على ابن محمد بن الرشيد، اتفق على خلافته رأى علماء العصر، وفضلاء الدهر، وغمر الناس برد ظل عدله، وسار سيرة الأئمة الهادين، وأمر بإحياء العلوم والمدارس، مقربا للعلماء، متعهدًا لأحوال الفضلاء، مؤديًا لحقوق الضعفاء. متبعًا في أمره ونهيه لكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، وقام من إخوته وبني عمه بنصرته عظماء كالإمام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وكأخويه الحسن ابن الإمام المتوكل وعلى ابن الإمام المتوكل، ومن بني عمه السيدان العظيمان جمال الإسلام محمد ابن الإمام أحمد المهدي وشرف الإسلام الحسين ابن الإمام المهدي أيدهما الله تعالى، واستمر على سرير الخلافة، وما استطاع أحد خلافه، إلى أن ورد إلينا خبر وفاته أواسط سنة ١٠٩٧ سبع وتسعين وألف.

ثم كثر الشجار في كل ناحية، وطلبها عدة أشخاص في أماكن متناحية، ووقعت حروب وأهوال، وفنيت أموال وأبطال، حتى استقر عمود رحاها، وأسفر بدر ديجور رجاها، عن جمال وجودها الأمجد أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن أحمد،

فهو الآن الخليفة بهذا الزمن، في هذا القطر الشريف أعني قطر اليمن ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] : [من مجزوء الرجز]

سِلْسِلَةٌ مِنْ ذَهَبٍ مَنُوطَةٌ بِالشُّهُبِ
أَكْرِمْ بِهَا سِلْسِلَةً بَيْنَ وَصِيٍّ ونَبِي
قَدْ صَانَهَا رَبُّ السَّمَا مِنْ شَائِبَاتِ النَّسَبِ

وصلى الله على من لا نبي بعده خاتم النبيين، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الهداة المهتدين.

* * *

الباب الثالث
من خاتمة الخير
في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يوم تاريخه ولمع من أخبارهم، ونوادر حوادث أيامهم

مكة[١] زادها الله شرفًا، أشهر من أن تعرَّف أو أن يصفها واصف، إلا أنها انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى، فأقفرت من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موالي سود من الحبشة والزيلع.

وكان أول من وليها بعد الفتح المحمدي عتاب بن أسيد باستخلاف محمد ﷺ بعد الفتح [٢]، حين عزمه إلى غزوة حنين عام ثمان من الهجرة. والخلفاء الأربعة، ثم خلفاء بني أمية وعمالهم، ثم خلفاء بني العباس، وتعداد عمالهم فردًا فردًا مبسوط في التواريخ لا حاجة بنا إليه، وكان في خلال ذلك يتغلب بعض الطالبيين والعلويين عليها.

فأول من وليها منهم بالتغلب محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عاملاً عليها، ومؤمرًا من جهة محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، فإنه لما تغلب على المدينة الشريفة سنة خمس وأربعين ومائة في دولة المنصور العباسي، أمر

---

(١) اختلف في معنى تسميتها مكة فقيل: لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم وقيل لأنها تمك الفاجر عنها أي تخرجه، وقيل كانها تجهد أهلها من قولهم تمككت العظم إذا أخرجت مخه، وقيل لأنها تجذب الناس إليها من قولهم امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئا ، وقيل لقلة مائها .

وقد ذكر لمكة أسماء كثيرة منها: العروض والسيل ومخرج صدق والبنية وأم رحم وأم راحم وأم زحم وأم القرى والبلد والبلدة والبلد الأمين والبلد الحرام والرتاج والناسة والناشة وحرم الله تعالى وبلد الله تعالى وطيبة والقادس والمقدسة وقرية النمل ونقرة الغراب وقيل في أسمائها غير ذلك .

ينظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٤٧، ٤٨) .

(٢) ينظر: الإصابة (٤/ ٣٥٦)

على مكة محمد بن الحسن هذا وسيره إليها.

فخرج إليه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب أمير مكة من جهة المنصور، فتحاربا بأذاخر فهزم السري، ودخل محمد مكة، فأقام بها يسيرًا، فأتاه كتاب محمد النفس الزكية يخبره بمسير عيسى بن موسى لمحاربته، ويأمره بالمسير إليه، فسار محمد بن الحسن إليه من مكة، هو والقاسم بن إسحاق فبلغه وهو سائر بنواحي قديد قتل النفس الزكية فهرب هو وأصحابه وتفرقوا، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله المحض حتى قتل إبراهيم.

ذكر هذا ابن الأثير [١]، ورجع السري إلى ولاية مكة.

ثم وليها كذلك بالتغلب سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة في دولة الهادي بن الرشيد الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

وقد تقدم خبره في الباب قبل هذا عند ذكر الدعاة.

ثم وليها كذلك بالتغلب الحسين بن الحسن الأفطس بن على الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب - وهو المعروف بالأفطس - وذلك في خلافة المأمون سنة ١٩٩ تسع وتسعين ومائة، وسببه أن أبا السرايا السري بن منصور الشيباني داعية ابن طباطبا لما تغلب على العراق ولي مكة الحسين بن الحسن الأفطس هذا، فسار إلى أن وصل وادي سرف المعروف في وقتنا اليوم بالنوارية على نصف مرحلة من مكة فتوقف عن الدخول إلى مكة خشية من أميرها من جهة المأمون، وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، فلما بلغ داود توجيه أبي السرايا للحسين الأفطس فارق مكة هو ومن بها من شيعة بني العباس.

فلما بلغ الحسين خروج داود دخلها ليلة عرفة فطاف وسعى، ثم مشى إلى عرفة فوقف ليلا، ثم دفع إلى المزدلفة فصلى بالناس الصبح، ثم دفع إلى منى، فلما انقضى الحج عاد إلى مكة.

فلما كان مستهل محرم الحرام افتتاح سنة ٢٠٠ مائتين نزع الحسين المذكور كسوة

---

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٥/ ٥٤٢).

الكعبة التى كانت عليها من قبل المأمون ثم كساها كسوتين أنفذهما معه أبو السرايا من قز إحداهما صفراء والأخرى بيضاء، ثم عمد الأفطس إلى خزانة الكعبة، فأخذ جميع ما فيها من الأموال فقسمها مع كسوة الكعبة على أصحابه، وهرب الناس من مكة؛ لأنه كان يأخذ أموالهم ويزعم أنها ودائع لبنى العباس عندهم.

ولما هرب الناس هدم دورهم، فكرهه الناس لظلمه، وطغى أصحابه وبغوا، وقلعوا شبابيك البيوت الحديد التى على المسجد وباعوها حتى قلعوا شبابيك زمزم، ولم يزل كذلك على ظلمه إلى أن بلغه قتل مرسله أبى السرايا سنة مائتين، فلما علم بذلك ورأى الناس قد تغيروا عليه لما فعله معهم من القبيح واستباحة الأموال، جاء هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر الصادق الملقب بالديباجة لجمال وجهه وسألوه المبايعة له بالخلافة فكره ذلك، فاستعان الأفطس عليه بولده على بن محمد بن جعفر الصادق ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، وذلك فى ربيع الأول سنة مائتين، وجمعوا الناس على بيعة محمد طوعًا وكرهًا، وبقى أشهرًا وليس له من الأمر شيء، وإنما ذلك للأفطس ولابنه على بن محمد وهما على أقبح سيرة مع الناس، ووثب الأفطس على امرأة جميلة فانتزعها قهرًا من زوجها، وعلى بن محمد أخذ ابن قاضى مكة وحجزه عنده.

فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا بالمسجد الحرام، وقالوا لمحمد بن جعفر إن لم تحضر المرأة والصبى خلعناك، فأغلق بابه خوفًا من العامة وكلمهم من الشباك، ثم طلب الأمان ليخرج يخلصهما، فأعطى فخرج وخلص الصبى من ابنه على، والمرأة من الأفطس. كذا ذكره الأزرقى.

قلت: عندى فى صحة هذين الأخذين نظر، خصوصًا أخذ ابن الديباجة ابن قاضى مكة، فالنفس أبته كل الإباء، والله أعلم.

فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى قدم إسحاق بن موسى العباسى من اليمن فارًّا من إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، فنزل بالمشاش، واجتمع إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر المذكور، وجمع الناس من الأعراب وغيرهم وحفروا خندقًا وقابلهم إسحاق، ثم كره القتال، فسار إلى نحو العراق فلقيه جند أنفذهم هرثمة بن أعين قائد المأمون، وكان فيهم

الجلودى وورقاء بن جميل فقالا لإسحاق: ارجع معنا ونحن نكفيك القتال، فرجع معهما، ولقيهم محمد بن جعفر والطالبيون ببئر ميمونة، وقد انضم إلى محمد غوغاء مكة وسواد البادية، فلما التقى الفريقان قتل جماعة ثم تحاجزوا ثم التقوا من الغد، فانهزم محمد والطالبيون ومن معهم، ثم طلب محمد الأمان من الجلودى وإلا أجله ثلاثة أيام، فآمنه وأجله، ثم خرج من مكة، ودخل الجلودى مكة بالجيش فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة أعنى سنة ٢٠٠ مائتين.

وتوجه الديباجة إلى بلاد جهينة فجمع منها جيشًا وسار إلى المدينة، وقاتل واليها من جهة المأمون وهو هارون بن المسيب، فانهزم الديباجة أيضا، وفقئت عينه بنشابة، وقتل من عسكره خلق كثير، ثم عاد إلى مكة وطلب الأمان من الجلودى، فآمنه فدخل مكة فى أواخر ذى الحجة من السنة المذكورة فأصعده الجلودى المنبر، والجلودى فوقه بمرقاتين عليه قباء أسود، فاعتذر محمد بأنه إنما وافق على المبايعة؛ لأنه بلغه موت المأمون، ثم قدم على المأمون بـ « مرو » واعتذر واستعفى، فقبل عذره وعفا عنه وأكرمه، فلم يلبث قليلاً حتى مات فجأة بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل فى لحده وقال: هذه رحم قطعت مذ سنين.

وكان موته فى شعبان سنة ثلاث ومائتين. وسبب موته على ما قيل أنه جامع وافتصد ودخل الحمام فى يوم واحد.

وفى موسم سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين وليها كذلك بالتغلب إبراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر، جاء إليها من اليمن وعليها إسحاق بن موسى بن عيسى العباسى، فلما سمع بوصوله خندق عليها وبنى سورًا على الجبال دائرًا بالبنيان.

وكان فى السنة التى قبلها سنة إحدى ومائتين وصل إلى مكة صنم من ذهب على صورة إنسان لملك من ملوك الهند، أرسل به إلى الكعبة، وعلى رأس الصنم تاج مكلل بالجوهر والياقوت والزبرجد، والصنم جالس على سرير من فضة وعلى السرير أنواع الفرش من الحرير والديباج، فوضع السرير عليه الصنم فى وسط المسعى ثلاثة أيام ومعه معرِّف لمن كان له هذا الصنم وأنه أسلم وأرسل به هدية للكعبة فاحمدوا الله تعالى أن هداه للإسلام. ثم أخذ أمير مكة العباسى المذكور ذلك الصنم من الحجبة قهرًا وضربه دنانير وأنفقها على العسكر، وحارب إبراهيم بن

موسى فكسر الأمير وهرب ودخل إبراهيم بن موسى مكة.

ثم وليها فى سنة خمسين ومائتين فى خلافة المستعين بالتغلب أيضا إسماعيل بن يوسف الأخيصر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، فهرب منها عامل المستعين، وهو جعفر بن الفضل ابن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس المعروف بشاشات، قتل إسماعيل الجند الذين بمكة وجماعة من أهلها.

ونهب منزل جعفر شاشات وغيره وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها، وما جدد فى خزانتها من الأموال، وما كان أعد من المال لإصلاح العين، ونهب مكة وأحرق بعضها، ثم خرج منها بعد مقامه بها خمسين [يومًا] فى شهر ربيع الأول، وقصد المدينة الشريفة فتوارى عنه عاملها فظلم أهلها، وأخرب دورهم، وعطلت الجماعة من مسجده عليه الصلاة والسلام أكثر من نصف شهر، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى ماتوا جوعًا وعطشًا وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بدرهم والشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه بلاء شديدًا.

ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ووافى الموقف والناس بعرفات فقتل من الحجاج نحوًا من ألف ومائة نفس فهرب الحجاج ولم يقف بعرفة أحد ليلاً ولا نهارًا سوى إسماعيل وعسكره، ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة ثانيًا وأفنى أموالها وفعل أمورًا قبيحة لا حاجة بنا إلى ذكرها. كذا ذكره العلامة ابن جار الله، وقبله التقى الفاسى فى تاريخه «شفاء الغرام» (١). انتهى.

قلت: لا يظن ظان أن صدور هذا الفعل وشبهه من مثل هؤلاء السادة لنقص فى دينهم واختلال فى يقينهم حاشا وكلا، وإنما ذاك والله أعلم مما جرَّت إليه الحمية والأنفة والشهامة التى تناسب أقداسهم من استيلاء ولاة الجور على ما هم الأحقون به، فيقصدون بذلك ثلم وجوههم وتفريق جموعهم ما أمكن لتعديهم بأصل الدخول فى الخلافة، ولم ينعقد إذ ذاك إجماع على حرمة الخروج على أئمة الجور، فقد

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/١٨٦).

أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز الخروج على أبى جعفر المنصور منهم، وكذلك الإمام مالك رحمهما الله تعالى، وإنما انعقد الإجماع على ذلك بعد زمنهم بكثير هذا ما ظهر لجامعه الفقير. على أنى أعلم أن هذا الجواب ينسب إلى الإقناع، فلا يكن منك أيها الناقد لرأس الاعتراض إقناع.

ولم يزل العمالِ عليها من بنى العباس وشيعتهم والخطبة بها لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبنى سليمان بن داود ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

ذكر دولة السليمانيين
ومنهم آل أبى الطيب

قال ابن خلدون: وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان، وليس هو سليمان بن داود بن الحسن المثنى؛ لأن ذاك ذكر ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون وبين العصرين نحو مائة سنة فيبعد أن يكون محمد بن سليمان هذا هو محمد بن سليمان بن داود القائم بالمدينة، إلا أنه من ولده.

كان أول من خطب لنفسه منهم بالإمامة محمد بن سليمان سنة ٣٠١ إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر العباسى وخلع طاعة العباسية وخطب فى الموسم فقال:

الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببنى أعمامه. صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين. وكف عنهم ببركته إساءة المعتدين. وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين. ثم أنشد:
[من المجتث]

لَأَطْلُبَنَّ بِسَيْفِي ... مَا كَانَ لِلحَقِّ دَيْنَا
وأَسْطُوَنَّ بِقَوْمٍ ... بَغَوا وجَارُوا عَلَيْنَا
يُهْدُونَ كُلَّ بَلَاءٍ ... مِنَ العِرَاقِ إِلَيْنَا

وكان يلقب بالزيدى نسبة إلى نحلته من مذهب الإمامية، وبقى ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطى سنة ثنتى عشرة، وأسر أبا الهيجاء حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والأطفال

بالقفر، فهلكوا وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة منصورا الديلمى من مواليه فوافاه بمكة يوم التروية أبو طاهر القرمطى، فنهب الحاج، وقتلهم حتى فى الكعبة والحرام، وطم بئر زمزم بالقتلى والحجاج يصيحون: كيف تقتل جيران الله ووفاده؟ فيقول: ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه، ويتلو ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وصعد على عتبة الكعبة يقول: [من الرمل]

أَنَا بالله وبالله أَنَا يَخْلُقُ الخلقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

وكان يخطب لعبيد الله المهدى جد الخلفاء العبيديين نسبة إلى عبيد الله المذكور صاحب إفريقية، ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى « الأحساء » وهى مستقر ملكه، والأحساء هذه بناها أبو طاهر بعد أن خرب جده مدينة البحرين، ولنذكرهما وإن كان ذكرهما اعتراضًا فى البين.

أما البحرين: فإقليم واسع مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعُمان، شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشماليها بالبصرة، وجنوبيها عمان، كثيرة المياه ينبطونها على القامة والقامتين، كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر، منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم فى مساكنهم.

وكانت فى الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها الفرس، ثم صارت فى صدر الإسلام لبنى الجارود، ثم ملكها أبو سعيد القرمطى بعد حصار ثلاث سنين واستباحها قتلاً وإحراقًا وتخريبًا.

ثم بنى أبو طاهر القرمطى مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة فيها وهم أخلاط من الفرس، وبنى تغلب، وبنى عقيل، وبنى سليم. وكان بناؤها فى المائة الثالثة، وسميت بهذا الاسم - يعنى الأحساء - لكثرة أحساء المياه فى الرمال بها ومراعى الإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا فى الأقطار والشام والعراق ومصر والحجاز، وملكوا الشام وعمان.

ثم انقضت دولة القرامطة وغلبت على البحرين وما والاها بنو عامر بن عقيل، قال ابن خلدون قال ابن سعيد: والملك الآن منهم فى بنى عصفور.

ثم رجع: وقلع باب البيت وحمله، وأطلع رجلاً لقلع الميزاب فسقط ومات.

فقال: اتركوه فإنه محروس حتى يأتى صاحبه - يعنى المهدى المنتظر - فلما بلغ عبيد الله المهدى ما فعله كتب إليه ما نصه:

والعجب من كتبك إلينا ممتنًا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك فقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى أرضه يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك، ثم لعنك، السلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل فى يومه ما عمل فيه حساب غده.

فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولى أخوه القاهر.

وانقطع الحاج من العراق بعد هذه السنة إلى أن كاتب أبو على عمر بن يحيى الفاطمى سنة ٢٧ سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطى، فأطلق السبل للحاج على مكس أخذه منهم. وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله. فأجابه إلى ذلك وأخذ المكس من الحاج ولم يعهد مثله فى الإسلام.

وخطب فى هذه السنة بمكة للراضى بن المقتدر، وفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة لأخيه المتقى من بعده، ولم يصل ركب العراق فى هذه السنة من القرامطة.

ثم ولى المستكفى سنة ٣٣٣ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة على يد توزون أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج فى هذه السنة بمهادنة القرامطة بعهد أبى طاهر ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة بمعز الدولة بن بويه سنة ٣٣٤ أربع وثلاثين وثلاثمائة عند ما استولى معز الدولة على بغداد وعزل المستكفى واعتقل، ثم تعطل الحج بسبب القرامطة.

وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العبيدى صاحب إفريقية وخطابه فى ذلك لأميرهم أحمد بن أبى سعيد. ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة مع أمير العراق وأمير من مصر فوقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الإخشيد ملك مصر، فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل وفود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة جاء الحاج من بغداد ومن مصر؛ كان أمير الحاج العراقى محمد بن عبيد الله العلوى فمكر بأمير مصر وقال: نتفق على إفراد الخليفة ونترك صاحبى وصاحبك، فأجابه إلى ذلك، ثم جاء المنبر مستعدًّا وأمر بالخطبة لمعز الدولة بن بويه، فوجم الآخر وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور ويقال قتله.

ووقع معز الدولة بن بويه بعد موت أبيه والخليفة يومئذ المطيع، وسببه: أن سابور بن أبى طاهر قتل عمه أحمد بن سعيد الأمير القرمطى وكان مجمعًا على اعتراض ركب العراق وقطع الخطبة على ابن بويه بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين أولاد أبى طاهر وأولاد أحمد بن أبى سعيد فأصلح المطيع بينهم، وقدم عليه الحسن بن أحمد وخطب فى الموسم للمطيع وللحسن بعده بالإمارة.

وفى سنة ٣٦٠ ستين وثلاثمائة خلع الحسن بن أحمد القرمطى طاعة العبيديين وخطب للمطيع وبعث المطيع إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل عاملها من جهة العبيديين جعفر بن فلاح وخطب للمطيع، ثم وقعت الفتنة بين بنى الحسن أهل مكة وبنى الحسين أهل المدينة وزحف أهل المدينة مع أمير المعز لدين الله العبيدى صاحب مصر ليقيموا له الخطبة بمكة، فجاءت القرامطة مددًا لبنى حسن بمكة فانهزم أهل المدينة، ثم وقعت الفتنة بين بنى الحسن وبنى جعفر، وحصلت بينهم دماء، وبعث المعز العبيدى من أصلح بينهم، وتحمل ديات القتلى الفاضلة من مال المعز فمذ ملك مصر بادر جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكان بالمدينة فملك مكة ودعا للمعز العبيدى فكتب له المعز بالولاية.

ثم مات جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، فوليها بعده ابنه عيسى ابن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب. ودامت ولايته إلى أن مات سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

ثم ولى بعد عيسى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكانت ولايته سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ثم جاءت عساكر عضد الدولة الديلمى، ففر الحسن بن جعفر.

ولما مات المعز العبيدى وولى ابنه العزيز بعث إلى مكة أميرًا علويًا فخطب له بالحرمين. وفى سنة سبع وستين بعث العزيز العبيدى باديس بن زيرى الصنهاجى أميرًا على الحاج، واستولى له على الحرمين، وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة فى العراق بقتال ابن عمه بختيار فبطل ركب العراق، ثم عاد فى السنة التى بعدها وخطب لعضد الدولة أحمد الموسوى وانقطعت بعدها خطبة العباسيين من مكة، وعادت إلى خلفاء مصر إلى حين من الدهر، وعظم شأن أبى الفتوح واتصلت إمارته فى مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وثمانين ورغبه فى الطاعة ووعده باتصال الإمارة فى بنيه، فأنفذ أبو الفتوح الكتب إلى العزيز العبيدى صاحب مصر فأرسل إليه العزيز بالأموال والخلع فقسمها فى قومه، وكسا الكعبة بالبياض، ثم خاطبه القادر سنة تسعين وثلاثمائة فى الإذن لحاج العراق، فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر العبيدى، وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طى باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف الرضى أميرًا وأخوه المرتضى، فلاطفا ابن الجراح حتى خلى سبيل الحاج على أن لا يعود.

قال ابن خلدون: وفيها ولى المدينة المشرفة، وأزال عنها إمرة بنى المهنا الحسينى، ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة الأصفر التغلبى عند ملكه الجزيرة، فوعظه قارئان كانا فى الركب، ثم اعترضهم فى السنة التى بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم، ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعمائة إلى عماله بالبراءة من أبى بكر وعمر فنكر ذلك أبو الفتوح وامتعض له وخرج عن طاعته بسبب ذلك. كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت فى «شفاء الغرام» [١] للعلامة التقى الفاسى ما نصه: كان سبب عصيان أبى الفتوح عن طاعة الحاكم العبيدى أن الوزير أبا القاسم ابن المغربى لما قتل الحاكم أباه وأعمامه هرب من الحاكم، واستجار بكبير آل الجراح أمير طى فعند ذلك حسن لهم الوزير مبايعة أبى الفتوح بالخلافة، فمالوا إلى ذلك، فقصد الوزير أبو القاسم أبا الفتوح وحسن له طلب الخلافة، فاعتذر أبو الفتوح بقلة ذات يده، فحسن له الوزير أخذ ما فى الكعبة من المال فأخذه مع مال عظيم لبعض التجار

---

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

بجدة، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وبايعه بالخلافة شيوخ الحسينيين وغيرهم بالحرمين، وخرج من مكة إلى الرملة قاصدًا آل الجراح فى جماعة من بنى عمه، وألف عبد أسود ومعه سيف زعم أنه ذو الفقار، وقضيب زعم أنه قضيب رسول الله ﷺ، فلما قرب الرملة تلقته العرب، وقبلوا الأرض بين يديه، وسلموا عليه بالخلافة، ونزل الرملة ونادى بالعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فانزعج الحاكم العبيدى، وقطع الميرة عن الحرمين وما وسعه إلا الخضوع لآل الجراح لقوة شوكتهم، فاستمال حسان بن مفرج منهم وبذل له ولإخوته أموالاً جزيلة، فتخلفوا عن أبى الفتوح، فعرف أبو الفتوح ذلك، فاستجار بمفرج من الحاكم العبيدى، فكتب مفرج إلى الحاكم مستشفعًا لأبى الفتوح فشفعه فيه ورده إلى مكانه من إمرة مكة وراجع طاعة الحاكم العبيدى.

وقد كان الحاكم ولى على إمرة مكة عند عصيان أبى الفتوح أبا الطيب فى المدة التى خرج فيها عن طاعته، وأبو الطيب هذا هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبى الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب، ومن أحفاد أحفاده الأمير يحيى ابن الأمير المؤيد ابن الأمير قاسم بن غانم بن حمزة بن وقاص بن أبى الطيب بن عبد الرحمن المذكور. وذكر ابن حزم أبا للطيب هذا، وساق نسبه كما ذكرنا، ثم قال: كان لعبد الرحمن والد أبى الطيب اثنان وعشرون ذكرًا، فذكرهم، وذكر أبا الطيب منهم، ثم قال: سكنوا كلهم أذَنة حاشا نعمة وعبد الحكيم وعبد الحميد فإنهم سكنوا أمج بقرب مكة.

ولعل سكناهم أذَنة للخوف من أبى الفتوح بسبب تآمر أبى الطيب بعده بمكة حال خروج أبى الفتوح إلى آل الجراح.

ولم يحج من العراق فى هذه السنة أحد.

قال ابن السبكى: ولما كان موسم ثلاث عشرة وأربعمائة: جرت فيه كائنة غريبة هى: أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم العبيدى اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، فلما كان يوم الجمعة وهو يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء كأنه يريد تقبيله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟! إلى متى

يقبل؟!، ولا محمد ولا على فيمنعنى من ذلك فإنى أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه، وذلك أنه كان رجلاً طويلاً جسيمًا أحمر اللون أشقر الشعر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن أراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه قطعًا وحرقوه. وتتبعوا أصحابه فقتل منهم جماعة، ونهب أهل مكة ركب المصريين وتعدى النهب إلى غيرهم، ثم إنه سكن الحال، غير أنه سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار وبدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة محببًا مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمسك واللاذن واللَّك وحشوا بها تلك الشقوق التى بدت، فاستمسك على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله.

ولما بويع القائم العباسى سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة أمر أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب، وانحلال إمرة بنى بويه، ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر العبيدى.

ولما كان سنة ثلاثين وأربعمائة: تولى أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبنى سليمان وكانت مدة إمارته ثلاثًا وأربعين سنة.

ثم ولى بعده ابنه شكر بن أبى الفتوح، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك فى أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فكانت مدته ثلاثًا وعشرين سنة، ولم يعقب ولا ولد له قط، وقبل خلف بنتًا هى التى تزوجها محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم الآتى ذكرهم الآن.

وذكر ابن حزم أن عقب جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان انقرض، وأن مكة وليها بعد شكر عبد كان له لأنه قال وقد انقرض عقب جعفر المذكور لأن ابنه أبا الفتوح لم يكن له ولد إلا شكر ولم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد له. انتهى كلام ابن حزم.

قال العلامة محمد بن جار الله فى تاريخه «الجامع اللطيف»: ثم ولى بعد شكر بنو أبى الطيب الحسنيون وهم من جماعة شكر الذين يقال لهم: السليمانيون، ولم يذكر العلامة الفاسى عدتهم، وأما العلامة ابن خلدون فلم يذكر بنى أبى الطيب

أصلاً، بل ذكر بعد موت شكر استيلاء أول أمراء الهواشم أبى هاشم محمد بن جعفر ابن محمد أبى هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبى الكرم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب.

وعلى موت شكر انقرضت دولة بنى سليمان بمكة وجاءت دولة الهواشم.

ذكر دولة الهواشم

هؤلاء الهواشم من ولد أبى هاشم محمد بن الحسن بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبى الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، كانت بين هؤلاء الهواشم وبنى السليمانيين فتن متصلة. ولما مات شكر ذهبت الرئاسة من بنى سليمان؛ لأن شكرًا آخرهم ولم يعقب.

وتقدم فيهم طراد بن أحمد لم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه ورأيه وشجاعته، وكان رئيس الهواشم يومئذ أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد المذكور، وكان قد ساد فى الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت شكر فهزم الهواشم بنى سليمان، وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن وكان لهم به ملك، فاستقل بإمارة مكة الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن المذكور وخطب للمستنصر العبيدى.

ثم ابتدأ الحاج من العراق سنة ست وخمسين وأربعمائة بنظر السلطان ألب أرسلان بن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم العباسى ذلك فبذل المال وأخذ رهائن من العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الهدى الزينى نقيب الطالبيين،ثم جاور فى السنة التى بعدها واستمال الأمير أبا هاشم محمد بن جعفر المذكور عن طاعة العبيديين فخطب لبنى العباس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله عما فعل فرد الخطبة للعبيديين.

ثم خاطبه القائم العباسى وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له سنة ثنتين وستين وأربعمائة بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر العبيدى معتذرًا.

ثم بعث القائم العباسى أبا الغنائم الزينى نقيب المذكورين سنة ثلاث وستين وأربعمائة أميرًا على الركب العراقى، ومعه عسكر ضخم لأمير مكة من عند ألب أرسلان وثلاثون ألف دينار، وتوقيع بعشرة آلاف دينار واجتمعوا بالموسم، وخطب الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر للقائم العباسى فقال:

الحمد لله الذى هدانا أهل بيته إلى الرأى المصيب، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة. فانحرف المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدى صاحب مصر المذكور عن الهواشم ومال إلى السليمانيين، وكتب إلى على بن محمد الصليحى صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم على استرجاع ملكهم وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم.

وكان سعيد بن نجاح الأحول موتور بنى الصليحى قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصليحى، وهو فى سبعين رجلاً والصليحى فى خمسة آلاف فبيته بالمهجم وقتله. كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت فى تاريخ العلامة محمد بن جار الله بعد أن قال: ثم ولى بعد شكر بنو أبى الطيب: وهم الذين يقال لهم السليمانيون من جماعة شكر، ولم يذكر الفاسى [١] عدتهم.

قال: ثم ولى على بن محمد الصليحى صاحب اليمن وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فى شهر الحجة، وأظهر العدل بها، واستعمل الجميل مع أهلها، وكثر الأمن، وطابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار فى أيامه وكثرت له الأدعية، وكسا البيت ثوبًا أبيض، ورد للبيت الحلى الذى أخذه بنو أبى الطيب لما ملكوا بعد شكر، وأقام بمكة إلى ربيع الأول سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ثم ولى عنه نائبًا أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وسبب ذلك أن الصليحى لما دخل مكة كان الأشراف بنو أبى الطيب قد أبعدوا عن مكة وجمعوا عليه، ثم راسلوه بأن يخرج من مكة ويؤمر بها من يختار منهم، وكان قد وقع فى عسكره الوباء فمات منهم سبعمائة رجل ولم يبق إلا نفر يسير، فاختار أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وهو أول الهواشم، وأقامه نائبًا عنه وأمره على مكة واستخدم له عسكرًا، وأعطاه

---

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/١٩٦).

مالا وسلاحًا وخمسين فرسًا، ثم عاد إلى اليمن فجاء الأشراف بنو سليمان ومعهم حمزة بن أبى وهاص، وحاربوا محمد بن جعفر فحاربهم ولم يكن له بهم طاقة، فخرج هاربًا من مكة فتبعوه، فكر راجعًا، وضرب واحدًا منهم ضربة قطع بها درعه، وجسده وفرسه ووصل إلى الأرض فرجعوا عنه، وكان تحته فرس، يقال لها: دنانير لا تكل ولا تمل، وقيل: إنه كان صهر شكر على ابنته.

ثم عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها.

فهذا الذى ذكره ابن جار الله مخالف لما ذكره العلامة ابن خلدون مخالفة ظاهرة[1]. أما أولا: ففى تاريخه فإنه - أى ابن جار الله - ذكر أن إتيان الصليحى إلى مكة، وإقامته أبا هاشم محمد بن جعفر نائبًا عنه كان فى سنة ست وخمسين وأربعمائة، وأنه دخلها وأقام أبا هاشم محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم، والذى ذكره ابن خلدون: إن الصليحى أمره المستنصر العبيدى لما مال عن الهواشم إلى السليمانيين بسبب عدولهم بالخطبة عنه إلى العباسيين أن ينهض مع السليمانيين، ويعينهم على استرجاع ملكهم، وأرخ ذلك الأمر له بسنة اثنتين وستين وأربعمائة فهذا تخالف فى التاريخ.

وأما ثانيًا: فمخالفته من جهة المعنى، إذ كيف يؤمر بإعادة السليمانيين إلى ملكهم، وإزالة الهواشم عن مكة فيفر السليمانيون عن مكة، ويرسلون له أقم من تختاره منا فيقيم عليهم أبا هاشم وهو من الهواشم المغضوب عليهم من جهة مرسله المستنصر العبيدى، وكيف يفر السليمانيون عنه، وهو آت لنصرتهم، وإرجاع دولتهم إليهم من يد الهواشم، فما علمت وجه التوفيق بينهما فى ذلك والله أعلم.

وأيضًا لم يذكر ابن خلدون أن الصليحى دخل مكة، بل إنه لما انتهى إلى المهجم - اسم محل - هجم عليه سعيد بن نجاح الأحول فقتله.

وإذ قد انجر الكلام إلى ذكر الصليحى فلنذكر طرفًا من خبره ومبدأ منتهى أمره.

قال العلامة ابن السبكى: الصليحى هو على بن محمد بن على الصليحى. كان أبوه محمد قاضيًا باليمن ونشأ له هذا الولد فتوسم فيه بعض من عنده علم من الملاحم، وقال له: أنت تلى ملك اليمن، فاشتغل على هذا وحوى علومًا كثيرة،

---

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ٢٢٠، ٢٢١).

وحج بالناس دليلاً سنين متعددة. ثم توافق مع جماعة من أولاد رؤساء اليمن نحو الستين وخرجوا إلى رأس جبل منيع باليمن فحاصرهم الجند فى عشرين ألف مقاتل فلم يقدروا عليهم، ثم استفحل أمره وبنى برأس ذلك الجبل حصنًا منيعًا. ثم تدلى فأخذ البلاد بلدًا بلدًا حتى استحوذ على اليمن كلها وخطب بنفسه ودعا للخليفة المستنصر العبيدى واستمر كذلك نحوًا من ثلاثين سنة.

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة - كذا قاله ابن السبكى.

وقال ابن خلدون سنة اثنين وستين وأربعمائة - خرج فى طائفة من الجيش يريد الحج، فلما كان بالمهجم اعترضه سعيد بن نجاح الأحول صاحب التهائم، وكان الصليحى قد وتره فى أول دولته، فاعترضه سعيد هذا وأخوه حناش فى سبعين رجلاً مع كل رجل منهم جريدة فى رأسها مسمار، فنذر بهم الصليحى، فأرسل سرية فى ألفى مقاتل ليردوهم فاختلفوا فى الطريق فخلص إليه سعيد وأخوه فى أصحابهما، وهو على غرة فوصلوا إليه، وقتلوه بسيفه، وقتلوا جميع أقاربه، وكانوا نحو مائة وستين، ومالوا على بقية العسكر فقتلوا وأسروا، ورجعوا إلى اليمن فملكوه مع بلاد تهامة وهذا أمر لم يتفق مثله إلا نادرًا.

وكان مقتله عند قرية يقال لها: الرهيم وبئر أم معبد وليست بأم معبد السعدية.

قلت: ومن شعر الصليحى بيتان فى حفظى هما: [من الكامل]

أَنْكَحْتُ بِيضَ الهِنْدِ سُمْر رِقَابِهِمْ   فـرُءُوسُـهُـمْ دُونَ الـنِّـثَـارِ نِـثَـارُ
وكَذَا العُلاَ لا يُسْتَبَاحُ نِكَاحُهَا   إلاَّ بِـحَـيْـثُ تُـطَـلَّـقُ الأَعْـمَـارُ

ولما رجع سعيد بن نجاح برأس الصليحى منصوبًا فوق المظلة التى كانت يظلل بها فوقه إذا ركب فى جنده، قال فى ذلك أبو بكر العثمانى: [من الكامل]

بَكَرَتْ مِظَلَّتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَرُحْ   إلاَّ عَلَى الملكِ الأَجَلِّ سَعِيدِهَا
مَا كَانَ أَقْبَحَ وَجْهَهُ فى ظِلِّها   مَا كَانَ أحسَنَ رأسَهُ فى عُودِهَا

رجع: ولما عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها جمع أنجادًا من الأتراك فزحف بهم إلى المدينة فأخرج منها بنى الحسين، وجمع بين الحرمين. ثم مات القائم العباسى وانقطع ما كان يصل إليه منه، فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين، ثم جاء الزينبى من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدى سنة سبعين وأربعمائة منبرًا إلى مكة استجيد خشبه ونقش عليه بالذهب اسمه، وبعث على الحاج ختلغ التركى وهو أول تركى تأمر على الحج، وكان واليًا على الكوفة وقهر العرب من بنى خفاجة، فبعثه المقتدى أميرًا على الحاج فوقعت الفتنة بين العسكر العراقى والمصرى فكسر المنبر وأحرق، ثم عاود الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة عن المستنصر العبيدى وأعيدت للمقتدى العباسى واتصلت إمارة ختلغ على الحاج وبعده خمارتكين. إلى أن مات السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق لاختلاف ملوك السلجوقية وتغلب العرب.

ومات المقتدى العباسى خليفة بغداد وبويع ابنه المستظهر.

ومات المستنصر العبيدى خليفة مصر، وبويع ابنه المستعلى وخطب له بمكة.

واستمر هذا محمد بن جعفر متوليًا على مكة إلى أن مات سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة بعد أن قطعت نحو مائتى سنة بسبب استيلاء العبيديين على مصر والحرمين.

وذكر ابن خلدون: أن مدة إمارته على مكة ثلاث وثلاثون سنة، إلا أنه خرج منها هاربًا من التركمان الذين استولوا عليها سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

قال ابن الأثير: قال العلامة الفاسى: وهو أول من أعاد الخطبة العباسية ونال بسبب ذلك مالاً عظيمًا من السلطان ألب أرسلان السلجوقى، فإنه خطب له بعد القائم العباسى، ثم كان يخطب لابن ابنه عبد الله الملقب بالمقتدى العباسى حينًا، وحينًا للمستنصر العبيدى صاحب مصر يقدم فى ذلك من تكون صلته أعظم، ولعل ذلك بسبب إرسال التركمان إليه.

ثم ولى بعده ابنه القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن أبى هاشم فكثر اضطرابه، ومهد بنو زيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق، فاتصل حجهم وحج سنة ثنتى عشرة وخمسمائة نظر الخادم من قبل المسترشد العباسى بركب العراق، وأوصل الخلع، والأموال إلى مكة، وأمن الاضطراب الذى وقع فى ولايته استيلاء أصبهبذ بن سارتكين على مكة فى أواخر سنة سبع وثمانين، فهرب منها قاسم بن محمد المذكور، وأقام أصبهبذ بها إلى شوال، فجمع قاسم عسكرًا وكبسوا

أصبهبذ فانهزم إلى الشام ودخل قاسم مكة ودامت ولايته عليها إلى أن مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة. ومن شعر قاسم يصف قومه قوله: [من الكامل]

قَوْمِى إِذَا خَاضُوا العَجَاجَ حَسِبْتَهمْ لَيْلاً وخِلْتَ وُجُوهَهُمْ أَقْمَارَا
لا يَبْخَلُونَ بِزَادِهِم عَنْ جَارِهِمْ عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمُ أَوْ جَارَا
وإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمُ لِمُلِمَّةٍ بَذَلُوا النُّفُوسَ وفَارَقُوا الأَعْمَارَا
وإِذَا زِنَادُ الحَرْبِ أَذْكَتْ نَارَهَا قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ نَارَا

وكانت مدته ثلاثين سنة.

قال ابن خلدون: ثم ولى بعده ابنه فليتة وقيل أبو فليتة، فافتتح بالخطبة العباسية، وحسن الثناء عليه بالعدل ووصل نظر الخادم أميرًا إلى مكة على الحاج، ومعه الأموال والخلع، ثم استمر فليتة إلى أن مات سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته عشر سنين.

ثم ولى بعده ابنه هاشم بن فليتة واستمر متوليًا إلى أن مات سنة تسع وأربعين، وقيل إحدى وخمسين وخمسمائة، ولم يختلف عليه اثنان مدة ولايته.

ثم تولى بعده ابنه قاسم بن هاشم بن فليتة، والخطبة للعباسيين، وإمارة حاج العراق لنظر الخادم.

ثم كانت فتنة المسترشد العباسى مع السلطان مسعود السلجوقى، ومقتل المسترشد، وتعطل ركب العراق.

ثم حج نظر فى السنة بعدها، ثم انقطع الركب العراقى للفتن والغلاء، ثم حج سنة أربع وأربعين وخمسمائة نظر الخادم ومات فى طريقه. فولى مكانه قيماز، واعترضه رعب من الأعراب فنهب الركب واتصل حج قيماز.

ثم صنع المقتفى الخليفة العباسى بابًا للبيت مصفحًا أوصله نظر الخادم إلى مكة سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد الخليفة العباسى فخطب له قاسم بن هاشم الأمير المذكور كما كان يخطب لأبيه المقتفى، ثم قتل قاسم سنة ست وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد، قتلته الحشيشية، يقال كان ذلك بإشارة صاحب مصر وهو يومئذ العاضد العبيدى والمتغلب عليه.

ثم ولى بعده عمه عيسى بن فليتة، وحج العراق متصل.

وتوفى المستنجد الخليفة العباسى سنة ست وستين وخمسمائة.

وبعث المستضىء بن المستنجد بركب العراق طاشتكين التركى.

وانقضت دولة العبيديين، ووليها صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستولى على مكة واليمن وخطب له بالحرمين، ثم مات المستضىء العباسى سنة خمس وسبعين.

وبويع ابنه الناصر العباسى وخطب له بالحرمين.

ودامت ولاية عيسى بن فليتة على مكة نصف يوم؛ لأنه دخل مكة فى يوم عاشوراء سنة ست وستين وخمسمائة، وجرى بينه وبين عسكر أخيه عيسى فتنة إلى الزوال، ثم خرج. . . .، ثم أصلحا بعد ذلك.

ثم ولى بعده ابنه داود بن عيسى، واستمر إلى الليلة النصف من رجب سنة إحدى وسبعين فعزل، وسبب عزله أن أم الناصر الخليفة العباسى حجت فى زمنه ثم أنهت إلى ابنها الناصر عن داود ما اطلعت عليه من أحواله فعزله لذلك.

ثم ولى أخوه مكثر بن عيسى، واستمر إلى موسم هذه السنة ثم عزل، وجرى بينه وبين أمير الركب العراقى طاشتكين حرب شديد فى ذلك الموسم كان الظفر فيه لطاشتكين، وذلك أنه وصل الخبر إلى مكثر أن صحبة الحاج العراقى عسكرًا كثيرًا، وسلاحًا وعددًا، وأن معهم الأمير قاسم بن مهنا، فجمع مكثر الشرفاء والعرب، ولم يحج من أهل مكة إلا القليل، ولم يوف أكثر الحاج المناسك، ولم يبيتوا بمزدلفة، ولم ينزلوا بمنى، ولم يرموا، وإنما رمى بعضهم وهو سائر، ونزل الحاج يوم النحر الأبطح، فخرج إليهم ناس من أهل مكة، فحاربوهم فى بقية يوم النحر واليوم الثانى والثالث، فاشتد القتال على أهل مكة، وقتل من الفريقين جماعة، ثم هاجموا مكة على مكثر، فصعد إلى الحصن الذى بناه بأبى قبيس، فصعدوا وراءه، فتركه وسار عن مكة فدخلوها، وأمر أمير الحاج بهدم الحصن، ونهب غالب بيوت مكة، وأحرق دورًا كثيرة.

ومن عجيب ما جرى أن إنسانًا زراقًا ضرب دارًا بقارورة نفط فأحرقها، وكانت لأيتام فاحترق ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانًا آخر، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها، وبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات،

وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة المذكورة.

وتسلمت مكة إلى الأمير قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة، وكان وصل صحبة الحاج العراقى كما سبق خبره إلى مكثر؛ لأنه سافر إلى العراق فوليها الأمير قاسم بن مهنا المذكور بعد انهزام مكثر، فأقام متوليًا ثلاثة أيام، ثم رأى من نفسه العجز عن القيام بإمرة مكة فاستعفى فأعاد الأمير طاشتكين أمير الحاج المذكور داود بن عيسى إلى إمارة مكة، وشرط عليه شروطًا فى ترك المكوس، والعدل بين الرعايا، ولم تعلم ولاية داود هذه إلى متى استمرت، غير أنه يتداول هو وأخوه مكثر إمرة مكة، ثم انفرد بها مكثر عشر سنوات متواليات آخرها سنة ٥٩٧ سبع بتقديم السين وتسعين بتقديم التاء وخمسمائة، غير أن فى ولايته أو فى ولاية أخيه داود - على الشك - كان ممن ولى مكة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٨١ إحدى وثمانين وخمسمائة؛ لأنه قدم مكة فى هذه السنة ومنع الأذان بحى على خير العمل، وقتل جماعة من العبيديين المفسدين، وضرب السكة الدراهم والدنانير باسم أخيه السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وفر منه أمير مكة مكثر أو أخوه داود على الشك.

قلت: ذكر العلامة ابن جبير فى رحلته أنه رأى سيف الإسلام طغتكين المذكور داخلاً إلى الحرم الشريف.

قال: وشاهدته وعن يمينه مكثر، وعن يساره قاضى الشرع الشريف، ورأيت مكثرًا لابسًا ثوبًا أبيض، وعمامة من صوف أبيض، فطاف بالبيت والريس يدعو له إذا أقبل من الركن اليمانى حتى يجاوز مصلى جبريل موليًا، ثم يسكت، ثم يدعو إذا أقبل من الركن اليمانى، وهكذا فى كل شوط، فلما فرغ من صلاته فرش له خلف مقام الخليل شقة من كتان، فصلى عليها سنة الطواف، فاتضح - بما ذكره ابن جبير - أن الفار هو داود لا مكثر، فانتفى الشك الذي ذكره ابن جار في« تاريخه » .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة فى البحر على طريق عيذاب؛ لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرءوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، ومن دخل منهم ولم يفعل به ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة، ولو كان فقيرًا لا يملك

ـ السلطان صلاح الدين إسقاط ذلك وأن يعرض عنه أمير مكة، فقرر معه أنه يحمل إليه كل عام ألفى دينار وثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك أوقافًا وخلدها، فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وزال البؤس، وصار يرسل [الإنعام] للمجاورين بالحرمين من العلماء والفقراء.

ومدحه العلامة ابن جبير بقصيدة أولها: [من المتقارب]

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الحِجَازِ   بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الكَافِلِ

ثم ذكر ابن جبير شيئًا من أخبار هذا المكس، فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين وغير ذلك، وكانت هذه البلية فى مدة دولة العبيديين المتخلفين بمصر جعلوها معلومًا لأمير مكة فأزالها الله تعالى بعد أن أزالهم على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وعوّض أمير مكة ما تقدم ذكره.

وضعف أمر الهواشم وكان مكثر هو آخرهم، وكان أبو عزيز قتادة يناسبهم من جهة النساء، فورث أمرهم وملك مكة من أيديهم وطردهم عنها بالسيف.

وأما ما يسمع على الأفواه من أن الشريف قتادة إنما دخل مكة سابع عشر رجب فى عمرة ابن الزبير التى يخرج فيها كل أهل مكة رفيع ووضيع، فلم أطلع على أصل فى ذلك، وانقرضت دولتهم، والبقاء لله وحده لا شريك له فى ملكه سبحانه وتعالى.

ذكر بنى قتادة أمراء مكة بعد الهواشم إلى وقتنا هذا

كان من ولد موسى الجون الذين مر ذكرهم فى بنى حسن عبد الله أبو الكرم، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد: سليمان وزيد وأحمد، ومنه تشعب ولده.

فأما زيد فولده اليوم بالصفراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان ولده مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن عبد الله أبى الكرم.

وكان لمطاعن إدريس وثعلب. فالثعلبية شعب بالحجاز، وكان لإدريس ابنان: قتادة النابغة وصرخة.

فأما صرخة: فولده بينبع يعرفون بالشكرة.

وأما قتادة النابغة [1]: فكان يكنى أبا عزيز.

وكان من ولده على الأكبر وشقيقه حسن. فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وجماز.

وإمارة ينبع فى أعقابهم حتى الآن فيرجعون إلى إدريس بن حسن بن إدريس.

وأما أبو عزيز قتادة: فمن ولده بنو أبى نمى أمراء مكة لهذا العهد، وكان بنو الحسن بن الحسن كلهم متوطنين بنهر العلقمية من وادى ينبع لعهد إمارة الهواشم وكانوا ظواعن بادية.

ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوى مطاعن، وأركبهم الخيول، واستبد بإمارتهم، وكان بوادى ينبع بنو حراب من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وكان بها بنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون، فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة، فأخرجهم، وملك ينبع، والصفراء، واستكثر من الجند والمماليك، ثم استألف بنى محمد وبنى إبراهيم، وسار إلى مكة فانتزعها من أيدى الهواشم، وخطب للناصر العباسى، كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

فوليها الشريف قتادة: وهو أول من وليها من هذا الفخذ الشريف.

قال فى الوسيلة: وسبب طمعه فى ملك مكة ما بلغه من انهماك ولاتها الهواشم على اللهو، وتبسطهم فى الظلم، وإعراضهم عن صونها ممن يريدها بسوء اغترارا منهم بما هم فيه من العز والسيف لمن عارضهم فى مرادهم وإن كان ظلمًا، فتوحش عليهم بذلك خواطر جماعة من قوادهم، ولما عرف قتادة ذلك منهم استمالهم إليه، وسألهم المساعدة على ما يرومه من الاستيلاء على مكة، وبعثه على المسير إليها أن بعض الناس فزع إليه مستغيثًا به فى ظلامة ظلمها، فوعده بالنصر، وتوجه إلى مكة فى جماعة من قومه، فما شعر أهل مكة إلا وهو معهم بها، وولاتهم على ما هم فيه من اللهو والانهماك، فلم تكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها.

---

(١) ينظر ترجمته فى: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٦٥، أبى شـامه: ذيل الروضتين: ص ١٢٣، السلوك ١/ ٢٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٤٩ - ٥٠، الشذرات ٥/ ٧٦، التكملة للمنذرى ٣/ ١٧، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥٧، العقد الثمين ٣/ ٨ - ١٣، شفاء الغرام ٢/ ١٩٨ - ١٩٩.

وقيل: إنه لم يأت إليها بنفسه فى ابتداء ملكه، وإنما أرسل إليها ابنه حنظلة فملكها له، وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة بتقديم التاء فى اللفظتين، وخرج منها مكثر بن عيسى إلى وادى نخلة.

وفى سنة ستمائة مات مكثر بنخلة، وجاء ولد محمد بن مكثر، وقاتل حنظلة بن قتادة عند المتكا، ولم يحصل لمحمد ظفر، وتمت البلاد لقتادة، ذكر ذلك ابن محفوظ وابن فهد فى « إتحاف الورى بأخبار أم القرى» .

قال صاحب « عمدة الطالب فى مناقب آل أبى طالب » وهو العلامة السيد النسيب والشريف الحسيب أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن على بن مهنا الداودى الموسوى: كان قتادة جبارا فتاكا فيه قسوة وتشدد وحزم، وكان الخليفة فى زمانه الناصر العباسى، فاستدعى الناصر الشريف قتادة إلى بغداد ووعده ومناه فأجابه إلى ذلك، وسار إلى أن وصل إلى العراق ثم إلى المشهد الغروى، فخرج أهل بغداد لتلقيه، وكان ممن خرج فى غمار الناس رجل درويش معه أسد مسلسل، فلما نظر إليه الشريف قتادة تطير وقال: مالى ولبلد تذل فيها الأسود؟ فرجع من فوره إلى الحجاز. وكتب إلى الخليفة العباسى بقوله [من الطويل]

بِلاَدِى وَلَوْ جَارَتْ عليَّ مُرِيفَةٌ ... وَلَوْ أَنَّنِى أَعْرَى بِهَا وأَجُوعُ
وَلِى كَفُّ ضِرْغَامٍ إِذَا مَا بَسَطْتُهَا ... بِهَا أَشْتَرِى يَوْمَ الوَغَى وأَبِيعُ
مُعَوَّدَة لَثْمَ المُلُوكِ لِظُهْرِهَا ... وَفِى بَطْنِهَا للمُجْدِبِينَ رَبِيعُ
أَأَتْرُكُهَا تَحْتَ الرِّهَانِ وأَبْتَغِي ... بِهَا بَدَلاً إِنِّى إِذَنْ لَرَقِيعُ
ومَا أَنَا إلاَّ المِسكُ فى غَيْرِ أَرْضِكُمْ ... أَضُوعُ وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَأَضِيعُ

فلما وقف الناصر العباسى على هذه الأبيات استشاط غضبًا، وامتلأ حنقًا وحربًا.
وكتب إلى الشريف قتادة [كتابًا] يقول فيه:

أما بعد: فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون.

فلما قرأ الكتاب الشريف قتادة ارتاع لذلك أشد ارتياع. وأرسل إلى بنى عمه بنى الحسين بالمدينة يستنجدهم ويسألهم المعونة، وصدر الكتاب بقوله: [من الطويل]

بَنِى عَمِّنَا مِنْ آلِ موسَى وَجَعْفَرِ ... وآلِ حُسَيْنٍ كَيْفَ صَبْرُكُمُ عَنَّا

بَنِى عَمِّنَا إِنَّا كَأَفْنَانِ دَوْحَةٍ   فَلَا تَتْرُكُونَا يَتَّخِذْنَا الفَنَا فَنَّا
إِذَا مَا أَخٌ خَلَّى أَخَاهُ لآكِلٍ   بَدَا بِأَخِيهِ الأَكْل ثُمَّ بِذَا ثَنَّى

فأتته منهم رجال النجدة، ذوو العدد والعدة.

فلما أقبلت تلك الكتيبة الناصرية كسرها وبدد شملها وقهرها، فلما بلغ ذلك الناصر العباسى والى عليه الإنعامات الكاملة وأقطعه الإقطاعات الهائلة.

وذكر ابن الأثير[1] فى سنة إحدى وستمائة: كان الحرب بين قتادة الشريف أمير مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير.

وفى ذلك يقول الشريف قتادة: [من الطويل]

مَصَارِعَ آلِ المُصْطَفَى عُذْتِ مثلَ ما   بَدَأْتِ وَلَكِنْ صِرْتِ بَيْنَ الأَقَارِبِ

فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وكان الحرب بذى الحليفة.

وقد كان قتادة قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فحصرها مدة معلومة، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة الشريفة وصلى عندها، ودعا وسار إلى قتال قتادة، فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة، وحصرها وأرسل إلى قتادة يقول بعد أن حصرها المدة المعلومة: حصر بحصر يا ابن عم. فأرسل قتادة إلى من مع سالم فأفسدهم عليه فمالوا معه، فلما علم بذلك سالم رحل عنه عائدًا إلى المدينة.

ثم إن قتادة خرج لحرب ثقيف فتحصنوا بحصونهم فلم يقدر عليهم، فآمنهم وحلف، فحضروا عنده فقتل منهم طائفة من أكابرهم، واستخلف على بلادهم نوابًا من عنده، وعضدهم بعبيد له، فلم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة، فعند ذلك اجتمع أهل الطائف ودفنوا سيوفهم فى الرمل - وذلك فى المجالس التى جرت عادتهم بالجلوس فيها مع أصحاب قتادة - واستدعوا أصحاب قتادة وأوهموهم أن ذلك بسبب كتاب ورد عليهم، فلما اجتمعوا أخرجوا سيوفهم وقتلوا أصحاب قتادة عن آخرهم، ولم يسلم منهم إلا واحد وصل إلى قتادة وهو واله العقل لما شاهد من الهول، وكان ذلك فى سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وذكر الميورقى: أن فى هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله ﷺ لأهل الطائف لما

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (١٢/ ٢٠٥).

نهب جيش قتادة البلاد.

وذكر أبو شامة فى أخبار سنة تسع وستمائة قال: فيها قتل قتادة صاحب مكة إمام الحنفية وإمام الشافعية ونهب اليمنيين.

وذكر أيضًا فى سنة ثمان وستمائة نهبه الحاج العراقى وكان أمير الركب علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبى فراس يدبره.

وحج من الشام الصمصام إسماعيل، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل بن أيوب فى الحج، فلما كان يوم النحر بعد رمى الجمرة وثب بعض الإسماعيلية على رجل شريف من بنى عم قتادة أشبه الناس به وظنه إياه فقتله عند الجمرة، ويقال: إن الذى قتله كان مع أم جلال الدين، فثار عبيد مكة عند ذلك والأشراف، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثانى، وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبى فراس لمحمد بن ياقوت: ارحل بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة والعبيد، فأخذوا الجميع إلا القاتل، وقال قتادة: ما كان المقصود إلا أنا، والله لا أبقيت من حاج العراق أحدًا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلاخور سياروج وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقى فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرًا بها ومعه أم جلال الدين، فبعث قتادة يطلبه، فبعثت خاتون مع ابن السلاخور إلى قتادة تقول له: ما ذنب المسلمين؟ قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء فى الشهر الحرام فى الحرم، وقد عرفت من أنا، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن.

فجاء ابن السلاخور إلى قتادة فأخبره وخوفه عاقبة ما يروم وقال: إن فعلت غير ما فعلت قصدك الخليفة من بغداد ونحن من الشام، فكف عنهم، وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفًا من أمير [الركب] العراقى ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين جريح وقتيل ومسلوب وجائع وعريان، ويقال: إن قتادة أخذ من المتاع ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس فى الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء وطافوا، ومعظم الناس ما دخل مكة، ورحلوا إلى المدينة، ثم إنهم دخلوا إلى بغداد على غاية الفقر والذل والهوان.

وفى سنة تسع وستمائة: وصل من قبل الخليفة الناصر العباسى إلى قتادة مع الركب العراقى مَالٌ وخلعة وكسوة ولم يظهر له الخليفة إنكارًا على ما تقدم من نهب الحاج، وجعل أمير الحاج يتدرجه، ويخدعه بأنه لم يصح عند الديوان العزيز إلا أن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أطراف الحاج ولولا تلافيك لهلكوا، وقال له: يقول لك مولانا الوزير: وليس كمال الخدمة الإمامية إلا بتقبيل العتبة، ولا عز الدنيا والآخرة إلا بنيل هذه الرتبة. فقال الشريف قتادة: سأنظر فى ذلك ثم تسمع الجواب. واجتمع ببنى عمه الأشراف وعرفهم أن ذلك استدراج لهم وله حتى يتمكن من الجميع. ثم قال لهم: يا بنى الزهراء، عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية والاجتماع فى بطائحها، فلا يرغبونكم بالأموال والعدة والعدد، وقد عصمكم الله وعصم أرضكم بانقطاعها وإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس. ثم عاد أبو عزيز قتادة إلى أمير الركب العراقى وقال له: اسمع الجواب. ثم أنشده الأبيات المتقدمة، فقال له أمير الركب الشريف: يا شريف، حاشا الله أن أحمل مثل هذه الأبيات منك، وأنت ابن بنت رسول الله ﷺ والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركى لا أعلم من الأمور التى فى الكتب ما علمتَ، ولكنى قد رأيت أن هذا من سرف العرب الذين يسكنون البوادى، وترغاب قطاع الطريق، والله لا حملت هذه الأبيات عنك فأكون قد جنيت على بيت الله وبنى بنت نبيه، ووالله لو وصل إليه ما ذكرت لجعل سائر الوجوه إليك، ولكن لى رأى أعرضه عليك، فأصغى إليه أبو عزيز وعلم أنه رجل عاقل، قال: الرأى أن ترسل أحد أولادك من لا تهتم له إن جرى عليه ما تتوقعه، ومعاذ الله أن يجرى عليه إلا ما تحبه، وترسل معه جماعة من ذوى الأسنان والهيئات، فيدخلوا مدينة السلام وفى أيديهم أكفانهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقبلون العتبة، ويتوسلون بالنبى ﷺ، وبصفح أمير المؤمنين، وسترى ما يكون من الخير لك وللناس. قال: فشكره قتادة ووجه صحبته ولده راجح بن قتادة، وأشياخ الشرفاء، ودخلوا بغداد على تلك الهيئة التى ذكرها، وهم يضجون ويتضرعون ويبكون، والناس يبكون لبكائهم، فاجتمع الخلق كأنه المحشر، ومالوا إلى باب النوبة من أبواب مدينة الخليفة، فقبلوا هنالك العتبة.

وبلغ الخبر الناصر العباسى فعفا عنهم وعن مرسلهم، وأنزلوهم فى الديار

الواسعة، وأكرموا الكرامة التى ظهرت، واشتهرت وعادوا إلى أبى عزيز بما أحب، فكان بعد ذلك يقول: لعن الله أول رأى عند الغضب، ولا عدمنا عاقلاً ناصحًا يثبتنا عنده.

قال المنذرى فى « التكملة » [(١)]: كان قتادة المذكور مهيبًا وقورًا قوى النفس شجاعًا مقدامًا فاضلاً له شعر، تولى إمرة مكة، رأيته بها يطوف بالبيت، ويدعو بتضرع وخشوع، والريس على زمزم يدعو له وهو كالأسد شجاعة والقطب خشوعًا وتضرعًا والبدر كمالاً وبهاء.

وكان مولده بوادى ينبع وبه نشأ. وكانت مملكته قد اتسعت من حدود اليمن إلى خلف مدينة النبى ﷺ، وكثر عسكره واستكثر من المماليك، وخافته العرب فى تلك البلاد خوفًا عظيمًا، وسار فى مكة سيرة حسنة، وأزال عنها العبيد المفسدين، وحمى البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقى كذلك مدة، ثم أساء السيرة وجدد المكوس وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحجاج، وكان يخطب للناصر أحمد العباسى ابن المستضىء، ثم يخطب لنفسه بالأمير المنصور، ودام ملكه نحو سبع وعشرين سنة.

وكان وراثه الملك عن مكثر بن عيسى الذى ورثه من آبائه الهواشم، ولم يكن أبو عزيز من الهواشم إلا من جهة النساء.

ثم زاد ظلم قتادة فى الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم، وأظهر التعدى حتى ضج الناس وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسى، فارتفعت الأيدى بالدعاء عليه، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة.

وكان قتله فى جمادى الأولى، هكذا ذكره أبو شامة فى سنة ٦١٧سبع عشرة وستمائة.

وقال المنذرى [(٢)]: بل فى جمادى الأخرى من سنة ٦١٨، ثم استقر بعده فى ملك مكة ابنه حسن بن قتادة. قيل قتله خنقًا.

وسبب قتله: أن قتادة جمع جموعًا وسار من مكة يريد المدينة الشريفة فنزل

---

(١) ينظر: التكملة لوفيات النقلة للمنذرى (٣/١٧) ت (١٧٤٩).

(٢) ينظر: تكملة المنذرى (٢/١٨٦).

بوادى الفرع، وهو مريض وبعث أخاه على الجيش ومعه ابنه حسن هذا، فلما بعد وأبلغ حسن أن عمه قال لبعض الجند: إن أخى قتادة مريض وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعده.

فلما بلغ الحسن ذلك أرسل إلى عمه من خنقه وخرج للناس فى الحرم، وطلب الأشراف ووجوه الناس، وقال لهم: إن أبى اشتد به المرض وأنا أحب أن تبايعونى،فبايعوه وحلفوا له، فأحضر تابوتًا مغطى وقال: هذا أبى مات. وكان قد دفنه ليلاً.

فلما استقرت الإمارة لحسن، وثبتت قدمه أرسل إلى أخيه، وكان بينبع وطلبه ولم يخبره بحال أبيه، فلما وصل إليه قتله، وكان له أخ اسمه راجح كانت بينهما مباينة أقام فى الأعراب هاربًا بظاهر مكة حتى كان من أمره مع آق باش أمير الركب العراقى ما كان كما سيأتى قريبًا.

ولما بلغ قتادة قتل حسن لعمه قامت قيامته وحلف ليقتلن حسنًا، فبلغ ذلك حسنًا، فدخل على أبيه بعد عوده من المدينة، فبالغ قتادة فى ذمه وتهديده، فوثب إليه حسن، واستعان بغلام وجارية كانا يخدمان أباه فأمسكا يديه، فقتله خنقًا ثم قتلهما ليخفى سبب قتله، وقيل بل قتله سمًا. فهذا سبب قتل حسن أباه قتادة.

وكانت وفاته كما تقدم فى جمادى الآخرة عام ٦١٧ سبع عشرة وستمائة أو ثمان عشرة، والأول هو الذى رأيته أكثر.

وكان قتادة يقول: أنا أحق من الناصر العباسى بالخلافة، وكان فى زمنه فى المسجد يؤذن بحى على خير العمل، ومدة عمره نحو سبعين سنة.

ومدة ولايته من سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة إلى سنة ٦١٧ سبع عشرة وستمائة.

ولما وصل الملك المنصور صاحب اليمن أمر بنبش قبر قتادة وإحراقه لما فعل من نهب اليمنيين، فوجدوا فى القبر تابوتًا ليس فيه شيء، فعرف الناس بذلك أن حسن قتل أباه ودفن التابوت فى قبر آخر ليخفى قبره على الناس.

وكان لقتادة من الولد راجح وهو الأكبر الذى فر إلى الأعراب بظاهر مكة كما تقدم، وحسن وعلى الأكبر جد الأشراف المعروفين بذوى على، وعلى الأصغر جد

أبى نمى جد الأشراف الذين كانوا ولاة خليص، وهم الآن ولاة مكة، ألا ترى أن عجلان بن رميثة بن أبى نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على هذا الأصغر بن قتادة، ولكل من هؤلاء ذرية وأعقاب.

ومما صنع الشريف قتادة أن أدار على مكة سورًا من أعلاها؛ ليحفظها عمن يريدها بسوء.

ثم وليها الشريف حسن بن قتادة عام سبع عشرة وستمائة، ووقع فيها قتال بينه وبين آق باش أمير الركب العراقى، وهو مملوك تركى للناصر العباسى عقد له الولاية على مكة وعلى كل بلد يدخلها، ومعنى آق باش: أبيض الرأس.

وسبب القتال أنه لما ورد آق باش المذكور أميرًا، تعرض راجح لقطع الطريق بين مكة وعرفة، فأمسكه الأمير المذكور، فأرسل أخوه حسن إلى الأمير موعدًا له بمال جزيل أن يسلم إليه أخاه راجحًا، فبلغ ذلك راجحًا، فقال للأمير: أنا أعطيك أضعاف ما وعدك فأعنى على ولاية مكة، فوعده بذلك، فأرادا جميعًا دخول مكة فمنعهما حسن ووقع الحرب، فصعد آق باش على جبل عرفة بما عنده من المنعة، فأحدقت به أعراب الشريف حسن فقتل، وعلق رأسه فى ميزاب الكعبة، وقيل: رفع على رأس رمح بالمسعى، وأرسل يعتذر إلى دار الخلافة، كذا فى « عمدة الطالب» .

وفى موسم تسعة عشرة وستمائة وليها الملك المسعود يوسف من بنى أيوب، وصل إليها وكان قد تفرق عن حسن والأشراف، لشحه ولم يبق عنده إلا جماعة من عشيرته.

وجاء مع صاحب اليمن المذكور أخو الشريف حسن الشريف راجح بن قتادة فتقاتلا بالمسعى، فانكسر حسن وفارق مكة فنهبها الملك المسعود، وراجح حتى سلبوا الناس أشياء من على أجسادهم، وولى الملك المسعود راجح بن قتادة حليا ونصف المخلاف، وأمر المسعود بنبش قبر قتادة فلم يجدوا إلا التابوت كما تقدم ذكر ذلك، وعمل المسعود فى مكة من المنكرات ما لم يُرَ.

منها: أنه يطلع على قبة زمزم، ويرمى الحمام بالبندق، ويجلس عبيده بالمسعى فيضربون أرجل الناس بالسيوف يقولون: إن السلطان سكران نائم، امشوا قليلاً قليلاً لئلا توقظوه. كانت داره على المسعى تسمى دار السلطنة، وكانت تسمى دار القوارير.

قلت: عثرت فى بعض التواريخ أن محلها كان محل المدرسة القايتبائية الآن. انتهى.

ثم خرج من مكة واستناب عليها نور الدين على بن رسول الغسانى الملقب بالملك المظفر ورتب معه ثلاثمائة فارس، وولى راجحًا حليًا وأعمالها.

ثم وصل حسن بجيش عظيم من الينبع إلى مكة سنة عشرين وستمائة فخرج إليه أميرها على بن رسول المذكور، فكسره على بن رسول، فتوجه إلى الشام فلم ير بها وجها ولم يفلح بعد قتل والده وعمه، وقد دعا عليه أبوه قتادة فى قصة اتفقت له نقلها الزنجانى وزير أبيه الشريف قتادة هى: أنه كان الشريف قتادة بالحرم الشريف مع الأشراف فهجم عليه ولد لولده حسن وترامى فى حجره مستجيرًا، وإذا بوالده حسن يشتد فى إِثره حتى ألقى يده فى شعره وجذب الصبى من حجر جده. فاغتاظ الشريف قتادة، وقال الحسن: هكذا ربيتك، ولهذا ادخرتك؟ فقال حسن: ذاك الإخلال أوجب هذا الإدلال.

فقال الشريف قتادة: ليس هذا بإدلال ولكنه إذلال، وانصرف حسن بولده ففعل فيه ما اقتضاه عقله، فالتفت الشريف قتادة إلى الأشراف، وقال لهم: والله لا أفلح هذا، فلم يمر به إلا زمن يسير حتى قتل أباه وذاق عقوبة العقوق والقطيعة، ثم توجه إلى العراق، فلم ير بها وجهًا، بل أرادوا قتله بسبب قتله آق باش الناصرى مملوك الخليفة الناصر العباسى فى الواقعة التى جرت فى أيامه بمكة زمن الحج، فخرج منها خائفًا، ولم يزل طريدًا شريدًا خائفًا إلى أن وصل بغداد، فأدركه أجله فى الجانب الغربى على دكة،فلما علم به غُسِّل وصُلِّى عليه، وحمل فدفن فى مشهد موسى الكاظم سامحه الله تعالى، هذا حاصل ما ذكره المؤرخون فى مصنفاتهم مفرقًا غير مجتمع فى كتاب ولا مستوفى، جمعت ما ذكروه، وسقته مجتمعًا كل حديث فى محله، وكل فرع إلى أصله، وكل نوع إلى جنسه وشكله. وهذا شأنى فى ترجمة كل واحد من هؤلاء السادة الأعلام، أذكرها كافلة للمرام، بعون الملك العلام.

على أنى لا أخلو من قول جاهل خامد، أو فاضل حاسد، أو مبغض جاحد: هل زاد على الجمع؟ وما درى أنه تفطير للفؤاد تقطير للدمع، إذ تتبع ذلك من مظانه المتفرقات، وضم شمل القصة وسبكها فى ألطف قالب من العبارات، يعرف قدره

من أشرق فى أفق الفضل وما غاض بدر تمه، ولا يجحد حقه إلا كل عاض بظر أمه.

على أن لى فيه فلتوتات، كأنها ياقوتات، ينظرها بنور العدل والإنصاف، زاكى السريرة ذاتًا وسمى، ويتخوّنها من عم بصره وبصيرته عمه وعمى.

لكن الأعمال بمقاصدها، والله عالم بصحيح النية من فاسدها.

ولم تزل مكة فى ولاية الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، ونائبه عليها نور الدين على بن رسول إلى سنة خمس وعشرين وستمائة، فتوفى الملك المسعود بعد أن فلج ويبست يداه ورجلاه، ورأى فى نفسه العبر، نعوذ بالله من سوء قضاه.

وفيها وصل إلى مكة جيش من صاحب مصر وعلى الجيش طغتكين ومعه مائتا فارس، ففر منها نائبها نور الدين على بن رسول نائب الملك المسعود، وأنفق طغتكين على أهل مكة نفقة جيدة، وحلفهم، وتوثق منهم.

فلما كان سنة سبع وعشرين وستمائة وصل إلى مكة جيش صاحب اليمن على بن رسول الغسانى وصحبته السيد راجح بن قتادة، فنزلوا بالأبطح وحصروا مكة، وأرسل الشريف راجح إلى أهل مكة يذكرهم إحسان السلطان نور الدين أيام نيابته بمكة عن الملك المسعود، فمال رؤساء مكة إليه، فلما أحس بذلك الأمير طغتكين خاف على نفسه فخرج خائفًا وقصد وادى نخلة، فدخل راجح ومن معه.

فوليها الشريف راجح بن قتادة وكان أمير الجيش يسمى ابن عبدان، فدخل إلى مكة واستولى عليها وخطب للملك المنصور ابن الملك المسعود.

وتوجه طغتكين إلى ينبع وكان بها رتبة للكامل صاحب مصر الأيوبى، فأقام هناك، وعرف الكامل بالخبر، فجهز جيشًا كبيرًا من مصر، وأمر صاحب الينبع، وصاحب المدينة أن يخرجا مع ذلك الجيش إذا وصل إليهما، ففعلا، ووصلوا إلى مكة جميعًا فى رمضان، وحاصروا راجحًا وابن عبدان وقاتلوهما فانكسروا، واستولى على مكة أميرها الأول طغتكين، فقتل من أهل مكة خلقًا كثيرًا وأنهبت ثلاثة أيام وأظهر حقده عليهم، وأخافهم خوفًا شديدًا.

وفى سنة ثلاثين وستمائة جمع الشريف راجح جموعًا عظيمة، وأمده الملك المنصور صاحب اليمن بعساكر، فقدم مكة، وطرد طغتكين وعسكر الملك الكامل

صاحب مصر، فلما علم بذلك الكامل جهز عسكرًا فى شوال سبعمائة فارس، فلما أن وصل الحاج واتضح أمر العسكر خرج الشريف راجح من مكة فدخلها العسكر المصرى من غير محاربة وطيبوا قلوب أهلها وعدلوا فيهم وأحسنوا، وحج بالناس أمير يسمى الزاهد، وترك فى مكة أميرًا يقال له ابن مجلى فى خمسين فارسًا أقام بمكة فعدل وأحسن السيرة.

وفى سنة إحدى وثلاثين: جهز الملك المنصور صاحب اليمن إلى السيد راجح عسكرًا جرارًا، وخزانة عظيمة، فنهض راجح ومن معه من العسكر، ودخلوا مكة، وأخرجوا ابن مجلى ومن معه، فلما أن وصل الحاج سمع الشريف راجح أن الملك الكامل حاج على النجب لوعد بينه وبين الخليفة العباسى، فخرج راجح من مكة فتغير عليه خاطر الملك المنصور، فلما رجع الملك الكامل عاد راجح إلى مكة وكان بها غلاء عظيم، سموه غلاء ابن مجلى.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: وصل من صاحب مصر عسكر ألف فارس، فخرج الشريف راجح إلى اليمن، فجهزه الملك المنصور بخزانة وعسكر أيضًا، وأرسل قناديل ذهب وفضة لتعلق فى جوف الكعبة فلم يقدر راجح ومن معه لمقاومة العسكر المصرى فلم يدخل، فلما سمع بهم العسكر المصرى خرجوا إليهم من مكة، فالتقوا بمحل يقال له الخلف والخليف، فانهزمت الأعراب أصحاب راجح، وأسر أمير عسكره ابن عبدان فقيد، وأرسل به إلى مصر.

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة خرج السلطان نور الدين على بن رسول من اليمن قاصدًا مكة فى ألف فارس، وأرسل للجند الذين بمكة أن كل من جاء إليه يعطيه ألف دينار وحصانا وكسوة، فمال إليه كثير من الجند، وآثروه على مولاهم، ووفى لهم بما وعدهم، وأرسل إلى الشريف راجح، فتلقاه من أثناء الطريق، فقدمه صحبة ثلاثمائة فارس من أهل النجدة من عسكره، وأعطاه النقارات والكئوسات، وتقدم إلى مكة.

فلما تحققت عساكر مصر وصول السلطان أحرقوا ما كان عندهم من الأثقال والأقوات، وخرجوا من مكة، فأرسل الشريف راجح يبشر السلطان نور الدين بما وقع، فأحرم بعمرة ودخل مكة فى رجب، وتصدق على أهل مكة بأموال جزيلة.

وفى ذلك العام مات الكامل صاحب مصر، فخطبوا للملك المنصور ابن الملك المسعود صاحب اليمن.

وفى سنة سبع وثلاثين وستمائة: أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل إلى مكة ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم الحسينى أمير المدينة الشريفة، فلما سمع بهم راجح ومن معه من عساكر الملك المنصور، فروا إلى اليمن وأخلوا مكة، فدخلها شيحة وملكها ونهبها، فلما بلغ ذلك المنصور صاحب اليمن جهز السيد راجحًا بعسكر معه إلى مكة، فلما أحس بهم الحسينى فر هاربًا من مكة وأخلاها.

وفى موسم سنة تسع وثلاثين وستمائة دخل من صاحب مصر عسكر إلى مكة، فلما بلغ صاحب اليمن تجهز، وخرج إلى مكة بجيش كثيف، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين على بن رسول الغسانى، وصام رمضان، وأقام بها وأبطل المكوس والجبايات والمظالم، وكتب ذلك فى رخامة مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود فى حائط زمزم، وأرسل يطلب أبا سعيد الحسن بن على بن قتادة من ينبع، فلما أتاه أكرمه وأنعم عليه، فاستخدمه على مكة، واشترى منه قلعة الينبع وأمر بخرابها لأجل أهل مصر، وأبقى عنده مملوكه ابن فيروز، والأمير فخر الدين بن السلاح، فأقام ابن السلاح أميرًا سبع سنين، فولى بعده الأمير ابن المسيب سنة خمس وأربعين.

وفى سنة ست وأربعين وستمائة ولى مكة الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة، وذلك أن الملك المنصور قبل ذلك لما دخل مكة أقام أبا سعد هذا بوادى مر ليساعد عسكره الذين أقاموا بمكة، فحسن مشايخ العرب من زبيد وغيرهم لأبى سعد الحسن بن على بن قتادة أخذ مكة والاستيلاء عليها، والفتك بمن فيها من العسكر اليمنى، وهونوا عليه أمرهم، وكانوا فرقتين، فرقة تخرج إلى أعلى المعلاة، والفرقة الأخرى تخرج إلى أسفلها هكذا كل يوم. فحمل أبو سعد على إحدى الفرقتين، فكسرها فضعفت الأخرى، فقبض على ابن المسيب وأخذ خيله وعدده ومماليكه، واستولى على مكة، وأحضر الأعيان من أهلها، وقال: ما لزمته إلا لتحققى خلافه ونيته الخروج على الملك المنصور صاحب اليمن، والذهاب بهذا المال إلى

العراق، والمال عندى محفوظ إلى أن يصل مرسوم السلطان فأسلمه إليه، فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بموت الملك المنصور على بن رسول، فقوى أمر أبى سعد الحسن بن على بن قتادة المذكور، فخرج الشريف راجح من مكة لما رأى أن ابن أخيه أبا سعد الحسن المذكور استولى عليها، وسكن المحل المعروف بالواديين.

وكان الشريف الحسن هذا شجاعًا جلدًا كريم الأخلاق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، وكانت أمه حبشية، ووقع له معها أنه حارب بعض العرب، فلما تراءى الجمعان، جاءته فى هودجها فقالت له: اعلم أنك وقفت فى موقف إن ظفرت أو قتلت قالت الناس: ظفر ابن رسول الله أو قتل ابن رسول الله، وإن هربت قالوا: هرب ابن السوداء، فانظر أى الأمرين تحب أن يقال. فقال لها: جزاك الله خيرًا لقد نصحت فأبلغت، ورجع فقاتل حتى ظفر، فقال الناس كما قالت. ودامت ولايته على الحجاز نحو أربع سنين وأشهر إلى أن قتله ابن عمه جماز ابن حسن بن قتادة لثلاث خلون من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقيل فى شهر رمضان، وقيل: فى شوال.

وأبو سعد هذا هو والد عبد الكريم جد الأشراف ذوى عبد الكريم ووالد أبى نمى صاحب مكة الآتى ذكره.

كان الشريف أبو سعد هذا فاضل الأخلاق، طيب الأعراق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، له الشعر الرائق والنثر الفائق، فمن شعره القصيدة المشهورة: [من المتقارب]

خُذُوا قَوَدِى مِنْ أسيرِ الكللْ ... ...

نسبها العلامة الفاسى إليه.

والمشهور أنها لابن مطروح والشهرة تساعده.

قال: إلا أن فى القصيدة أبياتًا ترجح أنها لأبى سعد لأن إنشاءها إنما يليق بالملوك، منها قوله فيها: [من المتقارب]

وإنْ قِيلَ إنِّى غَدًا مَيِّتٌ ... بِأَيْدِى الصَّبَابَةِ ظُلْمًا فَهَلْ
تَموتُ نفوسٌ بِآجَالِها ... وَنفسى تَمُوتُ بِغَيْرِ الأجَلْ
فَلَيْتَ إذَا مَا أَتَانِى الحِمَامُ ... يُؤَخِّرُ عَنِّى الإلهُ الأجَلْ

لأنِّى غيُوثٌ إِذَا الغَيْثُ مَلّ ويَـوْمَ الِكفَاحِ أُرَوِّى الأَسَلْ

فيحتمل ويحتمل والله أعلم.

قلت: الاستدلال على أنها لأبى سعد بأن فيها أبياتًا لا يليق إنشاؤها إلا بالملوك استدلال لا ينهض، إذ كل كريم شجاع يسوغ له أن يتمدح ويقول عن نفسه ذلك، بل صناعة الشعر ومبالغاته تسوغ للشاعر القول، وإن لم يتصف بإنالة نائل ولا طول طائل.

ثم وليها جماز بن حسن بن قتادة فى رمضان من السنة المذكورة.

وذلك أنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة، قدم الشريف جماز هذا بعسكر من عند الناصر بن العزيز بن الظاهر بيبرس، ووعده أن يخطب له بمكة، فأمده بعسكر صحبة الركب الشامى، فتقدم أمام الركب ودخل مكة فى رمضان من السنة المذكورة، واستولى على مكة وقتل ابن عمه أبا سعد الحسن بن على بن قتادة وحج بالناس، ثم نقض عهد الناصر، ولم يخطب له، وخطب للملك المظفر بن المنصور بن المسعود صاحب اليمن، فلما كان آخر يوم من ذى الحجة من السنة المذكورة قدم عمه راجح بن قتادة ففر منه جماز بلا قتال إلى ينبع.

ثم وليها راجح بن قتادة وكان بمكة غلاء عظيم، وعطش بيعت شربة الماء بدرهم والشاة بأربعين درهما، واستمر إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فلما كان شهر ربيع الأول منها هجم عليه ابنه غانم بن راجح، وأخرجه من مكة بلا قتال.

فوليها غانم بن راجح فى شهر ربيع الأول، واستمر إلى شهر شوال من السنة المذكورة.

ثم وليها أبو نميّ بن أبى سعد بن قتادة، وعمه إدريس بن حسن بن قتادة، وأخرج غانم بن راجح منها.

وأبو نمى هذا: هو والد أبى سعد الحسن المذكور، وذلك أنه فى شوال آخر السنة المذكورة أعنى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل وصول الحج إلى مكة قدم الشريف أبو نمى، وعمه إدريس وأخذا مكة من غانم بن راجح بعد قتال شديد قتل فيه من الأشراف ثلاثة.

فلما كان أول الحجة وصل من جانب الملك المظفر صاحب اليمن عسكر عليه

أمير ابن برطاش فبرز له الأشراف أبو نمى وإدريس ومن معهما إلى خارج مكة، وتقاتلوا بالسرحة من قوز المكاسة، وكان معهم الشريف جماز بن شيحة، فقتل بين الصفين خلق كثير، وانهزم الأشراف، ودخل مكة عسكر الملك المظفر.

وفى عام ثلاث وخمسين وستمائة جمع الشريف أبو نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة، وعمه الشريف حسن بن قتادة جمعًا عظيمًا، وقصدوا مكة فدخلوها من رءوس الجبال، وتقاتلوا وسط مكة هم وعسكر الملك المظفر صاحب اليمن فقتلوا غالب العسكر، وأسروا الأمير ابن برطاش، وسفكت الدماء بالحرم الشريف، وامتلأت البلد منهم رعبًا بحيث لم يصل فى الحرم أحد، ووقع بينهم فى أيام الحج وبين أمير الحاج العراقى فتنة درأها الله تعالى بالصلح فسلم المسلمون، وفدى نفسه ابن برطاش الأمير، ورجع من حيث جاء.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة: استظهر إدريس على أبى نمى بإمرة مكة ثم اشتركا. وفى موسم خمس وخمسين وستمائة لم يحج أحد من أهل الحجاز، ولم ترفع راية من رايات الملوك لأحد بمكة.

وفى سنة ست وخمسين وستمائة خرج أبو نمى إلى ثقيف، وبقى إدريس بالبلد فهجم عليه أولاد حسن بن قتادة إخوته بعد أن لزموه.

فوليها أولاد حسن بن قتادة فى غيبة أبى نمى، فلما جاء أخرجهم منها فى السنة المذكورة بغير قتال. وكانت مدتهم ستة أيام.

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة حج الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور صاحب اليمن معه المراكب تسايره فى البحر مشحونة بالعلوفات والأطعمة، وأكثر فى طريقه من الصدقات وفعل الخيرات والمبرات، والشريف أبو نمى، وعمه إدريس متوليين إمرة مكة، فلما سمعا به خرجا خوفًا منه، فدخلها المظفر فى عساكر كثيرة محرمًا خاشعًا حاسر الرأس حتى دخل المطاف، ثم نزل عسكره بالحجون، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما عليه من الوقوف بعرفة وبقية المناسك، ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلى المغرب على قبة زمزم، وخدم البيت وغسله مع الخدام وصب عليه وكنس، وكسا البيت الشريف من داخله، ولم يكسه ملك قبله بعد الخلفاء العباسية، وقام بمصالح الحرم وأهله، ثم أقام بمكة عشرة أيام يفرق الصدقات حتى

وصلت صدقاته إلى كل منزل بمكة، ونثر على الكعبة الذهب والفضة، وعمل للكعبة بابًا وقفلاً، وودع البيت باكيًا وعاد إلى بلاده، وفى غالب سلطنته كان يخطب له بمكة.

واستمر أبو نمى وعمه إدريس متوليين إمرة مكة إلى سنة سبع وستين، ثم انفرد بها أبو نمى، وأخرج عمه إدريس منها، وخطب لصاحب مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، واشترط عليه السلطان أن لا يمنع زائرًا لا ليلاً ولا نهارًا، ولا يعترض تاجرًا بظلم، وأن تكون الخطبة والدعاء له، ولأبى نمى، وجعل له عشرة آلاف درهم فى كل سنة، فأجاب الشريف أبو نمى بقبول هذه الاشتراطات، فلما ورد إلى السلطان من أبى نمى الإجابة بالسمع والطاعة وقبول ما اشترطه كتب السلطان إليه مرسومًا بإمرة مكة منفردًا.

ففى سنة ثمان وستين: حج السلطان الملك الظاهر بيبرس على تجريدة خيل وركاب، وكان قدم له مع الحج خيلاً وحملاً ومتاعًا فى المنازل كلما أصبح فى منزل ترك الخيل الأولى وأخذ المهيئات له، فارتحل إلى أن وصل مكة ثامن ذى الحجة آخر النهار، وقد طلع الناس عرفة، ولم يبق فى مكة غير الشريف أبى نمى وعسكره، فاستنكروا ذلك وقالوا: ما يصل فى هذا الوقت إلا من قصد إدراك الحج قبل فواته أو غريب ما قدم قبل ذلك لا يعرف العادة، ورأوهم جميعهم على الخيل البلق.

فقالوا لهم: من أين أنتم، من العراق أو من الكوفة أو من العجم أو من الترك؟ فقال السلطان: قولوا له: أليس قد قلت لا يجيئنى إلا على خيل بلق فقد جئناك على البلق، ونحن محرمون، وهذا صاحب مصر معه أمراء مصر والشام وعرفوه كل أمير باسمه فإن تقتل الجميع فاقتلهم، وكان الشريف أبو نمى قد قال مثل هذا القول فى العام الماضى، فاستغفر وتقدم إلى السلطان وقال: العفو يا مولانا السلطان، ثم ركب وسعى مع السلطان، وأشهد على نفسه أن لا يمكس أحدًا من الحجاج القادمين برًا وبحرًا ويبطل الجباية والمظالم إلى أن تقوم الساعة وكتب عليه الإشهاد بذلك، فبطل ذلك وكان فى صحائف الملك الظاهر بيبرس، وتصدق السلطان بالحرم وفرق كساوى على أهله وعلق كسوة الكعبة بيده وزار مَنْ بمكة من الصالحين، وأحسن إحسانًا كثيرًا إلى الشريف أبى نمى، وكذلك لأمير المدينة، وكتب لأبى نمى وإدريس

أن يكون حالهما واحدًا فى إمرة مكة فعادا شريكين. ثم انفرد إدريس بها أربعين يومًا، ثم قتل أبو نمى عمه إدريس فى حرب كانت بينهما بخليص، وانفرد بها، وذلك أنه لما استظهر عمه إدريس عليه، وأخرجه من مكة، وانفرد بالإمرة خرج أبو نمى هاربًا من عمه إدريس من مكة، ووصل إلى ينبع، واستنجد بصاحبها وحشد، وجمع وقصد مكة بالجيش، فالتقى هو وعمه إدريس بخليص وتحاربا فطعن أبو نمى عمه فألقاه من ظهر الفرس ونزل واحتز رأسه، واستقل بالولاية منفردًا وذلك فى سنة ٦٦٩ تسع وستين وستمائة.

وله وقائع مشهورة مع ملوك مصر وغيرهم، منها أنه فى سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة كانت فتنة بينه وبين واحد من أبناء أخيه لأجل ما يؤخذ من الحاج، قيل: كانوا يأخذون من حج اليمانى فى كل جمل ثلاثين درهمًا، ومن حاج مصر على كل جمل خمسين درهما، ومع هذا لا يسلمون من النهب والعسف، فلما حج الظاهر بيبرس أزاله ثم أعادوه، فأرسل الملك المظفر عسكرًا ملكوا مكة، فجمع أبو نمى عسكرًا، ودخل إلى مكة، وأخرج عسكر اليمن، وزاد على الحجاج فى الجباية، ووصله جيش من مصر، فلما وصلوا إلى قرب مكة قفل أبو نمى أبواب سور مكة، ومنعهم من الدخول، فاجتمع الحجاج فهدموه، وأحرقوا باب المعلاة ودخلوا مكة هجمًا بعد فرار أبى نمى من مكة زمن الحج، فخشى الملك من عوده فترك بها ثلاثة آلاف مع نائب من قبله فأقاموا بها، فاتفق أن ألفًا منهم خرجوا لناحية منى للتنزه فكمن لهم الشريف أبو نمى فى خيل، ورجل بمسجد الخيف، فلما عادوا قاصدين إلى مكة هجم عليهم فقصد أميرهم فقتله ثم قال: كل من قتل فارسًا فله فرسه، فعاد أكثر رجله خيالة، ثم صدقوا المحاربة والمجالدة معه، فكسروا الألف عن آخرهم، وانتصروا وغنموا خيولهم وسلاحهم وتفكك منهم أفراد فلحقوا بالباقين بمكة، وعرفوهم الحال وأن لا طاقة لكم به فهزم الجميع إلى مصر، فلما بلغ ذلك ملك مصر جهز جيشًا كثيفًا لقتال أبى نمى المذكور، ثم عزم على الوصول إلى مكة بنفسه، فأتاه أحد العلماء الصالحين، وسأله عن توجهه، فقال: إنه لقتل الشريف أبى نمى وأهله، فقال له ذلك العالم إنك حسنت العبارة، ولكن الناس يقولون إنك ذاهب إلى حرم الله تعالى، وقتل أولاد حبيبه رسول الله ﷺ، فوقع ذلك من الملك

موقعًا ورجع عن عزمه، ثم راسل الشريف أبا نمى بالمراسيل والهدايا والكلام اللين حتى زالت الوحشة بينهما وأقره على إمرة مكة.

وفى سنة تسع وثمانين وستمائة وقع بين الشريف أبى نمى وبين الحاج فتنة عند الثنية - أعنى الشبيكة - وانتهى الأمر إلى أن دخلوا الحرم، ورؤى فى الحرم الشريف أكثر من عشرة آلاف سيف، وقتل بين الفريقين فوق أربعين نفسًا، وقتل ولد السيد أحمد بن على بن قتادة وأصيب بسهم، وأما الجرحى فكثيرون، ونهبت أموال الناس.

وفى موسم إحدى وتسعين وستمائة وقعت بعرفة جفلة عظيمة، ولزم راجح بن إدريس أمير الينبع، ثم عزموا به إلى مصر وسلم الله المسلمين.

وكانت الوقفة بالثلاثاء، وتعبت الناس من قلة الماء فبيعت الراوية بأربعة دنانير، ورحل الحاج قبل وقته المعتاد، واستمر إلى أن أخرجه جماز منها.

ثم وليها جماز بن شيحة أمير المدينة وغانم بن إدريس بن حسن بن قتادة أمير الينبع المبارك، وأخرجا أبا نمى المذكور منها فى صفر من سنة ٦٩٠ تسعين وستمائة.

ثم عاد أبو نمى بعد أربعين يومًا وأخرجهما منها.

ثم وليها جماز بن شيحة بمفرده عام سبع [وتسعين] وستمائة بمعاونة أمير يقال له الحكاحكى كان بمكة من قبل الملك المنصور قلاوون صاحب مصر والشام، وخطب لجماز بمكة المشرفة، وضربت السكة باسمه فيها، وبطل ذلك بعد مدة يسيرة من السنة المذكورة، ثم عاد أبو نمى، وتفرد بها ودامت ولايته عليها إلى أن مات عام إحدى وسبعمائة، فقبل موته بيومين ولى ولديه حميضة ورميثة أمر مكة كما سيأتى.

ولنذكر طرفًا من محامده فنقول: ولى أبو نمى محمد هذا مكة نحو خمسين سنة مشاركًا لأبيه وعمه ومنفردًا، أما مشاركته لأبيه فكانت أيام صباه وسنه سبع عشرة سنة وكان يكنى أبا مهدى، ويلقب بنجم الدين، وسبب مشاركته لأبيه أبى سعد الحسن ابن على بن قتادة أن راجحًا بن قتادة عم والده أبى سعد استنجد أخواله بنى حسين بالمدينة وطلب منهم الإعانة على إخراج ابن أخيه أبى سعد الحسن بن على المذكور والد أبى نمى المذكور من مكة وأخذها منه، فسار معه من المدينة سبعمائة فارس من

بنى حسين وجماعتهم وعليهم الأمير عيسى الملقب بالحرون فارس بنى حسين فى زمانه، وكان أبو نمى فى الينبع، فلما بلغه خبر راجح وخروجه ببنى حسين معه من المدينة إلى قتال أبيه، وإخراجه من مكة قصد مكة لنصرة أبيه فى أربعين فارسًا، فصادف راجحًا وعيسى وجماعتهم سائرين إلى مكة ليس لهم خبر، فلما تراءى الجمعان حمل أبو نمى عليهم فما حملوه لحظة حتى ولوا هاربين إلى المدينة، وانتشرت عمامة عيسى الحرون، وذهب يجرها خلفه، فقال السيد جعفر الحسينى النسابة - وهو لسان بنى حسن بالعراق - قصيدة يذكر فيها الواقعة، ويمدح أبا نمى محمد بن أبى سعد المذكور، منها: [من الوافر]

أَلَمْ يَبْلُغْكَ شَأْنُ بَنِى حُسَيْنٍ وَفَرْهِمُ وَمَا فَعَلَ الحَرُونُ
فَيَا لله فِعْلُ أبى نُمَيٍّ وبعضُ البَأْسِ يُشْبِهُهُ الجُنُونُ
يَصُولُ بِأرْبَعِينَ عَلَى مِئَاتٍ وَكَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ظَلَّتْ تَهُونُ

وكان إذ ذاك عمره سبع عشرة سنة، ثم دخل مكة مسرورًا منصورًا، فقابله أبوه بالإعزاز والإكرام، وأشركه معه فى الملك من حينئذ، ثم شاركه عمه إدريس إلى آخر ما تقدم. وكانت له شجاعة مشهورة، وخصال حميدة مذكورة. قال ولده حميضة: كانت لأبى خمس خصال: العز والكرم والحلم والشجاعة والشعر.

من شعره مدحًا فى المنصور لاجين ملك مصر لما تسلطن بعد كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة وأرسل بها إليه، وهى: [من الطويل]

أَمَا وتعادى المُقْرَبَاتِ الشَّوَازِبِ بفُرْسَانها فى ضِيقِ ضَنْكِ المَقَانِبِ
وبِالجَحْفَلِ الجَرَّارِ أَفْرَطَ جَمْعُهُ كَأَسْرَابِ كُدْرِى [أو] سَوَارِ قَوَارِبِ
وبِالزَّرَدِ الموضونِ ضمَّتْ غُضُونُهُ عَلَى كلِّ مَاضِى العَزْمِ حَتْف المحَارِبِ
وبالبَيْض والبِيضِ الرِّقَاقِ أَلِيَّة لِنَثْر عِدَاتِى حَلْفَة غَيْر كاذبِ
لقد نُصِرَ الإسلامُ بالمَلِكِ الذِي رقَى فى سَمَاءِ المجد أَعْلَى المراتبِ
حُسَامُ الهدَى والدينِ مَنْصُورٌ الذِي تَرَعْرَعَ مِنْ شُمِّ المُلُوكِ الشَّنَاخِبِ
ملوكُ جِهَاتِ الأَرْضِ تَعْنُو لِقَهْرِه فَمَرْهُوبُهَا مِنْ سَيْفِهِ أيّ رَاهِبِ
تَفَرَّدَ بالْملكِ العَظِيمِ فَلَمْ يَزَلْ لَهُ خَاضِعًا صِيدُ الملوكِ الأغالِبِ
مضَى كتبُغا خَوْفَ الحِمَام وقد أتَتْ إليه أُسُودُ الخَيْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وأَحْيَيْتَهُ بالعَفْوِ مِنكَ وزِدْتَهُ لِبَاسَ أَمَانٍ مِنْ عِقَابِ العَوَاقِبِ
وأَحَرزْتَ مُلْكَ الأرضِ بالسَّيْفِ عَنْوَةً وَعبدتَّ مَنْ فى شَرْقِها والمغَارِبِ
تَوَلَّيْتَ هَذَا الأَمْرَ فى خَيْرِ طَالِعٍ لِأَسْعَدِ نَجْمٍ للسَّعَادةِ ثَاقِبِ

قلت: والله إنها لقصيدة فصيحة، فى اللفظ والمعنى صحيحة. وما أحسن بيتها الثانى، وتشبيهه البديع المعانى.

وكانت وفاته بمكة المشرفة رابع شهر صفر سنة إحدى وسبعمائة بتقديم السين وقد أناف على السبعين.

ووقعت له كرامة بعد موته ذكرها العلامة تقى الدين الفاسى قال: لما مات أبو نمى محمد بن أبى الحسن بن على بن قتادة امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصى من الصلاة عليه، فرأى فى منامه تلك الليلة السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وعلى أبيها وعليها وذويها بالمسجد الحرام والناس يسلمون عليها، فجاء الشيخ ليسلم عليها فأعرضت عنه ثلاث مرات ثم إنه تحامل وسألها عن سبب إعراضها عنه، فقالت: يموت ولدى ولم تُصَلِّ عليه، فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ.

وله من الولد ثلاثون ذكرًا واثنتا عشرة أنثى، منهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وأبو الغيث، وشميلة، وعطيفة، ورميثة، وسيف، وأسد، ومقبل، وحميضة، وعبد الله.

ثم وليها بعد أبى نمى ولداه حميضة يلقب معز الدين، ورميثة يلقب أسد الدين فى حياته، ودعى لهما على زمزم قبل وفاته بيومين فى السنة المذكورة سنة إحدى وسبعمائة.

واستمرا شريكين فى الإمرة. فلما وصل الحاج وصل صحبته ثلاثون أميرًا، فجاء إليهم أبو الغيث وعطيفة، وشكوا إليهم من حميضة، ورميثة أنهما أسراهما وربطاهما، واستبد بالإمرة دونهما وأنهما أحق منهما، فمال الأمراء إليهما، فلما انقضى الموسم أمسك الأمراء رميثة وحميضة، وأوثقوهما فى الحديد، وذهب بهم إلى مصر، وولوا أبا الغيث وأخاه عطيفة فأقاما إلى عام ثلاث وسبعمائة.

ثم عاد كل من حميضة ورميثة إلى إمرة مكة المشرفة عام أربع وسبعمائة، وأظهرا عدلا وأسقطا بعض المكوس، ثم ساءت سيرتهما فبعث الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون من يقبض عليهما فانهزما.

ثم فى سنة اثنتى عشرة حج الناصر ففرا منه.

ثم فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وصل عسكر من صاحب مصر المذكور نحو ثلاثمائة فارس، وأمدهم صاحب المدينة بخمسمائة فارس، ووصل معهم أبو الغيث، فلما سمع بهم رميثة وحميضة خرجا إلى حلى بن يعقوب.

ثم وليها أبو الغيث بمفرده، فعزلهما بأخيهما أبى الغيث منفردًا، وجهز معه عسكرًا قويًا فاستولى على مكة أيام الموسم من السنة المذكورة، ثم أقام العسكر عند أبى الغيث شهرين، وكانت مكة مقحطة جدًا، فتعب الجند من الغلاء، وضجر أبو الغيث من النفقة عليهم، فكتب لهم خطة بالاستغناء عنهم ففارقوه، فلم يلبث بعدهم سوى جمعة حتى قصده أخوه حميضة فقاتله، فانهزم أبو الغيث، وقتل من أصحابه جماعة، وفر هو إلى أخواله هذيل بوادى نخلة، وأرسل حميضة إلى الملك الناصر يستعطفه فلم يرض عنه، وأرسل أبو الغيث يستنصره فوعده بالنصر، ثم التقى الأخوان فى رابع ذى الحجة عام أربع عشرة وسبعمائة فغلب حميضة أخاه أبا الغيث فأسره، ثم أمر بعد ذلك بعض عبيده بقتله فقتله بخيف بنى شديد ذبحًا بحضرة الناس فهالهم ذلك.

قال فى « عمدة الطالب »: إن حميضة قتل أخاه أبا الغيث على فراشه، وحمله إلى داره ثم استدعى إخوته للضيافة، فاجتمعوا فما راعهم إلا أبو الغيث مقتولاً فى جفنة مسلوقًا كما هو وقد وضع بين أيديهم، وعلى رأس كل واحد منهم غلامان أسودان من غلمان حميضة معهم السلاح، فأذعنوا له بالملك قهرًا، ودامت له الولاية على مكة حتى فارقها فى رمضان سنة خمس عشرة وسبعمائة لما سمع بوصول أخيه رميثة.

ثم وليها رميثة منفردًا متوليًا إمرة مكة المشرفة فى عسكر معه من مصر، وذلك فى سنة خمس عشرة وسبعمائة، فلما سمع حميضة فزع لذلك، وقبل وصولهم إلى مكة بستة أيام أخذ المال من النقد والبز وهو مائة حمل، وأحرق الباقى فى الحصن الذى فى الجديدة من وادى مر وقطع ألفى نخلة.

وكان وصول العسكر صحبة الشريف رميثة إلى مكة يوم السبت منتصف رمضان من السنة المذكورة، فأقاموا بها ثلاثة عشر يومًا، ثم توجهوا جميعًا إلى الحليف وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام كان حميضة بعد فعل ما فعله التجأ إلى صاحبه،

وصاهره لعله يحتمى به، فواقع العسكر حميضة، وصاحب الحصن، وأخذوا جميع أموال حميضة وخزانته، ونهب الحصن وأحرق وأسر ولد حميضة ابن اثنتى عشرة سنة، وسلم إلى عمه رميثة، ثم رجع الجيش إلى مكة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، واستمروا إلى أن حضر الموقف ورجعوا، واستمر رميثة بمكة ونجا حميضة بنفسه، فقصده أخوه الشريف رميثة والعسكر فحاربوه، فهرب حميضة، ثم احتال عليه الناصر ملك مصر واعتقله، ثم احتال فى الهرب، وذلك أنه أمر بعض غلمانه الخاصة أن يهيىء له فرسًا سابقًا ليهرب عليه، فلما تمم له ذلك حضر الغلام إلى باب السجن والفرس معه، فأوقفه ناحية، ثم دخل إلى سيده، ثم لبس السيد لباس الغلام، والغلام لباس السيد، فلما خرج على الموكلين لم يشكوا أنه الغلام، فهرب على فرسه وقصد العراق واستنصر بملكه خدابنده بن أرغون بن ابغا بن هولاكو ملك التتار، وطلب منه جيشًا يغزو به مكة فجهز معه جيشًا عدتهم عشرة آلاف فارس، وأمر عليهم السيد أبا طالب الدلقندى، وأمرهم بطاعة حميضة، فساروا إلى البصرة، ومنها إلى القطيف طالبين أطراف الشام، وأرسل حميضة إلى أمراء العرب من كل ناحية، فأجابوه والتجئوا إلى أمراء طَيِّئ بالبادية فقدر الله موت السلطان خدابنده، وكتب الوزير رشيد الدين الطبيب إلى عسكر المغول بالخبر فلم يدبروا، واشتهر الخبر فطمع العرب فى عسكر المغول، ونكثوا العهد، وثاروا وأوقدوا نار الحرب فحارب حميضة بنفسه، ودافع عن عسكر المغول دفاعًا شديدًا بحيث إن أبا طالب قال: ما زلت أسمع بحملات على بن أبى طالب حتى رأيتها عيانًا فى حميضة بن أبى نمى، وتسحب حميضة ومعه أبو طالب، وملك شاه ومعهم ثلاث وعشرون راحلة إلى أن قرب إلى مكة، وكتب إلى أخيه رميثة يستأذنه فى دخول مكة فمنعه إلا بإذن سلطان مصر، وأرسل إلى مصر يستأذن له وإن حميضة لم يكن معه إلا فرس واحد، فكتب السلطان جوابًا لرميثة: إن حضر حميضة إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها قابله السلطان بالأمان وسامحه من ذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم به.

وكتب إلى أبى طالب الدلقندى وملك شاه بالأمان، وأرسل عدة أمراء إلى مكة لإحضار حميضة، ولو حضر من التتار، فوصلوا إلى مكة وأرسلوا إلى حميضة فى معاودة الطاعة وأن يتوجه معهم إلى الأبواب، فاعتذر بالعدم، وطلب ما يستعين به

فأعطوه، فلما قبض المال تغيب، فعادوا إلى القاهرة فى سادس عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أو فى أواخر السنة التى قبلها وثب على أخيه رميثة، واستولى على مكة فخرج منها أخوه رميثة إلى نخلة، فقطع حميضة الخطبة عن الناصر وخطب لأبى سعيد بن خدابنده ملك التتار، فانزعج الناصر لذلك، وأرسل عسكرًا لإحضار حميضة بسبب ما فعل فى مكة من خطبته لصاحب العراق خدابنده، وأخذه أموال التجار، ومحاربته أخاه رميثة، وإخراجه إياه من مكة، وقد كان فعل ذلك كله فلما بلغه فر من مكة، فلما دخلها عسكر الناصر ومنعوا العبيد من حمل السلاح، ونادوا بالأمان، وأظهروا العدل، فأرسلوا فى طلب حميضة فإن السلطان ألزمهم بتحصيله وحمله إلى مصر وألا يعودوا إلى الديار المصرية إلا بحميضة، وأرسلوا إلى العسكر أميرًا يقال له بهادر الإبراهيمى كان من أهل ينبع، فلما وصلوا توجه الإبراهيمى لمحاربة حميضة، وتقاربا فلم يقدم الإبراهيمى على مواجهته وفر حميضة، فاقتضى رأى العسكر أن يلزموا رميثة والإبراهيمى باتهامهما أنهما باطنا على حميضة حتى فر، وكان القبض عليهما رابع عشر ذى الحجة الحرام بعد انقضاء أيام التشريق وأرسلوا بهما تحت الاحتفاظ إلى مصر، فلما وصلا مصر رسم على الشريف رميثة، ثم شفع فيه، فأكرمه السلطان، ورتب له كل يوم [شريحتين][1] ذهبًا، وكان يطلع إلى الديوان إلى يوم من الأيام خرج إلى أطراف مصر، وكان قد هيئت له النجب فركب وفر، فلما علم السلطان به أرسل فى إثره، وألزم بعض مشايخ العرب وكتب إلى شيخ آل حرب يقول له هذا هرب إلى بلادك معتمدًا عليك، ولا أعرفه إلا منك، وإن لم تأتنى به فأنت خصمى فأنت الذى أعنته على الخروج، فركب شيخ آل حرب بالهجن السبق وسار مجدًا حتى أدرك الشريف رميثة تحت العقبة - وقد اطمأن فنام - فجلس عند رأسه، وقال له: قم يا أسود الوجه. فقال له الشريف رميثة: صدقت لو لم أكن أسود الوجه مانمت حتى أدركتنى. فلزمه ودخل به إلى مصر فوضع فى السجن الكبير، واحتفظ عليه، وكان القبض عليه فى شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وسبعمائة، وتوجه إلى مكة وكان أمرها لأخيه عطيفة الآتى ذكره على الفور وولوا على مكة الشريف عطيفة.

---

(١) في ط: شريفيين.

ثم وليها الشريف عطيفة بن أبى نمى من الملك الناصر وأنفذ معه عسكرًا فبلغوها سنة تسع عشرة وسبعمائة، وعليهم أميران وأقاموا عنده، ثم توجه الأميران اللذان كانا بمكة العام الماضى وكتب الشريف عطيفة أن القواد أطاعته وأن الشريف حميضة عزم اليمن، وتفرق عنه العربان، وبنو شعيب الذين كانوا معه جنده، ورخصت البلاد وأمنت الناس على أموالهم ودمائهم. فلما بلغ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ذلك خرج إلى الحج تاسع ذى القعدة بعد الحاج، ووصل إلى مكة بتواضع وانكسار وذل بحيث إن بعض الناس حسن له الطواف راكبًا كما فعله ﷺ فقال: ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ﷺ؟ والله ما أطوف إلا مع الحجاج، فكانوا يدفعون عنه الناس، وهو ينضم إليهم يقول: لعلى أقبل برحمة واحد منهم.

وأبدى من المعروف والإحسان والخير فى الحرمين ما لا يوصف، وسأله التجار وأهل مكة أن يبقى عندهم عسكرًا لئلا يرجع إليهم حميضة ففعل.

واتفق ذلك العام أن شخصًا من أكابر خدام الدولة طلع إلى البيت ليباشر فى الكسوة، وجلس على طُنُفِ البيت الشَّريف، فأنكر الناس جلوسه وعدم أدبه، فأخذه النعاس فسقط من أعلى البيت إلى المطاف فكان أعظم عبرة لمن اعتبر.

وعزم السلطان إلى مصر. فقدم حميضة من اليمن بجيش سنة عشرين وسبعمائة، فأراد دخول مكة فلم يظفر، وانتصر عليه عطيفة ومن معه من العسكر المقيمين بمكة الذين أبقاهم الناصر، فلما ولى هاربًا خرج معه ثلاثة من المماليك، وأقاموا عنده.

وكان بمكة أمير العسكر يسمى بيبرس الحاجب أرسل إلى الشريف حميضة يرغبه فى مكة والصلح والحلف، وكان الشريف حميضة بقرب نخلة، فقال له الشريف حميضة: أرسل إلى أحد أولادك يكون عندى رهينة، فأرسل إليه الأمير بهدية صحبة ولده وجماعة، ففى حال خروجهم إليه جاء الخبر بموت الشريف حميضة وأنه وثب عليه بعض مماليكه، وهو نائم فقتله، جاء بهذا الخبر رجل من الأعراب، فأنكر الأمير وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة فتوقف عن إرسال ولده والهدية، فلما كان المساء طرق باب المعلاة بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه استدمر وهو على حجرة حميضة وصل إلى مكة فأرسل الأمير ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر، وجهز من توجه لإحضار سلب حميضة

والمملوكين الباقيين، فأحضر السلب وأحد المملوكين، وقيل: إن الثالث مات، فألزم صاحب نخلة بإحضاره، وتوعده إن تأخر فأحضره، واستمر الأمير بيبرس إلى أن عاد الجواب بطلبه، فتوجه فى شعبان، ووصل إلى مصر أوائل رمضان فشمله الإنعام السلطانى، وكان مع الشريف حميضة هذه المهرة عزيزة اسمها جمعة طلبها منه السلطان فى السابق فلم يسمح له بها، ولما وصل الخبر إلى السلطان أمر بقتل المملوك القاتل وهو أحد مماليك ثلاثة للسلطان هربوا لما كان بمكة للحج، ووصلوا إلى حميضة اسمه استدمر، أخبر أنه قتل حميضة اغتاله، وهو نائم وفر على حجرة حميضة المسماة جمعة المشهورة، ثم جرد سيفه وإذا به أثر الدم، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة عشرين وسبعمائة.

وذكر اليافعى أن حميضة كان يقول: لأبى خمس فضائل: الشجاعة، والكرم، والحلم، والشعر، والسعادة. فالشجاعة لعطيفة، والكرم لأبى الغيث، والحلم لرميثة، والسعادة لى حتى لو قصدت جبلا لدهكته. ومما قيل فى حميضة قول موفق الدين الحديدى قصيدة هى: [من الخفيف]

قَدَحَ الوَجْدُ فى فُؤَادِى زِنَادا ... مَنَعَ الجَفْنَ أنْ يَذُوقَ الرُّقَادَا
وفُؤَادُ الشَّجِيِّ يَوْمَ الآل ... سَاقهُ سَائِقُ الظُّعُونِ وَقَادَا
بَدَّلينى بِالوَصْلِ هَجْرًا وبالزوْ ... رَةِ صَدًّا وبالتَّدَانِى بِعَادَا
يا مُعِيدَ الحَدِيثِ عُذْنِيهِ عَنهُمْ ... مَا أَلَذَّ الحدِيثَ عَنْهُم مُعَادا
هاتِ بالله يَا مُحدِّثُ حَدِّثْ ... بِجِيَادٍ جَاد الغَمَامُ جِيَادا
بَلَدًا بِالشَّرِيفِ شَرَّفَهُ اللـ ... ـه بِقَاعًا شيحَانُهُ وَوِهَادا
مَلِكٌ مِنْ قَتَادة مَلأَ الأرْ ... ضَ نِصَالاً مَحْشُودَةً وصِعَادا
إن أكُنْ فى حميضَةٍ زِدتُّ فى المَدْ ... حِ فَقَدْ زَادَ فِى نَوَالِى وَزَادَا
رَجُلٌ سَالَمَ المسالِمَ في اللـ ... ـهِ وفِى اللهِ للمُعَادِينَ عَادَى
عَادَ أبدَى أوْلَى فَوالَى تَعَالَى ... عَزَّ أَعْطَى سَطَا أَفَادَ أَبَادَا
جَادَ أغْنَى عَلاَ سَمَا جَلَّ جَلَّى ... ظُلَمَ الظُّلْم عَدْلُهُ سَارَ سَادَا
حَسَنُ السَّمْتِ لَيْسَ يَحْسُنُ أَنْ تَسْـ ... ـمَعَ إلاَّ فى مِثْلِهِ الإنْشَادَا
إبن بِنْتِ النَّبيِّ لَمْ يَجْعَلِ اللـ ... ـهُ سِوَاكُمْ لِأَرْضِهِ أَوْتَادَا

يَا رِكَابَ الآمَالِ ويحَكِ بالنُّجْـ ـحِ بحصنِ الجَدِيدِ أُمِّى نِجَادا
يَا جَوَادَ الزَّمَانِ ما زُرْتَ مَغْنَا هُ ابنُتَ مِنْ عِنْدِهِ أَقُودُ جَوادَا
كُلُّ شِعْرٍ أَتَاكُمُ غَيْرُ شِعْرِي يَا أَبا زيد لَيْسَ يَسْوَى المِدَادَا

وقال فى العمدة: إن السلطان الناصر هو الذى دس عليه من قتله غيلة والله أعلم بالحقائق ثم إن السلطان أطلق الشريف رميثة حينئذ من السجن وأحسن إليه، وأشركه فى إمرة مكة مع أخيه عطيفة وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وكانت سنة قحط لعدم الأمطار وعدم الواصل من البحر، فتوجه الشريف عطيفة إلى مصر وشكا ذلك، فرسم السلطان بحمل الحب إليها ورتب لصاحب مكة كل عام شيئًا يحمل إليه من بلدين بالصعيد، وألزمه أن يسقط المكوس التى تؤخذ من مكة على المأكولات التى تجلب إليها ففعل ذلك.

وفى موسم سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة اتفق أن أهل العراق جاءوا بفيل عظيم جعلوا محملهم عليه، فتطير العالم منه، وقالوا: هذا عام الفيل، ثم دخلوا به مكة، ووقفوا به بعرفة ثم توجهوا به إلى المدينة المشرفة، فلما وصلوا الفريش، وقدموا على البيداء، أوقفه الله فلم يستطع المشى، فضربوه ضربًا مبرحًا فلم يبرح، فلم يزالوا يضربونه حتى مات هنالك، وقدر الله بعد إتمام الحج بمكة أن سافر أمير أول وتأخر أمير المحمل المصرى المسمى أزدمر الخازندار تأخر لصلاة الجمعة، فلما صعد الخطيب المنبر عبث بعض العبيد بخطف شيء من أمتعة الحجاج بباب إبراهيم، فصرخت الناس، فارتج المسجد، ففزع السيد مبارك بن عطيفة وقواده بآلة الحرب وركبوا الخيل، وتبعهم الشريف عطيفة، فبادر ولد أمير الحاج لتخميد الفتنة فأصابته حربة، ففزع والده أمير الحاج أزدمر وهم بقتل الضارب فأصابته حربة أخرى فماتا جميعًا، فاشتد الأمر وعظم وهجم بالخيل إلى المسجد الحرام، ونهبت الأسواق، وتعب الشريف عطيفة، وتحير فى أمره ولم يستطع ردهم ولا قهرهم، وكان حتى الحاج نفسه ينهب بعضه بعضًا.

فلما بلغ السلطان ذلك أمر بقتل الأشراف، وقطع الأشجار من وادى نخلة والأودية، وأجلى نساءهم وأولادهم، وجهز عسكرًا وأمرهم أن يقيموا بمكة ولا يرتحلوا حتى يقضوا حاجته فى المأمور فيهم بذلك. وكان شخص من أهل العلم

يسمى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى واعظًا فقام ووعظ السلطان ونهاه أن يحدث فى حرم الله أو أبناء رسول الله ﷺ وقال له: يا مولانا الرأى أن ترضيهم وتأخذهم بالطيب، فأرسل إليهم بعض الأمراء بدون ما كان جهزه ونواه، وعزل الشريف عطيفة لأنهم اتهموه بقتل الأمير أزدمر الخازندار المذكور بعد أن دام سلطانه عليها إلى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ورضى عن الشريف رميثة، وأعاده لولاية مكة.

فوليها رميثة بمفرده، وولاه إمرتها مفردًا مستقلا إلى عام أربع وثلاثين، ومضى عطيفة إلى مصر بعد عزله، ووصل متوليًا لإمرة مكة شريكًا لرميثة، ثم أخرجه رميثة ليلة رحيل الحاج من مكة من هذه السنة، ثم اشتركا فى ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

ثم فى رمضان من سنة ست وثلاثين هجم رميثة مكة وخرج منها بعد قتل وزيره الرباع وبعض أصحابه وعاد إلى الجديدة، ثم اصطلحا واشتركا فى الإمرة سنة سبع وثلاثين وتوجها إلى مصر للملك الناصر مطلوبين، فعوق عطيفة فيها ولزم حتى مات بها فى سنة ثلاث وأربعين بالقبيبات ظاهر القاهرة ودفن هناك، وكان موصوفًا بشجاعة مفرطة رحمه الله تعالى ومما قيل فيه قول العلامة شرف الدين يحيى المعروف بالقشر المكى قصيدة منها: [من الكامل]

تَجرِى مَقَادِيرُ الإِله بِمَا تَشَا ... والدَّهرُ قَدْ ألقى إليكَ زِمَامُهُ
أَللهُ أَعْطاكَ الذِى أَمَّلْتَهُ ... فَدَعِ الحَسُودَ تُمِيتُه أَوْهَامُهُ
مَا للسُّكُوتِ إِفادةٌ عَنْ كلِّ مَنْ ... أَمدَتْ بِه بَيْنَ الوَرَى أَجْرَامُهُ
هَا قَدْ قَدَرْتَ فَلاَ تَكُنْ مُتَوَانيًا ... فَالأُفْعُوَانُ قَوِيَّةٌ أَسْمَامُهُ
لاَ تَحْلمَنَّ عَنِ العَدُوِّ تَكَرُّمًا ... كَمْ سَيِّدٍ ضَرَّتْ به أَحْلاَمُهُ
لاَ تَحْقرنَّ أَخَا العَدَاوة إِنَّهُ ... كَالجَمْرِ يُوشِكُ أَنْ يَضُرَّ ضِرامُهُ
أَنتَ المليكُ ابنُ المليكِ أَصَالَةً ... فَالجُودُ مِنكُمْ وُفِّرَتْ أَقسَامُهُ
أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ فِيك فَصاحةً ... مَا حَازها قُسٌّ ولاَ أَقْوَامُهُ
ليثٌ تَخَافُ الأُسْدُ مِنْ سَطَوَاتِهِ ... غيثٌ يَجُودُ عَلَى الأَنَام غَمَامُهُ
مَنْ لَيسَ مَشْغُولَ البَنَانِ عَن النَّدى ... يَوْمًا إذا شَغَلَ اليَمِينَ حُسَامُهُ

وعاد رميثة متوليًا منفردًا، فوصل فى سنة سبع وثلاثين، ولم يزل منفردًا بها

مستقلا إلى سنة أربع وأربعين وسبعمائة كما سيأتى.

ووقع فى ولاية الشريف رميثة بن أبى نمى واقعة وهى أنه لثلاث وأربعين وسبعمائة وقعت فتنة بعرفة بين الحجاج المصريين، وبين أهل مكة من أهل مكة من قبل الظهر إلى غروب الشمس قتل فيها جماعة، ومن الترك ستة عشر نفرًا، ومن أتباع الأشراف ناس قليل، ونفر الناس من عرفة قبل الغروب، وسلكوا طريق المظلمة، ولم يقفوا بمزدلفة، ورحل الحجاج جمعيهم يوم النفر، ونزلوا الزاهر، ولم يطوفوا خوفًا على أنفسهم، وتعرف هذه السنة عند أهل مكة بسنة الظلمة، وأصيب فى هذه السنة السيد محمد بن عقبة بن إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن يوم الثلاثاء حادى عشر ذى الحجة الحرام.

ثم فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: وقع بين أهل مكة كذلك وأمير الحاج حرب، وقتل جماعة، وسلم الله الأشراف، ولله الحمد والمنة.

وسلم الله الحج من النهب ببركة الشريف رميثة، غير أنه كان غلاء عظيم بيعت الويبة الشعير بدينارين، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم، والويبة الدقيق بخمسين درهما والإردب القمح بمائتى درهم، وكان الحاج المصرى والشامى كبيرًا جدًّا.

وفيها أعنى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: اشترى الشريف عجلان بن رميثة، وأخوه الشريف ثقبة بن رميثة اشتريا مكة من أبيهما رميثة بستين ألف درهم، لأنه كبر سنًّا، وصار أولاده كل منهم يحكم فى البلاد بما شاء واختار، فما رضى بذلك ملك مصر لما بلغه، وأرسل إلى الشريف ثقبة وخدعه وطلبه إليه، فلما وصل إليه بمصر حبسه، فعند ما بلغ الشريف عجلان حبس أخيه ثقبة أخذ جلاب اليمن جميعًا فكان ذلك بعض أسباب الغلاء، وأعاد رميثة إلى إمرة مكة فعاد واستمر إلى سنة ست وأربعين وسبعمائة، فعزل عنها بابنه عجلان، وكان الملك الكامل ولاه ذلك من مصر.

فوصل مكة متوليًا ودخلها فى حياة أبيه.

وتوفى والده رميثة فى النصف من شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة.

وكان الشريف رميثة سيدًا جليلاً فاضلاً نبيلاً، شاعرًا كريمًا، حازمًا حليمًا.

ولما تغلب ابنه أحمد على الحلة وأعمالها من العراق كتب إليه أبوه رميثة قصيدة يذكر فيها شرف مكة وفضائلها ويذم العراق وأهله، فلما قتل أحمد وصل الخبر إلى

أبيه فقال: قد علمت منذ تعرض لبلاد المغول أنه مقتول.

وانقطع الحاج عن مكة خوفًا من أبيه رميثة.

وكانت وفاة رميثة يوم الجمعة الثامن من ذى القعدة الحرام سنة ست وأربعين وسبعمائة كما تقدم وطيف به أسبوعًا كما هى عادة أسلافه.

وذلك وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر، فكف حتى فرغوا من الطواف به.

وكان ابنه عجلان يطوف مع الجنازة، ثم جعله فى مقام الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم.

ودفن بالمعلاة عند قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى ﷺ.

كانت ولايته على مكة سبع مرات ومجموعها ثلاثون سنة أو أكثر، مستقلا أربع عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد، وشريكا لأخيه حميضة فى مرتين مجموعهما نحو عشر سنين، وشريكا لأخيه عطيفة ست سنين أو أزيد.

وكان يكنى أسد الدين ويلقب أبا عرادة. وكان له من الأولاد أحمد وسند وثقبة وعجلان ومغامس، رحمه الله تعالى

ومما قيل فيه قول موفق الدين الحديدى: [من الكامل]

بِاللهِ هاتِ عَنِ اللِّوَى وطُلُولِهِ ... وعَنِ الغَضَا وجَلالِهِ وحُلُولِهِ

أَطِلِ الحَدِيثَ فَإِنَّ تَقْصِيرَ الذي ... يَلْقَى مِنَ التَّبْرِيحِ فى تَطْوِيلِهِ

عَلِّلْ بِذكْرِ العَامِرِيَّةِ قَلْبَهُ ... فَشِفَاءُ عِلَّةِ ذَاكَ فى تَعْلِيلِهِ

وإذَا عَلِيلُ الرِّيحِ أَهْدَى نَحْوَهُ ... نَشْرًا فَنَشْرُ عَلِيله بِعَلِيلِهِ

رَشَأٌ رَنَا فَرَمَى فُؤَادَ مُحبِّهِ ... عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ بِسَهْمِ كَحِيلِهِ

وحَوى القُلُوبَ بِأَسْرِهَا فِي أَسْرِهِ ... وسَبَى البَهَا بِرَسِيلِهِ وأَسِيلِهِ

وَبَيَاضِهِ وسَوَادِهِ وقَوِيهِ ... وَضَعِيفِهِ وخَفِيفِهِ وثَقِيلِهِ

وتَفَيَّأَ الظِّلَّ الذِى ضَمِنَتْ له الْ ... أَيَّامُ بَيْنَ مَبِيتِهِ ومَقِيلِهِ

حَطُّ الرِّحَالَ بِمَكَّةِ وأَقَامَ فِي ... حَرَمِ الخِلاَفةِ بَعْدَ طُولِ رَحِيلِهِ

جَلَبَ المديحَ لمنجبِ بنِ مُحَمَّدِ ابْـ ... ـنِ نَبِيِّهِ ابْنِ وَصيِّه ابنِ بَتُولِهِ

ومنها:

واقرأ تحيَّتَهُ البطين ومجد إِبْـ ... ـراهيمِهِ فى صُلْب إسماعيلِهِ

مَا بَيْنَ شبّره وبَينَ شبيرِهِ   شرفٌ يَطُولُ لِهَاشِمٍ وعَقِيلِهِ
نَسَبٌ كَمُشْتَقِّ الشُّمُوسِ ومَفْخَر   باعُ الكَوَاكِبَ قَاصِرٌ عَنْ طُولِهِ
أَمَّا الفُرُوعُ فَلَيْس مِثْلَ فُرُوعِهِ   وكَذَا الأُصُولُ فَلَيْسَ مِثْلَ أُصُولِهِ
يَابْنَ المُظَلَّلِ بِالغَمَامَةِ والذِي   قَدْ أُنزِلَ القُرآنُ فِي تَفْضِيلِهِ
مَاذا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنا   فِيكُمْ مِنَ الرَّحْمنِ فى تَنْزِيلِهِ
فِي هَلْ أَتَاكَ، وَهَلْ أَتَى، وَحَدِيدِه   حَقًّا، وغَافِرِهِ، وفِي تَنْزِيله
قَالوا مَدَحْتَ رُمَيْثَةَ فَأَجَبْتُهُمْ   لَيْسَ المَدِيحُ يَنَالُ غَيْرَ مُنِيلِهِ
ولكَيْفَ لا أُثْنِي عَلَى مَنْ عَمَّنِي   دونَ الوَرَى مِنْ خَيْرِهِ بِجَزِيلِهِ
بِنُضَارِهِ ولُجَيْنِهِ وثَوَابِهِ   وثِيَابِهِ ورِكَابه وخُيُولِهِ

هذا ما وجدت، ولا أعلم هذا آخرها أم لها آخر، وهى عظيمة الشأن من الحسن فى المبنى والمعنى بمكان.

وللأديب أبى عامر منصور بن عيسى بن سحبان الزيدى فيه قصيدة أولها: [من الكامل]

مَا أَومَضَتْ سَحَرًا بُرُوقُ الأَبْرَقِ   إلاَّ شَرِقْتُ بدَمْعِيَ المُتَرقْرِقِ
صنَمٌ شُغِفْتُ به وغصْنُ شبابه   غضٌّ وَبَرْدُ شبيبتى لم يخلَقِ
شقَّتْ عرى كَبِدِى شقائقُ خدِّهِ   وبكأسِ فِتْنَتِهِ سُقِيتُ وما سُقِي
ما فاتَ من عُمْرٍ فلِلْغِيدِ الدُّمَى   لا أَرْشَ فيه وللصَّبَابَةِ ما بَقِى

ومن مديحها قوله: [من الكامل]

رَجُلٌ إذا اشْتَبَهَ الرجالُ عرفْتهُ   بجلالِ صُورتِهِ وحسنِ المنطقِ
ومظفَّرُ الحملاتِ يرقصُ منه قلـ   ـبُ المغربِ الأَقْصَى وقلبُ المشرقِ
عَلَمٌ يدلُّ على كَمَالِ صفاتِهِ   كَرَمُ الفُرُوعِ له وطيبُ المَعرقِ
يلقَى بوجهِ البِشرِ طارقَ بابِهِ   [لَيْلاً] ويرزقُ منه من لم يرزقِ
عَزَّتْ بنو حَسَنٍ بدَوْلته التي   عزُّ الذليلِ بها وأَمْنُ المفرقِ
هو صُبْح ليلتها وبدْرُ ظَلاَمِهَا   ولسانُ حِكْمَتِها وصدْرُ الفيلقِ
لا يتَّقَى مِنْ كُلِّ حادثة بها   وبه بِمَكْرُوهِ الحوادثِ نتَّقِي

وله فيه أيضًا: [من الخفيف]

حَفِظَ العَهْدَ بعدنا أَمْ أضاعا | وعَصَى لائتمامه أمْ أطاعا
ورعَى حرمةَ الجوارِ وراعَى | أم وهَى بالفراق قلْبى وَرَاعَا
مَنْ يكُنْ يحمدُ الوَدَاعَ فإِنِّي | بعد يوم النَّوَى أذمُّ الوداعا
جيرتى ما لنا حَفِظْنَا هواكُمْ | وغدا حبُّنا لديْكُمْ مُضَاعا
إنَّ مَنْ قَدَّر الفراقَ علينا | قادرٌ أن يقدِّرَ الإجتماعا
قلْ لذاتِ القناعِ هل جئتُ ذنبًا | فيكِ حتى أسبلْتِ دونى القناعا
إنَّ مَنْ أشبَعَ السوارَيْنِ يَدَيْـ | ـكِ لَمَجْرى الوشاح مِنْكِ أجاعا

ومنها: [من الخفيف]

قل لِأَهْلِ الزَّمَانِ إنى وإنْ رِيـ | ـعَ سوَاىَ بكَيْدكُمْ مُرْتاعا
نحنُ فى دولةٍ إذا مَدَّتِ النا | سُ إلَيْنَا شبرًا مدَدْنا ذراعا
طلبتْ بى أبا عرادة عيسٌ | لا تملُّ الإرقالَ والإيضاعا
عرستْ من رميثة بعراصٍ | لم يزلْ نبْتُ روضها ممْرَاعا
نزلَتْ سوحَهُ عطاشًا جياعًا | فَأَقَامَتْ به رواءً شِباعا
رَجُلٌ لا تراه بالمالِ مفرا | حًا وَلاَ مِنْ مُلمَّة مِجْزَاعا
وعليه بِكْرُ الخلافةِ ألقَتْ | إذ رَأَتْه رداءها والقِناعا
ليس بالنَّازلِ الوِهَاد مِنَ الأر | ضِ ولكنَّهُ يحلُّ اليفاعا
موقدًا ناره على نَشَزِ الأر | ضِ إذا النَّاسُ لبسوها القفاعا
نَمْ هنيئًا يا جاره مِلْءَ عينيْـ | ـكَ ولا تخشَ نائبًا أن تراعا

ثم وليها بعده ابنه عجلان بن رميثة بن أبى نمى بن محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن أبى عزيز قتادة يلقب عز الدين.

ولى مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة منفردًا إلى سنة ثمان وأربعين، ثم شريكا لأخيه ثقبة إلى سنة خمسين وسبعمائة ولولده أحمد بن عجلان.

ووقعت بينه وبين أبيه وإخوته وولده أحمد منازعات اقتضت عزمه إلى مصر مرارًا أولها سنة موت والده رميثة سنة أربعين وسبعمائة، فوافق وصوله إِلَيْهَا موت ملكها الملك الصالح وتولية ابنه الكامل، فولى الكامل الشريف عجلان مكة منفردًا فوصل إليها وقرئ مرسومه بالتولية ودعى له بعد المغرب بأعلى زمزم على العادة، وقطع

الدعاء عن والده رميثة. وذهب أخوه ثقبة إلى وادى نخلة وأعطى عجلان أخاه مغامس - أو مباركا - المكان الذى عرف بالواديين، وأظهر الشريف عجلان العدل فى مكة وأبطل المكوس والنهب والقتل وخرج ربع الجبايات.

ففى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وصل ثقبة من مصر، وبيده مرسوم بنصف البلاد، وأن الشريف عجلان يكون له النصف الآخر.

وفى سنة تسع بتقديم التاء وأربعين وصل إلى مكة إليه مبارك بن عطيفة من اليمن وهم أن يدخل مكة فألقى الله فى قلبه الرعب فرجع، ووصل إلى سواكن ومات بها.

ثم وقع بين الشريف عجلان وأخيه الشريف ثقبة سنة خمسين وسبعمائة فتنة، وكان ثقبة بالجديد وعجلان بمكة فخرج إليه الشريف عجلان، فلما هم بالقتال منعه الأشراف والقواد وأصلحوا بينهما، وعزم الشريف عجلان إلى خيف بنى شديد ودخل ثقبة مكة.

ثم عزم عجلان إلى مصر، وهذه هى السفرة الثانية، فقطع الشريف ثقبة الدعاء لأخيه عجلان، فلما وصل الشريف عجلان إلى مصر كتب له مرسوم بإمرة مكة وأرسل معه أمير واشترى المماليك لنفسه، واستخدم حملة عسكر وتجهز، وصحب معه حمل نشاب وقسى، ووصل إلى مكة بهذا الجمع، فعزم الشريف ثقبة وأخواه سند ومغامس إلى اليمن، وتلقوا الجلاب ونجلوها بحلى، واستمر الشريف عجلان فى ولاية مكة.

فلما كان موسم إحدى وخمسين وسبعمائة وقع بمنى قتل ونهب من أول النهار إلى غروب الشمس، وذلك أن السلطان الملك المجاهد صاحب اليمن حج فى عسكر كبير، ووصلوا مع الأشراف السيد ثقبة وأخويه سند ومغامس، فأوحى الشريف عجلان إلى أمراء الحاج المصرى والشامى أن الملك المجاهد نيته أن يولى ثقبة إذا عزمتم، ويخلع كسوتكم ويكسو البيت بالكسوة التى صحبها معه، فأرسلوا إليه وعرفوه بما ذكر، فأنكر ذلك.

فقالوا: أعطنا ثقبة يكون رهنًا عندنا حتى ندعك تدخل، فأرسل إليهم بالشريف ثقبة فأجلوه وعظموه، فلما وصل وحج هجموا عليه بمنى وهو نائم، وقد تفرق عنه جماعته فنهبوا محطته، وبعض الحريم فنجا بنفسه إلى أعلى الجبل، فلما رأى

ما وقع صاح عليهم الأمان: إن كان لكم غرض بى أنا آتيكم، ما فعل هؤلاء الضعفاء؟ فسكن الحرب ونزل إليهم، فترجلوا له عن الخيل وأركبوه بغلا وذهبوا به، فما صفت المسألة حتى قتل خلق ونهبت الناس، وألزم الأمراء الشريف عجلان بحفظ الحاج، غير أن العرب وبعض العبيد نهبوا الناس ما بين منى ومكة.

ولما وصل الحاج والأمراء وادى مر فى موسم أربع وخمسين وسبعمائة واجههم الشريف عجلان وشكا عليهم ما فعله أخوه الشريف ثقبة فى السنة التى قبل هذه سنة ثلاث وخمسين وأنه أخذ أمواله وخيله وعبيده، وقيده فخلصه الله تعالى، فوعدوه بالولاية وطمنوا خاطره.

فلما وصلوا الزاهر خرج إليهم الشريف ثقبة على المعتاد، فتكلموا معه فى الصلح مع أخيه الشريف عجلان، فامتنع فلم يزالوا يلاطفونه حتى دخل إليهم.

فقال لهم الشريف ثقبة: إن كان هذا بأمر السلطان فنعم وإلا لا أفعل، فقبض بعض الأتراك على سيف ثقبة والباقون احتاطوا بمن معه، فأنزلوهم عن خيولهم وكبلوهم فى الحديد هو وأخويه سند ومغامس وابن عمه محمد بن عطيفة وفر القواد والعبيد، ثم أحضروا عجلان، وألبسوه الخلعة، ودخلوا به مكة ولم يختلف عليه اثنان، فلما أتموا الحج ذهبوا بالأشراف إلى مصر، ووضعوهم فى الحبس، ودام عجلان على ولاية مكة منفردًا مستقلا إلى أن فك ثقبة، والأشراف الذين معه وشاركه فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، واستمر حتى عزلا بأخيهما سند بن رميثة وابن عمهما محمد بن عطيفة.

ثم وليها سند ومحمد بن عطيفة فى سنة ستين وسبعمائة شريكين، واستمرا إلى أوائل سنة اثنتين وستين وسبعمائة، ففيها قدم الشريف عجلان من مصر متوليًا، وأشرك أخاه ثقبة، فمات ثقبة، واستقل عجلان كما سيأتى ذكر ذلك آخر السوادة، وأخذ الشريف عجلان وولده أحمد، وذهب بهما إلى مصر فحبسا، وجهز الملك الناصر حسن بن قلاوون عسكرًا لتأييد سند ومحمد بن عطيفة مقدمهم الأمير بكتم الماردينى، وانصلح لذلك حال مكة حتى انقضى الحج من سنة إحدى وستين وسبعمائة.

ثم قامت فتنة بين بنى حسن والعسكر الذى وصل من مصر والشام للإقامة بها

عوض بكتم الأمير ومن معه، كان الظفر فيها للأشراف، وسبب ذلك أنه أشيع بمكة أن من نية العسكر المقيمين بمكة القبض على شريفها الشريف سند، ففرت الأشراف لما قاسوه من هذا الأمر، فإن الشريف عجلان وولده أحمد إلى الآن محبوسان بمصر، فأشيع ذلك قبل قدومهم، فلما وصل العسكر إلى مكة أرادوا أن ينزلوا بيتًا بالصفا للأشراف، فطالبهم الشريف صاحب البيت بالأجرة، فضرب التركى الشريف، فقتله الشريف، فتراكم الأتراك على الشريف فصاح لرباعته، فاجتمعوا إليه جماعة، واشتد الأمر، فقصدت الأشراف أجيادًا فوجدوا خيلاً للترك على باب الصفا كان الأمراء اعتمروا فهم فى الطواف فركبت الأشراف تلك الخيل، فبلغ الأمراء ذلك وهم يطوفون، فقطعوا الطواف وقصدوا المدرسة ليحفظوها وقفلوا أبواب المسجد الحرام وتحصنوا به، وأمروا بهدم الظلة التى على رأس زقاق أجياد الصغير ليروا من يقدم عليهم منه، وكان غالبهم بسطح المسجد يرمى بالنشاب، وسدوا الطريق بالأخشاب لئلا يخرج عليهم أحد من أجياد الكبير.

هذا خبر الترك.

وأما بنو حسن فإنهم استدلوا أيضًا على إصطبل لبعض الأمراء، وقصدوا الأمير قندس، وكان نازلاً بأجياد بالزباهية فقاتلوه من خارج، ودخلوا عليه الدار، فقتلوا جماعته وأسروه، ونهبوا ما كان عنده جميعه، واستجار نساؤه ببيت السيد مبارك بن رميثة، وجاء السيد مغامس من أجياد ليقاتل الترك الذين فى المسجد، فجفلت به فرسه فسقط فقتلوه، وبقى فى مصرعه إلى المغرب، وأراد محمد بن عطيفة أن يتعصب للترك، فتهدده بنو حسن بالقتل، وكان محمد بن عطيفة تأخر عن نصرة العسكر، فخرج خائفا يترقب، فدخل الشريف ثقبة مكة سادس عشر ذى الحجة، وشارك أخاه سندًا عوض محمد بن عطيفة، وانقطع عن محمد هذا فأراد الاجتماع بالترك فلم يمكنوه لما حل بهم من خوف الأشراف، وما فعلوه بهم بحيث إنهم باعوا بعضهم فى الحراج ينادى عليه الدلالون فى الأسواق، ثم ذهبوا فلم يبق منهم إلا أمير واحد وأولاده، فاقترض ما تزود به، وترحل عن مكة، وفر غالب أهل مكة أرباب الأموال خوفًا من الأشراف، إلا أن الله سلمهم من النهب، اكتفوا بما أخذوه من أموال الأتراك.

وتوجه محمد بن عطيفة إلى مصر فلم ير بها وجهًا، واستمر بها إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ومما قيل فيه من المدح قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هى: [من الطويل]

أترضَى بإتلافِ المحبِّ ظلامةً ... فتأخذه بالعُنْفِ والرفقُ أليقُ؟!
أعندكَ علْمٌ أَنَّهُ بكَ هائمٌ ... وأَكْبَادُهُ مِنْ لوعةِ الهجرِ تحرقُ
فَأَحْوَالُه تُنْبِى بما فى ضميرِهِ ... إذا لم يكُنْ للقَوْلِ منه مصدِّقُ
بلَوْتُ بنى الدُّنيا جميعًا بأسرِهِمْ ... وَجَرَّبْتُهُمْ إن التجاربَ تصدقُ
فلم أرَ فى ذا العَصْرِ مثلَ محمدٍ ... إمامًا به الدُّنْيَا تضىء وتشرقُ
جوادًا إذا جار الزَّمانُ على الورى ... يجودُ بما تَحْوِى يداهُ وينفقُ
لقد جَلَّ عن قدر الملوك الأُلَى مَضَوا ... إلى الغَايةِ القصوَى مِنَ الفضلِ يسبقُ
يجودُ على العَافِى ويبدِى اعتذارَهُ ... فَأَوْرَاقُهُ بالجودِ والبذلِ تورقُ
لقد عَجَزَ المداحُ فى بعضِ وصفِهِ ... عليهم بأنواعِ المكارمِ يغدقُ
على أنه واللهِ واحدُ عصرِهِ ... وهل مثله من بعدِ ذا العصرِ يخلقُ
ومن لامنى فى مدحه فهو جاهلٌ ... فَجِيدِىَ بالإحسانِ منه مطوَّقُ
وإن كان مدحُ الغَيْرِ عندىَ سُنَّةً ... فمدحى له فرضٌ عليَّ مُحَقَّقُ

فلما بلغ صاحب مصر فعل الأشراف بالترك، أرسل بالشريف عجلان وولده أحمد من سجن القاهرة إلى سجن الإسكندرية بالبرج.

قلت: ذرية بعضها من بعض، سبحان الله، هكذا وقع فى سنة ثمان وسبعين بعد الألف لما أوقع مولانا السيد حمود بن عبد الله بن حسن بالترك قريبًا من ينبع فكسرهم وبدد شملهم وقهرهم، وكان قد أرسل ولده المرحوم السيد أبا القاسم بن حمود والسيد محمد ابن المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بن حسن إلى باشا مصر بهدية وقواد من الخيل، فاحتفظ بهم أولاً فى المحل المعروف بالسلطان قايتباى ثم فى بيت أغاة الأنكشارية، فلما جاءهم خبر جماعتهم وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ من أبويهما تحركت حمية الغضب على هذين الشريفين، فنقلا إلى السجن الكبير المسمى عرق خانة سجن الدم، فقدر الله إطلاقهما بعد ذلك ولله الحمد. فذكرت بتلك الواقعة هذه الواقعة، إلا أن الشريف عجلان وولده فكا وأعطيا إمرة مكة وهذان

لم يعطياها وتلك قسمة إلهية. انتهى.

وأمر السلطان بإرسال عسكر إلى الحجاز يتتبعون الأشراف وجندهم وعزلهم عن إمرة مكة وقال: لا حاجة لنا بهم.

فلم يستمر بعد هذه النية إلا أيامًا حتى ركب عليه عسكر مصر عزلوه، وولوا الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر، فأطلق الشريف عجلان وولاه مكة وأشرك معه أخاه ثقبة بن رميثة بسؤاله لذلك، فلما أقبل الشريف عجلان ووصل إلى وادى مر اجتمع فيه بثقبة عليلاً مدنفًا، فمات ثقبة بقرب ذلك فى شوال سنة اثنتين وستين وسبعمائة بالجديد، وحمل إلى مكة فدفن بالمعلاة.

وكان موصوفًا بالكرم والشجاعة. ومما قيل فيه قول ابن غنائم من قصيدة: [من المنسرح]

ما خفقَتْ فَوْقَ منكِبٍ عذَبهْ   على فتًى كابن مُنْجِدٍ ثقبَهْ
ولا اعتزَى بالفَخَارِ منتسبٌ   إلا وفَاقَتْ علاه منتسبَهْ
منتخبٌ من سليلِ منتخبٍ   مُنْتَخَبٌ من سَلِيلِ منتخبَهْ
كم جَبَرتْ راحتاه منكسرًا   وفَكَّ مِنْ أسْرِ عُسْرَةٍ رَقَبَهْ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبة، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعًا آخر.

ثم فى سنة ست وستين وسبعمائة ورد الأمر من صاحب مصر على يد الأمير بهادر والأمير سفيان الطولونى إلى شريف مكة بإسقاط المكوس والضرائب، وعوض أمير مكة عن ذلك فى كل سنة مائة وستين ألف درهم وألف إردب قمحًا ونقر ذلك فى دعائم بالمسجد الحرام جهة باب الزيادة وباب العجلة المسمى باب الباسطية أو باب الصفا، وهى موجودة إلى الآن مؤرخة بالسنة المذكورة أعنى سنة ست وستين وسبعمائة.

ولما عزل سند ومحمد وولى عجلان من مصر فوصل إلى مكة، وأشرك أخاه ثقبة ثم مات ثقبة فأمر ولده أحمد بالاجتماع بالقواد ليسألهم أن يسألوا له والده أن يشركه معه فى إمرة مكة وكانوا يخدمون سندا، فاجتمع بهم أحمد فأقبلوا عليه وعرف ذلك سند فخاف على نفسه فهرب إلى نخلة، وقيل بل أقام بوادى مر بالجديد واستجار

بابن أخيه محمد بن عجلان، ثم وقع بين بعض غلمان سند وبين بعض غلمان أحمد شيء أوجب تغير خاطر أحمد عليه فأمره بالانتقال من الجديد، فانتقل إلى وادى نخلة ثم إلى الطائف ثم إلى الشرق ثم إلى المدينة ثم إلى ينبع، فوصله وهو بها أوراق بنى حسن يأمرونه بالقدوم إليهم ليساعدوه على ولايتها فوصل وقصد محاربته فلم يتم له ذلك، فعرض له مرض مات به سنة ٧٦٣ ثلاث وستين وسبعمائة بالجديد. واستولى ابن أخيه عنان بن مغامس بن رميثة على خيله وسلاحه وذهب به إلى اليمن.

ومما قيل فى الشريف سند بن رميثة قول حمزة بن أبى بكر الشاعر المشهور قصيدة هى: [من الطويل]

خَلِيليَّ إما جئتما رَبْعَ ثهمدِ ... فلا تَسْأَلاَهُ غَيْرَ عَنْ أم معبدِ
وإن أَنْتُمَا أبصرتما بانة الحِمَى ... ورَسْمًا لذاتِ المبسمِ المتبددِ
فَأَوَّلُ ما تستنشدا عن حلولِهِ ... وتستفهما أَخْبَارَ رَسْمٍ ومعهدِ
عسَى تخبر الأطلالُ عمن سَأَلْتُما ... بما شِئْتُمَا للمستهامِ المسهَّدِ

ومنها: [من الطويل]

وفى سَنَدٍ أسندتُ مدحًا منضدًا ... غَرِيبَ القوافِى كالجمانِ المنضَّدِ
هو القَيْلُ وابن القَيْلِ سلطان مكةٍ ... وَحامِى حماها بالحسامِ المهنَّدِ
وصفوة آل المُصْطفَى طود فَخْرهم ... وبَانِى علاهُمْ فوقَ نَسْرٍ وسرددِ
بَنَى ما بنَى قِدمًا أبوه رميثة ... وشاد الذى قَدْ شَادَ من كلِّ سؤددِ
وشنَّ عتاقَ الخيل شُعْثًا ضوامرًا ... وأفنَى عَلَيْهَا كلَّ طاغٍ ومعتدِى
فروَّى صفاحَ البِيضِ من مُهجِ العدَى ... وسُمْرَ القنا مهما اعتلَى ظَهْرَ أجردِ
وأبيضَ طلق الوَجْهِ يهتزُّ للندَى ... ويُجْدِى إذا شَحَّ الحيا كلّ مجتدِى
كريمٌ حَلِيمٌ ماجدٌ وابنُ ماجدٍ ... ظَرِيفٌ شريفٌ سيدٌ وابنُ سيدِ
إمامُ الهدَى بَحْرُ الندا مهلكُ العدَى ... وَبَدْرٌ بدا من آلِ بيتِ محمدِ
أشمُّ طويلُ الباعِ ندبٌ مُهَذَّبٌ ... أغرُّ رحيبُ الصَّدْرِ ضخْمُ المقلَّدِ
فدوحتُهُ بين الوَرَى خير دوحةٍ ... ومحتده بين الوَرَى خيرُ مَحْتِدِ
إليكَ جَلَبْتُ المَدحَ إذ أنتَ كفؤُهُ ... وإن أنا أجْلبْهُ لغيرِكَ يكسدِ

وما مدحكم إلا عَلَيْنَا فريضَةٌ ومدحُ سِوَاكم سنَّةٌ لم تؤكَّدِ
ثناؤُكُمُ أَثْنَى به اللهُ جهرةً وأنزله وَحيًا على الطهْرِ أحمدِ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبة، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعا آخر، ثم ترك له الإمرة على أن لا يسقط اسمه من الخطبة وغير ذلك، فوفى له أحمد بذلك حتى توفى فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

وكان عجلان فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة حارب أحمد بن عيسى الحرامى صاحب حلى بمكان يقال له فجرة، فظهر عجلان على أحمد بن عيسى المذكور.

وكان عجلان رحمه الله تعالى شيخًا صالحا سعيدًا اتفق له ما لم يتفق لأسلافه من السعودات فإنه أول من ملك بلاد حلى من أهله السابقين، وبنى الحصون بأجياد، وأرض حسان والمدارس بمكة، وملك العبيد والخيول، والدروع الكثيرة، وأنشأ بمكة سبيلا للماء بالمروة واستمرت خيراته وحسناته.

ومدحه جماعة من الشعراء منهم الشاعر المعروف بالنشو وغيره وكان له جملة من الأولاد منهم: أحمد وكبيش ومحمد وعلى وحسن.

وتوفى عجلان ليلة الإثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وسبعمائة فى جمادى الأولى كما تقدم آنفًا بأرض الجديد، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة، وبلغ من العمر نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى.

ومما مدح به الشريف عجلان قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هى: [من الكامل]

لَوْلا الغرامُ ووجدُهُ ونحولُهُ ما كُنْتَ ترحمُهُ وأنتَ عذولُهُ
إن كنْتَ تنكرُهُ فَسَلْ عن حالِهِ فَالحُبُّ داءٌ لا يفيقُ عليلُهُ
يا مَنْ يَلُومُ على الهَوى أهْلَ الهوى دَعْ لومهُمْ فالصبْرُ ماتَ حميلُهُ
دعْ عنك من لا خَيْرَ فيه من الورى لا تَمْتَدحْهُ وفى الأنامِ بديلُهُ
وامدحْ مَلِيكَ العَصْرِ وابْنَ مليكِهِ مَنْ شَاعَ ما بين الملا تفضيلُهُ
عجلانُ نَجلُ رُمَيْثَة بنِ محمدٍ أمِنَ الحَوادِثَ والخطوبَ نزيلُهُ
وَرِثَ المَكارِمَ كابرًا عن كابرٍ فنوالُهُ للعالمينَ ينيلُهُ
مِنْ آلِ أَحْمَدَ واحدٌ فى عصرِهِ فهو الشَّريفُ ابن الشريفِ سليلُهُ

ماذا يقولُ المدْحُ فيه وما عسَى إذ كان يَخْدمُ جدَّكُمْ جبريلُهُ
أما الملوكُ فَكُلُّهُمْ مِنْ دونه كالبَدْرِ فى أُفُقِ السماءِ حلولُهُ
سلطانُ مكَّةَ والمشَاعرِ والصفا مَنْ لا يَخَافُ مِنَ الزمانِ نزيلُهُ
لو حاوَلَ النجْمَ العَظِيمَ لنالَهُ تنبيك عِنْهُ رِمَاحُهُ ونصولُهُ
سكنَتْ مَحَبَّتُهُ القلوبَ جميعَهَا لما تَقَارَنَ سَعْدُهُ وقبولُهُ

ثم وليها أحمد بن عجلان قبل وفاة أبيه، وذلك بسبب أنه لما جعل له ربع المحصول عوض عمه ثقبة طلب أحمد ربعًا آخر، فأجازه له والده، ثم إن والده لما رأى إقبال الناس على أحمد، ومحبتهم له أراد إغاظته بأخيه محمد بن عجلان فأعطاه خيلاً ودرعًا، فلم ينهض محمد لما أريد منه، فبلغ ذلك أحمد فعاتب أباه عجلان فاعتذر له، وقال له: أنا أترك لك البلاد كلها، فوقع الاتفاق على أن أحمد يعطى أباه عجلان النقد الذى شرط له، وأن يكون له أيضًا فى كل سنة الجزء الذى قرر لعجلان بديار مصر فى مقابلة إسقاط المكس عما يصل إلى مكة من المأكولات، وعن مكس الحجاج من الديار المصرية والشامية الواردين بحرًا وبرًّا وهو مائة ألف درهم وستون ألف أردب قمح، وأن لا يقطع اسم عجلان من الدعاء فى الخطبة مدة حياته، فالتزم أحمد بجميع ذلك، فألح عجلان فى تحصيل النقد المشروط على أحمد استعجازًا منه له ليكون سببًا لرجوع الأمر إليه، فيسر الله لأحمد من أعانه على إحضار المال فأحضره، فلم يجد بدا من قبوله فوفاه بجميع ما التزمه من الوعود، واستمر أحمد حتى مات حادى عشر شعبان سنة ثمان وستين وسبعمائة: وكانت مدته ستًّا وعشرين سنة.

قال فى « الدرر الكامنة فى أخبار المائة الثامنة » كان أحمد بن عجلان عظيم الأبهة واسع الحرمة كثير الرئاسة ملك جملة من العقار والعبيد وعدل وقمع المفسدين.

ثم وليها الشريف محمد بن أحمد بن عجلان ثمان سنين شريكا لأبيه ومائة يوم مستقلا بعده، ثم قتل فى مستهل ذى الحجة من السنة المذكورة لما حضر لخدمة المحمل المصرى بظاهر مكة.

سبب ذلك أن أباه الشريف أحمد بن عجلان كان قد وقع بينه وبين ابن عمه عنان

ابن مغامس منافرة، فسافر عنان ومعه حسن بن ثقبة إلى مصر فبالغا فى شكوى أحمد، وسألا من السلطان برقوق أمورًا أجابهم إليها لصدور رقة عنان، فأرسل أحمد بن عجلان بهدية سنية صحبة كبيش إلى السلطان، فلما رأى كبيش رواج عنان عند السلطان ما أمكنه إلا أن يلتزم على أحمد جميع ما أراده عنان وما أمر به السلطان خشية من حصول مكدر على أحمد وعليه، فوصلوا جميعًا إلى مكة فعرف كبيش أحمد بالأمر، وقال له: لابد لك من الموافقة على ما رسم به السلطان لكما أو الفتك بعنان، فاختار الثانى. فاجتمع عنان وحسن بأحمد بعد التوثق منه فما أجاب لمرادهما، ثم فطن عنان لقصد أحمد فيه ففر إلى الينبع وتلاه حسن بن ثقبة، ثم حسن لهما أمير الحاج المصرى أبو بكر بن سنقر الجمالى الرجوع إلى مكة، وحسن لمحمد بن عجلان أن يرجع معهما إلى مكة، وكان قد توجه من مكة مغاضبًا لأخيه أحمد وضمن لهم الأمر المذكور أن أحمد يقضى حوائجهم إذا وصلوا إليه ورجعوا، فلما اجتمعوا بأحمد قبض عليهم، وضم إليهم أحمد بن ثقبة وابنه عليا بن أحمد بن ثقبة، وقيد الخمسة وسجنهم بالعلقمية من أول سنة سبع وثمانين وسبعمائة إلى موسمها، ثم نقلهم إلى أجياد، ثم أعادهم بعد الموسم إلى العلقمية فدبروا حيلة للخروج منها، وربطوا سررا كانت عندهم بثياب معهم، وصعدوا غير محمد بن عجلان حتى بلغوا طاقة تشرف على منزل ملاصق لسجنهم، فنزلوا منها إليه ففطن لهم بعض الساكنين فصاح عليهم يظنهم لصوصًا فسمع الصياح الموكلون بهم وعرف الأشراف تيقظ الموكلين بهم، فأحجموا عن الخروج إلا عنانا فإنه أقدم، ولما بلغ إلى باب الدار وثب وثبة انفك القيد بها عن إحدى رجليه وما شعر به أحد حين خرج، فسار إلى جهة سوق الليل وما كان غير قليل حتى رأى كبيشًا والعسكر يفتشون عليه بضوء معهم فدنا إلى مزبلة بسوق الليل وأظهر أنه يبول، فأخفاه الله عن أعينهم، فلما رجعوا سار إلى أن لقيه بعض معارفه فعرفه خبره، وسأله فى تغيبه فغيَّبه فى بيت بشعب على فى صهريج فيه ووضع على فمه حشيشًا ودابة ليخفى موضع الصهريج، وفى الصباح أتى كبيش إلى ذلك البيت فما وجده فيه فقيل له إن فى البيت صهريجًا فأعرض عن ذلك لما أراده الله من سلامة عنان، ثم بعث عنان إلى أقاربه من ذوى راجح وسألهم الإعانة بمركوب له ولمن يسافر معه فأجابوه وأخرجوا له

ركائب إلى المعابدة وحملوا عليها فخارا ليخفوا أمرها على من رآها، فخرج عنان إلى المعابدة ونزل عند امرأة يعرفها فألبسته لباسها، ونمى الخبر لكبيش، فأتى منزلها وسألها فنالت من عنان كثيرًا فصدقها كبيش، فلما كان الليل ركب مع رجلين أو ثلاثة الرواحل التى أعدت لهم، فوقفت بعض ركابهم قبل وادى مر، وما وصل هو إلى خليص إلا وقد كلت راحلته، فسأل بعض أهل خليص عن راحلة لبعض أصحابه بلغه أنها بخليص فأخبر بوجودها فأخذها. ويقال: إن صاحبها كان إذا خلص من علفها يقول: ليت عنانا يخلص فينجو عليك فكان ما تمناه، فوصل إلى ينبع ثم منها إلى مصر، واستجار بملكها برقوق أول ملوك الشراكسة بمصر.

فأرسل الشريف أحمد بن عجلان يطلبه، فكتب إليه السلطان يقول: وأما ما ذكرت من جهة عنان فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ ﴾ [التوبة: ٦] فكيف إذا استجار بنا ابن رسول الله ﷺ؟ وأمره بإطلاق الأشراف فامتنع من ذلك، ثم قدر الله أن الشريف أحمد مات فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة كما تقدم ذكره، وأقيم عوضه فى إمارة مكة ولده محمد هذا ابن أحمد بن عجلان، كان المدبر لأمر ملكه عمه كبيش بن عجلان، فبعد موت أحمد بن عجلان عمد كبيش إلى الأشراف المذكورين وسمل أعينهم جميعًا فتألم الناس لذلك غاية التألم.

ولم يحصل له بعد ذلك راحة، وتوهم كبيش أن ذلك يكون حسما لمادة الشر ونجاحا، فكان للشر مفتاحا.

فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على محمد بن أحمد وعلى عمه كبيش بن عجلان، وولى إمرة مكة للسيد عنان بن مغامس، وكتم ذلك عن الناس، وخادع محمد بن أحمد وعمه كبيش بن عجلان بإرسال الخلع والمراسيم وزينت مكة، فلما تجهز الحاج خرجوا معهم بالسيد عنان بن مغامس كآحاد الناس لا يلتفت إليه إذا حضر كل ذلك لما أضمروه، فلما وصل الحاج إلى الزاهر بعثت أم محمد الشريفة فاطمة بنت ثقبة إلى أمير الحاج شركس الخليلى أمير آخور بعد أن أهدت إليه هدايا تسأله عن حال ابنها محمد وعنان فذكر لها أنه لا يعلم على ابنها سوءًا وربما حلف لها على ذلك، فانشرح لذلك خاطرها وحسنت لابنها الإقدام عَلَى ملاقاةِ المحملِ المصريّ، وَمَا زَالَتْ به حَتَّى وافقها فخرج فى عَسْكرِهِ إِلى لِقَائِهِ على العادةِ هو وعمه

كبيش، فلما أراد أن يقبل الجمل - على ما كان يفعله الشراكسة مِنَ الجهلِ - وثب إليه اثنان من الزعر من المحمل كل واحد بيده خنجر طعناه فمات من حينه، فعوجل بالعقوبة فى هذه المدة اليسيرة إذ قد تقدم أن مدة ولايته مستقلا مائة يوم، نسأل الله حسن الخاتمة ونعوذ به من سوء القضاء.

وفر عمه كبيش إلى جده فتبعوه فلم يحصلوه، وألبسوا الشريف عنان بن مغامس الخلعة، ودخلوا به مكة فوليها عنان بن مغامس، فلما وصلوا إلى أجياد تلقاهم بعض أصحاب الشريف محمد من العبيد والقواد، فتقاتلوا معهم فلم يلبثوا أن ولوا هربًا.

وَحَجَّ بِالنَّاس الشرِيفُ عنان والنَّاسُ فِى غايةِ الاضطرابِ والخوفِ.

ثم لما عزم الحاج أرسل عنان إلى كبيش عسكرًا ليخرجه من جدة ففر منها.

وسامح الشريف عنان الشيبيين فترك ما كان تأخذه الأشراف منهم بالقوة وهو خمسة آلاف درهم فى كل عام وجانب من الكسوة مع البرقع وثوب مقام الخليل.

وجرى بينه وبين كبيش فتن وجموع، ولم تصف البلاد له بحيث إنه عجز عن إقامة الجند والأشراف، فأخذ حاصل السلطان وما فيه، ونهب جدة وأموال التجار والمراكب غير مرة.

ثم إن كبيش المذكور عاد إلى جدة وحده، فنهبها وعاث عبيده فى الطرقات، فخشى عنان من كثرتهم، وأشرك معه فى الإمرة ابنى عمه أحمد بن ثقبة، وعقيل بن مبارك ثم أخاه على بن مبارك ثم دعا لهم معه على المنبر وزمزم، وظن بذلك أن يقوى أمره، ولم يساعده القدر فبلغت أحواله إلى السلطان برقوق بمصر، فعزل عنان فى رجب سنة تسع وثمانين وسبعمائة ثم ولى عوضه على بن عجلان.

فوليها على بن عجلان فى السنة المذكورة بعد عزل عنان حنقًا عليه لما اتفق فى ولايته من استيلاء كبيش، وجماعة عجلان وابنه أحمد ومن انضم إليهما وعجز عنان عن دفعهم عن الاستيلاء على جدة، فوصل النجاب إلى عنان ليسلم مكة لعلى بن عجلان، وجماعته فى النصف الثانى من شعبان من السنة المذكورة، فأقبل على بن عجلان فى جموع متقدمًا فمنعهم عنان وأصحابه من دخول مكة، وامتنع هو وجماعته من آل أبى نمى من تسليم مكة لآل عجلان، فتحارب الفريقان بالقرب من ثنية أذاخر فى التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة فقتل كبيش بن

عجلان، وطائفة من عسكر على بن عجلان.

فتمَّ النصرُ لعنان ورجع على ومن معهم إلى محلهم وهو القصر من وادى مر وذلك فى سلخ شعبان من السنة المذكورة.

وفى شهر رمضان توجه على إلى مصر، فأقبل عليه السلطان، وولاه إمرة مكة فأقبل صحبة الحاج المصرى فى ظلّ من ولاه.

واستمر عنان بعد خروج على إلى القصر، ومن معه مقيما لم يبرح حتى فارقها هو ومن معه عند وصول الحاج المصرى إليها وصحبته على بن عجلان المذكور، فخرج عنان ومن معه وقصدوا الزيمة، فدخلها على وقرئ توقيعه على مقام الحنابلة، وحج بالناس، وعنان مقيم بالزيمة بوادى نخلة اليمانية وكان أصحابه سبقوه إليها، فقصدهم على بن عجلان فى طائفة من الترك فوجدوهم محاربين لقافلة بجيلة فلما أحسوا بهم هربوا وقتل أصحاب على بن عجلان منهم مبارك بن عبد الكريم من الأشراف وابن شكران من أتباعهم، وعادوا إلى مكة ومعهم من خيل الأشراف خمس، ومن دروعهم ثلاثة عشر درعًا ووصلت قافلة بجيلة إلى مكة فانتفع الناس بها، وعادوا إلى مكة عشرى ذى الحجة الحرام.

وبعد رحيل الحاج نزل عنان وأصحابه الوادى وشاركوا على بن عجلان فى أمر جدة، ثم سافر عنان فى أثناء سنة تسعين وسبعمائة واصطلح على بن عجلان والأشراف واستمر متوليًا منفردًا بالإمرة إلى أن شاركه فيها عنان فى عام اثنين وتسعين وسبعمائة، فوصل إلى مكة فى شعبان من السنة المذكورة واصطلح مع آل عجلان، وكان معه القواد ومع على الأشراف، وكانا غير متمكنين فى القيام بمصالح البلد لمعارضة بنى حسن لهما فى ذلك، واستمر عنان شريكا لعلى بن عجلان حتى فارق عنان مكة متخوفًا من آل عجلان حين أرادوا الفتك به فى المسعى وذلك فى صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وقطع ذكره من الخطبة.

ثم دخل مكة ليتجهز منها إلى مصر بعد أن أخليت له ثلاثة أيام من آل عجلان، ولم يدخل مكة إلا بعد أن استدعى من السلطان إلى مصر هو وعلى، فتوجه إلى الديار المصرية، وتلاه إليها الشريف على بن عجلان بطلب من الملك الظاهر برقوق كما ذكر.

فأقام عنان بمصر معزولا مطلقًا ثم مسجونًا بقلعة الجبل، ثم بالإسكندرية ثم

بالقاهرة حتى مات بها فى ربيع الأول سنة خمس وثمانمائة.

قال صاحب «نشأة السلافة»: وكان فى هذا التاريخ صاحب مكة الشريف حسن ابن عجلان، ثم ذكر سبب موت عنان فقال: حصل لعنان مرض خطر يقتضى إبطال بعض جسده فعولج من ذلك بإضجاعه بمحل فيه آثار النار حتى يخلص ذلك إلى أعضائه فيقويها بها ففعل به ذلك فكان أثر النار الذى أضجعوه عليه شديدًا، فأحرقه فمات فى التاريخ المذكور رحمه الله تعالى.

ورأيت فى تاريخ خلفاء الزمن وملوكه، وولاية السالكين أحسن سنن للسيد محمد بن الحسين الحسينى السمرقندى فى ترجمة الشريف عنان بن مغامس هذا ما نصه: وبقيا يعنى الشريف عنان بن مغامس، والشريف على بن عجلان على ذلك مدة بعد أن جعلت إمرة مكة بينهما نصفين ما بين وفاق وشقاق، وكيف ينتظم أمر الأملاك مع الاشتراك؟ إلى أن مات عنان قتيلاً فى شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة.

وسبب قتله أن أعيان الأشراف والقواد بعد أن قبض على جماعة منهم خودع فى ذلك، فأطلقهم فصاروا يكلفونه ما لا تصل إليه قدرته من أخذ الأموال من التجار والحبوب من أهل الوادى والزراع، فكثر بسبب ذلك الهرج والمرج وقل الأمان، وشق على أهل مكة الشريفة قلة الواصل وكثرة الخوف، وافترقت الكلمة بين السادة الأشراف والقواد والعبيد، فاقتتلوا بسبب ذلك ومات عنان بتلك المسالك.

هذه ألفاظه فى الكتاب المذكور، والله أعلم بالحقائق.

ولما وصل الشريف على بن عجلان إلى الديار المصرية، وقبله عنان بن مغامس أقام عنان معزولاً مطلوقًا ثم مسجونًا إلى آخر ما تقدم، وأما الشريف على فأكرمه السلطان الملك الظاهر، وفوض إليه أمر مكة المشرفة، وأحسن إليه هو والأمراء، ثم سار إلى مكة المشرفة فدخلها وقت الموسم من السنة التى خرج منها فيها سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وفى آخر يوم منها قبض على سبعين نفرًا من الأشراف والقواد، فلم يزل يخادع فيهم حتى أطلقهم فكتموا له ذلك، وشوشوا عليه حتى قتلوه يوم الأربعاء سابع شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة بوادى مر وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وحمل إلى مكة المشرفة ودفن بها ليلا، وكان أخوه الشريف حسن قد حاصره

بالزاهر مدة أيام من هذه السنة، ثم توجه إلى الديار المصرية بها، فاعتقل فى السنة المذكورة، فلما وصل الخبر بوفاة أخيه على بن عجلان أطلقه الملك الظاهر برقوق وفوض إليه أمر مكة، وجميع الأقطار الحجازية لوفاة أمير مكة على بن عجلان قتلا، وجاء الخبر بولايته وقت الموسم.

وكان أخوه محمد بن عجلان وعبيد أبيه، وأخيه أحمد بن عجلان قد استولوا على مكة، وحفظوها حتى وصل إليهم من مصر فى رابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومعه يلبغا الناصرى وسنقر وعدة من المماليك الأتراك يزيدون على المائة أو دونها، ومن الخيل دون المائة.

ولم تتم السنة حتى وقع بين الشريف حسن وقتلة أخيه على واقعة عظيمة فى الخامس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، وكان الظفر فيها له عليهم بحيث لم يقتل ممن معه سوى مملوك وعبد، وقتل من الأشراف نحو سبعة ومن أتباعهم نحو الثلاثين، ولم يقتل من أصحاب الشريف حسن فيما قيل غير مملوك وعبد، وكان معه ألف رجل ومائتا رجل من الترك والمولدين والعبيد وأهل مكة من الأعراب.

وأجار على حلة الشريف منصور من النهب فسلمت وكانت الوقعة بمكان يقال له الزبارة بوادى مر قريب من «أبو عروة »، فقصد الأشراف جهة الهدة، وأقام الشريف حسن بالجديد حتى أتى الموسم، وعظم بذلك أمره واستفحل بذلك قهره حتى أذل كل من عانده وناوأه، وساس الأمور بجدة مع التجار وراعاهم حتى قدموها، وأقاموا بها بعد أن تركوها، واستمر فى زيادة قدر وهيبة فى القلوب.

قال العلامة الفاسى [1]: فضبط البلاد وحسم مواد الفساد، وأخذ بثأر أخيه يوم الثلاثاء خامس عشر شوال من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، واستمر مستقلا بالولاية إلى أن أشرك معه ابنه السيد بركات فى نصف الإمرة وذلك سنة تسع وثمانمائة، ووصل توقيعه بذلك فى موسم هذه السنة وهو مؤرخ بشعبان منها.

ثم سعى لابنه السيد شهاب الدين أحمد فى نصف الإمارة فأجيب إلى ذلك وولى نصف الإمرة شريكا لأخيه بركات، وولى أبوهما نيابة السلطنة بجميع بلاد الحجاز

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى ٢٠٨/٢ .

وذلك فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة، وقرئ توقيعهم بذلك فى أوائل النصف الثانى من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصار يدعى له ولولديه بمكة وعلى زمزم ويدعى للشريف حسن بمفرده فى الخطبة بالمدينة النبوية، وسبب ذلك أنه كان والى المدينة عجلان بن نعير بن منصور بن جماز بن شيحة الحسينى عوض أخيه نابت بن نعير فإنه كان ولى أمرها فى هذه السنة، ثم مات نابت فى صفر من هذه السنة قبل وصول توقيعه، واستمرت الخطبة باسم الشريف حسن بالمدينة الشريفة إلى أن عزل عنها عجلان بابن عمه سليمان بن هبة بن جماز بن منصور فى موسم اثنى عشر وثمانمائة، وكان يقدم فى الدعاء فى الخطبة على عجلان.

واستمر الشريف حسن وولداه إلى أن عزل هو وولداه فى هذه السنة وهى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة عن إمرة مكة بسعى الحساد، ونقل أهل الفساد، ولم يظهر لذلك أثر بمكة، فإن السلطان الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق أسرَّ أمر عزلهم لقرب الموسم خوفًا من الهرج والمرج، وولى ابن عمه على بن مبارك بن رميثة، فلما بلغ السادة الأشراف عزلهم كتموا ذلك عن الخاص والعام، فوصل أمير الحج بيشو المذكور فى موكب عظيم، ونظام تام وعساكر عديدة وهو على غاية الوجل من عدم مقابلة الأشراف، ونقص حرمته بذلك وحفظ أموال الحجاج وحقن دمائهم.

وكان من عناية الله أن مولانا الشريف حسن قابل المحامل الكريمة على العادة القديمة ولبس الخلع السلطانية على أكمل حال وأطيب بال، ثم قابل الأمير المذكور خاصة وأكرمه إكرامًا جزيلاً، فانقضى زمن الحج على أحسن الأحوال، وسافرت المحامل وتوجه كل غريب إلى بلده، ولما لم يبق إلا تجهيز الأمير، وتوديعه جهز الشريف حسن هدية عظيمة إلى الحضرة السلطانية صحبة الأمير المذكور بعد كمال رعايته وعظيم العناية به، فبعد الوداع قال له: يعلم الأمير أنا قد بلغنا أن السلطان عزم على عزلنا تصديقًا للإنهاء الباطل الصادر عن فساد كل مفسد وقول كل قائل، فلما بلغنا ذلك لم نفعل فعل أهل الظلم والجهالة الذين إذا وصل إليهم علم العزل نهبوا البلاد، وأكثروا فى الأرض الفساد.

فأجابه الأمير بأن هذه بلادكم خلفًا عن سلف، ومولانا السلطان نصره الله محب

لكم، وعلامة محبته لكم إخفاء ذلك وسوف تعلمون صحة قولى بما يأتيكم من جواب مشرفاتكم.

فلما وصل الأمير إلى مصر المحروسة وأخبر السلطان بما وقع وقدم الهدية والمكاتيب قابل ذلك بحسن القبول، ثم أرسل إلى مولانا الشريف حسن بهدايا مفخمة، وتوقيعات شريفة مكرمة، فَشَكَرَهُ فيها شكرًا عامًّا على ما فعله ظاهرًا وما صبر عليه باطنًا، ثم صَرَّح باسْتِمْرَار ولديه على ما كانوا عليه من ولاية مكة والأقطار الحجازية جميعها، واستمروا كذلك إلى سنة ثمان عشرة وثمانمائة فعزلوا بالشريف رميثة بن محمد، ثم أعيد فى عام تسع عشرة وثمانمائة بعد محاربة شديدة بينه وبين رميثة المذكور من قبل الملك المؤيد، كما يأتى قريبًا إن شاء الله تعالى، وهذا كله ببركة الصبر والتحمل والنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى فى حفظ دماء المسلمين وأموالهم، لا سيما الحجاج وجيران بيت الله الحرام لا برحت عناية الله شاملة لحماة بلده الأمين آمين.

وَسَبَب العزلِ أَنَّ رجلاً يسمَّى جابرًا الجرشى من أرباب الأموال بجدة لما تَغَيَّرَ عليه الشريف حسن وصادره، وأخرجه من جدة لأَمرٍ اقتضى ذلك - عزم إلى مصر، وكدر خاطر السلطان على مولانا الشريف حسن ودبرهم فى هذا الأمر، وأن يولوا على بن مبارك هذا وكان محبوسًا عندهم بالقلعة سنين فولوه، وأرسلوا صحبته الأمير بيسق أميرًا على الحاج المصرى، واستعد لحرب الشريف حسن، فلما تحقق مولانا الشريف حسن هذا الخبر استعد هو أيضًا للحرب وجمع من الخيل والرجل ما لم يجمعه غيره.

قيل: كان عدة الخيل ستمائة والرجل يزيدون على خمسة آلاف، وتعب الناس لذلك وضاقت بهم مكة، وتعبت الخواطر وكادت القلوب أن تبلغ الحناجر.

ثم رضى السلطان الملك الناصر على الشريف حسن وأولاده بعد توجه الحاج من القاهرة فى السنة المذكورة فأعادهم إلى ولاية مكة، فبعث الأمير بتقليد وخلع صحبة خادمه فيروز ساقى، وكتب إلى أمير الحاج المصرى بيسق يأمره بالكف عن محاربتهم، وكان تاريخ تقليد ولايتهم هذه فى هذه السنة هى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى الثانى عشر من ذى القعدة الحرام، ودامت ولايتهم على ذلك إلى أثناء

صفر الخير سنة ثمان عشرة وثمانمائة كما سنذكره.

وقبل وصول الحج بأيام أخمد الله الفتنة بوصول الأمير فيروز الطواشى الساقى المذكور بالخلع والمراسيم يعتذرون إلى الشريف حسن ويطمئنونه أن البلاد بلاده، وسألوا فضله أن يأذن للحاج فى دخول مكة ويعطيهم الأمان، فإنهم لما بلغهم تهيؤه تأخروا ولم يقدموا على الدخول.

فقال الشريف حسن: لا يدخلوا إلا إذا سلموا إلينا جميع ما معهم من السلاح وآلات الحرب وإلا ما دخلوها فوافقوه على ذلك ووافقهم على إعادته إليهم عند السفر فدخلوا مكة رابع ذى الحجة الحرام، وجاء الأمير إلى بيت الشريف حسن بأجياد وسلم عليه واعتذر.

قيل: ولم يحج الشريف حسن ولا أحد من أهل مكة إلا ناس قليل مخفون بحيث أن يوم النحر صلوا العيد بمكة ولم يشاهد ذلك قط.

وأصاب الحجيج مشقة عند المأزمين، ووقع قتل ونهب، ولو لم يغث الحجيج أهل الخيل جماعة الشريف حسن لذهب الحاج جميعه، وكذلك ليلة النحر بمنى وكان الفاعل لذلك غوغاء الأعراب.

وفى موسم خمس عشرة وثمانمائة قتل من آل جميل جماعة أهل شر وفساد ففزع الحاج وركب الشريف حسن بنفسه حتى أخمد الفتنة وسلم الله المسلمين.

وفى خامس ذى الحجة عام سبع عشرة وثمانمائة وقع بين القواد وأمير الحاج والناس فى صلاة الجمعة أن هجم القواد بخيولهم ملبسة إلى مقام الحنفى يطلبون الأمير، وكان قد أمسك شخصًا منهم يسمى جرادا وحبسه فتشفعوا بالشريف حسن إليه فامتنع من إطلاقه، فعظم الأمر وجرى القتال وسال الدم فى المسجد الحرام، وخرج الأتراك فى إثرهم إلى جهة سوق باب إبراهيم، فانهزم القواد ورجع الأمير، ودخل المسجد وأدخل خيله، وسمر أبواب المسجد جميعها ما عدا أربعة أبواب، وباتت خيولهم ملابس والمشاعل تقد فى المسجد وغالب الحجيج به، واجتمع القواد فى أسفل مكة بمحل يسمى الطنبداوى، وانتهبت البيوت والأسواق، وسلم الله الحاج ببركة الشريف حسن، وصادف ذلك أن مكة فى ذلك العام مغلية، فأنشد إذ ذاك بعض الأدباء وفيه تورية حسنة: [من مجزوء الكامل]

وقَـعَ الـغـلاءُ بـمـكَّـةٍ والناسُ أمْسوا فى جمادِ
والـخـبـزُ قَـلَّ فَـهَـاهُـمُ يـتـقـاتَـلُـونَ عَـلَـى جَـرَادِ

والسبب فى إمساكه أن أمير الحاج منع الناس من حمل السلاح بمكة، فرأى جرادًا هذا وهو حامل سلاح فأمسكه فوقع ما وقع.

قلت: عتو هذا الجيل قديم غير جديد، فلعل الشر إن لم ينقص منهم لا يزيد.

ودامت ولاية الشريف حسن مع ولديه بركات وأحمد إلى شهر صفر من عام ثمان عشرة وثمانمائة.

ثم وليها الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة بن أبى نمى بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة، تولى عشرين فى صفر من السنة المذكورة، وما دخل مكة ولا دعا له فى الخطبة ولا على زمزم إلا فى العشر الأول من ذى الحجة من السنة المذكورة، وكانت قراءة توقيعه فى يوم دخول مكة وهو يوم الجمعة مستهلَّ ذى الحجة سنة ثمان عشرة وثمانمائة، فدعا له الخطيب ودعا له على قبة زمزم حين طوافه بعد صلاة الجمعة، وذكر فى توقيعه الشريف بعد الترجمة أنه تولى نيابة السلطنة عن عمه حسن، وإمرة مكة عن ولديه بركات بن حسن وأحمد بن حسن، وذلك أنه لما عزل الشريف حسن برميثة بن محمد بن عجلان فارقها الشريف حسن إلى «الشقان» فجبا الجلاب هناك، وأمر أهلها بالتدبير أو المضى إلى ينبع، ثم وصل إلى الجديد من وادى مر، واستولى على غلال أصحاب رميثة، واستمر بالجديد إلى جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثمانمائة.

وفى رجب منها بعث ولده الشريف بركات ومولاه القائد زين الدين شكر لاستعطاف السلطان الملك المؤيد، فأنعم عليه بولاية مكة.

وكتب له بذلك توقيعًا مؤرخًا من عشر رمضان من السنة المذكورة، وجهز له خلعة صحبة بعض الخاصكية المؤيدية والنجابة السلطانية فانتهوا إليه وهو فى ناحية جدة فى أوائل العشر الأوسط من شوال، فقصدَ مَكَّةَ متوليًا منفردًا دون ولديه من قبل الملك المؤيد، ثم شاركه ابنه السيد بركات بن حسن سنة أربع وعشرين وثمانمائة بإشارة من الملك المظفر ابن الملك المؤيد صاحب مصر كما سيأتى، فدخل مكة فى بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال من سنة تسع عشرة وثمانمائة، وبأثر طوافه

بالبيت قرئ توقيعه وكان يومًا مشهودًا.

وفى ليلة الأربعاء المذكور فارق مكة السيد رميثة بن محمد ومن معه بعد حرب شديد كان بينه وبين عسكر عمه الشريف حسن بالمعلاة يوم الثلاثاء خامس عشر الشهر المذكور استظهر فيه الشريف حسن على من عانده لأنهم لما أقبلوا من الأبطح، ودنوا من باب المعلاة أزالوا من كان على الباب وقربه من أصحاب رميثة بالرمى بالنشاب والأحجار، وعمد بعضهم إلى باب السور فدهنه وأوقد تحته النار، فاحترق الباب حتى سقط إلى الأرض، وقصد بعضهم طرف السور الذى يلى الجبل الشامى مما يلى المقبرة فدخل منه جماعة من الترك أصحاب الشريف حسن ورقوا موضعًا مرتفعًا من الجبل، ورموا منه بالنشاب والأحجار من كان داخل الدرب من أصحاب رميثة فتعبوا لذلك كثيرًا، ونقب بعضهم فى السور نقبًا متسعًا حتى اتصل بالأرض فدخل منه جماعة من الفرسان من عسكر الشريف حسن إلى مكة، ولقيهم جماعة من أصحاب رميثة، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من السور، وقد حصل فى الفريقين جراحات وهى فى أصحاب رميثة أكثر.

وقصد بعض عسكر الشريف حسن السور مما يلى بركة الصارم، فنقبوا فيه نقبًا متسعًا ولم يتمكنوا من الدخول منه لأجل البرك فإنها مهواة، فنقبوا موضعًا آخر فوقه.

ثم إن بعض الأعيان من أصحاب الشريف حسن أجار من القتال، وكان الشريف حسن كارهًا للقتال رحمة منه لمن مع رميثة من القواد والعمرة، ولو أراد الدخول إلى مكة بكل عسكره من الموضع الذى دخل منه بعضهم لقدر على ذلك، ولكنه أمضى الجيرة بترك القتال، وبأثر ذلك وصل إليها - لما تعب الناس من النهب والقتل والخوف - جماعة من العلماء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين وحملوا المصاحف والربعات على رءوسهم، وسألوا فضل الشريف حسن فى كف عسكره، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يخرج من عانده من مكة المشرفة، فمضى الفقهاء إليهم وأخبروهم بذلك، فتأخروا عنه إلى جوف مكة، ودخل الشريف حسن ومن معه السور وخيم حول بركتى المعلاة، وأقام هناك حتى أصبح فدخل مكة بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال كما تقدم ذكر ذلك آنفًا، وطلب الشريف رميثة وأصحابه

مهلة خمسة أيام فأعطوها ثم خرجوا إلى ناحية اليمن.

ثم فى عام أربعة وعشرين وثمانمائة تسلطن الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فأرسل توقيعًا شريفًا للشريف حسن فقرىء بظل زمزم موضوعه أنه فوض أمر مكة إلى مولانا الشريف حسن المذكور، وأشرك معه ولده بركات، وأرسل لهما خلعة سلطانية من خزانته.

ثم وصل مرسوم شريف قرىء بالحطيم بمحضر أفندى مكة وشيخ حرمها والأعيان والصدور، مضمونه على لسان الملك المظفر بأن والده الملك المؤيد انتقل إلى رحمة مولاه، وأنه بويع بعهد من أبيه وموافقة من أهل الحل والعقد من العلماء والقضاة والأمراء، وأنه جلس على سرير السلطنة فى ثانى محرم من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وأن المطلوب من مولانا الشريف حسن وذويه السمع والطاعة وتأمين الأقطار الحجازية، وأنه مبذول لهم من جانب السلطنة الشريفة كمال الرعاية وبذل الجود والعطاء، وكان يومًا مشهودًا.

ثم بعد مدة استمال الشريف حسن ابن أخيه رميثة المذكور وأحضره وصفا له فتغير عليه القواد وقاموا بناصر ذوى ثقبة بن أبى نمى، وهم أولاد أحمد بن ثقبة بن رميثة، وأولاد على بن مبارك، وأعلنوا بالسلطنة لثقبة بن أحمد بن ثقبة بن أحمد بن ثقبة، وميلب بن على بن مبارك، وجعلوا لكل منهما نوابًا بجدة، فجهز الشريف حسن عليهم فهربوا وقصدوا مكة واحتربوا هم ونائبه فيها مفتاح الزفتاوى فقتلوه وقتلوا جماعة معه ثم رجعوا إلى الغد.

ولما كان النصف الثانى من شوال سنة عشرين وثمانمائة قدم من مصر ولده الشريف بركات بن حسن فسر به، ولما طاف بالكعبة دعى له على زمزم، وصار أبوه الشريف حسن يتفوه له بالولاية ويقول لبنى حسن وغيرهم: هو سلطانكم.

وفى ربيع الأول من سنة إحدى وعشرين أظهر للناس أنه تخلى عن أمر مكة لابنه الشريف بركات بحيث أجلسه على المفرشة بالمسجد الحرام، وجلس هو على مفرشة عنده، فجمح ابنه حسن عن طاعة أبيه لكونه قدم أخاه بركات عليه، فأرسل له أبوه الشريف حسن يستعطفه فلم يمل أحمد لذلك، وحمله جماعة من المفسدين على نهب جدة ففعل ولم يسهل ذلك بأبيه، ثم دخل فى الطاعة، ثم نكث ومضى

إلى ينبع، ثم عاد مع الحاج ثم رجع.

وفى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة: سأل من الملك المؤيد تفويض مكة لولديه بركات وإبراهيم، وتنصل من إمرتها لضعف بدنه وميله إلى التخلى للعبادة، وتوجه عقب الكتاب إلى صوب حلى آخر صفر.

وفى ثانى عشر ربيع الأول من سنة أربع وعشرين وصل تشريفان له ولابنه بركات، وعهد يتضمن ولايتهما لمكة من الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد كما تقدم ذكر ذلك، وأراد الشريف حسن أن يشرك ولده إبراهيم مع أخيه بركات، فحصل تنافر بين الأخوين، فوصل إبراهيم من جانب اليمن ومعه الأشراف، وألزموا المؤذن بالدعاء له ففعل، ولم يسهل ذلك بأخيه بركات، وصار يخطب لإبراهيم مع أبيه حسن وأخيه بركات.

وفى سنة ست وعشرين أمر الشريف حسن بقطع الدعاء لولده إبراهيم من الخطبة وغيرها؛ لأنه أمره بمباينة ذوى راجح فلم يفعل.

ولم يزل الشريف حسن مستمرًا فى الولاية إلى أن صرف عنها هو وولده بركات سنة سبع وعشرين وثمانمائة بالشريف على بن عنان بن مغامس بن رميثة بن أبى نمى، وكان ذلك بتفويض السلطان برسباى ملك مصر المحروسة.

فوليها الشريف على بن عنان المذكور وجهز معه الملك برسباى من مصر جيشًا كثيفًا وخيلاً وأميرًا يكون عنده كما هو العادة؛ لأنه عزل حسنًا المذكور بموت سلطانه الذى ولاه وهو الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فخشى السلطان برسباى من مخالفة حسن المذكور ومحاربته لعلى، وكانت توليته فى سنة سبع وعشرين المذكورة، فدخل مكة بمن انضم إليه من الأشراف والقواد المنسوبين لعجلان، فطاف والمؤذن يدعو له على زمزم، وقرىء توقيعه بالحطيم على العادة ولبس الخلعة، ثم خرج راكبًا من باب الصفا مختلعًا فطاف فى شوارع مكة المكرمة، ثم نزل إلى جدة المعمورة لأخذ مواجبه من الواصلين من الهند وترفق بهم غاية الترفق.

ثم عاد إلى مكة ونادى بالأمان، وأن كل من اختار الخدمة من الأشراف والقواد يأتى إلينا ومن لا فلا يقيم عندنا وله منا شهر زمان مهلة.

وقيل: إنه استمال الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذى كان متوليًا قبل

للشريف حسن، فوصل إليه، فلزمه الأمير قرقماس ووضعه فى الحديد،وذهب به إلى مصر صحبة الحاج، فأرسل إلى الإسكندرية هو والشريف مقبل صاحب ينبع، وخرجوا رابع عشر ذى الحجة إلى الشريف حسن، وذلك أن الشريف حسن لم يحدث منه شيء لما عزل بالشريف على بن عنان بل لما سمع أنه قرب من مكة واصلاً إليها من مصر متوليًا صحبة الحاج خرج عنها هو والأشراف الذين معه والقواد، وتنحى بناحية قرب مكة وراسل السلطان برسباى بالكلام اللين وعرفه أن عزله كان بغير سبب فخرجوا إليه وأرادوا أن يهجموا عليه لأنه مكر به بعد التجار، واستدناه فقصدوه ليظفروا به فلم يروه بحماية الله تعالى، واستمر الشريف على بن عنان إلى أن عزل عنها غرة ذى الحجة من عام ثمان وعشرين وثمانمائة بالشريف حسن.

فوليها الشريف حسن بعهد من ملك مصر برسباى لأنه راسله بالكلام اللين وعرفه عزله بغير سبب كما تقدم، فرضى عليه وأعاده إلى إمرة مكة.

ولما بلغ الشريف حسن هذا الخبر أرسل ولده السيد بركات لمواجهة أمير الحاج المصرى فواجهه ودخل هو وإياه إلى المسجد، وحلف له بالله تعالى أن السلطان قد رضى على أبيك الشريف حسن وأنه لا يناله منى ولا من السلطان سوء، وكان الحلف على الملتزم.

فعند ذلك دخل الشريف حسن وواجه الأمير، وأهدى إليه هدايا، وأعطاه مِحَفَّةً حَجَّ فِيهَا.

ثم إنه حج بالناس وأظهر طاعة السلطان برسباى، وأعلن بالدعاء له، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان برسباى طلب حضور مولانا الشريف حسن إليه فتوجه فى الموسم من السنة المذكورة.

فلما وصل أمر السلطان أن يتلقاه الأمراء والأكابر ويمشوا بين يديه.

ولما حضر بين يديه أنعم عليه بالخلع العديدة والإنعامات المزيدة، والتزم الشريف حسن أن يخدم السلطان بثلاثين ألف دينار وأرسل عبده شكر إلى بندر جدة ليأتيه بها، واستمر بمصر على كمال الحشمة ووفور النعمة.

فكتب بعض أدباء مكة إلى السلطان - على لسان مكة - يذكر أنها متشوقة إلى

الشريف حسن قوله: [من الوافر]

مِنَ البلدِ المُخصَّص بالأمان وَكَعْبَتِهِ المشرَّفة المباني
تقبّل كَفَّ سُلْطَانِ البرايا أبى النصرِ الموفَّقِ للمَعَانِي
برسْبَاى الذى ملكَتْ يداه جَمِيعَ الخَلْقِ مِنْ قاصٍ ودانِى
وتُنْهِى ما بها من عُظْمِ شوقٍ إلى سُلْطَانِها بَدْرِ الزمانِ

إلى أن قال: [من الوافر]

فَرُدَّ إلىَّ سلطانى سريعًا فإنِّى كَالجوادِ بِلاَ عنانِ

فسمعها السلطان فرسم للشريف حسن بالتوجه إلى مكة وجهزه، وبرز ثقله خارج الديار المصرية، فاعترض له الضعف فعاد إلى القاهرة ومكث بها أيامًا يسيرة،ثم توفى بها سادس عشر جمادى الأخرى سنة تسع وعشرين وثمانمائة، ودفن فى حوش الملك الأشرف برسباى المذكور بالصحراء وقبره هناك مشهور يزار.

وله وقائع مشهورة فى التواريخ مسطورة مع إخوته، وبنى عمه وملوك مصر والقواد وغيرهم، وكان ذا ثروة عظيمة، وحشمة وافرة جسيمة، وخيرات كثيرة عميمة.

بنى بمكة رباطًا للرجال ورباطًا للنساء، وبنى المارستان، وعمر أوقافه وزاد فيها ما يحتاج إليه، وجدد رباط رامشت عند باب الحزورة، ولم يل مكة قبله من يدانيه فى شىء من ذلك.

وقد مدحه كثير من شعراء مكة المعتبرين، منهم الشيخ شهاب الدين أحمد الفاسى والد تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة، ومنهم شيخ الإسلام شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المقرى، وكان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الغسانى صاحب اليمن تشفع إلى الشريف حسن بن عجلان سنة سبع وثمانمائة فى ترك التشويش على موسى صاحب حلى وحثه على الموافقة على ذلك القاضى شرف الدين المذكور بقصيدته النونية وهى قوله: [من الكامل]

أحسنتَ فى تدبيرِ مُلْكِكَ يا حَسَنْ وأَجَدتَّ فى تحليلِ أخلاطِ الفتَنْ
ما كنتَ بالنزقِ العَجُولِ إلى الأذى عند النِّزَاعِ ولا الضعيفِ أخا الوَهَنْ

تمسِى ورأيُكَ عن هواكَ معوَّقٌ والغرُّ ملقٍ فى يد الأهوا الرَّسَنْ
داءُ الرياسةِ فى متابَعَةِ الهوَى ودواؤها فى الدفْعِ بالوجْهِ الحَسَنْ
وإذا الفتَى استَقْصَى لنصرةِ نفسِهِ قَلَبَ الصديقُ لحربه ظَهْرَ المجَنّ
لا تُصْغِ إن شرٌّ دعا فالشرُّ إن تنهضْ له يَنْهَضْ وإن تسكُنْ سَكَنْ
وسـديد رأيٍ لا يُحَرِّكُ فتنةً سَكَنَتْ وإن حَرَّكْتَهُ الفِتَنُ اطمأنّ
رَدَّ العدوَّ إلى الصداقةِ حكمةً صَفَتْ من الأكدارِ عيشَ ذوى الفِطَنْ
بالسيفِ والإحسانِ تُقْتَنَصُ العلا وحصولُهَا بهما جميعًا مرتهَنْ
لا خيرَ فى مِنَنٍ ولا سيف بها ماضٍ، ولا فى السيفِ ليس له مِنَنْ
أما حلىّ فإنَّ خوفَكَ لم يدَعْ أهـلاً بـها للزائرينَ ولا وطَنْ
حلَّيْتهُم منها وجسمُكَ وادعٌ فى مكةٍ لم يُحْوِجُوكَ إلى ظَعَنْ
تركوا لك الأوطانَ غَيْرَ مدافعٍ وتعلَّقوا بذرى الشوامخِ والقُنَنْ
حفظوا نفوسًا بالفرارِ أطلَّها سيفٌ على الأرواحِ لَيْسَ بمؤتَمَنْ
ولـحفظها بالفَرِّ أكْبرُ شاهدٍ لك بالعلا فِلمَ التأسُّفُ والحَزَنْ
فاغمدْ سيوفَكَ رغبةً لا رهبةً ما فى قتيلٍ فرَّ مرعوبًا سمنْ
واكرمْ سيوفَكَ من دِمَا طرداتها فالحُرُّ يكرمُ سيفَه أن يمتَهَنْ
قد كان لا يرضَى يخطُّط سيفَهُ فى ظهر مَنْ ولَّى أبوك أبو الحَسَنْ
وقد اقتدرْتَ وباقتدارِ ذوى النهَى تنفلُّ أحقاد الضغائن والإحَنْ
موسَى هِزَبرٌ لا يطاقُ نزالُهُ فى الحرب لكنْ أين موسَى من حَسَنْ
هذاكَ فى يَمَنٍ وما سلمَتْ له يَمَنٌ وذا فى الشامِ لم يَدَعِ اليمَنْ
فانظرْ إلى موسَى وقد لعبَتْ به لما سخطْتَ عليه أحداثُ الزمَنْ
ذاقَ المـرارَ لـفَـوْتِـهِ أوطـانَـهُ فَقِهِ مرارةَ فُرْقة الرُّوحِ البَدَنْ
لو شئتَ وهو عليك سَهْلٌ هينٌ لجمعتَ بين الجَفْنِ منه والوسَنْ
بِعْ منه مهْجَتهُ وخُذْ ما عندَهُ ثمنًا يكنْ منك المثمِّنُ والثمَنْ
هذى مساوَمَةُ الفحولِ ومَنْ يبِعْ ما بعْتَ لم يعلَقْ بصفقته الغَبَنْ
جئنا بحُسْنِ الظَّنِّ نسألك الرضا والعَفْوَ عنه فلا تخيِّبْ فِيك ظَنّ
فالحرُّ يكرمُ سائليه يَرَى لهم فضلاً كما ابتدءوه بالظنِّ الحَسَنْ

ويهينُ سائله اللئيم لظنِّهِ   في مثله خيرًا وذلك لا يُظَنّ
لا زِلْتَ للشرفِ المخلَّد بانيًا   شرفًا ومجدًا ثابتًا لِبَنِى حَسَنْ

ولما وقع بين الشريف حسن بن عجلان وبين الأمير أحمد بن إسماعيل الغسانى صاحب جهات اليمن الحرب منع مسير الجلاب بالحبوب إلى أهل الحرم الشريف، فأنشأ السيد المرتضى قصيدة يستشفع عند الأمير أحمد فى إطلاق الحبوب إلى أهل مكة، فقبل شفاعته وأطلقها، وهى هذه: [من الكامل]

عطفًا على الحرمَيْن يا ملكَ اليَمَنْ   وتجاوزًا يا خيرَ أملاكِ الزمَنْ
وارفُقْ بأهلِ اللهِ فى أمِّ القُرَى   إن لم تكُنْ أنتَ الرفيقَ فمَنْ ومَنْ؟!
إنى أشيرُ عليكَ رأىَ نصيحةٍ   والمستشارُ من البرية مؤتمَنْ
لا تسلكَنْ فيهم طريقَةَ قاطِعٍ   للرحْمِ إنهُمْ هناك كمَنْ ومَنْ
ألْمَنُّ منكَ وأنتَ مَنٌّ سائلٌ   للمسلمينَ وأنتَ فى المَنَّيْن مَنْ
أنت الذى ورثَ المكارمَ عن يدٍ   ولك المعالمُ والعلومُ بكلِّ فَنّ
ولكَ السماحةُ والتقَى من أسعدٍ   ولك الوجاهَةُ والعلا من ذى يَزَنْ
فانظُرْ بعينِ حقيقةٍ وسماحةٍ   تلك الأَمَاكِنَ والمساكنَ والسكَنْ
لا تحملنَّكَ عزةٌ ملكيَّةٌ   فى حربها بخلافِ مَنْ فيها سكَنْ
إن الذى فَعَلَ الشريفُ وإن جنَى   مثلُ الحصاةِ وأنتَ فى عفو حضنْ
من ذا الذى ما ساء قَطُّ ومن له الـ   حسنَى فقَطُّ ومن له العقل الحَسَنْ
حسنٌ مليكٌ فى الحجازِ معظمٌ   فيها ولكنْ أين أحمدُ من حَسَنْ؟!
هذا له يَمَنٌ وهذا ما له   إلا فضَاضَة ما تفيضُ به عَدَنْ
ولك المدائنُ والسفائنُ كلُّها   وله يلمْلَم والجنوبُ إلى قَرَنْ
أطلقْ له سُفُنَ البحارِ فإنها   تجرِى إلى البيتِ العتيقِ على سَنَنْ
بيتٌ له خَضَعَ الملوكُ جلالةً   وبه تفاضَلَتِ الفرائضُ والسنَنْ
وأبوكَ أولُ مَنْ كساه كما أتَى   فى مُحْكَمِ التاريخِ فى مَلَإِ اليمنِ
ولكُمْ به آثارُ فضلٍ ظاهرٍ   فيما تظاهر من بناه وما بطَنْ
رسم المظفَّر فيه مكتوبٌ بما   ءِ العين أيده المؤيِّدُ بالمنَنْ
وعلَى منابرِهِ يشاعُ بذكْرِكُمْ   بِالصَّوْتِ فى الحرمِ الشريفِ إذا ازدجَنْ

أوَ لَيْسَ فى هذا الدعاء لأهلِهِ ... ولمن أقامَ به الأمانُ من الفتَنْ؟!
صُنْ مكة الغراءَ من فِتنٍ ومِنْ ... محن فأنتَ أحقُّ من طفأ الفِتَنْ
ومن المحاسِنِ فى الكلامِ قصيدةُ الْـ ... مُقْرى التى جمع البديعَ بها وَسَنّ
قد قال فى أبياتها وبديعهَا ... لله ذاك القَوْلُ من قولٍ حَسَنْ
داءُ الرياسةِ فى متابعة الهوَى ... ودواؤه فى الدفعِ بالوجْهِ الحَسَنْ
وإذَا الفتى استقصَى لنصرة نفسِهِ ... قَلَبَ الصديقُ لحربه ظهر المجنّ
لا تُصغِ إن شرٌّ دعا فالشرُّ إن ... تنهضْ له ينهض وإن تسكُنْ سَكَنْ
وسديدُ رأيٍ لا يحرِّكُ فتنةً ... سكَنَتْ وإن حركْتَهُ الفتنُ اطمأنّ
رَدُّ العدوِّ إلى الصداقة حكمةً ... صفَتْ من الأكدار عَيْشَ ذوى الفطَنْ
هذى نصائحُ أبرزتْها فكرةُ الْـ ... مقْرى تفوقُ الدُّر ليس لها ثَمَنْ
فاقبل نصائح تتصلْ بل إنها ... حِكَمٌ تفوقُ الدرَّ يدخله الوَهَنْ
أنتَ المليكُ ابنُ المليكِ وليْسَ مِنْ ... شأنِ الملوكِ الشمِّ إحمالُ الإحَنْ
وترى الطبيبَ إذا تقادم جُرْحُ من ... يدويه لاطَفَهُ وغيَّرَ بالدهنْ
كلٌّ له شجنٌ وما لك فى العلا ... شَجَنٌ سوى الإصلاح يَالَكَ من شجنْ
ولأَنْتَ فى الإسلام رأسٌ واحدٌ ... والرأسُ مهما اعْتَلَّ يتبعُهُ البدَنْ
رفقًا بأهْلِ المكَّتَينِ ورحمةً ... بهمُ وعطفًا شاملاً لبنى حَسَنْ
وإذا أردتَّ له معاتبةً علَى ... ما فاتَ قَلْتَ الصيفَ ضيَّعْتِ اللبَنْ
لا زلتَ فى الشَّرَفِ المعظَّم خالدًا ... ما غرَّدَ القُمْرِيْ الطروبُ على فَنَنْ

وكان له من الأولاد جملة، منهم: أبو القاسم وعلى وإبراهيم وبركات.

ثم وليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وذلك أنه استدعاه السلطان برسباى سادس عشر رمضان من السنة المذكورة وهى ستة تسع وعشرين وثمانمائة، فلما قدم إلى مصر المحروسة أواسط ذى القعدة فوض إليه إمرة مكة المشرفة عوضًا عن والده، وقرر أخاه إبراهيم بن حسن نائبًا عنه ثم ألبسهما خلعتين عظيمتين، فوصلا إلى مكة المشرفة ودخلاها بالخلع السلطانية، وقرئ توقيع مولانا الشريف بركات بالحطيم، على طريقة أسلافه الكرام، لا زال الملك فيهم وفى عقبهم إلى يوم القيام.

قال المقريزى فى كتاب « السلوك فى أخبار الملوك » [١]: لما كان ليلة الأربعاء ثالث عشر شهر رجب من عام تسع وثلاثين وثمانمائة بعث الشريف أبو زهير بركات ابن حسن بن عجلان أمير مكة بعثًا فيه يشكو عبيد أبيه الشريف حسن بن عجلان من بطون حرب إحدى قبائل مذحج ومنازلهم حول عسفان نزلوا سنة ست عشرة وثمانمائة، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة النبوية فكثر عبثهم، وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة، وجعل على هذا البعث أخاه الشريف على بن حسن بن عجلان ومعه من بنى حسن الشريف ميلب بن على بن مبارك بن رميثة وغيره فى عدة من الناس، وسار معهم الأمير أرنبغا أمير الخمسين المركزين بمكة من أماكنه السلطانية وصحبته منهم عشرون مملوكا، فنزلوا عسفان يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، وقطعوا الثنية التى تعرف اليوم بمدرج على، حتى أتوا القوم وقد أنذروا بهم، فتنحوا عن الأرض وتركوا بها إبلا مع خمسة رجال، فأول ما بدءوا أن قتلوا الخمسة رجال، وامرأة حاملاً كانت معهم وما فى بطنها أيضًا، واستاقوا الإبل، حتى إذا كانوا نحو النصف من الثنية المذكورة ركب القوم عليهم الجبلين يرمونهم بالحراب والحجارة، فانهزم الأمير أرنبغا فى عدة من المماليك وقد قتل منهم ثمانية ومن أهل مكة وغيرهم نحو الأربعين وزيادة وجرح كثير ممن بقى، وغنم القوم منهم اثنين وثلاثين فرسًا وعشرين درعًا، ومن السيوف والرماح والأسلحة والأسلاب ما قيل إن مبلغه ثمنًا خمسة آلاف دينار وأكثر، فلما طلعت شمس يوم الجمعة دخل أرنبغا بمن بقى معه من المماليك مكة وهم يقولون: قتل جميع من خرج من العسكر، فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم نر مثلها شناعة، وأقبل المنهزمون ناسًا بعد ناس فى عدة أيام، وحمل الشريف ميلب يوم السبت ميتًا، ومات بعده بأيام شريف آخر من جراحة شوهت وجهه كله من أعلى جبهته إلى أسفل ذقنه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

واستمر الشريف بركات على ولاية مكة إلى سنة خمس وأربعين وثمانمائة ونزل فيها بأخيه على بن حسن كما سيأتى، وقيل فى التى بعدها بموضع يقال له الحشافة بالقرب من جدة، وأجاز له فى سنة خمس جماعة من العلماء: الحافظان العراقى

(١) ينظر: السلوك للمقريزى (٤/ ٩٧١ - ٩٧٢)

والهيثمى والبرهان ابن صديق والمراغى وعائشة بنت عبد الهادى، والشمس الفرسيسى فى آخرين، وحدث عنه البقاعى وغيره، كذا فى نظم العقيان فى أعيان الأعيان للسيوطي(١).

ونشأ شريف الهمة حسن الأفعال جميل الأخلاق، أشركه والده كما قلناه فى إمرة مكة مرارًا وكان هو المشار إليه فى جميع أحوالها.

ولما توفى والده ارتحل إلى القاهرة بطلب من السلطان برسباى، والتزم بما على والده من المال، واستقر فى إمرة مكة بمفرده.

ولما وصل إلى مكة حسنت سيرته فى الناس وعم الناس خيره.

ولما مات السلطان برسباى، واستقل الملك الظاهر جقمق فى مملكة مصر طلبه إلى القاهرة، فامتنع من التوجه إليه خوفًا منه بسبب واقعة وقعت له مع الظاهر المذكور لما حج وهو أمير فى عام سبع وعشرين وثمانمائة، فعند ذلك رام السلطان أن يولى أخاه عليا، وكان على عنده بالقاهرة لأنه وقع بينه وبين أخيه بركات منافرة سنة اثنتين وأربعين، فعزم إلى مصر فأقام بها إلى أن ولى سنة خمس وأربعين كما سيذكر فلم يوافق على ذلك من أركان الدولة من يعتمد عليه فتوقف، ثم فعله فى سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

فولى أخاه عليّ بن حسن بن عجلان إمرة مكة المشرفة منفردًا وجهز معه عسكرًا فوصل العلم إلى الشريف بركات وهو بوادى الآبار توجه من فوره إلى جدة وأخلى مكة المشرفة من نوابه، ثم وصل وزير الشريف على بن حسن قبله إلى مكة وهو القائد مزروع العجلانى ودعا لأمير مكة من غير تعيين على منبرها فى رجب من العام المذكور، ثم وصل الشريف على فدخل مكة، ولما نزل الشريف بركات إلى جدة استولى عليها، فراسله الشريف على وأخوه الشريف إبراهيم، ومن معهما من الأمراء، وسألوه أن يخرج من البلاد فامتنع إلا من المحاربة، فوقعت بينهما الحرب بالجديد بالقرب من جدة فكانت الغلبة لعلى ومن معه من الأمراء والأتراك، واستولوا على جدة، وتوجه الشريف بركات إلى جهة اليمن هو ومن معه واستمر على فى إمرة مكة مدة قليلة إلى أن قبض عليه مع أخيه إبراهيم يوم الثلاثاء رابع شوال سنة ست

(١) ينظر: نظم العقيان للسيوطى ص ١٠٠ .

وأربعين وثمانمائة، وكبلا فى الحديد وظهر عزله بأخيه الشريف أبى القاسم.

فوليها الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان وكان بالقاهرة، فطلب الأمراء المقيمون بمكة ولده السيد زاهر بن أبى القاسم بن حسن بن عجلان، وألبسوه خلعة ليكون نائبًا عن أبيه، فقام بحفظ البلاد ولده السيد زاهر وذهب بالأخوين على وإبراهيم إلى جدة وأركبا فى جلبة إلى القاهرة.

وتفصيل هذه الواقعة هو ما ذكره الجزيرى فى تاريخه فقال: لما كانت سنة ست وأربعين وثمانمائة وصل حكم من السلطان الظاهر جقمق صاحب مصر مع الأمير تمراز بالقبض على الشريفين على بن حسن بن عجلان وأخيه إبراهيم وتجهيزهما إلى مصر، فحضر الأمير تمراز إلى مكة فى مستهل شوال، فأرسل الأمير بيورلدى إلى الشريف على ابن الشريف حسن أن يحضر هو وأخوه السيد إبراهيم للبس خلعتيهما، فتخيلا من ذلك وكانا بوادى الآبار، ثم اقتضى رأيهما أن يقيم السيد إبراهيم بوادى الآبار ويتوجه إليهم الشريف على، فوصل إلى مكة فى عشاء ثالث شوال وأتاهم فى صباحها، فسألوه عن أخيه السيد إبراهيم فذكر لهم عنه عذرًا أقامه، فألبس الأمير تمراز الشريف على خلعة حمراء وحياصة. وقرئ مرسوم السلطان مضمونه: إنه بلغنا أن الشريف على متشوش الخاطر، فليطب نفسًا وليقر عينًا فإنا لا نغير عليه شيئًا أبدًا ما دام على العهود والمواثيق، وقد بعثنا له بخلعة ولأخيه إبراهيم كاملية فَرو قاتم، فقرت بذلك عين الشريف فلبسها وطاف بالبيت، فحسن الأتراك للشريف على أن يرسل إلى أخيه إبراهيم فيصل للبس خلعته السلطانية، فاعتمد الشريف على قولهم، وأرسل إلى أخيه ثم اجتمعا بهم فى المسجد فألبس الشريف إبراهيم خلعته، وكان بعض الأمراء الأتراك اعتذر عن حضوره ذلك اليوم بأنه شرب مسهلاً، فحسن الباقون من الأتراك للشريفين أن يعزما إليه من المسجد لزيارته، وكان نازلاً بمدرسة الباسطية ففعلا، فبعد أن وصلا إليه مع جماعة الأتراك أخرج أحد الأمراء مكتوبًا من السلطان، ودفعه لذلك الأمير المزبور فأعطاه لكاتبه فعرّبه ثم قرأه، فكان مضمونه الأمر بالقبض على الشريف على وأخيه إبراهيم، فقبض عليهما وتفرق من كان معهما، وحصلت الغوغاء فى البلد ثم استعادوا منهما ما ألبسوهما من الخلع، ثم إنهم سفروهما إلى جدة وأركبوهما البحر إلى مصر.

انتهى ما قاله الجزيرى.

قال السخاوى فى « الذيل »: كان الشريف على بن حسن المذكور حسن المحاضرة كريمًا، ذا ذوق وفهم، ونظم حتى قيل: إنه أحذق بنى حسن وأذوقهم وأفضلهم.

ومن نظمه: [من الوافر]

وإن نـال الـعُـلاَ قَـوْمٌ بـقـومٍ   رَقِـيـتُ عُـلـوَّهَـا فـردًا وَحِـيـدَا

أقام بمصر بعد أن أخذ هو وأخوه، فاستمر إلى أن مات بدمياط مطعونًا مسجونًا سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة عَنْ خمسٍ وأربعين سنةً.

ثم وصل أبو القاسم إلى مكة يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من سنة ست وأربعين وثمانمائة لابسًا خلعة الولاية وقرئ توقيعه بالحطيم ونودى له كما تقدم، واستمر الشريف أبو القاسم فى ولاية مكة إلى سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فهجم عليه الشريف بركات، ففر الشريف أبو القاسم منها وأقام الشريف بركات بها، فأشيع بمكة أواخر السنة المذكورة أن السلطان أوصى أمراء الحاج بالقبض على الشريف بركات، لاستيلائه على مكة من أخيه أبى القاسم بعد النداء له وقراءة توقيعه عند الحطيم، وكان قد وصل مع الحاج نحو عشرين أميرًا لذلك، فجمع الشريف بركات الخيل والرجل، وأكثر من الجمع على العادة وتقدم وواجه أمير الحاج واختلع ولكن لم يدخل لأحد منهم بيتًا كما كان يقع.

فلما كان يوم عرفة لما عزم الأمراء إلى الصلاة بمسجد نمرة وقعت جفلة حال بروزهم وثار غبار شديد فظن الناس أنهم أغاروا على جهة الشريف بركات فاختلط الحاج وألبست الأشراف والقواد وكانت ساعة مهيلة والعياذ بالله وسلم الله المسلمين، غير أن الشريف بركات لم يقف فى المحل المعتاد فيه الوقوف له بل وقف وحده ومن معه منفردًا عن الحاج ناحية، ثم نزح بعد النزول إلى منى عن مكة. وعاد الشريف أبو القاسم إلى ولايته عليها، واستمر الشريف بركات نازحًا عن مكة إلى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة.

فلما كان سابع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وصل قاصد من مصر وذكر أن السلطان قد رضى على الشريف، وأعاد إليه إمرة مكة المشرفة، وسبب

ذلك أن ولده الشريف محمد بن بركات توجه إلى مصر بسبب السعى لولده الشريف بركات فى إمرة مكة، ودخل القاهرة وحصل له من الملك الظاهر جقمق غاية الإكرام وأنعم على والده الشريف بإمرة مكة المكرمة، فَهَذَا هُوَ السبب فى رضا السلطان عن أبيه، ووصول القاصد بخبر توليته مكة المشرفة، فلما وصل القاصد إلى مكة بهذا الخبر أمر الشريف أبو القاسم أتباعه بالخروج من مكة إلى وادى البيار، وخرج وأخلى مكة، وذهب إلى مصر، فمات فى السنة التى مات فيها أخوه على وفى شهرها بالطاعون المذكور أيضًا، وكان موته بالقاهرة وصلى عليه السلطان، ودفن على والده الشريف حسن بن عجلان بحوش الأشرف برسباى كذا فى « الذيل » للسخاوى، واستمر الشريف بركات فى مكة السنة المذكورة، ثم استدعاه السلطان سنة إحدى وخمسين ليقدم عليه إلى القاهرة فما خالف ولم يمتنع كما امتنع أولاً، وقدم عليه إلى القاهرة مستهل رمضان فى السنة المذكورة، فنزل السلطان إلى لقائه إلى الرميلة وبالغ فى إكرامه واحترامه، وخرج من القاهرة عائدًا إلى مكة عاشر رمضان من السنة المذكورة مكرمًا مرعيا معاملاً بكل جميل، وحصل له من الإكرام ما لا مزيد عليه مما لم يقعْ لأحد من أهله قبله.

وأخذ العلماء عنه بالقاهرة وازدحموا للقراءة عليه لعلو سنده وسمعوا من نظمه.

ثم عاد إلى مكة المشرفة وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا عظيمًا، وذلك أنه لما كانت ليلة السبت أواسط شوال من السنة المذكورة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة دخل الشريف بركات إلى مكة محرمًا بالعمرة فطاف وسعى وخرج إلى الزاهر وبات به، ثم دخل مكة فى صبح اليوم المذكور لابسًا التشريف وقرئ توقيعه بالحطيم، وطاف ونودى له بالدعاء على قبة زمزم كعادة أسلافه الكرام ملوك مكة.

ومما وقع فى زمانه أن أمير اليمن أحمد بن إسماعيل الغسانى المتقدم ذكره آنفًا كتب إليه أن يفرغ له دور مكة وأن يلقاه إلى حلى صحبة قصيدة هى قوله: [من الرمل]

مَنْ لصَبٍّ هاجه نَشْرُ الصَّبَا ... لم يزدْهُ البَين إلا طَرَبَا
وأسيرٍ كلَّما لاحَ له ... بارقُ القبلة مِنْ صبيا صَبَا
ولِطَرْفٍ أرق إنسانُهُ ... دون مَنْ يَشْتَاقُهُ قد حُجِبَا
لم يزلْ يشتَاقُ نحلان وإن ... قَدُمَ العهدُ ويَهْوَى الطُّنبا

ما جرَى ذكْرُ المغانى فى ربا صبواتِ الشطِّ إلا انْتَحَبَا
حَبَّذا صلْبُ القعيسا وطَنِي ولويلاتِ بها ما أَعْذَبَا
وربا البيرَيْنِ مِنْ قبليِّه وشراب بهما ما أعْذَبَا
يا أخلاَّيَ بصبْيا واللِّوَى وأحبَّائى بتَيَّاكَ الرُّبَا
هل لنا نَحْوَكُمُ من عودةٍ لِنَرَى سدْرَكُمُ والكثبا
فَلَكَمْ خادَعْتُ قَلْبِى جاهدًا يتسلَّى عن هَوَاكُمْ فأَبَى
فاذكروا صَبًّا بِكُمْ ذا لوعةٍ بان عنْكُمْ كَارِهًا مغتصبا
وإذا عَنَّ له ذِكْرَاكُمُ صاحَ واغتصَّ الحسا وانتحبا
وإذا ما سَجَعَتْ قمريَّةٌ صاح من فَرْطِ الأسى واحَرَبَا
هَائِم القَلْبِ كئيبًا دنفًا لم يَرَ السلوانَ عَنْكُمْ مَذْهَبَا
أترى الحيَّ الذى كَنَّا وهُمْ جيرة بالشَّامِ أيامَ الصبا
ليتَ شعْرِى بعدنا هل طَنَّبُوا بِرُبا نَخْلان بَغْدى طنبا
أو تناءَتْ بهمُ عِيسُهُمُ أو سَبتهمْ بعدنا أيدى سَبَا
عجبًا للدَّهْرِ ماذا سنُّهُ ولأحداثِ اللَّيالي عَجَبَا
ما طلبتُ الدَّهْرَ إلا صعبًا وطلبتُ السِّلْمَ إلاَّ حَرَبا
ولئنْ حلَّ بقلبى نُوَبٌ مُضمِيَاتٌ تستهلُّ النوبا
وبلانِى مِنْ زمانى محنٌ بَلَغَ الضدُّ بها ما طلبا
فلعَمْرِى ما بلت إلا صفا وانتضَتْ إلا حسامًا خَشَبَا
غير لا أنكر مَعْرُوفًا ولا عَابِس الوجه إذا الدَّهْرُ كَبَا
لا ولا منكرث لو أنه وَهَبَ الحوباءَ فيما وَهَبَا
وأجلّ الناسِ صبرًا لو على غارب المكروهِ يومًا ركبَا
إخوتِى بالشامِ بَلْ يا سادتِي وأعزّ النَّاس أمًّا وأبا
ومَسَاعِير الوغَى من حسنٍ وبنو الحربِ إذا ضاق القبا
ألشناخيبُ الذُّرَى من معشرٍ ألصَّنَادِيدُ الكرامُ النجبا
إن قضيتُمْ من هوانا أَرَبًا ما قضينا من هواكُمْ أَرَبَا
أو تناءَتْ دارنا عنكُمْ ولم يأتنا منكُمْ على البُعْدِ نبا

لا تناسَوْنا وإنْ طال المدى ... كَمْ تناءٍ بعد بُعْدٍ قربا
فإذا ريحٌ جنوبٌ جَنَّبَتْ ... فاسألوها كيْفَ حال الغُرَبَا
فلديها من تَنَاهى لَوْعَتي ... وغرامِى ما يحطُّ الشُّهُبَا
حَبَّذا لو أننِى مِنْ دونِكُمْ ... خائضًا سُمْرَ العوالى والظُّبَا
وجياد الخيلِ ينشُزنَ على ... مَتَنَاتِ الدَّارِعِينَ العذبا
ألحق الأقران شُعْثًا شُزَّبًا ... تتعاطَى بالعواليِ شزبا
أيها الرَّائِحُ بالشَّامِ على ... قلقِ السَّير كَهَبَّاتِ الصَّبَا
أو كَسَهْم طارَ عن مَخْنيهِ ... ذات زورَيْنِ إذا ما ركبا
قُلْ لمنْ كان لمأذونِ القضا ... ولأحداثِ الليالى سَبَبَا
والذى أوقد نيران الغَضَا ... زِدْ على نارك ياذا حَطَبَا
واستلِبْ ما شئتَ عمدًا فعسَى ... عن قريبٍ أن تحطَّ السَّلبَا
إن يكنْ سَرَّكَ ما سا فعَسَى ... كَيْ ترَى من بعدٍ هذا عَجَبَا
إن ظننْتَ الدَّهْرَ يومًا واحدًا ... فلقدْ حَاولْتَ أمرًا كذبا
رُبَّ صدعٍ كان أعيا شعبه ... أدركَتْهُ رَحْمَةٌ فانشعبا
وسرورٍ بعد يأسٍ قد أتَى ... وزمانٍ بعد بُؤسٍ أعشَبَا
ولَكَمْ فتحٍ منَ اللهِ أتَى ... حيثُ لا يُدْرِكُ ساعٍ هربَا
فجلا همًّا وأطفا حرقًا ... وشَفَى غِلًّا وجَلَّى كربا
وأعادَتْ رحمة البارِى على ... مُؤيسٍ من حالِهِ ما ذهَبَا
إن خبونى عنك فى مُسْتَوْدَعٍ ... فشهابُ العَزْمِ منِّى ما خَبَا
أو سلا جَفْنك لذَّاتُ الكرَى ... فَجُفُونِى والكَرَى ما اصطحبا
رُبَّ ليلٍ بتُّهُ مرتقبًا ... لطلابِ الثَّأْر أرْعَى الشهبا
أرقبُ النَّصْرَ سَريعًا طالعًا ... وأراعى الغَفْرَ مهما غربا
لنهارٍ تنقطُ السُّمْر به ... فى الوغَى ما شكلَتْ بيض الظبا
وجياد الخيلِ فى معركةٍ ... مجلبات يرتكبْنَ الغيهبا
فينالُ المُرتَجِى مِنْ ربِّهِ ... فى أَعَادِيه الذى قد طَلَبَا
وصلاةُ الله تغشَى دائمًا ... أحْمَدَ المُخْتَارَ ما هَبَّ الصَّبَا

فلما وصل المكتوب والقصيدة إلى الشريف بركات بن حسن المذكور تصدى لجواب أحمد بن إسماعيل المذكور السيد الأمجد فصيح الفصحاء عفيف الدين السيد عبد الله بن قاسم الذروى، فكتب إليه هذه القصيدة على لسان الشريف بركات ابن حسن بن عجلان، رحم الله الجميع، فقال: [من الرمل]

بِالقَنَا الخطِّىِّ والبيضِ الظبَا ... وبخيلٍ تتبارَى سربا
سابحاتٍ مقرباتٍ ضُمَّرٍ ... أعوجيَّاتٍ عِتَاقٍ شُزَّبا
بُرِّيَتْ آذانُهَا من جودةٍ ... مثلَ أقلامٍ بها كَمْ كُتِبَا
داحسياتٍ إذا ما طردَتْ ... فائتا ما بان عنها هَرَبَا
وإذا ما انحدَرَتْ عن طاردٍ ... سَبَقَتْ لم يَبْغِ منها أربا
عُوِّدَتْ بالحرب حتى إنها ... لم تَزَلْ تَهْوَى التلاقِى طَرَبَا
بدروعٍ سابغاتٍ زُعفٍ ... شاهدَتْ أيامَ عادٍ وسَبَا
صافياتٍ ذات نسجٍ محكم ... وقتيرٍ مثل أعيانِ الدبا
وببيضٍ روسةٍ لامعةٍ ... نصَّهُ صانعه فانْتَصَبَا
وبأبطال إذا ما استَعَرَتْ ... نارُ حربٍ ولظاها التهبا
وردوها برماحٍ ذُبَّلٍ ... وبأسيافٍ تحزُّ العصبا
نحمى البَيْت ونَحمِى جدةً ... وربا حلى وأكناف قبا
بسيوفٍ جردَتْ من غمدٍ ... كبروقٍ يخترقْنَ الحُجُبَا
قُلْ لمن رامَ يناوينا ومَنْ ... رام يأتِى بيتنا مُغْتَصِبا
لا تحجَّ البيْتَ إلا خاضعًا ... دافعًا عُشْرًا لنا ثُمَّ حُبَا
وإذا ما حَجَّهُ ذو عزةٍ ... ترك الأمْرَ وجا مصطحبا
وإذا ما كان رأسًا لم يعُدْ ... عندنا يا صَاحِ إلا ذَنَبَا
سورةُ الفيلِ لنا كافيةٌ ... أُتركِ الجَهْلَ وخَلِّ الكذبا
ليس بيتُ اللهِ وادِى زمعٍ ... لا ولا دمت لمَنْ قد طلبا
إنَّ بيْتَ اللهِ بيْتٌ خصَّهُ ... منه بالنصْرِ فلَنْ ينغلبا
دونه خَيْلٌ عتاقٌ شزَّبٌ ... عسفَتْ بالدارعِينَ النجبا
ومليك من بنى حيدرةٍ ... طابَ أجدادًا وأمًّا وأبا

بركاتُ المنتقَى من حَسَنٍ فارسُ الهيجا إذا ما انتدبا
ألْمُكَنَّى بالنبيِّ الهاشِمِي جده الكاشفُ عنا الكُرَبَا
أطولُ الناسِ فخارًا ساميًا وأجلُّ النَّاس طرًّا حسبا
كَمْ جَنَى من عربٍ ذى عزةٍ ولمالِ الضدِّ كم قد نَهَبَا
ولَكَمْ مِنْ ملكٍ عانَدَهُ فغدا عن مُلْكِهِ منقلبا
لو رآه الموتُ فى يَوْمِ الوغَى تَرَكَ الأمْرَ وحطَّ السَّلَبَا
ولو انَّ الليْثَ وافَى سطوَهُ نكس الرأسَ وهَزَّ الذَّنبا
لا ولا يقرى لَحوحًا ضيفه لا ولا يقطَعُ حَقَّ الأدبا
وإذا ما البَغْلُ مِنْ قُلِّ حَيًا رامَ سَبْقَ الخيلِ جَهْلاً تَعِبَا

فلما بلغه هذا الجواب تخلف عن الحجِّ، وأمر من يترصد الذروى فى بلاده صبيا، فترصدوا له حَتَّى إذا نزل الساحل جازان تحيلوا عليه حتى ركب معهم فساروا به إلى أحمد بن إسماعيل المذكور فحبسه وضيق عليه، فأمر الشريف بركات بفدائه بمائة ألف ناقة، فقال أحمد المذكور: والله ما أخرجه من الحبس حتى ينشعب هذا الصدع، فأنشأ قصيدة فى الحبس، فأرسل الله تلك الليلة مطرًا فأصبح الحجر قد انشعب بقدرة الله تعالى، فأطلقه وأحسن إليه وأوصله مأمنه. انتهى.

واستمر الشريف بركات إلى أن توهن بالمرضِ سنة تسع وخمسين وثمانمائة، فسأل مشدجدة خانى بك الظاهرى أن يرسل إلى الملك يلتمس منه للشريف بركات أن يولى إمرة مكة لولده السيد محمد بن بركات بن حسن؛ لأنه ضعيفُ الجسم ضعيف الحركة، فأرسل خانى بك يسأل فى ذلك إلى الملك، فقدرت وفاة الشريف بركات قبل ورود الخبر، وجاء الجواب بعد موته بيوم بولاية ولده محمد بن بركات، وكانت وفاة الشريف بركات بن حسن بن عجلان عصر يوم الاثنين تاسع عشر شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمائة بأرض خالد من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال، ودخل به مكة أثناء ليلة الثلاثاء، وغسل وصلى عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، ودفن بالمعلاة وبنى عليه قبة موجودة إلى الآن. ورثاه الشهاب المنصورى بقوله: [من الكامل]

قالوا قضَى بركاتُ قلْتُ يحقُّ لي أن أُتبِع العبراتِ بالزفراتِ
يا ترحَةَ الأحياءِ عند فراقِهِ وبقربِهِ يا فرحَةَ الأمواتِ

والكعبةُ الغَرَّاءُ قالَتْ قد غدا لُبْسُ السوادِ عليه مِنْ عاداتي
فانظُرْ إلى آثارِهِ في مكَّةٍ فَرِحَابُهَا لم تَخْلُ من بَرَكَاتِ

وكان رحمه الله مهيبًا وقورًا شجاعًا مقدامًا غضنفرًا كثير الخيرات جزيل المبرات ميمون الحركات، بنى بمكة رباطًا للفقراء وهو موجود، وهم به قاطنون.

له النثر الفائق والنظم الرائق، فمن شعره قوله: [من البسيط]

يا من بذكرهِمُ قد زادَ وَسْواسى وقد شُغِلْتُ بهمْ عَنْ سائِرِ النَّاسِ
ومَنْ تقرَّرَ فى قلبى محبتُهُمْ وجئتُهُمْ طائعًا أسْعَى على راسِي
سألتكُمْ شربةً مِنْ ما مشارِبِكُمْ تُغْنِى عن الراحِ إذ ما لاحَ فى الكَاسِ

واستمر فى الولاية إلى عام ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان ملكًا شهمًا عارفًا بالأمور، فيه خير كثير وحلم زائد مع حسن السياسة والشجاعة المفرطة زائد السكينة والوقار، وله بمكة مآثر كثيرة وقرب نافعة، منها بمكة رباط للرجال وغير ذلك.

مات بأرض خالد من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال وغسل فى داره وطيف به كما هو المعتاد، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه ولده الشريف محمد قبة وتأسف الناس لفقده، تغمده الله برحمته.

وكانت مدة ولايته تسع سنين من سنة إحدى وخمسين إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان له من الأولاد جملة منهم الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان. ولى مكة بعد وفاة أبيه.

وقد تقدم ذكر التماس أبيه ذلك فى مرض موته.

وفى عصر يوم الثلاثاء فى يوم دفن والده وصل المرسوم بالإجابة إلى ما سأل فيه والده، وصحبة المرسوم خلعة الولاية عوضًا عن أبيه، فلما ورد المرسوم بذلك كان محمد غائبًا ببلاد اليمن لحفظ بعض أموال والده، فدعى له على زمزم بعد صلاة المغرب من ليلة الأربعاء، فلما كان يوم الجمعة قرئ المرسوم مخاطبًا فيه السيد بركات ومضمونه: إنه ورد إلينا كتاب الأمير خانى بك مشدجدة بالثناء على المخدوم، وقد بلغنا ضعفه وتوعك جسده وقلة حركته فأقمنا مقامه فى إمرة مكة

ولده السيد محمد بن بركات.

والمرسوم مؤرخ بسادس عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

فلما كان رابع شوال من السنة المذكورة وصل كتاب من السلطان الملك الظاهر أيضًا إلى السيد الشريف محمد بن بركات بالعزاء فى والده الشريف بركات، وتوقيع باستقراره واستمراره فى إمرة مكة عوضًا عن والده مؤرخ فى أوائل شهر رمضان من السنة المذكورة، ودام إلى سنة ثمانين وثمانمائة.

ثم استناب ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات، ثم توفى هو عام ثلاث وتسعمائة كما سيأتى ذكره، ومدة ولايته خمس وأربعون سنة.

ومن فتوحات الشريف محمد عام ثلاث وسبعين: أنه غزا طائفة زبيد ذوى مالك ابن رومى بين خليص ورابغ، وقتل منهم سبعين رجلاً وقتل شيخهم رومى وأخاه مالكًا وغنم منهم أموالاً عظيمة من جملتها ثلاثون ألف بعير.

وفى سنة سبع وسبعين وثمانمائة من دولته اتفق أن أمير الحاج المصرى منع الحاج العراقى من دخول مكة وخرج الأتراك والشريف محمد بن بركات بن حسن وغالب العسكر ملبسون، فلما احتاطوا بالحاج العراقى أمروهم بالدخول إلى مكة، فلما دخلوها أمسكوا الأمير والدوادار وأخذوا المحمل العراقى، وزنجروهما وأركبوهما جملين، ودخلوا بهما مكة، ثم بعد الحج عزموا بهما إلى مصر، ومن بعد تلك السنة لم يدخل محمل من العراق إلى مكة إلى الآن.

وفى عام إحدى وثمانين وثمانمائة ورد مرسوم السلطان قايتباى - طاب ثراه - بأن عشر اليمانى بينه وبين الشريف محمد بن بركات مناصفة، وبأن لمولانا الشريف محمد كل مال الموتى الذين لا وارث لهم إلى أن يبلغ ألف دينار جديد، فما زاد على ذلك كان للسلطان، وبأن أموال اليتامى فى حفظ أمير السلطان بمكة بعد أن كانت فى حفظ قاضى الشرع الشريف.

ووصل محمل من العراق فلم يدخلوا به إلى مكة المشرفة، وبذلوا على دخوله مكة وطلوعه عرفة مالا جزيلاً فلم يوافقهم على ذلك مولانا الشريف محمد المذكور.

وفى سنة اثنتين وثمانين بنيت المدرسة الأشرفية القايتبائية بمكة المشرفة.

وفيها غزا الشريف محمد على جازان، ونهبها وأحرق حصنها، وأخرب سورها وقتل عدة مستكثرة من رجالها، وغنم شيئًا كثيرًا من أموالها، وأسر طائفة عظيمة من نسائها وأطفالها، وكان معظمهم من الأشراف، وتبلغت العساكر من أموالهم وأولادهم ونسائهم بأموال كثيرة وباعدهم فى سائر الأطراف.

قال العلامة جار الله بن فهد القرشى المكى: وكان ذلك فتحًا عظيمًا أوجب جلالة مولانا الشريف محمد ورجحانه على من سلف من هذا البيت المبارك، وخافته القبائل وامتلأت من مهابته الصدور.

وفى عام أربع وثمانين كان حج مولانا السلطان قايتباى - رحمه الله - وصحبه من الديار المصرية أعيانها المشهورون من العلماء والصلحاء، وأولاد الرؤساء أهل الحل والعقد، وتجهز بالأوضاع السلطانية، وصحب من الدواب والخلع والأموال ما لا يحصره عد ولا يحويه حد، وخرج لاستقباله الشريف محمد وولده الشريف هزاع، والقاضى إبراهيم بن ظهيرة وولده القاضى أبو السعود، وقابلوه فى بدر فى افتتاح ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة على أجمل حال من كثرة العساكر وجمالتهم بالسلاح المذهب والثياب الحرير الفاخرة، والخيل المسومة والذخائر والركاب الملبسة بأنواع الذهب، والحلية النظيفة والسيوف المسقطة.

وقد تقدم شرح ذلك بأبسط من هذا عند ذكر ترجمة السلطان قايتباى فى الباب السادس المخصوص بولاة الشراكسة فلا حاجة بنا الآن إلى تكريره.

واستمر الشريف محمد بن بركات على الولاية وحمدت سيرته فى البلاد، واطمأن بوجوده العباد، ولم يزل فى زيادة علو وارتفاع، وتوافر نعم وخيرات وساع، كل ذلك مع فعل الخير والإحسان، والمبرات التى شمل بها القاصى والدان، وتكرار زيارة جده المصطفى ﷺ، والإحسان إلى المجاورين بالحرمين الشريفين، والمحلين المعظمين المنيفين، خصوصًا من يتوسم فيه الخير والصلاح، وفاق فى ذلك من تقدمه من أسلافه الكرام.

ووقع فى أيامه من العدل والطمأنينة ما لم يقع فيما تقدم من الأيام، وفوض إليه نيابة السلطنة بالأقطار الحجازية، والاستنابة فى المدينة المنورة والينبع ممن يختاره، وصرح باسمه الشريف على منبر المدينة بعد السلطان وقبل صاحبها، ونفذ أمره فى

جميع الأقطار الحجازية من أعمال الينبع كنبط والحورا وما فوق ذلك من الشام إلى أعمال جازان وما والاها من اليمن والبلاد الشرقية على التمام، وما حول ذلك من بلاد الحجاز وسراتها وبجيلة وأعمالها، وانفرد فى ذلك بعلو شأن.

وتحدث بهيبته وسطوته القاصى والدانى، ولطالما جهز جيوشه وسراياه إلى من خالف عليه وناوأه، وظفر بهم كل الظفر، واستأصل أموالهم وملكهم وقهر، كقتال أهل الينبع لما لم يوافقوا على الخضوع، وأجلى الجميع من بلادهم وكفهم عن مقاصدهم ومفاسدهم.

وكأهل جازان لما وقع منهم ما وقع من العصيان، فقتلهم واستبى، وملك بلادهم واجتبى.

وكقتل أهل زبيد وإهانتهم، ثم إكرامهم لما دخلوا فى الطاعة وإعانتهم.

وكقتل أهل حلى والعبيد، وتشريدهم كل التشريد، وإخراجهم من البلاد، والقبض على أميرهم الحرامى وجعله مع أهل الجرائم والعناد، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ولا ديوان حاسب.

ولقد كان والله حسنة من حسنات الزمان، ومنة من الله تعالى على القاصى والدان، تواضعًا وأدبًا وفهمًا وعقلاً ومداراة واغتفارًا مع حسن الشكالة ووضاءة الصورة والمواظبة على الطواف والجماعة عند وصوله إلى المحل الشريف ومزيد الوقار، والسكون والعدل، وكف جماعته عن أذى الرعية ومسايسته للتجار وعدم الطمع والتطلع لما فى أيديهم ومجاملتهم والذب عنهم، وفعل الخير الذى يحصل به الثواب العظيم كرباط بمكة المشرفة مع ما وقفه عليه والسبل العديدة بطريق الوادى وجدة، وآبار كثيرة يحصل بها النفع للمسافرين، كالذى بطريق المدينة الشريفة، وبجهة اليمن وغير ذلك من الحسنات، ولم تزل دولته قائمة قويمة وأموره منتظمة وأحواله مستقيمة.

وهو مبجل معظم عند الملوك لا يخالفونه فيما يختار فى جميع الأقطار الحجازية، ويراعون خاطره فى جميع الأحوال المنسوبة إليه، إلى أن اختاره الله تعالى لدار البقاء ونقله إلى دار كرامته، فانتقل إلى رحمة الله تعالى فى شهر محرم الحرام سنة ثلاث وتسعمائة بوادى الآبار، وحمل على أعناق الرجال إلى مكة المشرفة، وغسل فى بيته ودخل به المسجد وطيف به أسبوعا وصلى عليه عند باب

الكعبة بعد أن نادى له الريس على زمزم بصيغة الصلاة على الملك العادل أبى الفقراء والمساكين، إلى غير ذلك من التراجم.

ودفن بالمعلاة وبنى عليه ولده قبة عظيمة موجودة إلى الآن.

ومن جملة خيراته سبيل بالنوارية وسبيل آخر[١] أوقف على ذلك أوقافًا كثيرة وهى بوادى مرّ شهيرة.

ضاعف الله ثوابه وأحسن فى العقبى مآبه.

وخلف من الأولاد ستة عشر ذكرًا غير الإناث منهم خميصة وجازان وهزاع وبركات وقايتباى وعلى وراجح.

ثم وليها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان.

كانت ولادته سنة إحدى وستين وثمانمائة فى ربيع الأول بمكة.

أمه عمرة بنت محمد بن على بن أحمد بن ثقبة بن رميثة.

دخل القاهرة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، وذلك بسبب أنه ورد إلى مكة المشرفة فى السنة المذكورة مرسوم من سلطان مصر بطلب سلطان مكة المشرفة الشريف محمد بن بركات عوضًا عنه، فأرسل الشريف محمد بن بركات ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات عوضًا عنه ومعه قاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة، وولده القاضى أبو السعود بن ظهيرة وجماعة من أقاربه، فأكرم السلطان ومن دونه موردهما، وأشركه مع أبيه محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان، ورجع متزايد العز.

ووقع فى أيام الثمان من سنة إحدى وتسعين وثمانمائة بين ترك أمير الحاج الأول وأمير المحمل قتال عند باب بازان بالمسعى وشج فيهم جماعة من الفريقين والتحم القتال بضرب السيف والدبوس ورمى النشاب، ثم سكّنه الله بمجئ أمير الأول ثم أحضروا القضاة والفقهاء وكتب بذلك محضر.

وفى سنة تسعمائة اتفق أن الحاج المصرى خرج عليه العرب فأخذوا غالبه؛ وكذلك الغزاوى خرجوا عليه ولكن لم يظفرهم الله به، وكذلك الحاج الشامى خرجوا عليه وأخذوه أجمع وأسروا بعض التجار، وكل ذلك فعل بنى لام المفسدين، ولم يسمع بمثل هذا الاتفاق فى سنة واحدة، ولم يزل الشريف بركات

---

(١) بياض بالمخطوط.

يتزايد حتى استقل بالملك بعد وفاة والده الشريف محمد سنة ٩٠٣ ثلاث وتسعمائة، وكان السلطان يومئذ محمد بن قايتباى، وتزايد فى الترقى فى العلوم والفضائل حتى صار مرجعًا فى حل الأمور المشكلات ودفع العدو، كم سافر للأعداء فرجع مسرورًا وبالظفر محبورًا.

وقد ترجمه العلامة الشيخ عبد العزيز بن فهد الهاشمى فى مؤلف له سماه « غاية المرام، بأخبار سلطان البلد الحرام » وساق نسبه فى ديباجته وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به. وملخصه: أنه سمع الحديث بالقاهرة فى رحلته الأولى فى السنة المذكورة وهى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة على المسند شهاب الدين أحمد الشناوى ثلاثيات البخارى وحضر مجلس بدئه وختمه، وأجازه من عدة من البلدان جملة من المشايخ: منهم عبد الرحمن بن خليل التابوتى، وأسماء بنت المهرانى، وأم هانئ الهورينى، ونشوان الحنبلية، وهاجر المقدسية، والعلم صالح البلقينى، والسعد بن الرزى، والشهاب الحجازى، والبرهان البقاعى، وقاسم بن الكريك، وابن قطلوبغا الأمير الأقصرائى، وأبو بكر بن صدقة المناوى، والمعز الكنانى، والتقى الشمنى، والجلال بن الملقن، وأخته صالحة، والبهاء المصرى، والجلال القمصى، والتقى ابن فهد، ووالده أبو بكر وعمر، وأخوه عطية، وعبد الرحيم الأسيوطى، وإبراهيم الزمزمى، وأحمد السوايطى، والقاضى عبد القادر المالكى، وأبو الفضل المرجانى، وأبو الفرج المراغى، وزينب بنت الشويكى، وآسية بنت جار الله الشيبانى، وإبراهيم ابن قاضى عجلون، وأبو ذر الحلبى، وأحمد بن الصلف، وأبو السعود العراقى، وأبو نافع الأزهرى، والتقى القلقشندى، والشموس الخمسة: الأفقهسى، والقلوانى، والزفتاوى، والسخاوى، والشيخ الفخر السيوطى، والكمال إمام الكاملية، والمحب بن الشحنة، ويحيى المناوى، وخلق كثير.

وخرَّج له الشيخ الرحلة جار الله بن عبد العزيز بن فهد عن أربعين شيخًا من مشايخه أربعين حديثًا فى فضل أهل البيت النبوى سماها « غاية الأمانى والمسرات، بعلو سلطان الحجاز أبى زهير بركات» وذلك فى سنة ست عشرة وتسعمائة، وقرأ على الشريف بركات بعضها بمنزله دار السعادة من أول الأربعين التى خرجها له إلى آخر الحديث الثالث مع الكلام على الحديث وأجاز له روايتها عنه، وكتب له بخطه

تحت طبقة سماعها ما صورته « الحمد لله ما ذكر من القراءة والإجازة صحيح فى تاريخه، وكتبه الفقير بركات بن محمد بن بركات عفا الله عنه وعن والديه والمسلمين أجمعين » وكانت القراءة المذكورة فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة الحرام سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة، وحصل للشريف بركات غبطة عظيمة بتخريج تلك الأحاديث، وأكرم بذلك الشيخ جار الله المذكور إكرامًا عظيمًا كما هو شأنه من إكرام العلماء.

وأجاز الشريف بركات جار الله المذكور فى استدعاء كتبه إليه الشيخ جار الله مؤرخ بيوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثانى عام خمس عشرة وتسعمائة.

وكتب له الشريف بركات بالإجازة فى السنة التى بعدها.

وصورة ما كتبه الشريف بركات: « الحمد لله الذى نظم جواهر السنة فى سلك السند، ووصل من إلى جنابه استند، وقطع من أعرض واستبد، وخذل من كفر وجحد.

أما بعد، فقد أجاز كاتبه الفقير إلى الله تعالى بركات بن محمد صاحب مكة المشرفة عفا الله عنه لمن ذكر فى هذا الاستدعاء المبارك ما يجوز لى وعنى روايته بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر، وأسأله ألاَّ ينسانى من دعواته، فى خلواته وجلواته.

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

واستقر الشريف بركات فى ولاية مكة منفردًا بعد وفاة أبيه، وكانت وفاة أبيه يوم الأربعاء رابع ربيع الثانى سنة ثلاث وتسعمائة، وقرئ مرسومه بالحطيم بحضرة كاتم السر البدرى محمد بن مزهر لوصوله بقصده وقصد أخيه هزاع، وأذن له فى تولية المدينة للسيد فارس بن سامان الحسينى زوج أخته الشريفة حزيمة.

واستمر على الولاية المذكورة إلى أن خالعه أخواه هزاع وأحمد المدعو جازان فى سنة أربع وتسعمائة، ثم اصطلحوا، ثم كانت الحرب بين هزاع وبركات سجالاً.

قال الشيخ الفاضل أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الديبع الشيبانى فى كتابه بغية المستفيد: لما كان يوم الأربعاء سلخ ذى القعدة من سنة ست وتسعمائة - بتقديم التاء - كانت وقعة السيد هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان مع أخيه الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وهى

أول وقعة انكسر فيها صاحب مكة الشريف بركات بن محمد المذكور وهزم فيها هزيمة عظيمة، واستولى الركب المصرى على خزائنه ونسائه وأمواله.

والأصل فى ذلك أن الملك العادل طومان باى صاحب مصر لما تولى بعد الأشرف جانبلاط طرد رجلا من أمراء جانبلاط يقال له قانصوه المحمدى فخرج إلى مكة، فلما دخلها لم يلتفت إليه أحد من كبرائها لا الشريف بركات ولا القاضى ولا غيرهما خوفًا من السلطان طومان باى، فلما فقد طومان باى وتولى الأشرف قانصوه الغورى ليلة عيد الفطر من سنة ست وتسعمائة أرسل إلى قانصوه المحمدى إلى مكة وجعله نائب الشام، فلما وصلت إليه الكتب بذلك وهو بمكة فى أول ذى القعدة جاءه الشريف بركات والقاضى أبو السعود للسلام عليه فلم يأذن لهما وكان فى نفسه عليهما شىء لعدم التفاتهما إليه سابقًا، وكان الشريف هزاع حينئذ بمكة فعامله قانصوه على أن يجعل إليه ولاية مكة ويخلع أخاه بركات منها، ثم أمره بالخروج إلى الينبع، وأرسل إلى أمير الحاج المصرى أن يواجه الشريف هزاع ويطلق المراسيم السلطانية عليه، ويلبسه الخلع السلطانية ففعل ذلك، ولبس الشريف هزاع خلعة أخيه بركات، وألبس أخاه أحمد الملقب جازان خلعته التى كان يلبسها مع أخيه بركات، وأقبل مع الركب المصرى إلى مكة ومعه الأشراف بنو إبراهيم فى نحو مائة فارس منهم، فلما علم بذلك الشريف بركات خرج إليهم من مكة إلى وادى مر، والتقى الجمعان هناك وتقاتلا، فانكسر الشريف هزاع مرات، وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ومن الركب المصرى رجل، ومن الحجاج نحو الخمسة، ونهب أطراف القافلة، فلما رأى ذلك الركب المصرى حملوا مع الشريف هزاع على أخيه بركات حملة واحدة، فانكسر حينئذ بركات وقتل ولده المسمى بأبى القاسم فى جماعة من عسكره، واستولى هزاع والركب المصرى على مِحَفَّة الشريف بركات وما فيها من الأموال والنساء والأطفال، وهرب الشريف بركات إلى جدة فنهبها ثم إلى حدة فنهب أكثرها، ودخل الشريف هزاع إلى مكة صحبة الحاج المصرى فاضطربت أحوال الناس وكثر النهب والخوف فى الطرقات، ورجع حجاج البحر من الطريق، وكانوا قريبًا من جدة، وكان عذر الشريف بركات إذا شكا الناس إليه ما يلقون يقول: اشكوا إلى سلطان البلد واطلبوا منه أمانها، فقد أمنتها إذ كنت سلطانًا، وأما الآن فأنا

واحد منكم.

فلما استقر هزاع جاءته الناس يصطرخون من كل جانب التجار وغيرهم من الناس وربما سبوه، فضاق خاطره ولم ينتظم أمره، فدخل على عمه إبراهيم بن بركات فشكا إليه حاله، فأمره بالخروج فى صحبته فخرج إليها والشريف بركات يومئذ مقيم بماء يقال له العد بين جدة وحدة، ثم أمره بالوقوف بجدة وتقدم إلى بركات فقال له: إن أخاك هزاع بجدة فى ألفى فارس من الترك ولا طاقة لنا بمقاومتهم، فإن أحببت تعرضت بينكما بهدنة يأمن الناس فيها ويحجون إلى عاشر المحرم على أن يعطيك أخوك هزاع ثلاثة آلاف أشرفى قبل يوم النحر، فإن فعل ذلك وإلا فلا ذمة له، فرضى بذلك بركات ظنًا أن قول عمه إن هزاعًا فى ألفى فارس حق. فسكن بعض خوف الناس ورجع هزاع إلى مكة.

وكان الحج ضعيفًا ولم يحج الشريف بركات فى هذا العام، وسلم هزاع إلى أخيه بركات ما التزمه عمه إبراهيم من المال، ولما عزم الركب المصرى علم هزاع أنه لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات، فتوجه صحبة الركب الشامى، فتبعه الشريف بركات فحماه الركب الشامى منه. فرجع بركات إلى مكة وأمنت الناس.

وخرج هزاع إلى ينبع، وجمع جموعًا منها وعاد لحرب بركات مرة ثانية، وذلك يوم الأحد التاسع من جمادى الأولى عام سبع وتسعمائة، فالتقوا فى طرف البرقاء، فانكسر فيها بركات أيضا وهزم وقتل أخوه أبو دعيج فى سبعة من الأشراف من بنى أبى نمى، وقتل من الأتراك الذين مع بركات سبعة وقيل أربعة عشر نفرًا، وكان مع هزاع من الخيل مائتا فارس ومن الرجل ثلاثة آلاف وخمسمائة ومع بركات خمسمائة فارس ورجل كثير.

فلما انهزم بركات توجه إلى اليمن فأقام بالليث، ووصل هزاع إلى ظاهر جدة فى يوم الثلاثاء ثامن الشهر المذكور، ونادى بالأمان وقرر أحوالها، وجعل محمد بن راجح بن شميلة وزيره بها وعبدًا من قواده حاكمًا، وأرسل أخاه جازان إلى مكة ليقرر أحوالها، ثم لحقه إليها فى عساكره، ووصلت إليه المراسيم والخلع السلطانية من البحر من سلطان مصر على يد أمير يقال له إلياس فى يوم الثلاثاء ثامن عشر الشهر المذكور، فأرسل له الشريف هزاع بستين جملاً وثلاثين راحلة، وأمره بالطلوع

إلى مكة فوصل إليها، فلبس الخلعة وقرئت المراسيم واستمر سلطانًا إلى أن توفى يوم الثلاثاء خامس عشر رجب الفرد من السنة المذكورة بوادى الآبار فحمل إلى مكة، ودفن بها يوم الأربعاء صباحًا.

ولما فرغ من دفنه تولى إمرة مكة أخوه الشريف جازان بعده بمساعدة القاضى أبى السعود بن ظهيرة وإعانته له بنفقة وسلاح.

فلما علم بذلك بركات سار إلى مكة فدخلها منتصف شعبان وفر منه جازان.

ولما استقر بها بركات جاءته من مصر خلع ومراسيم بالاعتذار إليه من مباطنة أمير الحاج لأخويه هزاع وجازان، فلبس الخلعة وطاف بها.

وكان قاضى مكة أبو السعود بن ظهيرة مباطنا لجازان، فكتب إليه يستحثه ويعده بالإعانة ووعده أن يقبض له على بركات إذا وصل جازان قرب مكة، وعين لذلك القبض ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان، فظفر الشريف بركات بكتاب أبى السعود فاستدعاه فلما دخل عليه - وكان قد أظهر السرور والفرح بولاية بركات - أوقفه على الكتاب فأنكر ذلك، فقبض عليه فى سابع رمضان وأخذ أمواله وعقاره وعذبه.

ثم بعث به وأهله إلى جزيرة القنفذة، وأمر نائبه عليها أن يركبه سنبوقًا، ويغرقه ففعل ذلك به، وغرق يوم الأحد الثانى من ذى الحجة سنة سبع وتسعمائة، وأولاده وعياله ينظرون إليه.

ثم إن الشريف بركات توجه مع الحاج إلى ينبع لكون أخيه جازان نهب الحاج الشامى عند خليص حال قدومه إلى مكة، فحاربه مع أهلها سادس عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وتسعمائة، فكسر بركات كسرة ثالثة ونهبوا نهبًا فاحشًا وقتل ولده إبراهيم مع جماعة من عسكره، وعاد بركات إلى مكة مريضًا، ثم مات بها ولده السيد عجلان، ثم جاءه الخبر أول صفر سنة ثمان وتسعمائة بمجىء أخيه جازان بعسكر عظيم، وبركات مريض لا يمكنه المحاربة، فتوجه إلى جهة اليمن وأقام بها إلى شهر رجب حتى شفى وجمع جموعًا كثيرة وعاد لمكة فلقى بها أخاه جازان بالمنحنى فقاتله بها، فانكسر بركات كسرة رابعة، وفر جماعة الأشراف آل أبى نمى إلى جهة جبل حراء لمباطنتهم لجازان، فثبت هو وبعض خواصه للحرب ساعة، ثم

توجه إلى اليمن أيضًا فتبعه جازان بعسكره فخلفه الشريف بركات فى خيل قليلة وعاد من غير طريقه، ودخل مكة فى غيبة جازان يوم الجمعة حادى عشر شعبان، ففرح به أهلها لظلم أخيه جازان فيها، وبذلوا الهمة فى مساعدته ونصرته، وحفروا خنادق علو مكة وأسفلها وحاربوا أعداءه من خلفها، وعاد إليه جازان فى صبح الأربعاء ثالث عشرى رمضان من أسفل مكة من جهة المسفلة، وحاربهم مع سكانها مرة خامسة، وأظهر له الأتراك همة عالية حتى هزم جازان، وتركهم ولم يتبع منهم أحدًا، وقتل جماعة من الفريقين وجرح آخرون، وتوجه جازان منهزمًا إلى جهة حدة وأقام هو وجماعة ببئر شميس وهم خائفون وجلون، والعسكر يتخطفهم كل ساعة ليلاً ونهارًا، حتى أرسلوا يطلبون النجدة من أهل ينبع فجاءهم عسكر كبير ورحلوا معهم لحرب مكة مرة سادسة فى صبح يوم السبت رابع شوال من السنة المذكورة، وجاءوا من شعب أذاخر والخرمانية من أعلاها، وكان الشريف بركات واقفًا مع خواصه خلف الخندق من باب المعلاة، فانهزم عسكره من غير قتال، وثبت هو والأتراك وأذاق عداه الحرب والعراك لشجاعته وهمته وقوته ونجدته حتى زحزحهم عن مصافهم، وكان تحته فرس يقال لها الجرادة وأنه أقحمها الخندق وهو بمفرده ففر منه الجيش بأجمعه وهو يضرب بالسيف قذالهم حتى أبعدوا عنه قاصدين الينبع، فذرع بعد ذلك عرض الخندق فكان سبعة أذرع.

ثم إنه توجه إلى اليمن فدخل الأعداء مكة وأهانوا أهلها، وآذوهم لمساعدتهم الشريف بركات وحبهم له، فبينما هم كذلك إذ وصلت تجريدة من مصر فخرج الأعداء هاربين، فعاد الشريف بركات إلى مكة ثالث عشر ذى القعدة من عام ثمان وتسعمائة وتوجه لملاقاة مقدم التجريدة المقر الأشرف قيت الرحبى فواجهوه بالطاعة والكرامة، وخلع عليه بالزاهر ودخل معه مكة بإخوانه وعسكره وابن عم أبيه عنقا حتى وصلوا إلى مدرسة الأشرف قايتباى بالمسعى فقبض على الشريف بركات ووضع فى الحديد مع بعض إخوته وجماعة، وانهزم الباقون وحج بهم كذلك، ثم ذهب بهم إلى مصر، ومر بهم على الينبع، واتفق مع أهلها على تولية جازان على مكة.

ودخل قيت الرحبى ببركات ومن معه مصر على هذه الصفة، فأنكر الناس عليهم

ذلك، وما هان ذلك على السلطان الغورى وتعب من ترك مكة فى أيدى العصاة.

وفى ذلك يقول أبو الطيب أحمد بن الحسين العليف المكى قصيدته الكافية يسلى بها الشريف بركات ويحثه على الصبر وهى هذه: [من الطويل]

عزيزٌ على بيتِ النبوّةِ والمُلْكِ ... مقامٌ على ذُلِّ المهانةِ والفَتْكِ

وأعظَمُ ما يلقَى الكريمُ من الأذَى ... على النفْسِ ما يلقى من الضيْمِ والضنْكِ

برَغْمِ العلا والمجْدِ والسَّيْفِ والندَى ... حَصَلْتَ أبا عجلانَ فى قبضةِ التُّركِ

وعزَّ على العلياءِ حجلكَ أدهم ... وطوقك لا مِنْ خالص التبر فى السبكِ

وتلكَ لعَمْرُ اللهِ أدهَى مصيبةٍ ... أصمَّ بها الحاكى عن الحادثِ المحْكِي

عدمتُ الليالى ما أمَرَّ صروفَهَا ... وأخلَقَهَا باللوْمِ فى الفعلِ والتَّرْكِ

أَذُلٌّ وغُلٌّ بعد عِزٍّ ومنعةٍ ... وأَسْرُ النوى بعد الأسرَّةِ والمُلْكِ

لحا الله دهرًا لا يدومُ سرورُهُ ... على حالة إلا استحالَتْ على وشْكِ

بنفسى أبا عجلانَ والفئةَ الألَى ... بنوا مجدَهُمْ بالسمهريَّةِ والبركِ

ونالوا المعالِى بالعوالِى فأصبحَتْ ... بهِمْ بيضَةُ العلياءِ مرفوعَةَ السَّمْكِ

ملوكٌ رعينا الجُودَ حَوْلَ حماهُمُ ... خصيبًا وساهمناهُمُ المالَ بالشرْكِ

رحَلْتُم فربعُ الأنسِ ما زال موحشًا ... خليًّا وسِتْرُ العِزِّ أصبَحَ فى هتْكِ

وغادرتُم فى الكَرْبِ جيرانَ طيبةٍ ... كذا جيرةُ البَطْحَاءِ والحرم المكِّي

وأسلمتُمُ كلَّ القلوبِ إلى الأسَى ... فهذا الورَى ما بينَ باكٍ ومستَبْكِي

ولما استقلَّتْ للمسيرِ جمالُكُمْ ... وحادى النَّوى يَشْكى [إلينا] بما يشكِي

وسرتُمْ وسار الجُودُ يَمْشى أمامَكُمْ ... وظلَّتْ بنو الآمال مِنْ خلفِكُمْ تبكِي

وإنَّ الجبالَ الشُّمَّ والمجدَ والعُلَا ... تَسيرُ بها بُزْلُ الجمالِ على وشْكِ

فلا اكتحلَتْ بالنومِ عينى بَعْدَكُمْ ... ولا ابتسمَتْ غُرُّ الثغور عن الضحْكِ

ولا باتَ ذو ملكٍ قريرًا بملْكِهِ ... ولا مهجَة إلا على لاعج مُنْكِي

فصبرًا أبا عجلانَ للحادِثِ الذي ... يَئُولُ إلى عقبى السلامَةِ والفَكِّ

حرامٌ على العلياء تنكحُ خاطبًا ... سواك وإن كانَتْ تَئُولُ إلى فركِ

أراد بك الحسادُ كيدًا فصادفوا ... جنابكَ لا يحكى لكَيْدٍ ولا يحكِي

فجاءُوكَ من أبنا أبيكَ لعَجْزهم ... فَلِلهِ أرحامٌ تقطَّعْنَ عن شبكِ

فهانوا عليهم بعد ذاك فأصبحُوا يسومُونَهُمْ بالذلِّ والخسْفِ والهَتْكِ
وأنتَ أبا عجلانَ ملْءُ عُيُونِهِمْ كمالاً وأَهْدَاهم إلى الرُّشْدِ والنُّسْكِ
فليْسَ لها إلاك كُفْءٌ وصاحبٌ وما زالَتِ العلياءُ مانعةَ الشركِ
ولا عَنْ رضًا منهم تركْتَ وربما يكونُ ظهورُ الفضْلِ للشيء بالتَّرْكِ
لعَمْركَ ما ساموك خطَّةَ عاجزٍ توهَّمها الجانى سبيلاً إلى المسْكِ
سوَى أن رأَوْا فيكَ الكمالَ لدِينهِمْ فأدوا بك الطاعاتِ فى الحَجِّ والنُّسْكِ
وما استَصْحَبُوا علياكَ إلا ليأمنوا مِن الخَوْف فِي الأموالِ والخيلِ والبَرْكِ
ولو شئْتَ حكَّمْتَ المهنَّدَ والقنا عليهِمْ ولكنْ سِرْتَ فى طاعة الملْكِ
لئن بَلَغَتْ منكَ الليالى جهالةً فما زالَتِ النكبا تهبُّ على الفُلْكِ
وإنْ نالتِ الأعداءُ منكَ بزَعْمها فيا طالما كانَتْ بما نِلْتَهُ تَحْكِي
ورُبَّ ابتسامٍ جاءَ من جانبِ البكا ورُبَّ بكاءٍ جاء من جانِب الضحْكِ
أمَا فى رَسُولِ اللهِ يوسف أسوةٌ لمثلِكَ محبوسًا على الظُّلْمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبر فى السجْنِ بُرْهةً فآلَ به الصَّبْرُ الجميلُ إلى المُلْكِ
فعما قريبٍ يورقُ العودُ بالمنى وتعبقُ أرجاءُ العلا منكَ بالمسْكِ
وتأتى على رغم العدوِّ مملَّكًا وتظفرُ بالتقليدِ والتاج والزمْكِ
ويرجعُ باقى العيش حلوًا كما مضَى وتأوى إلى سامِى سَرِيرِكَ والمُلْكِ

ثم إن الغورى أطلق الشريف بركات من الغل، ورتب له مع جماعته النفقات، وصار يتردد إليه الشريف بركات وإلى أمرائه، ففر إلى مكة، وذلك أواخر سنة تسع وتسعمائة، فظفر فى طريقه بقاصد أعدائه متوجهًا إلى السلطان وهو السيد بطاح الحسينى فقتله وفاز بما معه من المال والهدية.

وفى مدة غيبته بمصر قتل الأتراك المقيمون بمكة أخاه جازان، وذلك أنه لما كان صبح يوم الجمعة التاسع من شهر رجب سنة تسع وتسعمائة قتل الشريف جازان بن محمد فى المطاف عند باب الكعبة فى الشوط الثالث من طوافه، قتله جماعة من الأتراك بمواطأة من أخيه حميضة بن محمد، وولوا أخاه حميضة فحج بالناس ذلك العام.

ثم إن الشريف بركات واجه الحاج المصرى فى طريقه من مصر إلى مكة هاربًا من

مصر كما تقدم ورحل، وذلك بمواطأة الدويدار، ووصل إلى مكة سابع ذى الحجة معه جيش عظيم من بنى لام وأهل الشرق وسائر المفسدين، فمنع الناس من الوقوف يوم الخميس حتى صالحه أمراء الحاج على أربعة آلاف أشرفى يسلمونها ويخلى بينهم وبين الوقوف يوم الجمعة ففعل، ووقف الناس بعرفات ومزدلفة ومنى.

وهرب حميضة ودخل بركات مكة، ثم توجه إلى زيارة جده المصطفى، ثم قصد جهة الشرق فتزوج بالشريفة غُبَيَّة بنت حميدان بن شامان الحسينى، فحملت منه بالسيد الجليل ذى المجد الأثيل ذى العز والسعد أبى نمى محمد فى أوائل سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وولدته ليلة تاسع ذى الحجة من السنة المذكورة، وكان طالعه سعدًا أكبر، ارتفع بولادته كل شر منذ ظهر، وتوالت على والده البشائر، وصفت منه عن الأكدار السرائر، وكان والده يمسح على ناصيته ويقول: كنت فى أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لى هذه الناصية. ولم يزل أبو نمى راقيًا معارج المجد، مستخدمًا للإقبال والعز والسعد.

ثم إن السلطان الغورى أرسل بتفويض إمرة الحجاز إلى الشريف بركات، فقدم أخاه السيد قايتباى فى ولاية مكة وأشرك معه ولده على بن بركات، وكان كل منهما يختلع، وينفرد عنهما الشريف بركات بالدعاء فى خطبة الجمعة، وكان بينه وبين أخيه قايتباى صداقة عظيمة، ودامت إلى أن مات السيد قايتباى يوم الأحد حادى عشرى صفر الخير عام ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة بأرض حسان من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال ومعه أخوه الشريف بركات وصلى عليه بالمسجد، وطيف به أسبوعًا كعادة أسلافه ولاة مكة ودفن بالمعلاة.

ثم إن الشريف بركات أرسل ولده الشريف أبا نمى إلى القاهرة وصحبته السيد عرار بن عجل، وفى خدمته القاضى صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى، والقاضى نجم الدين بن يعقوب المالكى وذلك فى سنة ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة، وسن السيد أبى نمى إذ ذاك ثمان سنين، فأكرمهم السلطان الغورى وقابلهم بكل جميل.

وحكى عن مزيد حذق الشريف أبى نمى أن السلطان الغورى وضعه فى حجره وقال ما سورتك؟ فأجابه: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، فأعجب الغورى ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده الشريف بركات فى نصف ولاية مكة وهو بذلك السن، فصار

يخطب له مع أبيه على منابر الحرمين الشريفين.

ثم حجت خوند أم السلطان الغورى وولده الناصر محمد وصحبتهما كاتب السر محمود بن إنجا فى سنة عشرين وتسعمائة، فأكرمهم الشريف بركات، وقام بهم أحسن قيام وطلبوا منه السفر معهم لمجازاته وإكرامه فوافقهم على ذلك وسار معهم إلى القاهرة، ودخلها مرة ثالثة فأنعم عليه الغورى بخلع سنية وإكرامات مرضية لم يسبق إلى مثلها ولم يشاركه أحد فى فضلها.

وهنأه الشعراء بذلك، منهم العليف المشهور بالقصيدة الآتى ذكرها بعد، وبقصيدة أخرى منها قوله: [من الخفيف]

أَنْتَ ربُّ القضيبِ والبُرْدِ والسيْـ ... ـفِ وربُّ الكُمَيْتِ والمزراقِ

لو رأى المصطفَى أناسٌ عيانًا ... حَلَفُوا أنكَ ابنُهُ بالطَّلاقِ

سِرْتَ نحو المليكِ مَعْ صاحِبِ السرْ ... رِ على مَتْنِ سابحٍ سبَّاقِ

فذكرنا مَسْرَى النبيِّ وجِبْرِيـ ... ـلَ إلى الحقِّ فوق ظَهرِ البُراقِ

فتلاقَى البحران جمعًا على المَرْ ... جِ فطوبَى لبَحْرِك الدفاقِ

وبلغْتَ الذى بلغْتَ بتدبيـ ... ـرٍ من اللهِ فوقَ سبْعِ طباقِ

ثم أصبحت فى حماك وقد تَمْـ ... ـمَتْ بما كان من رضًا واتفاقِ

ومنهم الفاضلة الأديبة ستيتة بنت القاضى كمال الدين محمود بن شيرين القاهرية، وذكرت الإنعامات التى انفرد بها الشريف بركات فى قصيدة دالية هى قولها: [من الطويل]

قِفُوا واسمعوا قولاً صحيحًا له سَنَدْ ... عن الأشرفِ الغوريِّ ما عنه يعتمدْ

وما نالَ مولانا الشَّريف من العطا ... ثمانية ما نالَهَا قبله أحَدْ

فأوَّلها يدعَى له بمقامِهِ ... كما يُدْعَ للسلطان هذا به انفردْ

وأسمعه القيناتِ فى وَسْطِ دارِهِ ... وذلكَ ثانِى ما ذكَرْتُ من العدَدْ

وثالثُهَا يوضعُ له بإزائِهِ ... لمرتبة علياءَ فى بِرِّهِ اجتهدْ

ورابعُها يطعمُهُ باليد ما يشا ... كوالِدِ مولودٍ إذا يُعْنَ بالولَدْ

وخامسها سارا فلم ير نعله ... تمهل حتى حامل النعل قد وَرَدْ

وسادسها جازًا جميعًا بداره ... فأنزله بين العساكِرِ وانْفَرَدْ

وسابعُهَا فرشُ المصلَّى بيدِه وصلَّوْا جميعًا هكذا غاية المَدَدْ
وثامنها ما كان يَوْم وداعِهِ وأكبت أعداه ووفَّاه ما وَعَدْ
وزاد ثلاثًا رفعةً لمقامِهِ بسنجقه والطبل والجند للبوذْ
وقد نال هذا منه بالبرِّ والتُّقى وصِدْقِ مقالٍ والوفاء لما وَعَدْ
وذلك فضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشا ويخسأ عَوَّاء كذاك ومَنْ حَسَدْ

وهذه ستيتة بنت شيرين أديبة عجيبة فاضلة كاملة من جملة تلامذتها الشيخ العلامة جار الله بن فهد القرشي الظهيرى.

وكان الشريف بركات بليغًا مصقعًا له النظم الرائق والنثر الفائق، فمن نظمه قوله فى الغورى فى سفرته الثانية إلى القاهرة عام تسع وتسعمائة وهو قوله: [من الطويل]

هَلُمُّوا معى نحو الصلاحِ وسارعُوا إلى جامعٍ للذكْرِ والحُسْن جامعُ
تأسَّسَ بنياه على الخَيْرِ والتقَى ألسْتَ تَراه بالمحاسِنِ ساطِعُ
أيا قانصوه اسمَعْ بحقِّكَ قصَّتي فإنى لِشَرْحِ الحالِ نحوك رافِعُ
بليتُ بجور مِنْ زمانٍ أمضَّني ومالى ولا فى الناسِ غَيْرَكَ نافعُ
وحقِّكَ ما أفنيتُ مالى ومُهْجَتي سوَى لرضا السلطانِ واللهُ سامعُ
فإن يكُ قد أرضاكَ ما قَدْ لقيته فإنى به راضٍ بَلَى ثم قانعُ
ولى أسوةٌ فى النَّاسِ بالسَّادة الألَى لَكَمْ بذلوا أرواحَهُمْ ثم بَايَعُوا

ونظم الغورى موشحًا وسأل من الشريف بركات أن يعارضه.

ومطلع موشح الغورى:

يا غزالاً بلحظِهِ يُنْشِى نشأةَ الأكْوَسِ

فقال الشريف بركات:

أكتم السِّرَّ وَيْكَ لا تُفْشِى بالرَّشَا الألعسِ
فهو يزرى الغصونَ إذْ يمشى فى الرداءِ السندسِي
ما على الصبِّ فى الهوَى عار إنْ تمادَى الكَمَدْ
إن لى فى الغرامِ أوطار واصطبارى نَفَدْ
واللَّواحى فى لومهم جاروا وأنا أُبدى الجَلَدْ
رَبِّ يا ذا الجلالِ والعرش كُنْ به مؤنسِي

وبوصل الحبيبِ فى الفرش جُـدْ ولا تَـخْـبِـسِ
يا غزالاً بوصله تدرك كـلَّ مـا يـسـتـطـابْ
غايتى فى الغرامِ مِنْ أمرك أنـنـى مـسـتَـرَابْ
جُدْ لمن فى هواكَ لا يشرك زيـنـبًـا والـربـابْ
لم أزلْ فى وصاله أرشى كـى يـجـى مَـجْـلِسِـي
هل لهذا القتيلِ مِنْ أرش يـا مُـنَـى الأنـفـسِ

وكان رحمه الله شهمًا عند الوفاء وحفظ العهود، وإكرام الشعراء والوفود، مع العفة والصيانة، وملازمة الخير والديانة، وإظهار الخيرات، ومواصلة المبرات.

أوقف بعض الجهات على أنواع الصلات، وبنى رباطًا سفل مكة، وأسكنه الفقراء فى حياته، وأقر الله عينه بمشاركة ولده أبى نمى له فى الولاية كما شارك هو والده.

ثم لما قدر الله تعالى زوال دولة الغورى، وأفضى ملك مصر والحرمين إلى مولانا السلطان سليم خان ملك الروم، وذلك فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وجهه أبوه الشريف بركات مرة ثانية إلى مواجهة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم السلطان سليم خان، فوصل إليه إلى القاهرة بعد حربه للغورى، ودخل مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فقابله الخنكار بالعناية والرعاية، وأقر الشريف بركات على ما كان عليه من الولاية، وأبقى أبا نمى على مشاركة والده، فعاد أبو نمى قرير العين.

واستمر الشريف بركات مشاركًا له ولده أبو نمى حتى قضى نحبه ليلة الأربعاء رابع عشرى ذى القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بمكة الشريفة على فراشه.

ثم صلى عليه يوم الأربعاء بالمسجد الحرام، وطيف به حول الكعبة أسبوعًا كعادة أسلافه ولاة مكة الكرام، ودفن بالمعلاة وبنيت عليه قبة عظيمة وهى موجودة إلى الآن.

وكان مدة ولايته مشاركًا لأبيه محمد وولده أبى نمى وإخوته نحو ثلاث وخمسين سنة وعمر إحدى وسبعين سنة، وكان له من الأولاد ثقبة وأبو القاسم وحازم وواصل وسند وعلى وأبو نمى محمد هذا المذكور بعده.

وقد تقدم فى ترجمة والده بركات أنه ولد ليلة تاسع ذى الحجة الحرام سنة إحدى

عشرة وتسعمائة، وأن أمه عبية بنت حميدان بن شامان الحسينى، وكان يكنى نجم الدين، شارك أباه بركات فى ولاية مكة كما تقدم، وعمره ثمان سنين ولاه الغورى.

وهى آخر ولاية صدرت من الشراكسة سنة ثمان عشرة وتسعمائة، ثم أبقاه السلطان سليمان خان على مشاركة والده سنة ثلاث وعشرين لما قدم عليه بالقاهرة بعد حربه للغورى، واستيلائه على مصر، وهى أول ولاية صدرت من العثامنة.

ثم استقل بأعباء السلطنة بعد موت أبيه، وكان استقلاله بها فى سن عشرين سنة، فوصلت إليه المراسيم السلطانية السليمانية، فخمدت بولايته الفتن، وابتهج بملكه وجه الزمن.

ولم يزل ممتعًا بمكارم الشيم، متقلبًا فى صنوف النعم. وقد رزق الذرية الصالحة، ودانت له رقاب الأمم.

ولما كان موسم خمس وأربعين وتسعمائة، وصل إلى مكة الباشا سليمان من جهاد الفرنج بالديار الهندية عازمًا إلى الديار الرومية، فأرسل معه الشريف أبو نمى ولده السيد أحمد بن أبى نمى لمواجهة السلطان سليمان بن سليم خان، وفى خدمته السيد عرار بن عجل والقاضى إبراهيم بن ظهيرة والقاضى تاج الدين المالكى، فوصلوا القاهرة ثم توجهوا منها إلى الديار الرومية فى البر فوصلوا بالسلامة والعز والكرامة، واجتمع السيد أحمد بالسلطان سليمان وجلس على يساره، فقابله بالإكرام، وعامله بالاحترام، وأشركه مع والده أبى نمى فى ولاية مكة وذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة، وأقام مدة متوعكًا بالروم حتى فاته الحج فى ذلك العام، ومات السيد عرار بالطاعون، ثم عاد إلى القاهرة عام سبع وأربعين.

قال الشيخ محيى الدين عبد القادر محمد الشهير بالجزيرى فى كتابه « درر الفوائد المنظمة »: فعاد الشريف أحمد إلى مكة عام سبع وأربعين وتسعمائة وهو فى غاية الرفعة والجلالة متوليًا ما كان والده يتولاه، وأنعم عليه السلطان سليمان بعلم مكمل بطبلخانة سلطانية رومية على أكمل هيئة فاخرة.

فبمقتضى ذلك صار الشريف فى منعة وحمى ممن يرد إلى الأقطار الحجازية من أمراء الحاج وغيرهم من أكابر الأروام، ومن أراد الاجتماع به من أكابرهم يأتى إليه إلى بيته ومحل عزه منفردًا وفى جماعة قليلة فيقصده للسلام عليه، ولا يذهب

الشريف لأحد منهم أصلا.

وتوجه قاصدًا مكة فلاقاه والده أبو نمى فى وادى مر، وجعل له سماطًا عظيمًا حضره الأعيان، ثم قرئت مراسيمه بمكة بالعشر الأول من ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة، وألبس الخلعة السلطانية وطاف بها، وصار يدعى له على المنابر، وسعت إلى أبوابه الشعراء والأكابر.

وممن مدحه مهنئًا للشريف أحمد بالولاية العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير بقصيدة رائية هى هذه: [من الطويل]

وفَتْ صبّهَا بعد الجفا غادَةٌ عَذْرا ... ومذ لامَهَا قالَتْ لعلَّ لها عُذْرَا
وزارَتْ ولكنْ بعد طولِ تشوُّقِ ... إليها ولا لَوْمَ عليها ولا إزْرَا
وجاءته والأشواقُ جاذبةٌ لها ... وشاكَتْهُ ما تلقاه وهْوَ به أدرَى
وأطفَتْ ببردِ الوصلِ حرَّ بِعَادِهِ ... فباتَ ولا يشكو بعادًا ولا حَرَّا
وأصبَحَ فى أهلِ الغرام منعمًا ... بمَنْ لحظُهَا يبرى ومنه الضنا يبرا
مهاةُ فلاةٍ غادةٌ عربيَّةٌ ... عقيلةُ حَيٍّ كالضَّراغِم بل أضْرَى
عزيزة قوم مستحيل وصالها ... ولو بذل العشاق أنفسهم مهرا
محجَّبة ما إنْ تُنَالُ لناظِرِ ... جعلْنَ لها بيض الظبا والقَنَا خِدْرَا
ممنعة لَحْظ الحسام رقيبها ... يكلّم من يحلو له لفظها المُرَّا
رَدَاحٌ كساهَا الحُسْنُ حُلَّته كما ... بمقلتها هاروتُ قد أَودَعَ السِّحْرا
مهفهفةٌ كاللُّدنِ أمَّا سوارها ... فمثرٍ وأما بندُهَا يشتكى الفَقْرَا
لها اللهُ خودٌ حين تخطو تخالها ... من التِّيهِ والإعجاب ثاملة سَكْرَى
إذا ارتجَّ منها الردفُ واهتزَّ قَدُّهَا ... ولاح مُحياها وأسبَلَتِ الشَّعْرا
رأيتَ كثيبًا فوقه غُصْن بانةٍ ... عليه هلالٌ والظلامُ له سِتْرَا
رَنَتْ جؤذرًا ماسَتْ قضيبًا تأرَّجَتْ ... عبيرًا سطَتْ ليثًا ولكنَّها أجرا
بدت قمرًا طرْفى وقلبى منازلٌ ... لها أغرقَتْ هذا وذا أجَّجَتْ جمرا
لها كَفَلٌ كالحقْفِ يقعد قدّها ... إذا نهضَتْ قد أتْعَبَ العِطْفَ والخَصْرا
طويلةُ مجرى العقْدِ والجيد قد حلا ... بعقْدٍ حكى فى النظم مبسمها الدرَّا
إذا ابتسمَتْ خلْتَ الشَّتيتَ ووشمها ... لآلٍ بها خَفَّتْ زُمُرّدَةٌ خضرا

عليها جَرَى ظَلْمٌ يعز مذاقُهُ فلم ندر ظَلْمًا ذلك العذبُ أم خمرا
أدارَتْ على العشَّاقِ خَمْرَ عيونها فأضْحَوْا نشاوَى هائمين بها سَكْرَى
فلا تعجبوا مِنْ كَسْرِ أجفانها إذَنْ فبالشرعِ كاسُ الخمرِ يَسْتَوْجبُ الكَسْرا
كتمْتُ هواها غير أنَّ محاجري بما صنته خَطَّ ابن مقلتها سَطْرَا
تمنُّ على المضنَى بإرسال طيفها إليه ومَنْ ذاق الصبابة لا يكْرَى
رعا الله دهرًا كنْتُ سلطانَ عشقِهِ وكانتْ غصونُ العمْرِ يافعةً خضرا
ولما مضَى عصْرُ الشبيبة وانقضَى ومَرَّ وما أحلاه مِنْ زمَنٍ مَرَّا
ونَبَّهنى مِنْ نومِ جهلى وشيبتي صَباحُ مشيبٍ لاحَ فى مَفْرِقِى فَجْرَا
دعانى هواها للتَصابِى فلم أُجِبْ وقُلْتُ له أرهقتنى فى الهوَى عُسْرا
أبعد مشيبى تَبْتَغِى منى الصِّبَا لقد جئتَ يا داعى الهوَى خُطَّةً نَكْرَا
فمالى وللتَّشبيب بالغِيدِ والظِّبا وبالوشمة الخَضْرا وبالوجنة الحَمْرَا
وقلبيَ قَدْ أطلقته من يد الهوَى وكان لسلطانِ الغرامِ من الأَسْرَى
وفكْرِىَ عن صوْغِ المديحِ فطمتُهُ سوَى صَوْغِ مدحى فى ابن فاطمة الزَّهرا
أبى الظفر المنصورِ أحمَدَ مَنْ رَقَى سماءَ المعالى وامتطى الأنجُمَ الزهْرا
ومن قد علا هامَ الممالكِ مذ نشا ودبَّرها مِنْ قبْلِ أن يبلغ العَشْرَا
ومَنْ جَرَّ من فوق النجومِ ذيولَهُ فقنعتِ الجوزا وعممت النَّسْرَا
علا ذروةً فى المَجْدِ أكسَبَ فخرُهَا بَنِى هاشمٍ عِزًّا كسا جدّهُمْ فخرا
ومِنْ دوحة السبطَيْنِ أنبع غُصْنه ومن نفْحَةِ الريحانتَيْنِ ملى عطرا
به افتخرَتْ آلُ النبيِّ وعظمَتْ قريشٌ وسادَتْ قومها مُضَرُ الحمرا
ومن حَازَ فى سنِّ الشبيبة رتبةً مِنَ العقلِ والتدبيرِ فاقَ بها عُمْرَا
يدبِّرُ أمْرَ الملكِ منه بهمَّةٍ له علَتِ السُّيُوق واعتلَتِ الغفرا
ويعلو سريرَ الملكِ ليثًا موقرًا مهيبًا كما يعلو المُطَهمَةَ الشُّقْرا
ويحميه رأيٌ منه ضاهى رماحه إذا ما حَمَتْهُ أو ضوازمه البَتْرَا
شهابٌ إذا ما رمْتَ رأيًا وإنْ ترِدْ أخا غارةٍ يروى القنا خلته ذمرا
شُجَاع ربى بَيْنَ الأسنةِ والظبا ومنذُ نشا أرضى الصَّوارم والسمرا
إذا جال فى الهيجَاءِ والخيلُ تدَّعي فإنَّ كماةَ الحربِ تجعلهُ سِتْرا

هزبرٌ تخافُ الأُسْدُ مِنْ سطواته ألستَ تراهَا خيفةً تسكُنُ القفرا ؟!
جوادٌ لقد أخطا الذى قاسَ جودَهُ بسحبٍ وهذا كفُّهُ يمطرُ التبرا
عطاياه لا تحصَى بعدٍّ ولا فَمٍ ولا قلمٍ بل بعضها جَلَّ أن يُدْرَى
مجمعة فيه مآثرُ مَنْ غداً معاصِره والآتِيينَ ومَنْ مَرَّا
شريفُ السجايا من لؤَيِّ بن غالبٍ محاسنه تُتْلَى وإحسانه تَتْرَى
ولا عيبَ فيه غَيْر إفراطِ سؤددٍ وبذل نوالٍ يسترقُّ به الحرا
أبى الله إلا أنْ تكونَ له العلا على كُلِّ مَنْ فى الأرضِ مِنْ خلقه طرا
من المسجدِ الميمونِ أحمدُ قد سَرَى إلى المسجدِ الأقصَى فسبحانَ مَنْ أَسْرَى
ويمَّم ملكَ الرومِ ممتطيًا على نجائب عز فى الغُدُوِّ وفى المَسْرَى
وسار لسلطانِ البسيطةِ مَنْ له جميعُ ملوكِ الأرضِ خاضعة قهرا
مليكٌ له ملكٌ كملكِ سَمِيِّهِ وأكبره عَنْ أن أفوه به ذِكْرَا
تكفَّل للدنيا بأرزاقِ أهْلِهَا فكلُّ ابن أنثى لا يجوعُ ولا يَعْرَى
ومدَّ على أبنائها مِنْ أمانِهِ رواقًا فلا يخشونَ بؤسًا ولا ضُرًّا
وألبسهم جلبابَ عدلٍ طرازه لكم ذمَّتى أنْ لا مخاف ولا ذُعْرَا
ونوَّلَ كلًّا ما يريدُ فمن يرِدْ غِنًى أو حياةً ذاك رزقًا وذا عُمرَا
خليفةُ عدلٍ بالإمامةِ قائمٌ وإن جلَّ ذاتًا عنهما وعلا قَدْرَا
له البسطةُ العظمَى على الخلقِ كُلِّ مَنْ تحيطُ به الخضرا وتحملُهُ الغبرا
له الملكُ والكرسىُّ والتاجُ والعلا له الوقْتُ والأملاكُ تعنو له قَسْرَا
تخرُّ إلى الأذقانِ فى عَتَبَاتِهِ سُجُودًا عليها لا ثمينَ له صغرا
وتلثمُ حصبا بابِهِ بمباسمٍ لهم شَرُفَتْ عن كونها تلثم الدُّرَّا
وتعتدُّهُ فخرًا، ومقدمُ أحمدٍ عليه مع التَّعْظيمِ تعتدُّهُ فخرا
به هزَّتِ اسطنبولُ مِعْطَفَ تائِه وأضحَى به إيوانها باسمًا ثغرا
وشرَّفَ منها ملْكها ومليكها ودَوْلتها هزَّتْ وشدَّتْ به أزرا
وجرَّ به إقليمها ذَيْلَ معجبٍ وفاق أقاليمَ البسيطةِ إذْ جَرَّا
ومَعْ عِظَمِ الخنكارِ لما بدا له محيَّاه كادَتْ أن تخفَّ به السَّرَّا
ولما رأى نورَ النُّبُوةِ ساطعًا يُضىءُ له من صبحِ غرَّته الزهْرَا

وشاهد منه صورةً نَبَويَّةً ... جمالُ سناها يَبْهَرُ العقلَ والفِكْرا

ملا عينه منه وقارًا وَهيْبَةً ... وحَمَّلها مِن نُورِ طلعته وِقْرا

وشرَّفها منه بمرأى جلالهِ ... وهيبته مرأى النبيِّ بالاستقرا

وَقرَّبَهُ منه وأدنَى محلهُ ... وأجلسَهُ من تَخْتِ سلطانِهِ الصَّدْرا

وبالَغَ فى تعظيمه خافضًا له ... جناحَ اتضاعٍ ما أشابَ به كِبْرا

وأدناه منه ثم حَيَّاهُ مطرقًا ... ووافاه بالبشرَى وأهْدَى له البشْرا

وَفيَّأَهُ مِنْ جودِهِ ظلَّ روضة ... أمانيه مِنْ أكمامها أطلعتْ زهرا

وأثمرَ فيها غرس رجواه مُدْنِياً ... إليه قطوفًا لا تُكَلِّفُهُ هَصْرا

وأينع فيها غُصْن آماله كما ... مطامعه منها مزاودها شكْرا

وأفق رجاه عمه سُحْب فضله ... وأجرَى له منها بجريته نَهْرَا

وألبسه تشريفةً عاقدًا له ... ولايةَ مُلْك من زبيدَ إلى مِصْرا

وأعطاه ما الآمالُ تنفدُ دونَهُ ... وكُلُّ الأمانِى دون غايته حَسْرَى

وأكرَمَ مثواه وأحسَنَ نزله ... وأَدْخَلَهُ من ملكِهِ جنةً خضرا

هنا طرفه فيها وأمْرَى جنانه ... فَلِلهِ ما أهنا وَلِلَّهِ ما أمْرَى

به قد تسلَّى عن حبيبٍ ومنزلٍ ... فأصبح لم ينشدْ قِفَا نبك من ذِكْرَى

ولكنهُ عن ذكْرِ والدِهِ وعنْ ... رعاياه لم يغفُلْ ولم يستطعْ صَبْرَا

فحرك منه ساكنَ الشَّوقِ باعثٌ ... يحثُّ مطايا عزمه منه بالإغْرَا

فعاد إلى أوطانِهِ عودَ مُرْهَفٍ ... إلى غمدِهِ من بعد أن جَاوَزَ النَّحْرا

وجاء كما يرضى المَمَالِك والعلا ... وبيض الظُّبا والملك والنُّهَى والأَمْرَا

وأصبَحَ نجاب السُّرورِ مخلّقًا ... وقد أرَّج الأرجاء مِنْ عِطْره نَشْرَا

وطَبَّقَتِ الأرضُ التَّهانى لعودِهِ ... إلى ملكٍ يشدو لها هاتِف السرَّا

فقلَّصه مُذْ بلَّغته دياره ... حرام على الأكوار تعلو لها الظَّهْرَا

علينا لها لَثْمُ النحورِ وفرشنا ... خدودًا لممشاها لنوفى لها النذرا

فيابا سليمان النَّدَى والذى اعتَلَى ... عَلَى صهوةِ العلياءِ مذ شَرِبَ الدّرا

لِيَهْنِكَ ما قُلِّدتَّ فاستَخْدِمِ الظبا ... وسُمْرَ القنا والسعْدَ والعِزَّ والنصرا

فمثلكَ لم ننظرْ مليكًا مُعَظَّمًا ... تُظَلِّلُهُ الخضراءُ فى حلَّةٍ صفرا

فلا زلْتَ سلطانَ الحجازِ وفخرَهُ ... وتاجَ بنى الزهرا وغُرَّتها الغرَّا
فهمْ سببُ التقوَى وهم أنجُمُ الهدَى ... وهُمْ شرَفُ الدنيا وهُمْ سادة الأُخْرَى
بهم تفرجُ الغما بهم يُكْشَفُ البلا ... بهم تُرْفَعُ اللأوا بهم نَدْفَعُ الضرا
بهم يأمنُ الناسُ المخاوفَ فى غدٍ ... إذا خيف أن تعطى الصَّحائِفُ باليُسْرَى
وهم أهلُ بيتٍ أذهَبَ الله رجْسَهُمْ ... وَطهَّرهُم من أنْ يُنِيطَ بهم وِزْرا
وهم نعمةُ البارى على الخَلْق إذ غَدَوْا ... نجاةً لهم لكنَّ نعمته الكُبْرَى
على خلقه فى الأرضِ نَجْمُ العلا أبو ... نميٍّ الذى قد فاق فى عَدْلِهِ كِسْرَى
مليكٌ له نورُ النبوةِ هالةٌ ... مُحَيَّاهُ منها قد أضاءَ لنا بَدْرا
مليكٌ له نَهْرُ الرسالةِ موردٌ ... فأكْرِمْ بموروِدٍ وأكْرِمْ به نهرا
به شرَّفَ الله الزَّمانَ وأهله ... وحَلَّى به الدنيا وزانَ به الأخْرَى
وأنطَقَ أفْوَاهَ الثَّنَاءِ بحمدِهِ ... وأجرَى له من كلِّ ناطقِه شُكْرا
وتوّج هاماتِ المنابرِ باسمه ... وزان به الأقْلاَمَ والطرْسَ والحِبْرَا
وأرسَلَ جبريلَ الأمينَ لجدِّهِ ... خديمًا وفى أوصافِهِ أنزلَ الذكْرَا
فما ذا عسَى فيه يقالُ ومدحُهُ ... أتانا به التَّنْزيلُ فى سُورة تُقْرَا
ومَنْ كان جبرائيلُ حَامِلَ مَدْحِهِ ... ومادحه القرآن لا يرتَضِى الشِّعْرَا
ولو نُظِّمَتْ زهر النجوم قلائدًا ... بجنْبِ علاه كانَ فى حَقِّهِ هجْرَا
هو ابنُ الألَى مدُّوا سرادقَ مَجْدِهِمْ ... وفخرهم فوق السِّمَاكَيْنِ والنَّسْرَا
ملوكٌ غطاريفٌ جحاجحُ نُخبةٌ ... ليوثٌ غيوثٌ سَادَةٌ قادةٌ غرَّا
صناديدُ صِيدٌ أوجبَ الله مدحَهُمْ ... وحسبهم إلاَّ مَوَدَّتَهُم أجْرَا
وهم أهلُ بيتٍ لا صلاةَ لكُلِّ مَنْ ... يصلِّى ولا يجرى لهم ضمنها ذِكْرَا
وهم تاجُ أركانِ الصَّلاَةِ وذِكْرهم ... طرازٌ على عطفى تَحِيَّاتِهِ الأخرَى
غدا حُبُّهُمْ فرضًا وطاعَتُهُمْ هُدًى ... وقُرْبهم مَنْجًى وبغضهم كُفْرَا
ومدحهم فخرًا ولا سِيمَا أبو ... رُمَيْثَةَ منهم حُبُّهُ زَادَنِى فخرَا
هو الملكُ المنصورُ أندى الورَى يدًا ... وأغزرُهُمْ حظًا وأوسعُهمْ صَدْرَا
وأرجحُهُمْ عقلاً وأشرفهم أبًا ... وأصوبُهُمْ رأيًا وأكثرُهُمْ بِرًّا
يفوقُ ملوكَ الأرضِ عزًّا وهِمَّةً ... وبأسًا وجودًا يفضحُ الليْثَ والبَحْرا

يصيِّرُ حدّ السيف كلًّا بحلمه ويترك وردَ الماءِ مِنْ عزمِهِ جمرا
إذا ما دَهَى أمرٌ من الخَطْبِ فادحٌ تبيتُ بردُ الأمْرِ مقلته سَهْرَا
ولم يستَتِرْ إلا بضوءِ حسامِهِ ولم يستشِرْ إلا الرُّدَينيَّةَ السَّمْرَا
وإن رام أمرًا فالقضاءُ مُسَاعِدٌ له واللَّيالى ليس تَعْصِى له أمرا
هو البَطل المقْدَامُ فى يومِ غارةٍ يقوم مقامًا يُرْعِدُ العسكَر المجرا
عواليه فى نَظْم الكلى جَادَ صنعها كما فى الطّلاَ أسيافُهُ جادَتِ النثرا
إذا اربدَّ تفترُّ الأَسِنَّةُ والظبا وتَجْرِى بُكَا عينِ النضار إذا افترَّا
يداه لنفعِ الخلقِ مملوءةٌ ندَى فيمناه واليسرَى بها اليُمْن واليسرا
ورُبَّ يراعٍ تشخصُ البيضُ هيبةً لسطوتِهِ والسُّمْرُ تنظُره شَزْرَا
إذا ما جرَى فى الطرْس قُلْ قَدَرٌ جَرى فإن شَاءَه خيرًا وإن شاءه شَرًّا
مليكٌ إذا حاولت ضبطَ صفاتِهِ فلنْ تستطعْ ضَبطًا لذاك ولا حَصْرَا
فيا با نُمَىّ الملك والملك الذي يجلُّ عن الألقابِ والمدحِ والإطرا
لقد صدَحَتْ فى الكونِ صادحةُ الهنا تُغَرِّدُ فيه بالمَسَرَّةِ والبشْرَى
بمَقْدَمِ مَنْ أنتجته وادخَرْتَهُ وليًا لعهدِ الملكِ أَعْظِمْ به ذُخْرا
بمقدمه ورق البشائِر قد شَدَتْ وكلُّ فؤادٍ من بشائرها استرّا
وقد عَمَّ أقطارَ الحجازِ قدومُهُ سرورًا كما عَمَّ العراقَيْنِ مَعْ بُصْرَى
ووافَى وكلٌّ شيقٌ لِلقَائه كما اشتاقَ حيٌّ عامَ إجدابِهِ القطرا
وقد آنسَ البيتَ الشريفَ وأهله ومكَّة والركْنَ المكرمَ والحِجْرا
وأضحَى محيًا مكةٍ متهللاً سرورًا بمرآه وناظرُهُ قَرًّا
وكان له عيدًا ولكنه غَدَا لباغِضِهِ نحْرًا وحاسده فِطْرا
وخلعته الصَّفْرَاء منها لَقَدْ رَمَوْا سَوَادًا وذكْرَاها ملا سمعَهُمْ وقْرا
به قد تحلَّتْ والمراسيمُ شُرِّفَتْ وشرّف مُهْديها له والذى يَقْرَا
فَدُمْ وليدُمْ والملكُ طوعُ يديكما ومدحُكُمَا يستغرقُ الحمدَ والشُّكْرا
وهاكَ من الدُّرِّ النضيدِ قصيدةً تَغَارُ قوافِى الشعْرِ مِنْ رَسْمِهَا بالرَّا
منقَّحةَ المعنَى مُصَحَّحَة البنا مهذَّبة الألْفَاظِ طَيِّبَةَ المقرا
تضوَّعَ رَيَّاها عليكَ ولم أكُنْ على مِثْلِ كافورٍ أضِيعُ لها نَشْرَا

لعمريَ لا أرضَى القريضَ بِضَاعةً ... ويَبْخَسنِى لَو أننى قُلْتُهُ دُرًّا
وما الشعْرُ إلا دونَ قَدْرِى وبعض ما ... لذاتى مِنْ فضلٍ ولم ينضبطْ حصرا
وُدونَكَهَا مِسْكُ الصَّلاةِ خِتَامُهَا ... على أحمدَ المحمودِ فى الفتْحِ والإِسْرَا

هذا ما ذكره الكثيرى فى « الوسيلة » وغيره.

وقد ذكر السيد محمد السمرقندى ذلك مفصلا مع زيادات، وبعض مخالفات أحببت ذكر جميعه تتميما للفائدة.

قال: تشرف مولانا الشريف بركات بن محمد بن أبى نمى بن بركات بن حسن بن عجلان بحماية الحرمين الشريفين بعد وفاة والده الشريف محمد بن بركات سنة ثلاث وتسعمائة، وكان سلطان مصر يومئذ محمد ابن السلطان قايتباى.

ثم فى جمادى من العام المذكور تولى الشريف يحيى بن سبيع إمرة الينبع، ووقعت بمكة فتنة عظيمة بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وارتحل هزاع مع أخيه أحمد الجازانى فى خمسمائة فارس من ذويهما ونزلوا بالينبع وكاتبوا السلطان فى إمرة مكة بمائة ألف دينار جديد، وافترقت الدولة مع الأخوين فرقتين، لكن سعد بركات غالب. ثم إن السلطان برز أمره العالى بتعيين المقر الكريم البدرى محمد بن مزهر لإخماد الفتنة المذكورة.

وفى عام ست وتسعمائة تسلطن الملك قانصوه الغورى بتخت مصر، فجهز للشريف هزاع بن محمد خلعة سنية بإمرة مكة المشرفة صحبة أمير الحاج، فلاقاه من ينبع ولبس التشاريف السلطانية، وسبق إلى مكة لتمهيد البلاد وتطمين العباد، فلاقاه الشريف بركات خارج مكة فاقتتلا قتالاً شديدًا، فانكسر هزاع، ولحق بأمراء الحاج فأعانوه، وأقبلوا بجموعهم من العساكر والحجاج على الشريف بركات، فولى عن محاربتهم إلى جدة وما يليها، ونهب بعض عساكره كل ما مروا به.

ودخل الحجاج مكة ومعهم الشريف هزاع وهم على غاية الخوف والوجل من الشريف بركات، وترك أكثر الناس الحج خوفًا على أنفسهم وأولادهم، وأهاليهم.

ثم إن الشريف بركات جمع عساكره وتوابعهم ونزل ببدر راجيًا من الله ما حصل لجده عليه الصلاة والسلام من النصر. فعاد الحاج المصرى والشامى بعد قضاء المناسك والشريف هزاع معهم حماية لهم، فلما قرب من بدر ولى هاربًا إلى يحيى

ابن سبيع بالينبع، فعاد الشريف بركات إلى مكة وأقام بها، واستمر هزاع بالينبع والحرب بينهما سجال.

وفى عام سبع وتسعمائة مات الشريف هزاع فدفن بمكة، وبعد موته عقد مجلس فى الحطيم صدره القاضى أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة وفيه القضاة والحكام والأمراء من العرب والأروام وفيهم الشريف جازان، ومالك بن رومى شيخ طائفة زبيد وأعيان الشرفاء الكرام وتفاوضوا فيمن يليق لإمرة مكة المشرفة وطال بينهم الكلام، فقال مالك بن رومى: ما أمير مكة وسلطانها إلا جازان، وما كان هزاع إلا به وبركات ما له إلا السيف، فسكت الحاضرون جميعهم طويلاً، فقال القاضى أبو السعود: فمن يليها الآن وتكون فى وجهه؟ فقال مالك: الشريف جازان وبنو إبراهيم معه فى ذلك، فنودى لجازان فى شوارع مكة بالبلاد.

ثم كان بين الشريف بركات والشريف جازان حروب متعددة، ومواقف متكررة لحق ضررها الحاج، واختلفت كلمة العربان، وخرجوا على الحجاج، ونهبوا أموالهم، وقتلوا رجالهم فى جميع الطرقات وسائر المنازل.

وفى هذا العام وهو عام سبع وتسعمائة رفعت الشكوى إلى الأبواب السلطانية بأن جازان استولى على مكة ومعه الشريف يحيى بن سبيع، وجمع من بنى إبراهيم، وأنهم صادروا من كان بها من التجار والرؤساء، وأخذوا من المولى شمس الدين العينى خمسة وعشرين ألف دينار، وأن بنى إبراهيم تحكموا فى أهل مكة بالبلص والفساد، وأن يحيى ابن سبيع هذا رأس الفتنة، وضجت المجاورون وعزم الجميع على الهرب من مكة فى أربعين مركبًا أعدوها ببندر جدة فمنعهم الشريف جازان، ووعدهم برفع المكاره عنهم، وطمن خواطرهم، والتزم لهم أن يجهز مع كل مسافر من الحجاج من يوصله إلى مأمنه، فلم يقبلوا منه ذلك؛ لأن ميلهم إلى الشريف بركات أكثر، وقلوبهم محبة له؛ وذلك لعدم طمعه فى أموالهم، وكف الأذى عنهم بكل طريق بحيث يدفع من ماله لأهل الشوكة من العربان سكان البوادى لأجل حماية الحجاج، وعطفوا على الشكوى عدة مكاتيب لمولانا الشريف بركات أن يقيم بمكة أميرًا لها وجميع من بها من العسكر والرعايا عون له على جازان عناية من الله تعالى به، فوصل إليها.

فلما بلغ ذلك الشريف جازان أقبل محاربًا للشريف بركات فاقتتلا قتالا شديدًا فى

مواقف عديدة وصدق مع الشريف بركات من ذكر فيما وعدوه به من الإعانة، فكانت الكسرة على جازان فهرب إلى اليمن، ثم وصلت الحجاج ولم يكن بمكة أحد من جماعة جازان غير ولد يحيى بن سبيع، فلبس الخلعة نيابة عن جازان بولايته السابقة، وكان مولانا الشريف بمكة على غاية من القوة والشوكة فلم يحدث بمكة حادثًا، إجلالاً لشعائر الدين وحقنًا لدماء المسلمين.

فلما شاهد ذلك أمراء الحاج، ورؤساء الوفاد ألزموا الشريف بركات بالتوجه إلى الأبواب السلطانية لتحصل له كرامات بالإمرة وغيرها من مراداته السنية، مكافأة لصنيعه المذكور وسعيه المشكور، فتوجه وتوجه معه إخوته قايتباى وأبو الخير وعنقا، فقابلهم السلطان مقابلة عظيمة، وألبسهم خلعًا تليق بأحسابهم النبوية الكريمة.

واستمر على غاية الاحترام والاحتشام، مع الكفاية التامة من اللباس والشراب والطعام.

فوردت بمحضرهم إلى الأبواب السلطانية كتب من نائبهم بمكة المحمية بأن الشريف جازان لم تسكن مع ولايته الفتن، وحصل لأهل مكة من جماعته أنواع الظلم والجور والمحن، وبأن الأمير بكباش مكة المشرفة صار يؤمن الشريف جازان، ويظهر له الشفقة والمحبة فصار يتردد بالحرم الشريف ويكثر الطواف، فاتفق أن هجم عليه طائفة من الأتراك المماليك وقتلوه بالمطاف ضربًا بالخناجر والسكاكين، ثم احتزوا رأسه.

وأن الباش المذكور ألبس أخاه الشريف حميضة خلعة بإمرة مكة لغيبة الشريف بركات عنها، وأن الناس يتمنون الشريف بركات راضين عنه.

فلما وصل الخبر إلى مصر بذلك توجه الشريف بركات مع أخويه المذكورين من مصر إلى الحجاز من غير إذن من السلطان، ثم أرسل مطالعة إلى السلطان يذكر فيها أنه عبد لمولانا السلطان، وإنما توجه خوفًا من الطاعون، فمنع السلطان جميع من كان مع بركات من عيال وأتباع من التوجه إليه، ورسم عليهم بمصر المحروسة، فلما كان موسم عام تسع وتسعمائة برز أمير الحاج المصرى فى شوكة عظيمة، وعساكر جرارة وزيادة فى السلاح والمدافع خوفًا من الشريف بركات، فلما بلغ

الشريف بركات الخبر أرسل رسولاً إلى أمير الحاج وصل إليه فى عيون القصب معه مكاتيب مضمونها أن الحج يتوجه مع سلامة الله تعالى لا خوف عليه، وأنه فى خدمة السلطان بحراسة الحاج، وتطمين سائر الحجاج بمكة وعرفة حتى يؤدوا المناسك جميعها، ويعلنوا بالدعاء لمولانا السلطان ثم يعودون إلى أوطانهم، وأنه باذل نفسه وأولاده وإخوته ورجالهم ومالهم.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان رضى عن الشريف بركات رضًا تامًا، وجهز إليه عياله وأتباعه، وبلغت الأخبار أهل مكة فتهيئوا للحج بعد عزمهم على تركه، وكانت سنة هنية وأهل مكة فرحون بما آتاهم الله من فضله بوجود الشريف بركات بين أظهرهم على عادته الجميلة.

ثم إن الشريف حميضة قابل الحاج المصرى مع يحيى بن سبيع بالينبع ولبس الخلعة بتولية الباش المذكور، فبلغ ذلك الشريف بركات فمنعه من دخول مكة، وكان معه طائفة من بنى إبراهيم وحلفائهم فأشاروا عليه بالخروج على الحاج وقتالهم وقتل جماعة الشريف بركات وأخذ أموالهم، ففعلوا ذلك، وحصلت شدة عظيمة من النهب والقتل، ثم أجمع رأيهم على دخول مكة ووقوفه منفردًا بعرفة وألاَّ يقع بينهما حرب حتى ينقضى زمن الموسم، ويدفع حميضة إلى الشريف بركات خمسة آلاف دينار ذهبًا.

فلما وصل بنو إبراهيم إلى مكة تحركت نفوسهم الخبيثة وضغائنهم السابقة فنهبوا بعض دور مكة وعاثوا حتى فى الحرم الشريف، فبادر الباش ومن معه لقتالهم وقتل أربعة من أعيانهم، وذهب الشريف حميضة مع يحيى بن سبيع إلى الينبع وجمعوا جموعًا على نية أخذ الحج وقطع الطريق، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان رسم بالقبض على جميع من بمصر من بنى إبراهيم والصيادلة المتسببين بالشوارع كالصيارف والعطارين ونحوهم والإحاطة بسائر أموالهم وقبضها وأخذ ما بأيديهم من السلاح، خصوصًا من أراد اللحوق بيحيى بن سبيع ومن معه.

ثم عين تجهيزة عظيمة من الأبطال والشجعان وأعيان الفرسان ومقدمهم الأمير خاير بك الأشقر، وأمرهم بالقبض على جميع من خرج من الطاعة وحمل من يليق حمله وقتل من يستحق القتل.

فلما وصل الخبر إلى يحيى بن سبيع جهز قاصدًا معه عشرون ألف دينار بشرط إبطال التجهيزة المذكورة، وأن كل من بالحجاز طائع، فلما وصلت زادت فى غضب السلطان، فجهز زيادة على الأولين أمراء متعددين، وصرح لهم أن يفتكوا بيحيى بن سبيع وببنى إبراهيم وبجميع من يناصرهم ويكثر سوادهم، وأن يمهدوا جميع الأقطار الحجازية.

فالتقوا مع يحيى بن سبيع ومالك بن رومى والشريف حميضة وجميع بنى إبراهيم وتوابعهم غرة شوال بالدهناء بالقرب من ينبع، وسبق الخبر إلى مكة إلى مولانا الشريف بركات وأن جماعة من بنى إبراهيم تواعدوا على تبييت العساكر السلطانية وأن يأتوهم ليلاً متفرقين إيهامًا للكثرة، ولأنهم لا يعرفون البلاد والغريب أعمى، فركب الشريف بركات من فوره فوافق وصوله نزول العسكر وليس عند بنى إبراهيم من وصوله خبر، فاجتمع من بنى إبراهيم سبعون فارسًا وقصدوا ما قصدوا، فركب الشريف بركات سريعًا وفاجأهم بالدهناء وقاتلهم من الظهر إلى الليل، ففر أهل الخيل ووقع القتل فى الرجّالة واقتلع منهم خيولاً وظهر عليهم ظهورًا هاشميًا والعساكر السلطانية ينظرون إلى موقف مولانا الشريف بركات وشجاعته وقوة بأسه حتى تحيرت عقولهم، ثم عزموا لقضاء حجهم وأداء مناسكهم.

وفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة كان مولد مولانا الشريف أبى نمى بن بركات كما سيأتى ذكره. وفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة حج الشيخ أجود بن زايد فى جمع عظيم يقال إنهم يزيدون على ثلاثين ألفًا.

وفى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وصل مولانا الشريف بركات إلى جبل الروحاء بالقرب من المدينة الشريفة وقتل مالك بن رومى الزبيدى الذى كان سببًا فى نهب مكة المشرفة وقتل أولاده الثلاثة معوض وقادم وداغر وأخاه مشهون بن رومى وطائفة كثيرة منهم ومن أتباعهم من ذوى روايا وذوى جماعة، وفرح الناس بقتلهم وطيف برءوسهم فى البلاد وأرسل بها إلى مصر فنصبت على أبواب سورها، وكانت حجة هنيئة، وطابت الخواطر واطمأنت القلوب.

وفى سنة خمس عشرة وتسعمائة توجه السيد عرار بن عجل بهدية من مولانا الشريف بركات تشتمل على أقمشة نفيسة ورقيق جميل وخدام حسان وعشرين ألف

دينار ذهبًا وعشرين فرسًا مسمية وما يتبع ذلك ويناسبه وثلاثة آلاف دينار للدوادار، فقابله السلطان مقابلة عظيمة وألبسه خلعة لقدومه وخلعة عند تقديم الهدية، وخلعة عند الوداع، وأرسل معه هدية عظيمة للشريف وخلعًا سنية، ثم حلف له أيمانًا مؤكدة أنى راض عن الشريف بركات رضا تامًّا خصوصًا لما وصلت إلينا رءوس زبيد ومن معهم لأن فى نفسى منهم حرًّا شديدًا بموجب خروجهم على الحجاج، وقتلهم ونهبهم المرة بعد المرة، وقطعهم الطريق فى أيام سلطانى وكسر ناموسى، ولو لم يشف خاطرى الشريف بركات من طائفة زبيد بخصوصهم لخرجت إليهم بنفسى.

وكتب لمولانا الشريف كتبًا عظيمة فيها تعظيم تام وخاطبه بلفظ مولانا وشريفنا، وفوض إليه أمر الأقطار الحجازية حتى ينبع، فلما وصل السيد عرار بما معه من الهدية والخلع والشكر التام حصل لمولانا الشريف بركات السرور التام، ومدحته الشعراء ومن أعظمهم مولانا شهاب الدين أحمد بن الحسين بن العليف المسمى شاعر البطحاء بقصيدة ذكر فيها ظفره بزبيد وقتله شيخهم مالك بن رومى، وقد أجاد فقال: [من الطويل]

ذرى العزِّ ما قامَتْ عليه الممالكُ ... وما شَيَّدتْهُ المرهفاتُ البَوَاتكُ
وما أَعتَقَتْ فيه الفوارسُ فى الوغَى ... وما صافَحَتْ فيه الصِّفاحُ النَّيازكُ
وقتلُ العدا صبرًا كما شاءتِ الظبا ... ونيل المنَى والفائتُ المتداركُ
وما المجدُ إلا ما وترت به العدَى ... فدارَتْ بهم رِيح الحمام الحَواشكُ
وعزم يبيد الخَيْلَ والعيس بالسّرَى ... تكلُّ به أخفافها والسَّنابِكُ
لعمرُكَ ما تغنى الشَّجَاعَةُ فى الفتَى ... إذا الرَّأْىُ فى تَدْبِيرها لا يُشَارِكُ
ولا يرفعُ الجودُ الجوادَ لفعلِهِ ... إذا لم يكُنْ والطبعُ للنفسِ مالكُ
وما لم يكنْ قطعُ الكريم كوصلِهِ ... وإلا فما تغنِى السيوفُ البواتكُ
فدًى لأبى عجلانَ مَنْ رام سعيَهُ ... ومِنْ دون ما رام الحتوفُ النواهكُ
فتًى تردُ الآمالُ منهلَ جودِهِ ... فتصدرُ عنه وهْوَ جذلانُ ضاحكُ
إذا سارَ سارَ الجودُ يحْدُو ركابَهُ ... وإن بركَتْ عَنْ سيرها فَهْوَ باركُ
يذودُ عن المجدِ الأثيلِ بطاعنٍ ... له عزماتٌ فى القلوبِ سوالكُ
حَمَى حوزةَ العَلياءِ منه مهندٌ ... إذا ما انتضَى ماضى الغرارينِ باتكُ

وفى التاجِ غيثٌ بالحيا متهلِّلٌ ... وفى الدرعِ ليثٌ والتريكة زامكُ
أباد العدَا فاستَدْرَكَ السيف فوته ... ومن قبلها فى الغِمْدِ لا يتماسكُ
وذاقَتْ به سوء النكالِ بما جَنَتْ ... فأضحَتْ ومثواها الكدَى والدكادكُ
شفا بالقنا حرَّ النفوسِ من العدا ... وزالَتْ به تلك الهمومُ السوادكُ
عزيزٌ عليه أن ينامَ ولم تَقُمْ ... بأرضِ العدا بالصافناتِ المعاركُ
فتَى الحربِ لا تثنيه خودٌ عن الوغَى ... رَدَاحٌ ولا تصبيه دُعْجٌ ركاركُ
أبَى غيرَ ظلِّ الرمحِ أن يدرك المنَى ... فلما انقضَى حنَّتْ إليه الأرائكُ
وأقسم لا يثنى عن الحزْبِ عزمَهُ ... إلى أن ترى فيه الدماءِ سوافكُ
أباحَ حمَى الأعداءِ منه بغارةٍ ... كأنَّ الضحَى فيها من النقعِ حالكُ
يؤلّبُ مِنْ أبنا أبيه عصابة ... كِرَام سَرَاة كالجبالِ سوامكُ
أقاموا صدُورَ الناعجاتِ وجَنْبها ... إليها المَذَاكِى فى السلاحِ شوائكُ
كأَنَّ مواطى الصافناتِ أهلَّةٌ ... ووَطْءَ مطاياهم بُدُورٌ فوالكُ
نماهم إلى العلياءِ والمجدِ والندَى ... أبوَّةُ صدقٍ أخلَصَتْها السبائكُ
مناعيرُ فى الهيجا مساعيرُ فى الوغَى ... إذا نكصَتْ عنها اللئامُ الضرائكُ
يذبُّونَ عن أحسابِهِمْ بسيوفهم ... إذا ضربَتْ صفحًا لديها الوكاوكُ
ثَوَوْا فى ظهورِ اليعملاتِ كأنما ... مجالسُهُمْ كيرانها والميارك
سَرَوْا لاقتناصِ المكرماتِ يذودُهُمْ ... عن النوم هَمٌّ بالجوانِحِ سادكُ
يهزونَ أشطانَ القنا فى أكفِّهم ... كأنَّ أعاليها بروقٌ نوابكُ
إذا سار فيهم خِلْتَ بدرًا وأنجمًا ... ثوابت فى أفلاكها لا دوالكُ
ويَقْدُمُهُمْ ماضِى العزيمةِ مقدمٌ ... على الهولِ ميمون اللثام مباركُ
يشيح به ظامِى الفصوصِ مطهَّمٌ ... وأورق مَفْتُول الذراعَيْنِ تامكُ
أبو حَسَن السامى بنَفْسٍ ووالدٍ ... وفى منهجِ العلياءِ والعزِّ سالكُ
كريمُ المساعِى صادقُ الوعد مَنْ غدا ... وليسَ له فى المكرماتِ مشاركُ
وأنتَ أبا عجلانَ رائشُ نبلهم ... إذا دهمَتْ تلك الخطوبُ النواهكُ
وكَمْ لك أعضادٌ شدادٌ على العدا ... وأنْتَ لعلياهم سنامٌ وحاركُ
إذا وعد اللهُ الفتَى منه نصرةً ... وعزًّا وسعدًا أيدته الملائكُ

أرادتْ زبيدٌ فى جنابكَ دولةً … فضلَّتْ بها أوهامها والشكائكُ
غَوَتْ عن طريق الرشد منها سفاهةً … وجهلاً وغرتها ظنونٌ بواشكُ
متى كانتِ الأوغادُ ترقَى إلى العلا … وتسمو إلى عالى الأمورِ الزكازكُ
وتخطبُ أوشاب الشوايا مراتبًا … وتنهضُ للحزبِ الزبون الحواتكُ
طرقتهمُ وقْتَ الهجيرِ بصكَّةٍ … عميّ لديها فاتك العزمِ فاركُ
وطفْتَ عليهم يا همامُ بنيَّةٍ … كما طافَ بالبيتِ المعظَّم ناسكُ
فغادرتَهُمْ صرعَى بكلِّ تنوفةٍ … تناوحهم ريحُ الصَّبا والروائكُ
تَقَاعَسَ منها مالك ومشهون … وكُلّ لدى الهيجاء ألوى مماحكُ
وقامَ بها ميل المقرّضِ واستوَى … ومن قبلها فى مشيه يتباوكُ
وطار بها خوفًا أخوه وقلّصَتْ … خصاه وولَّى وهو حيرانُ عانكُ
وزين وبازان بروك وقادمٌ … وداغر فى البوغاءِ بئْس المباركُ
لعمرُكَ لو لم تطلُب القومَ غالهم … بسعدِكَ مِنْ دونِ الطلابِ المهالكُ
وأغناك عَنْ حَثِّ المطيةِ رائدٌ … من الذُّلِّ فيهم حابل النومِ حابكُ
لئن كنْتَ عن عمدٍ هدمْتَ عروشَهُمْ … فإنك بانيها قديمًا وسامكُ
توهَّمها الروميُّ نهضةَ عاجزٍ … ولم يَدْرِ أن الليْثَ بالعيرِ فاتكُ
جرى طرفه ملء العنانِ إلى المدى … وطرف الردى فى جَفْنه عنه ساهكُ
أخذْتَ عليه كلَّ نقب ثنية … فضاقَتْ عليه بالرحابِ المسالكُ
وما زالَ يجرى فى هواهُ وغيه … وأنْتَ له وسطَ العرينةِ باركُ
وهان على الأيامِ ما هو فاعلٌ … وعزّ على العلياءِ ما أنتَ تاركُ
إلى أن نضَتْ عنه الحياةُ قناعها … فعاجَلَهُ منكَ الحمامُ المواشكُ
فجرعته كأسًا أعلَّ بمثلها … أبوك أباه فارتدَى وهو هالكُ
ولم ينجِهِ منكَ الفرارُ لحينِهِ … فأصبَحَ مملوكًا ومن قبلُ مالكُ
وكيف وأنتَ الْمُعْلِمُ الفَرْدُ فى الوغى … ورمحكَ طعانٌ وسيفكَ باتكُ
قضى فيه حُكْم المشرفى بعدله … فبعدًا له عن منهجِ العدلِ نازكُ
كذا فليكُنْ عزمُ الكريم وإنما … على قدرِ عزماتِ الكرام المداركُ
فِدَاكَ أبا عجلانَ كلُّ مملّكٍ … فأنتَ سماء والملوكُ حبائكُ

خذِ المدْحَ منى يا همامُ فإنما بقَدْرِ بناء البيتِ تسمو المدامكُ
ودَعْ ما سواى يا كريمُ فإنني أنا الشاعرُ المحكيُّ والغَيرُ حائكُ
ودونَكَ يابن الأكرمَيْنِ تحيةً تفوحُ كمسكٍ أحكمته المداوكُ
وأخرَى حباها الله لطفًا ورحمةً تهنِّى عليًّا بالشفا وتبارِكُ
وتهنا بها العلياءُ والسيفُ والندَى فكلٌّ لما قد كان يشكوه ناهكُ
وقد سرَّنى النصْرُ العزيزُ على العدا وحُكْمُ القنا والمغنَمُ المتداركُ
سرورًا به عينُ الزمانِ قريرةٌ وثغرُ الليالى بالتبسُّم ضاحكُ
ودُمْ يا أبا عجلانَ ملكًا مؤيدًا تتيه به العليا وتَزْهُو الممالكُ
ولا زلْتَ تَحْيَا فى سرورٍ وغبطةٍ وشانِيكَ يَحْيَا فى المذلِة رامكُ

وفى سنة سبع عشرة عاد الشريف راجح من القاهرة قاصدًا أخاه الشريف بركات صحبة السيد عرار بن عجل ليصالحه بشفاعة من السلطان ومن أخيه السيد قايتباى، فقابله مولانا الشريف بركات بالقبول واصطلحا صلحًا شافيًا، وصارا كنفس واحدة إلى أن مات كل منهما.

وفى سنة ثمان عشرة توفى السيد قايتباى، وتعزى فيه أخوه الشريف بركات.

وتوفى السلطان بايزيد ملك الروم، وتولى ولده السلطان سليمان خان فى بلاده قبل فتح مصر. وفى هذا العام توجه الشريف أبو نمى بن بركات إلى مصر المحروسة صحبة القاضى علاء الدين ناظر الخواص السلطانية، ومعه من أعيان مكة شيخ الإسلام صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى وشيخ الإسلام القاضى نجم الدين بن يعقوب المالكى وولده القاضى محمد، والقاضى تاج الدين وجملة من أعيان السادة، وطائفة من أعيان قوادهم بنظام عظيم، وأبهة وافرة وخيول أصيلة وركائب مسمية مع الملابس الفاخرة، والسلاح المذهب، والسروج والأكوار اللائقة بالزمان والمكان، قاصدًا منصب آبائه الكرام من السلطان الغورى بتخت مصر، فلما وصلت أخبار خروجه من مكة برزت الأوامر السلطانية إلى رئيس الزمان القاضى أحمد بن الجيعان، أن يخرج لملاقاتهم على أحسن أسلوب.

فخرج إليه بفرس عظيم، وسرج مغرق، وكنبوش مذهب،وكاملية مخمل بسمور، كل ذلك من خاصة السلطان وخزائنه المحفوظة، ومعهم ما يليق من

الطعام، ثم بعد قليل تلقاهم أمير كبير، وباش العساكر المنصورة خير بك الدوادار، وجمع عظيم من القضاة، والمباشرين من كاتب السر إلى من دونه، فلما وصلوا المحل المعروف بالبركة ضرب لهم مخيم عظيم سلطانى، وبسطت لهم فرش من الخزانة العامرة جديدة، ومقاعد مشركسة بالذهب الصرف، ونصبت له وسائد سلطانية.

ثم نزل الشريف أبو نمى فى أعظم خيمة من الخيم السلطانية، ثم نزل كل رئيس من الذين معه فى خيمة هيئت له، ثم مد لهم سماط عظيم سلطانى تضرب به الأمثال.

ثم بعد فراغه منه مد سماط الطارئ من الحلاوات والعسليات، وما يلائم ذلك، ثم بعد فراغه مد سماط الشرابات والفواكه الموجودة، ثم ركب فى موكب عظيم لا يحصى كثرة، حتى دخل البلاد فى أعظم منظر وأبهى أسلوب، والخاصة والعامة معلنون بالدعاء له مظهرون الفرح والسرور بملاقاته.

ثم سار إلى المدرسة الأشرفية الغورية فنزل بها، ثم مد له سماط بعد سماط كما شرح، وفى جميع هذه المدة يخاطب مولانا أركانُ الدولة ورؤساؤها بالألفاظ الملوكية، مع ظهور غاية البشر وكمال الفرح، ونهاية السرور، وعظيم الهناء، وناهيك بمجلس جمع أشراف الزمن، ورؤساء الوقت، وعلماء العصر، وفصحاء الدهر.

ثم ركب مولانا الشريف أبو نمى من المدرسة المذكورة فى موكب عظيم إلى الديوان، وكان السلطان حين ذاك جالسًا بصدر الديوان، فلما دخل مولانا الشريف من باب الحوش أشرف عليه السلطان وهو فى الملابس الحسنة الحسنية بالدليقين والعمامة على القبع والأنوار النبوية مشرقة عليه، والعناية الصمدانية ناظرة إليه، تعجب من هيئته الباهرة، وامتلأت عينه بمهابته، وطلعته الطاهرة، فأمر أن ينصب له كرسى بمفرده.

فلما دخل الديوان قام له ألفًا وقبل جبينه الشريف وقد زاده الله شرفًا، وأراد مولانا تقبيل يد السلطان فامتنع السلطان من ذلك أدبًا مع المقام النبوى، والجناب العلوى، فغلب على ذلك مولانا الشريف فاحتضنه، وسلم عليه، وقربه لجانبه، وأقبل عليه

بالمحادثة والملايمة، ثم أجلس من معه من القضاة والأشراف، وجابرهم بخطابه العذب، وأنصفهم فى الجلوس غاية الإنصاف، ثم أقبل على الشريف أبى نمى ووضعه فى حجره.

وكان سنه إذا ذاك ثمان سنين وقال له ما اسمك؟ فقال محمد أبو نمى الغورى فحصل للغورى سرور عظيم بذلك فقال له: أنت أشطر من أبيك.

ورأيت فى «نشآت السلافة» للإمام عبد القادر بن محمد الطبرى أنه قال له بعد وضعه فى حجره: ما سورتك؟ فقال: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ولم تكن إذ ذاك سورته هى فأعجب السلطان ذلك وتفاءل به واستبشر قلت: كلاهما يدل على مزيد الحذق والذكاء. ولا عجب إذا صدر من سلالة المصطفى.

وعندى أن الأولى - وهى التى ذكرها السمرقندى - أحذق، وأذكى لعود الذكاء وأعبق.

ثم ألبسه كاملية سلطانية ثانية بمسح ذهب بمقلب سمور من خاص ذخيرته، وقام السلطان ثانيًا لوداعه، ثم ركب من القلعة السلطانية إلى محل سكنه، ثم رتب له السماط السلطانى صباحًا ومساء مع الطارىء، وتوابعه مع الافتقادات له، ولجميع من معه مما لم يسبق نظيره فى الدولة السلطانية الغورية.

ثم إن مولانا الشريف استأذن فى التوجه إلى الأقطار الحجازية فكتب له توقيع شريف جليل خوطب فيه بألفاظ التكريم، والتبجيل.

ثم وجه إليه من الذخائر السلطانية سنجقًا وأربعين مملوكًا وخلعًا سنية لوالده الشريف بركات ومبلغًا من النقد له صورة برسم من صرف الطريق، وكذلك جميع ما يحتاج إليه من الدقيق، والأرز، والسمن، والعسل، والسكر، وسائر زاد الطريق، وكذلك جميع من فى صحبته من الأعيان أنعم عليهم بالعامات، معجلة ومرتبات على عادة أمثالهم، وبرز من مصر على صورة جميلة مع إظهار الإنعامات السلطانية.

ولما وصل الخبر بقدومه زينت البلاد، وانشرحت صدور العباد، وخرج لملاقاته الأعيان من مكة، فدخلها رافلاً فى نعم الله تعالى التى تفضل بها عليه، وعلى آبائه وأجداده، فلا زالت فى أولاده ثم فى أحفاده، فطاف بالبيت الحرام، ودعى له على زمزم أسوة آبائه الكرام، ثم قرئ توقيعه الكريم بمحضر جيران بيت الله الحرام، ثم

خرج إلى دار السعادة فمدحته الشعراء على عادة أسلافه بعدة قصائد من أعظمها قصيدة أحمد بن الحسين العليف أيضًا يهنيء أباه بعوده إلى سرير ملكه، ووصول ولده الشريف أبى نمى من القاهرة سنة ثمان عشرة المذكورة وهى هذه: [من الخفيف]

خدَمَتْكَ الحظوظُ والأقسامُ وجرَتْ باختيارِكَ الأحكامُ
وقضَتْ بالذى تريدُ الليالِي واستقامَتْ لأمرِكَ الأيامُ
وأطاعَتْكَ المرهفاتُ المواضِي والمذاكِى والسمْرُ والأقلامُ
وكفَاكَ المحذور أيّ شريفٍ وحَمَاكَ التدبيرُ والإلهامُ
ووقاكَ الإلهُ ما أضمَرَ الدَّهْـ ـرُ وما سوَّلَتْ له الأوهامُ
لا تخفْ منه نبوةً واهتضامًا عادةُ اللهِ لا يضامُ الكرامُ
خصَّكَ اللهُ بالعنايةِ منه وكَلاَكَ الوقارُ والإعظامُ
حسبُكَ اللهُ أن يطيشَ بك الظنُّ وأنْ يستفزَّكَ الإيهامُ
ليس للملكِ غَيْر ذاتِكَ كُفْءٌ أنتَ للملكِ يا همامُ نظامُ
لكَ فيه ولا عليك امتنانٌ قدمٌ راسخٌ ومجدٌ قدامُ
وطدتْهُ سيوفُ آبائكَ الغُرّ فدانتْ لها الملوكُ العظامُ
دون ما يضمرُ الغبيُّ من الغَدْ رِ جلادٌ وغرٌ وموتٌ زؤامُ
يكبتُ الغيظُ حاسديك جميعًا وتزولُ الأحقادُ والأدغامُ
قد بلاكَ الزمانُ حلوًا ومرًّا فإذا الشّهْدُ فيه داءٌ عقامُ
ورآك العدوُّ هضبةَ عزٍّ دون مرآك شامةٌ وشمامُ
لو على الأمْر عارضتْكَ الليالي قارعَتْهَا الأقدارُ والأحكامُ
لم يكنْ غَيْرُ ما تريدُ ولو كا ن فإنَّ العزيز مَنْ لا يضامُ
لا يقيمُ الفتى على الضَّيْم ما دا م له الرمْحُ خادمًا والحسامُ
وإذا أنْكَرَ الديارَ كَريمٌ فالمطايا دليلهُنَّ الخطامُ
ظِلُّهُ رمحُهُ وعصمتُهُ السَّيْـ ـفُ ومثواهُ صهوةٌ أو سنامُ
لا يناجِى على العزيمةِ إلا نفسَهُ والكريمُ لا يستضامُ
يقطع الأمرَ دونَ كلِّ مشيرٍ ويناغى الردَى إذا القومُ خامُوا
لَيْسَ عزًّا إلاَّ صدور العوالي والظبا والإسراج والإلجامُ

هكذا فلتكُنْ كرام المساعي — وعلى مِثلهَا يكونُ المقامُ
فهنيئًا أبا زهير بعودِ — لسريرٍ به السرورُ دوامُ
مَهَّدَتْهُ لك الخفافُ المواضِي — وجلاه بعزمِك الإقدامُ
لم تجدّدْ لك الولاية عهدًا — أنتَ مِنْ قبلها مليكٌ همامُ
لا أهنيكَ بل أهنّى بك المُلْ — كَ فقد حزتَهُ وأنتَ غلامُ
أنتَ يابا زهير أعلَى محلاً — فعلام الهناءُ والإعلامُ ؟!
لم ترثه كلالةً لا ولا العهْ — دُ حديثٌ به ولا الإلمامُ
هَدَأَ الملكُ بعد طولِ جماحٍ — مذ تولَّيْتَ واستقامَ النظامُ
وكساه حلاكَ رونَقَ حسنٍ — لم تبده الشهورُ والأعوامُ
لكَ فى الملكِ سالفٌ وقديمٌ — سادةٌ قادةٌ ملوكٌ كرامُ
جمعوا البأسَ والنَّدَا فى أكفٍّ — يُسْتَهَلُّ الردَى بها والركامُ
تستذمُّ الملوكُ منهم فينجو — نَ وإن كان المستذمّ رمامُ
دوَّخوا الدهر والممالكَ حتى — قَعَدُوا منهمُ الملوك وقاموا
واستباحُوا حماهُمُ وأقاموا — ميلهم بَعْدَ عزِّهم فاستقاموا
كَسَبُوا العزَّ بالرقاقِ المواضِي — ورَعُوا الناسَ والملوكُ سوامُ
قلدتها الولاية البيض والسُّمْـ — رُ وطَعْنٌ فذٌّ وضربٌ تُؤَامُ
وكماةٌ تسيرُ فيها المنايا — طائعات كأنها خُدَّامُ
من لؤيّ بن غالبٍ كلُّ فردٍ — منهمُ فى اللقاءِ جيشٌ لُهَامُ
يوسعون الجموعَ ضربًا وطعنًا — ولو انَّ الجموعَ سامٌ وحامُ
يستظلُّونَ بالرماحِ وبالبيـ — ضِ لدى الحربِ والطيورُ حيامُ
إنْ أصابوا فما جَنَوْهُ جُبَارٌ — أو أصِيبوا فثارُهُمْ لا ينامُ
كُلُّ الوى يختالُ للموتِ عجبًا — حين يُدعَى وثغره بَسَّامُ
برماحٍ تعوجُ فى الهامِ طورًا — وعلى الفوز فى الصدور تقامُ
واردَات إذا مرقْنَ لطعنٍ — قصُرَتْ دون وقعهنَّ السهامُ
وصفاح إذا انتضَوْهَا لحربٍ — كان من بعضِ تابعيها الحِمامُ
مخلصات إذا برزْنَ من الغِمْـ — دِ كأنَّ الفرندَ فيها ضرامُ

مرهفات كأنهنَّ لدى الضَّرْ   بِ ركوعٌ وسُجَّدٌ وقيامُ

وعتاق إذا تداعوا لحَرْبٍ   عزمَتْ قبل أن يناطَ اللجامُ

غاديات إلى الوغَى رائحات   يستوى النُّورُ عندها والظلامُ

قد تبرقَعْنَ بالحديدِ ولكنْ   عاريات لباسهنَّ القَتَامُ

علَّمتها التجاربُ الكرَّ والفرَّ وكيْفَ الإقدامُ والإحجامُ

لم يزدْنَا البشيرُ عما علمنا   ه ولا خامَرَ العقولَ اتهامُ

عمركَ الله لو تراخَى قليلاً   بشَّرتنا بسعدكَ الأحلامُ

أنتَ روحٌ للملكِ والغيرُ جسمٌ   لا تقاسُ الأرواحُ والأجسامُ

ذاتُكَ القطبُ للسيادةِ والآ   لُ نجومٌ وأنتَ بدرٌ تمامُ

وإذا كان فى المقاييس قربٌ   كنتَ نورًا ومن سواك كمامُ

كيف يسمو إلى معاليكَ قَوْمٌ   سهرَتْ مقلتاك فيها ونَامُوا

أين كانوا أبا زُهَيْرَ وقَدْ ذُد   تَ عن الملكِ والخطوبُ عظامُ

حين أدجَى ضياؤها وتوارَى   صبحها فانجلَى بك الإظلامُ

كنتَ طَلاَّعَ نَقْبها والثنايا   يومَ أنتَ المقدَّمُ المقدامُ

همةٌ دونها الثريا وحَزْمٌ   واعتزامٌ وسطوةٌ وانتقامُ

لم أقلْ ما أقولُ جهلاً ولكنْ   يظهر الأمرُ إذ يزولُ اللثامُ

منصبٌ جلَّ وقعه منكَ لكنْ   أنتَ أغلَى مكانةً إذ تسامُ

فاحفظِ الملكَ بالعشائرِ والما   ل فأنتَ المجرّبُ الصمصامُ

وابذلِ الجهدَ يا أخا الحزم فيه   فالفتَى بعد بذلِهِ لا يلامُ

ليس يخفَى عليك يابا زهيرٍ   سبب النقض فيه والإبرامُ

وإذا الداءُ فى الخوافِى تعدَّى   لقدامَى الجناحِ منه السقامُ

وإذا كان فى السيوفِ اضطرابٌ   قرعَتْ حدّها سيوفٌ كهامُ

أنتَ فى الناسِ كاسمك البرّ فيهم   بركاتٌ على الأنام جسامُ

إن دهرًا أتيْتَ فيه لدهْرٌ   سحرٌ كله وليلٌ تمامُ

أنتَ عينُ الوجودِ فيه ولولا   ك تساوَى الإيجادُ والإعدامُ

قصرَتْ عن مدى خطاكَ المساعِي   حيثُ كانَتْ لك المساعى الكرامُ

وتباهَتْ بك الممالكُ فخرًا ... وتــهــادَتْ آثــارَكَ الأيــامُ
وَتسامَيْتَ فوق فرعِ السماكَيْـ ... ـنِ ومِنْ دون أخْمصَيْك النعامُ
جزْتَ حد الكمال فى كل وصفٍ ... قصرَتْ عنه فى الصفاتِ الأنامُ
كـرمٌ فـى شـجـاعـةٍ ووفـاء ... وحـيـاءٌ وحـرمـةٌ وذمـامُ
وارتـفـاعٌ إلـى الـعـلا وسُمُوٌّ ... وحـنـوٌّ ورحـمـةٌ وانـهـضـامُ
وارتـيـاحٌ إلـى الـثـنـا وسـمـاحٌ ... واحـتـفـالٌ بـشـأنـه واهـتـمـامُ
وأيـادٍ إذا اسـتـهـلَّ نـداهـا ... يستمدُّ الحياة منها الغمامُ
لا يزيدُ الثناء فيكَ ولكنْ ... يـتـحـلَّـى إذا ذكـرت الـنـظـامُ
عظمَتْ ذاتك الشريفةُ عنه ... ونـبَـتْ دون وصفِكَ الأفـهـامُ
وتعالَيْتَ أن يحيطَ بك المد ... حُ وفـيـه بـراعـةٌ وانـسـجـامُ
لم أزلْ ظامئًا إلى مدْحِ عليا ... ك وبـى دائـمًـا إلـيـه أُوَامُ
علَّمتنى هباتك النَّظْم والنَّثْـ ... ـر وكـيـف الإنـجـادُ والإتـهـامُ
أتعبَتْ فكرتى حسانُ سجايا ... ك وأعيا على البليغِ الكلامُ
والهنا فى أبى نُمَيّ المفدى ... والأمـانِـى والـجـمـعُ والإلـتـئـامُ
فرعُ غرسٍ ينمى إلى خير أصلٍ ... جـاء تـال وفـى الـسـباقِ إمامُ
وابـنُ مـلـكٍ ومـنـبـرٍ وسـريـرٍ ... ومـدى الـغـايـةِ الـتـى لا تـرامُ
سـيـدٌ أدركَ الـسـيـادَةَ طـفـلاً ... وبـنـى الـمـكـرمـاتِ وهـو فـطـامُ
خفقَتْ رايةُ السعادةِ والمُلْـ ... ـك لـه والـبـنـودُ والأعـلامُ
ولـه اهـتـزَّ مـنـبـرٌ وسـريـرٌ ... وبه استبشَرَ الصفا والمقامُ
لا عجيبٌ إنْ نال وهْوَ صغيرٌ ... مـا حـواه الآبـاءُ والأعـمـامُ
ما على الشبل أن يحوزَ المعالِي ... وأبـوهُ الـغـضـنـفـرُ الـضـرغـامُ
فـهـنـيـئًـا لـه الـسـيـادة والـمـجْـ ... ـدُ جـمـيـعًـا والـعـزُّ والإحـتـرامُ
بَلَغتَكَ الآمالُ فيه الذى رُمْـ ... ـتَ فـلـلـه الـحـمـدُ والإنـعـامُ
دمْتَ حتى ترى السيادَةَ والمُلْـ ... ـكَ لأولادِهِ وأنـتَ الـزمـامُ
خذ مديحًا أهداه عبدٌ محبٌّ ... ما له فى فتًى سواكَ مرامُ
وله بالثنا عليكَ وَبِالشُّكْـ ... ـرِ وبـالـمـدحِ والـدعـاءِ غـرامُ

أنا فى مدحِكُمْ جريرٌ وفى الحمْـ دِ جميلٌ وفى الهنا هَمَّامُ
رشتُمُ بالنوال والجودِ والفضْـ لِ جناحِى كما تراشُ السهامُ
قِسْ ثنائى على ثناءِ سوَائِي تَـدْرِ أن الكلامَ منه كلامُ
واقسم اللحْظَ بيننا يا أخا الجو دِ فأنْتَ المهذَّبُ المقدامُ
لَوْ دُعِينَا إلى التناصُفِ فى الحُكْـ م لبذَّ الضعيف منا الملامُ
وبقَدْرِ البليغِ والبلغ فى القو ل يكُونُ الإعرابُ والإعجامُ
ومن الشعرِ للعقولِ جلاءٌ ومن الشعرِ للنُّهَى بِرْسَامُ
يفعلُ المدحُ فى الكرامِ كما تفْـ علُ فى عقلِ شاربيها المُدَامُ
ويفيدُ الكريمَ عزًّا ومجدًا ويحطُّ الجوادَ قولٌ سخامُ
وخيار الرجالِ فى الشعْرِ من كا ن له فيه بسطةٌ واحتكامُ
فابْقَ للملكِ والممالكِ عزًّا ولك المدحُ مبدأ وختامُ
ما توالَتْ عليك غُرُّ القوافي وتغنَّتْ على الغصونِ حمامُ
وعلى المصطفَى وآلٍ كرامِ وصحابٍ تحيةٌ وسَلَامُ

وفى عام عشرين وتسعمائة حج محمد ولد السلطان الغورى مع والدته فى تجمل عظيم جدا، وخرجوا من مصر فى الجمال المزينة، والأكوار المشركسة، والمحاير المرصعة بالذهب، ومحفة خوند فى ثبتها ذهب مرصع بالجواهر، فخرجت لها السادة الأعيان من أعيان مكة المشرفة، وأركان الدولة من حين قاربت الينبع، وقابلها الشريف أبو نمى نيابة عن والده من خليص، ومد لها من الأسمطة، والحلويات، والفواكه، أصناف متعددة فى عدة منازل، وقابلها الشريف بركات من خارج مكة، فلما وصلت رأس الردم ترجل كل من لقيها حتى مولانا الشريف بركات، وأخذ بلجام مركبها إلى باب السلام، ثم حملت محفتها على الأعناق إلى القصر بباب إبراهيم. فلما توسطت المسجد وولدها بين يديها قال مقدمها: يا خوند، اشكرى نعمة الله تعالى فإن مولانا الشريف بركات حامى حمى الحرمين، حامل المحفة الشريفة إجلالاً وتعظيمًا، وقد فرش الديباج تحت جمال المحفة، ثم فرش تحت الأقدام بالمسجد الحرام، وهى تقسم على مولانا الشريف بركات، بأن يترك الحمل المرة بعد المرة، فلما وصلت القصر علو باب إبراهيم أشارت بأن يكون ولد

السلطان فى مدرسة ملك التجار رامشت، وأمير الحاج المصرى مع أركان الدولة فى خدمتها، كأقل العبيد، ثم أمر لها مولانا الشريف بركات بسماط عظيم أبهر العقول، ثم حمل إليها من الأغنام، والعسلان، والسمون، والفواكه، ما لا يحصى ولا يحصر، ثم تردد عليها مولانا الشريف أبو نمى بعرفة ومنى ومكة، وضاعف إليها من فضل والده الهدايا، والافتقادات، والأقمشة العالية، والتحف النفيسة؛ لأنه قريب العهد بموالاتها له، ثم سافر معها مولانا الشريف بركات إلى مصر المحروسة فأقبل عليه السلطان إقبالاً عظيمًا جدًّا، وشكرت للخوند جميل سعيه وجزيل مراعاته، فوقع ذلك عند السلطان موقعًا عظيمًا، سيما حمل المحفة وما فى معناه، وأنعم عليه بإنعامات جزيلة، منها خادمان وعشرون مملوكًا، وخيول أصيلة، وجمال برسم الدر والنسل، مما تقتنيه الملوك من كبر الجثة، وحسن المنظر، وطيب الأصل، وغزارة اللبن، وحلاوته، ويقال إن الإبل المعروفة بالمصرية من تلك، وجمال للحمل، وعشرة آلاف دينار حوالة على بندر جدة المعمورة، وخلعًا سلطانية نفيسة، وأذن له فى المسير إلى وطنه فوصل مكة المشرفة فى شهر رجب من العام المذكور، وزينت البلاد، وصنع الأمير حسين الكردى، وهو من أمراء الغورى بجدة صنع للشريف ضيافة هائلة، وقابله هو وأعيان مكة من خارجها، وكان يوم وصوله عندهم من أعظم الأعياد.

وفى عام اثنين وعشرين وتسعمائة، وقعت المقاتلة بين السلطان الغورى، والسلطان سليم بن بايزيد ملك الروم بمرج دابق خارج حلب المحروسة، وغلب السلطان سليم الغورى وفقد فى المعركة.

ثم إن السلطان سليم خان وصل المحروسة بعد قتلة عظيمة بالريدانية بين العساكر العثمانية، ونائب سيده السلطان الغورى طومان باى، وذلك فى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ولم يحج من مصر ركب، ووصلت الكسوة للكعبة الشريفة بحرًا صحبة مزهر الخادم.

ثم لما استقر مولانا السلطان سليم وتوطد ملكه لمصر، وأعمالها، وانتظم له الملك من دار الخلافة الإسلامية قسطنطينية، إلى غاية المملكة المصرية أنهى إليه بعض الحساد أن جميع الملك والسلطان طرازه الأعظم ملك الحرمين الشريفين،

وأعمالهما، والدعاء لمولانا على منابرهما، فشرع فى تجهيز جيش كثيف للحرمين الشريفين، وكان بمصر القاضى صلاح الدين بن ظهيرة كان السلطان الغورى صادره بطلب عشرة آلاف دينار ذهبًا فعجز عنها فحمله إلى مصر بالترسيم، فلما وقع ما شرح من تبديل الدولة، وبلغ القاضى المذكور ما عزم عليه مولانا السلطان سليم اجتمع بمولانا بيرى باشا الوزير الأعظم، وعرفه عظمة مولانا الشريف، ومراعاته للسلطنة الشريفة وحسن سياسته، وتدبيره وأن يُرْسَلَ إليه مكتوب سلطانى بما يقتضيه الرأى السلطانى، فاستقر الحال على كتابة توقيع سلطانى، وكتابة مراسلات من مولانا الوزير المذكور، ومن مولانا القاضى صلاح الدين إلى مولانا الشريف بركات، بأن يقابل التوقيع السلطانى بالقبول ويرسل ولده إلى الحضرة السلطانية السليمية بتهنئتها، وتعريفها بكمال الطاعة والانقياد، ونهاية الامتثال والمحبة والاتحاد، فوافق الشريف بركات على جميع ما ذكر، وأرسل ولده الشريف أبا نمى نائبًا إلى مصر المحمية، فقابل مولانا السلطان سليم خان طاب ثراهما وعظمه تعظيمًا مضاعفًا، وخوله وحباه، وعاد سالمًا غانمًا فى ظل والده حاميًا حاكمًا ودام عزهما إلى أن توفى والده مولانا الشريف بركات عام إحدى وثلاثين وتسعمائة كما شرح مفصلاً، ودفن بمكة بعد طوافه والنداء على زمزم، وقبره معلوم يزار عليه قبة، والدعاء عنده مستجاب، رحمه الله رحمة واسعة. ومما قاله الشهاب أحمد بن الحسين: [من البسيط]

أَلعِزُّ تحتَ ظلالِ البيضِ والأسلِ ... يومَ الطعانِ وسبق السيف للعذلِ

والمجدُ ما شاد ذكرًا أو بَنَى شرفًا ... يبقَى وما شدَّ ركنَ الملكِ والدولِ

والعزمُ ما خَضَعَ الأعدا لهيبتِهِ ... ذُلاً وما صَيَّرَ الأفكارَ فى شغلِ

لا تحملُ الضيمَ نَفْسُ الحُرِّ لو بلغَتْ ... منها الليالى بأمْرٍ غيرِ محتملِ

صمم إذا سمت أمرًا عزَّ مدركُهُ ... فما ينالُ العُلا من كان ذا كَسَلِ

وانهضْ سريعًا إلى الغاياتِ محتقبًا ... فذو العزيمةِ لا يمشى على مَهَلِ

كمْ فرصةٍ عرضَتْ فى طيها ظَفَرٌ ... فاتَتْ بتدبيرِ رأيٍ غير معتدلِ

ما لم تكُنْ برداءِ العزِّ مرتديًا ... فدَعْ طِلَابَ المعالِى عنكَ واعتزِلِ

واغضِ الجفونَ على ذُلٍّ ومسكنةٍ ... واصبرْ على الضيم صَبْرَ العوْدِ واحتملِ

ما عزَّ مَنْ باتَ والآمالُ تخدعُهُ ... على اكتسابِ العُلا والمجدِ بالحيلِ
ولا اجتنى العِزَّ إلا فاتكٌ بَطَلٌ ... يَرْوِى القنا مِنْ نجيعِ الخيل والقللِ
ليس المذلَّةُ من شأنِ الكريم فدَعْ ... عنك الهُوَيْنَى وسِرْ للعزِّ فى عَجَلِ
وارحَلْ عن الدارِ لا مستعظمًا خطرًا ... ولا مريدًا سوى العلياءِ من بدلِ
وعلِّلِ النفسَ عن إلفٍ وعنْ سَكَنٍ ... واجعلْ هواكَ لغيرِ الأعينِ النُّجُلِ
إنَّ الكريمَ إذا ما جَدَّ فى طلبٍ ... حثَّ المطيَّة فى وخدٍ وفى رَمَلِ
لا يَسْأَلَنَّ سوى الهنديِّ عارفة ... إنَّ العزيزَ لغَيْرِ السيفِ لم يَسَلِ
فالسيفُ أصدقُ ما تشفى الغليل به ... وهْوَ الدواءُ من الأدواءِ والعِلَلِ
فاجعلْ له الحُكْم فى أمْر تحاولُهُ ... واقطَعْ على حُكْم ما يقضى به وصِلِ
مرأى العدُوِّ على حالٍ يعزُّ بها ... داءٌ على الحُرِّ لم يبرحْ ولم يزلِ
لا يدركُ الثأرَ إلا كل ذى حسبٍ ... بالسيفِ مشتملٍ بالرمحِ معتقلِ
مثلُ الشريفِ أبى عجلانَ مَنْ شرُفَتْ ... قناته بنجيعِ الفارسِ البطلِ
ألفاطميِّ الذى عزَّتْ مناقبُهُ ... عن النظائرِ والأشباهِ والمثلِ
مَلْكٌ إذا رايةٌ للمجْدِ قد رُفِعَتْ ... ينالها وسوَى علياه لم يَنَلِ
ذو عزمةٍ كغرارِ السيفِ ماضيةٍ ... وهمَّةٍ فى العلا تسمُو على زُحَلِ
يرى العواقبَ مِنْ مرآةِ فكرتِهِ ... غيبًا ويقضى بحُسْنِ الرأى فى العملِ
حامِى الحقيقةِ فى وِرْدٍ وفى صَدَرٍ ... ماضِى العزيمةِ مقدامٌ على الجللِ
مولًى إذا ثَوَّبَ الداعِى وقد لقحَتْ ... حَرْبٌ يلبيه لا مستفهمًا بِهَلِ
يقضى على مهج الأعداءِ عامله ... وسيفه فى الطلا يروى من العَلَلِ
مِلْءِ المفاضة مِنْ بأسٍ ومن كرمٍ ... ومن حياءٍ وحلم غير منتحلِ
أمضى من الصارمِ الهنديِّ همته ... عزمًا وأسْرَى إلى الأرواحِ من أجلِ
تفرَّعَتْ عن صميمِ المجدِ دوحتُهُ ... من معدنِ الوحْى مثوى خاتم الرسلِ
موصولة برسولِ اللهِ نبعتُهُ ... أكرِمْ بفرعٍ بذاك الأصل متصلِ
مقابل بين فرعَيْ دوحةٍ شرفَتْ ... بين البتولِ وبين الطالبيِّ على
مغنى الرسالة والتنزيل معهدُهُ ... أعظمْ بذلكَ من بيتٍ ومن نُزُلِ
أعزّ مَنْ سَبَحَتْ جردُ العتاقِ به ... وأوجَفَتْ يعملاتُ الأينقِ الذللِ

فخرًا وعزًّا بنى الزهراءِ إن لكُمْ فضلاً به ما له فى الناسِ من مثلِ
يابن الملوكِ الألَى شادوا ممالكَهُمْ بسلّةِ السيف والعسالةِ الذبلِ
يزيدُ مَرُّ الليالى عزَّهم شرفًا كالعضْبِ يزدادُ إرهافًا مع الأزلِ
تسنَّموا غاربَ الأهوالِ وامتزجوا مَعَ الخطوبِ امتزاجَ النومِ بالمقلِ
ألضاربينَ على أكنافِ مُلْكِهِمُ سرادقَ العزِّ من بيضٍ ومن أسلِ
والسالكينَ إلى العلياءِ فى نَهَجٍ أعيَتْ مساعيه أهلَ الأعصرِ الأوَلِ
سقَاهُمُ الوَحْىُ من صافى مواردِهِ ماءَ النبوةِ عذًا ليس بالوَشلِ
لولاك يا بركات الجودِ ما اعتدلَتْ للملكِ قائمةٌ آلَتْ إلى مَيَلِ
كم عزمةٍ لك فى الأعداءِ صادقةٍ أمضَى من الهندوانيات فى القللِ
تكفلت لك أطرافُ الرماحِ بهم والمرهفات وكُلٌّ بالوفاءِ مَلِى
فى مأزقٍ ضيق صوت الكماة به قرع الصوارم بالخطية الذبلِ
طرقتَهُ ثابتَ الأركانِ مبتسمًا كالليْثِ يفترُّ عن أنيابِهِ العُصُلِ
هتكْتَ فيه حجابَ الدارعين عَلَى سُمْرِ القنا غَيْرَ رعْديدٍ ولا وَكِلِ
ورُبَّ ملحمةٍ ماجَتْ بكثرتها صافَحتَهَا بِقِرَاعِ البيضِ والأسلِ
وفيلقٍ مظلمِ الأقتارِ مصطلم برق الأسنة يهديه إلى السبلِ
وردتَّهُ وحياضُ الموتِ مُتْرعةٌ طَلْقَ المحيًا بوجه مسفِرٍ جذلِ
ثـم أنثَنَيْتَ وقد غادرتَهُ أثرًا وجئْتَ بالسبْى والأسرَى مع النفلِ
وحزْتَ بالنصْر ما ترجوه من أملٍ وفزْتَ منه بسهمِ الناضلِ الخصلِ
عـزمٌ وحـزمٌ وإقـدامٌ وعـارضـةٌ فى جحفلٍ لَجِبٍ أو مجمعٍ حفلِ
أوصافُ مجدِكَ فى بأسٍ وفى كرم تصرفَتْ بين طعمِ الصابِ والعسلِ
كالغيثِ كالليثِ فى حالَىْ نَدًى ورَدًى ترجَى وتخشى لرزقٍ أو على أجلِ
تُرْوِى السيوفَ دماء الناكثين كما تَقْرِى الضيوفَ سديفَ الكُومِ والإبلِ
مثل الغضنفر فى الهيجاءِ يَوْمَ وغًى وفى السماحةِ مثْل العارضِ الهطِلِ
أدركْتَ بالصبر ما تَعْيَا الملوك به ونلْتَ بالحزم ما يُرْبِى على الأملِ
فى معشرٍ مَرَقُوا فى الدينِ وارتكَبُوا محارمًا آذَنَتْ بالإثم والزللِ
لما نَوَوْكَ وعَيْن السعدِ كالئة صَبرتَ صبرَ كريمٍ غيرِ محتفلِ

وكُنْتَ كالبدرِ وارَى ضوءَ غُرَّته   حينًا وآبَ مآبَ الشمسِ فى الحملِ
ما زلْتَ تملى لهم والمَوْتُ ينظرهم   شَزْرًا بطرفٍ خفيٍّ غير منتقلِ
ورُعْبُ ذكرك يجرى فى خَوَاطِرِهِمْ   جَرْىَ السقام بجِسْم الواهنِ الوَجِلِ
ينامُ طرفُكَ والأوهامُ تُسْهرهم   خوفًا وتهدأ والأفكارُ فى جَدَلِ
حتى إذا أينَعَتْ للقطفِ أرؤسُهُمْ   وحانَ بالسيفِ منها منتهى الأجلِ
صَدَمْتهم بخميسٍ لو صَدَمْتَ به   هضابَ رضوَى لعادَتْ منه فى خَلَلِ
يكادُ يسمع وَقْعَ المرهفاتِ به   مَنْ بالخريبة ممتدًّا إلى ثُؤَلِ
ويستنيرُ بروقًا مِنْ أسنته   بنو حرامَ الغواةُ النازلون حلِى
كم فى جوانبِهِ للوحشِ معتركٌ   وفوقَ حافاتِهِ للطيرِ من زجلِ
دَبَّتْ إليهم مناياهم بصدمته   دبيبَ كاسِ الطلا فى الشارِبِ الثملِ
ناموا وما نمْتَ عن وتْرٍ تحاوله   والقومُ فى غفلةٍ يرعَوْنَ كالحملِ
ما زلْتَ تركُضُ فى مضمارِ غايتهم   دليلك النصْرُ فى حِلٍّ ومرتحلِ
فى مقنبٍ من عتاق الخيلِ ذى رهَجِ   مدرَّعٍ برداءِ الروعِ مشتملِ
وفتيةٍ ألفوا حرّ المصاع به   كأنهم تحْتَ ظلِّ السمرِ فى ظللِ
مالوا عليهم بأطرافِ القنا فكَأَنْ   وقت الضحَى من مثار النقعِ كالطَّفَلِ
حتى بَلَغْتَ الذى حاولْتَ بُغْيَتَهُ   فيهِمْ وجاوَزْتَ حَدَّ القولِ فى العملِ
شفيْتَ نفسًا رعاها اللهُ ما بَرِحَتْ   عزيزةَ الذاتِ مذ كانَتْ ولم تَزَلِ
للهِ دَرُّكَ من طَلاَّبِ واترةٍ   غَادَرْتَ رَبْعَ العدَى رسمًا على طَلَلِ
تركتهم جزرًا فى كل موحشةٍ   للوحشِ والطير كالأنعامِ والثللِ
أذقْتَ آباءهم ثُكْلَ البنين كما   أَيَّمْتَ منهنَّ ذات الدلِّ والكحلِ
ومُذْ سفكْتَ دماءً من نجومهمُ   كففْت بادا الحجا عن بيضة الكللِ
لما رأوك على آثار جرَّتهم   طاروا مطار القطا الكدريّ والحَجَلِ
وإنما ينزعون الكل من خَوَرٍ   قوائم الخيلِ والأقدام من وحلِ
وصارَ كُلُّ زعيم فى عشيرتِهِ   يقولُ لا ناقتى فيها ولا جَمَلِي
أين المفرُّ وخيلُ اللهِ طالبةٌ   والسعْدُ يغتالهم فى السهْلِ والجبلِ
كفَى بسيفكَ وعظًا فى مصارِعِهم   لكلِّ منهزمٍ منهم ومنخَزلِ

مذ عاينوا الذبحَ فى أحلاقِهِمْ نَزَعُوا ... إليكَ مِنْ وهنٍ فيهم ومِنْ وهلِ
لا تُعطِهم يا أبا عجلان عارفَةً ... وما يرومُونَ من وجْه ومن قبلِ
ولا تُتَابعِ هجارًا فى رعايتهم ... ليس الشجيُّ رَعَاكَ اللهِ مِثلَ خَلِي
لا تحرقُ النارُ إلا كَفَّ لامسها ... ولا أخو كَبِد حَرى كذى بَلَلِ
واذكُرْ على القرب ما نالوا وما فَعَلُوا ... فى أهْلِ دارِكَ من فتكٍ ومن غيلِ
واعْلَمْ سلمْتَ بأن القوْمَ قد حشدوا ... ولَيْسَ مطلبهم إلاَّكَ من رَجُلِ
ثَلُّوا عروشَكَ واجتاحوا حِمَاكَ به ... وجاذَبُوكَ رداءَ العزِّ فى النزلِ
فاغضَبْ لنفسِكَ أودَعْ كلّ مكرمةٍ ... تبقَى وقوضْ خيامَ العز وارتحلِ
واذْكُر أبا القاسم السامى ومصرعَهُ ... كذاك مصْرعَ إبراهيمَ حينَ ولِي
السادَةُ القادةُ الأملاكُ من حَسُنَتْ ... بذاتهم بهْمَةُ الأيامِ والدولِ
لا تجعلِ المالَ عن أرواحهم بدلاً ... من اللئامِ فبئْسَ المالُ من بَدَلِ
لا تتركِ الحزْمَ عينًا ثُمَّ تطلبه ... دينًا فتقرعَ سنَّ النادمِ النكلِ
ولا تقيلنَّهُمْ باللهِ عثرتَهُمْ ... واقطَعْ عرى كل ذى غدرٍ وذى نغلِ
ولا يَغُرَّنكَ منهم ودُّ مبتسم ... فالخوفُ يظهرُ وُدَّ الخائنِ الدغلِ
يطوون أحشاءَهُمُ منكُمْ على ضمدٍ ... ويضحكُونَ لديكُمْ ضحكةَ العَلِلِ
فاشدُدْ يديكَ ولا ترثى لحالتهِمْ ... فطبعُهُمْ عن خبيثِ اللؤمِ لم يحلِ
لا تأمنَنْ غدرهُمْ فالذئبُ عادته ... إن ينتهزْ فرصةً فى غفلةٍ يَصُلِ
إن تبقِ منهم مع الإمكان باقيةً ... نُسِبْتَ للوهنِ فى الأمصارِ والحللِ
وجرِّد السيفَ لاستئصالِ شأفَتِهِمْ ... فى كُلِّ شيخٍ وفى طفلٍ ومكتهلِ
لا تقطعِ الرجلَ من قوم وتتركهم ... والرأسُ منهم صحيحٌ غيرُ منجدلِ
فالحْلمُ زين ولكنْ يابن حيدرةٍ ... فى غير موضعِهِ ضرْبٌ من الخَبَلِ
والصفْحُ عن مجرمٍ من بعدِ مقدرةٍ ... عجزٌ ولسْتَ بذى عجز ولا مللِ
فِيمَ التقاضِى وما بالعهْدِ من قِدَمٍ ... والجرحُ منهم طريٌّ غيرُ مندملٍ؟!
حاشا علاك أبا عجلانَ من ملكٍ ... تُعْطِى الدنيةَ أو تؤتى من الختلِ
يأبى لك العزُّ أن تلقاه معتذرًا ... أو ناهجًا فى طريقِ اللومِ والعذلِ
وأنتَ من سادةٍ شُمٌّ لهم أنَفٌ ... عن أن يقيموا على ضَيْمٍ ولا دخلِ

بيضُ الوجوهِ غطاريفٌ جحاجحةٌ … تنكَّبوا عن طريقِ الجبنِ والبخلِ
أهْلُ الحمايا وأهْلُ الذبِّ ما برحوا … عن الحريمِ وعِرْض غير مبتذلِ
جمعْتَ ما كان فيهم فيكَ مفترقًا … من المحاسنِ بالتفصيلِ والجملِ
ودُونَكُمْ قولَ نصحٍ يا بنى حَسَنٍ … يفيدُ كلَّ ذكيِّ القَلْبِ مشتعلِ
أنْتُم بنو الحربِ تدعوكُمْ وتنهضُكُمْ … أحسابُكُمْ لاقتحامِ الحادثِ الجللِ
شُدُّوا إلى حومةِ الهيجا مآزِرَكُمْ … وشَمِّرُوا لطلابِ الثارِ فى عجلِ
ما بالُكُمْ ورياحُ النصرِ مقبلةٌ … تثاقلونَ وذُلُّ الدهرِ فى الثقلِ
إن لم تديروا رحَى الهيجاء مسرعةً … فما يفيدُ صهيلُ الخيلِ فى الشكلِ
عيشُوا على العزِّ أو موتُوا على ثقةٍ … موت الكرامِ وخَلُّوا الدار عن حولِ
فَمَنْ يبلغُ عنى غَيْرَ معتذرٍ … يحيى بن سبعٍ مقالاً غير ذى خَطَلِ
ومالكًا وابْنَ قيمازٍ وشيعَتَهُم … والتابعين منَ الأوشابِ والسفلِ
لابدَّ أن يبلغ الموتورُ غايتَهُ … ويشرب الكأسَ ساقيها على عللِ
فالصبْرُ يحمدُ والأيامُ كافلةٌ … عقبى النجَاحِ ونيل السؤلِ والأملِ
إن تجحدون أبا عجلانَ فرصَتَهُ … فيكُمْ وما كَان فى أيامِهِ الأولِ
سَلُوا مَوَاضِيهِ عنها فَهْىَ تخبركُمْ … فالسيفُ والرمُح أزكَى شاهدٍ وولى
كَمْ ناشكم بالقنا فى عُقْرِ دارِكُمْ … حتى اعتَصَمتُمْ ببذلِ الخيلِ والخولِ
وكَمْ سقاكُمْ غداةَ الروعِ من يدِهِ … بالسيفِ كأْس الردَى عَلًّا على نَهَلِ
وكم أذاقكُمُ حرَّ الجلادِ به … فى مأقطِ الحربِ والأقدامُ لم تزلِ
لولا العرانينُ مِنْ أبنا أبِيهِ لَمَا … جاوزتم الرمل من خوف ومن فشل
ولا وطئتُمْ على ذُلٍّ ومنقصةٍ … مواطئًا ما لكُمْ فيهنَّ من قِبَلِ
ليس القضا بكُمُ يشفى ضمائره … إنَّ القضاءَ مِنَ الأشباهِ والمثُلِ
وإنما طَهَّر اللهُ البلادَ به … من مِلَّةٍ خرجَتْ عن أشرفِ المللِ
وعللتهم أمانيهم علَى غَرَرٍ … واللهُ فى كُلِّ هذا علة العللِ
سمتم مقامًا رفيعًا فَوْقَ رتبتكُمْ … ولا يقاسُ نهيقُ العيرِ بالصهلِ
فلو رجعتُمْ إليه باذلينَ له … طوعًا طوى كشحَهُ فيكم على مَلَلِ
وسُقْتُمُ المالَ فى مرضاتِهِ فعسَى … يغضى قليلاً ومَنْ للعور بالحولِ

دُمْ ظافرًا يا أبا عجلانَ فى دعةٍ قريرَ عينٍ بما أدركْتَ من أمَلِ
فقدْ أقمْتَ اعوجاجَ الملكِ من أوَدٍ وصار معتدلاً من كان ذا مَيَلِ
وخُذْ نسيجَ ثناءٍ صافيًا حسنًا يكسوكَ من وَشْيه أبهى من الحللِ
عروس مَدْحٍ تَهَادَى فى منصَّتها تجرُّ بالحسن ذيلَ التيه والغزلِ
حَلَّيتها من سجاياكَ التى شرُفَتْ عقودَ دُرٍّ بها زانَتْ من العطلِ
يفوحُ بين قوافيها لمُنْشِدِهَا من طيبِ ذكركَ عرف المسك فى حللِ
جَلَّتْ صفاتك قدرًا أن يحيطَ بها حُسْنُ الروية أو إحسانُ مرتجلِ
واسلَمْ فإنَّكَ زينُ الدينِ ناصرُهُ وافخرْ فإنكَ تاجُ الملكِ والدولِ
ثم الصلاةُ على المختارِ مِنْ مُضَرٍ محمدِ المجتبَى من سائِرِ الرسلِ

ثم وليها مولانا الشريف أبو نمى

قد سبق ذكر مولانا، وملخص ذلك أنه تشرف بحماية الحرمين الشريفين فى ظل والده فى عام ثمانية عشر وتسعمائة، واستمر وسعده فى زيادة إلى أن مات والده فى عام أحد وثلاثين، فمدة اشتراكه مع والده أربعة عشر عامًا، ثم تفرد بهذا المنصب المبارك مع زيادة السعود، وبسط العدل والجود؛ إلى أن أنعم الله تعالى عليه بولده مولانا السيد الشريف أحمد بن أبى نمى، فتقلد هذا المنصب بالتماس والده من مولانا السلطان سليمان بن سليم خان، وكان ذلك سنة سبع وأربعين وتسعمائة.

وملخص ذلك أنه أرسله إلى الأبواب العالية السلطانية العثمانية، ومن الاتفاق أن معظم من كان مع والده الشريف أبى نمى حال عزمه إلى مصر كان مع ولده هذا أحمد إلى إسلام بول، وصحبته من الهدايا العظيمة اللائقة بالملوك والخيول الأصائل، والصقور والشواهين والأقمشة والأطياب، فلما وصل خبر قدومه عين له السلطان سليمان من قابله على أحسن أسلوب، ثم أنزل فى بيوت السلطنة، وأمره أن يدخل عليه بالملابس الحسنية.

وكان مولانا الشريف أحمد جميل الصورة معتدل القامة، حسن اللحية والدليقين، عليه ناموس الشرف المحمدى، وأبهة الملك النبوى.

فلما دخل على السلطان قام له ألفا، ولم يقع هذا لأحد سواه.

ثم أقبل عليه بالبشر التام، وخلع عليه خلعًا متعددة تعظيمًا لشأنه، وإظهارًا لرفعته

وعناية بجنابه، وأظهر أن وصوله إليه من النعم المعدودة التى تفرد بها عن غيره، وكذلك زوجة مولانا السلطان والدة - السلاطين، وواصلة المساكين - قدمت له هدايا عظيمة، وعرفت أركان الدولة أنه فى مقام أولادها محبة وحنوا.

ثم برزت الأوامر السلطانية له بجميع المرام. ووصل إلى مكة المشرفة على ذلك النظام. وامتدحه القاضى عبد الرحمن باكثير بالقصيدة الرائية: [من الطويل]

وفَتْ صبُّها بعد الجفا غادةٌ عَذْرَا ... ومُذْ لامها قالَتْ لعلَّ لها عُذْرَا

المتقدم ذكرها.

ودام سلطانه إلى أن مات فى حياة والده الشريف أبى نمى فى شهر رجب عام ست وستين وتسعمائة.

ومما قيل فيه مدحًا قول الوجيه عبد الرحمن الكثيرى المذكور: [من الكامل]

أَلْعِزُّ ثَاوٍ بين مشتبكِ القنا ... مَنْ رامه قالَتْ له السمرُ القنا

والنصْرُ من مخضرِّ أوراق الظبا ... غصنًا به ثمرُ الوقائعِ يجتنى

والمجدُ فى صهواتِ دهمٍ إن عدَتْ ... عقدَتْ سنابكُهُنَّ نقعًا أدكَنَا

والفَخْرُ أن تغشى الكتيبةَ باسمًا ... ولَكَ الحمامُ من الأسنةِ قد رنا

والثابتُ الجأش الذى يَرِدُ الوغَى ... ويَدُ المنونِ تديرُ كاساتِ الفنا

والحزمُ فتكُكَ بالعداةِ مطاعنًا ... ومضاربًا ومذففًا ومثخّنَا

والعزمُ أنْ تستسهلَ الصعْبَ الذي ... لو كان لم يمكنْ بعزمِكَ أمكَنَا

والمكرمَاتُ أجلُّها حُسْنُ الوفا ... وأعزُّهَا الإغضاءُ عمَّنْ قد جَنَى

والسودَدُ المحضُ اكتسابُ مفاخرٍ ... ترتادُهَا منها المحامدُ تبتنَى

وأكابرُ العلياءِ مَنْ يولى نَدًى ... يُشْرَى به المجْدُ الأثيلُ ويقتنَى

والهمةُ العلياءُ تصييرُ الذي ... عند الورَى جللاً حقيرًا هَيِّنا

والجدُّ أن تردَ المهالكَ راقيًا ... صعْبَ المخاوفِ لن تؤمّلَ مأمنا

والجودُ هجرُكَ لا فليس يخطُّها ... مَلَكَاك إذ كنْتَ الجواد المُحْسِنا

والحمدُ إسداءُ الجميلِ بلا أذًى ... من غير أن تبغى الجزاءَ وتمننا

والفضلُ تقليدُ الرقابِ صنائعًا ... لو لم تَرِقَّ بها الورَى لن تُغْبَنَا

والملكُ لا يبنى دعائمَ مجدِهِ ... إلا السلاهبُ والقواضبُ والقنا

كبنا بنى ملك المَلِيك المنتقى ... مِنْ معدنِ السبطَيْنِ شرف مَعْدنا
سلطانُ مكَّةَ أحمدُ الملكُ الذي ... طَوْعٌ لقدرتِهِ المنايا والمُنَى
مَلِكُ الحجازِ أبو سليمان الذي ... فى مفرق العليا تبوَّأ مسكنا
ملكٌ له ملكٌ تراه محوَّطًا ... بالمرهفاتِ وبالرماحِ مُحَصَّنَا
ملكٌ له ملكٌ تشامخَ عزُّهُ ... لا ملكَ إلا صارَ قهرًا مذعنا
ملكٌ له ملكٌ ذراه على السها ... وأساسُهُ تحتَ التخوم تمكّنَا
ملكٌ به أُفقُ المعالِى قد أضا ... وانجابَ عنه ظلامُ ظُلْمٍ أدكنا
ملكٌ تفرَّعَ غصنُهُ من دوحةٍ ... بالمصطفَى شرفَتْ وطابَتْ أغْصُنا
ملكٌ غذى بلبا الرسالة واعتلَى ... عن كُلِّ مدحٍ بالصرائحِ والكنَى
ملكٌ له البيتُ الشريفُ ومكَّةٌ ... وله المواقفُ والمشاعِرُ من مِنَى
ماذا عسَى فيه يقالُ ومدحُهُ ... قد جاء نَصًّا فى الكتابِ مبينًا
ويدُ الرسالةِ أكسبَتْهُ شمائلاً ... نبويَّةً منها علاهُ تزيَّنَا
وعلى مُحَيَّاهُ أدارَتْ هالةً ... منها سنا القمرَيْنِ يكتسبُ السنا
هو مضغَةُ الطُّهرِ البتولِ وأصلُهُ ... مِنْ طينة منها النبيُّ تكوَّنَا
وبجدِّه شمسُ الشريعةِ أشرقَتْ ... ولسانها بالحَقِّ أصبَحَ معلنا
هذى الصفاتُ الجاعلاتُ لربِّها ... من فوقِ هاماتِ المعالِى مَوْطنا
لم تنتجِ الدنيا له مثلاً وقد ... زانَ الممالكَ والعلا والأزمنَا
فاقَ الملوكَ فما بنو العباسِ أو ... ما غيرُهُمْ ممن نأى أو من دنا ؟!
لا مَجْدَ كان لهم فرادَى فى العلا ... إلا تملَّكَهُ وكان له قنَا
ولئِنْ أَتَوْا فعلَ المكارمِ مرَّة ... فله غدَتْ طبعًا وأمسَتْ دَيْدَنَا
ملأَ القلوبَ مهابةً وملا العيو ... نَ جلالةً وملا المسامِعَ بالثَّنَا
وملت معاليه الزمان وعَزَّ عن ... مدحٍ وحَصْرُ علاه أعيا الألسنا
رَبُّ الندَى مردِى العدا مُرْوِى الصَّدَا ... مُولِى الغنَى حُلْوُ الخبا رَحْبُ الفِنَا
أنشا بديعَ مكارمٍ ومآثرٍ ... فيها تنوَّعَ مجدُهُ وتفنَّنَا
ولكَمْ مدارسَ فى العلا درَسَتْ وقد ... عَمَرَتْ به وغدا حماها بَيِّنَا
ولقد ذوى روض المواهِبِ فاغتدى ... بنوالِهِ غَضَّ الثمار لمن جَنَى

أغنى الخلائِقَ مِنْ نداه فلم تَجِدْ   فى دهرِهِ ذا حاجَةٍ مُتَمَسْكِنَا
وبه لقد عَمَّ الورَى فنوالُهُ   كَنْز الفقيرِ وطوقُ جيدِ من اغتنَى
والرزقُ والأجَلُ المقدَّرُ طوعُهُ   وبكفه مرّ المنا وحلاَ الغِنَا
متكفِّلٌ بالأمْنِ فى الدنيا فما   أحدٌ بها إلا وعاشَ مُؤَمَّنا
وبرزقِ مَنْ فوقَ البسيطةِ والذي   تحْتَ المحيطةِ قد غدا متضمِّنَا
ولَدَيْهِ لا روضُ السماحِ تخاله   هشمًا ولا نَهر الندا مُتَأَسِّنَا
والسحْبُ مذ رامَتْ تجارِى كَفَّهُ   حُمَّتْ به حسدًا وأسقَمَهَا الضَّنَى
فالغيثُ فى جَبَهاتِها عَرَقٌ جَرَى   لما جرَتْ وكبَتْ وأدركَهَا العَنَا
يحبو النَّوَالَ ويحتبى فكأنَّهُ   بحرٌ وطودٌ قد أحلَّ وأردنا
فى حلمه فاقَ ابن قَيْسٍ بل لدَى   إحسانِهِ ذِكْرُ الندى لن يَحْسُنَا
ماضيه للأعداءِ مسنونًا يرى   وعطاؤُهُ فى الحال فرضًا عينا
يهبُ الألوفَ ولم يهبها عندَما   يلقى عليه لأمَهُ والجَوْشَنا
ويردُّ جحفلَ مَنْ يحاربه ولو   ضاهَى الحَصَا عن رَدِّهِ لَنْ يجبنا
بطلٌ ولكنْ لا يطاقُ ففى الوغَى   بِشَبَا العزائم عن ظباهُ له غنى
ومتَى يصلْ تلقى الكمىَّ مجندلاً   والذمر خلَقًا بالدماءِ مكفَّنا
يروى الثرَى بدمِ الفوارسِ فالقنا   تَجْرِى عليهم من دماهُمْ أعينا
تقفو الجوارحُ جيشَهُ ثقةً بما   أَلِفُوهُ فى نصْرٍ له متيقَّنَا
فَيروا بطانًا آيبين نواهلاً   بِدَمٍ يُطَلُّ فما أذلَّ وأَهْوَنَا
لم يَدْعُ هذا الدهْرَ إلا جاءَهُ   متعثرًا مِنْ خوفه لن يأمنا
يخشَى سطاه فلم تحلَّ خطوبُهُ   ساحاتِهِ وبصَرْفِهِ لن يطعنا
لو خَطَّ طِرْسًا نحوه لولائِهِ   بالخادمِ المملوكِ كان مُعَنْوَنا
فمتَى دعَتْكَ خطوبُهُ فالجأ له   وبإسْمِهِ فاعْل النداءَ وأعلِنَا
يا أحمدَ بْنَ أبى نُمَىٍّ والذي   ألقَى له الدهْرُ القيادَ وأذعَنَا
لو زاد شىءٌ بعد غايتِهِ دعا   كُلٌّ لملكِك أن يزيدَ تمكُّنا
من رام مِثْلَكَ فى الملوكِ فذاك في   شَرْعِ المعالى مُشْرِكٌ لن يؤمنا
فلأنْتَ ربُّ البسطةِ العظمَى على   كُلِّ الملوك من الرشيدِ إلى هُنَا

وأمامَ جيشِكَ رائدُ الظَّفرِ اغتدَى ... بالنصْرِ والفتحِ المبينِ مؤذِّنا
وبشأنِهِ النصْرُ المتينُ قد احتفَى ... بأمرِهِ الفتحُ المبينُ قد اعتنَى
والدهرُ ساعٍ فى الذى تهوَى فإنْ ... تدعوه أو تدعو أجابَ وأَمَّنا
وافاكَ تشريفُ المليكِ فكلُّ ما ... تبغيه ثَمَّ وغيرُهُ لن يُمْكِنا
فليهنِكَ النصْرُ المفادُ ويهنِكُمْ ... نيلُ المرادِ بما أَقَرَّ الأعينا
فهواتِفُ السراءِ قد صَدَحَتْ به ... وترنَّمَتْ وُرْقُ التهانِى بالهنا
وشدَتْ على أيكِ السرورِ حمائمٌ ... ملأتْ بشائرُهَا النواحى بالغنا
فَازِقَ العلا ملكًا فملكُكَ غابة ... بك يا هِزَبْر الجحفَلَينِ محصّنا
ورياضُهُ قد أصبَحَتْ مخضلةً ... منكُمْ وزهْرُ ثمارها حُلْوُ الجَنَى
والماضيانِ تكفَّلا بخلودِهِ ... وبحفظه سَعْدُ السعود تضمَّنا
وإليكَ تبرَ مدائحٍ لو صاغَهُ ... نطقى لغَيْرِ علاكَ أَصْبَحَ أَلْكَنَا
ولحسنها حَسَّانُ يغدو خاضعًا ... لو رام نَظْمَ سلوكها لن يُحْسِنَا
طابَتْ شَذًا لما جعلْتُ ختامها ... مِسْكَ الصلاةِ تبرُّكًا وتَيَمُّنَا

ثم إن مولانا الشريف أبا نمى رحمه الله تعالى التمس من مولانا السلطان سليمان خان تفويض الأمر إلى ولده الثانى صاحب المقام السامى مولانا الشريف حسن، فتقلد - بعد أن أجيب إلى مراده - حماية الحرمين الشريفين وجدة المعمورة وينبع وخيبر وحلى، وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية، وذلك من خيبر إلى أطراف حلى وأعمال جازان طولا، ومن أعمال الينبع المبارك إلى حجاز ثقيف، وما اتصل به من أرض نجد عرضًا، وكان ذلك سنة ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فتفرد بذلك بإشارة والده الشريف أبى نمى لما علم من كفايته وكماله. وخاطبته السلطنة الشريفة بالألقاب الهاشمية الملوكية.

وشاع وذاع ما فى محل ولايته من العدل والإنصاف، والأمن والطمأنينة فى حاضرتها وباديتها، وما إليها ينسب ويضاف، وقطع قاطع الطريق، وأخذ حق المظلوم من الظالم وإن كان أقرب حميم وأصدق صديق.

فلما وصل خبر ذلك إلى الأبواب العالية فوضت إليه كل واصل إلى الأقطار الحجازية من أعيان دولتهم وكبرائهم، وأركان سلطنتهم وأمرائهم حسبما يسطر ذلك

فى المرسوم السلطانى الواصل باسم مولانا المومأ إليه فى كل عام.

وكلما طلب من جانب السلطنة العليا مطلوبا من معالى الأمور أو إحسانًا لمن يلوذ بمقامه المبرور أجيب بحصول المراد، خصوصًا فى سلطنة مولانا السلطان مراد وفى سنة أربع وخمسين وتسعمائة اتفق يوم السابع من ذى الحجة الحرام بمكة المشرفة أن الناس بينما هم بالمسجد الحرام فى وقت السحر إذ رأوا دخانًا صاعدًا من جانب الكعبة الشريفة، فبادرت الأكابر من الشريف أبى نمى، وولده ومصطفى باشا، وأكابر الحاج يسعون إلى باب الكعبة ففتحوه بعد أن حصل عند عامة الناس غاية الوجل، فوجدوا نارًا فى عقب الذرفة اليمنى، ففكت الذرفة، وأطفئت النار، وأعيد الباب على حاله ولله الحمد. ذكر هذا الجزيرى فى تاريخه.

قلت: الظاهر أن أصل تلك النار شرر طائر من مجامر البخور التى توضع على عتبة البيت الشريف.

وفى سنة خمس وخمسين وتسعمائة - لما كان عيد يوم النحر منها - وقعت فتنة بمنى، وتعرف عند أهل مكة بالهبة، بين مولانا الشريف أبى نمى، وبين أمير الحاج المصرى المسمى محمود، وكان الشريف أحمد إذ ذاك قائمًا بأمر المملكة عن والده بتفويض من السلطان سليمان كما تقدم ذكر ذلك.

سبب هذه الفتنة أن السيد قايتباى كان بمصر فأقبل إلى مكة من طريق البحر، وكانت بينه وبين أمير الحاج المذكور مواطأة على أن يوليه مكة.

فلما كان يوم النحر علم الأمير أن جماعة الشريف أبى نمى تفرقوا عنه بالنزول إلى مكة للطواف والسعى، فاغتنم الفرصة - وكان السيد قايتباى المذكور أرسى بجدة ولم ينزل إليها - فركب الأمير ليقصد الشريف فى داره، فعلم الشريف بذلك فركب، وركبت الأشراف والقواد والجند، فثارت الفتنة، ونزل الشريف إلى مكة ثم أرسل إلى جدة تجريدة من الخيل لحرب السيد قايتباى، فلم تصل إلى جدة إلا وقد توجه منها بحرًا عائدًا إلى مصر.

وبموجب هذه الفتنة نفر الأمير، وجميع الحاج من منى يوم النفر الأول قبل الزوال، فأراد بعض الحجاج العود إلى منى للرمى قبل فواته، والمبيت مع جند صاحب مكة، فتعذر عليه ذلك، لانتشار الأعراب فى الطرق ورءوس الجبال.

ويحكى عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن أبى الحسن البكرى أنه كان بمكة حين الفتنة بمنى قد نزل بقصد الطواف والسعى، وكان فى منزله وعنده شخص يسمى الشيخ الحرفوش، فحصلت للشيخ محمد البكرى حالة جلال، واستمر دائرًا فى المحل الذى هو فيه كالأسد وهو يقول: حوش حوش يا حرفوش، كالذى ينظر شيئًا فيأمر بإمساكه، ثم سكت حاله، فقال: الآن وقعت بمنى فتنة عظيمة حشناها بإذن الله تعالى فكان الأمر كذلك.

فقال العلامة الخطيب عبد الباسط بن أيوب يذكر الواقعة، ويرفع فيها الشكوى من محمود الأمير إلى الخنكار الأعظم مولانا السلطان سليمان خان فى قصيدة هى: [من الخفيف]

يا إمامًا بالعدلِ فى الناسِ سارا ... وهمامًا قد دَمَّرَ الكُفَّارا
ومليكًا إحسانُهُ ملأ الأرْ ... ضَ وأضحى له الصلاحُ شِعَارا
هذه قِصَّةٌ لبابكَ جاءَتْ ... من أناسٍ مما دهاهُمْ حيارى
فَاتْلُهَا يا خليفةَ اللهِ فى الأر ... ض جميعًا عساكَ تأخذُ ثارا
نظمتْهَا قريحةٌ شاهدَتْ في ... عترةِ المصطفَى أمورًا كِبَارا
هجمَتْ دورهم بخيلٍ ورجلٍ ... واستباحوا عرضًا ومالا ودارا
ورُمُوا بالنبالِ فى حرم اللّه ... فضَحُوا صغارَهُمْ والكِبَارا
أذكَرَتْنَا أحوالُهُمْ بحسينٍ ... ويزيدٍ وأورثَتْنَا اعتبارا
آلُ بيتِ الرسولِ حُلَّ حماهم ... واستبيحَتْ لهم دماءٌ جِهارا
ما استمعنا ولا رأينا كَهَذَا ... لا رَعَى اللهُ مَنْ بهذا أشارا
قد أتانا محمودُ فى إمرةِ الحَجْ ... جِ وقد صَارَ بالأذى أمَّارا
فرأينا شخصًا يحاكِى يزيدًا ... فى سجاياهُ فاجرًا جَبَّارا
أذهَبَ الشرْعَ مذ أتانا وأحيا ... ليزيدٍ بَينَ الورَى آثارا
حَكَّمَ السيفَ فى أعزِّ نفوسٍ ... وسقاها كاسَ الرَّدَى وأدارا
قَتَلَ الناسَ أظهَرَ السفكَ ظلمًا ... جالَ بالسيفِ يمنةً ويَسَارا
تركَ الهدْىَ والضحايا وضحَّى ... بدماءِ الأشرافِ فيها وسَارَا
حَرَمٌ آمِنٌ ويقتلُ فيه ... عترة المصطفَى جهارًا نَهَارا

إن هذا أمرٌ فظيعٌ شنيعٌ — منكَرُ الشانِ يدهشُ الأبصارا
قد تركْنَا لأجلِهِ واجباتٍ — ورفضْنَا المبيتَ والإعتمارا
وخشينا من اليزيديِّ قتلاً — فركبْنَا من خوفِهِ الأخطارا
تَرَكَ الناسُ فى منًى نُسُكَ الحَجْـ — ـجِ وخلَّوْا مبيتَهَا والجِمَارا
واعتراهُمْ من اليزيديِّ ما لم — يألفُوهُ وأُحْصِروا إحصارا
وغدا الناسُ بين قتلٍ ونهبٍ — وأمورٍ تحيِّرُ الأفكارا
صار فيها العزيزُ عبدًا ذليلاً — والأرقَّاءُ أصبَحَتْ أحرارا
صَرَفَتْ نحوهم صروفُ الليالِي — وجهَهَا بعد كان فيه استتارا
ورمتهم عن قوسها بسهامٍ — أثَّرَتْ فى القلوبِ منا انكْسارا
فتنةٌ أُحْدِثَتْ بأشرفِ أرضِ الله لا ترتضَى بأرضِ النَّصَارَى
كَبَّرَ الناسُ عندما عاينوها — وبحارُ الدِّما غدَتْ تيَّارا
أظلم الكونُ والكواكبُ غارَتْ — واقشعرَّتْ جلودنا اقشعرارا
إن هذا ظلمٌ وجَوْرٌ عظيمٌ — قاتلَ الله مَنْ عَنِ الحقِّ جارا
ورماه بأسْهُم صائباتٍ — مِنْ يد المصطفَى تريه الصَّغَارَا
وذُهِلْنَا من المصيبةِ حتَّى — أذهَبَ الخوفُ عقلنا والوَقَارَا
فتراهم بعد الأمانِ مِنَ الخَوْ — فِ سكارَى وما هُمُ بسُكَارى
يابن عثمانَ أنتَ عمرْتَ بالعد — لِ الأقاليمَ بَرَّها والبِحَارا
أنتَ طهَّرْتَ سائر الأرضِ ممَّنْ — قد تعدَّوْا واستكبروا استكْبَارا
أنتَ كهفٌ للمسلمينَ حريزٌ — وملاذٌ لمنْ يخافُ ضِرَارا
أنتَ للحقِّ ناصرٌ ومعينٌ — لكَ سيفٌ قد دمَّر الأغيارا
أنتَ مَنْ أمَّ بابَ عدلك يحظَى — بمناه ويبلُغُ الأوطارا
كيفَ ترضَى أن اليزيديَّ يأتي — حَرَمَ اللهِ مفسدًا كَفَّارا
سوفَ تأتيه غيرةٌ منكَ حتى — يتمنَّى أن لم يُثِرْ ما أثارا
فأغِثْ عِتْرةَ النبيِّ وبادرْ — وزدِ الظالمينَ منك خَسَارا
وأرِحْهُمْ من اليزيديِّ واجعلْ — داره بالخرابِ أرْضًا دمَارا
وارحمِ الناسَ إنهم قد أذيقوا — مِنْ أذاه ما لم تذقه الأسارَى

ولكَ الأمْرُ فاقضِ ما أنتَ قاضٍ فهو واللهِ يستحقُّ النارا
قَسَمًا بالحطيم والركنِ والبيـ تِ الذى رَبُّهُ يقيلُ العِثَارا
وبِآلِ النبيِّ والصحبِ والأحـ ـزابِ طُرًّا والسادةِ الأخيارا
قد خبأنا له سهامَ الليالي وشدَدْنَا القِسيَّ والأوتارا
واستعنا بأعظَمِ الناسِ جاهًا واتخذْنَا ضريحَهُ مستجارا
يا نبيَّ الهدَى أغثنا سريعًا قد أضرَّ العدا بنا إضْرَارا
نحنُ قومٌ بك استَجْرنا فنِلْنَا بمعاليكَ رحمةً وجِوَارا
شاعَ فى سائرِ الجهاتِ الذى قَدْ كان فينا وطَبَّقَ الأقطارا

وكان الشريف أبو نمى جم الفضائل، حسن الشمائل، محمود السيرة، طاهر السريرة، قطب زمانه بلا خلاف، عادل وقته فلا سبيل فى زمنه إلى الاعتساف.

له النثر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق، وصفاته جامعة شتات كل فضيلة، وخصاله محمودة جميلة.

ومن صفاته الحميدة المتوارثة له عن آبائه الكرام، رعاية ذوى البيوت القديمة، وإعراضه عن الأفاقين؛ فإن ذوى البيوت كانوا عنده فى أوج الإعزاز والإكرام، يظهر مناقبهم، ويستر مثالبهم، وكان يخصهم من بين الأنام بالتحية والقيام، ولا يفرح غيرهم بقيامه لو أنه شيخ الإسلام فلهذا كانت الأمور مضبوطة، والأحوال بوجوه الصواب منوطة.

فطالما التمس منه أعيان دولته القيام لجماعة لا يكونون من ذوى البيوت بعد أن صاروا من أهل الإفتاء، فلم يجب التماسهم، ولم يضبط عليه ذلك لئلا يكون الناس على حد سواء.

فما أجدره بقول القائل: [من البسيط]

للهِ درُّ أنو شروانَ مِنْ ملكٍ ما كان أعرفَهُ بالعَالِ والسَّفلِ

ولم يفته أن جبر الخواطر مطلوب، بل هو عارف بما هو أدق من ذلك مما تكنه القلوب، غير أنه علم ما يئول إليه ذلك من الفساد، وتجرؤ الأنذال بمساواتهم لأكابر البلاد، وترتب حصول الجور فى العباد. فقد قيل: [من الوافر]

وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلابُ يَلغْنَ فِيهِ

فهذا من سياسته التى يحفظ بها الملك ويدوم.

فقد قال تعالى تلك الرسل : ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

وقال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أنزل الناس منازلهم »[١]. والحكمة فيما كان يصنعه الشريف - تبعًا لأسلافه - أن ذوى البيوت قد عرفت مودتهم وإخلاصهم من عروق أسلافهم الأقدمين الثابتى الأساس، وانطباعهم على صدق المحبة والوداد فإن العرق دساس، فكانوا جديرين بهذه المزية، ولو لم يكن فيهم شىء من الفضائل، إلا ما ألف منهم، وعرف عنهم من الشمائل.

وأما غيرهم لو أنه أعلم أهل زمانه فلم توجد فيه هذه المزية، وربما يكون إكرامهم سببًا لحصول الأذية.

قلت: هذا قول أحمد الفضل ناقلاً له عن الإمام عبد القادر الطبرى.

وهو كما ترى قول جائر فى القضية، صادر عن روية بزلال الحق غير روية، وطوية على الحقد والحسد مطوية. وحاش لله أن تكون صفة مولانا الشريف ذلك، وعادته تلك مع أولئك؛ إذ كيف يسوغ لمولانا إلغاء صفة العلم ممن اتصف بها من الأفاضل الأعلام فلا يعظمه بسببها كما قال هذا الشخص، ولو أنه شيخ الإسلام.

ولا يعتبر إلا ذلك الود بفرض وجود المستور فى حبات القلوب، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب، حماه الله من ذلك، مع علمه - رحمه الله - بأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فهو تحت طى لسانه، لا تحت طيلسانه.

وأغرب من هذا كله قوله: ولو لم يكن فيهم شيء من الفضائل.

فما أحقه بقول القائل: [من الطويل]

إذا كان لا عِلْمٌ لديْكَ تفيدُنَا ... ولا أنْتَ ذا دِينٍ فنرجُوكَ للدِّينِ

ولا أنْتَ ممنْ يُرْتَجَى لكريهةٍ ... جعلنا مثالاً مثلَ شخصِكَ مِنْ طِينِ

فإذا لم يكن الشخص فيه فضيلة ذاتية، والود لا يعلمه إلا عالم الخفية.

لم يبق سبب للإجلال والإكرام والتحية والقيام، إلا كبر العمائم وطول الأكمام، والاعتماد على رفات العظام، من الآباء والأعمام، ولا ينهض ذلك عند رعاع

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث ميمون بن أبى شبيب عن عائشة مرفوعًا: «أنزلوا الناس منازلهم» وفيه قصة . قال أبو داود: ميمون لم يدرك عائشة .

العوام، فضلا عمن هو لسادات الأنام إمام، أبى نمى الهمام.

فالحق إعطاء العلم واجبه لكل إنسان، كائنًا من كان.

ثم إن كان مع فضيلة ذاته له فضيلة سلسلة علم وبيتوتة، تكلل تاج مجده درر الفخر وياقوته.

ثم أنت ترى قبح ما أورده، وتمثل به فى مراده، ووخامة شاهده فى استشهاده، وتشبيهه نفسه وأمثاله بالأسود، وغيره بالكلاب، وسيد الجميع بالماء المورود.

فأين الذكاء والفهم؟ لا قوة إلا بالله!.

وفى سنة ثلاث وستين: كان ابتداء حادث المحمل اليمانى، والمحدث له الوزير مصطفى باشا النشار المستولى على اليمن من جهة السلطان سليمان خان، وكانت ولايته له سنة اثنتين وستين، فوصل إلى مكة أميرًا على المحمل المصرى فحج ثم رجع بالمحمل والحجاج، الأمير مراد بك، ثم توجه مصطفى إلى الديار اليمنية، فأحدث اليمانى وجعله كالمحملين، ومعه خلعة من جانب السلطنة الشريفة، فبرز مولانا الشريف لملاقاة الخلعة إلى بركة الماجن، ثم وصل هو والأمير والمحمل إلى أن حاذى الشريف داره، فدخلها وتوجه الأمير ونزل عند سفح الجبل الذى على يمين الداخل إلى مكة من ثنية الحجون، ولم يزل كذلك إلى أن بطلت الخلعة والمحمل من سنة تسع وأربعين وألف، وذلك مسبب عن وقوع الفتن القوية، واشتغال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلاء كلمته العلية، ولا بد لليمن من عطفة، ليس فيها تؤدة ولا رأفة.

وفى سنة ٩٨٥ خمس وثمانين وتسعمائة كانت وفاة السيد الأكرم السيد بركات بن أبى نمى، جد ذوى بركات الأقرب.

قال العلامة الفهامة الشيخ على الشهير بالجم: دخلت على والده مولانا الشريف أبى نمى معزيًا له فيه، فانهلت عبرته، فأخذها بمنديل كان فى يده، فأنشدته ارتجالاً بيتين يتضمنان تاريخ وفاته فقلت: [من الكامل]

يأيها الملكُ العزيزُ ومَنْ رَقَى ... هَامَ العلا رَفَعَ المهيمنُ شانَهُ

لا تَبْكِ مرحومًا أَتى تاريخُهُ ... بركاتُ أنزله اللطيفُ جنانَهُ

فسر بذلك وسُرِّى عنه بعض ما كان.

وفى سنة ٩٩٠ تسعين وتسعمائة ضحوة يوم الأحد تاسع صفر منها كانت وفاة مولانا السيد الشريف قاضى قضاة الإسلام وناظر النظار ببلد الله الحرام، مولانا القاضى الحسين بن أحمد المالكى بالطائف فى القرية المسماة بالسلامة، ووصف بالشهيد لذلك، وعد من ألقابه التى وصف بها على زمزم.

ولما بلغ موته ضده مرزا شلبى قال: سبحان الله، عاش هذه المدة فى مكة ثم لم يمت إلا خارجها؟ وأرخ ذلك بقوله « حل عام الخير » .

نعوذ بالله من الحسد وأهله، ووافق تاريخ وفاته فى تاسع صفر من السنة المذكورة لفظ « تسع فى صفر » .

وفيها أيضًا كانت وفاة العلامة الشيخ قطب الدين النهروالى مفتى السادة الحنفية يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى منها وقت أذان حزورة عند الفجر الثانى، فأرخ بعض الفضلاء ذلك بقوله « قد مات قطب الدين أجل علماء مكة » قلت: قد حسبته فوجدته يزيد على سنة الوفاة واحدا، ومثل ذا يغتفر عند المؤرخين على خلاف الراجح منه عدم الاغتفار مطلقًا، فيصير التاريخ هكذا قد مات قطب الدين جل علماء مكة، ولا شك أن المعنى الأول يزول حينئذ ويتحول.

وما زال مولانا الشريف أبو نمى منعم البال، ممتعًا بالأولاد والآل، مجتمع الشمل فى سائر الأحوال، مكفى الأمور، دائم السرور، بقيام ولده الشريف حسن بأعباء الملك والخلافة، مظهرًا فى الرعايا عدله وإنصافه، سالمة ممالكه من المخافة، إلى أن دعاه داعى الحق فلبّاه، وانتقل من هذه الدار إلى دار كرامة مولاه، ليلة تاسوعا افتتاح سنة ٩٩٢ اثنتين وتسعين وتسعمائة بالقرب من وادى البيار من جهة اليمن، فحمل إلى مكة، وجهز وصلى عليه بعد صلاة العصر فى المسجد الحرام عند باب الكعبة - الأفندى مرزا مخدوم، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة موجودة، عليها أوقاف محدودة، وتخلف ولده الشريف حسن لحفظ البلاد، وقطعًا لدواعى الفساد، وجعلت له ربعة بالمسجد الحرام وبالتربة، حضرها الشريف حسن وإخوته وجميع الأشراف والأعيان من أهل مكة والعربان - قدس الله روحه؛ ونور ضريحه.

وعمر الشريف أبى نمى ثمانون سنة وشهر واحد ويوم واحد، ومدة ولايته مشاركا لأبيه ولولديه الشريف أحمد والشريف حسن، ومستقلا نحو ثلاث وسبعين سنة.

وكان رحمه الله صاحب خيرات متواترة، ومبرات كثيرة متكاثرة.

أسس لأبنائه معالم الكرم، وحثهم على شريف المناقب والشيم.

نسج بينهم المودة على منوال الصفا، وحملهم على الصدق فيما بينهم والوفا.

وبنى بمكة رباطًا للفقراء الذكور ورباطًا للنساء الشرائف، وأوقف عليهم أوقافًا إلى الآن جارية فى صحائفه.

وكان له جملة من الأولاد، منهم: أحمد والحسن وثقبة وبركات وبشير وراجح ومنصور وسرور وناصر وصالحة وشمسية وغبية وصليبة وموزة وراية وغيرهم.

قلت: ورأيت نتفة لبعض شعراء ذلك الزمان ولم ينسبها الكاتب إلى شخص بعينه، وهى فى الشريف أبى نمى أحببت ذكرها هى: [من السريع]

يا فارسَ الخيلِ قهرْتَ العدا ... ألتُّرْكُ والعُرْبَانُ والتُّرْكُمَانْ

مولاك أعطاكَ خِصالاً بها ... أصبحتَ فى الناسِ فريدَ الزمانْ

فأنتَ فى حلْمٍ بعيد المدى ... قَريب إحسانٍ وحُلْو اللسانْ

فلا تَخَفْ مِنْ بعد ذا كربةً ... فما قضاه اللهُ بالأمرِ كانْ

فاللهُ يبقيكَ لنا آمنًا ... كما أذقْتَ الناسَ طَعْمَ الأمانْ

قلت: قد أبان هذا الشاعر عن فضاخة اللسان لا فصاحته، وضيق البيان لا فساحته، إلا أنه يدخل عن الاعتراض فى أمان بيت الأمان، فلعل أن يمحو الإساءة الإحسان، فسبحان خالق الإنسان.

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى معارضًا قصيدة ابن خطيب داريا التى مطلعها: [من السريع]

قُمْ عاطِنى الصهباءَ يا مُؤْنِسِي ... ...

وكان هذا الإعراض بإلزام له من مولانا الشريف أبى نمى، فقال يمدحه ويهنيه بعرس ابنه الشريف أحمد بن أبى نمى: [من السريع]

لِيَحْتَسِ الصَّهْبَاءَ من يحتَسِي ... حَسْبى لمَى مرشفِكَ الألْعَسِ

حلّ فأطلقْ منه كأسِى ولا ... توحشْ بحبس الكأس يا مُؤْنِسِي

مِنْ طرفِكَ الوسنانِ والخَدِّ ما ... يهزأُ بالوردِ وبالنرجسِ

وجهُكَ لى روضٌ جديدٌ إذا ... أخلقَتِ الأرْضُ القبا السندسِي

رنحت قَدًّا قال للغصْنِ مِنْ عِطْفى استعِرْ لينًا ومثلى مِسِ
غَرِّدْ لنا واشدُ فها أنتَ مِنْ شعرِكَ كالشُّحْرُورِ فى بُرْنُسِ
أنتَ سميرى ونديمى فلِي فاكهةٌ من لفظِكَ الأكْيَسِ
ضوءُكَ فى جنحِ الدجَى ساطعٌ فذكْرُ ضوء الشمْعِ معه نُسِي
فيكَ جميعُ البسطِ يا فاتني بسط إذا خلتك فى المجلِسِ
لقد صفا العَيْشُ بسفْحِ الصفا وأحْسَنَ الصنعَ الزمانُ المُسِي
فعاطِنِى من فيكَ مسكيةً ينفحُ منها الطيبُ فى المعطسِ
وَاجْلُ صدا نفسى بأنفاسِهَا فإنها تجلُو صدا الأنفُسِ
لها حبابٌ من ثناياك قَدْ حكتهُ شهبُ الفُلْكِ الأطْلَسِ
طاهرة طِبْت وطابَتْ فلم يحرمْ تعاطيها ولم تنجسِ
تلك سُلافى لَسْتُ مِنْ غيرها أرتشفُ الراحَ ولا أحتَسِي
ما لى وللخمْرِ وشرَّابِهَا إياكِ يا نفْس بهم تَأْتَسِي
منْ كلِّ سفسافٍ إذا سَفَّها يبذى ويَهْذِى ثم لا يَنْبِسِ
قد نجسوا منها فلم يفكروا فى نَجِسِ الماءِ ولم ينجسِ
أخبارُهَا قد دُرِسَتْ بينهم فى كُتُبٍ يا ليتَ لم تُدْرَسِ
حديثهُمْ فُحْشٌ وجهلٌ فلا تسمعْ لا أُفْتِ ولا أدرسِ
للهِ أوقاتٌ تقضَّتْ لنا معْ كلِّ شهمٍ فكِه كيسِ
ونحنُ فى مجلسِ أنسٍ به أبو نميٍّ صاحب المجلسِ
سلطانُ أقطارِ الحجازِ الذي بغيره الأقطارُ لم تحرسِ
مولًى له ذوقٌ وفهمٌ ففي مجلسِهِ الآدابُ لم تبخسِ
للفضلِ سوقٌ عنده نافقٌ لكلِّ مثرٍ منه لم يفلسِ
للهِ أخلاقٌ له سمحةٌ تقولُ للضيفِ ادْنُ واستَأْنِسِ
أَيْأَسَنِى دَهرِى فلمَّا رنا إليه قَالَ ارجُ ولا تَيْأَسِ
ينسى الذى يوليكَ مِنْ فضله لكنْ ثناه شائعٌ ما نُسِي
أعداؤُهُ دنَّسهم لؤمهُمْ وعرضُهُ الأبيضُ لم يدنسِ
إن عدَّتِ الفرسانُ فَهْوَ الذي يدعَى غداةَ الروع بالأفرسِ

هو المليكُ الممتطِى صهوةً ... من المعالِى قَطُّ لم تمسسِ
تدبيرُهُ الملكَ له دَيْدَنٌ ... فلم يَنَمْ عنه ولم ينعسِ
كُلُّ عزيزٍ ذلَّ من بأسِهِ ... وهابه الروميُّ والشركسِي
سلِ النصارَى عند ما قارَبُوا ... جدة عن جدهم الأتعسِ
ماذا الذى نَكَّسَ أعلامهم ... عنها نَعَمْ لولاه لم تنكسِ
ثم انثنَوْا للهندِ والرغبُ في ... قلوبهم سَارَ إلى قبرسِ
نُصِرْتَ بالرعبِ عليهم ولم ... لا بأبيكَ المصطفَى تأتسي
فاستبعَدُوا الأقرَبَ واستَقْرَبُوا الـ ... أبعَدَ من طورهمُ الأقدسِ
أتَوْكَ كالبَحْرِ فصاروا لدَى ... بحركَ كالحسوةِ للمحتسِي
أتاهُمُ أنكَ فى قوةٍ ... من العوالى والظبا والقِسِي
أعددتَّ جيشًا لو بهم بحره ... أحاطَ لم يَنْجُوا من المغطسِ
وكلُّ طرفٍ سابق سابح ... فى لج بحرِ النقع لم يغطسِ
يفترسُ الأسد على ظهرِهِ ... من الأعادِى كلَّ مستفرسِ
هُمْ كأسودِ الغابِ لكنَّها ... دونهُمُ فى شرسِ الأنفسِ
من حسنٍ ينمو إلى سَيِّدٍ ... لهم هِزَبْر فى الوغَى أحمسِي
نجومُهُمْ دارتْ على أبلجٍ ... كبدرٍ تمٍّ بالسنا مكتسى
مِنْ دوحةٍ ثابتةٍ غضةٍ ... والأصلُ منها طيبُ المغرسِ
تنمى إلى السبطَيْنِ مِنْ فاطمٍ ... أكرِمْ به من نسبٍ أقعسِ
يا ملكًا لو قابَلَ السَّعْد من ... غرته كيوان لم ينحسِ
إنْ يبسَ الدهر عَلَى أهلِهِ ... أمّوا فِناءً منك لم ييبسِ
محسنُهُمْ تحسن فى حقِّه ... وإن أساءوا لسْتَ ممنْ يُسِي
كنتَ لنا نجم حمى أفْقنا ... شهابُهُ من ماردٍ أشرسِ
يا لَكُمَا مِنْ ملكَيْ كورةٍ ... قد كسياها أَفْخَرَ الملبسِ
يا لكما من فارسَيْ غارةٍ ... من خسياه فى مغارٍ خُسِي
يا لكما من قائدَيْ عسكرٍ ... حديدُهُ مِنْ نقعه مكتسِي
شمسًا وبدرًا ينفعان الورَى ... نورهما يجلو دُجَى الحندسِ

أبــو نــمــيٍّ وابــنُــهُ أحــمــدٌ ... ألقسوريُّ الخشنُ الملمسِ
زُفَّتْ لـه غـيداءُ خـرعـوبـةٌ ... عذراءُ لم تطمثْ ولم تمسسِ
لـيـهـنِـهِ هـذا الـزواجُ الـذي ... أبـهَـجَـهُ بـالـرشـأ الألـعـسِ
لا زال فى عيشٍ لذيذٍ بها ... ودامَ من قَهْوتها محتسِي
فاحفظْ علينا الأصْلَ والفرْعَ يا ... رب وحُطْ ملكهما واحرسِ
يا مَنْ به الشعْرُ سما ذروةً ... على درارى الفلكِ الأطلسِ
هاكَ قريضًا أنتَ أدرَى بما ... فى سلكِهِ من جوهرٍ أنفسِ
أمرتَنِى أنظمُ شعرًا على ... « قُمْ عاطِنى الصهباءَ يا مُؤْنِسِي »
فقمْتُ مرتاحًا إلى نظمِهِ ... ولم أحلْ عنه ولم أخنسِ
فَحَبَّ هَذَا الأحسن الوَقْع من ... شِعْرِى لدى إصغائِكَ الأكيسِ
أو لا فعُذرى أننى عاجزٌ ... وفيكَ يوفى خبرة الكيسِ
أنمر مِنْ مدحِكَ حتى غدا ... طَلْقُ لسانى فيه كالأخرسِ
أيُّ فصيح فيك يرجو القَضَا ... ولم يَعُدْ كالألكَنِ المبلسِ
فعشْ لنا دهرًا ودُمْ للعلا ... والمدْح للراح وللأكؤسِ
ما دُمتَ للإقبال رأسًا وما ... دامَتْ مواطيك على الأرؤُسِ

وقال الشيخ عبد الرحمن باكثير: وقد اقترح عليه مولانا الشريف أبو نمى معارضة قصيدة الطيبى الخمرية التى مطلعها: [من الخفيف]

بَرَزَتْ فى الكئوسِ كالإبريز ... ...

فعارضها على البحر والقافية والمعنى واستخلص فى مدحه فقال، وذلك سنة ٩٤٩ تسع وأربعين وتسعمائة: [من الخفيف]

خَطَرَتْ فى مثَقفٍ مهزوزِ ... كَمْ به من متيَّمٍ موكوزِ
ورنَتْ فانتضَتْ حسامًا تحلَّى ... جفنه من حلاوةِ التلويزِ
سِحْرُ هاروتِهِ يخيلُ ماءً ... ولهيبًا فى خَدّها الإبريزي
وبتخييله تَبَلَّه قلبي ... فى هواه وجُنَّ عقلى الغريزي
ودموعى تَسَلْسَلَتْ فشفائي ... باللقا لا بطلسم وحروزِ
أو بصهباء ريقها حينَ تجلى ... للندامَى بثغرها لا بكوزِ

أو بظلمٍ يسقى زهور أقاحٍ نابتٍ فى وِشَاحها الفيروزي
أو بشهدٍ من الشفاه حلاه لم تَشُبْهُ مرارةُ التمزيزِ
أو بريقٍ من الثنية يُطْفِي من حشا مهجتى لَظَى تمّوزِ
أو بإحداقها إذا ما أدارَتْ كاسَ غنجٍ من خمرةِ التغميزِ
أو بساجى لحاظها حين تُومِي لوصالى بخافياتِ الرموزِ
أو براح فيها ارتياحٌ لروحي وشفاءٌ لقلبى الموخوزِ
آهِ لو ساعَدَ الشبابُ عليها والليالى وموجب التجويزِ
كُنتُ دهقانَهَا الخبيرَ وكانَتْ فئة البسطِ فى يديَّ وحوزِي
غير أنَّ الجواز عزّ ورأسى شابَ والدهرُ مرّ قيزًا بقيزِ
فتحامَيْتُهَا وإن كان أمرى باحتساها أَمْر المبيحِ المجيزِ
خمرةٌ مدت الحباب شباكًا لاقتناصِ اللذاتِ وقتَ النهوزِ
هاتها لى تنفى الهمومَ وتُوفِى لِىَ وعدَ السرورِ بالتنجيزِ
هاتِها لى شَمْسًا مغيب سناها فى فؤادى وبرجها قطرميزي
هاتها لى روحًا من النارِ حَلَّتْ جِسْمَ نورٍ لظاه طب أزيزي
هاتها تعبدُ المجوسُ لظاها ليلةَ المهرجانِ والنيروزِ
هاتها ذَوْب عسجدٍ فى لُجَيْنٍ ظفرَتْ منه راحتى بالكنوزِ
هاتها قد غَنِيتُ مذ صار خمري مِنْ نضارٍ أكتاله بالقفيزِ
هاتها لى قد ضاعَ تمييزُ عقلي منذ هَمَّتْ من كاسها بالبروزِ
هاتها لى أدورُ فى لَيْلِ سُكري بسراجٍ منها على تمييزِي
هاتها فالتهابُهَا بند جيشٍ مِنْ صدا القلبِ هَمَّ بالتبريزِ
هاتها لى فلو بَدَتْ جنحَ ليلٍ خرقَتْ أفقَ أدمِهِ المخروزِ
هاتها لى صفراءَ فى جام تبرٍ تتهادَى فى حُلَّةٍ هرموزِ
هاتها لى عروسَ دَنٍّ تجلَّتْ من لآلى حبابِهَا فى حروزِ
هاتها لى كالشمْسِ تجلى بكاسٍ كضياءِ النهارِ من غيرِ ميزِ
هاتها لى تروى عظامِى وتسقِي من حشاىَ نبات أرضٍ جروزِ
هاتها لى من لام فيها إذا ما صَدَحَ الديكُ فهو فى توزيزِ

هاتها لى فالعيشُ عصرُ شرابٍ ... أو شباب يفنى بشمطا عجوزِ
هاتها لى فالعمر من غيرِ راحٍ ... أو رداح يـمـرُّ بـالـتـجـلـيـزِ
هـاتـهـا لـى فـلَـثْـمُ درّ حـبـابَ ... أو حبيب يغنى عن التعويزِ
هاتها لى صرفًا ومزجًا بظلْم ... بين دُرٍّ وسط اللمى مغروزِ
هـاتـهـا لـى فليسَ بين نداما ... ى وحُورِ الجنانِ من تمييزِ
هـاتـهـا لـى فإننى بين بدرٍ ... وكـثـيـبٍ وأسْمَرِ مـهـزوزِ
هـاتـهـا لـى فإنَّ عندى هلالاً ... فوق غصْنٍ على نقا مغروزِ
هاتها لى فمجلسى فيه رُمَّا ... نُ نهودٍ حَلَوْنَ من تمزيزِ
هاتها كم لَدَىَّ من حُقِّ نهدٍ ... تحتَ مسمارِ عنبرٍ ملزوزِ
هاتها لى ولو كبرتُ وأحنَتْ ... قوسَ ظهرى شيخوخةُ التعكيزِ
هاتها لى ولو هرمْتُ وأوهَى ... حمل كاسى يديَّ من تعجيزِ
هاتها لي ولو وهَتْ قوة الشّرْ ... بِ فحسبى مِنْ كاسها تمزيزي
هاتها لى ولو تدانَى حِمَامي ... وتداعَى صحبى إلى تجهيزي
هاتها لى فمخلصى مِنْ خطاها ... فى معادى مدح المليكِ العزيزِ
ذى المعالى أبى نُمَيٍّ تعالَى ... عن بسيطٍ من الثنا ووجيزِ
ملكٌ فاق ملكُهُ ملكَ سابو ... رَ وكِسْرَى وقيصرٍ وابرويزِ
مـلـكٌ لا يـزالُ كـفُّ الـثـريـا ... مـن مـعـالـيـه آخذًا بـالـغـروزِ
ملكٌ قد أبانَ للمجْدِ معنًى ... كـان لـولا عـلاهُ كـالـمـلـغـوزِ
مـلـكٌ قـالـتِ الـسـمـا لـعُـلاَه ... قد خفضتى فبى قفى أو فجوزي
مـلـكٌ قـال دهـره لـلـيـالـي ... ذا مليكٌ بمثلِهِ لَنْ تفوزي
هـو تـاجٌ لـمـفـرقِـى وطـرازٌ ... منه عِطْفى قد زِينَ بالتطريزِ
نـبـويُّ الأنـوارِ نـورُ مُـحَـيَّـا ... هُ يـزيـحُ الـظـلامَ مـن تـبـريـزِ
نـشـرَتْ فـوقـه الـنـبـوةُ بـنـدًا ... خـافـقًـا بـالـتـكـريـم والـتـعـزيـزِ
لا يسامى ولا يُطَاولْ عُلاَهُ ... غَـيْـرُ فـدم بـغـيِّـه مـنـبـوزِ
هو يبدو فى خلعةِ الملكِ سام ... والمسامى فى بِذْلَةِ الملموزِ
فخرُ كلِّ الملوكِ منه وكل ... خصَّ منه بمفخرٍ مفروزِ

يبهر العقلَ فهو فى التختِ بدرٌ ... وهو ليثٌ فى لاذِهِ المدروزِ
صار فولاذُهُ أخفَّ وأحلَى ... فوقه مِنْ موشياتِ الخزوزِ
ترجفُ البيضُ منه والدهرُ يمسي ... فزعًا من سطاهُ فى تفزيزِ
مستجيرًا به وإنْ رام فعلًا ... فى البرايا فمنْهُ كالمستجيزِ
بالتجاريبِ والظبا والعطايا ... منفذُ الدهرِ والعدا والركيزِ
تضحكُ البيضُ حين تنظر قوسي ... حاجبَيْهِ بالغيظِ فى تكييزِ
وإذا ما استهلَّ تبكى من الما ... لِ عيونٌ من عسجدٍ مكنوزِ
فى العطا والسطا وفى العَذْلِ والفضـ ... لِ وعَمْرو وما ابن عبد العزيزِ ؟!
ولدَى حلمه وآرا نُهَاه ... ما ابنُ قيسٍ وما نُهَى فَيْروزِ ؟!
ملأَ الأرضَ عدلُهُ فالرعايا ... لو تديمُ السرى إلى شهروزِ
هم مِنَ العدلِ فى محلٍّ حصينٍ ... ومن الأمنِ فى مكانٍ حريزِ
أمنوا فى زمانِهِ الظلْمَ حتى ... أصبَحَ الذيبُ راعيًا للمعيزِ
فاطميٌّ يرد صَرْفَ الليالي ... عزمُهُ لو بفيلقٍ منه غوزي
ويفلُّ الخميس والأُسْد فيه ... كنجوم السماءِ أو رمل قوزِ
أرعف السمر بالدما فلهذا ... نحلَتْ من نزيفها بالنزيز
للطلا والكلا انتشار ونظْمٌ ... بظباه ولَدْنِهِ المهزوزِ
مِنْ سطا الدهرِ فهو أوفَى مجيرٍ ... ولوفْدِ الثناءِ أوفَى مجيزِ
من يقسه بالسحبِ يخطى ويغدو ... ساخرًا بالسحابِ فى تطنيزِ
هى تعطى ماءً وتبكِى وهذا ... فى ابتسام يجودُ بالإبريزِ
خدمَتْهُ العلياءُ طوعًا وظلَّتْ ... فى إباءٍ لغيرِهِ ونشوزِ
كيفَ يوفى الثناءَ فيه قريضٌ ... بعَروضٍ مقطعٍ محزوزِ
والكتابُ العزيزُ أثنَى عليه ... بثناءٍ يعلو عن الأرجوزِ
وله المصطفَى دعا بدعاءٍ ... أمنتْهُ أُسْكُفَّةُ الإفريزِ
فعلى الخَلْقِ سعده لو تجزا ... لم تجدْ غير مسعد معزوزِ
يا مليكًا قد جلَّ ذاتا وقدرًا ... عن صريحِ الثناءِ والمرموزِ
فى مراضيكَ قد سعى الدهرُ طوعًا ... لك منه من غَيْرِ ما تكزيزِ

والتشاريفُ وُرْقُهَا بالتهاني لك تَشْدُو فى نغمةِ النيروزِ
وبتخليدِ ملكِكَ الفلكُ الدا ئر يَجْرِى فى قُطْبِهِ المركوزِ
فَازِقَ فَرْقَ العليا وهاك قريضًا أَلبَسَ الغيرَ حُلَّةَ التعجيزِ
واستحقَّ التصدير فى المجد فاعجبْ لاجتماعِ التصديرِ والتعجيزِ
فعله فى العقولِ فعلُ الحميَّا وتعالى عن حرمةِ التحجيزِ
من يفته سُكْرُ الطلا يلقَ فيه سُكْرَ من لا بإهنة الحَدِّ جوزي
ختمه المسك بالصلاة على مَنْ خصَّ فى فتحِهِ بنصرٍ عزيزِ

ولمولانا الشريف أبى نمى نفسه معارضًا قصيدة التلعفرى التى مطلعها: [من الكامل]

سَمَحَتْ بإرسالِ الدموعِ محاجرى ... ...

فقال طاب ثراه: [من الكامل]

نَامَ الخليُّ فَمَنْ لجفنى الساهرِ إذْ باتَ سلطانُ الغرامِ مُسَامِرِي
جَفَتِ المضاجعُ جانبيَّ كأنما شوكُ القتادِ على الفراشِ مباشِرِي
وتأجَّجَتْ نارُ الغرامِ وأضرمَتْ بين الجوانحِ فى مكنِّ سرائرِي
وشجيتُ من ألم الفراقِ وخانني صَبْرِى الوفىُّ على الخطوبِ وناصِرِي
أُفٍّ على الدنيا فما مِنْ معشرٍ إلا وأودَتْهُمْ بخطبٍ قاهرِ
فى كلِّ يومٍ للنوائبِ غارةٌ أيدى النوائبِ هنَّ أغدرُ غادرِ
خلَتِ المنازلُ من أُهَيْلِ مودتي وهُمُ هُمُ فى الحيِّ قرة ناظري
أهلُ الصفا بين الصفا وطويلع ملقى جياد وفيض أشعب عامرِ
يا أهل وِدِّى لو ترونى بعدكُمْ كغريبِ قومٍ بين أهلى حائرِ
كانوا فبانوا ثُمَّ بان تجلُّدي ومصيرهم لا بُدَّ منه لصائِرِ
من بَعْد جيرانِ الصفا أهلِ الوفا سمحَتْ بإرسالِ الدموعِ محاجري

وقال العلامة باكثير أيضًا يمدحه، ويمدح أولاده الشريف حسن، والسيد ثقبة، والسيد بركات، والسيد راجح، والسيد بشير - رحمهم الله أجمعين -: [من الخفيف]

أعيونٌ رَنَوْا بها أم صفاحُ؟! وقدودٌ ماسُوا بها أم رماحُ؟!
وثغورٌ تلألأَتْ أم بروقٌ؟! وثنايا تبسَّمَتْ أم أقاحُ؟!

وبدورٌ تضيء في جنحِ ليلٍ أم شعورٌ فيها وجوهٌ صباحُ؟!
وعيونٌ جفونهن سيوفٌ أم لحاظٌ أحداقها أقداحُ؟!
وظباءٌ حلُّوا الغضا وأشبوا نارَهُ في جوانحي أم ملاحُ؟!
ومهاةٌ منهنَّ قد فوقَتْ لي سهم قَوْسٍ من حاجبٍ أم رداحُ؟!
غادةٌ عذبةُ المراشفِ لميا في لماها شهْدٌ مذابٌ وراحُ
لي ببردِ الرضابِ منها اغتباقٌ وبظلمِ الشنيب منها اصطباحُ
صاح مالي ألا أبلّ أجاجًا مِنْ دموعي والثغرُ عذبٌ قراحُ
طفلةٌ لحظها يتيحُ المنايا حينَ ترنو به عيونٌ وقاحُ
مدنفات تكسو المحبَّ سقامًا فاتكات فهنَّ كسرى صحاحُ
في ردينيِّ قدها ولحاظِيْ مقلتَيْهَا السيوفُ والأرماحُ
حكَتِ الغصنَ والمتيَّمُ منها شابه الورْق شجوه والنواحُ
وهو في حبها الأمينُ ولكنْ خانه فيه طرفُهَا السفاحُ
وأبو طالبِ الوصال فؤادي قد كواه مِنْ هجرها الضَّحْضَاحُ
إن تفضْ مقلتي دمًا لا عجيبٌ فحشايَ لقَدْ ملاه الجراحُ
عاذلي اقْصِرْ فلنْ يضرَّكَ غيٌّ كان منِّي ولم يفدْكَ صلاحُ
لذَّ فيها ذُلِّي فعندي سواءٌ في هواها الإفسادُ والإصلاحُ
إن تثنَّتْ تريكَ غصنًا وحقفًا ومساءً من تحته الإصباحُ
ردفُهَا قال للكثيبِ تأخَّرْ لستَ وَزْني فلي عليكَ الرجاحُ
مسندات لنا اعتدالاً وجورًا عن قنا قَدِّها العوالي الصحاحُ
قد قَسَتْ مهجةً ورقَّتْ خدودًا كاد من لحظنا عليها انجراحُ
يعتريها الحيا فتخجَلُ لكنْ جَفْنها يعتريه منه انفتاحُ
يا لها مِنْ عقيلةٍ دون مرمًى خدرِهَا كم غدَتْ وما تستباحُ
طلبَتْ زورتي اختفاءً لئلاَّ يعتريها من الوشاةِ افتضاحُ
كيفَ تُخْفي زيارتي وهي شمْسٌ والليالي ضياؤهَا فضاحُ
من محيًا أبي نميٍّ أضاءَتْ فهو بدْرٌ وكوكبٌ وصباحُ
ملكٌ جوهرُ الرسالةِ تاجٌ لعلاه وللفخارِ وِشاحُ

قد تحلَّى به وَزَانَ حُلاَهُ … إتزارٌ بفخره واتشاحُ
وَبَنى فى مفارقِ الملكِ دارًا … طابَ فيها غدوهُ والرواحُ
حلَّ فيها مراتبًا ما لفكْرٍ … لتمنى إدراكهنَّ طماحُ
خدمته العلياءُ طوعًا وأمسَتْ … ولها عن سوى علاهُ جماحُ
وله همةٌ يضيقُ بها الدَّهـ … رُ وفى صَدْرِهِ لديها انفساحُ
لعلاها تعنو الدراريْ ولكنْ … حاسداها العوَّاءُ والنَّطَّاحُ
راحتاه للصّيدِ منها ارتياعٌ … مثل ما للعفاةِ منها امتياحُ
إن يجد فالمَهَامِهُ الفيحُ بحرٌ … أو يجلْ فالشمامُ بيدٌ فِسَاحُ
حين يحمى الوطيس والبيضُ تهمي … بالمنايا وتسلبُ الأرواحُ
وسعيرُ الوغى يشبُّ جلادًا … لزنادِ المنونِ منه اقتداحُ
وأسودُ الشرا يطافُ عليهمْ … كاس حَينٍ مزاجُهَا الأتراحُ
ووجوه الكماةِ والشوس فيه … قد عراها مِنَ النزالِ كلاحُ
يرد الحرب وهو طَلْقُ المحيا … ثابتُ الجأشِ بَاسِمٌ مِفْرَاحُ
ويبيدُ الجيوش والأسد فيه … زمرٌ دون عدهنَّ البطاحُ
وإذا ما وهَى من الدهرِ خطبٌ … أو مُلِمٌّ من صَرْفِهِ فَدَّاحُ
لم يزلْ دجْنه ويجلوه إلا … رأيه فهو ثاقبٌ قداحُ
ما ذوو الشور فيه إلا ظباه … وقناه فَهُمْ له نصاحُ
ألمعيٌّ يكادُ بالحدسِ يدري … ما به قد جَرَى القضاءُ المتاحُ
طوَّقَ الخَلْقَ بالعطا فثناه … لا لسانٌ إلا به صَدَّاحُ
ونداه فى الخافِقَيْنِ يلبي … صوت مَنْ شفَّه عَنا واجتياحُ
آيةٌ موسويَّةٌ فى يدَيْهِ … للمعالى فيها هُدًى واتضاحُ
فهى طورًا فيها زلالٌ هنيٌ … وَهْىَ طورًا فيها سِمَامٌ صُراحُ
ذاتُ ظهرٍ للاستلامِ وبطنٍ … فيه للرزق والغنَى مفتاحُ
وسجاياه للزمانِ طرازٌ … نَضَّدَتْهُ بدرِّهَا المداحُ
علمتهم مديحه حينَ ضَلَّتْ … فى علاه الأفكارُ والأمداحُ
يا مليكًا علَتْ حلاه فجلَّتْ … عن قريضٍ فيه ثنا وامتداحُ

أظهر الملك من بنيك ملوكٌ ... هم مصابيحُ أُفقِهِ حيثُ لاحوا
بل تراهم ضراغمًا أبرزتْهُمْ ... غابة المُلْكِ إذْ ألَمَّ الكفاحُ
فإذا ما انتضيتُمُ لضرابٍ ... أثخنوه فَهُمْ لديك صفاحُ
وإذا ما فوَّقْتَهُمْ فسهامٌ ... صائباتٌ لمَّا تطيشُ القداحُ
وإذا ما هززتَهُمْ لطعانٍ ... جوَّدوه فهم يقينًا رماحُ
سِيمَا مَنْ غزا وجاءَ بنصْرٍ ... بالهنا فيه عمَّتِ الأفراحُ
حسنٌ من به الممالك تزهو ... ولكلٍّ منها إليه ارتياحُ
فبه روضُهُنَّ يثمرُ عدلاً ... ودُجَى الظلمِ مِنْ سماها يزاحُ
ملكٌ إن غزا ملا الأرضَ جيشًا ... وإذا ما سخا ملاها السماحُ
زاد تشريف مَكَّةٍ حين أمسَى ... وَهْوَ فيها مليكُهَا الجحجاحُ
وكذا طيبةُ الشريفةُ زادَتْ ... منه طيبًا فعرفها فَيَّاحُ
رُبَّ عزمٍ يصيرُ الماء جمرًا ... يستعيرُ المضاءَ منه السلاحُ
فالقلاعُ المحصناتُ الرواسي ... ما لها غَيْرَ عزمه فتاحُ
بالخميس الذى تميدُ الأراضي ... منه يفنيه عضبُهُ البضاحُ
فإذا العادياتُ هيَّجْنَ نقعًا ... وملا الجحفَلْينِ منه الصياحُ
وأدارَتْ يد الهياجِ كئوسًا ... ليس فيها إلا المنية راحُ
فتراه ثَبْتَ الجنانِ قويًا ... جأشه معلمًا عراه انشراحُ
وترى القَوْمَ منه إما قتيلٌ ... أو صريعٌ قد أثخنته الجراحُ
مذ أحسَّتْ بغزوه القومُ آبوا ... ولكلٍّ مِنْ رعبه ذبَّاحُ
واستذلُّوا وأذعنوا وأطاعوا ... ورأَوْا أن قتلهم يستباحُ
وأَتَوْا خيفةً وإلاَّ لكانوا ... جيفةً ما ترَى لهم أشباحُ
ولأمسَتْ حصونُهُمْ دارساتٍ ... دِمَنًا قد سَفَتْ عليها الرياحُ
ولأضحَوْا قوتًا لكلِّ الضواري ... للذى منسر له أو جناحُ
ولسالَتْ منها الدماءُ بحورًا ... لمذاكيه كان فيها سباحُ
لكنِ العفوُ منه مذ كان طَبْعٌ ... وله الصفحُ شرعةٌ وصلاحُ
فعفا رافعًا يد القتْلِ عنهُمْ ... وله الخيلُ والظبا واللقاحُ

فهنيئًا له بنصرٍ وفتحٍ ما له فى الحروبِ عنه براحُ
لم يزلْ مالكًا له أنتَ ظهرٌ وله صنوه الكريمُ جناحُ
ذو المعالى أبو شهاب المرجَّى مَنْ لدى جودهِ الغيوثُ شحاحُ
ثقبةُ الملك والندا مِنْ علاه لا يدانَى وماله مستباحُ
لم يزلْ فى معارجِ المَجْدِ يرقَى ما لمجدِ عن راحَتْيهِ براحُ
روضةُ المكرماتِ منه رباها مزهر وَهْوَ قبله صَوَّاحُ
رَأسُ أهلِ العطا فكعبُ الأيادي دونه ما عَلَىَّ فى ذا جناحُ
أَقْسَمَ الجودُ أن تبرَّ نداه لم يزلْ وهو هاطلٌ سحاحُ
قد روى عنه نافعٌ ويسارٌ وعطاءٌ وواصلٌ ورباحُ
ثَبْتَهُمْ عند ما تُثِيرُ المذاكي عثيرًا ممكنًا عليه المراحُ
والمنايا مِنَ الأسنةِ ترنو ولها ضيغَمُ الوغَى لمَّاحُ
يلجُ المعركَ المؤجَّج طعنًا من لظى الموتِ جمره لفاحُ
ويبيدُ الجيوشَ منه بعضبٍ فوق غربيه للنفوسِ انسياحُ
لم يضارعْهُ فى معالِيهِ إلا غرةُ العترةِ الصميمُ الصراحُ
بركاتٌ إنسانُ عَيْنِ المعالي مِنْ لقاه للآملين نجاحُ
قد تفَيَّا روضَىْ معالٍ ومجدٍ وأظلَّتْهُ منهما أدواحُ
كفه للعفاةِ بحرٌ خضمٌ ليس فيه ولَيْسَ منه انتزاحُ
ضيغَمٌ عندما المهنَّدُ يغدو وهو للسفْكِ سائلٌ ملحاحُ
وصليلُ السيوفِ والسمْرِ تشدو فى مغارٍ قد طال منه الصياحُ
يتلقَّى الهيجا بغرَّةِ وجهٍ زاد منها وقْتَ الهياجِ اتضاحُ
ويخوضُ الوغَى فترضى المذاكي عنه والمرهفاتُ والأرماحُ
والهزبرانِ راجحٌ وبشيرٌ فى محيَّاهما الهدَى والفلاحُ
فهما ضيغما نزالٍ وبَحْرَا كرم فيهما السطا والسماحُ
من شذا المصطفَى وريحانَتَيْهِ طِيبُ ريا ثناهما النفاحُ
فابْقَ والملك بدره فى علاكُمْ كامل النور ما أضاء الصباحُ
وهناء ثانٍ بصومِكَ مَعْ ما كان فيه فَهْوَ الحلالُ المباحُ

فعلى أجزَلِ الأجورِ صيامٌ وعلى أجملِ السرورِ نكاحُ
ولعلياك عَبْدُ بابك يُنْهِي خبرًا ذكره لديكُمْ يباحُ
لرجائى على معاليكَ وعدٌ عند ذكراه مطمعى يرتاحُ
لك فَهْمٌ وليس يطلبُ منى يا إياسَ الذكا له إيضاحُ
فازقَ فَرْقَ العلا وهاكَ قريضًا سبكَتْ تبره القوافى الفصاحُ
فأعزهُ طرفًا ليشرفَ منه لفظُ مبناه والمعانِى الصحاحُ
بشذا المسكِ من ذكِيِّ صلاتي طابَ منه خَتْمٌ وطابَ افتتاحُ

فأما الحسن بن أبى نمى بن بركات فكان خليفة الحرمين، شريف الطرفين، أمه الشريفة الحسيبة، السيدة النسيبة فاطمة بنت بساط.

حملت به أمه عام وفاة جده بركات بن محمد فى عام أحد وثلاثين وتسعمائة.

قال الإمام عبد القادر الطبرى فى «نشآت السلافة »: ولقد أخبرنى الشريف حسن رحمه الله تعالى شفاهًا أن والدته حضرت حنوط جده الشريف بركات وهى حامل به فأثر فيها عرف الكافور، وما زالت تلقى الدم حتى خشى على ما فى جوفها من الحمل، إلى أن كان شهر ربيع من عام اثنين وثلاثين وتسعمائة، أخذها ما يأخذ النساء من الطلق، فولدته بعد اليأس، وذهب بظهوره عن الناس كل بأس.

فلا شك أنه كان محفوظًا بالعناية الصمدانية حيث سبق فى علم الله تعالى جعله خليفة فى الأرض، مالك الطول منها والعرض.

مصلحة منه للعباد عامة، ونعمة عظيمة تامة، ينشر على العالم لواء عدله، ويسبغ عليهم جلباب كرمه وفضله، ويحيى مآثر جده المصطفى، ويذكر بأقضيته ما اندرس من أخبار عدول الخلفا، ويظهر سر حكمته، وخفى قدرته، فى افتتاح هذا الدين الأقوم، بمحمد ﷺ، وختمه بأهل بيته المخصوصين من بين الناس، بتولى الله تعالى تطهيرهم من الأرجاس.

وما زال - رحمه الله تعالى - صاعدًا فى نيرى المعالى، صادعًا قلوب أعدائه بالصعدات العوالى، لائحة عليه مخايل السعادة وهو فى مهوده، طالعة من أفق السيادة كواكب مجده وسعوده.

متلمحًا فيه خصال الغر الصيد، مترقبًا منه أن يكون فى البسالة صاد الصناديد.

فما برح وهو فى حجر والده مؤديًا له الحقوق، رافعًا أخمصه الشريفة على هام العيوق، باذلا له الطاعة، ساعيا فى مرضاته بحسب الاستطاعة، ممتثلا ما يصدر من الأوامر المطاعة، إلى أن لبس أخوه أحمد خلعة الإيالة والإمارة.

فلبس سيدنا الخلعة الثانية لتكون على ولاية العهد بعد أخيه أمارة.

فاستمر كذلك حتى توفى أخوه الشريف أحمد، فرفلت إليه الخلافة فى جلبابها الضافى، وأورده الملك الباذخ موارد منهلها الصافى، بسعى أبيه المرحوم الشريف أبى نمى فى عام ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فلبس الخلعة الأولى، فكان بها أولى.

فلم يزل مشاركًا لوالده أبى نمى فى الأمر يدعى له معه على رءوس المنابر، والتوقيعات السلطانية العثمانية إنما ترد باسمه، والتشاريف الخنكارية إنما تصل برسمه.

ولما كان يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وتسعمائة ورد الخبر إلى مكة المشرفة بوفاة مولانا السلطان سليمان خان، وكان الواصل به سمندر جاشنكير السلطان سليم والده أرسل إلى بلاد اليمن لإعلام مراد باشا صاحب تعز والتهائم وإلى رضوان باشا صاحب صنعا والجبال، وكان لليمن إذ ذاك باشتان.

وهذا الانشقاق هو سبب العصيان والشقاق بأرض اليمن بعد أن كان لا يحكمها إلا باشا واحد من حين فتحها، ولكن كذا قدر.

فوصل سمندر المذكور، واجتمع بالأمير الدفتردار إبراهيم المأمور بعمارة عين عرفة، فأخبر بموت مولانا السلطان، فطلب إبراهيم الأمير قاسم بك نائب جدة، وأمين عمارة المدارس السلطانية السليمانية، واتفقا على الإرسال للقائد محمد بن عقبة حاكم مولانا الشريف حسن بمكة، ليخبروه بذلك، فأرسلا إليه فوصل فأخبراه، فأرسل القائد من وقته مورقا إلى مولانا الشريف حسن، وكان بالخلصية، وأرسل الأغا محمد بن يونس باش الترك عسكر مولانا الشريف حسن مورقًا آخر، فوصل المورقان إلى الخلصية يوم الجمعة، فركب مولانا الشريف حسن، وتوجه إلى مكة، وكان الأمير إبراهيم والأمير قاسم أرسلا مورقا إلى القاضى الحسين المالكى وكان بجدة، فركب ووصل إلى مكة يوم الجمعة، واتفقت الآراء أن يخطب

الخطيب باسم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان خان، وكانت نوبة السيد أبى حامد النجارى، فأمروه أن يذكر فى الخطبة هذه الألقاب:

« اللهم وجدد نصرة الإسلام والمسلمين، وشيد قوائم أركان الدين المتين، ببقاء من جددت به أمر الخلافة العظمى، وشرفت بمقدمه تخت السلطنة والملك الأسمى، واخترته خير خلف عن خير سلف، وعوضت به خير عوض عمن درج إلى رحمة الله تعالى وسلف، وآتيته ما لم تؤت كثيرًا من العالمين، ومكنته من سرير السلطنة والخلافة أعظم تمكين، وأورثته الخلافة الكبرى كابرًا عن كابر، وملكته الإمامة العظمى والسلطان الباهر، وأنرت ببراهينه من مشكاة السعادة سراجًا وهاجًا، وفتحت به للرعية أبواب الأمن والإيمان فطفق الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

السلطان الأعظم، والخاقان الأكبر الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم، مستخدم أرباب السيف والقلم، ملك البرين والبحرين، سلطان المشرقين والمغربين، خاقان الخافقين والجديدين، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان، السلطان سليم خان، ابن عبدك وفقيرك المندرج إلى رحمتك بقضائك وتقديرك، سلطان سلاطين الزمان، خاقان خواقين الدوران، الفائق بعدله عدل كسرى أنوشروان، المنقاد إلى شرعك الشريف، الممتثل لأوامرك النافذة ودينك الحق المنيف، الواقف عند مراد الله فلا يتعداه، العامل فى جميع أموره بتقوى الله، المراعى العدل والإحسان فيمن استرعاه، المجاهد المرابط فى سبيل الله، الغازى الذى استوعب عمره فى الجهاد كآبائه الغر الغزاة، الذى خرج من بيته مهاجرًا، فأدركه الأجل المحتوم، واصطفاه الله إليه وتوفاه.

الداخل فى زمرة من أنزل الله فى شأنهم بثوابه لهم ورضاه ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] المرحوم برحمة الله الملك الرحمن، السلطان سليمان خان، أنزل الله عليه شآبيب الرحمة والغفران، وقدس روحه الشريفة وحفه بالروح والريحان، وجعل الملك كلمة باقية فى نجله السعيد، وعقبه المديد إلى يوم القيامة، وأعد له ولآبائه الكرام ما يليق بكرمه من أنواع العز والكرامة، يا رب العالمين».

ثم وصل مولانا الشريف حسن فى يوم الإثنين هو وأولاده وبعض إخوته

والأشراف ذوى محمد، وسلم الناس عليه، ثم أمر بالنداء على المآذن بالصلاة جامعة فى غد على السلطان سليمان، فلما كان صبح يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى حضر مولانا الشريف حسن ومعه السادة الأشراف، وجميع الفقهاء الأعيان، وامتلأ المسجد بالناس، وجلس الشريف حسن بمصلاه إلى أن طلعت الشمس، فوصل إليه الأمير إبراهيم الدفتردار، والأمير قاسم نائب جدة وسمندر جاشنكير فقام لهم، وجلسوا كلهم عن يمينه، ثم حضر الأفندى وجلس عن يمين الشريف فوق الأميرين والجاشنكير، وكان على يسار الشريف أخوه مولانا السيد بشير وتحته القاضى الحسين المالكى، فبعد ارتفاع الشمس قدر رمح، قاموا وتوجهوا إلى الكعبة الشريفة، ووقفوا عند الباب الشريف، فأشار مولانا الشريف حسن إلى مولانا القاضى الحسين أن يتقدم لصلاة الغائب، ونادى الريس من أعلى زمزم بهذه الخطبة وهى الصلاة على الميت الغائب العبد الفقير إلى الله، المجاهد فى سبيل الله، المرابط لإعلاء كلمة الله، الذى خرج من بيته مهاجرًا إلى الله، المستوعب جميع عمره فى قتال أعداء الله، القائم بنفسه وماله وجنوده لنصرة دين الله، الواقف عند مراد ربه فلا يتعداه، المراعى للعدل والإحسان فيمن ولى عليه واسترعاه، المعظم لشعائر بلد الله الحرام، المؤيد لآل النبى عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

المتخذ ودهم ذخيرة عند الله تعالى فى العقبى، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] القامع لأعداء بيت النبوة والرسالة، والمفيض على الحرمين الشريفين مكارمه وأفضاله، السلطان الأعظم سليمان خان، أنزل الله على شآبيب الرحمة والغفران، وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان، وحف تربته الشريفة بالروح والريحان.

ثم بعد الفراغ من الصلاة توجهوا أجمعين إلى مصلى الشريف عند باب الحزورة فقسمت الربعات، ثم دعا لمولانا السلطان سليمان، وأهدى ثواب ذلك إليه، ثم دعا لمولانا السلطان سليم، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، ثم ختموا يوم الخميس منتصف الشهر المذكور.

وكان خروج مولانا السلطان سليمان لهذه الغزوة التى توفى فيها حادى عشرى ذى القعدة الحرام من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله تعالى.

واستمر مولانا الشريف حسن إلى أن انتقل والده الشريف أبو نمى إلى رحمة الله تعالى فى أول عام اثنين وتسعين وتسعمائة، فاستقل بالملك وأعبائه، وشد أزره بالتدبير من سائر جهاته وأنحائه، واستخدم الحزم فى شدائد الأمور الشاسعة، وسلك فى محجته الطريق الواضحة الواسعة، فصير ولاية الحرمين خلافة، ومهد القواعد السلطانية والقوانين الحسنية بدون مخافة، وجلس على سرير الملك جلوس متمكن، وبذل الهمة فى إصلاح الرعايا بكل وجه ممكن، واستصحب الإقدام فى صعائب الأمور، وثبت الأقدام فى المواقف التى تهب له بالقبول ولأعدائه بالدبور.

وظهر به شأن أهل بيت النبوة من الشجاعة والقوة.

وأذكر بما أبداه من شريف المناقب، أحوال جده أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

وله الآراء السديدة والغزوات العديدة، فى المواطن القريبة والبعيدة، يساعده فيها السيف والقدر، ويخدمه الفتح والظفر، طالما كشف بغزواته كل غمة، وأوضح من الخطب كل واقعة مدلهمة، ووطئ بحوافر خيله سباسب تضل فيها الخطا، وأودية لا يهتدى إليها القطا.

كم فتح بعزمه حصنا صعب المرقى، واقتحم بخيله ذروة لا يصل إليها نظر الزرقا، يتصرف فى السعد كأنه عبد بابه، ويتأمر فى الظفر كأنه لازم ركابه.

وله السرايا الكثيرة، وهى عن التفصيل غنية شهيرة. لم يؤمر فيها إلا أولاده النجباء، وقل ما أمر غيرهم من الأقرباء.

وكل سراياه لا تعود إلا بالنصرة التامة، وتنبىء فى سائر الآفاق عن البشائر العامة. وقد بعث جماعة من أولاده الكرام.

وممن بعثه منهم فأبان عن الفعل الحسن، السيد الحسين بن الحسن.

ومنهم الشريف أبو طالب المصاحب للنصرة، فقد أرسله وعاد بالظفر غير ما مرة.

ومنهم السيد مسعود، فحصل بإرساله السعود.

ومنهم السيد عقيل، فنال فى مبعثه غاية التأميل.

ومنهم السيد عبد المطلب، فأصبح بتجهيزه للسؤدد مجتلب.

ومنهم الشريف عبد الله بن الحسن، فكان بعزمه إصلاح جهات اليمن.
وجميع غزواته وسراياه بالنصر مقرونة، وطوالع طلائعه بالحروب ميمونة.
ما اتفق له فى شيء منها انكسار، ولا ذمت له فى عجاج معاركها إذا ثار آثار.
فأما العلماء، فنشروا على رءوسهم علم المفاخر، وتوجوا لديه بالوقار، ولحق أولهم الآخر.

فخدموا خزائنه المعمورة بالتآليف الحسنة، وأتوا جنابه بالتصانيف اللطيفة فى كل سنة.

وأما الشعراء فانتظموا فى زمانه انتظام درارى الإكليل، ولبسوا فى أيامه ثوب كل فخر جميل.

وقصدوا جوده العميم من سائر الأقطار، ولو جمع جميع مدائحه لكانت أسفارًا كباراً.

ولو قال قائل: إنه يمدح فى كل عام بنحو الألف، لأنصف فى قوله وما جازف.
ولم يزل يتوالى عليهم بره، وما انفك متواترا عليهم لطفه وعطفه وبشره.
يجيز على التأليف بالألف الدينار والأكثر. وينصف الشخص على التصنيف بالمبالغة فى الثناء الأعطر.

وما برح يترقى فى مصاعد السعد، ويتخطى بأخمصه هامة المجد.
ناشرًا راية عدله على مفرق الليالى والأيام.
مقلدًا جواهر فضله جيد الأنام.

ولما كان سابع عشر محرم سنة واحدة بعد الألف، حضر مولانا السيد مسعود ابن الشريف حسن، وهو أكبر أولاده بعد السيد حسين بن الحسن نيابة عن أبيه الشريف حسن بالمسجد الحرام، وحضر أكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر مولانا السلطان محمد بن مراد بذلك ليعمل لها كسوة، فذرعت بالذراع الحديد المصرى فعملت وأرسلت.

وورد أمر شريف منه أيضًا أن يخمن ما يحتاج إليه فى ترخيم المطاف الشريف، فذرع المطاف الأسطى سفر المعمار والمعلم محمد البحيرى المهندس، فكان ذرعه مكسرًا بحساب الطرح ذراعًا فى ذراع ألفين وخمسمائة ذراع، وقالوا كل ذراع يحتاج

إلى أربعة دنانير يكون جملة ذلك عشرة آلاف دينار.

وكان ذلك التخمين فى تاسع عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين بعد الألف.

ثم الذى تحرر عليه القول أن المطاف أربعة آلاف ذراع صرف عليه عشرة آلاف دينار.

وفى هذه السنة توفى الشيخ ربيع بن السنباطى السالك على الطريقة الجميلة، والمالك لأزمة كل فضيلة، مدحه جماعة من الفضلاء ورثاه غير واحد من الأدباء، منهم صاحب الريحانة بأبيات خمسة آخرها بيت التاريخ وهو: [من الخفيف]

قد فقدنا فيه اصطبارًا فأرِّخْ كلُّ صبرٍ محرم فى ربيعِ

ورثاه مؤرخًا الشيخ حسن الشامى بأربعة أبيات آخرها التاريخ وهو: [من الكامل]

وإذا ذكَرْتَ ربيعَ أيامٍ مضَتْ أرِّخْ بشوالٍ فراقَ ربيعِ

وفى سنة ثلاث بعد الألف لست عشرة مضت من جمادى الأولى، توفى مولانا السلطان مراد بن سليم، ورثاه جماعة من الفضلاء، منهم الشهاب أحمد المرحومى المغربى فقال: [من الطويل]

تهايل مِنْ رُكْنِ الصلاحِ مشيد بموتِ شهنشاه الملوك مرادِ
فلم يُرَ فى تلك الممالكِ مالكٌ مُرَادُ الورَى من بعد فَقْدِ مُرَادِى

وفى سنة أربع توفى إمام الحرمين وشيخ المصرين، من كانت العلماء تكتب عنه ما يملى، مولانا شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملى، فاتح أقفال مشكلات العلوم، ومحيى ما اندرس منها من الآثار والرسوم، أستاذ الأستاذين، وواحد علماء الدين، علامة المحققين على الإطلاق، وفهامة المدققين بالاتفاق.

ولد سنة تسع عشرة وتسعمائة بمصر المحروسة. وله ترجمة طويلة جميلة.

وفيها توفى الشيخ على بن محمد بن على الشهير بابن غانم المقدسى الخزرجى، شمس العلوم والمعارف، بدر الفهوم واللطائف، قرة عين أصحاب أبى حنيفة، الراقى من معارج التحقيق أعالى الرتب المنيفة.

ترجمه الشيخ عبد الرءوف المناوى فقال: شيخ الوقت حالا وعلمًا، وتحقيقًا وفهمًا، وإمام المحققين حقيقة ورسما.

وفى سنة ست بعد الألف: تخلف مولانا الشريف حسن بجهة ركبة، وأرسل

أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة إلى أخيه السيد ثقبة بن أبى نمى يلتمس منه أن يلبس خلعته أكبر أولاده السيد مسعود بن حسن، فلما كان يوم العرضة خرجا إلى المختلع لبس السيد ثقبة خلعته وهى الثانية رتبة همز الفرس، وتقدم إليها فلبسها متقدمه، ثم قال للداودار: احفظ خلعة سيدك، فلم يلبث السيد مسعود أن توفى غيظًا للنفس الأبية والشيم الهاشمية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وبنيت على قبره قبة عظيمة باقية إلى الآن.

وفى سنة سبع بعد الألف: توفى العلامة خضر بن عطاء الله الموصلى.

قال فيه فى الريحانة: كعبة فضل مرتفعة المقام، تضمنت ألسن الرواة التزامه، فلله ذلك المتضمن والالتزام.

أقام بمكة مع بنى حسن مخضر الأكناف، وصنف باسم الشريف حسن كتابه « شرح شواهد الكشاف » .

قلت: رأيت بخط جدى العلامة جمال الدين العصامى ما نصه: أشرفنى المولى خضر بن عطاء الله على وصلٍ كتب له بأمر مولانا الشريف الحسن بن أبى نمى صورته:

الحمد لله. حسن بن أبى نمى:

يا أبا محمد ريحان بن عقبة الدويدار سلمك الله.

اعط العلامة المفيد الفهامة خضر أفندى ألف ذهب جديد نصف ذلك حفظًا لأصله خمسمائة ذهب، وهى جائزة كتابى الذى صنفه باسمى. الله الله.

كتبه صبيح بن مقبول بأمر سيدنا ومولانا الشريف أيده الله بتاريخ عشر جماد أول سنة، ١٠٠٣ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبخط مولانا الشريف بيده: الله الله يا ريحان فى نجاز ذلك بسرعة انتهى.

رحم الله الجميع ومن شعر خضر المذكور قوله: [من الطويل]

تبدَّلْ عنِ البرشِ المبلّدِ بالطِّلاَ فعالمُ أَهْلِ البرشِ غمْرٌ وجَاهِلُ
فما البرشُ إنْ فتشْتَ عن كنهِهِ سوَى دويهيةٌ تصفَرُّ منها الأناملُ

وفى سنة سبع بعد الألف طلب الشريف أبو طالب من أبيه الشريف حسن أن

يتخلف بالمبعوث ليلبس هو الخلعة، فخرج مع عمه السيد ثقبة إلى المختلع، فتقدم الشريف أبو طالب ولبس الخلعة الأولى خلعة والده متقدمًا على عمه، ثم لبس السيد ثقبة الخلعة الثانية، فوقع له ما وقع بسببه لابن أخيه، وأورد مورده الذى كرع فيه، فتوفى إلى رحمة الله تعالى حادى عشر صفر من السنة التى بعدها أعنى سنة ثمان بعد الألف.

ومولانا السيد ثقبة أكبر إخوان الشريف حسن.

كان مولده سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وكان رجلاً عاقلاً صبورًا، متحملاً كثير الملايمة والتودد إلى الناس.

وله فضيلة وشعر حسن ومفاكهة لطيفة.

وله من الأولاد ستة ذكور وابنة واحدة. وكان مولانا الشريف حسن يراعيه الرعاية التامة، وكان له محصول كبير جدًا من جهات عديدة، فلما مات قرر لكل واحد من أولاده فى كل شهر ألف أشرفى فضة غير المقررات السابقة وللبنت خمسمائة أشرفى، وقال لهم: إن والدى الشريف أبا نمى - رحمه الله تعالى - لما فرغ بالسلطنة اختار أن يكون مقرره فى كل شهر ألف أشرفى، وأنا أقمت لكل واحد منكم ألف أشرفى عوض الجهات التى كانت لوالدكم أعنى من المعشرات، وخراج الأراضى، فإن تلك لائقة بصاحب الأمر.

والله يلهمكم الصبر، ويعظم لكم الأجر.

وفيها توفى رئيس الأطباء داود بن عمر الأنطاكى المتوحد بأنواع الفضائل، والمنفرد بمعرفة علوم الأوائل.

شيخ العلوم الرياضية، سيما الفلسفية، وعلم الأبدان، القسيم لعلم الأديان؛ فإنه بلغ فيه الغاية التى لا تدرك، وانتهى إلى الغاية التى لا تكاد تملك.

له فضل ليس لأحد وراءه فَضْلَةٌ، وعلم لم يحز أحد فى عصره مثله.

يكاد لقوة حدسه يستشف الداء من وراء حجابه، ويناجيه بظاهر علاماته وأسبابه.

حكى أن الشريف حسن لما اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليجس نبضه، وقال له الشريف حسن: جس نبضى، فأخذ يده فقال: هذه اليد ليست يد الملك، فأعطاه الأخ الثانى يده، فقال كذلك، فأعطاه الشريف حسن يده، فحين

جسها قبلها، وأخبر كلا بما هو متلبس به.

وحكى أنه استدعاه لبعض نسائه فلما دخل قادته جارية، ولما خرجت به قال للشريف حسن: إن الجارية لما دخلت بى كانت بكرًا، ولما خرجت بى صارت ثيبًا، فسألهما الشريف، وأمنها فأخبرته أن فلانًا استفضها قهرًا فسأله فاعترف بذلك.

وحكى العلامة شيخنا الشيخ محمد البابلى أن داود الحكيم المذكور مر ببعض الحارات التى يسكنها الضعفاء والفقراء بمصر، فسمع صوت مولود حال ولادته، فقال: هذا صوت بكرى، فتفحصوا عن ذلك فوجدوه كما قال، وذلك أن بعض البكريين تزوج ببنت فقير خفية، ووافق حال ولادتها مرور المذكور.

وله ترجمة طويلة فى الريحانة وغيرها.

وفى يوم الخميس سادس عشرى جمادى الآخرة من سنة ثمان بعد الألف قبيل المغرب بقليل: أمر مولانا الشريف حسن الشيخ عبد الكريم بن محب الدين القطبى أن يكتب إلى الباب العالى بتوجيه الأمر إلى أكبر أولاده مولانا الشريف أبو طالب، فبعد أن كتب العرض أشار مولانا بتأخيره إلى ما بعد الموسم، ثم أرسل أوائل سنة تسع فأجيب إلى ذلك، ووصل الأمر الشريف السلطانى - أواخر السنة المذكورة - بأن يكون مولانا الشريف أبو طالب مشاركًا له، ودُعِيَ لهما على المنابر.

وفى يوم الإثنين سابع ذى الحجة الحرام منها أعنى سنة ثمان كانت عرضة المصرى، وأمير حاجه بيرى بك، فتوجه مولانا الشريف حسن إلى العرضة هو وأولاده، فلما وصل المختلع أشار أن يلبس خلعة المصرى مولانا الشريف أبو طالب، فلبسها وقبل يد والده.

وأن الخلعة الثانية التى كان يلبسها أخوه السيد ثقبة بن أبى نمى تلبس لثانى أولاده السيد عبد المطلب بن حسن فلبسها، ثم جاء الأمير المذكور إليهما فتحايوا تحية الإسلام، ثم توجه الأمير واستمروا موالينا واقفين إلى أن وصل الأمير طماس أمير الحاج الشامى، فلبس مولانا الشريف حسن الخلعة التى معه ودخلوا ثلاثتهم لابسين الخلع ولم يعهد قبل مثل ذلك، وسبب ذلك توافق أمير المصرى والشامى فى المنزل بالمختلع فى ذلك اليوم.

فألبس الشريف حسن ولديه خلعة المصرى وثانيتها، وأشار إلى أمير الشامى بأن

يتهيأ ليعرض له فى ذلك الوقت لضيق الزمان والاحتياج إلى العرضة لأمير اليمانى فى اليوم الثانى، وهذا تَدْبِيرٌ حَسَنٌ لأنه تَدْبِيرُ حَسَنٍ.

ثم فى اليوم الثانى، وهو الثامن من ذى الحجة: توجه موالينا الأشراف لاستقبال المحمل اليمانى، فلبس الشريف أبو طالب القفطان الأول، والسيد عبد المطلب القفطان الثانى، وأمير الحاج اليمانى الأمير فرحات الشهير باليازجى وهو من أقارب الوزير حسن باشا صاحب اليمن، فاستمر الشريف أبو طالب على ذلك إلى أن توجه والده الشريف حسن، وكان مقيما بالمحل المعروف بالبردان، فتوجه منه غازيا إلى جهة نجد فى ثامن ربيع الآخر سنة عشر وألف. والفريق مقيم بالمبعوث مشمولاً بنظر الشريف أبى طالب تحت نهيه وأمره، وأمر بضرب النوبة على بابه السعيد.

واستمر الشريف حسن ذاهبًا إلى أن وصل إلى محل يسمى « فاعية » فأقام به مدة من الزمان.

ولما كان يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة أصبح متوعكًا، إلى أن كانت ليلة الخميس ثالث الشهر المذكور انتقل إلى رحمة الله تعالى أثناء الليلة المذكورة، فأخفى موته عن الحريم والخدم والصغار والحشم إلى أن طلع الفجر، فأظهر ذلك وحمل فى تختروانه الذى كان يركبه فى حياته على البغال، وقد حصلت علامات ذلك من عصر يوم الأربعاء حتى إن أبناءه الذين كانوا معه بذلك المحل أعدوا البغال والبراذين فى المنازل صوب مكة؛ لغلبة ظنهم بوقوع الوفاة، وبعد المسافة عن مكة لتكون كخيل البريد المسماة فى عرف الأروام ولاقا، وكان ذلك رأيًا حسنًا.

فلما توفى جدوا به فى المسير فساروا يوم الخميس وليلة الجمعة ويومها، ووصلوا به إلى مكة فى أوائل النصف الثانى من ليلة السبت، ولولا مفارقتهم الطريق بموجب الظلام والمطر والغيم، وتعويق السيل لهم فى بعض الأماكن - لأمكنهم دخول يوم الجمعة، مع أن المسافة تزيد على عشرة أيام، وما كان هذا التيسير إلا كرامة للمرحوم، لسرعة وصوله إلى البلد الحرام، وذهب الخبر بوفاته من حينها إلى الشريف أبى طالب بجهة المبعوث، فبمجرد وصول الخبر إليه قصد مكة، وخلف السيد عبد المطلب لحفظ المراح ومن فيه فدخلها ليلة السبت فى أول الثلث الثانى

قبل دخول جنازة والده، وبمجرد وصول الجنازة شرع فى التغسيل والتكفين، وصلى عليه بالمسجد الحرام قبل الفجر، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة عظيمة باقية إلى الآن، رحمه الله تعالى رحمة جمَّة، ووالى عليه صيب الرضوان والرحمة.

مات وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته مشاركا لأبيه أبى نمى، وولده أبى طالب، ومستقلا نحو خمسين سنة.

وفيها توفى السيد عبد المطلب بن حسن، كان على غاية من الكمال، ومن مشاهير الأبطال، وكان يلبس الخلعة الثانية فى حياة أبيه، وكان والده يعتمد عليه فى الأمور العظام، ويفتخر به فى كل محفل ومقام - رحمه الله تعالى.

وفيها توفى القاضى على بن جار الله الحنفى المكى القرشى.

انتفع به جماعة: منهم شيخ الإسلام عبد الرحمن، وأخوه القاضى أحمد ابنا عيسى المرشدى، والإمام عبد القادر بن محمد الطبرى وغيرهم.

له تصانيف عديدة مفيدة، منها: حاشية على التوضيح، وحاشية على شرح إيساغوجى لشيخ الإسلام زكريا، وتذكرة مفيدة، وفتاوى لكنها غير مجموعة، وديوان شعر منه قوله: [من السريع]

قُلْتُ لشهْرِ الصومِ لما دنا مودِّعًا منِّى وداعَ الصديقْ
سَلِّمْ على الموسمِ باللهِ لي وقُلْ له أقبِلْ فهذا الطريقْ

قلت: ما ألطف قوله أقبل... إلخ، كأنه يشير إلى أنه كعقبة فى الطريق كانت فزالت.

وفيها توفى الملا صفى الدين بن محمد الكيلانى، المكى الشافعى، الطبيب الألمعى، الأريب اللوذعى، أفلاطون زمانه.

شرح خمرية سيدى عمر بن الفارض شرحًا مفيدًا جعله باسم مولانا الشريف حسن، وأجازه عليه إجازات عظيمة.

يحكى عنه غرائب، منها: أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئًا نفخه فى أنف الطريح فجلس من حينه، وعاش مدة بعد ذلك، فسئل عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة فعلمت أنه حى.

ومنها: أن بعض التجار كان يطعن فى معرفته، فأرسل إليه بعض الفقراء بغصن

من نبات له رائحة طيبة، فلما شمه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه، فاضطر إلى صاحب الترجمة، واستعطفه فأعطاه سفوفًا من ذلك النبات بعينه فعوفى مما به.

ومنها: أن بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة، فأمر صفى الدين المذكور أن تجعل له كوفية من عنبر، ففعلت فزالت العلة، ثم أصابت تلك العلة بعينها بعض الرعية فعمل له كوفية من ضفع البقر فعوفى، فقيل له فى ذلك، فقال: نعم العلة واحدة، لكن ولد الشريف نشأ فى الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضفع لزادت عليه، والآخر بعكسه، فداوينا كلا بما يناسبه.

وكان يأمر من أصابه مرض بالخروج من مكة، ولو إلى المنحنى؛ لأن هواء مكة فى غاية الاعتدال لكن رائحة البالوعات تفسده، ولهذا بنى له هناك بيتًا يسكنه من به مرض رحمه الله تعالى.

وقد رزق مولانا الشريف حسن من الأولاد نحو خمسة وعشرين ذكرًا، منهم: سالم وعلى وأبو القاسم وحسين ومسعود وباز وأبو طالب وعقيل وعبد المطلب وعبد الله وعبد الكريم وعبد المحسن وعدنان وإدريس وفهد وشنبر وعبد المنعم والمرتضى وهزاع وعبد العزيز وعبيد الله وجود الله وبركات وقايتباى ومحمد الحارث وآدم، ومن الإناث نحو اثنتين وعشرين: شمسية وروضة وأرينب وصمدة وبلخشة وياقوتة وفاطمة وعزيزية وزين الحبوش وريمة وجربوعة وزين الشرف وسلامة وكثيرة وفاطمة أيضًا وعزيزية أيضًا ومنى ومزنة وحريملة وهيفاء وراية وعزا وغيرهن. آخرهن موتًا ياقوتة.

ومات منهم جملة من الذكور والإناث فى حياته.

وورثه سبعة عشر ذكرًا وأربع عشرة أنثى.

ووزع مخلفه بين أولاده ما عدا السلاح والخيل والعبيد فعادتهم أنها لصاحب الأمر بعده.

ذكر ما منحه الله من الفراسة المقتبسة من الحضرة النبوية، والخلافة العلوية.

فمن ذلك: أنه سرقت الفرضة السلطانية بجدة المحمية، وضاع منها قماش له صورة وأموال كثيرة، ولم يكسر بابها ولا نقب جدارها، ولا أثر يحال عليه فى معرفة

المطلوب والطالب، بل حبل مسدول من بعض الجوانب، فلما عرض على حضرته الشريفة الكريمة هذه القصة العظيمة طلب الحبل المذكور ثم شمه ثم قال: هذا حبل عطار، ثم دفعه إلى ثقة من خدامه، وأمره أن يدور به على العطارين، فعرفه بعضهم، وقال: هذا حبل كان عندى اشتراه منى فلان، ثم نقله من رجل إلى رجل إلى أن وصل بشخص من جماعة أمين جدة المعمورة، ثم وجدت السرقة بعينها فى المحل الذى ظنها فيه.

ومنها: أن رجلاً من التجار سرق له مال عظيم بمحل معين، فلما رفع قصته إلى مولانا الشريف حسن قال له: هل وجدت فى محل السرقة شيئًا من آثار العرب؟ فقال وجدت هذه العصا، فنظر إليها الشريف فوجد بها علامة، فقال: هذه العصا عليها علامة الطائفة الفلانية، فاتفق بسعده وبركة جده حضور رجل من أعيان هذه الطائفة وبيده عصا عليها نظير العلامة المذكورة فعرفه مولانا الشريف حسن بالحال، وألزمه بتحصيل المرام، فصدق الله فراسة مولانا المشار إليه ورجع المال لصاحبه.

ومنها: أن رجلاً تاجرًا عطارًا مغربيًا بمكة المشرفة هرب له عبد، ثم وجده فطلب العبد البيع، فأجابه لذلك سيده، فاشتراه رجل بمال عظيم ثم أعتقه، فبعد مدة فقد التاجر مالاً كثيرًا من دكانه وحاصله، فرفع قصته إلى مولانا الشريف حسن، فأمره أن يخفى أمره ويترك ذكره. ثم سأل عن مشترى العبد المذكور هل هو من أهل المال الكثير حتى يشترى مثل هذا العبد بماله ويعتقه، وهل سبق له عتق قبل ذلك؟ فأجيب بأنه لم يقع منه عتق، وليس له مال بل هو فقير يصرف الفلوس، وظهر الآن له نوع يسار، فطلب الشريف العبد على غفلة ثم خاطبه بغير واسطة، وعرض له بأنه بلغنى أمانتك، وأنك نصحت فى خدمة مولاك، وأنه قصر فى رعايتك فطلبت البيع، وقد أصبت فيما فعلته.

وعرض عليه أن يجعله مقدمًا عنده، ففرح العبد لذلك، ثم تغافل عنه مدة وطلبه ثانيًا وعرض له ببخل سيده، وأنه يستحق كل ما تفعل فيه ثم قال له: بلغنى أنك جمعت من مراجلك ثمنك، وأعطيته لفلان يعنى المشترى، فاشتراك به ونعم ما فعلت، فصدق العبد جميع ما قال له مولانا، فأمر بحبسه بلطف وطلب المشترى، ثم قال له: مرادى أستخدم عبد التاجر المغربى الذى أعتقته.

فأجاب بشكر العبد والثناء عليه وأنه يليق بذلك، ولم يزل يتلطف به حتى أقر بما أقر به العبد، فأمر بحبسهما معًا ثم ضربهما ضربًا شديدًا حتى أحضر جميع ما فقده التاجر إلا قليلاً، ثم أمر بصلب العبد والمشترى بعد التعزير والنكال الشديد فصلبا، فتعجب الخاص والعام من هذه الفراسة المسطورة.

ومنها: أن رجلين مصرى ويمنى تنازعا فى جارية ادعى كل منهما ملكها من غير إقامة حجة شرعية، وتحير فى أمرهما سائر الحكام من أهل الشرع والعرف، فرفعت القصة إليه، فلما سمع دعوى كل منهما وعدهما بالنظر فى أمرهما فى مجلس ثان، ثم اختلى باليمنى وسأله عن اسم الحب الحنطة فقال هو البُرّ، ثم اختلى بالمصرى، وسأله عما ذكر فقال هو القمح، ثم سأل الجارية عن اسم الحب المرة بعد المرة فقال: أم بر، فلما نطقت باللغة اليمنية قال لها والقمح ما هو؟ قالت: لا أعرفه، فلما تم ذلك عنَّ له اختبار ما منحه الله من الفراسة، فأحضر المصرى وتلطف به ووعده بعدم المؤاخذة فاعترف بأنها ملك اليمنى وزالت الشبهة ببركته ووصل الحق إلى مستحقه.

ذكر بعض فتوحاته بذاته، وأولاده الكرام فى حياته:

أولها قصة شمّر وسببها يوم الفريش: لا يخفى أن فتوحات الملوك والغزوات وما لهم من السير والسريات لا يمكن ضبط الخاص منها والعام، سيما بساداتنا حماة البيت الحرام، وخصوصًا مولانا الشريف حسن جد صاحب هذا الكتاب. فمن ذلك قصة الفريش: وهى أنه فى عام ثلاث وستين من القرن العاشر كان أمير المدينة المنورة السيد مانع الحسينى، وكان من أجل الأمراء قدرًا وأرفعهم ذكرًا، بلغ بمصاهرة موالينا وساداتنا حماة الحرمين محلا منيفًا رفيعًا، وعزًّا منيعًا، وشوكة قاهرة، وحرمة وافرة.

وكانت عادة أمراء المدينة السابقين يسلمون لبنى عمهم من السادات بنى الحسين، ولعربان عَنَزَة وضفير ونحوهم مواجب ومرتبات من الأموال الجزيلة والحبوب والأقمشة الجليلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافًا بهم وعدم مبالاة، فجمع كل من الطوائف المذكورة جماعته وحضر معهم. فأما السادة الأشراف آل نعير فمقدمهم الأمير منصور بن محمد أمير المدينة المنورة، وابن أميرها سابقًا.

وأما السادة الأشراف من آل جماز فمقدمهم أولاد مولانا الأمير جماز.

وأما طائفة العربان فمقدمهم الشيخ المعروف بأبى ذراع وغيره من أكابرهم.

فلما خرج ركب الحاج المدنى على عادتهم أواخر ذى القعدة، وأصبحوا بوادى «الفريش» صحبتهم الطوائف المذكورون فى جمع من الأشراف عظيم، ومن العربان بخيل وركاب مع اللبوس والزانات، وأحاطوا بالركب جميعه، وكان فى الركب الأفندى الأعظم عبد الرحمن قاضى المدينة المنورة، والجناب العالى الأمير محمد ابن حسن، وشيخ الحرم المدنى، وأعيان المدينة من وجوه العرب، وسادات بنى الحسين، فكان موقفًا شنيعًا، ومنظرًا قبيحًا وقع فيه قتل وسلب وطعن وضرب، وأهل الركب محرمون، والطوائف المذكورة مجرمون.

وسلم أعاظم الركب وأعيانه، ثم انفصلوا بعد أن التزم لهم القاضى، وشيخ الحرم المذكوران بحصول مواجبهم وعادتهم، فلما وصل خبر ذلك إلى الشريف حسن سكت على ذلك مطمنًا خواطر الحجاج، حتى انقضت أيام المناسك، ثم أرسل سرية من شجعان الفرسان، وأمر عليهم السيد عجل بن عرار برسم حماية الركب المدنى إلى وصوله المدينة، ثم يستمرون بها حفظًا لها، ولأهلها باطنًا وظاهرًا، ثم بعد ذهاب الحجيج من مكة نادى بالمسير إلى غزو الطوائف المذكورة، فخرج بذاته العزيزة فى عسكر جرار وجيش كالبحر الزخار، ما بين سادة كرام وأعراب وأروام، بالخيول الملبسة والدروع، والبنادق والمدافع، والشجعان المشهورين فى الوقائع والمجامع.

فلما بلغهم أن الملك المنصور الهزبر المعروف المشهور قصد اللحوق بهم على كل حال، شمروا نحو شمّر، وهربوا إلى رءوس الجبال، فقصدهم إلى منازلهم ومساكنهم، وخرب شمر المذكور؛ لأنه من أمنع مواطنهم، ثم قبض على أعيان الطوائف المذكورة الذين شنوا الغارة وكبل أشرافهم بالجنازير الحديد، ودخل بهم وهم أسرى بين يديه مدينة جده السعيد ﷺ، وكان يوم دخوله موكب عظيم، حضره مولانا الأفندى، وشيخ الحرم المذكوران أعلاه.

وأظهر كل منهما حصول مراده وبلوغ مناه، وتعجبوا من دخول الأشراف بالزناجير، وهم من أولاد الأمراء، وتحققوا بذلك عظم مولانا الشريف، وقوة

سلطانه بمدد جده خير الورى.

وكان هذا الغزو أول ظهور مولانا الشريف حسن، وقوة شأنه فى ظل والده الشريف أبى نمى وأيام زمانه.

ومن ذلك قصة مضبع: سار إليه بنفسه المطمئنة، وذلك فى حدود عام اثنين وثمانين وتسعمائة.

وسببه أنه ظهر من أهل مضبع نقض للعهود، ومخالفة لشرع الملك المعبود؛ لأن مضبع المذكور حصن منيع بأعلى واد وسيع، وأهله فى نعم الله رافلون، وللمنعم بها كافرون، يمنعون كل من وصل إليهم، ولو علم عصيانه لديهم، وكلما حذرهم مولانا الشريف المخالفات تحذيرًا، ما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا.

فسار إليهم فى جم غفير من السادات وأتباعهم من أعيان دولته الشريفة، وأمراء مملكته المنيفة.

أخبر السيد نافع منهم أن العساكر التى سار بهم يزيدون على خمسين ألفًا ما بين راكب وراجل، ولاحق وواصل، يمرون على الجبال فيدكونها دكا، وينزلون بالرمال فيبكونها بكا.

فلما وصلوا مضبع وجدوه جبلًا رفيعًا وحصنًا منيعًا ليس فى أخذه مطمع.

فأحاطوا بجهاته الأربع ثم صعدوا على اسم الله تعالى تالين ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] فقاتلهم قتالاً شديدًا، أفنى فيه شبابًا وأشاب منه وليدًا، حتى انتصر عليهم نصرًا عزيزًا، وفتح الله له من حصونهم فتحًا مبينًا، فضرب الرقاب، وأخذ الأموال، ورتب فيه من يحفظه من شجعان الرجال، ويقيم به الشريعة المحمدية على أحسن منوال.

ثم قصد إلى تخت عزه مكة الغراء - شرفها الله تعالى بالكعبة الجليلة - فمر على بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة المحمدية، فخالفوا أوامر الله وأوامره العلية، فقاتلهم إلى أن طلبوا العفو، وبذلوا الأموال فأجابهم إلى ذلك.

وأخذ منهم عدة من دروع الحديد العراض الطوال يقال إنها قريب من خمسة آلاف، نال منها السادة الأشراف، وجميع من حضر من سائر الأطراف، وصار خراجها يحمل إلى حضرته الشريفة كل عام على مر الدوام.

وهذه السرية فى حكم السرايا الهاشمية إلى الكفار، من سار فيها فله أجر المجاهد بلا إنكار.

قلت: ذكر العلامة الجد جمال الدين العصامى أن هذه الغزاة كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وذكر أنه أرخها ببيت كامل بديع هو قوله:

صادَ الصناديدَ أعطَى المُلْكَ واجبَهُ حامى حِمَى بَلَدِ اللهِ الأمينُ حَسَنْ

هكذا ذكره بيتًا مفردًا، فلم أدر أهو من قصيدة له أم من قطعة.

وهو بيت بطين المعنى، رصين المبنى.

ومن ذلك غزوة سوق الخميس، ويسمى زهران، يتصل به قرن ظبي والصفا والمخواة وجبل عظيم يسمى مَلَّس.

كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة خصوصًا البنت التى منعها من أعظم سنن الجاهلية ومانعوها هم الكفار شرعًا.

ومن عادتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصًا العصاة لولاة الأمور، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل والفجور، ثم تكرر منهم ما ذكر من القبائح.

ونصحهم مولانا الشريف المشار إليه، وهددهم فلم ينقادوا للناصح والنصائح، فبرز أمره المطاع إلى أكبر أولاده الكرام السيد الحسين الأسد الضرغام بدر التمام أن يقصدهم فى محالهم، فقاتلهم وقتل أعظم رجالهم، وحاز نفائس أموالهم، وفاز بأسر نسائهم وأطفالهم.

فلما ملك البلاد والعباد، ووصل البشير بنصرته إلى والده وجده خير والد من خير أجداد، برزت أوامره المطاعة، أن ينصب حاكمًا شرعيًا وأميرًا ليقيم نظام السنة والجماعة، فتم ذلك على الأوضاع الشرعية ونقل خراجها إلى الخزائن الشريفة العلية.

ثم غزا معكال. وذلك أنه بعد مدة قريبة برز مولانا الشريف حسن إلى غزو معكال بأقصى البلاد الشرقية لأمور فعلوها، فيها طعن على الدولة الإسلامية، وحسبك السنة النبوية المبرورة: «الفتنة من ههنا» وأشار إلى الجهة المذكورة، فقام مولانا المشار إليه فى ذلك حماية لبيضة الإسلام خصوصًا حجاج بيت الله الحرام، وزوار جده محمد عليه الصلاة والسلام، فوصل دارهم وقاتلهم فيها احتقارًا بهم

وعساكر الإسلام الله تعالى يحميها ويبلغها بسعده أقصى أمانيها فى جمع كذلك يزيدون على خمسين ألفًا، وطال مقامه فيهم حتى استأصل أهل الدار رجالا وأموالا وكل من كان إليهم إلفًا.

فتحدث أعداؤه المخذولون أنه مات وعسكره انكسر نظير ما وقع لجده ﷺ بخيبر.

فلما وصل خبر ذلك لأهل سوق الخميس سول لهم عدو الله أخوهم إبليس، فقتلوا الحاكم الشرعى والأمير المذكورين شقاقا منهم فى الدارين.

فلما عاد مولانا الشريف من الشرق سالمًا فى النفس والأهل والمال، غانمًا ملك معكال، وما قرب منه من سائر المحال، ودخل مكة على أجمل الأحوال، ومشايخهم بين يديه فى الحديد والأغلال، ثم أقاموا فى ظل نعمه مدة عام كامل، فطلبوا من فضله وإحسانه الشامل أن يكونوا خدامه فى محل سلطانهم، وأن يحملوا إليه ما يرضيه كل عام من محصول أوطانهم، فأجابهم إلى مطلوبهم، وأمَّر عليهم محمد بن عثمان بن فضل حيث لم يبق من بيت سلطنتهم إلا هذا النسل.

ثم عزم على غزو سوق الخميس؛ لفعلهم المذكور الخسيس.

فقصدهم بنفسه الزكية افتتاح سنة سبع وثمانين وتسعمائة، فاجتمع بسوحه من بادية مكة المشرفة طوائف هذيل وغطفان وعدوان وبنى سعد وما اتصل بهم من المؤلفة، فاجتمعوا بناديه الفسيح رحابه، المنيع جاره وأحزابه، فنظر إليهم أمير دار المضيف، فاستكثر ما يجب لهم من المصاريف.

فقال على لسانهم لمولانا الشريف: لعل سيدى يعجل بالمسير، فإن الجيش كبير.

فقال له الشريف: أجبهم عنى بأنى أطعم صغيرهم حتى يشب، وشابهم حتى يشيب.

ثم سار بهم بعد مدة، فلما وصل واديهم، ونزل مخيمه المعظم فى ناديهم، قال لهم بعض عقلاء الرجال: اطلبوا من مولانا الصلح، فأجابوا جواب أهل الغرور والهوس، على سبيل التهكم: اسألوا عن الصلح جبل ملس.

فقبل تمام القال، صعدت الرجال على الجبال، وعم القتل معظم الرجال، وأسر

النساء والأطفال.

ثم قبض على مائة وسبعين من أشرافهم، وكبلهم فى الحديد فى أعناقهم وأطرافهم.

فأحضروا له من الدروع والأموال جملا كثيرة لا يحويها المقال، فأخذ ذلك من جملة الغنائم، وأقام شريعة جده سيد العوالم.

ثم عاد إلى مكة المشرفة، فدخلها فى شهر رمضان فى موكب عظيم قد أضاء، لم يسمع بمثله فيما مضى، وبين يديه الجماعات المقبوضون كل عشرة فى كبل حديد، وشيخهم مع ولديه فى الحديد، راكب فى حال غير جميل.

ثم أمر بذبح أربعة عن الحاكم كما ذبحوه؛ وذلك بسوء ما فعلوه.

ومن ذلك فى عام تسع وثمانين وتسعمائة: سار إلى ناحية الشرق مرة ثانية لمخالفة وقعت بينهم متناهية، فى جيش كثيف جرار، ومدافع كبار، تنسف الجبال وتفتح الأمصار، ففتح مدنًا وحصونًا تعرف بالبديع والخرج والسلمية والإمامية، ومواضع فى شوامخ الجبال تزيد على ما سبق بأمثال أمثال، فقويت شوكته وعز سلطانه، وتحقق عند ذوى البصائر أنه بعناية الله تعالى كل حين يعلو شأنه.

ثم عين من رؤسائه من ضبطها، على أمور التزمها وشرطها، فعاد مؤيدًا منصورًا، وعلم سعده منشورًا.

فأخبره بعض عيونه التى يبثها فى البلاد لتأتيه بأخبار العباد، أن جماعة من شوكة بنى خالد تجمعوا وتحزبوا، ومن طريقك ترصدوا وتقربوا، فى جمع من الشجعان والأبطال حتى جرائد الخيل وكرائم الجمال. فتدارك مولانا المشار إليه من الحزم والعزم ما أمكن، وقدم من قدم، وأخر من أخر، وأكمن من أكمن.

فوافاه الجيش الخالدى فوجد مولانا على غاية الحذر فتقابلا وتقاتلا، فهرب الخالدى وانكسر، فقتل مولانا أكثرهم عددًا، وغنم خيلا وإبلا وعددًا، ولم ينج منهم إلا الهارب، ومن خيلهم ورجلهم وإبلهم إلا الذاهب.

وهذه النصرة أعظم فى صدور الأعداء شوكة ونكاية، وأعلى منصبًا وأجل ولاية.

وهذه المذكورات عيون غزواته الشهيرة، وسواها كثيرة كبيرة.

ذكرما خوله الله من فصاحة اللسان، وبديع البيان، فى توقيعه بالبنان، والحكم

بفصل الخطاب والتوفيق للصواب.

فمنها: لفظ «العزة لله سبحانه وتعالى» فمولانا المشار إليه وجميع سلفه الكرام يتوجون به فى توقيعاتهم الفخام.

ولا يخفى ما فى هذه اللفظة من جوامع الكلم وحسن الأدب مع ذى الجلال والإكرام، والعظمة والإنعام، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩] المستوجبة لعزة كاتبها وقائلها، وتواضعه مع كمال شرفه فى الذات والصفات.

ومن ذلك: أن جميع توقيعاته يرقم فيها بعد الجواب لفظ «على الوجه الشرعى، والقانون المحرر المرعى» وهذا من خصوصيات مولانا الشريف حسن المشار إليه دامت رحمة الله عليه.

ومن ذلك: أن جميع ما يرقمه من الكلمات ولو كثرت خال من النقط بحيث تتبع أهل الخط أكثر تحريرات مولانا فلم يجدوا فيها نقطة.

ولعل مراده بذلك دفع المماثلة لخطه ورفع المشاكلة حتى يبعد عن التزوير.

ومن ذلك: سلامته من الحشو المخل والتطويل الممل.

ومن ذلك: أن قاضيًا من قضاة المدينة الشريفة عرض عليه مكتوب، وقف صحيح العبارة بمحكمة الشرع، مضمونه: أن الأوقاف المشروحة به لا تؤخر إلا بشروط مرعية ذكرت فيه، وعين فيه أمورًا لا تمكن الإحاطة بها إلا بعد قراءة المكتوب جميعه، وقراءته تحتاج إلى زمن طويل، فلما وقف مولانا الشريف حسن عليه قال من أول نظرة: هذا فرع من أصل يحتاج إلى اتصال وثبوت بالطريق الشرعى، فعرض له القاضى المشار إليه بأن مثل هذا يبعد تزويره، وأن الخصم فى ذلك السيد مانع أمير المدينة الشريفة وهو أميركم، وكان مولانا الشريف حسن متكئًا، فاستوى جالسًا، ثم استقبل القبلة، وقال للقاضى: يا مولانا سيدى ووالدى الشريف الكبير أبو نمى ليس عندى على وجه الأرض أحب منه وأكرم، ومع ذلك والله العظيم وحق هذه الكعبة المدبجة لو ارتكب باطلا ما وافقته عليه، فإن قلتم ثبت عندى هذا المكتوب حكمت بموجبه على الفور.

فعجب القاضى المذكور من فرط ذكاء مولانا وسرعة فهمه ومتانة ديانته وتحير منه

واستحيا من قوة معرفته بالمقصود واستوائه جالسًا. ثم ذكر والده الكريم، وتقرير محبته وطاعته له، ثم فسر بعدم موافقته على الباطل، وهذا من نور النبوة بلا شك ولا ريب.

ومن ذلك أن جميع ما يرقمه للخاص والعام يبدؤه بذكر الله تعالى، ويختمه بالصلاة والسلام على جده محمد خير الأنام.

ثم يتبع ذلك بقوله: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفى ذلك ما لا يحد من الخير ولا يحصى، ولا يحصر ولا يستقصى.

ويكفيك أنه من أفعال العلماء العاملين والصلحاء الكاملين.

ومن ذلك: معرفته للعبارة التركية، وأكثر اللغة الفارسية، وغيرهما من ألسن البرية، ولكنه لا يكتب بذلك ولا يتكلم، حذرًا من غلطة لسان أو سبق قلم فيستعمل الترجمان فى الكلام، وكذلك فى المكاتيب على الدوام.

ومن ذلك: أنه إذا اشتكى عليه صاحب ظلامة، أو دعوى يسمع شكواه جميعًا ثم يتشاغل عنه ثم يستعيده ما قال، فإن اختل كلامه اختلالا فاحشًا استدل على عدم صدقه، وأقبل عليه بوجه يليق به.

وفى هذا من الكمال ما لا مزيد عليه، وهو كونه يحفظ القصة مع طولها من أول سماع، ثم يستنبط من مخالفة ألفاظها حكما بالغة يقف بسببها على حقيقة أمر صاحبها، وليس ذلك إلا من إلهامات إلهية مستفادة من قوله ﷺ: «الحاكم ينظر بنور الله تعالى».

ذكر كرمه وجوده وإنعامه على وفوده، خصوصًا العلماء والصلحاء والفقراء والشعراء.

فمنه عند زيارة جده ﷺ، وذلك أنه فى أول عام ولايته للأقطار الحجازية أخبر من يعتمد على نقله أن عطاياه للعلماء والشعراء فقط كانت ما يزيد على ألفى دينار ذهبًا جديدًا.

ومنه، وهى من عطاياه الشريفة، وتفرداته وأوّلياته المنيفة: أنه إذا عقد نكاحًا لنفسه أو لأولاده يطلب أعلام العلماء وأعيان الصلحاء؛ تبركا بحضرتهم، واغتنامًا لدعوتهم، فإذا تم ذلك العقد أمر بكتابة أسماء الحاضرين، ثم يعين لكل منهم شيئًا

نافعًا من المال مصلحًا للبال، مع تمييز أهل العلم والصلاح،، والشرف والدين والفلاح.

ومن ذلك: ما أخبر به مولانا العالم العامل الفقيه حاتم القاضى الشافعى بناحية «صبيا» أن فى صحبته، وصحبة غيره عدة قصائد جاء بها من اليمن فى مدح الشريف حسن.

وأنه أجاز شعراء اليمن مع عدم حضورهم ما يجاوز ألفين من الدنانير الذهب الجديد، وأن جائزة كل شاعر يرسلها إليه مع حامل قصيدته.

وقال: هذه كانت عادته دامت سعادته، وذلك على الاستمرار، مع جميع الشعراء من سائر الأقطار.

ومن ذلك: ما أخبر به بعض حملة القرآن العظيم، المتشرفين بمدح جده الرسول الكريم. قال: حضرنا بين يدى مولانا الشريف حسن، فى صبيحة ليلة عرسه على بعض الشريفات المخدرات فى جمع عظيم بمكة، فقرأنا ما تيسر من القرآن العظيم، ثم أنشدنا ما يسره الله من المدائح الشريفة، فوصلت إلى مولانا الشريف معشرة متوسطة مملوءة من الذهب الجلالى. واحد بعشرة من قبل عمة السلطان جلال الدين أكبر، فأمر بجميعها لأهل المديح المذكورين. مع كثرة ما فيها، ولم ينظر إليها إلا نظر إحاطة لأجل المكافأة، وقال: هذا نصيب الجماعة، رفع الله ذاته الشريفة الفاخرة، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: أنه زار فى بعض الأعوام قبر جده عليه الصلاة والسلام، وكان عادة ساداتنا حماة الحرمين الشريفين لما وصلوا إلى الزيارة يتصدقون على جيران الحضرة النبوية صدقة خاصة تشتمل على أسماء العلماء والحكام والصلحاء والخدام، وسكان الربط والأرامل والأيتام، والعساكر السلطانية الخيالة والحصارية، وخدام العمائر الخاقانية، وخدام العين الزرقاء الروية، ولكل اسم قدر معين من الأشرفية الفضة كل أشرفى عشرة محلقة، فأمر مولانا الشريف حسن أن يجعل مكان كل أشرفى فضة دينار جديد ذهب.

ثم اتفق لمولانا زيارة ثالثة صرف فيها أموالا جزيلة فى وجوه متعددة.

منها: أنه أمر بالصدقة أن توزع على عادتها القديمة، فلما صرف معظمها قال له

السيد محمد بن سعد نقيب الأشراف بالمدينة المنورة: إن فى هذا الدفتر المبارك جماعة كانوا صغارا فكبروا، وبالعلم تقدموا وتصدروا، فاستوجبوا من مولانا كمال العناية ووافر الرعاية.

فأجاب جوابًا شاملاً لأعلى مراتب الفضل والأدب، وأجل مناصب السؤدد والحسب، وقال: إن هذا الدفتر أمره لمولانا الوالد الشريف أبى نمى فيصرف على حكمه من غير زيادة ولا نقصان، ثم جدد دفترًا برسم زيادة الإحسان لمن ذكرنا عاليه من عظماء السادة، ثم أنعم على أهل الدفتر الجديد بأضعاف ما هو مقرر فى الدفتر السابق، ثم برز أمره الشريف بأن يعطى لكل من وصل معهم من الأتباع، وأتباع الأتباع عطاء لائقًا بمقامه الخطير، عم القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، والصغير والكبير.

ثم تصدق صدقة مخفية بعد أن مضى ثلث الليل على العميان والمرضى، والنساء والعاجزين من الزمنى، والمقعدين قصدهم بذلك إلى أماكنهم، قيل: بنفسه الشريفة، وقيل: مع من يعتمد عليه.

ومن حسناته التى تفرد بها: أنه كان فى كل زيارة عند منصرفه من باب الحرم النبوى يأخذ فى يده الشريفة كيسًا مملوءًا من الذهب والفضة، ثم يجتمع عليه فقراء الحضرة النبوية وأطفالهم لما هو مقرر معلوم عندهم من إحسانه، فيلاطفهم عند كل محل فسيح، ثم يقول: أنثر عليكم من هذا المال؟ فإذا قالوا: نعم، نثر عليهم من ذلك جملة فيزدحمون على أخذ ذلك، وهو ينظر إليهم مع كمال السرور والفرح، ويستمر على ذلك مرة بعد أخرى حتى ينفد جميع ما عنده.

واتفق له - رحمه الله رحمة واسعة - فى بعض زياراته المقبولة، وكان يفعل ما ذكر من نثر الدنانير والدراهم، فاستوقفته امرأة تشكو عليه حالها.

فوقف لها والمطر نازل عليه من غير حائل، وهى آخذة بلجام فرسه مع غاية الازدحام يمينًا وشمالاً، وخلفًا وأمامًا.

فلم يبرح حتى انتهت شكواها، وتركت لجام الفرس باختيارها وهواها، فانظر إلى هذا المقام، أيها الناظر بعين الإنصاف، فما أجله من مقام، ولا غرو فذلك نفح طيب سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومما مدح به مولانا الشريف حسن ما قاله العلامة الفاضل الشيخ نور الدين على الشهير بالجم، معارضًا لزائية الطيبى، وعبد الرحمن الكثيرى فقال: [من الخفيف]

خطرَتْ فى موشياتِ الخزوز وتثنَّتْ بأسمرِ مهزوزِ
ونضَتْ من جفونها النعْسِ سيفًا فأراقَتْ دمَ الفتَى المحروزِ
وأماطَتْ عن العقيقِ فأبدَتْ بارقًا من وشاحِهَا الفيروزي
وتثنَّتْ فللحلى تناغٍ فى قضيبٍ من خالصِ الإبريزِ
غادةٌ فى وشاحها حينَ تبدو مِنْ لآلى حُليها فى جروزِ
غادةٌ تسلبُ البدورَ إذا ما سَفَرَتْ عن موشم مغروزِ
غادةٌ قد سعَتْ بكاسِ مدام مزجَتْه بالغنجِ والتغميزِ
خندريسًا دفعْتُ عقلى فيهاَ حينَ همَّتْ من دونها بالبروزِ
لبسَتْ من حبابها تاج دُرٍّ فجلاها مديرها فى خزوزِ
هى شمسٌ يديرها بَدْرُ أفقٍ فوقَ لدنٍ مثقفٍ مهزوزِ
إسْقِنِيهَا مزجًا بظلْم لماها كى أداوى بها لظَى تمُّوزِ
إسقنيها ودَعْ مقالَ سفيهٍ قد أطال الجدالَ فى التجويزِ
إسقنيها على الشروطِ فإنى أمرؤ لا أقولُ بالتجليزِ
إسقنيها فى روضةٍ من شقيقٍ طرزَتْها يدُ الحيا تطريزي
إسقنيها وهادلُ الورقِ يشدو فوقَ شاطى النهورِ بالملغوزِ
إسقنيها مَعْ كلِّ أحورَ أحوَى كاملِ الحسنِ كالقنا المركوزِ
إسقنيها وعنفوانُ شبابي يافعٌ والسرورُ حال النهوزِ
إسقنيها فزوّج الكهل ظلمًا بعجوزٍ تمشى على عكوزِ
إسقنيها قديمةَ العهدِ بِكْرًا تَوَّجَتْهَا الملوكُ حال البروزِ
إسقنيها فما خلاصِىَ منها غَيْر مدحِى لنجلِ طه العزيزِ
حسنٌ مَنْ رقَى سمو المعالى فهو للفضْلِ والثنا كالمجيزِ
ملكٌ لو توعَّدَ الدهْرَ يومًا أصبحَ الدهْرُ منه فى تفزيزِ
كفه إن تجافتِ السحبُ غيثٌ وَدْقه باللجينِ والإبريزِ
زاده اللهُ فى البسيطةِ بسطًا وحماهُ بحفظِهِ المحروزِ

ووقاه من حادثِ الدهرِ طُرًّا ما تلى الذّكر فى الكتابِ العزيزِ

وقال الشيخ على المذكور أيضًا يهنيه بالظفر فى غزوه جبل شمر، وإيقاعه ببنى لام، وذلك سنة أربع وستين وتسعمائة: [من الخفيف]

كيف يكفيكَ من دمِ الأبطالِ ما أسالَتْ لكَ الظبا والعوالي
قد بكَتْ رحمةً عليهم مواضيـ ـك نجيعًا جرى بميم ودالِ
وانثنَتْ عنهمُ الرماحُ امتنانًا بعد جازَتْ مراتب الإعتدالِ
لم تزلْ ممتط لهم كلُّ غادٍ سابق فى النفوسِ والأموالِ
ذى جبينٍ مغررٍ بالثريا وأيادٍ منعولةٍ بالهلالِ
وأديم قد شقَّ من شفقِ الأفـ ـق وعَدْوٍ كالريحِ فى الإرسالِ
وحسامًا يروى عَنِ المجد قولاً أعربَتْهُ الرماحُ بالأفعالِ
أعجمى لكنْ له ترجمانٌ بلسانِ الطلا فصيحُ المقالِ
كلَّما كلَّم الرءوس بلفْظٍ صَدَقتْهُ الأعناقُ بالإنفصالِ
وجيادٍ جُرْدٍ تخوضُ المنايا لبلوغِ المنَى وحُسْنِ المآلِ
وليوثٍ تلقى الحتوفَ اشتياقًا كلقىِّ الحبيبِ حينَ الوصالِ
يا مليكًا رمى الزمانَ بسهمٍ لم يكنْ للزمانِ منه ببالِ
زعم الدهْرُ أن يصيبَ رعاياً ك بضيمٍ حاشاك مِنْ ذا المحالِ
ما درى الدَّهْرُ أىّ قرمٍ نزال إعتراهُ وأىّ خصمٍ جدالِ
ما درى أنكَ المليكُ الذى سُد تَ جميعَ الملوك بالإجمالِ
ما درى أنكَ الكريمُ الذى قد خُصَّ بالمكرماتِ من ذى الجلالِ
ما دَرَى يابنَ فاطمٍ وعليٍّ وابْنَ خَيرِ النسا وخيرِ الرجالِ
أنكَ الماجدُ الذى عَمَّ أهلَ الْـ أَرضِ شرقًا ومغربًا بالنوالِ
ما درَى أنكَ الذى لا تلاقَى فى نزالٍ ولا بِشُمِّ الجبالِ
يَسْأَمُ المجد والدواوين والأقْـ ـلام والفَضْل والحجى والمعَالِي
والعوالى والمشرفيَّة والغا رَات والخَيْل واللِّقَا والنزالِ
كم تخطَّتْ صدرًا وشكَّتْ فؤادًا وتمطَّتْ بمفرقٍ وسبالِ
وأسالَتْ فى الشرق سيل نجيعٍ سارَ فى الغربِ بالرواسى الثقالِ

وسبَتْ حلَّة وحلَّتْ محلاًّ قصر البَدْر عنه فى الإتصالِ
ما بنو لام ما قبائلُ نجدٍ ما لقاءُ الفرسانِ والأبطالِ؟!
إن هُمُ فى لقاكَ إلا شياهٌ بمخاليبِ الأسدِ والأشبالِ
جعلتهم بزاتك الشُّهب طُعْمًا حينَ مزَّقتهم برشقِ النبالِ
حين أمطرتَهُمْ سحابَ المنايا وبروقُ الظبا عليهم تلالِي
والرزايا لخَيْلها واثبات فيهمُ مرعدات بالتصهالِ
أين منهُمْ حلمٌ وصفحٌ جميلٌ منك حاطَ الورَى بأيدى الكمالِ ؟!
لو أتوا حَاقِنِى دماهُمْ لفازوا مِنْكَ بالمكرماتِ والأفضالِ
وغدوا فى مسرَّةٍ وهناءٍ وأمانٍ من الوبا والوبالِ
غَيْرَ أن الإله جَرَّدَ فيهمْ سيفَ قَهْرٍ ماضى المضاربِ صالي
ورماهُمْ بقهرمانِ ملوكِ الْـ أرضِ ماضى القضا شديد المحالِ
حسن الذات والصفات عظيم الْـ مَجْدِ سامى العلا شَرِيف الخصالِ
مخجل البدر قاهر الدَّهْر مزْرِى الـ بحْرِ بالجود والنهَى والجمالِ
خَفَقَتْ بالسعودِ راياتُهُ البيـ ضُ فراحَتْ كالزهْرِ جنح الليالي
دام للدينِ ناصرًا فى نعيمٍ أبَدًا سرمدًا بغَيْرِ زوالِ
ما هَمَتْ فى العدا بروقُ مواضِيـ ـهِ بنصْرٍ مسترسلٍ هَطَّالِ
وشدَتْ مادحى عُلاَهُ وقالَتْ كفّ يكفيك من دمِ الأبطالِ

وقال أيضًا يمدحه، ويهنيه بالفتح، ويعزيه بعمه السيد حازم رحمه الله تعالى:
[من الخفيف]

آهِ مابى من جلنارِ الخدودِ وعذابِى منها بذاتِ الوقودِ
ومصابِى مِنْ مائساتِ قدودٍ أطلعَتْ بالبها ثمارَ النهودِ
كُلّ هَيْفَاءَ تَنْثَنِى بِقوامٍ غُصْن بَانٍ على كَثِيبِ زَرُودِ
ذات ثَغْرٍ كالدرِّ فى لازوردِ برضابٍ يحكى ابنة العنقودِ
نافح عن مسك ذكيٍّ وعطرٍ عنبريٍّ وفاتقٍ عن ورودِ
يلمعُ البرق والدرارى توارى حينَ تفترُّ عن شتيتٍ برودِ
كم حلا لى فيه التغزُّل مَعْ كُلْـ ـلِ غزالٍ وغادةٍ أملودِ

حبذا دولَةُ الشبابِ وعصْرٌ   بالتصابِي قد مَرَّ كالمطرودِ
زرتُهُمْ والشبابُ يشفعُ لى والـ   عَيْشُ يخضرُّ منه يانعُ عودي
فى ليالٍ بسامر فى رياضٍ   مشرقاتٍ فى ظلها فى عقودِ
بين آسٍ ونرجسٍ وورودِ   كعذارٍ وناظرٍ وخُدُودِ
وحمامُ الآراكِ تشدو بمَدْحِ الـ   ملكِ الأمجدِ الكريمِ الجدودِ
حَسَنُ الذاتِ والصفاتِ بدا في   أفق المجد بَدْر هذا الوجودِ
قمرٌ أشرَقَ الحجاز ووَجْهُ الْـ   كونِ من نوره وهو فى المهودِ
فظننا عيسى بن مَرْيَمَ قد جا   ء لإصلاحِ دَهْرِنا المفسودِ
فَهْو إن لم يكنْ نبيًّا فإبْنُ الـ   أنبياءِ الكِرامِ سامى المجودِ
وابنُ مَنْ جاء بالهدايةِ والرشْـ   ـدِ وسَنَّ الحدودَ فى المحدودِ
وابنُ مَنْ قد شَقَّ السمواتِ عزمًا   ودنا من إلٰهِهِ المعبودِ
زُرْهُ إن شئتَ أن تزور سُلَيْمَا   نَ جلالاً وصالحًا فى ثمودِ
شَيَّدَ الدينَ بالعوالى وأضحَى   بالمعالى كالوالِهِ المعمودِ
وحَمَى البيتَ والحطيمَ بيضٍ   مسرفاتٍ تجاوزَتْ فى الحدودِ
وبِخَيْلٍ سوابقٍ وجيادٍ   سابحاتٍ تدوسُ قلْبَ الحسودِ
لابساتٍ من الدماءِ جلابيـ   ـبَ تهادَى مخضباتِ الزنودِ
ترتمِى فى سحابةٍ من نسورٍ   وأُسُودٍ من جيشِهِ والجنودِ
وبغابٍ من القنا والعوالِى   مرسلاتٍ لغلِّ قلبِ الحقودِ
قاذفاتٍ بكلِّ ظبْيٍ غرير الـ   لَحْظِ لكنَّ القَلْبَ من جلمودِ
وبهِمْ أبيض المحيا مُغِير الْـ   بَدْر بالتَّمِّ والبها والسعودِ
واهبُ الخيلِ والممالكِ والأعـ   ـمارِ والرزْقِ للعبادِ الوفودِ
يختشى الدهْرُ من سطاه وَتَخْشَا   هُ المنايا بالحادثاتِ السودِ
ناشرًا من لوائِهِ كلَّ عدلٍ   باسطًا فى بساطِهِ كُلَّ جودِ
كتب النَّصر فى حواشيه إنى   عَبْدُ رِقٍّ لذلك المعقودِ
دامَ فى رفعةٍ ونَشْرٍ وطَيٍّ   للمعالى وخافقاتِ البنودِ
ما همى الغيثُ بالربا وأضا البَدْ   رُ فحاكَى لبشرِهِ المعهودِ

واستهلَّتْ بالشرقِ سحبٌ غزارٌ تَغْشَ شمسًا ثوَتْ ببرجِ اللحودِ
حازم الملكِ سيد الشهدا مَنْ بلقاهُ قد زَانَ دارَ الخلودِ
غسلته حور الجنانِ مَعَ الولْ دَانِ فى حوضِ الكوثرِ الموروِدِ
وادرجته الأملاكُ فى سندسيٍّ بحنوطٍ من رحمةٍ معدودِ
فعزاء آل النبيِّ بحقٍّ وهناء بالنصْرِ والتأييدِ
وهناء بالصوم فى رمضانٍ وهناء بالفطْرِ والتعييدِ
دُمْتَ للملكِ والممالكِ والخَلْ قِ مَدَى الدهر دائمًا فى سعودِ
ما هَمَى الغيثُ حاكيًا جودَ كَفَّيْ كَ فأبكَيْتَهُ بجودِ الجودِ
وغدا طائرُ الجوانحِ مِنِّى بمديحِ المليكِ فى تغريدِ

وقال الشيخ عبد الرحمن بن أبى كثير يمدحه: [من الخفيف]

أَسْعِفِى الصَّبَّ باللقا والتلاقِى وانقذِيهِ من القِلَى والتلافِى
وارحَمِى من يد الهوَى أسلَمَتْهُ للتباريحِ مِنْ جوى وتجافِي
مستهامًا له التصبُّرُ أضحى خائنًا فى الغرامِ والدمع وافِي
هام فى حُبِّ غادة لو أعارَتْ نورها الشَّمْس لم تُرَعْ بانكسافِ
ظَلْمُهَا القرقفى يسقى أَقَاحًا أو لآلٍ من الثنايا الرهافِ
حف دُرًّا بها زُمرُّدُ وشم فتحلَّى منه بحسنِ اكتنافِ
حرسَتْهُ منها بعثال[1] قد حيثُ أمستْ معسولةَ الترشافِ
وبه قد حمَتْ دررًا لذيذًا ووروذًا من أنملِ القطافِ
لو أرتْكَ الأثيثَ فوق المحيًّا وتثنِّى القوامِ فى الأردافِ
شِمْتَ بدرًا يضىء فى جنحِ ليلٍ وقضيبًا يميسُ فى الأحقافِ
أيأستْنِى بقسوةِ القلْبِ لكنْ أطمعتنى الأعطاف بالإنعطافِ
فكأنى فى الحُبِّ ما بين يأسٍ ورجاءٍ فى موقفِ الأعرافِ
لم تفوقْ سهمًا من الحسنِ إلا وحشا العاشقينَ كالأهدافِ
أسقمتنى منها جفونٌ ضعافٌ وعجيبٌ يأتى الضنا مِنْ ضعافِ
هى دائِى وأطلبُ البرء منها كيْفَ داءٌ يكونُ للسقمِ شافي

(١) عثل يعثل عثلا: كثر وضخم وغلظ. الوسيط (عثل).

فاتكٌ لَحْظُهَا ولم نَرَ عضبًا قاتلاً وهو مغمدٌ فى غِلافِ
وبه قد غَزَتْ فكلُّ فؤادٍ متلفٌ بالجراح والإذفافِ
كمواضى سلطانِ مكّة لما ينتضيها للفتكِ والإتلافِ
حَسَن مَنْ له الملوكُ عبيدٌ كالرعايا مهشومة الآنافِ
ملكٌ ما له من الخلقِ مثلٌ فى المعالى وما له مِنْ مُكافي
ملكٌ مَنْ رآه يسجدُ ذُلاً لو رآه سابُورُ ذو الأكتافِ
ملكٌ لو به البريةُ لاذوا لغَدَوْا منه فى غِنًى وكنافِ
ملكٌ ملكُهُ رياضُ أمانٍ مثمرات بالعدلِ والإنصافِ
ملكٌ ملكه سماءُ معالٍ آمنٌ بَدْرُهَا من الإنخسافِ
ملكٌ قد تلا الكتاب علينا فيه وصفا مِنْ أعظمِ الأوصافِ
فَهْوَ إبْنُ الضحَى وطه وياسيـ ـن وطاسين وابنُ نونٍ وقافِ
كُلُّ ملكٍ فعينه لمعالى ذاته لا تزالُ فى استشرافِ
بدرُ كلِّ الملوكِ فى أُفُقِ المـ ـلكِ وتاجُ لهامة الأشرافِ
بحلاه بنو الرسولِ تحلَّتْ وذووه وآلُ عبد منافِ
كلُّ مجد فما له عَنْ مداه مانعٌ من تقاصرٍ وانكفافِ
فالدرارِىْ فى الأفقِ قد فاقَهَا في شرفٍ باذخٍ وفى إشرافِ
باتفاقٍ فاق الملوكَ علوًّا وعُلا الكُلِّ ما خلا من خلافِ
فسجاياه فى العلا كسجايا حيدرٍ جدِّهِ بغيرِ تنافِى
فاعلاتٌ له بيوتَ ثناءٍ سالماتٌ بسعده من زحافِ
ألمعىٌ يدرى الذى غَابَ عنه بذكاءٍ يجلو له كُلَّ خافي
ومتى أسقَمَ النُّهَى كَشفُ صَعْبٍ فتجدْهُ يزيلُهُ كالشافي
كعبةٌ تقصدُ الوفود حماها جاعلى بابه لهم كالمطافِ
قد غدا للحُفَاةِ فيه معاذٌ وملاذٌ ومأمنٌ من مخافِ
وأنامَ الأنامَ فى ظلِّ عدلٍ وارفٍ لم يزل على الخلقِ ضافي
وجرَى رزقُهُمْ على راحتيه فَهْىَ ترضى كُلًّا برزقٍ وافِ
منهلُ المكرماتِ كان أجاجًا وبه صارَ حالىَ الوردِ صافي

وربناه الذاوِى غدا منه روضًا ذا زهورٍ أنوارُهُ فى اختلافِ
فنداه قوادمُ الريحِ تَغيَا عن مجاراتِهِ وتبقى خوافِي
من يقسه بالسحْبِ يخطِى فهذى تعطِ ماءً ودمعُهَا فى انذرافِ
وهو يعطيكَ باسِمَ الثغرِ طلقًا وعطاياه عَسْجَدٌ بالجزافِ
كاتباه لم يكتُبَا لفظَ منْع منذ منشاه لا عليه ولا في
يهبُ الألفَ ثم لم يَهَبِ الألْ فَ فكلٌ لديه بالآلافِ
إن يَجُدْ فالنوالُ يملا الأراضى أو يَجُلْ فالنقيعُ يملا الفيافي
ضيغَمٌ إن حمى الوطيسَ فأذكَى جمْرَ طعنٍ ما إن له مِنْ طافي
ورأيت الكماة تسقى مدامًا من منونٍ بأكؤسِ الأسيافِ
وحياضَ المنونِ تلجئ كُلّاً لورودٍ من صابها واغترافِ
خاضه جاعلُ الفؤادِ دلاصًا والظبا عزمةً كحدِّ الرهافِ
وبه اختالَ لابسًا بردَ بأسٍ خاطرًا فيه مُعْلِمَ الأطرافِ
وأبادَ الجيوشَ بالقتْلِ حتى صيَّرَ السيفَ والقنا فى رعافِ
ولكَمْ من جحافلٍ صرْنَ منه رممًا ما اهتَدينَ للإنصرافِ
ولكم من كتائبٍ من سطاهُ قد تفانوْا بالخوفِ والإرجافِ
فهو يخشَى ويرتجى يوم بطشٍ ونوال للمعتدِى والمضافِ
يا مليكًا قد جلَّ عن كل وصفٍ حيثُ فيه مدحٌ من الله كافي
لو نظمنا فيكَ الدرارى مديحًا لا يوازِى مقدارَكُمْ ويكافي
دُمْ لك الملكُ خالدًا والعوالِى والمواضِى فى عزَّةٍ وعوافي
والجديدانِ يخدمانِكَ طوعًا بالذى شِئْتَهُ بغيرِ خلافِ
والمقاديرُ فى مراضيكَ تسعَى أبدًا بالإسعادِ والإسعافِ
وصلاةٌ ختامها المسكُ تغشَى جَدَّكَ الطُّهْرَ سيدَ الأشرافِ

وكان الشريف حسن -رحمه الله- استخدم فى آخر عمره سنة ثلاث بعد الألف بشخص من أبناء الحضارم، يسمى: عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق.

كان عبد الله بن عتيق تزوج بنتًا من بنات الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيرى، فجاءت منه بعبد الرحمن هذا وأخيه أبى بكر، فتحشر عبد الرحمن المذكور فى

الشريف حسن وبقى يفهمه النصح فى الخدمة، وسحر الشريف حسن إلى أن تمكن منه غاية التمكن، وبقى حاله كما قال الشاعر: [من السريع]

أمرُكَ مردودٌ إلى أمرِهِ وأمرُهُ ليسَ له رَدُّ

فتسلط عبد الرحمن المذكور على جميع المملكة، وتصرف فيها كيف شاء، وبقى كل من يموت سواء كان من أهل البلد، أو من التجار، أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئًا، ولا المحلق الفرد، فإذا تكلم الوارث أظهر له حجة أن مورثه كان قد اقترض منه فى الزمن الفلانى كذا وكذا ألف دينار، ويقول: هذا الذى أخذته دون حقى وبقى لى كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها على ما بلغنى ممن أثق به أن كتبة المحكمة تحت أمره وقهره، فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها، وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنواب السابقين، فيمهرها ويأمر عبد الرحمن المحالبى أن يكتب إمضاء القاضى الذى قد مهر الحجة بمهره، ويكتب خاله الشيخ على بن جار الله، وأخوه الشيخ عبد القادر بن محمد بن جار الله شهادتهما.

ويكتب الشيخ على أيضًا عليها ما نصه:

«تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة، ويشهد بذلك محمد بن عبد المعطى الظهيرى، وابن عمه صلاح الدين بن أبى السعادات الظهيرى، وأحمد بن عبد الله الحنبلى الظهيرى وغيرهم.

ثم إنه يظهر الحجة ويقرأها بين الناس.

وجميهم يعرف أنها زور لا أصل لها ولا يقدرون أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفًا من شره وقوة قهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا شُكِيَ على الشريف حسن - رحمه الله تعالى - يقول: هذه حجة شرعية، وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردها؟ فنفرت قلوب الناس من ابن عتيق، وضجوا وضجروا، وكل من أمكنه السفر سافر، وما تأخر إلا العاجز.

وكان مولانا الشريف أبو طالب كلما سمع شيئًا من هذه الأمور تألم غاية التألم، فأول ما استقل بالسلطنة أرسل من المبعوث قبل وصوله إلى مكة رسله بمسك ابن عتيق، فمسك يوم الجمعة بعد العصر فى ساعة نحوسية، واستمر فى الحبس يوم السبت والأحد، فلما وصل الشريف أبو طالب وتولى أمر والده الشريف حسن ودفنه

استدعى ابن عتيق وسأله عن أفعاله فقال: قد فعلت جميع ذلك، ثم رده إلى الحبس.

ففى ليلة الإثنين أخذ ابن عتيق جنبية العبد الوصيف المرسم عليه وهو نائم، فاستيقظ العبد وخلصها منه، فلما أصبح الوصيف أخبر سيده الشريف أبا طالب بذلك، فجبذ جنبيته، وقال له: خذ هذه وقل لابن عتيق لا تسرق الجنبية فى الليل، هذه جنبيتى إن كنت تريد أن تقتل نفسك فاقتلها، وأسرع بإرسالها إلى جهنم وبئس المصير.

فلما جاء الوصيف، وقال له ما قاله الشريف أبو طالب أخذها منه، وأدخل منها فى بطنه نحو إصبع ثم أخرجها، ثم أعادها وأدخل منها ضعف الأول، ثم أخرجها ثم أدخلها جميعًا، ثم أخرجها وقال: وامالى.

واستمر ذلك اليوم إلى ظهر الغد يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من سنة ١٠١٠ عشر وألف، فخرجت روحه إلى غير رحمة، فقد كان مرتكبًا جميع أنواع المعاصى، حتى لقد بلغنى من جماعة بكثرة أنه كان يسجد للشمس، وأما انتهاكه للشرع الشريف فشىء لا يوصف، وكان يتبجح، ويقول: الشرع ما نريده.

ولقد أبطل فى أيامه عدة من المسائل الشرعية كالوصايا والعتق والتدبير، وباع أمهات الأولاد بأولادهن، قائلا: هذه حجة شرعية أن فلانًا سيدها اعترف أن ماله جميعه لفلان فوطؤها حرام عليه والولد ولد زنا.

وكثيرا ما يأخذ حجة العتق، ويمزقها ويتملك المكتوب له العتق فيها حتى أنه بقى إذا مات شخص من أرباب الصرور والحبوب والجهات أظهر على المتوفى فراغًا من هذا الأسلوب، ويتناول المحلول جميعه، ثم هو يبيعه على شخص آخر، فسبحان الحليم الذى لا يعجل يمهل ولا يهمل، وقد قال ﷺ: «إن ربك ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يكن ليفلته»[(١)] .

فقد أخذ ابن عتيق على غرة وقتل نفسه، ورمى به فى درب جدة فى حفرة صغيرة بلا غسل، ولا صلاة ولا كفن، ورمت عليه العامة الأحجار.

وعملت الفضلاء فيه تواريخ، منها قول بعضهم: [من الرجز]

أشقى النفوسِ الباغيَهْ   إبْنُ عَتِيق الطاغيَهْ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١١٠)، وابن ماجه (٤٠٨١)، والبيهقي (٦/ ٩٤).

نَارُ الجحيمِ استعْوَذَتْ منه وقالَتْ ماليَهْ
لمَّا أتى تاريخُهُ أَجِبْ لظى والهاوِيَهْ

ذكر هذا العلامة الخطيب المفتى عبد الكريم بن محب الدين القطبى، ومن خطه نقلت.

وهذا الشيخ عبد الكريم: هو ابن محب الدين أخى الشيخ قطب الدين المؤرخ النهروالى فيكون ابن أخيه وقطب الدين عمه.

وأما قطب الدين نفسه فلم يعقب سوى أربع بنات لا غير. انتهى.

وأرخت أيضًا وفاته بما لفظه: «يأتى من ألطاف الله ما لا يكون فى البال»، ولهذا واقعة هى ما أخبرنى به بعض آل الخواجا الشهير بالكركية.

وذلك أن ابن عتيق كان قد قصد جدة بأذية من قسم أذاياه التى كان يؤذى المسلمين بها مما ذكرناه، وأمهله فى طلب المال ثلاثة أيام، فلما خرج الخواجا من عنده أتى بيته، وهو فى غاية التعب والقلق، فلما كان اليوم الثالث كان القبض عليه من خدام الشريف أبى طالب، ونفذ الله سبحانه فيه حكمه، وقد ألهم الخواجا المذكور تكرار قوله: «يأتى من ألطاف الله ما لا يكون فى البال»، وألزم جميع أهله بتكرارها، ففرج الله عنه سبحانه، وكانت تاريخ وفاته كما تقدم ذكرها.

ثم وليها مولانا الشريف أبو طالب بعد وفاة والده الشريف حسن، إذ هو ولى عهده بعده، وظهر بالمظاهر الجميلة، ووطئ بأخمصه تاج المجد وأكليله.

واشتهر بالولاية الباطنة والظاهرة، والمكاشفات الواضحة الباهرة، وانتشرت فى الآفاق والأقطار له الكرامات الخارقة.

وكفاه سر الأسرار الغامضة، التى دونها السيوف البارقة، واستولى على الصياصى المتينة الرفيعة، والحصون المنيعة الصنيعة.

وهرعت إلى سيول نداه الوراد، وسقيت بسبب جدواه الأكباد الصواد.

لم تزل دولته محفوظة، وأحواله بعين العناية ملحوظة.

مولده - رحمه الله تعالى - فى جمادى الأولى سنة ست وستين وتسعمائة.

فاستمر فى الملك إلى أن كان يوم الثلاثاء حادى عشرى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة وألف، وصل مع أذان العصر خبر وفاته، وكانت بمحل قرب بيشة، فحمل

فى التخت على البغال إلى أن تقطعت وعجزت عن السير فحمل فى شبرية على بعير، ووصلوا به إلى مكة ضحوة يوم الأربعاء ثانى عشرى الشهر المذكور، وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة بعد أن فتحت، ونادى عليه الريس من أعلى زمزم، وحمل إلى المعلاة، ودفن بها وجعل على قبره قبة.

وكانت وفاته آخر ليلة الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة.

وتأسف الناس على فقده إلى الغاية، فإنه - رحمه الله تعالى - كان كريمًا ليس له نظير فى أهل بيته، إلا ما يحكى عن أخيه السيد حسين بن حسن.

وكان مهيبًا جدًا يكسر من إحدى عينيه لا لعلة بها.

ذكر عن جارية تصب القهوة بين يديه فى الديوان أنها أهوت لتأخذ الفنجان من أمام بعض الحاضرين فحبقت، فنظر إليها الشريف أبو طالب نظرة غضب، فلاذت ناحية عن الديوان، وتحاملت على غلصمتها بيدها فكسرتها وسقطت ميتة. فلله منها شهامة حركتها هيبة.

ومما سمع من كرمه أنه قبل وفاته بأيام كان وقع من شيخ زعب جناية فحبسه فيها. ثم أن جماعة الشيخ الزعبى طلبوا من الشريف أبى طالب أن يرضى عليه ويعطوه ما يطيب خاطره، واتفقوا بينهم على مائة فرس وألف بعير وكذا وكذا من الدراهم. ثم أحضروا جميع ذلك ووصلوا به إليه. فقال لهم: أنا ما كان مرادى إلا تأديب الشيخ الزعبى وليس غرضى فى طمع منه.

والذى وصلتم به من الخيل والإبل هو معاد لكم. ولم يقبل من ذلك شيئًا. وكسا الشيخ الزعبى وجماعته الذين كانوا معه فى الحبس بعد أن أطلقهم، وأمر لهم بنفايع جسيمة. فانظر إلى ملك كريم عظيم الشأن.

وأما إعطاؤه الألف الذهب وأمثالها فكثير.

ومما اتفق له أيضًا وذلك قبل أن يلى مكة أنه زار قبر جده محمد ﷺ، فلما أمسى بوادى مر هو ومن معه أضافه رجل من أهل الوادى يقال له السودانى، فذبح الذبائح ومد الموائد وقدمها.

ثم بلغه أن الشريف أبا طالب لم يتعش من ذلك الطعام ولم يحضره لبعض أشغاله، فعمد السودانى المذكور إلى أربع أو خمس من الدجاج فذبحهن وطبخهن

وقدمهن على كيلتين من العيش فى زبدية كبيرة صينى، وجاء يحملها إلى الشريف أبى طالب، وقال: يا سيدى هذا عشاء عبدك اجبر خاطره جبر الله خاطرك.

فغسل الشريف يده وأكل من تلك الزبدية لقيمات ودعا له ثم دخل مكة.

فلما استقل بالولاية على مكة وفد عليه السودانى بعد سنة وقبل يده.

فقال له الشريف أبو طالب: الزبدية التى تعشينا فيها عندك تعيش؟ فقال له: نعم يا سيدى موجودة.

فقال: اذهب فائتنى بها. فذهب إلى وادى مر وأتى بها.

فأمر له فملئت له ذهبًا أحمر كيل الزبيب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وقد أخبرنى الثقة أنه حدثه من شاهد مجامر العنبر موقدة تسير مع نعشه من البيت إلى فراغ الدفن نحو ثلاثة عشر مجمرًا تعج فى الطرق والأسواق عجيج اللبان.

ومما قيل فى مدحه قول العلامة المفيد، البارع المجيد، مولانا وجيه الدين عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد الحنفى مادحه وشارحًا غزواته المقرونة بالنصر والظفر، ومتخلصًا إلى مدح والده الشريف الحسن بن أبى نمى فقال: [من الكامل]

نَقْعُ العجاجِ لدى هياجِ العثْيرِ ... أذْكَى لدينا من دُخَانِ العنبرِ
وصليلُ تجريدِ الحسامِ ووقعُهُ ... فى الهامِ أشدَى نغمةً من جؤذرِ
وسنا الأسنة لامعًا فى قسطلٍ ... أسنَى وأسمى من محيًا مسفرِ
وتسربل فى سابغاتِ مسردٍ ... أزهَى علينا من سدوسٍ أخضرِ
وكذاكَ صهوةُ سَابِحٍ ومطهَمٍ ... أشهَى إلينا مِنْ أريكةِ أحوَرِ
ولقا الكميِّ مدرعًا فى مغفرٍ ... كلقا الغريرِ بمقْنعٍ وبمخمرِ
ألفَتْ أسنتنا الورود بمنهلٍ ... علقَتْ به علقَ النجيعِ الأحمرِ
وسيوفنا هجرَتْ جوار غُمُودها ... شوقًا لهامة كُلِّ أصيَدَ أصعَرِ
فتخالُهَا لمَّا تجرَّد عند ما ... هاجَ القتامُ بوارقًا بكنهورِ
وصَهِيل جُرْد الخيلِ خيل كأنه ... رَعْدٌ يزمجرُ فى الجدا المثعنجرِ
ودَمُ العدى متقاطرًا متدفقًا ... كالوبلِ كالسيلِ الجرافِ الحورِ
ورءوسُهُمْ تجرى به كجنادِلٍ ... قذفَتْ بها موج السيولِ المقمرِ
غشيَتْهُمْ فى العامِ منا فرقَةٌ ... تركَتْ فريقهم كسَبْسب أقفرِ

أودَتْهُمُ قتلاً وأطبقَهُمْ إلى   أن حطَّمَ الخطئُ ظهرَ المدبرِ
تركَتْ صحاريهم موائد ضمنَتْ   أشلاء كُلّ مسوّد وغضنفرِ
ودعَتْ ضيوف الوَحْش تقريها بما   أقرى المهنَّد والوشيج السمهرِى
فأجابَهُ مِنْ كُلِّ غيل زمرةٌ   تحدو منارَ عملَّسٍ أو قسورِ
وأظلها ظلل نشاط سحابه الـ   مركُوم أجنحة البزاةِ الأنسرِ
فبراثنُ الآسادِ تضبثُ فى الكلا   ومخالبُ العقبانِ تنشبُ فى المَرى
شكَرَتْ صنيعَ المشرفيةِ والقنا   إذْ لم تضفها الهبرُ غير مهبّرِ
فغدَتْ قبورهم بطونَ الوحشِ من   ها يبعثُونَ إذا دعوا للمحشَرِ
وخلَتْ ديارهم وأقوَى ربعُهُمْ   وسرى السرىُّ مشمرًا عن شمرِ
أنفَتْ من استقصاءِ قتلِ شريدِهِمْ   كيما يخبر قائلاً عن مخبرِ
فثنَتْ أعنة خيلنا أجيادنا   عَنْ قتلِ كُلِّ مزند وحَزَوَّرِ
حتى إذا حان القطافُ ليانع   من أرؤسٍ تركَتْ ولمَّا تؤترِ
عصفَتْ بهم ريحُ المنونِ فألقحَتْ   وتحركَتْ بزعازعٍ من صرصرِ
فدعَتْ سراة كماتنا لقطافها   بأناملِ القضْبِ الأصمِّ الأسمرِ
فتجهزَتْ لحصادها فى فيلقٍ   لو يسبحُونَ بزاخرٍ لم يزخرِ
ملأ تتوقُ إلى الكفاحِ نفوسُهُمْ   توقانها للقا الرداحِ المعصرِ
يغشون أبطال الوطيسِ بواسمًا   كالليْثِ إنْ يلق الفريسة يكشرِ
وتخالهم فَوْقَ الجيادِ لوابسًا   سدًّا تموجُ بالحديدِ الأخضرِ
فإذا هُمُ ازدحموا بجزعٍ وانثنوا   أورَى زنادُ دروعهم نارًا ترى
جيشٌ طلائعه الأوابدُ إن تصخْ   لوجيبِهِ من قيدِ شهرٍ تنفرِ
بقتادة الملكِ المشيحِ كأنه   بينَ العوالِى ضيغَمٌ فى مزأرِ
ملكٌ تدرَّعَ بالبسالةِ فاغتنَى   يوم الوغَى عَنْ سابغٍ وَسَنوَّرِ
ملكٌ تتوَّجَ بالمهابةِ فاكتفي   عند الطعانِ لفرقه عن مغفرِ
ملكٌ إذا ما جالَ يَوْمَ كريهةٍ   لم تلق غَيْرَ مجدَّلٍ ومعفَّرِ
ملكٌ يجهّزُ من جحافلِ رأيِهِ   قبل الوقيعةِ جحفلاً لم ينظرِ
ملكٌ تسنم ذروةَ المجدِ التي   مِنْ دونها المريخُ بل والمشترِى

ملكٌ تذكرنا مواقعُ عضبِهِ فى الهامِ وقعةَ جدِّهِ فى خيبرِ
ملكٌ إذا ما جادَ حدث مسندًا عن جودِهِ جودُ الغمامِ الممطرِ
ملكٌ سما عن أن أُصَرِّحَ باسمه لسموِّهِ عن كُلِّ وصفٍ مشعرِ
ملكٌ قفا سَنَنًا سنيًّا سنه للمجْدِ والده الزكىّ العنصرِ
ألأَشرفُ الشهْمُ الذى خضَعَتْ له شُمُّ الأنوفِ وكلُّ جحجاحٍ سَرِى
ألأَفضلُ السنَدُ الذى بجنابه لاذَ الغطارفَةُ الألَى من حميرِ
ألأكملُ الندْبُ الذى أوصافُهُ أنسَتْ سما الوضاحِ وابْنِ المنذرِ
ألأكرمُ المفضالُ مِنْ إحسانه أربَى على كسرى الملوكِ وقيصرِ
ذو الهمَّةِ العليا الذى قد نَالَ ما عنه تقصُرُ همةُ الإسكندرِ
شرفًا تقاعَسَتِ الثوابتُ دونه لو لم تُمدَّ بنوره لم تُزهرِ
هَبْهَا بمنطقةِ البروجِ مقرُّها أمناهِز هذا بُنُوَّةَ حيدرِ
كلا فكيْفَ بمن حواها جامعًا نسبًا سما بأبوَّةِ المدثرِ
أعظِمْ بها من نسبةٍ نبويةٍ علويَّةٍ تنمى لأصلٍ أطهرِ
قد شرفَتْ بدءًا بأشرفِ مرسلٍ ونهاية بالسيِّدِ الحسنِ السَّرِى
فَخر الخلائفِ دُرَّة التاجِ الذى بسواه هَامُ ذَوِى العُلاَ لم يفخرِ
بَشَرٌ ولكنْ فى صفاتِ ملائكٍ جُليَتْ لنا أخلاقُهُ فاستَبْصِرِ
لم تلقه يومَىْ عطا ووغىً سوَى طَلْقِ المحيَّا فى حلا المستبشرِ
يلقى العفاةَ وقَدْ تلألأ وجهُهُ بسنا السرورِ وذاكَ أنضرُ منظرِ
يعفُو عن الذنبِ العظيم مجازيًا جانيه بالحسنَى كأنْ لم يوزرِ
يا سيِّدَ الساداتِ دونَكَ مِدْحَةً نفحَتْ بعرفٍ مِنْ نداكَ معطِّرِ
قد فصِّلَتْ بلآلئ المدحِ التي وقَفَ ابنُ أوسٍ دونها والبحتُرِى
وَافتْكَ ترفُلُ فى برودِ بلاغةٍ وبراعةٍ لبرودِ صَنْعَا تزدري
صاغَتْ حلاها فكرةٌ قد زانها شَمَمُ الإباءِ من امتداحِ مقصِّرِ
ما شانها نَظْمُ القريض تكسُّبًا لولا مقامُكَ ذو العلا لم تشعرِ
ما شانها إلا اكتسابُ فضائلٍ تغنيه عن شَرَفِ العظامِ النُّخَّرِ
فوردتُ منهَلَها الروىَّ فلم أجدْ أحدًا فنلْتُ صفاه غَيْرَ مكدرِ

فَنَهَلْتُ منه وعلَّنى بنميرِهِ ولـبـثْـتُ وارده ولـمَّـا أَصْـدُرِ
وطَـفِـقْـتُ فـيـه غـائـصًـا لـلآلـئ فى غَيْرِ نظمِ مديحِكُمْ لم تنثرِ
لا تدعُنِى العليا رضيعَ لبانِهَا إن كنتُ فى تلك المقالَةِ مفترِي
خُذْهَا عقيلَةَ كسْرِ خدرِ فصاحةٍ سفرتْ نقابًا عن محيا مسفرِ
جمعت فصاحةَ منطقِ الأعرابِ مَعْ حُسْنِ البيانِ ورقَّة المستحضرِ
لو شامَهَا قُسٌّ لما سُمِعَتْ له بعكاظَ يومًا خطبةٌ فى منبرِ
شرفَتْ على ما عارضَتْهُ بمدْحِ مَنْ أضحى القريضُ به كعقْدٍ جوهرِى
فاستَجْلِهَا وافَتْ تهنِّى بالذى نفحَتْ بشائره بمسْكٍ أذفرِ
نصرٌ تهزُّ بنوده ريحَ الصبا خفقَتْ على هامِ الأشمِّ الحزمرى
هو نجلُكَ المنصورُ دامَ مؤيدًا بك أينما يَلْقَ العزيمةَ يظفرِ
لازلْتُما فى ظِلِّ مجدٍ باذخٍ وجنودِ مُلْكِكُمُ ملوكُ الأعصرِ
مستمسكينَ بِهَدْيِ جدِّكم الذيْ بالرغْبِ ينصرُ مِنْ مسافة أشهرِ
أهدى الإلـهُ صلاتَهُ وسلامَهُ لجنابِهِ فى طَيِّ نشرِ العبهرِ
ولآلِـهِ وصـحـابِـهِ والـتـابـعِـيـ نَ لهم بإحسانٍ ليومِ المحشرِ
ما استنشَقَ الأبطالُ فى يوْمِ الوغى نَقْعَ العجاجِ لَدى هياجِ العِثْيَرِ

وقال الإمام عبد القادر بن محمد الطبرى مادحًا أباه ومتخلصًا إلى مدحه: [من الكامل]

قد أقبلتْ ريحُ القبول بعثيرِ نفح القبائل نفحة مِنْ عنبرِ
فتأرجَتْ أرجاءُ مكَّةَ إذ رُوِي خَبَر الوقائع فى المجامع عَنْ بَرِي
إذ ضمخَتْ أيدى الكماةِ بنَقْعِهِ وبمسها العود الرطيب السَّمْهرى
فتمايَلَتْ عذباتُهُمْ بشماله لا بالشمولِ ولا العبيرِ الأذفرِ
هزَّتهم نحو الصبا ريحُ الصَّبَا والغَيْر هزّ بكلِّ نكبا صرصرِ
هم فتيةٌ لا يطربُونَ حياتَهُمْ إلا بحربٍ أو برحبٍ مقفرِ
جوبُ المهامِهِ صَارَ منقبةً لهم أبدًا وهذا شانُ كلِّ غضنفرِ
مِنْ كُلِّ أصيدَ لا يرى متلفتًا لثباته بين العديدِ الأكثرِ
شهم عَلَنْدَى بالوشيجِ موشح لا بالوثيجِ إذا دعى فى المحضرِ

هو فى المفرِّ كَمُشْمَخِرٍّ راسخٍ ... ولدى المكرِّ تراه كالمُسْحَنْفِرِ
لله قومٌ ما جَنَوْا برماحهم ... إلا رءوسًا أينعَتْ من مثمرِ
كلا ولا نهلَتْ عطاشُ سيوفهم ... إلا مِنَ العَلَقِ النجيع الأحمرِ
قومٌ سواهم بالسريرِ مجرَّدٌ ... وهُمُ سراةٌ فوق جردٍ ضُمَّرِ
ألفوا الدروعَ مدى الزمانِ غلائلاً ... أغنتْهُمُ عن لبسِ كلِّ معصفرِ
لا يهتدونَ بجحفَلٍ من قسطلٍ ... إلا بقدْحِ جيادِهِمْ فى المحجرِ
فهمُ كبَحْرٍ من حديدٍ مائرٍ ... عند المسيرِ وتحتَهُمْ نارٌ ترى
حتَّى إذا دخلَ النزالُ وهاجتِ الـ ... أبطالُ فى الهيجا هياجَ مزمجرِ
وبدَتْ زماخرُ كلِّ صنديدٍ إذا ... مدَّ السواعد كان قدمًا زمخرى
يدعو النزالَ إلى نزالِ مسعرٍ ... لهب الوغَى منه بأعسَر مسعرِ
لاقاه غطريفٌ عليه سيطرٌ ... لا يرتجى إلا لقَاءَ عَشَنْزَرِى
يلقى الكريهةَ فاغرًا متبسمًا ... يخطو بمشيَةٍ أرعَنٍ متبخترِ
ويجرُّ عُجْبًا ذيلَ فاضتِهِ التي ... شملَتْهُ بين مزرّدٍ ومزرّرِ
يلقى المنونَ لِقا المُنَى بمهنَّدٍ ... لا ينتضى إلا بكَفٍّ مقذحرِ
دبَّتْ على متنيْهِ فى حالِ المضا ... نملُ المنايا دبهَا فى المحشرِ
عافَ الجفير فلا مقرَّ له سوَى ... هامِ الشجاعِ المقدم المتهورِ
ظلم النفوسِ لظلمها ممزوجة ... بدَمِ النياطِ بغربِ ذا العضْبِ الفري
ففرندُهُ ما زال وهْوَ مدبجٌ ... من أبيضٍ فى أسودٍ فى أحمرِ
لصليلِهِ فى الهامِ فعلُ الصلِّ فى الـ ... ملسوبِ مسلوب الفؤادِ المسهرِ
قسمًا به إن السيوفَ حديدَةٌ ... لولا يدُ الحسنِ المليكِ القسورِي
ألسيدُ الجَحْجَاحُ أَفْضَلُ مَنْ به ... وبرأيه ظهَرَتْ نجابةُ حيْدَرِ
ألباسلُ الصنديدُ من فرجَتْ له ... فى مأزقٍ خطيَّة لم تقصرِ
قد أنهلتهَا كفُّه نَحْر العِدَا ... فانهَلَّ غَيث نجيعه المثْعَنْجِرِ
سُمْرٌ عَوَالٍ للرُّدَيْنِ نماؤها ... تروى به علل الورُود المصدرِ
قسمًا بها إن العواليَ خوطَةٌ ... لولا يمينُ ابن النبيِّ الأفخرِ
ألباسلُ الشهْمُ الأشمُّ المرتقِي ... ما قصَّرَتْ عنه عزائمُ قيصرِ

وتكسَّرَتْ آراءُ كِسرَى دونه ... فى وِتْرِ سيفِ إذ حماه بعسكَرِ
فَعُلاَ ابن طه لَيْسَ يبرحُ واضحًا ... وبه يُرَى الوضاح شِبْهَ مقصِّرِ
جَلَّ الأشمُّ ابنُ العرانينِ الألَى ... عَنْ أن يقاسَ بمثله ابنُ المنذرِ
ثَبْتٌ إذا نُوَبُ الزمان تقاذفَتْ ... لا بالغبىِّ بها ولا المستَنْكرِ
ما ظَنَّ أمرًا سابقًا أو لاحقًا ... إلا رمَى عن قوسِ غَيْبِ موترِ
أو لو يعادى الصَّخر لانفلق الصفا ... خَوْفًا فمنْ ذا بَعْدَ هذا يجترى
صُغرَى عزائمِهِ إذا جابَ الفَلاَ ... تنحطُّ عنها همةُ الإسكندرِ
لم يُلْفِ فى حالَيْ رضاهُ وبطشِهِ ... أبدًا سوَى متبسِّمٍ ومكشِّرِ
كملَتْ بسالتُهُ فأنجَبَ سيدًا ... قرَّتْ به عينُ الشريفِ حَزَوَّرِ
ليثٌ مخالبُهُ الأسنةُ والظبا ... يغتالُ قلبَ الفارسِ المثعنجرِ
ليثٌ صهيلُ الخيلِ أشهَى عنده ... من صوتِ مزمارٍ ورنَّةِ مِزْهَرِ
ليثٌ يرى الصهواتِ أنعَمَ من علا ... ظَهْرِ الأريكةِ أو تسنم منبرِ
ليثٌ أشار عليه والدُهُ ضحًى ... لغزاةِ قومٍ شَمَّروا من شمّرِ
فاقتادَ ظُهرًا جيشَهُ متوجِّهًا ... لا بالونىِّ المبطئِ المستَخْبِرِ
وأبو علىٍّ بينهم متأودًا ... عند الكفاحِ تأوُّد المستبشرِ
أَلنصْرُ فى أعلامِهِ والسعْدُ في ... إقدامِهِ والرعبُ مدَّة أشهرِ
وبوجهِهِ نورُ النبوةِ ساطعٌ ... يغنيه عن ظَهْرِ الطرازِ الأخضرِ
يلقى العدُوَّ مشهّرًا بعلامةٍ ... والغيرُ إنْ لاقَى فغير مشهّرِ
يأيها المولَى الإمامُ المرتضَى ... أنتَ الخليفةُ وارثُ المدَّثِّرِ
قد قمتَ فينا منذرًا ولربِّكَ الـ ... أعلَى نراكَ سموتَ كلَّ مكبرِ
وثيابُكَ الحسنى غدوْتَ مطهرًا ... وهجرْتَ رُجْزًا لا أقولُ لك اهْجُرِ
ومنحتَنَا مننًا تطوّقُ جيدنَا ... عقبانُهَا لا منّة المستكثرِ
يا بن الخلائفِ من قريشٍ هذه ... غُرَرُ الخلائقِ من أبيكَ الأطهرِ
أوتيتَهَا فبذلْتَ واجبَ حقِّها ... وحميتَها من أصعَرٍ أو أصعرِ
والله قد أعطَاكَ ما لَمْ يعطِهِ ... مَنْ قد مضَى فاحمَدْ إلهَكَ واشكُرِ

ثم وليها الشريف إدريس بن الحسن، وذلك أنه كان المعتاد فى قواعد بنى حسن

أن يكون من يتفقون عليه، ويختارونه هو صاحب الأمر، فاجتمع حينئذ الأشراف جميعهم، وأعملوا رأيهم السديد وحمد غب ذلك صنيعهم فاختاروا مولانا الشريف إدريس بن الحسن فولوه، وأكبروه ورتبوه فى الولاية وصدروه، وأشركوا معه فى الدعاء على المنابر ابن أخيه مولانا الشريف محسن بن الحسين بن الحسن، وأشركوا معه أخاه السيد فهيد بن الحسن فى ربع ما يتحصل من الأقطار الحجازية، وكتبوا بذلك محضرا إلى الروم ثم وصل الجواب كذلك فاستمروا.

فلما كان يوم سابع ذى الحجة الحرام من سنة اثنتى عشرة وألف كانت عرضة المصرى وأميره الأمير حسين الشهير بدَلِى حسين، ووصل معه بثلاث خلع، لبس مولانا الشريف إدريس الخلعة الأولى الكبرى، وهى بفرو سمّور تحتها خلعة منفصلة كالبطانة، وهاتان الخلعتان عن خلعة واحدة، ولبس الشريف محسن خلعة بلا فرو، ولبس السيد فهيد خلعة كذلك بغير فرو، ووقف الشريف إدريس فى المختلع إلى أن توجه الأمير حسين، ثم جاء أمير الشامى وهو الأمير طهماس، فنزع الشريف إدريس خلعة الفرو، ولبس خلعة الشامى وهى بفرو أيضًا، ولبس الشريف محسن، ولبس السيد فهيد خلعتيهما وكلاهما بغير فرو، وكانت عرضة رائقة لم يحصل فيها مخالفة، وأخلف الله الظنون المخالفة.

وفى سلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وألف وصل من مصر هجان، وملخص أوراقه أن الشيخ محمد زين العابدين بن محمد البكرى مات فجأة فى القلعة فى مجلس صاحب مصر الوزير إبراهيم باشا، وذلك بعد أن تعشى عنده ودخل معه إلى الخلوة، وشرع فى قراءة فاتحة الكتاب فسقط على وجهه، فحركوه فوجدوه ميتًا رضى الله عنه، وكانت وفاته فى ثامن عشر ربيع الأول من السنة المذكورة.

وفى آخر ربيع الثانى منها: اجتمعت عساكر مصر، وقتلت صاحب مصر إبراهيم باشا، وقتلت معه محمد بن خسرو، ولم تقتل سواهما، مع أنه كان حاضرًا عنده جملة من الأمراء وقاضى مصر وغيره من الأكابر.

وفى يوم الأربعاء سابع عشر رجب من السنة المذكورة أيضًا: دخل مصر باشا جديد لها اسمه محمد باشا، وهو خادم قرجى الجنس، واستمر إلى ثانى ربيع الأول من سنة أربع عشرة بعد الألف، فعزل بالوزير حسن باشا الواصل من اليمن.

وفى شهر الحجة من السنة المذكورة: وقعت فتنة بمكة بين الأتراك النازلين بالمعلاة وبين عبيد الشريف، فركب حاكم مكة يومئذ القائد راشد بن فايز، فلما أن كان برأس المدعى أصابه سهم لا يعلم من أين جاء فوقع فى نحره فكان فيه نحره، وكان من بعض الدور النازل بها بعض الترك فحمل قتيلا.

وفيها توفى الشيخ الملا على القارى بن سلطان بن محمد الهروى الحنفى الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام. ولد بهراة ورحل إلى مكة وتديرها.

أخذ عن خاتمة المحققين العلامة ابن حجر الهيثمى، وشرح المشكاة والشمائل والوترية والجزرية، وله شرح على نخبة الفكر وشرح على الشفا وشرح على الشاطبية، ولخص القاموس وسماه الناموس، وله الأثمار الجنية فى أسماء الحنفية وله غير ذلك، لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لاسيما الشافعى وأصحابه، واعترض على الإمام مالك فى إرسال يديه، ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم، ومن ثم نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء.

وفى سنة ست عشرة بعد الألف: توفى السيد صبغة الله بن روح الله الحسينى قطب مدار الراسخين فى العلم والعمل الفحول، وقلب أهل الإشارات والإلهام والوصول، جبل عرفات العرفان، وحبل مستعصم رجال العطف والحنان.

صحبه الجم الغفير، وانتفع به الجمع الكثير، أوفرهم حظًّا مولانا السيد مرزا، كما أشار هو إلى ذلك فى بعض مصنفاته بيانًا ورمزًا. وكذلك مولانا السيد أسعد البلخى، والشيخ أحمد الشناوى، توفى بطيبة المنورة، ودفن بالبقيع وقبره ظاهر يزار رحمه الله رحمة الأبرار.

وفيها ورد الأمر من مولانا السلطان الأعظم أحمد خان بترميم المقامات الأربعة بالحرم الشريف على يد شيخ الحرم حسن بن مراد الرومى، فرممت على أحسن وجه وأتقنه.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: توفى السيد فهيد بن الحسن بعد أن شارك أخاه الشريف إدريس، وابن أخيه الشريف محسن بالربع فى جميع الأقطار الحجازية الداخلة تحت حكم صاحب مكة المشرفة البهية، فكثرت أتباعه من السادة الأشراف

والحسنان والعسكر بحيث صار موكبه يضاهى موكب الملك، وإذا جلس وقفت الترك يمينًا وشمالاً، واتخذ جبالية للبندق نحو مائتين أو أكثر، ولم يحفظ أتباعه وعبيده عن النهب والسرقة فكثر ضررهم على الناس، وشد قوسه على مولانا الشريف إدريس وإخائه، واستل صارم الصرامة عليه فى شدته ورخائه، والشريف متورع عن فتح باب المصارمة، وصدع ما لا يلتئم بالجبر والملايمة، فلما زاد -كما تقوله العامة- الماء على الدقيق، ولوحظ ما حقه التفخيم بالترقيق.

وأخذ فهيد بجانب أكمل الدين القطبى، وأراد أن يلبسه قفطان الإفتاء قبل أن يحرم ويلبى.

ووقف الشريف إدريس ذلك الموقف، واعتنق السمهرى تعانقًا يثنى، ولواء الخميس العرمرم يرعب ويرجف، وأقسم لا يلبس القفطان إلا وقد ورد السنان نحره.

فقال فهيد: ولو خربت البلاد؟ فقال إدريس: ولو خربت قبل سجره، فعند ذلك تراجعا إلى النهى، وفكرا فى المبدا والمنتهى، وعادا وفى قلب كل منهما وقد.

وأخذ مولانا الشريف إدريس من ذلك فى حل ما مضى مع فهيد من العهد، خصوصًا لما صمم القطبى ورجع الأمير، ولم يجعل التفكر فى عواقب الأمور أصدق سمير، ودخل معه إلى المدرسة المعروفة، ولبس الخلعة الموصوفة، وتجاهه من جماعة الأمير اثنان من الأساكفة أرباب التشهير، وشق الشارع الأعظم حتى انتهى إلى سويقة، وصهيل خيله يسمع من كل شباك وطويقة.

كل ذلك عناد لسيده ومولاه، وكفران لمن خوله هذه النعمة وأولاه.

فأضمر حينئذ الشريف إدريس الحقد على أكمل الدين. كذا فى سلافة العصر والأرج المسكى.

ولما أراد الله انقضاء مدة فهيد وفراغ دولته، تغير عليه فى الباطن أخوه الشريف إدريس، وأرسل لابن أخيه الشريف محسن بن حسين، وكان إذ ذاك باليمن بأن يأتى بجميع من معه من الأشراف والقواد والعرب، فحضر ومعه أمير حلى محمد بن بركات الحرامى، ونودى بمكة بأن البلاد لله، وللسلطان وللشريف إدريس والشريف محسن، وخلع السيد فهيد من الذكر، ومنع من الربع، وجعل ما كان لفهيد من ربع

مغل الأقطار الحجازية لابن أخيه الشريف محسن، ولم يخطب للسيد فهيد، وخطب لمولانا الشريف إدريس أولا ولمولانا الشريف محسن بعده ثانيًا، كل هذا وفهيد فى مكة فى بيته، وجموعه وافرة، وعدته وعدده المتكاثرة، فاستعد أصحابه للقتال، وأشار إليه أعيانهم بالحرب، فامتنع من ذلك، وطلب من الشريف إدريس شهر زمان ليتأهب للخروج من مكة بعد أن طلب أن يمكن من سكنى مكة بغير ربع، فامتنع الشريف إدريس إلا أن يتوجه إلى حيث أراد من الأماكن والبلاد، فخرج من مكة سنة تسع عشرة وألف، فانضم إلى بعض أكابر الحاج المصرى، وسار إلى مصر، وتاريخ قدومه فى شهر صفر «قدومكم خير» سنة عشرين وألف، ثم منها إلى الديار الرومية، واجتمع بسلطان الروم، فيقال: إنه أنعم عليه بإمرة مكة، فعاجلته المنية قبل الأمنية، كذا فى تاريخ ابن جار الله.

وأرخ وفاته الأديب إبراهيم بن يوسف المهتار بأبيات فقال: [من الرمل]

مـا وقـوفـى بـطـلـولٍ ودِمَـنْ	غـيَّرَتْ سُكَّـانـهـا أيـدى الـزمَـنْ
لىَ شُغْلٌ عَنْ بكائى رسْمَهَا	وسؤالى قَفْرَهَا بعد السكَنْ
بـالـذى أُسْـمِـعْـتُـهُ مِـن خـبـرٍ	حَـرَمَ الـعـيـنَ لَـذَاذَاتِ الـوَسَـنْ
نَعْيَ ذى المجدِ الكريمِ المرتجَى	حاوي العليا فهيد ذو المِنَنْ
فارج الكربِ وماضِى الغَربِ فى الـ	حَرْبِ غيثُ الجدبِ ذو الفعلِ الحَسَنْ
مَـنْ أبَـتْ هـمـتُـه إلا الـعـلا	ومـراقِـى عـزِّهـا خَـيْـر ظـعـنْ
واصـل الـروم فـوافـاه الـردَى	فى بلادٍ باعدَتْ عنه الوطَنْ
لـيـتَ شـعْـرى أىُّ أيـدٍ غـيـبَـتْ	فى الثرى شخصَكَ مِن بَعدِ الكفَنْ
هل درَتْ ما غَيَّبته من حِجًى	ومـعـالٍ ونـوالٍ فـى قَـرَنْ
إن تـحـجـبْـتَ بـأطـبـاقِ الـثـرَى	فـأيـاديـكَ بـشـام وَيَـمَـنْ
لـكَ ذكْـرٌ بـالـثـنـا لا يـنـقـضِـي	صار كالفَرْضِ على أهل السنَنْ
رَحِـمَ الـرحـمـنُ مثـوًى جـدثٍ	هـو فـى كـلِّ فـؤادٍ كـالـشـجَـنْ
وسـقـى الله تـرابًـا ضـمَّـهُ	صيِّبُ الرضوانِ ما غيثٌ هَتَنْ
قيلَ لى هلْ قلْتَ تاريخًا له	بـارعًـا تُـمـلـيـه أربابُ الـفِـطَـنْ
قلتُ والخدُّ روٍ مِن أدمعِي	والحشا بالكَرْبِ صاد فى حَزَنْ

نصف بيتٍ قد أتى تاريخه   ماتَ بالرُّومِ فهيدُ بْنُ الحَسَنْ

وفى هذه السنة كانت وفاة أكمل الدين القطبى شهيدًا بالأعاضيد، اسم محل به نخل ومزارع بين الطائف والمبعوث والمبعوث إليه أقرب، والشريف إدريس إذ ذاك بالمبعوث.

وفى هذه السنة أيضًا وقعت قتلة بين الجبالية، وبين الحسنان، والقائد جوهر قبانى حاكم مكة، تعصبت الحسنان والقواد للقائد جوهر، فتحاربوا أجمعين على أقدامهم بخط القشاشيين إلى الصفا، وكان الظفر للحسنان والقواد وقتل بعض الجبالية.

وفى أوائل العشرين من ذى الحجة الحرام من سنة عشرين بعد الألف: وصل من الديار الرومية الباشا حسن المعمار بميزاب الكعبة المشرفة، أرسل به السلطان أحمد ابن محمد خان، وأمره أن يجعل لها إزارًا من حديد فوقه مثله من الفضة المطلية بالذهب، فبرز أمر صاحب مكة مولانا الشريف إدريس بن الحسن إلى أكابر مكة وعلمائها بأن يلقوا الباشا حسن من الحجون ويمشوا أمام الميزاب، فامتثلوا الأمر وبرزوا، وكان ذلك فى آخر النهار، فدخل الميزاب إلى مكة من الحجون وأمامه بعض طوائف الأذكار، وهم يذكرون الله تعالى، فبعد إتمام مناسك ذلك العام وقفول الحجاج إلى بلادهم توجه إلى عمارة العين وكان مأمورًا بذلك وصحبته أموال من جانب السلطنة، فاتفق عمل ذلك وأتمه، ثم إنه ركب ميزاب الكعبة بعد قلع ميزابها، وأرسل إلى الحضرة السلطانية، وجعل الإزار المأمور به على الكعبة.

واستمر الإزار عليها إلى أن اتفق سقوط بعض الجدران فى دولة الشريف مسعود ابن إدريس عام تسع وثلاثين بعد الألف، كما سيأتى تفصيله.

وقد تقدم ذكر بعض ذلك فى ترجمة السلطان أحمد بن محمد خان فى الباب المعقود لدولة العثامنة، أدامهم الله وأدام بهم الدنيا آمنة.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: وصل الوزير حاجى محمد باشا منفصلا عن وزارة اليمن، وكان دخوله إلى مكة غرة شعبان من السنة المذكورة، وصام رمضان، وتصدق وفعل أفعالا عديدة من الخيرات، وكان وصل معه فى مركبه الواصل بحرًا فيل صغير أراد أن يهديه إلى الحضرة السلطانية العثمانية، ثم إن هذا

الفيل استمر بجدة أيامًا فجاء الخبر بموت السلطان عثمان بن أحمد خان، ثم انتقل حاجى محمد المذكور ليلة سابع عشرى شوال من السنة المذكورة، ودفن ضحى صبيحة تلك الليلة بالمعلاة، وبنيت عليه قبة عظيمة باقية إلى اليوم.

ووقع سنة وصول الفيل غلاء شديد بمكة؛ قال فيها العلامة مولانا عبد القادر بن محمد الطبرى تاريخًا وهو على غير الأبحر المتداولة ونصه:

حَـرَّمَ الله حِـلَّ سـاحـتِـهِ   قَدم الفيل ضَلَّ عن رُشْدِهْ
كثر الـهَـمّ يا فَتَى أَرِّخْ   سَنَةُ الفيلِ همها يشدهْ

وفى عام ثلاث وعشرين بعد الألف فى شهر محرم الحرام منها: وقع مطر عظيم، وفيه برد كبار كل بردة منه قدر شربة الماء بل أكبر.

وفى سنة أربع وعشرين توفى الأديب برهان الدين بن محمد بن مشعل العبدلى السالمى المكى.

كان شاعرًا ماهرًا له قصائد طويلة يمتدح بها الشريف الحسن بن أبى نمى وغيره، فمن شعره فى مليح يهواه وهو يهوى الراح قوله: [من مجزوء الكامل]

شَمْس الطلا بَذْرِى غدا   لـم يَضْحُ مِنْ تعليلها
فـالـراحُ قـتـلـةُ قـاتـلـي   وأنـا قـتـيـلُ قِـتـيـلِـهَـا

توفى بالطائف مجاوزًا السبعين.

وفيها توفى الشيخ نور الدين الزيادى شافعى زمانه، القطب العارف بالله فى أوانه.

قال فى الريحانة: حضرت دروسه زمانًا طويلاً وهو كما قلت فيه: [من الوافر]

لنورِ الدين فَضْلٌ لَيْسَ يَخْفَى   تضىءُ به الليالِى المدلهِمَّهْ
يريدُ الحاسدونَ ليطفئُوهُ   ويأبى الله إلا أن يُتِمَّهْ

وله حاشية على شرح المنهج، وأخذ عنه كثيرون.

وفى سنة خمس وعشرين وألف لليلتين بقيتا من شعبان منها: ورد الأمر السلطانى من حضرة السلطان أحمد على يد الباشا حسن أفندى بعمل شباك نحاس فى بئر زمزم ليمنع كل ما يسقط فيها من آدمى وغيره، فجعل على قدر تدوير فم البئر وجعل له ست سلاسل وربطت بالحديد الدائر على فمها، وصار الماء فوق الشباك نحو ثلثى قامة.

وفيها توفى الشريف حازم بن راجح بن أبى نمى الحسنى: كان من أكابر السادة وأعيانهم، يرجعون فى المهمات إلى رأيه السعيد، وتدبيره الحميد.

بلغ من الحزم منتهاه، وطابق اسمه مسماه.

وقد كان رحل مع والده راجح بن أبى نمى إلى مصر حين عزم إليها منافرًا لأخيه الشريف، ثم بعد انتقال والده راجح المذكور بمصر رجع إلى مكة فأكرمه عمه الشريف حسن، واعتذر حازم عن عزمه مع والده بأنه لا يمكنه خلاف والده، فقبل عمه الشريف حسن عذره. قاله فى «الجواهر والدرر» .

وفيها توفى السيد سالم بن محمد السنهورى المالكى المصرى، أدرك ناصرًا اللقانى، وأخذ الحديث عن النجم الغيطى وغيره، وتفنن فى العلوم، ومهر فى الفقه حتى صار معتمد المالكية فى عصره، له تعليق على مختصر خليل.

وقد كان للشريف إدريس من العبيد المولدين، ومن الرقيق الجلب ما يزيد على الأربعمائة، ومن المقاديم من العرب جماعة، وكانوا فى أَشَر وبَطَر، وتِيهٍ وعَسَر وتجمل ظاهر، يتخيل الواحد منهم نفسه الملك القاهر.

وكان من خدامه وزير مكة القائد أحمد بن يونس وإن كان ولاؤه لذوى بركات، فلما كان النصف الأخير من شهر رمضان سنة ست وعشرين وقعت فتنة سببها أن القائد أحمد بن يونس، وهو الوزير على مكة من قبل مولانا الشريف إدريس وكان وزير مولانا الشريف محسن القائد ياقوت بن سليمان، وكان مولانا السيد محمد بن عبد المطلب نائبًا فى مكة عن عمه الشريف إدريس لغيبته فى الشرق كان قد استفحل أمره، وعظم حتى صارت الأمور كلها منوطة برأيه وتدبيره، موكولة إلى تقديمه وتأخيره.

فتوافق مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن، فأرسل مولانا الشريف إدريس إلى السيد محمد يأمره بأخذ المهر، وهو مهر العروض من القائد أحمد، وكذلك أرسل مولانا الشريف محسن إلى القائد ياقوت بن سليمان بأخذ مهره منه، ففعل كل ما أمر به.

وكان الأخذ المذكور فى صبيحة عاشر رمضان من السنة المذكورة، فحينئذ شاع فى البلد عزل أحمد بن يونس، وأرسل مولانا الشريف إدريس إلى القائد ريحان بن

سالم حاكم مكة يأمره بالوصول إليه إلى الشرق، فقدم إليه، فقلده منصب الوزارة، فوصل إلى مكة فى الشهر المذكور، ووصل الخبر إلى السيد محمد بن عبد المطلب بأن القائد أحمد بن يونس يريد الركوب عليك، وقد اجتمع عنده العدد والعدد، ووصل الخبر إلى القائد أحمد بذلك أيضًا، فركب كل منهما بعد أن ألبس، ووقف عند باب داره، ثم انجلى الأمر، وظهر أن ما أخبر به كل منهما ليس له أصل، فأرسل مولانا السيد محمد بن عبد المطلب إلى مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن بذلك، فلما كان العشر الأخير عزم القائد أحمد إلى مولانا الشريف بالمبعوث، وكان قد وصل إليه الشريف من محله الأول، فأقام القائد أحمد هناك، فجاء الأمر إلى مولانا السيد محمد بأخذ أموال القائد من داره، وكل ما حوله، وأن يحفظ على ذلك، فلما أن كانت ليلة العيد حصلت حركة من آخر الليل عند بيت السيد محمد، وتفريق سلاح وأدراع، فنزل إلى المسجد، وصلى صلاة العيد فقط، وبرز من المسجد قبل الخطبة، وعزم بالجيش إلى البستان -بستان ابن يونس- فختم على أمواله كلها، وأمر أن ينزل البعض منها إلى البلد، واستمر هو إلى بعد صلاة الظهر، ونزل، والجيش معه بعد أن ختم على بقية الأموال، وقبض على جماعة من المنسوبين إلى أحمد، وحبسهم بعد أن ختم على بيوتهم، ثم فكوا بعد وصول مولانا الشريف إدريس، إلا إبراهيم بن أمين كاتب أحمد، وأعظم المقربين إليه؛ فإنه لم يزل مسجونًا إلى أن قضى الله عليه فى السجن.

وأما أحمد فإنه استمر بالمبعوث، فثارت بسببه فى ثانى شوال من السنة المذكورة بين ذوى حسن، وذوى بركات فتنة أدت إلى الإدراع والإلباس، ثم رحل إلى كلاخ فأقام بها، ثم رحل منها إلى جهة الشام.

فلما أن كان فى أثناء الطريق رجع فوصل إلى مولانا الشريف إدريس، وهو بالشرق فى السنة المذكورة، فسجنه وكبله بالحديد، ثم قتله فى السنة المذكورة أيضًا فى محل يقال له: وادى النار، ودفن هناك، فسبحان الفعال لما يشاء.

وقد كان هذا الوزير فى قوة من المال والرجال قد اشتغل بالحال، ولم يفكر فى المآل وسار صيته فى الآفاق، وأكثر الدخل وأقل الإنفاق وكان ذا تدبير لأحواله حتى جاوز الحدود، فوقع به ما قضاه الملك المعبود اللهم عافية غير عافية، ورأفة منك

وافية كافية كذا فى «الأرج المسكى» .

وفى سنة سبع وعشرين فى ذى الحجة منها: قلع الشباك النحاس الذى عمل لبئر زمزم الأفندى السيد محمد بن مصطفى الفنارى لما قيل له: إن ماء زمزم تغير طعمه بسبب ذلك الشباك وأن الدلو إذا وقع ربما أمسكه أن يصعد.

وفى سنة تسع - بتقديم التاء - وعشرين وألف فى سادس عشر جمادى الأولى منها: توفى السيد منصور بن أبى نمى بمكة، وخطب له على زمزم بعد موته، وهو آخر أولاد الشريف أبى نمى موتًا وسنه نحو سبعين سنة، ورأى أولاد أولاد أولاد أولاد أبى نمى، ودفن بالمعلاة وكانت جنازته حافلة.

وفيها: غزا الشريف محسن بن الحسين بجيلة ونواحيها.

وفى يوم الأحد ثامن عشرى الشهر المذكور من السنة المذكورة: وقع فى المسجد الحرام طراد عجيب بسبب أن جبليًا أراد الطواف، فأودع سيفه عند رجل هندى، فمر به رجل تركى فابتدر الهندى السيف، وقتل التركى، فثار الناس على الهندى، فطردهم إلى باب الصفا، فتكاثر الناس على الهندى، ورموه بالحجارة فطردهم، ثم أحاطوا به، وضربه رجل عند زمزم بإبريق فزلق بالبلاط، وطاح فضرب بجنبية، ومات التركى والهندى.

وفى ليلة الأحد الرابعة والعشرين من جمادى الآخرة منها توفى السيد منجد بن راجح ابن أبى نمى بالمبعوث، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وكان من أعيان أشراف مكة، يوصف بالكرم.

وفى رجب منها: توفى السيد قتادة بن ثقبة بن أبى نمى ودفن بالمعلاة.

وفيها - أو التى بعدها - توفى العلامة عبد الرءوف المناوى شارح الجامع الصغير شرحين، وله ترتيب الشهاب وشرحه، وشرح أدب القضاء، وطبقات الصوفية، والأرغام، وغير ذلك. رحمه الله - تعالى -.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وألف: توغل مولانا الشريف إدريس، وابن أخيه مولانا الشريف محسن فى الشرق، ووصلا بالفريق إلى قرب الأحساء، واجتمعا بذوى عبد المطلب، وكانوا فى العام الماضى نافروا عمَّهم الشريف إدريس فقام الشريف محسن فى موافقتهم لعمهم فتم ذلك، وطابت نفوسهم، ووصل الشريفان بفريقهما

إلى الأحساء، وضربت خيامهم قبالة الباب القبلى من سور الأحساء، وأكرمهم صاحبها على باشا الكرامة التامة، وأقاموا نحو ثمانية أيام، ولم يتفق لأحد من أشراف مكة المتولين من القتاديين وصول الأحساء كما اتفق لهذين الشريفين.

وفيها فى ثالث ربيع الثانى: دخل الشاه بغداد، وأخذها من يد المتغلب عليها من باشوات السلاطين بنى عثمان، وسبب ذلك أن رجلا من عسكرها يسمى بكر تغلب عليها، وانبسطت يده على مملكتها حتى صار إذا جاء الباشا السلطانى العثمانى متوليًا عليها لا ينفذ من حكمه إلا ما نفذه بكر المذكور، وغلب على بكر أيضًا ولده محمد، ولكل فرعون موسى، فوصل إليها وزير اسمه أحمد حافظ بجيش كبير، فلما رأى بكر ذلك أغلق أبواب بغداد، وأرسل إلى الشاه ليمكنه من البلاد، وتبقى له رقبته وماله، فأتى الشاه بعسكره، فلما رأى أحمد حافظ قوة الشاه أرسل الخلعة والتأمين لبكر ثم انصرف راجعًا، ولم يزل الشاه فى ذلك المكان، وأعطى محمد بن بكر العهود بأن يجعله نائب البلاد، ويؤمِّنه - كما طلب -على رقبته وماله، ففتح الباب باب السر، فدخل عسكر الشاه، وأظهروا أنواع الطغيان، وقتلوا بكرًا وجميع أهله شر قتلة، وقتلوا أهل السنة جميعهم، ثم خرج الشاه منها، وأقام فيها خانًا من خاناته، فأرسل سلطان الروم العثمانى وزراء معهم الجيوش الجرارة لأخذها فلم يحصل من أحد فتحُها، حتى قدَّر الله تعالى فتحها على يد السلطان مراد بن أحمد خان، كما سيأتى ذكره فى سنة ثمان وأربعين وألف.

وفيها توفى السيد دخيل الله بن ثقبة بن أبى نمى فى بيشة، ودفن بها، وكان من أجلاء الأشراف ورءوسهم وذوى الرأى منهم.

وفيها يوم الإثنين سابع رمضان منها: مات السيد أبو نمى بن عبد الكريم بن حسن ابن أبى نمى بالمبعوث وحمل إلى مكة.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن رمضان المذكور دخل حيدر باشا متوليًا اليمن، فنصب دكة فى المسجد الحرام، فصلى عليها فأنكر عليه الملا محمد مكى فروخ، ورماه بالحجارة فتبعه العامة فأمر بلزمه فلزم، وقال: لا بد من ضربه خمسمائة ثم طلبه، ولم يضربه وجمع فيها الأئمة الأربعة ونائب المحكمة، وأثبت أنه ما فعل ذلك إلا لعذر، وكتب ذلك فى السجل.

وفيها يوم عيد الفطر: كانت وفاة الإمام عبد القادر بن محمد الطبرى، وهو الإمام الذى تصدر فى محراب العلم والإمامة، وتسنم صهوة جموح الفضل، وملك زمامه، من رفع للعلوم أرفع رايه، وجمع بين الرواية والدراية. فأصبح وهو كاسر الوساده، بين الأئمة والساده، يشنف المسامع بفرائد كلامه، ويبهج النواظر بما تدبِّجُه أنامل أقلامه.

إذا انفهقت بشقاشق قَالِهِ لَهَاتُهُ، ثبت حق إفصاح الكلام، وبطلت ترهاته، إلى نسب فى صميم الشرف عريق، وحسب غصن مجده بالمعالى وريق، وبيت لم ليس فيه إلا إمام وخطيب وأديب، فَنَنُ فضلِهِ فى رياض الأدب رطْبٌ، والطبريون سادة من غير الفضل بريئون.

وهذا الإمام واسطة عِقْدِهِمْ، ورابطة عقدهم، ومحيى آثارهم، والآخذ من الدهر بثأرهم.

صنَّف وألف، وسبق وما تخلف.

أما الأدب فرَوْضه الممطور، وحَوْضه الراوية منه السطور.

كانت له عدة من المصنفات. منها: شرح الدريدية المسمى بالآيات المقصورة على الأبيات المقصورة، وحسن السريرة فى حسن السيرة، وشرح بديعيته التى على منوال بديعية ابن حجة المسمى على الحجة، بتأخير أبى بكر بن حجة، ونشآت السلافة بمنشآت الخلافة، وشرح قطعة من ديوان المتنبى: سماه: «الكلم الطيب على كلام أبى الطيب» .

وله عدة رسائل وغير ذلك من حواش وتعليقات. وإنشاء ومكاتبات تهيج البلابل، وتحقق -لولا أنها حلال- سحر بابل.

أَمَّ بالمسلمين فى المقام ببلد الله الأمين، واتصل بقرب سلطان مكة ونواحيها، وحامى جهاتها وضواحيها، مولانا الشريف حسن بن أبى نمى، فحصلت له من جنابه العظيم مكانة أى مكانة، وزادت علوه رفعة وأعلت مكانه، بحيث حملته على تأليف غالب مؤلفاته المذكورة برسمه، وجعلها خدمة لخزانته المعمورة متوجة بلقبه واسمه، أثمرت عزًا فيه يتنافس المتنافسون، وأينعت مجدًا يقال فيه: لمثل هذا فليعمل العاملون هطلت على غرائسها سحائب الإنعامات الحسنية، ونشرت على

دوحاتها خلع الإجلال السنية.

ولما وصل إليه بشرح الدريدية، وقرأ ديباجته لدى حضرته العلية، وذكر له أنه أنشأ بيتين هما تاريخ تمام تأليفه، وجعلهما على لسان الكتاب وأراه إياهما، تناول الشريف حسن الكتاب بيده الشريفة، وقرأ البيتين وهما: [من مجزوء الرجز]

أرَّخَنِى مؤلِّفي ببيتِ شعْرٍ ما ذهَبْ
أحمدُ جود مَاجِد أجازنى أَلْف ذَهَبْ

فتبسم مولانا الشريف، ووضع الكتاب فى حجره، ووضع يده الشريفة على رأسه، وقال: على الرأس والعين، والله إن ذلك نزر يسير فى مقابلته، وإنى أحمد الله تعالى الذى أوجد مثلك فى زمنى.

ثم لما كانت أيام وفاته، ووصلت مطايا عمره إلى غاية محله وميقاته، وذلك فى زمن مولانا الشريف إدريس بن حسن كان سببه المقدر، فى كتابه المسطر، أنه انتابت خطبة العيد أحد ولديه، وكانت أول خطبة حصلت لديه، فتهيأ للقيام بأدائها، وأرهف عضب لسانه لإبدائها.

فمنعه بعض أمراء الأروام، الواردين إلى مكة تلك الأعوام، يسمى حيدر باشا، ورغب فى أن يكون حنفى المذهب، وأخاف من تعرض له وأمره وأرهب.

فضاق بالإمام نجده ووهده، وجهد فى إزالة المانع فلم يجد جهده؛ لأن مولانا الشريف إدريس لم يكن فى ذلك الوقت بالبلد.

فلما لم يحصل إلا على اليأس، ولم يلق لضنا دائه من آس، صعد كرسيه وتنفس الصعدا. ففاضت نفسه لوقته كمدا، وألقى على كرسيه جسدا.

وقدمت جنازته ذلك اليوم للصلاة عليه، والخطيب على المنبر ناظر إليه.

وقيل: إنه مات مسمومًا. وكانت ولادته سنة ست وسبعين وتسعمائة. وأرخت بما نصه «أشرف المدرسين» رحمه الله تعالى.

ولما بلغ الشريف إدريس وفاته بذلك تعب تعبًا شديدًا لما كان للإمام عبد القادر عنده من المحبة، فدخل مكة رابع شوال، ومعه الشريف محسن، وجمع الأشراف والقواد فى موكب عظيم، وأكرمهما حيدر باشا غاية الإكرام، فطلبا منه التوجه إلى اليمن، وأحضر له ما يحتاجه من إبل وغيرها.

وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف قبيل الظهر من يوم الأحد سابع جمادى الآخرة وقع مطر عظيم، سالت منه أودية مكة، وامتلأ منه المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود، فقال الشيخ محمود الحناوى تاريخا فى ذلك وهو من الحسن بمكان: [من السريع]

قد جاءنا سَيْلٌ مِنَ الله في جُمَادَىَ الآخر يا ذا النَّظَرْ
فى مسجدِ الله الحرامِ الذى سعَتْ إلى علياه كُلُّ البَشَرْ
سيلٌ عظيمٌ مَا رُئِى مثلُهُ تاريخه: ألماءُ حاذى الحَجَرْ

وفيها توفى الشيخ الأمجد شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علان فى اليوم السادس عشر من شعبان منها الصديقى الشافعي ودفن بالمعلاة بالقرب من قبر السيدة خديجة أم المؤمنين. كان إمام التصوف فى زمانه، وأوحد علومه وعرفانه.

وفيها فى شعبان: توفى السيد الجليل، الرئيس النبيل، أبو القاسم بن بشير بن أبى نمى فى الشرق، وحمل إلى مكة، وخطب له على زمزم كعادة أسلافه.

ثم توفى فيه أيضًا أخوه السيد بركات بن بشير بمكة فجأة بعد موت أبى القاسم بأربعة أيام.

ثم توفى فيه أيضًا السيد على بن أبى طالب بن حسن بمكة وخطب له على زمزم.

واستمر الشريف شريكا لعمه الشريف إدريس على صدق الكلمة، والنصح فى الألفة بالخدمة، والمساعدة فى الأحوال، والمعاضدة له فى المؤيدات الثقال، إلى أن اجتمع أهل الحل والعقد، ومن إليهم المرجع من قبل ومن بعد، من بنى عمه السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والعلماء والصلحاء، وأعيان سكان البطحاء، فرفعوا الشريف إدريس عن ولاية الحجاز، ومنعوه من أن تكون له علاقة فى ذلك المجاز، ووسدوا الأمر إلى السيد الشريف المحسن، ووكلوا الحال إليه فى حفظ هذا الموطن.

فأشيع فى البلد يوم الأربعاء ثالث محرم الحرام من سنة أربع وثلاثين وألف أن السادة الأشراف قد أقاموا الشريف محسن مستقلا بالأمر، فحصل بين الشريف إدريس، وبينه بسبب ذلك ما يوجب المنافرة.

وحصل اضطراب عظيم فى البلد وحركة كبيرة، وقسمت آلات الحرب من الجانبين.

فلما كانت صبيحة يوم الخميس رابع محرم الحرام من السنة المذكورة: ألبس كل من الشريفين بمن معهما من العساكر والجنود ووقف على باب داره، فبرز من جماعة مولانا الشريف محسن شرذمة من جانب عقد مولانا السيد بشير وبنية النداء بالبلد لمولانا الشريف محسن استقلالا بمفرده، فقبل وصولهم العقد رمتهم الجبالية المرصدون فى مدرسة السيد العيدروس بالبندق، وقتل من الجماعة المذكورين بالبندق مولانا السيد سليمان بن عجلان بن ثقبة، والقائد مرجان بن زين العابدين وزير مولانا الشريف محسن فرجع الباقون.

وفى ضحى هذا اليوم ركب مولانا السيد أحمد بن عبد المطلب ومعه رحل، والمنادى بين يديه ينادى بالبلاد للشريف محسن، ولم يزل هذا الاضطراب بالبلد ذلك اليوم جميعه، ومن ألطاف الله تعالى أن الجماعة بالمسجد الحرام قائمة ذلك اليوم، والأسواق موجودة فيها الأقوات لم يحصل تغير أصلا فى ذلك اليوم.

فلما كان ليلة الجمعة خامس محرم الحرام من السنة المذكورة وقع الصلح بين الشريفين على أن يستقل مولانا الشريف محسن بالبلد، ويكون الكف عن المحاربة ستة أشهر، منها ثلاثة يكون مولانا الشريف إدريس فيها بالبلد، وثلاثة بالبر، فاتفق الحال على ذلك، ودعا الخطيب لمولانا الشريف محسن بمفرده يوم الجمعة، كذا نقله المرحوم الإمام على ابن المرحوم العلامة الإمام عبد القادر الطبرى فى تاريخه.

والذى نقله غيره من الثقات أن مولانا الشريف إدريس لما ضويق، وأجلبت عليه السادة الأشراف ومن معهم، أرسل الشريف إدريس إلى الشريف محسن، والسادة الذين معه فطلب مهلة شهرين فى البلد، وأربعة أشهر خارجها؛ ليتأهب للسفر إلى حيث شاء، فأعطاه الشريف محسن ذلك، وشرط عليه أن لا يحدث شيئًا من المخالفات، فاستمر عليه شهر محرم وصفر فمرض فيه حتى خيف عليه.

وفى ليلة المولد الشريف خرج من مكة، وكان قد أضعفه المرض، فما طاف للوداع إلا فى محفة، وخرج من مكة كذلك.

كذا فى كتاب «عقود الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر» للسيد محمد الشلى.

ولما خرج الشريف إدريس توجه إلى جهة الشرق.

ولما كان غرة رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة إدريس إلى مكة فى نواحى جبل شمر، ودفن بمحل يسمى «ياطب» منها، ومن الاتفاق أن حساب ياطب بالجمل اثنان وعشرون سنة عدد مدة ولايته مجبورة، وكان يكنى أبا عون.

وولد فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وأمه هيا بنت أحمد بن حميضة ابن محمد بن بركات، وكانت وفاته رابع عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت مدة ولايته إحدى وعشرين سنة ونصفًا رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

ومما قيل فيه قول مولانا القاضى تاج الدين المالكى وهو: [من الطويل]

زها بكَ دستُ الملكِ والتاج والعقْدُ ... غداةَ إليك الحلُّ أصبَحَ والعَقْدُ
مُطاعًا بعطفِ الله بعد رسولِهِ ... أولى الأمرِ فالعاصِى لأمرِكَ مرتدُّ
أبا شرفٍ إدريس منتخبَ العلا ... أبى الشرَفُ الوضاحُ غيرَكَ والمجْدُ
لقد طلبَتْ شمْسُ الخلافة بدرَهَا ... فقارَنها فى الأوْجِ والطالعُ السعدُ
فنضتَ العلاَ بالزاعبيةِ والنهَى ... هما شركاها لا الأمانِيُّ والوعْدُ
وقمتَ بعبءٍ آدَ غيرَكَ حملُهُ ... منال المهارى ليْسَ تدركه الربْدُ
وشرفْتَ دسْتَ الملكِ حين حللته ... ومرقاتُكَ المرقالُ والفَرَسُ النهدُ
فكنْتَ به إدريسَ إدريسَ إذْ رَقَى ... مكانًا عليًا خصه الصمَدُ الفرْدُ
وكنْتَ ولم تُفْتَنْ سليمانَ إذ دعا ... فأوتيتَ ما لا ينبغى لفتًى بَعْدُ
وما لم ينله غيرُ آبائكَ الأُلَى ... ربوعُ الندا شادُوا وزَنْدَ العلا شَدُّوا
ملوكٌ هم الأنيابُ للملكِ والسِّوَى ... إذا نُسبوا كانوا الزوائدَ إذ عُدُّوا
تولَّوْا وأفضَى ملكهُمْ لمحجَّبٍ ... تصادم تِيجَان الملوك إذا يبدو
تأخَّر عصرًا فاستزادَكَ فى العلا ... كما ازدادَ بالتأخيرِ ما ترقُمُ الهنْدُ
وأصبَحَ عطلاً جِيدُ مَنْ رام عقدها ... سواه وأضحَى يستضىءُ به العقْدُ
تفردَ طود الملك بالمجدِ جامعًا ... مزاياه فَهْوَ الجامعُ العلَمُ الفردُ
رأى إن عدته خلَّة منه خلَّة ... فصيره قصرًا عليه فلا يَعْدُو
فيا ملكًا بالفضْلِ أذعَنَ ضِدُّهُ ... وما الفضْلُ إلا ما أقرَّ به الضِّدُّ
بكَ الدسْتُ يزهو يوم سِلْمِكَ والندَى ... ويومَ الوغَى يزهو بك السرْجُ والسرْدُ

وما زلْتَ فى حالَيْكَ سلْم وضدِّهِ ... عليكَ رِوَاقُ المجدِ يرفعُ وَالبَنْدُ
فيشقى بكَ الجانى ويسعدُ مخفقٌ ... ويأمنُ مطرودٌ وترهبُكَ الأُسْدُ
إذا بيَّتَ الأعداءُ أمرًا تضاءلَتْ ... لدى خطبِهِ الآراءُ واسْتَتَرَ الرشْدُ
وترتَ قويمَ الفكْرِ قوسًا لوترهم ... وأنفذْتَ سهْمَ الرأى ليس له رَدُّ
وحكَّمْتَ فيهم قاضيًا غيْرَ مغمدِ ... هو العزْمُ لم يكهم له أبدًا حَدُّ
وقدتَّ من القودِ الجيادِ مقانبًا ... إذا طلبَتْ يدنو بتقريبها البُعْدُ
وغَلَّ إلى الأعناقِ أَيْدِيَ بطشهم ... مِن الرغْبِ جيشٌ ليس تكبو له جردُ
فأحياهُمُ فى الأرضِ موتَى كأنها ... عليهِمْ- وقد ضاقَتْ بما رَحُبَتْ- لَحْدُ
سجايا أبى لا يجارُ طريدُهُ ... ولا راع يومًا جار غفوته طرْدُ
مليكٌ هو الطودُ الأشَمُّ للائذٍ ... هو البطَلُ المطعانُ والأسد الوردُ
جوادٌ له فى المالِ صولةُ ثائرٍ ... تحكّم فى الجانى وأحفَظَهُ الحقْدُ
طوَتْ نحوه بالوفْدِ كلّ تنوفةٍ ... بخات بخد الأرْضِ من وخدها خَدُّ
وجاد فلم يفقدْ مرامًا بجودِهِ ... فقلْ عوضًا عن جاد قد فقد العقْدُ
هو البحْرُ عذبٌ للموالى، وللعدَى ... عذابٌ لهم مِنْ لجه الجزرُ والمَدُّ
هو الغيثُ يهْمِى للولى وليّه ... فينبتُ إلا أنَّ منبته الحمْدُ
ويعدو العدَى وسمى هامى ربابه ... وتبلغهم منه الصواعقُ والرعْدُ
أخا الجودِ قد قلدتَّ جِيدى ودُونَ ما ... تقلدتُ أعناقُ المطامعِ تنقَدُّ
وأمطيتَنِى مِنْ كاهلِ العزِّ مركبًا ... ترينى دكًا كالغورِ صهوتُهُ النجْدُ
فقمْتُ خطيبًا فى المحافلِ بالثنا ... وبالشكْرِ أتلو ذا وذاكَ به أشدُو
ينافسنِى قومٌ شأوْتُ وقَصَّروا ... وما كضليع ضالع خلفه يغدُو
ويبخسُ منهم دُرَّ نظمِى زعانفٌ ... فواعجبًا مِنْ أينَ للنقَدِ النَّقْدُ
سماءُ سِماتِ الفضلِ لفظى نجمها ... ولم يُخْفِهِ ألاَّ تَرَى ضوءَهُ الرُّمْدُ
وإنى لما خولْت أهلٌ ولم أكُنْ ... كقولِ حسودٍ إنما أسعَدَ الجدُّ
ولستُ مُدلاً حين أسمو وإن يكُنْ ... هو الفخْرُ يوم الفخْرِ والشرف العِدُّ
ولكن بنفسى والعبودية التي ... بها شَرَفُ الآباء من قبلُ والجدُّ
وإنّى لأرجو منْكَ ما نال مَنْ مَضَى ... ولا عجَبٌ إنْ عَزَّ بالسيدِ العَبْدُ

بقيتَ بقاءَ الدهرِ فينا مؤملاً ... بك التاجُ يزهو والغلائلُ والبُرْدُ

وقول الإمام عبد القادر الطبرى رحمه الله تعالى: [من الكامل]

مالِى وللغيدِ الغوانِى النُّعَّسِ ... ولريم رامةَ والغزالِ الألعسِ
ولبانةِ الجرعاءِ فى شرقى الغضا ... ولسَجْعِ ورقِ الأيكِ عند تَأَنُّسِ
ولنظْم عقيانِ القريضِ ونثْرِهِ ... مِنْ كُلِّ أَنْفَسِ جَوْهَرِ فى أَنْفسِ
وَأَنَا الَّذِى قَذَفَ الزَّمَان بِجَاحِظٍ ... مِنْ عَيْنِهِ بى مغضبًا وَهْوَ المُسِي
ورمَى بأسهمه مقاتِلِيَ التي ... بَعُدَتْ عليه فحطَّ عالى مجلسِي
وإذا قنى مِنْ صَبْرِ مُرِّ قضائِهِ ... كأسًا برغمى أن أكونَ المحتَسِي
هو دُمَّلُ الليلِ الذى لم يندملْ ... إلا بصَبْرِ مؤمِّلٍ لم ييأَسِ
صابرتُهُ حتى ظفرتُ بفجْرِهِ ... وحصلْتُ منه على شفاءِ الأنفسِ
بضياءِ صبْحِ العدلِ من إدريسَ مَنْ ... أهدى الضيا فمحا ظلامَ مغلِّسِ
ألسيد الحامى الذمارَ بهمةٍ ... تسمو على الفلكِ الأثيرِ الأطلسِ
أولى وأوَّل باسلٍ تَخِذَ العجا ... جَةَ درعهُ يَوْمَ الوغَى كالبرنسِ
لم يكترثْ بمهمةٍ وبكفِّه ... عند اللقا صُمُّ الردَينى الأخرسِ
والنُّطْقُ منه الطعنةُ النجلاءُ في النْـ ... نجلاء من عينِ العَدُوِّ الأشوسِ
وإذا انتضى الهندىَّ خرَّتْ أرؤسٌ ... ودَّتْ بقطْعِ أنها لم ترؤسِ
دَلَّ المنيةَ حين ضَلَّتْ سبلها ... فبه اهتدَتْ لفؤادِ كلِّ مترسِ
بيمين أروَعَ يضربُ البَطَلَ المُدَرْ ... رَعَ نافذًا منه لقطْعِ العضرسِ
كالبَرْقِ فى الظلماءِ من نقعِ الوغَى ... يروى سنًا لكنْ بخَطْفِ الأرؤسِ
فرذاذُهُ العلَقُ النجيعُ وسَحُّهُ الز ... زلق الفجيعُ من الطلا المتبجسِ
لله ما أمضاهُ عندَ توحُّشٍ ... وأمضَّهُ فى الوهْمِ عندَ تأنُّسِ
والسيفُ بالكَفِّ التى كفَّتْ أذىً ... لا بالحديدِ وطبعه المتيبسِ
لولا يدا إدريسَ ما خطَّتْ بها ... فى الهام شَكْل مخمّس ومسدّسِ
هذا المليكُ ابنُ المليكِ ابْنِ المليـ ... ـكِ ابْنِ المليكِ ابنِ المليكِ الأرأسِ
زاكى الأرومةِ مِنْ هيولى هاشم ... عالى النجارِ من النبيِّ الأقدسِ
ذو الهمة العليا التى مِنْ دونها ... زُحَلٌ فما باقى الجوارِى الكُنَّسِ

هو فى النُّهَى سَحْبَانُ وائلَ والذكا ءِ إياسُ والجَدْوَى ابنُ مامَةَ واحْبِسِ
كملَتْ فضائله فلو مسَّ الورى أذيالُهُ لرأيْتَ كُلًّا مكتسي
يأيها الملكُ الرفيعُ مقامُهُ فوقَ الثوابتِ فى الرفيعِ الأقعسِ
لكَ عِلْمُ إدريسٍ ودينُ محمدٍ وعلا سليمانٍ وحكمةُ هرمسٍ[1]
فافخَر على الأملاكِ مِنْ صنعا إلى صِينٍ ومِنْ شرقٍ لمغربِ تونسِ
بِالله أنْتَ فثقْ به لا بالورَى مِنْ آدميٍّ فى الوجودِ ولو نسِى
وإليكَهَا عذراءَ فِكْرٍ عانس من بعدِ عهدكَ فهْىَ بكْرُ العُنَّسِ
عربية غنيتْ بوصفِكَ واقتنَتْ حُرَّ البديعِ فما أَتَتْ بمجنّسِ
ذكرتْ عهودًا بالحمى فتلفعَتْ خجلًا ووافَتْ فى رداءٍ سندسى
تختالُ فيه إلى المليكِ وتنتضِي بيضَ المدائحِ من قرابِ الحندسِ
فاقبلْ وقابلها بطَلْقِ جبينك الْـ مأنوسِ لا لاقاهُ قطْب تعبُّسِ
وانظرْ إلى حالِى فأنْتَ خبيرها قدمًا وقدِّرْ بالوفاءِ وهندسِ
واسلم على طولِ الزمانِ ممتعًا بثناءِ كُلِّ مفوهٍ ومدرسِ

ثم وليها مولانا الشريف محسن، فقام بالأمر أحسن قيام، وضبط البلاد والعباد بالضبط التام، وآمن السبل والطرق، وانتظم فى سلك طاعته سائر الفرق العاصية فى الفرق.

ثم إنهم فى العشر الأول من محرم الحرام عرضوا إلى الباب العالى، وأنهوا إلى الجناب الغالى، حضرة مولانا السلطان مراد بن أحمد خان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، طالبين إجابتهم إلى هذا المراد، وتقليد المشار إليه إيالة هذه البلاد. فإن بذلك تنتظم الأمور، ويتم أمر الآمر والمأمور، وتنصلح الأحوال، وتتضح طرق الحق على أوضح منوال.

وكان الذاهب بالعرض الأغا محمد بن بهرام. وطلع مولانا الشريف إلى المبعوث.

فلما كان اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وصل الأغا

---

(١) هذا أيضًا من قبيل المبالغات الشعرية التى يشبه فيها علم الممدوح بعلم إدريس، ودينه بدين محمد، وعلاه بعلا سليمان، وهى مبالغات مكروهة .

محمد بن بهرامَ، إلى بلد الله الحرام، فتلقى ما جاء به الأعيان، واستقبلوه إلى الزاهر إجلالا لما صحبه من البراءة السلطانية. ثم دخل من ثنية كدا المشهورة بالحجون، دخول أمراء الحاج عند وصولهم إذ يحجون. وقد امتلأت بالخلائق الشوارع، وصار كل أحد إلى استقباله يسارع.

فدخل والتشاريف محمولة على أيدى حامليها، فوصل إلى دار السعادة ودخل فيها.

فأفيضت عليه وعلى الأغا مصطفى بن حيدر الترجمان مضلعتان تمييزا لهما على سائر من كان معهما من جماعة الترجمان. ثم عاد إلى منزلهما مختلعين، وطابت منهما النفس، وقرت بهما العين.

هذا ومولانا الشريف مقيم بالمبعوث السعيد؛ لاستيفاء الصيام به وإقامة شعار العيد. فبعد أن مضت أيام الصيام، وطلع هلال العيد من الخيام. تهيأ مولانا الشريف للوصول إلى البلد الحرام؛ لتلقى الأوامر السلطانية، والخلع السنية بالإجلال والاحترام.

فوصل بجميع من معه من السادة الأشراف، ما عدا من خلفهم منهم بالفريق لحفظ تلك الأطراف.

فدخل فى موكب عظيم، ومهيع كريم، ودخل من باب السلام، إلى البيت الحرام، فقبّل يمين الله فى أرضه، وأدى بذلك واجب فرضه.

ثم عاد فجلس فى فناء جدار زمزم مقابل البيت الشريف، وأحدق به السادة الأشراف والأعيان.

ثم قدمت له البراءة والنامة العظيمة الشأن، فقام على قدميه إجلالا، ووضعها على رأسه الشريف اعتناء بشأنها واحتفالا.

فقرئت فى ذلك المحضر والجمع الأكبر، وكان القارئ لها العلامة المفتى عبد الرحمن بن عيسى المرشدى.

وبعد أن تمت القراءة، تقلد مولانا الشريف بالسيف المجوهر، ولبس التشريف الأزهر، وأفاض فى ذلك المكان جملا من القفطان، على كل من له علاقة فى هذا الشان.

ثم دخل البيت الشريف بغالب من معه من الأشراف.

ثم بعد بروزه استلم الحجر وطاف، والريس يدعو له من أعلى قبة زمزم كما هو عادة الأسلاف.

ثم ذهب إلى منزله السعيد، وجاء للتهنئة كل ذى شأن مجيد، ثم أفيضت عليه فى ذلك المكان الخلعة الثانية الواصلة من وزير مصر ذى الشان.

فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا، ومن أيام الأعياد معدودًا.

وفى سنة خمس وثلاثين فى ثانى عشر جمادى الآخرة منها: توفى السيد إبراهيم ابن بركات ابن أبى نمى، كان من أجلاء أشراف مكة، ورؤسائهم وأغنيائهم.

جمع من الضياع والعقار والإبل والخميل والنعم شيئًا كثيرًا جدًا. تغمده الله برحمته آمين.

ولما كان آخر صفر سنة سبع وثلاثين وألف: وصل إلى جدة الوزير أحمد باشا متوليًا الجهات اليمنية.

فلما وصل إلى محاذاة جدة بحيث يراها، انكسر مركبه وغرقت جميع أمواله، فتعب لذلك، ونزل إلى جدة، وأرسل إلى مولانا الشريف محسن بهدية.

ثم نزل إليه مولانا الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى المفتى الحنفى بمكاتيب من مولانا الشريف محسن، فأقام عنده أيامًا.

ثم إن الباشا أحمد: طلب من مولانا وسيدنا الشريف محسن الإعانة، فشرعوا فى تدبير ما يرسلون به إليه، وطلب غواصين لإخراج ماله وأثاثه، فغاصوا ولم يخرجوا شيئًا، فتخيل الباشا أنهم مأمورون بذلك.

ثم تنكر وتغير وسجن القائد راجحًا بن ملحم الدويدار حاكم جدة والأغا محمد ابن بهرام الشريفى أحد خدام مولانا الشريف، وكان أرسله مولانا الشريف إلى جدة بمكاتيب إلى الباشا، فأرسل مولانا الشريف الشيخ عبد الرحمن قره باش الواعظ الرومى إلى جدة لينظر فى هذا الأمر فلم ينتج شيئًا.

فلما أن كانت غرة شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصل الخبر بأن الباشا صلب راجحًا الدويدار، وكان السيد أحمد بن عبد المطلب نزل إلى جدة إليه لما سمع به، فنزل على حمار، فقالت له الأقدار: وربك يخلق ما يشاء ويختار، وكان

فى هذه المدة يتردد إليه.

فلما وصل الخبر إلى مكة بذلك حصل اضطراب وقيل وقال.

فبعد مدة يسيرة وصل خبر وفاة الباشا أحمد، وأن السيد أحمد استمال عسكره، واستولى على جدة وأموالها، وأن جدة نودى فيها لمولانا الشريف محسن، ففرح الناس بذلك كثيرًا. ففى ثانى يوم الخبر ورد الخبر بأن الأمر عاد إلى ما كان عليه، وأن السيد أحمد نودى له فى جدة، ومنع الناس من الدخول والخروج. فبرز مولانا الشريف محسن بعساكره وجنوده ونزل بـ«ومخ» اسم ماء، أو جبل بقرب جدة من جهة الشام، ووقعت هناك فتنة أن الأتراك خرجوا من جدة لأخذ إبل ترعى فى تلك الجهات، فوصل الخبر إلى مولانا الشريف محسن، فركب وركب معه السادة الأشراف والأجناد، فوقعت ملحمة عظيمة قتل فيها من الأتراك فوق الخمسين، وقتل فيها من الأشراف مولانا السيد ظفر بن سرور بن أبى نمى، ومولانا السيد أبو القاسم بن جازان وغيرهما.

ثم بعد مدة وصل مولانا الشريف محسن إلى البلد، وأقام بها وجعل هناك رتبة، وأقام على الرتبة مولانا السيد قايتباى بن سعيد بن بركات.

فلما أن كان آخر شعبان وصل الخبر بأن السيد أحمد بن عبد المطلب خرج هو والعساكر معه إلى جهة مكة، ولم يزل يسير أيامًا عديدة، وكان وصوله على جهة وادى « مر ».

فلما كان يوم سادس عشر رمضان وصل الخبر أنهم قاربوا مكة، فبرز مولانا الشريف محسن هو والسادة الأشراف، والأجناد والعبيد والصروخ فى جمع لا يحصيه إلا خالقه، وكان خروجه لذلك بعد صلاة عشاء ليلة الجمعة سابع عشر رمضان من السنة المذكورة، فالتقوا بالقرب من التنعيم، فوقعت معركة فتوحدت تلك الجموع، ولم يبق لهم همة إقدام إلا على الرجوع.

فأطلقت المدافع، وضربت البنادق، ووضح الناصح والمماذق. فتوجه مولانا الشريف محسن ومعه ابنه الشريف زيد، وبعض السادة الأشراف إلى الحسينية، ثم إلى جهة الشرق نحو «بيشة»، فجمع جيشًا كثيرًا من العربان، وقصد الإغارة على الترك المقيمين بالطائف فلم يتفق له ذلك.

ثم سافر إلى مدينة صنعاء اليمن فأقام بها إلى أن توفى عام ثمان وثلاثين وألف سادس

رمضان بها بظاهرها، وحمل إليها، ودفن بها فى قبة عالية عليها قوام وخدام بمعلوم يصل إليهم من مولانا المرحوم زيد، ثم من بعده من بنيه الأملاك، بدور الأفلاك.

كانت ولادته فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وتسعمائة بمكة المشرفة، ونشأ فى كفالة أبيه وجده، وكان جده الشريف حسن ينوه بقدره، ويقدمه لنباهته ونجابته وظهور آثار الرئاسة عليه فى صغره، وكان يقدمه فى الحروب، فيرجع مظفرًا منصورًا، وعدوه مخذولا مقهورًا.

جبل على مكارم الأخلاق، وطار صيته فى الآفاق. ولما تولى عمه أبو طالب إمارة مكة أحله محل ولده، ونزله منزلة أفلاذ كبده، إلى أن مات أبو طالب، فشارك عمه إدريس فى إمرة مكة، ولبس الخلعة الثانية، ودعى له فى الخطبة، وعقد له لواء الإمارة، وضربت النوبة الرومية فى بيته لمشاركته فى الإمرة، ووردت التشاريف السلطانية برسمه، وأتت المراسيم الخاقانية إليه مع عمه.

واستمر شريكا فى الربع إلى أن أذن له بالاستقلال بولاية الحجاز.

فجرى بينه وبين عمه حال أدى إلى قيامه عليه وتابعه جميع الأشراف على ذلك.

فخلع عمه إدريس عن ولاية مكة، واستقر فى الأمر يوم الجمعة الخامس من شهر المحرم الحرام افتتاح سنة أربع وثلاثين وألف كما تقدم ذكر ذلك آنفًا.

وكان رحمه الله من النباهة والسؤدد والرئاسة والكرم والبأس والسياسة بالمحل الأرفع.

إلا أن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، فما تنفع ذوى العقول عقولهم وليس لها مع إرادته سبحانه إصابة.

وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثمانية أشهر ونصف. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له ولأسلافه الأكرمين مغفرة جامعة.

ومما قيل فيه قول مولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى رحمه الله تعالى:

[من البسيط]

لقدْ جرى بالذِى تختارُهُ القدَرُ ... فمُرْ بمَا شئْتَ إن الدهْرَ مؤتمرُ

وضرَّ من شئتَ وانفَعْ من تشاءُ ففي ... أكفِّكَ الواكفاتِ النفْعُ والضرَرُ[1]

(١) كان أجدر بالمصنف أن يربأ بنفسه عن ذكر هذه المبالغات الفجّة، والتشبيهات التى تصطدم وعقيدة الإسلام.

والدهرُ مِنْ جيشكَ المنصورِ قائدُهُ ... ألقى يَدَ السلْمِ خَوْفًا وهو يعتذرُ
فاغفِرْ جنيَّتَهُ العظمَى لتوبَتِهِ ... إنَّ العظيمَ عظيم الذنْبِ يغتفرُ
وقد أتَى مقلعًا عن جرمِهِ ملكًا ... يسطو انتقامًا ويعفُو وهوَ معتذرُ
ذا هيبةٍ رابَ ريب الدهر فانقلَبَتْ ... تغزو عداه صُرُوفُ الدهرِ والغِيَرُ
وسطوة تتركُ الآسادَ واجمةً ... لم ينجُ مِنْ رُعْبها نابٌ ولا ظُفُرُ
به تبلَّجَ صبْحُ الملكِ وابتسمَتْ ... ثغورُهُ ودياجى الخطْب تعتكِرُ
وأصبحَ الدسْتُ معمورًا وكافلُهُ ... ملك به أضحَتِ الأملاكُ تفتخرُ
أخبارُهُ صغرتْ أخبارهم عظمًا ... كما برؤيتِهِ يستصغرُ الخبرُ
ليثٌ إذا خطَّ سطرًا نصل قاضبه ... مالَتْ لتعجمه الخطِّيةُ السمُرُ
كأنه لاعبٌ يرمى الرءوسَ به ... بالصولجانِ فتلْكَ الأرؤسُ الأكرُ
ما كَرَّ بعد ورودِ الحربِ قطُّ وهَلْ ... يكرُّ من ليس عن وِرْدٍ له صَدَرُ
ولم يفرَّ وهَلْ يدنو الفرار فتًى ... بالعزمِ مُدَّرِعٌ بالنصْرِ معتجرُ
فتى له جيشُ عزمٍ قد أحاطَ مِنَ السْ ... سِتُّ الجهاتِ به التأييدُ والظفَرُ
ينمى إلى دوحَةٍ للملْكِ زاكيةٍ ... قد طابَ عُنْصُرُهَا والفرْعُ والثمرُ
أَغَرُّ ثَبْتُ الجنانِ الفارسُ البطلُ الـ ... لَيْثُ الهمامُ الشجَاعُ الصارمُ الذَّكَرُ
ألقائدُ الخيلَ إنْ رامَتْ مدى وضعتْ ... فى خَطْوها يدها حيْثُ انتهى البَصَرُ
مِنْ كُلِّ أدهَمَ يكسى مِنْ دَم حُلَلًا ... كأنه بلظَى الهيجَاءِ يستعرُ
وكلّ أشهَبَ محجولٍ قوائمُهُ ... أغرّ أبْلجَ ما فى باعه قِصَرُ
وكلّ طرفٍ يدكُّ الصخْرَ حافرُهُ ... وطئًا تطاير من صدماته الشرَرُ
كأنما تطلبُ الأقدامُ أيديها ... فلا تقرُّ ولم يلحقْ لها أَثَرُ
تخالُ تصهالَهَا رعدًا يزمجرُ في ... سحابِ نقعٍ مُثَار برقُهُ البترُ
مهذبات إذا نار الوغَى استعرَتْ ... لا بالعنانِ ولا بالشكْلِ تنحجرُ
عليهمُ الأسْدُ فرسانًا مصورةً ... تطيعُهُمْ كيفَ ما شاءوا وتنزجرُ
وكل أصْيَدَ مرِّ الحدّ ذى جَلَدٍ ... ما مسَّهُ سأمٌ فيها ولا ضَجَرُ
مِنْ كُلِّ شهمٍ شديدِ البطشِ منصلِتٍ ... كالسهْمِ إذ ثارَتِ الهيجاءُ يبتدرُ
وكُلِّ ذى لمةٍ سوداءَ حالكةٍ ... كالليلِ فى جنحِهِ قد أشرَقَ القمَرُ

قوم إذا الْتَأَمُوا كانُوا الأهلَّةَ والـ ... أقمار إن سفروا والأسْدَ إن زأروا
كأنهم والصَّبَا تسرِى بنَشْرِهِمُ ... فى محكَم الزردِ الأكمامُ والزهرُ
بهم حوى الفَخْرَ أبناءُ الرسولِ كما ... به على العُرْبِ فخرًا قد حوتْ مُضَرُ
يسوسُهُمُ صادقُ الآراءِ فطنتُهُ ... تقضى بما هو آتٍ قبلُ والْفِكَرُ
متوجٌ هو فيهم مثلهم شرفًا ... فى قومِهِمْ وهُمُ فى قومهم غُرَرُ
إذا بدا بينهم فى موكبٍ تره ... كأنه البدْرُ دارَتْ حوله الزهرُ
لو أن مِنْ بعد طه مرسلاً نزلَتْ ... عليه فى وصفِهِ الآياتُ والسوَرُ
صفات أروَعَ لا تحصَى محامدُهُ ... وليس يحصُرُهَا قولٌ فتنحصرُ
وكيف يحصرُ بالألفاظِ قولُ فتًى ... مطولُ القولِ فى معناه مختصرُ
سمحُ الأكفِّ كريمٌ عَمَّ نائله ... معطى الجزيلِ ابتداءً وهو يعتذرُ
كأنما كَفُّهُ تهمى بنائلِهِ ... غمائمٌ بولى الجودِ تنهمرُ
أو دوحة غَضَّة الأغصانِ دانية ... قطوفُهَا بنسيم العرفِ تنهصرُ
يَلْقَى النضارَ لديه المعتفون قِرًى ... كأنما لقِرَاهُمْ تنحرُ البدرُ
دعاه يا محسنًا لما تفرسَ مِنْ ... مرآهُ والدُهُ الإحسان ينتشرُ
فجاء مصداقُ كُلِّ اسم لصاحبِهِ ... منه نصيبٌ بما يأتى وما يَذَرُ
فيا أبا الجودِ يا جَمَّ المواهبِ يا ... أخا الندَى مفخَرَ الأقوامِ إن فخروا
يابْنَ الحسينِ لقد وافَتْكَ واصلةٌ ... عذراءُ قد فاتَ منها غيرَكَ النَّظَرُ
لم ترضَ غيرك كفوًا والصداقُ لها ... صدقُ القبولِ فما لى غيرَهُ وَطَرُ
فلستُ ممن يقولُ الشعْرَ مبتغيًا ... به افتخارًا وما بالشعْرِ يفتخرُ
سَلْنِى وسَلْ عنىَ الأقوامَ مختبرًا ... لا يعرفُ المرءُ إلا حين يختبرُ
عمرى ولولاكَ يا حامى الذمارِ لما ... صُغْتُ المدائحَ أبديها وأبتكرُ
فسرِّحِ الطرفَ فيها روضةً أنفًا ... غنَّاءَ يقصرُ يحكى نظمها الدُّرَرُ

ومما قيل فيه أيضًا قول العلامة القدوة المفيد الفهامة مولانا الإمام عبد القادر الطبرى الحسينى رحمه الله تعالى: [من الكامل]

لا والنواعمِ مِنْ جوارى العينِ ... ما احتجْتُ فى حملِ الهوَى لمعينِ
وبما لَهُنَّ علىَّ مِنْ خَلْعِ العذا ... رِ إذا سفرْنَ بطرةٍ وجبينِ

ولعبْنَ بالألباب عند تمايسٍ بمعاطفٍ تزرى الغصُونَ بلينِ
أنا ذلك الصبُّ الذى قِدْمًا صبا بصبا الصبا وإلى الغرامِ حَنِينِى
غيثُ السحائبِ مدمعى وهَوَى لظَى نفسى ورعْدُ الصاعقاتِ أنينى
يبرينىَ النجديُّ من ألم النَّوَى ويـذيـلـنـى بـردًا ظبـا يـبـريـنِ
ويعلُّنى الوجدان أعذَبَ موردٍ ويعلُّنى السلوانُ عنه سلونى
لا يعذلُ المشتاقَ إلا مثلُهُ هيهاتَ ذلك فهو بئس قرينِى
ما مرَّ بى فى العشقِ إلا ما حلا لـفـؤادِ كُـلِّ مـولَّـه وحـزيـنِ
شرْعُ الهوَى فرضِى وحُسْنُ تهتُّكى نَفْلِى ومذْحِى محسنًا مِنْ دينى
إبنُ الحسينِ أبو الحُسَيْنِ أخو التقَى من لَيْسَ يرضى فى العلا بالدونِ
عالى الجنابِ إذا انتحَى وإذا انتخَى سهْل الحجابِ بغاب ليث عرينِ
ذو هيبةٍ حلَّتْ قلوبَ عداته لو أنهم حَلُّوا أقاصى الصينِ
من عزمِهِ ساحَ الحديدُ وسالَ إذ سلَّتْ فحاكى السيح من سيحونِ
يروى الأسنةَ والشوازبَ من دَمِ الـ أعداءِ لا يَرْضَى لها بمعينِ
ويرى المُنَى نزعَ النفوس بما بها مِنْ كُلِّ غلٍّ فى الصدورِ كمينِ
ألله ما أعلَى مرامى ظنِّهِ طبق القضا فى شأنِ كل ظنينِ
وأحسَّهُ بالأمْرِ قبل وقوعِهِ وخطورِهِ فى عالم التكوينِ
يرضيكَ إنْ هزَّ القنا بشماله وإذا انتضَى سيف القنا بيمينِ
فيريكَ لمْعَ البرقِ فى ظُلَم الحشا سيل العقيقِ ومدهق الزرجونِ
ثملَتْ به عللاً رءوسُ رماحِهِ فبدَتْ معربدةً بقطْعِ وتينِ
وصحَتْ فأنهلَهَا الظهورَ فحطَّمَتْ أضلاعَ كلِّ مجدلٍ وطعينِ
وبها حمى أُمَّ القرَى فدعِ القرى متسفلاً فى الإرتقا بمئينِ
مَنْ ذا يقاومه إذا اشتد الوغَى إلا فتًى يرجو لقاءَ منونِ
هذا التقىُّ الطاهرُ الذيل الذى يسمو بعرضٍ فى الأنام مصونِ
مولى الجميلِ وباذلُ الفضلِ الجزيـ لِ وكاشفُ الخطبِ الجليلِ لحينِ
حكتِ السحائبُ كفَّهُ فبكَتْ على ما فاتَهُ من سَحِّهِ بهتونِ
قسمًا به لم يحكِهِ فى جودِهِ إلا الذى أضمرْتُ طَيَّ يمينى

فهُمُ هُمُ بيتُ النبوةِ والحجا | والبر أربابُ التقى والدينِ
إنْ تلقه لم تلْقَ إلا محسنًا | من محسنٍ من محسنٍ بضمينِ
واعقدْ يمينك إنه مِنْ عقدهم | عين القلادةِ فصلَتْ بثمينِ
من رام عزًّا فلينخْ برحابه | أملاً فيذهبَ عنه ذُلُّ الهونِ
ما سامَ مرعَى خصبِهِ متضائلٌ | إلا تبدَّلَ غثُّهُ بسمينِ
يابنَ النبىِّ إليكَهَا نونيةً | بالكافِ قدَّرَهَا القضا والنونِ
وَافَتْكَ كالطاووس تزهو عزةً | مذ دُبِّجَتْ بغلائلِ التلوينِ
خذ فألها الحسَنَ الجميلَ وقولَهَا | كُنْ كيفَ شئتَ بغايةِ التمكينِ
فالطِرْسُ منها أخضَرٌ والسطْرُ فيـ | ـه أسودٌ يستلُّ بيضَ جفونِى
أثنَتْ عليك ببعضِ حقكَ فاغتفرْ | تقصيرها فى المدْحِ لا التحسينِ
لا زلْتَ فى أوجِ السعادةِ راقيًا | بدوامِ عِزٍّ فى الفخارِ مكينِ

ودخل الشريف أحمد بن عبد المطلب مكة ضحى اليوم السابع عشر من رمضان والمنادى بين يديه، وكان دخوله من الحجون فاضطربت الأفكار، وتعبت الناس، وأول ما بدأ به دخول المسجد من باب السلام.

وفتحت له الكعبة الشريفة فدخلها، ثم عزم إلى المحل الذى أراد السكنى به فنقول:

ثم وليها الشريف أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبى نمى بتولية الوزير أحمد باشا إياه كما تقدم ذكر ذلك، فوقع من العسكر الذين كانوا متوجهين مع الباشا المذكور إلى جهة اليمن تسلط على بيوت الناس لما فى نفوسهم على أهل مكة، فأدى ذلك إلى القيل والقال، وحصل لهم منهم الخوف العظيم، فكان ذلك لما أراد الله سببًا لمخالفة القبائل، وتخطفهم فى الطرق لمن مر بهم من الأعراب وغيرهم، وقبض على المرحوم مفتى الحنفية الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى، وحبسه مضيقًا عليه لأمر نقمه منه.

فلما كان موسم السنة المذكورة -أعنى سنة سبع وثلاثين وألف- قدم الحاج المصرى وأميره قانصوه باشا، وكان بين قانصوه هذا وبين الشيخ عبد الرحمن مودة أكيدة ومكاتبات سابقة.

فلما صعد الحجيج عرفة أتى حريم الشيخ إلى مخيم قانصوه مستشفعات به إلى الشريف أحمد بن عبد المطلب فى إطلاق الشيخ، فرقَّ لهن رقة عظيمة، وتوجه متوجهًا إلى الشريف أحمد يوم عرفة فلم يوجهه ولم يؤيسه.

فلما كانت ليلة النحر توفى الشيخ رحمه الله شهيدًا، فكان ذلك مع قضاء الله تعالى سببًا لوقوع ما وقع منه فى الشريف أحمد بن عبد المطلب.

وفيها ظهر يوم الخميس ثامن عشرى ربيع الثانى: توفى مولانا السيد الجليل، ذو المجد الأثيل، خاتمة المحققين، شيخ الإسلام والمسلمين، شمس المعارف والعلوم، ترجمان المنطوق والمفهوم، المتفق على إمامته، والمجمع على ورعه وجلالته. إنسان عين العلماء العاملين، أستاذ الأئمة المدققين. صدر المدرسين العظام، مفتى بلد الله الحرام، مولانا الولى القطب العارف بربه، الفائض عليه مدرار الفيض الإلهى مع كسبه، مولانا السيد الشريف، حاوى مرتبتى العلم والعمل، البالغ فيهما أوج غاية الأمل، الجامع إلى شرف النسب العلى، شرف العلم الجلى، مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم البصرى الخسينى الشافعى بمكة المشرفة.

أخذ عن الشمس الرملى، والعلامة ابن قاسم، والملا عبد الله السندى، والملا على بن إسماعيل العصامى، والقاضى على بن جار الله، والشيخ عبد الرحيم الأحسائى، والسيد مير بادشاه، والملا نصر الله وغيرهم.

وأخذ عنه شيخنا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال، وشيخنا الشيخ عبد الله باقشير، وشيخنا الإمام زين العابدين بن عبد القادر الطبرى، والشيخ محمد بن عبد النعم الطائفى، والسيد عبد الرحمن كريشة السقاف، والسيد صادق باد شاه مفتى الحنفية، وغيرهم رحمه الله وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وقد اختلفت الأقوال فى سبب قتله الشيخ عبد الرحمن المرشدى، فقيل تعريض الشيخ المذكور بالشريف حين خطبة عقده التى خطب بها فى زواج سلطانة ابنة على شهاب، وكان الشريف أحمد طلب التزوج بها فلم يزوجه، فعرض الشيخ بذلك حيث قال فى مبتدأ الخطبة المذكورة: الحمد لله الذى أعز سلطانه ودحض شيطانه.

وقيل: إنه جاء إلى الشريف المذكور عند موت أخيه السيد محمد بن عبد المطلب معزيًا لابسًا صوفًا أبيض.

وقيل: إن الشريف أحمد حين استولى على مكة، وطلع إلى دار السعادة على فرش الشريف محسن وجد تحت طرف المرتبة فتيا من الشيخ المذكور بتسميتهم بغاة جائرين ظالمين، وبوجوب قتالهم بخطه المعروف واسمه الموصوف، والله تعالى أعلم أيًا كان ذلك.

وكانت ولادته سنة خمس وسبعين وتسعمائة، وأرخت بما نصه «شرف المدرسين» .

وفيها أيضًا كانت وفاة جدى العلامة الشيخ عبد الملك بن جمال الدين بن إسماعيل صدر الدين ابن العلامة المحقق إبراهيم عصام الدين الشافعى المكى الشهير بالعصامى الملقب بخاتمة المحققين.

إمام العلوم العقلية والنقلية، وخاتمة علماء العلوم الأدبية، وعلم الأئمة الأعلام، بحر العلوم المتلاطمة بالفضل أمواجه، وطود المعارف الراسخ، الناتجة لديه أفراده وأزواجه. علامة البشر، فى القرن الحادى عشر، والرحلة التى ضربت إليه أكباد الإبل، والقبلة التى فطر كل قلب على حبها وجُبل.

جمع فنون العلم فانعقد عليه الإجماع، وتفرد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع. فما من فن إلا وله فيه القدح المعلّى، والمورد العذب المحلى. إن قال لم يدع مقالا لقائل، أو طال لم يأت غيره بطائل.

مولده كان بمكة سنة ثمان وسبعين وتسعمائة كان تاريخه «نعم المولود ذا»، وبها نشأ وأخذ عن والده، وعن الشيخ العلامة عبد الرءوف المكى وعن خاتمة المحققين الشهاب أحمد بن قاسم العبادى والعلامة أحمد بن عواد المصرى، والخطيب عبد الرحمن ابن الخطيب الشربينى، وأجازه بمروياته بإجازة بخطه سنة تسع بعد الألف، وعن غيرهم.

وعنه مولانا الشيخ محمد على بن علان الصديقى، والسيد صادق بادشاه، ومولانا الشيخ عبد الله باقشير الحضرمى، ومولانا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال الأنصارى، ومولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى، ومولانا الخطيب أحمد ابن عبد الله البرى المدنى، والشيخ محمد بن عبد المنعم الطائفى، وخلق.

ولازم الأمراء والتدريس فى كل علم نفيس، وجدد مغنى العلم الدريس، واشتغل

بالتصنيف والتأليف، وتخلى عن كل أنيس وأليف، حتى بلغت مؤلفاته الستين، بين شرح مفيد ومتن متين، منها شرح الشذور سماه «شفاء الصدور»، وشرح على القطر، وشرح على الشمائل، وحاشية على شرح التحرير، وشرح على الألفية النحوية لم يتمه، وشرح على الزنجانى، وحاشية على شرح القطر لمصنِّفه، وشرح على إيساغوجى، وشرح الخزرجية، وشرح على استعارات السمرقندى، وغير ذلك من المصنفات المشهورة تبلغ العدة المذكورة، إلى زهد وورع وصلاح، أشرق نورها فى أسرة وجهه ولاح، وبينه وبين علماء عصره مكاتبات كثيرة، وأسئلات سطر عليها أجوباته المنيرة. وكانت وفاته بطيبة ودفن ببقيع الغرقد، رحمه الله وأعاد علينا من بركاته آمين.

وفى سنة ثمان وثلاثين فى صفر منها: وقع فى أعمال مصوّع زلزلة شديدة، ثم تصاعدت إلى برِّ العبيد، وما زالت تعمل إلى الأجمدة، وفقدت بلد بمن فيها فلا يعلم أخسف بها أم رفعت إلى السماء، ولم تزل الزلازل تعمل فيهم حتى انسد بالحجارة النازلة عنها ما بين جبلين، ويرون لهب النار، وجرَى الدم على وجه الأرض، بعد نبعه منها كجرى الماء، واستمر بهم هذا الأمر إلى بعد ذى الحجة، ثم ارتفعت عنهم الزلزلة وجرى الدم، وذهب أثره عن الأرض، غير أنه بقى فيه أثر النار نهارًا، ولهبها ليلاً، فسبحان الفعال لما يريد.

وفيها فى رمضان منها كانت وفاة الشريف محسن بن حسين، وقد ذكرناها مع ما يتبعها آنفًا.

ثم استمر الشريف أحمد فى الولاية إلى أن حج بالناس حجة ثمان وثلاثين وألف، فجاء للحجاج أمير منفرد، وجاء قانصوه باشا متوجهًا لفتح اليمن، صحبته العساكر، وعدتها ثلاثون ألفًا، وضرب وطاقه فى أسفل مكة.

وكانت بين الشريف مسعود ابن الشريف إدريس، وبين الشريف أحمد بن عبد المطلب ممالأة ومواطأة قبل نزوله إلى جدة مضمونها: إنى لا أريد الملك لنفسى إنما أريده لك، أو هوَ بيننا فخذل عنى ما استطعت من آل أبى نمى، وثبِّطهم، وحل عزائمهم، ووعده بذلك ففعل ما فعل، وحصل به على الشريف محسن ما حصل ولله الأمر.

فلما نزل إلى جدة تقمصها لنفسه، ولم يف لمسعود ببعض ما بينهما بل أراد قتله، ففر إلى قانصوه، والتجأ، وصدر قانصوه على الشريف أحمد مملوء بالوجاء، فلما أقبل قانصوه قاصدًا لليمن، لاقاه الشريف مسعود من ينبع، أو الخور، وجاء معه مختفيًا، ولم يزل به محتفيًا، وواجه فى المجيء الأول الشريف أحمد قانصوه، ورد عليه تحية القدوم.

ثم عزم على محاربة قانصوه فازداد قانصوه عليه حنقًا على حنق، وشرع يستميل عسكر الشريف أحمد فأطاعوه، فخرجوا من مكة، ثم خيم قانصوه بالزاهر.

ولما أن قضت الحجاج مناسكهم، وذهبوا إلى أوطانهم، تخلف قانصوه بوطاقه أسفل مكة، فلما تحرك للسفر قدم ثقله، ولم يبق إلا وطاقه، وخيام العساكر، فأشار قانصوه إلى شخص يتعاطى خدمته من أبناء الطواف يسمى محمد المياس، أن يحسن للشريف أحمد الوصول إلى قانصوه للوداع ففعل، وذهب إلى الشريف، وحسن له ذلك يوم السبت رابع شهر صفر، فلما كانت ليلة الأحد خامس الشهر المذكور من سنة تسع وثلاثين وألف، ركب الشريف أحمد إليه، وصحبته من الأشراف شبير بن بشير بن أبى نمى، ومحمد بن حسن بن ضبعان، وراجح بن أبى سعد، ومن أعوانه وزيره مقبل الهجالى، وأحمد البشوتى متولى بيت المال وفليقل، فلم يزالوا يدخلون فى الصيوان من باب، إلى باب، يمنع عند كل باب طائفة من أتباعه حتى دخلوا، فتحادثا مليًا ثم نصبا رقعة الشطرنج، فلما كانت الساعة الخامسة من الليلة المذكورة قبض على الجميع، فتوفى الشريف أحمد، شهيدًا إلى رحمة مولاه، وقتل الهجالى وفليقل، وصلب البشوتى، وأطلق الأشراف فتحركت عساكره، فأظهره لهم ونشر البيرق، ونودى المطيع للسلطان يقف تحية فوقفت العساكر تحية، وخلع على الشريف مسعود بن إدريس. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير؛ سبحانه.

ثم حمل الشريف أحمد وأتى به من طريق الحجون، فدفن بالمعلاة رحمه الله من شهيد.

كذا ذكره فى «الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر» .

وقد كان الشريف أحمد ليث آل أبى نمى، أديبًا فاضلا نبيهًا مهيبًا: [من المنسرح]

تَعْرِفُ مِنْ عينه نجابَتَهُ　　كأنه بالذكَاءِ مكتَحِلُ

أخذ العهد، والطريق على عدة مشايخ، من أجلِّهم الشيخ أحمد الشناوى، وهو المباشر له بولاية مكة لكنه قال: على الشهادة يا أحمد، قال: على الشهادة.

فكان كثيرًا ما يكنى عنها بطلوع الشمس، وعاقب بعد الولاية كثيرًا ممن كان قبلُ استبعدها عنه، وسخر منه، وكان له أخدان وجلساء قبل الولاية وبعدها، فحصل لهم الأذية بعد قتله من قانصوه، بوشاية هذا الشخص المسمى بالمياس، منهم السيد الأكرم، مولانا السيد سالم ابن السيد أحمد شيحان، ومولانا الشيخ أحمد القشاشى، ومولانا الشيخ محمد القدسى خليفة سيدى أحمد البدوى، فحبس الجميع، وثقل عليهم حتى افتدوا أنفسهم بمال جزيل كان ذلك بوشاية المياس، أذاقه الله كل باس، يوم يقوم الناس.

وكان للشريف أحمد زوجان من القنا الطويل جدا بسنان مذهَّب تحته أُكرة من الفضة المطلية، يحمل كل واحد رجل يمشى على قدميه، إذا سار فى موكبه يسيران أمامه قريبًا منه يصوبانهما، ويصعدانهما بحركة لطيفة التصعيد والتصويب على سواء، وربما كان فيهما جلاجل.

وهذا يفعل إلى الآن أمام إمام اليمن إذا سار فى الموكب. انتهى.

قلت: وهذا كان له وجود فى زمان الخلفاء العباسيين، فليس أهل اليمن أول مبتدعيه، وقد ذكره شعراء الدولة العباسية فى قصائدهم فى الخلفاء.

قال القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرّجانى، من قصيدة يمدح بها الوزير أنو شروان وزير الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسى قوله: [من الطويل]

وألوية منهنَّ صقران أوفيا عَلَى علمى رمحيْنِ فارتَبَآكا
ولَيْسَ سوى النسرين مِنْ أفقيهما لحبهما نَيْل العلا تَبِعَاكَا

وكان إذا سار بالليل لا يوقد بين يديه إلا الشمع الموكبى بدلا عن المشاعل، وكان دخوله مكة متملكا لها، وإجفال الشريف محسن صاحب مكة، وبنى عمه عنها ضحى يوم الأحد السابع عشر من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وألف، فكان رحمه الله يتبجح ويقول: فتحت مكة بالسيف، كما فتحها رسول الله ﷺ، ودخلتها فى مثل اليوم الذى دخل فيه ﷺ.

قلت: أما قوله: فتحتها فالمشهور الذى عليه الجمهور أنها لم تفتح عَنوة، وإنما

فتحت صلحًا، وما وقع من خالد بن الوليد رضى الله عنه، فإنه نووش بعض قتال مع الأحابيش، وعبدان أهل مكة فى أسفلها، وقد نهاه ﷺ عن القتال، ولكنه لما قوتل قاتل، وهذه هى شبهة القائل، بأنها فتحت عنوة، وقد علمت بيانها.

وكذلك قوله: ودخلتها. . . إلخ، فإنه لم يدخلها عليه الصلاة والسلام فى سابع عشر رمضان، وإنما دخلها يوم ثامن عشره بغير خلاف.

تغمده الله برحمته آمين.

ومما رأيته لصاحبه إبراهيم بن يوسف الشهير بالمهتار قوله: [من الخفيف]

سنة السبعِ والثلاثينَ بعد الـ ألْفِ جاءَتْ بما به ينفر الطَّبْعْ
دخَلَ السبْعُ مكةَ الله بالجنْـ ـدِ ولا شَكَّ أنها سنة السَّبْعْ

وكانت مدة ولايته سنة، وأربعة أشهر، وثمانية عشر يومًا.

ومما قيل فيه قول الأديب الأريب إبراهيم بن يوسف المهتار سامحه الله تعالى: [من الرجز]

قَضَّى ولم يقضِ الذى منه يجبْ صَبٌّ إذا ما يدعه الشوقُ يُجبْ
أشجاه تغريدُ حماماتِ اللوَى وهْنًا على البانِ فغنَّى فطَرِبْ
ذكَّـرتُـهُ لـيـالـيًـا مـواضـيًـا بالشِّعْبِ مِنْ قبلِ الخليطِ ينشعبْ
إذْ عـامـرٌ بـسـاكـنِـيـهِ عـامـرٌ ظباؤُهُ ترعَى بمرعاه الخَصِبْ
وإذ به الغيدُ بدَتْ سوانحًا تجرُّ من ذيل الصبا بُردًا قشبْ
مِنْ كُلِّ هيفاءِ القوامِ اذا انثنَتْ تكادُ مِنْ لينٍ به أن تنقضبْ
تبدو بوجْهٍ مسفرٍ من غيهبٍ مِنْ شعْرها إلى بنى بَدْر انتسبْ
مِنَ الرعابيبِ اللواتى خَلَّفَتْ ربْعَ اصطبارِى مثل مغناه الخَرِبْ
فما وقوفى بالطلولِ بعدهم أبكى بها والحىُّ عنها مغتربْ
سقيا سقى الله العباد معهدًا بعامر إنْ ضنَّ دمعى المنسكبْ
ذاك الذى به الظُّبَا تحمِى الظبا فكَمْ به مثلى أسيرٌ مكتئبْ
لـلـه أيـامٌ بـه تـصـرمَـتْ وكأسُ صفوٍ فى لياليها شُرِبْ
بفتية تراضعوا ثديًا من الـ آدابِ كُلٌّ لـلـغرامِ مـنـجـذبْ
يوشون شعرًا كالرياضِ بينهم طويلُهُ يمد لفظ المقتضبْ

لم ينشدوا إلا شجانِى لفظهُمْ ما الشعْرُ إلا ما شجا قلْبَ المحبّ
كـلُّ أخـى صـبـابـةٍ وعـارفٍ يوجدُ فردًا قبل ألاَّ يصطحبْ
بثْنَا بـهـا كـلُّ شـكـا غـرامَـهُ من الذى يهوَى بقلْبٍ ملتهبْ
والـلـيـلُ قـد تـسـتَّـرَتْ نـجـومـه بسحبها والبدْرُ فيها محتجبْ
والمزنُ تبكى لابتسامِ البرْقِ أو من غضبٍ لأحمدَ بْنِ المطلبْ
ألأروَعُ الشَّهْمُ الكَرِيمُ الجدُّ رَبْ بُ الْجدِّ حاوى المَجْد عَنْ أهل اللعبْ
ألفارسُ الخيل إذا الشرُّ بدا مَعْ عمرِو الكرارِ أو معدى كربْ
مملى العيونِ هيبةً إذا مشَى مجلى القلوبِ رهبةً إذا ركبْ
هو الكريمُ ابنُ الكريمِ مَنْ له ذيلٌ على هامِ السماكِ منسحبْ
مِنْ معشرٍ هُمُ السراةُ فِى الورَى كُـلٌّ إلـى آلِ الـنـبـيِّ مـنـتـسـبْ
مُرْوِى الظبا من الصّدَا إذا سطا مُزْرِى الحيا يوم الندَى إذا يهبّ

ولم يوجد من هذه القصيدة إلا ما رأيته، ثم إنه مدحه أيضًا وأشرك معه أخاه محمدا بإشارة بعد وقعة البقرة وقد ظهرت شجاعتهما فقال: [من الكامل]

إن كان تسآلُ الديارِ كما يجبْ يُجدِى فَلِمْ بسؤالها قلبى يجبْ
ما نافعى إنْ أشكُ بَثَّ صبابتي لرسومها والحيُّ منها مغتربْ
يا أَحْمَدٌ ومحمدٌ وثقَتْ يدى نِعْمَ الرجا أبناءُ عبد المطلبْ
ألسابقين إلى الوغَى بعزائمٍ تذكى شواظًا كالصوارمِ ملتهبْ
سل عنهما بيضَ الصفاحِ ولهذم السْـ سُمْرِ الرماحِ وجحفَل الجيشِ اللجبْ
هلْ شاهدوا إلا هما وهما هما دَعْ عنتَرَ الكرارَ أو معدى كربْ
سدتمْ ملوكَ الخافقَيْنِ أما ترَى من كان يبغى شأوَ غايتِكُمْ غُلِبْ
إن كان من يرجو الشفا بدمائِهِمْ فدماءُ أعبدكُمْ شفاءٌ للكَلِبْ

ثم وليها الشريف مسعود بن إدريس، واستمر فى ولايتها، وكانت مكة فى زمنه ربيعًا مريعًا سخاء ورخاء، تهب بها رياح الأمن والعدل صبًا ورخاء، لم يقع فى الوجود شىء فى زمنه من الأكدار، ولا يؤثر من الأخبار إلا كل خبر سار، ما عدا ما قدره الله تعالى من سقوط البيت الشريف فى زمانه، فجدده سلطان العالم القائم بحفظ الدين وتشييد أركانه.

وسبب ذلك أنه يوم كان يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة تسع وثلاثين وألف: نشأت على مكة وأقطارها سحابة غربية، مدلهمة الإهاب، حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت، وأرخت عزاليها وأغدقت، واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين، فأقبل السيل من سائر النواحى، وثلم السد الذى يلى جبل حراء، المسمى جبل النور - ثلمة كبيرة وعلا عليه، فدخل المسجد، وساق ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك، وأخرب الدور، واستخرج ما فيها من الأثاث وغيره، وأهدم عليها، فامتلأ المسجد الحرام ماء حتى أنه دخل الماء إليه من جهة باب الزيادة، وزاد حتى اعتلى على باب الكعبة ذراعين عمل، وأهلك الرجال، والأطفال، وكل من وجد فى المسجد، وكان أكثر الهالكين: الأطفال الذين يقرءون القرآن مع فقهائهم، فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع.

وكان من هلك به من بنى آدم خمسمائة، ومن الحيوان كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحمل جميع ما فى المسجد من خزائن، ومصاحف وقناديل وبسط، وغير ذلك، ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كان آخر ساعة قبيل الغروب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور سقط جانب الحِجْر - بكسر الحاء - من البيت الشريف، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها، فكان بقاء البيت نحو ألف سنة من الآيات الجلية، فإن البناء المربع الذى تمر به الرياح لا يبقى عادة نحو ثمانين سنة، ومن الجانب الشرقى إلى حد الباب، ومن الجدار الغربى نحو النصف أيضًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فقال فى ذلك المهتار هذه القصيدة: [من البسيط]

ماجتْ قواعدُ بيتِ الله واضطربَتْ ... واهتزَّتِ الأرضُ من أقطارها وربتْ

وأمسَتِ الكعبةُ الغراءُ ساقطةً ... فما أشكُّ بأنَّ الساعةَ اقتربَتْ

فأىُّ خطْبٍ به أحشاؤنا انصدَعَتْ ... وأىُّ هولٍ به ألبابُنَا انسلَبَتْ

وجميعها على هذه الركة تركتها استحسانًا، وأنفت من ذكرها استهجانًا.

قال المرحوم العلامة الإمام على بن عبد القادر الطبرى يعنيه: وقد نظم بعض المتطفلين على الأدب قصة السيل المذكور مع قصة ما وقع بعده فى أبيات تنفر عنها المسامع لركاكتها وقبحها، واستهجان الطباع السليمة لها، يشير بذلك إلى هذه

القصيدة التى مطلعها «ماجت»، ولقد صدق فيما قال رحمه الله.

نعم قوله فى تاريخ هدم البيت بالسيل المذكور: [من الخفيف]

هدّمَ البيت أمر رَبٍّ تغشّا ... هُ بسيلٍ لم يحوِ غرقاه ضبط

فى نهارِ الخميسِ عشرينَ شعبا ... نَ قبيلَ الغروبِ مِنْ عام (لغط)

لا بأس به. وقال الإمام فضل بن عبد الله الطبرى مؤرخًا لذلك: [من مجزوء الرجز]

سُئلْتُ عَنْ سيلٍ أتَى ... والبيتُ عنه قد سقَطْ

متَى أتى؟ قلتُ لهُمْ ... مَجِيئُهُ كَانَ (غَلَطْ)

وله تاريخ آخر من أبيات «رقى إلى قفل بيت الله» وتتمة المصراع «حين هجم» وقال القاضى الأحسائى: [من المجتث]

مِنْ بعْد إخراجِ ترك ... وقَتْلِ مَنْ ملَكَتْهُ

للبيت هدَّتْ سيولٌ ... تاريخُهَا دَخَلَتْهُ

فوقع الضجيج العام، والانزعاج التام، فى قلوب الأنام، فبرز مولانا الشريف مسعود من داره إلى المسجد الحرام، وحضر معه السادة الأشراف، وفاتح البيت الشريف وهو الشيخ محمد بن أبى القاسم الشيبى، والعلماء والفقهاء والصلحاء، وكان جلوسهم بمقام الحنفى وجلوس الشريف على نفس المحراب كما أخبرنى من رآه كذلك، فبرز أمر الشريف مسعود بإيقاد الشموع الكائنة فى حاصل المسجد الحرام فأوقدت، وأمر فاتح البيت أن يدخل الكعبة ويخرج القناديل التى بها خشية عليها من الضياع، وأن يرفع الميزاب الشريف أيضًا، فعين الشيخ شخصًا من خدام الكعبة لذلك لكونه فى أثر مرض يمنعه من الحركة التامة، فدخل ذلك الخادم ومعه جماعة، وأتى شيخ الوقادين بالمحط، وأخرجوا القناديل، ووضعوها فى مخزن فاتح البيت، وختم على المخزن المذكور مولانا الشريف، وقاضى الشرع ونائب الحرم الشريف، ثم انصرف الناس إلى دورهم.

فلما كان يوم الجمعة حادى عشرى الشهر المذكور وصل الشريف مسعود، ومعه السادة والأعيان بعد النداء العام بتعاطى هذه الخدمة، وشرعوا فى إزالة الطين الكائن بالمطاف، فشمر الشريف مسعود عن أكمامه، وأخذ مكتلا وحمل فيه من الطين،

وفعل الناس كذلك، فجزى الله الجميع خيرًا، وأثابهم على فعلهم، فما كان بأسرع من تنظيف المطاف وما حوله، فباشر الخطيب الجمعة، وأقام شعارها، ثم شرعوا فى رفع الأحجار، فمنها ما جعلوه خلف مقام الحنفى، ومنها عند ممشى باب السلام بالقرب من المنبر.

ثم إن الشريف جهز قاصدًا من مكة، ومعه السيد على بن هيزع لتعريف باشا مصر المحروسة ووزير جهاتها المأنوسة بهذا الخبر ليعرضه على الحضرة الخنكارية، وصحبتهم مكاتيب مولانا الشريف مسعود، ومحاضر من الأعيان وفتاوى العلماء، فعزم القاصد المذكور من مكة أواخر شعبان، ثم إن الشريف برز أمره العالى إلى المهندسين، والفعلة بتنظيف باطن الكعبة مما وقع فيها من الأحجار والتراب فنظفت، ثم إن الشريف أرسل إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا فى العمارة، فوصل الخشب آخر رمضان، فستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا بابًا لطيفًا من خشب فى الجهة الشرقية.

فلما كان شهر شوال جعل الشريف ثوبًا أخضر، وألبسة الكعبة الشريفة بعد أن حضر بالمسجد الحرام، ثم بعد إلباسه دخل الكعبة، وصلى بها، ثم برز فطاف والريس يدعو له على قبة زمزم كعادة أسلافه، وكان الإلباس المذكور سابع شوال من السنة المذكورة.

ولما أن كان خامس عشر شوال وصل القاصد من مصر المحروسة، وأخبر بوصول الأغا رضوان المعمار معينًا للعمارة، وكان وصوله معه، إلا أنه تأخر عن ذلك اليوم، فدخل فى اليوم الثانى يوم سادس عشر شوال، ونزل بالجوخى، ثم دخل مكة يوم سابع عشر الشهر المذكور وصحبته نامة سلطانية، وخلعة للشريف مسعود، فألبسه إياها بالمسجد الحرام يوم السبت سابع عشر شوال بعد اجتماع السادة والفقهاء والأعيان، وقرئت النامة، والأحكام الباشوية، ثم شرع الأمير رضوان فى تنظيف المسجد الحرام، فأكمل ذلك وفرشه بالحصى، ولم يرد الحجاج إلا وقد تم جميع ذلك.

ثم لما كان يوم الأحد سادس عشرى شهر ربيع الثانى من عام أربعين وألف، وصل إلى مكة السيد محمد أفندى متوليًا قضاء المدينة الشريفة، ومعينًا لعمارة الكعبة

المشرفة، وكان وصوله إلى بندر جدة بحرًا، وصحبته نامة سلطانية، وخلعة عثمانية من الحضرة الشريفة المرادية باسم مولانا الشريف مسعود، فقرئت النامة بالحطيم بعد حضور قاضى مكة، وشيخ حرمها، ومولانا السيد عبد الكريم ابن السيد الشريف إدريس نيابة عن أخيه مولانا الشريف مسعود، وحملت الخلعة صحبة السيد عبد الكريم، والسيد محمد أفندى، والأمير رضوان، والأجناد إلى مولانا الشريف مسعود، فلبسها ببستانه بالمعابدة؛ لكونه مقيما فيه لتوعك مزاجه الكريم.

فاستمر مريضًا بمرض الدق إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الثلاثاء عشرى ربيع الثانى سنة أربعين، وكانت مدة ولايته سنة وثلاثة أشهر إلا أربعة أيام، رحمه الله رحمة واسعة.

وضبط الأمير رضوان البلد ضبطًا حسنًا وأمر المنادى بالنداء أن البلد بلد السلطان. وما زاد على ذلك؛ دفعًا للفتنة، فجاءت الأشراف وسألوه عن المعيّن للأمر فأبى أن يعينه وأمرهم بتجهيز الشريف مسعود، فنزل به الأشراف وقت الضحوة إلى مكة على محفة البغال، وغسل وصلى عليه عند الكعبة قاضى الشرع مولانا العلامة حسين أفندى، وخطب عليه خطبة أبكت العيون، وأنكت القلوب، ودفن عند أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد.

ومما قيل فيه من الشعر قول العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى: [من البسيط]

عوجا قليلاً كذا عن أيمنِ الواديِ ... واستوقفا العيسَ لا يحدُو بها الحادِى

وعرِّجَا بى علَى ربعٍ صحبْتُ به ... شرخَ الشبيبةِ فى أكنافِ أجيادِ

واستعطفا جيرةً بالشعْبِ قد نزلُوا ... أعلى الكثيبِ فَهُمْ غيى وإرشادِى

وسائلا عَنْ فؤادِى تبلُغَا أملى ... إنَّ التعلل يشفى غُلَّةَ الصادى

واستشفعا تشفَعَا نسألُكُمُ فعسَى ... يقدِّرِ الله إسعافى وإسْعَادى

وأجملا بى وحُطَّا عَنْ قلوصكما ... فى سوحِ مُرْدِى الأعادى الضيغمِ العادِى

مسعودُ عَيْن العلا المسعودُ طالعُهُ ... قَلْبُ الكتيبةِ صَدْرُ الحَفْلِ والنادى

رأسُ الملوكِ وعينُ الملكِ ساعده ... زَنْدُ المعالى جَبِينُ الجَحْفَلِ البَادِى

شهمُ السراةِ الألى سارَتْ عوارفُهُمْ ... شرقًا وغربًا بأغوارٍ وأنجادِ

نرد غمار العُلاَ فى سوحِهِ ونرخ ... أيدى الركائبِ من وخدٍ وإسآدِ

فلا مناخ لنا فى غير ساحتِهِ ... وَجُود كفيه فيها رائحٌ غادى
يعشوشبُ العشْبُ فى أكناف عقوتِهِ ... يا حبذا العشْبُ فى الدنيا لمرتادِ
ونجتنى ثمرَ الآمالِ يانعةً ... من روضِ معروفِهِ من قبلِ ميعادِ
فأىُّ سوحٍ يرجَّى بعد ساحته ... وأىُّ قصْدٍ لمقصودٍ وقصادِ
ليهنِ ذا المُلك أن ألبسْت حلته ... تُحيى مآثرَ آباءٍ وأجدادِ
لبستها فكسَوْتَ الفخرَ ملبسها ... مشَهَّرا يبهرُ المصبوغَ بالجادِ
علوتَ بيتًا ففاخرْتَ النجومَ عُلاً ... والشهبَ فخرًا بأسبابٍ وأوتادِ
ولحت بدرًا بأفقِ الملكِ تحسدُهُ ... شمسُ النهارِ وهذا حَرُّها بادى
وصنْتَ مكةَ إذ طهَّرْتَ حوزتها ... مِنْ ثلةٍ أهلِ تثليث وإلحادِ
قد غرَّ بَعْضهُمُ الإمهالُ يحسبه ... عفوًا فعادوا لإتلافٍ وإفسادِ
فذدتهُمْ عن حمى البيتِ الحرامِ وهُمْ ... من السلاسلِ فى أطواقِ أجياد
كأنهمْ عند رفعِ الزندِ أيديهمْ ... يدعونَ حُبًّا لمولانا بإمدادِ
وما ارعوَوْا فشهرْتَ السَّيف محتسبًا ... يا بردَ حَرِّهم فى حَرِّ أكبادِ
غادرتهُمْ جزرًا من كلِّ منجدلٍ ... كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفرصادِ
وأثمرَ السدْرُ من أجسادهم ثمرًا ... حلوًا بأفواهِ أجداثٍ وأنجادِ
سعيْتَ سعيًا جنيًّا مِنْ خمائله ... نورُ الأمانِ لأرواحٍ بأجسادِ
فكَمْ بمكَّةَ من داعٍ ومبتهلٍ ... ومن محبٍّ ومن مثنٍ ومِنْ فادى
وعادَ كل قصيٍّ مصلحًا وغدَتْ ... أيامُنا بالهنا أيامَ أعيادِ
نَفى لذيذَ الكرَى عنهم تذكُّرُهُمْ ... وكان مِنْ قبل صعبًا غير منقادِ
أباحَ سرحك أن يرعَى منازلَهُمْ ... وقائعُ لك بين الخرجِ والوادِى
من كل أبيضَ قد صَلَّتْ مضاربه ... لما ترقَّى خطيبًا منبرَ الهادِى
وقادَ كلَّ قصىٍّ ذله مهلاً ... مهملاً كلّ معوج ومنآدِ
وكلّ أسمر نظام الكُلَى وله ... إلى العدَى طفرة النُّظَّام ميادِ
وصانَ وسمك فى جأشٍ يخالطُهُ ... عنْ رَبِّ عزٍّ تنضَّاهُ بأحشادِ
أسكنْتَ قلبهمُ رعبًا تذكُّرُهُ ... ينسى الشفوق الموالى ذِكْر أولادِ
أقبلتهم كُلّ مرقالٍ وسابحةٍ ... يسرعْنَ عدوًا إلى الأعدا بأطوادِ

مِنْ كُلِّ شهمٍ إلى العلياءِ منتسبٍ بسادةٍ قادةٍ للخيلِ أجوادِ
فهاكَ يابْنَ رسولِ الله مِدْحَةَ مَنْ أورَتْ قريحته من بعدِ إخمادِ
فأحكَمَتْ فيكَ نظمًا كله غُرَرٌ ما أحرزَتْ مثله أقيالُ بغدادِ
أضحَتْ قوافيه والإحسانُ يشرَحُهَا روضَ بديعٍ لإرصادٍ بمرصادِ
ترويه عنّى الثريا وَهْىَ هازئةٌ بالأصمعىِّ وما يروى وحمادِ
وتستحثُّ مطايا الزُّهْر إن ركدَتْ كأنها إبلٌ يحدو بها الحادِى
وتوقظ الركبَ ميلاً من خمارِ كرًى والليل مِنْ طولِ تدآبِ السرَى هادِى
أتتْكَ تشفَعُ إذلالاً لمنشِئِهَا فاقبَلْ تذلُّلَهَا يا نَسْلَ أمجادِ
وأسْبِلِ الصفْحَ سترًا إن بدا خَللٌ تهتك به سِتْرَ أعدائى وحُسَّادى
وقلْ تقرَّبْ إلينا تستعزَّ بنا ما حقُّ مثلكَ أن يقصى بإبعادِ
لازلْتَ يا عزَّ أهلِ البيتِ فى دَعَةٍ تحفُّ منهم بأنصارٍ وأنجادِ
مسعودُ جَدٍّ سعيد الفأل طالعه سعدُ السعودِ وملقى كلِّ إسعادِ
بحقِّ طه وسبطَيهِ وأُمِّهما والمرتضَى والمثنَّى الطهْر والهادِى
صلَّى عليهم إلهُ العرشِ ما سجَعَتْ قمْريةٌ أو شدا فى مكَّةٍ شادى

وقال مولانا القاضى تاج الدين المالكى فيه أيضًا، وقدمت هى والتى قبلها فى يوم واحد يوم الجمعة ثانى رجب سنة تسع وثلاثين وألف: [من البسيط]

غُذِيتُ دَرَّ التصابِى قبلَ ميلادي فلا تَرُمْ يا عذولى فيه إرشادِى
غَىُّ التصابى رشادى والعذابُ به عَذْبٌ لدىَّ كبردِ الماءِ للصادِى
وعاذلُ الصبِّ فى شرعِ الهوَى حرجٌ يرومُ تبديلَ إصلاحٍ بإفسادِ
ليتَ العذولَ حوَى قلبى فيعذرَنِى أوليْتَ قلْبَ عذولى بين أكبادِى
لو شامَ بَرْقَ الثنايا والتَّثَنِّى من تلْكَ القدودِ انثنَى عطفًا لإسعادِ
ولو رأَى هاديًا للجيدِ كان درَى أن اشتقاقَ الهدَى من ذلك الهادى
كم باتَ عقدًا عليه ساعدى ويَدِي نطاق مجتمعى المخفى والبادى
إذ أعيُنُ العِينِ لا تنفكُّ ظامئةً لِوِرْدِ ماءِ شبابى دُونَ أندادى
فيا زمَانَ الصبا حُيِّيتَ من زمنٍ أوقاتُهُ لم نُرع فيها بأنكادِ
ويا أحبتَنا روِّى معاهِدَكُمْ من العهادِ هتونٌ رائحٌ غادِى

معاهدًا كُنَّ مصطافى ومرتَبَعِى ... فكَمْ بها طال بل كَمْ طابَ تردادِى
يا رائحينَ وقلْبى إثر ظعنِهِمُ ... ونازحينَ وهُمْ ذكرِى وأورادِى
إن تطلبوا شرْحَ ما أيدى النوى صَنَعَتْ ... بمغرمٍ حِلْفِ إيحاشٍ وإيحادِ
فقابلوا الريحَ إذ هبَّتْ شآمِيةً ... تروى حديثى لكُمْ موصولَ إسنادِ
وَالَهْفَ نفسى على مغنًى به سلفَتْ ... ساعاتُ أنسٍ لنا كانَتْ كأعيادِ
كأنها وأدامَ الله مشبِهَهَا ... أيامُ دولةِ صدْرِ الدستِ والنادِى
ذو الجودِ مسعودٌ المسعودُ طالعُهُ ... لا زالَ فى برْجِ إقبالٍ وإسعادِ
عادَتْ بدولتِهِ الأيامُ مشرقةً ... تهزُّ مختالةً أعطافَ مَيَّادِ
وقلدَ الملكَ لما أن تقلده ... فخرًا على مَرِّ أزمانٍ وآبادِ
وقامَ بالله فى تدبيرِهِ فغدا ... موفقًا حالَ إصدارٍ وإيرادِ
حقّ لك الحمدُ بعد الله مفترضٌ ... فى كُلِّ آونةٍ من كلِّ حَمَّادِ
أنقذتهم مِنْ يدِ الأعداءِ متخذًا ... عند الإلهِ يدًا فيهمْ بأنجادِ
داركْتهُمْ سُهَّدًا رمقى فعادَ لَهُمْ ... غمضٌ لجفنٍ وأرواحٌ لأجسادِ
بُشْرَاكَ يا دهْرُ حاز الملكَ كافلُهُ ... بشراكَ يا دهْرُ أخرى بِشْرُهَا بادِى
عادَتْ نجومُ بنى الزهراءِ لا أفلَتْ ... بعودةِ الدولةِ الزهْرَا لمعتادِ
واخضَلَّ روضُ الأمانِى حينَ أصبحَتِ الـ ... أجوادُ عقدًا على جَيَّاد جَيَّادِ
وأصبَحَ الدينُ والدنيا وأهلُهُمَا ... فى حفْظِ ملكٍ لظلِّ العدلِ مدادِ
يبيحُ هامَ الأعادى مِنْ صوارمه ... ما استحصدَتْ بالتقاضى كل حَصَّادِ
شَهْمٌ أيادى أياديه ونائله ... على الورَى أصبحَتْ أطواقَ أجيادِ
يَمْضِى مؤمِّلُ جدوى راحَتيهِ إلى ... طَلْقِ المحيا كريمِ الكَفِّ جوادِ
بذل الرغائب لا يعتدُّهُ كرمًا ... ما لم يكُنْ غير مسبوقٍ بميعادِ
والعَفْوُ عن قدرةٍ أشهَى لمهجتِهِ ... صينَتْ وأشفى من استيفاءِ إيعادِ
مآثِرٌ كالدرارِى رفعةً وسنًى ... وكثرةً فهْىَ لا تحصَى بتعدادِ
تسمو مناقبَ مَنْ كُلَّ الكمالِ حوَى ... وأنْتَ ذلك عن حَصْرٍ بأعدادِ
فأنْتَ من معشرٍ إن غارةٌ عرضَتْ ... خفوا إليها وفى النادِى كأطوادِ
كم هجمةٍ لكَ والأبطالُ محجمةٌ ... ووقفةٍ أوقفَتْ ليثَ الشرَى العادِى

بكلِّ أبيضَ مقصودٍ لمضطهدٍ ولـلـمـرائـرِ والـمـرانِ قـصَّـادِ
فَخْرَ الملوكِ الألى فَخْرُ الزمان بهمْ دُمْ حـائـزًا مُـلْـكَ آبـاءٍ وأجـدادِ
وليهنِ حلته أن رحْتَ لابسها إذْ أصبَحَتْ خير أثوابٍ وأبرادِ
واسْتَجل أبكارَ أفكارٍ مخدرة قد طالَ تَعْنِيسها من فَقْدِ أندادِ
كَمْ رُدَّ خُطَّابها حتى رأتْكَ وقَدْ أَمَّتْكَ خاطبةً يا نسْلَ أمجادِ
أفرغت فى قالبِ الألفاظِ جوهَرَهَا سبكًا بذهْنٍ وَرِيِّ الزندِ وقادِ
وصاغَهَا فى معاليكُمْ وأخلَصَهَا وُدّ ضميرىَ فيه عَدْلُ إشهادِ
يحدو بها العِيسَ حاديها إذا زَحَرَتْ من طولٍ وخْدٍ وإرقالٍ وإرشادِ
كأنما الراحُ بالألبابِ لاعبةٌ إذا شدا بَيْنَ سُمَّارٍ بها شادِي
بفضلها فضلاءُ العصْرِ شاهدة والفضْلُ ما كان عن تسليمِ أضدادِ
فلو غَدَتْ من حبيبٍ فى مسامعِهِ أو الصفى استحالا بَعْضَ حسادى
واستنزلا عن مطايا القَوْلِ رحْلهُمَا واستوقَفَا العيسَ لا يحدُو بها الحادِى
وحَسْبُهَا فى التسامِى والتقدُّم في عَدِّ المفاخرِ إذ تغدو لتعدادِ
تقريظُهَا عند ما جاءَتْ معارضةً عُوجَا قليلًا كذا عن أَيْمَنِ الوادى

نشأ الشريف مسعود فى كفالة والده الشريف إدريس صاحب مكة، ووقعت له حروب مع ابن عمه الشريف محسن بن الحسين بن الحسن كان الظفر فيها لمحسن، أولها سنة سبع وثلاثين فى ربيع الأول منها، وفى بعضها أرسل الشريف محسن ولده محمد فظفر، واستولى على مسعود، وأخذه أخذًا شديدًا، وقتل فى المعركة السيد حميضة بن عبد الكريم بن حسن، وهاشم بن شنبر بن حسن، ثم دخل الشريف مسعود مكة برضا من الشريف محسن بكفالة الأشراف أنه لا يسعى فى خلاف لا بقول ولا بفعل.

رحم الله الجميع رحمة واسعة.

ثم وليها الشريف عبد الله بن حسن، أكبر آل أبى نمى إذ ذاك ملوك البلد الحرام ومدينة جدهم عليه أفضل الصلاة والسلام، دعاه رضوان والسيد محمد المعين للعمارة، وقاضى مكة، وشيخ حرمها، فحضر ومعه من أولاده السيد محمد والسيد حسين، وكان قد تخلف عن الجنازة لذلك، فلما حضر مولانا الشريف عبد الله سأل

منه الأمير رضوان لبس خلعة شرافة البلد الحرام، فامتنع من قبول ذلك، فألزموه بذلك حقنًا لدماء العالم، وما زالوا به حتى رضى، فألبسه الأمير القفطان وحصل بولايته الأمن والأمان، وكان الاجتماع لذلك فى السبيل المنسوب لمحمد بن مزهر كاتب السر الكائن فى جهة الصفا المعروف علوه فى زماننا بسكن الشيخ على الأيوبى- رحمه الله تعالى-.

ثم لما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة حضر بالحطيم مولانا الشريف عبد الله بن حسن، والسادة الأشراف، والعلماء فدار بينهم الكلام فى بقية الجدران، والجدار اليمانى، فاتفقوا على الإشراف عليه أولا، فدخل الشريف عبد الله والجماعة إلى الكعبة، وأشرفوا على بقية الجدران، ونصب المهندسون الميزان فى الجدار اليمانى، فوجدوه خارجًا عن الميزان نحوًا من ربع ذراع، ثم برزوا من الكعبة، وجلسوا فى الحطيم، فاقتضى رأيهم أن يهدم بقية الجدارين الشرقى والغربى، ثم ينظر فى الجدار اليمانى، فإن زاد فى الميل هدم وإلا فلا، وانفض الجميع على ذلك.

ثم بعد يومين رفع سؤال إلى علماء مكة هل يجوز هدم الجدار اليمانى إذا شهد المهندسون بوهنه وسقوطه إن لم يهدم؟ فأجابوا بالجواز، فاعتمد الولاة على ذلك فتعاطوا العمارة، وشرع المهندسون فى هدم بقية الجدران، وكان ابتداء الهدم فى يوم العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وألف، ثم لم يزالوا كذلك إلى أن أتموا الهدم، وشرعوا فى البناء، وحضر فى أثناء العمارة مولانا الشريف عبد الله، وحمل مكتلا فيه نورة، وفعل فعله جماعة من الحاضرين، فلما أن كان غرة شعبان من السنة المذكورة سنة أربعين وألف رفعت الأستار التى حول البيت الشريف، وتكامل بناء الجدران كلها:

وفى ثالث شعبان يوم الخميس ركب الميزاب، وبعد النصف من شعبان شرعوا فى تنظيف الكعبة المشرفة، وفى يوم الجمعة غرة شهر رمضان ألبست الكعبة الشريفة ثوبها ولله الحمد والشكر.

وفى ذلك يقول القاضى تاج الدين المالكى مؤرخًا لعمارتها، وممتدحًا لمعمرها مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان: [من الطويل]

هنيئًا لملكٍ خصَّهُ الله واجتَبَى وصدَّاهُ للبيتِ العتيقِ بجدِّهِ
بَنَى البيتَ بعد ابنِ الزبيرِ ولم يَفُزْ سواه بهذا الفَخْرِ لا زالَ سعدُهُ
مليكٌ أقامَ الله أيامَ ملكِهِ ولا زالَ خفاقًا مدى الدهْرِ بندُهُ
مليكٌ ملوكُ الأرضِ طرًّا عبيدُهُ تدينُ له شرقًا وغربًا وجندُهُ
مليكٌ حباه الله فخرًا وسؤددًا وصيتًا مداه لا ينالُ وحدُّهُ
بتعميرِهِ بيتَ الإله على يَدَي مَنِ اختارَهُ ربُّ الورى دام رشدُهُ
فَدُونَكَ تَارِيخًا لِعَامِ بِنَائِهِ وَفِيًّا بِضَبْطِ الْعَامِ حِينَ تَعُدُّهُ
مرادٌ بنى بيتَ الإلهِ وزادَهُ سناءً بها يُزْهَى به زِيد مجْدُهُ

وله تاريخ نثر هو قوله «أسس بنيانه على تقوى من الله وهدى»، ولإبراهيم المهتار قوله: [من المتدارك]

قَدْ قيلَ تُرَى مَن يعمرُ بيـ تَ الله ومَنْ يَهْدى لِرَشَادْ
فأجبتُ بتاريخٍ نَظْمًا هَا أَعْمَرَ بيتَ اللهِ مُرَادْ

قلت: يحسن أن يقابل هذا الشعر بقول القائل: [من المتدارك]

شعر عظم ماثل لكم حجر ضخم ترب ورماذ

واستمر مولانا الشريف عبد الله بن حسن متوليًا إلى أن حج بالناس موسم سنة أربعين بعد الألف، ثم استهل هلال محرم افتتاح سنة إحدى وأربعين وألف، فأخذ منها شهر محرم، ثم بدا له خلع نفسه من ولاية مكة، فلما كان يوم الجمعة غرة صفر من السنة المذكورة قلد إمرة مكة لولده الشريف محمد بن عبد الله بن حسن، ولمولانا الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن، وكان قد استدعاه قبل ذلك من نواحي اليمن؛ لأنهُ فر إلى تلك الجهة زمن ولاية مسعود مكة لما كان من مولانا الشريف محسن إلى أبيه إدريس أولا ثم إليه نفسه منه ثانيًا، فنودي بالبلاد لهما، وتخلى الشريف عبد الله بن حسن للتوجه إلى عبادة ربه إلى أن أتاه الأمر المحتوم بأمر الحي القيوم ليلة الجمعة عاشر جمادى الأخرى من السنة المذكورة، فكانت مدة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيام.

فاستمر الشريفان محمد بن عبد الله، وزيد بن محسن يدعى لهما على المنابر، والبلاد بهما قارَّة والأحوال طيبة سارة، إلى أن كان العشر الأول من شعبان المعظم

من السنة المذكورة وصلت أخبار من جهة اليمن بأن عسكرًا خرجوا على الوزير قانصوه، وأن نيتهم الوصول إلى مكة المشرفة وكان ذلك شائعًا على الألسنة.

ثم ورد مورق من القنفدة بخبر وصولهم إليها، ومعه مكاتيب إلى مولانا الشريف محمد، ومولانا الشريف زيد، ومصطفى بك الصنجق المقيم بمكة أو طراقًا من أغانى العسكر المذكور محمود وعلى بك، ومضمون مكاتيبهم أننا نريد مصر، ونريد الإقامة بمكة أيامًا لنتهيأ للسفر، فأبى عليهم صاحب مكة خوفًا من الفتنة والفساد، ودفن بعض آبار كانت فى طريقهم، فلما وصل الخبر إليهم أجمع رأيهم على دخول مكة قهرًا، واستعدوا لذلك بعد أن كتبت الأجوبة بالمنع فحصل فى البلد قيل وقال، واضطراب شديد.

فلما أن كان يوم الجمعة عشرى شعبان من السنة المذكورة بعد العصر، وهى سنة إحدى وأربعين وألف توجه مولانا الشريف محمد، والشريف زيد، والسادة الأشراف والأعراب إلى جهة بركة الماجن، وقوز المكاسة لأنه بلغهم أن الأتراك قاربوا السعدية، وبرز معهم الصنجق مصطفى بك بعد أن طلب من الشريف محمد خيلا لمن معه، فتوهم من ذلك ومنعه من الخيل فبرز معه بعسكره وجنوده، فلما أن كان ضحى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان المذكور وقع اللقاء بالقرب من وادى البيار بين السادة الأشراف، وبين الأتراك فحصلت ملحمة عظيمة وقتال شديد، وقتل مولانا الشريف محمد بن عبد الله بن حسن صاحب مكة، وقتل معه من السادة الأشراف جماعة منهم: مولانا السيد الجليل أحمد بن حراز، ومولانا السيد حسين ابن مغامس، ومولانا السيد سعيد بن راشد، وخلق آخرون، وأصيبت يد مولانا السيد هزاع بن محمد الحارث فقطعت، ولم تنفصل فدخل بها كذلك إلى مكة، ومر على جهة سوق الليل قائلا: عذرى إليكم يا أهل مكة ما ترونه، وتوجه بقية الأشراف إلى وادى مر.

فبعد تمام الوقعة دخل الأتراك، ونودى بالبلد للشريف نامى بن عبد المطلب بن حسن، وكان دخولهم من جهة بركة الماجن، فتعب الناس أشد التعب، وحصل الخوف الشديد، وتسلطت هذه العساكر على الناس وأتعبوهم وأهلكوهم فسقًا ونهبا وظلما وشربًا، وتقطعت الطرق وعصت الأعراب، وحمل الشريف محمد بن

عبد الله فى عصر ذلك اليوم، ودفن بالمعلاة فى مقابر آبائه وأجداده بعد أن قاتل قتال من لا يخاف الموت، وكانت مدة ولايتهما سبعة أشهر إلا ستة أيام.

وكان خروج الشريف محمد بن عبد الله -رحمه الله تعالى- إلى لقاء هؤلاء الأتراك فى مثل سقوط البيت الشريف فى اليوم والساعة فإنه كان يوم عشرين من شعبان بعد العصر من سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وخروج الشريف المذكور لذلك فى يوم عشرين من شعبان بعد العصر سنة إحدى وأربعين وألف، فبين سقوط البيت الشريف وخروج السيد الشريف سنتان بغير زيادة، فلله هذا الاتفاق.

ثم وليها الشريف نامى بن عبد المطلب، وتوجه مولانا الشريف زيد إلى وادى مر بعد أن دخل مكة ومعه السيد أحمد بن محمد الحارث، ومرا على بيت الشريف نامى بن عبد المطلب فدعاه مولانا الشريف زيد، فخرج إليه، فناوشه بعض كلام، فقال السيد أحمد: ليس الوقت وقت كلام، وكان من جملة ما قاله له مولانا الشريف زيد: [من المتقارب]

تُجَازَى الرجالُ بأفعالِهَا خيرًا بخَيْرٍ وشرًّا بشَرّ

فالله الله بالحريم. أو ما يقرب من هذا الكلام، ثم سار إلى المدينة الشريفة، وكتب عروضًا بالتعريف بالواقع، وأرسلها إلى باشا مصر صحبة السيد على بن هيزع حوالة مكة بمصر، ولما وصل الخبر لصاحب مصر، أرسل إليهم سبعة صناجق، وأرسل بخلعة سلطانية لمولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن مع الأغا محمد أرض رومى وجماعة من خواصه، وبلغهم أن الشريف زيد بالمدينة، فدخلوا إليها، وخلعوا عليه بملك الحجاز فى الحجرة النبوية، وتوجه إلى العسكر وأتوا جميعًا إلى مكة، ووصل خبر ذلك إلى مكة وتحقق، فاضطربت حينئذ آراء العساكر الجلالية اليمنية: فمن قائل: نخرج، ومن قائل: نقاتل، ثم وصل الخبر بأن العساكر المصرية وصلت عسفان، فاقتضى رأى عسكر اليمن أن يرسلوا من يكشف لهم الخبر، فأرسلوا جماعة فوصلوا إلى وادى مر، والعساكر المصرية قد أقبلت، فرجعوا إلى مكة وأخبروا من بها بذلك، فأظهروا حركة الرحيل عنها.

فلما كان يوم الأربعاء خامس ذى الحجة خرجوا كلهم ومعهم مولانا الشريف نامى وأخوه السيد السيد والسيد عبد العزيز إدريس، ولم يبق منهم أحد، وكان

بروزهم وقت أذان العصر، فلما أن حاذوا باب النبى ﷺ المسمى الآن باب الحريريين قال المؤذن: الله أكبر، فسقط بيرق محمود منهم، فكان سقوطه فألا عليهم، ثم ساروا فنزلوا عند جبل حراء وباتوا، فلما كان أثناء الليل سرى السيد عبد العزيز بن إدريس على نجيبة له أعدت خلف الجبل فقعد عليها، وتوجه إلى ينبع فنجا، فلما أسفر الصبح، ولم يجدوه فعلموا أنه اختلس نفسه، فزاد احتفاظهم على الشريف نامى وأخيه السيد وأمست مكة بعد خروجهم خالية، وكان بها مولانا السيد الشريف أحمد بن قتادة بن ثقبة، فنادى فى البلد: إن البلاد بلاد الله والسلطان مراد، وعس البلد تلك الليلة.

ثم لما كان شروق يوم الخميس سادس ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة، دخل مولانا الشريف زيد بن محسن بمن معه من الصناجق، وكان نزوله بدار السعادة، ثم نزل وقت الضحى من ذلك اليوم إلى المسجد الحرام، فجلس فى السبيل الذى بجانب زمزم، ومعه الأمير على الفقارى أحد الصناجق الواصلين، ثم خرج مولانا الشريف من السبيل المذكور، وطاف بالبيت أسبوعًا، والريس يدعو له على قبة زمزم، ثم خرج المنادى ينادى بأن البلاد بلاد الله، وبلاد مولانا السلطان مراد، ومولانا الشريف زيد بن محسن، ثم طلب بعض الصناجق الخروج إلى الجلالية لقرب إدراكهم، فقال له مولانا الشريف زيد: الرأى أن نحج، وتحج الأمة، وتفلح ثم نلحقهم فيقرب الله بعيدهم ولا يفوتون.

فحج مولانا الشريف تلك السنة بالناس، وأزال الله به عن أهل مكة بل عن قطر الحجاز كل باس.

وبعد أن أتم مولانا الشريف المناسك، وصل إلى مكة بعض العساكر اليمنية بشفاعة إبراهيم باشا أمير الحاج الشامى فى تلك السنة.

ولما كان يوم الثلاثاء ثانى محرم الحرام افتتاح سنة اثنتين وأربعين وألف: عقد مجلس بالمسجد الحرام عند مقام المالكى حضر فيه مولانا الشريف زيد، وغالب الصناجق، وغالب السادة الأشراف، والسادة الفقهاء، وتفاوضوا فى أمر العسكر اليمانى، فاتفق الحال على أنهم يعزمون إليهم، فبرزوا ذلك اليوم، ومعهم مولانا الشريف زيد وجماعته، فأدركوهم فى محل يقال له: تربة فحاصروهم، ثم وقع

القتال بينهم بالبندق، فاستمسك على بك لنفسه من الصناجق على أن يسلم من القتل، والتزم لهم بمحمود بك، فقبلوا ذلك، وأمسكوا محمود بحيلة دبروها، ثم رجعوا فدخلوا مكة المشرفة فى أول يوم الخميس ثامن عشر محرم الحرام من السنة المذكورة، ومعهم محمود بك أحد أغاتى العسكر اليمنى، فعذب بأنواع العذاب، وطيف به على جمل فى شوارع مكة عارى الجسد إلا ساتر عورته، ومد باعه بعصا، وربطت يداه عليها عورضت من خلفه، وشقت عضداه وذراعاه، وغرز فيها مصطفة خرق الزيت الموقدة، ووكل بتلك العصا من يضربها من خلف حينًا بعد حين فيتناثر سقطها على جسده، والعياذ بالله تعالى، ثم علق بكلاب أدخل فى رأس ذراع يده اليمنى، ثم أدخل تحت عصب عقب رجله اليسرى، ودفع إلى شجرة جميز عند باب المعلاة فمكث كذلك نحو ثلاثة أيام حيًّا يسب ويفحش ويفجر إلى أن مات، فأنزل وأخذ إلى شعبة العفاريت فأحرق ثَمَّ.

وأما الأغا الآخر على بك فلم يحصل عليه سوء أصلا وذلك لتدبيره تلك الحيلة على محمود، ولحسن سلوكه حال دخوله مكة مع بعض حريم لمولانا الشريف زيد فإنه آمنهم، ووصلهم بخير، وكان يتردد إليهن ويتفقد أحوالهن ويبشرهن، فكان ذلك سببًا لسلامته، وخلوصه مما وقع لرفيقه.

ثم لما كان أواخر شهر محرم افتتاح السنة المذكورة كان مجمع كبير أمام باب مدرسة السلطان قايتباى، حضر فيه الصناجق والأمراء والقضاة، ثم جيء بالمرحوم مولانا السيد الشريف نامى بن عبد المطلب، وأخيه مولانا السيد السيد بن عبد المطلب، فاستفتيت العلماء فيهما، فأجابوا بحكم الله تعالى، فذهب بهما فى شرذمة من العسكر إلى أعلى الردم فتوفيا شهيدين رحمهما الله رحمة واسعة، وغفر لهما مغفرة جامعة آمين.

وكانت مدة ولايته على مكة مائة يوم ويوم وهى عدد حروف اسمه نامى، لأنه دخلها يوم خمس وعشرين من شعبان من سنة إحدى وأربعين بعد الألف، وخرج منها عصر اليوم الخامس من ذى الحجة من السنة المذكورة كما تقدم، وتلك المدة مائة يوم ويوم.

وفى ذلك يقول المهتار: [من الطويل]

تأمَّلْ لدنياكَ التى بصُرُوفها أبادَتْ عُلاَ ملْكٍ تأطد سامِى
بدا فأضا ثُمَّ اغتدَى الحَقُّ فانقضَى فمدَّةُ نامى عدّة احْرُف نامِى

كذا ذكره الطبرى فى تاريخه المسمى «بالأرج المسكى فى التاريخ المكى» فليراجع.

قلت: وقد حكى المقريزى نظير ذلك فى السابق، وهو أن العزيز بن برسباى أحد ملوك الشراكسة بمصر خلع يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وكانت ولايته فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، فكانت مدته أربعة وتسعين يومًا بعدة حروف عزيز أربعة وتسعين.

وقد تقدم ذلك فى ترجمته، إلا أنى عبرت عن الأربعة والتسعين بقولى: ثلاثة أشهر وأربعة أيام، والمعنى واحد.

وفى هذه السنة لم يذهب المحمل من مكة إلا فى العشر الأول من شهر صفر. واستقل مولانا الشريف زيد بالملك منفردًا فى الأقطار الحجازية كافة، وسعودات الأقدار به حافة، واستنزل أرباب الحصون الشامخة، واستولى على القلاع الراسخة، وملك البلاد البعيدة المنازل، واستخدم العز والظفر والإقبال، وتوالت عليه الخلع والتشاريف السلطانية، وقرت بما يهواه المناشير العثمانية، وملأ قلوب أعدائه خوفًا ورعبًا، ورقى فى معارج العز مرتقى صعبًا، وعطر بثنائه شرقًا وغربًا.

وفى سنة اثنتين وأربعين وألف أو التى قبلها توفى العلامة الشيخ أحمد المقرى المالكى التلمسانى الأصل والمولد، والفارسى الدار والمنشأ نزيل القاهرة، العلامة الحافظ المسند رحلة الدنيا، شهاب علم روض فضله نضير، ما له فى سعة الحفظ شبيه ولا نظير.

وفيها - أو فى التى بعدها - توفى السيد أحمد بن مسعود ابن سلطان مكة الشريف حسن بن أبى نمى، كان أديبًا فاضلاً من أبناء الملوك النجباء يحب العلماء، وأهل الخير، ويجالسهم، كريمًا. وشعره فى غاية الحسن والرقة، وله فطنة تدرك رقة الرقة.

ولما وقعت بين القاضى تاج الدين المالكى، وبين غرس الدين المدنى المنافرة الشديدة جمع بينهما، وأصلح ما كان منهما.

وله ديوان كله غرر، كل سلك منه لا تذكر معه الدرر.

فهو نابغة بنى حسن، وباقعة الفصاحة واللسن، الساحب ذيل البلاغة على سحبان، والسائر بأقواله الركبان.

أحد السادة الذين رووا حديث السيادة برًا عن بر، والساسة الذين تفتقت لهم ريح الجلاد بعنبر، فاقتطفوا نوار الشرف من روض الحسب الأنضر، وجنوا ثمر الوقائع يانعًا بالنصر من ورق الحديد الأخضر، لم يزل يقدر من نيل الملك ما لم يف به عَدده وعُدده، ولم يمده من القضاء والزمان مَدده ومُدده، فاقتحم لطلبه بحرًا وبرًا، وقلد للملوك جِيدًا ونحرًا، فلم يسعفه أحد ولم يساعد، وإذا عظم المطلوب قل المساعد.

دخل إلى شهارة من بلاد اليمن فى أحد الجمادين فى سنة ثمان وثلاثين وألف، وامتدح بها إمامها محمد بن القاسم بقصيدة راح بها ثغر مديحه ضاحكا بأسم، وطلب منه فيها مساعدته على تخليص مكة المشرفة له، وإبلاغه من تحليه بولايتها أمله، وكان ملكها إذ ذاك الشريف أحمد بن عبد المطلب وأشار فى بعض أبياته إليه، وطعن فيها بسنان بيانه عليه، وهى: [من الطويل]

سلُوا عن دمى ذاتَ الخلاخلِ والعقدِ ... بماذا استحلَّتْ أخْذَ روحى على عَمْدِ
فإنْ أمنَتْ ألاَّ تقادَ بما جنَتْ ... فقد قيلَ إن الحرَّ يقتل بالعبْدِ
وإن أخَذتها دونَ كلى فإننى ... جليدٌ ومضعوفُ العزائمِ بالصَّدِّ
خذا قبلةً منها تديه فإنه ... قتيلٌ ولكنْ ليس يلحدُ فى لحدِ
صريعٌ بسهمِ اللحظِ والبينِ لم تزلْ ... مقسمةً أجزاه فى القرْبِ والبعدِ
أخو لوعةٍ لو أن أيْسَرَ بعضها ... بصَلْدٍ لكان العِهْنُ أقوَى من الصلْدِ
ومُرَّا على الوادِى الذى قد تفاوَحَتْ ... جوانبه عرفًا بما ضاعَ عَنْ هنْدِ
وعوجا رقابَ العيسِ فيها عشيةً ... لنبكى بها عصرًا تولى على نَجْدِ
ونقضِى لباناتِ الصبَا بمحلَّةٍ ... بوجنةِ وَجْهِ الدهرِ كالخالِ فى الخَدِّ
زمان ووجه الدهْرِ طلقٌ وقدُّهُ ... نضيرٌ وثغْرُ الوصلِ يفترُّ عن عقدِ
أجرُّ به ذيل الخلاعةِ رافلاً ... وأركض خيلَ الغىّ فى حلبةِ الرشدِ
وأمرحُ فى شرخ الشبابِ وحاسِدِي ... يدعدعُ لى أن أكبُ يومًا على وعدِ

فـلـلـهِ أيـامٌ وربـعٌ تـصـرمَـتْ ... لياليهما عنِّى وعوضَنِى وخدِى
فأصبحْتُ فى جيشٍ من الحبِّ أرعن ... على أننى فى نهجِهِ مفردٌ وحدِى
أعضُّ به كفى وأقرعُ بالحيا ... لسانِى وما يغنى فتيلًا ولا يجدِى
وَأَنْدُبُ أَيَّامًا عَلَى غيضةِ الغَضَا ... وَغَيْظِى بِهَا غَيْظ الأَسِيرِ عَلَى الْقَدِّ
فحيًّا الحَيَا دارًا بنجدٍ وأختها ... معطَّلة بالغورِ والعَلَم الفردِ
ومنعرج بالجزْعِ هل ماتَ رسمُهُ ... فأحييهِ بالتأبينِ أمْ هُوْ عَلَى عَهْدى
فثمَّ به قلبٌ فَقِيدٌ حبسنَهُ ... عيونُ المها بين الأجارعِ والرندِ
ولكنَّها لم تَدْرِ أنَّ محمدًا ... طلوبٌ لنا لو كانَ فى مربضِ الأسدِ
إمامٌ شأى فى الفخرِ أهلَ زمانِهِ ... فأنْسَى وأعْيَا فيه للقَبْلِ والبَعْدِ
ينادى أمير المؤمنينَ لأنه ... تقمَّصَهَا إرثًا عن الأبِ والجَدِّ
وغيثٌ إذا ما النوءُ خوَّتْ رعودُهُ ... فراحاتُهُ فى المحْلِ تغنى عن الرغْدِ
وضرغامُ حرْبٍ حين تَنْصَلِتُ الظبا ... وينقصمُ المران فى السرْدِ والسردِ
إذا انكسَرَ الهنديُّ فى رأسِ قرنِهِ ... فمن عرضِهِ عضبٌ أَحَدُّ من الهندِي
أخو صبوةٍ بالمكرُماتِ فلم تَزَلْ ... بمنظره فى أشرَفِ الزمَنِ الرغْدِ
فبدْرٌ لمستجْلٍ ووَرْدٌ لمجتَنٍ ... وغيثٌ لمستجدٍ وليثٌ لمستَغْدِى
وأيامُهُ بيضٌ وخضْرٌ بجودِهِ ... ألاَ إنَّهَا مِنْ عدله زَمَن الوردِ
فإن يكُ بالإفضالِ والبأسِ والتقَى ... وربّ الثنا والحِلْم والعِلْم والزهدِ
دَعِى بأميرِ المؤمنينَ محمدٍ ... خليفتنا المهدىّ هذا هو المَهْدِى
محكِّمُ سيفِ الحقِّ فى كلِّ ملحدٍ ... ومَرجعُ أهلِ العقلِ فى الحلِّ والعقدِ
وطَلاَّبُ وِتْرِ الدِّينِ فى كلِّ مأزقٍ ... ولم ينتصفْ فى المالِ والنفسِ والولدِ
شكَتْهُ المطايا والفيافى لكثْر ما ... يطأُهَا ويمطاها إليه مِنَ الوفدِ
ولو أنه خَلَّى شهارة سائرًا ... لسارَ إليه القاصدُونَ إلى السَّدِّ
ولولاهُ لم يُشْهَرْ حسامٌ ولم يثرْ ... قتامٌ ولم يُسْفرْ ظلامٌ لمستهدى
ولم يقصدِ الوفَّادُ عنه لسيِّد ... قطعْنَ بهم هيماءَ للعينِ والصفدِ
ولم تفتخر إلا بما عافَ سادةٌ ... غداةَ افتخارٍ فى ندىً مِنَ المجْدِ
ففى الذهْنِ والآراءِ قيسٌ وعتبةٌ ... وفى الجودِ والهيجاءِ جودٌ وذو لبْدِ

فلو لامَسَتْ يومَ الرغائبِ كفُّهُ — يدا مادرٍ كانتْ لها بالندَى تُعْدِى
فيا ليتَ شعْرِى مَنْ كليبٌ وحاتمٌ — على أنهم ما إنْ لهم فيه من نِدٍّ
فيابنَ رسولِ الله جئتُكَ شاكيًا — لأعداءِ دينِ الله فى الهزْلِ والجِدِّ
زعانفةٌ لا ينكرُونَ قبيحةً — ولم يختشوا فى الفسْقِ من قَاهِرٍ فردِ
ولا مِنْ أميرِ المؤمنينَ محمَّدٍ — حليفِ الوغَى فى الله والسيفِ والحمدِ
وحامِى ذمارِ المجدِ إنْ ضاعَ سوحُهُ — ولو أنه بَيْنَ الأساودِ والأسدِ
خطيبٌ إذا ما قامَ فى رأسِ منبرٍ — وخَطْبٌ عَلَى ظهْرِ المطهَّمةِ الجرْدِ
فيا لَكَ من حبرٍ ليوم مجَادِلٍ — وذمرٍ يُسَمَّى فى المجالد بالجلْدِ
فليثٌ وغيثٌ فى قراعٍ وفى ندًى — وسعدٌ ونحسٌ للولى وللضِّدِّ
وخذْهَا عروسًا ذاتَ دلٍّ تزفُّها — من الشكْرِ أجنادٌ فلله من جُنْدِ
مفوفةً دبجْتُهَا بمديحِ مَنْ — تضوعُ بذكراه على المسْكِ والنَّدِّ
لدينٍ وجاهٍ ذا ارتفاعٍ ونجدةٍ — أعيشُ بها لا للمعايشِ والنقدِ
وإنى من القومِ الذين وليدُهُمْ — ترجِّيهِ إنهاءُ المطالبِ فى المهدِ
أَعَزُّ ملوكِ الأرضِ فرعًا ومحتدًا — وأوفى الكرامِ الغُرِّ فى العقدِ والوعدِ
إذا عُدِّدَتْ للصِّيدِ بعضُ محاسنٍ — فأحسابُهُمْ فى المجدِ تربو على العَدِّ
بأفنيةٍ خضرٍ وسودٍ مراجلٍ — وألويةٍ حمرٍ وألسنةٍ لُدِّ
وأوجهُهُمْ للبيضِ والسمْرِ فى الورى — وأيديهمُ فى الحرْبِ للضربِ والشكْدِ
ولم يُخلقوا إلا لكشْفِ مُلِمَّةٍ — غشا خطبُهَا أهلَ البسيطةِ بالربدِ
فقمْ يابنَ عِزِّ الدينِ لو كنتَ واحدًا — فأنْتَ بحمدِ الله غَانٍ عن الحشْدِ
وأنَّى وأنتَ الليثُ واللدنُ غابه — وأشبالُكَ الفرسانُ تعدو على الجردِ
وحولَكَ صِيدٌ من علىٍّ غطارفٌ — هم الناسُ فى الهيجاءِ والحَسَب العدِّ
وخيلٌ إذا صاحَ الصريخُ توردَتْ — ورود القطا نحو الصياحِ إلى الورْدِ
وحظُّكَ يبدى كلَّ يوم عجائبًا — بها يقهَرُ الأيامَ فى الجزر والمدِّ
فلو شئتَ أن تصطاد ليثًا بأرنبٍ — لجدّ له إذ زاحم الجدّ للجدِّ
فما العذْرُ فى التأخيرِ والسُّمْر والظبا — تقاضاه يومًا فى التهائمِ والنجْدِ
أغثْ مكَّةً وانهَض فأنتَ مؤيَّدٌ — مِنَ الله بالفتحِ المعوّضِ والجدِّ

وقدِّمْ أخا وُدٍّ وأخِّرْ مبغضًا ... يساورُ طعنًا فى المؤيَّدِ والمهدى
ويطعنُ فى كُلِّ الأئمَّةِ معلنًا ... ويرضى عَنِ ابنِ العاصِ والنجْلِ من هِنْدِ
وكانَ لهم يومَ القيامةِ ثالثًا ... وفى هذِهِ ثانٍ لأوَّلِ مَنْ يُردى
ودمْتَ مدى الأيامِ للدِّينِ والعلا ... وبذْلِ اللها والأخْذِ فى الله والرَّدِّ

ولم يحصل منه على نائل، إلا ما أجازه به من فواضل.

فعاد إلى مكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف وأقام بها سنتين، ثم توجه أوسط شهر ربيع الثانى من سنة إحدى وأربعين وألف إلى الديار الرومية قاصدًا ملكها السلطان مراد بن أحمد خان، فورد عليه القسطنطينية العظمى واجتمع به، وامتدحه بقصيدة فريدة سأله فيها تولية مكة المشرفة، وأنشده إياها فى أواخر شوال من السنة المذكورة وهى: [من الوافر]

ألا هُبِّى فقَدْ بكَرَ الندامى ... ومجّ المزج من ظلمِ الندامى
وهينمت القبول فضَاعَ نَشْرٌ ... روى عن شيخِ نَجْدٍ والخزامى
وقد وضَعَتْ عذارى المزن طفلاً ... بمَهْدِ الروضِ تغذوهُ النعامى
فَهُبِّى وامزُجِى خمرًا بظلْمٍ ... لتُحْيى مَا أمَتى يا أُمَامَا
ومُنِّى بالحياةِ على أناسٍ ... بشربِ الراحِ صرعَى والطّلاما
فكَمْ خفر الفوارسُ من وطيسٍ ... فتًى منا وما خَفَرَ الذماما
وكَمْ جدنا على قُلٍّ بوفرٍ ... وأعطينا عَلَى جَذْبٍ هجاما
وكَمْ يومٍ ضربنا الخيلَ فيه ... على أَعْقَابها خَلْفًا أماما
فنحْنُ بنو الفواطِمِ من قريشٍ ... وقادات الهواشمِ لا هِشَاما
نردُّ الوافدين بكلِّ خيرٍ ... ونثنى البيضَ حمرًا والعلامَا
برانا الله للدنيا سنَاءً ... وللأخرَى إذا قامَتْ سَنَاما
وخصَّ بفضله من أَمَّ مِنَّا ... مليكًا كان سابُورَ الهماما
فَتَى الهيجا مراد الحقِّ مَنْ لم ... يخَفْ فيه للائمةٍ مَلاَما
محشّ الحرْبِ إنْ طارَتْ شَعاعًا ... نفوسٌ عندها قَلَّ المحاما
وغيْثٌ قَطْرُهُ وَرِقٌ وتبرٌ ... إذا طارَتْ به المحْل الركاما
فيُفنى سيفهُ حرْب وشيكًا ... ويثنى سيبه موتًا زُؤَاما

وفِى شفَتيهِ آجالٌ ورزقٌ بها أمن الصَّواعِق والسّمَاما
يقودُهُ الملوك الصِّيد مجرًا فيمنحُهُ الخوامِعَ والرّخَاما
وإن وفدوه أغنَاهُمْ وأقنَى وأجلَسَهُمْ على العَلْيَا قِياما
مليكُ الأرضِ والأملاكِ طُرًّا وإبْنُ مليكِهَا يَمَنًا وشَاما
ويجْرى من دَمِ الأعداءِ بحرًا ولا قَوَدٌ عليه ولا أَثَاما
ومسقى الجنِّ والأملاكِ غيظًا ومُزدِى القومِ إذْ يروى الحساما
تسنَّمَ غاربَ الدنيا فريدًا وجَدَّ السيرَ إذْ بَاتُوا نياما
إذا شملَتْ عنايته لئيمًا شأى بفخارِهِ القَوْمَ الكراما
تعاظَمَ وصفُهُ عن وصفِ شِعْرى كذا مرماه يسمُو أن يُرَامَى
ويكبر أنْ يعانِدَهُ عنيدٌ فيرميه ويعظُمُ أنْ يُرَامَا
ترفَّعَ كمه عَنْ لثمِ ملكٍ وتلثمه الضعائفُ واليَتَامَى
وينطقُ عنده لَسِنٌ ضعيفٌ ولا يستطيعُ جبارٌ سلاما
أخو هِممٍ ولم تعلقْ يداه بغانيةٍ ولا ضَمَّتْ مداما
أغرُّ سميدَعٌ ضخْمُ المساعِى يُسَكِّنُ فى مغارمِهِ السهاما
وخادمُ قَبْرِ طه بالمواضى ودِين الله والبَيْت الحراما
فيا مَلِكَ الملوكِ ولا أبالى ولا عذرًا أسوقُ ولا احتشاما
أنفتُ بأننى أُنْزِلُكَ فيهم بمنزلةِ الرجالِ مِنَ الأيامَى
إلى جذْوَاكَ كلّفنا المطايا دوامًا لا نفارقُهَا دَوَاما
وَجُبْنَا يابْنَ عثمانَ الموامى إلى أن صِرْنَ من هزلٍ هياما
وذُقْنَا الشهْدَ فى مغنى الترجِّى وذُقْنَا الصبْرَ من جوعٍ طَعَاما
صلِينَا من سموم القيظِ نارًا يكونُ بنورِكَ العالِى سلاما
وخُضْنَا البحْرَ من ثلْجٍ إلى أن حَسِبْنَاهُ على البيدا ركاما
نؤمُّ رحابَكَ الفيحَ اشتياقًا ونأمُلُ فيك آمالاً جِسَاما
ومَنْ قَصَدَ الكريمَ غدا أميرًا على ما فى يَديه ولن يُضاما
وحاشا بَحْركَ الفياض إنا نردُّ بغُلَّةٍ عنهُ حياما
وقد وافاك عبدٌ مستميحٌ ندا كفَّيْكَ والشِّيَمَ الكراما

فقد نَزَلَ ابنُ ذى يزن طريدًا ... على كِسْرَى فأنزله شمَاما
أتَى فردًا فعاد يَجُرُّ جيشًا ... كسا الآكامَ خيلاً والرغاما
به استبقَى جميلَ الذكر دهرًا ... وأنْتَ أجلُّ من كسرَى مقاما
وسيفٌ لو سما دُونِى لأنِّى ... عِصَامِىٌّ وأسموه عِصَاما
بفاطمةٍ وإبنَيْهَا وطه ... وحيدَرَةَ الذى أشْفَى العقاما
عليهمْ رحمةٌ تهدِى سلامًا ... تكونُ لنَشْرها مسكًا ختاما
ولا عَجَبٌ إذا ما جاك عافٍ ... فعادَ يقودُ ذو الجبِّ لهاما
فخذْ بيدى وسَمِّينى محلًّا ... يقربُ منك فيه لَنْ يُسَاما
وهبْ لى مَنْصِبِى لتنالَ أجْرِى ... وشُكْرى ما حييتُ له دواما
فقد لَعِبَتْ ببيتِ الله حقًّا ... زعانفُ يستحلُّونَ الحراما
فعَنْ ذا ليسَ مَسْئُولاً غداةً ... سِوَاكَ إذا الورَى بقيَتْ قياما
وفى أملِى بأنْ يجزيكَ عَنِّى ... شفيعٌ عفوه يُطْفى الأُوَامَا
وفكُّ أَسيرَ أسْر ليس يرضى ... بأن يوطا وإنْ حفى الملاما
رحيمًا لينًا فَظًّا غليظًا ... على الأعداءِ لنْ يرضى اهتضاما
عريقٌ فى مودَّتِكُمْ نصوحٌ ... وَقُوعٌ إن غشا خطبٌ وقاما
فقل سَلْ تُعْطَ أعطاكَ الذى لم ... يَخَفْ نقصًا ولم يخْشَ انتقاما
مدى الأيامِ تخفضُ ذا اعوجاجٍ ... وترفَعُ مَنْ أطاعَكَ واستقاما
ودُمْ فى راد عمرِكَ والأعادِى ... تمنى فى مضاجِعِهَا الحمامَا

فأجابه إلى ملتمسه ومراده، وأرعاه من مقصده أخصب مراده، ولكن مُدت إليه يد الهلك، قبل نيل الملك.

قيل: إنه سُم فى ختمة قرآن أتى إليه بها بعض الأشخاص فى هيئة درويش مهديها إليه، فلما قبلها اختلس الدرويش نفسه، فلما قبّلها السيد أحمد سقط فوه، فكان ذلك سبب موته رحمه الله تعالى.

ومن أحاسن شعره قصيدة سينية تشوق كل إنسان، وتدخل على القلوب من الآذان بغير استئذان؛ مطلعها: [من الخفيف]

حثَّ قبلَ الصباحِ نجْب كُئُوسى ... ...

وستأتي. وكذلك قصيدة يمدح بها بنى عمه ملوك الحجاز آل قتادة، وهى نبذة من أخباره وشجونه، تدل على فضله ولآلىء مكنونه. وهى: [من السريع]

حنَّتْ فأبكَتْ ذا شجونٍ حنونْ ... وغنَّتِ الورقا بأعلى الغُصُونْ
وشَقَّ بُرْدَ الليلِ برقٌ فما ... ظننته إلا حسامَ الجفونْ
كأنه مذ شَقَّ قلْبَ الدجَى ... جبينُ ليلَى فى دياجِى القرون
فقمْتُ كالهادِلِ فى شجوِهِ ... لم أدرِ ما بى فَرَحٌ أم جنونْ
وأرسَلَ الدَّمْعُ نجيعًا على ... خَدِّى فيجرى أعينًا من عيونْ
لم أرَ نؤيًا لا ولا مجثمًا ... وموقدًا أو عَلَمًا فى دمونْ
إلا وباتَ الناعمُ الفرشِ لى ... شوكًا وميعاسُ الروابى حُزُونْ
فالبرْقُ يوحى فى الدجَى رعدةً ... والوُرْقُ من شعْرى تجيدُ اللحونْ
عهدى بها كانَتْ كناسَ الظبا ... ومرتَعَ الأسدِ حماةِ الظعونْ
كلُّ طويلِ الباعِ رَحْبِ الفِنَا ... تصدُقُ للوُفَّادِ فيه الظنونْ
ليوثُ برقٍ خيسُهَا مأزقٌ ... أنيابُهَا فوقَ المذاكِى قرونْ
حتَّى غدا مِنْ بعدهم ربْعُهَا ... مفتأدًا جارتْ عليه السنونْ
كأنه جسمِى وإنْ لم يكنْ ... جسمى فوهمًا أو خيالاً يكونْ
وقفتُ فيه والأسَى والنوَى ... يستلبانِ الصبْرَ سلْبَ المنونْ
ألله لى من مهجةٍ مزقَتْ ... ومقلةٍ عبرَى ونَفْسٍ ونونْ
تحنُّ للشُّعْبِ وأوطانِهِ ... مهما سرَى برقٌ بليلٍ دجونْ
وفتيةٍ منْ آلِ طه لَهُمْ ... فى الحربِ أبكارٌ مزايا وعونْ
مبتذلُ الساحاتِ فى قُطْرهم ... للخائِفِ الجانى أعزّ الحصونْ
وكلُّهم يومَ الوغَى سيِّدٌ ... للضدِّ خباطٌ بلبد ظنونْ
يحمدُهُ السارونَ إنْ أدلجوا ... ويقتضى النادِى به السامِرُونْ
لا ينتهى الجارُونَ منه إلى ... شَأْوٍ ولا يعسفُهُ الجائرونْ
فيانسيماتِ الصبا عَرِّجى ... بهمْ وبثِّى غامضاتِ الشجونْ
وحاذِرِى أن تصحبى لوعَتِى ... واستَصْحِبِى بَثِّى لكَىْ يفهمونْ
وبلِّغيهم حالَ من لم يزلْ ... حليفَ أشجانٍ كثيرَ الشئونْ

يستخبر الريحَ بأنفاسِهِ ويسألُ البرقَ بدمعٍ هتونْ
فشأنه يخبرُ عن شأنِهِ بدمْعِهِ إن يسأل السائلونْ
ناءٍ عن الأهلِ ضعيف الأسَى أَبعد ما فارق قَلْب شطونْ
يحفظُ للزملِ عهودَ الوفا وإن طَلَبْتَ الخونَ منه يخونْ
وأنتَ يا سارى بشام النقا وحَادِىَ الظعْنِ بذاتِ الرعونْ
عَرِّضْ بذكرِى لا شَجَاكَ النوَى لعلَّهم بى بعد ذا يذكرونْ
وقُلْ لهم والله لو أبعدَتْ أخبارُكُمْ إنى كما تعهدونْ
نسيتُمُ صَبًّا غدا دمعُهُ مِنْ بعدكُمْ صبًّا قريحَ الجفونْ
وَهْوَ وماضِى العيشِ ما ساعَةٌ فيها تناسى جدّكم والمجونْ

وهذه السينية المتقدم ذكرها الفائح عطرها لمولانا السيد أحمد بن مسعود بن حسن بن أبى نمى تغمده الله برحمته: [من الخفيف]

حُثَّ قبل الصَّبَاحِ نجب كُئوسى فَهْىَ تجرى مجْرَى الغِذَا فى النفوسِ
وانتخِبْهَا بكرًا فقدْ ثَوَّبَ الدا عِى إليها مِنْ حانة القِسِّيسِ
بنتُ كَرْمٍ إن تَرْقِ ملسوعَ راحٍ وهو جلس لم يَرْتَضِى بالجلوسِ
كشفَتْ غيهَبَ الخمارِ ولو تر شَحُ رمسًا ردَّتْ بقا المرموسِ
غرسَتْهَا بينَ الحدائقِ والنو روز والشَّطُّ كفُّ بطليموسِ
فَتَلقَّى أم المسرات طلقًا والندامَى بمهر كيسٍ وكيسِ
أطلق النَّدَّ والكبا الرطْبَ واستجْ لِ عروسًا لا عِطْرَ بعد عروسِ
عانسًا فى الدنانِ عذراءَ لم تط مث من عهد جرهم وجديسِ
نارُ أنسٍ يعشو الكليمُ ويصبو لِفِناهَا بالذُّلِّ والتقديسِ
خرقَتْ حلَّة الجمانِ وأبدَتْ مستطير الصباحِ فى الحنديسِ
زعَمَ الجاهلونَ فيها بأنْ قَدْ عَصَرَتْها قِدَمًا يدا عبدوسِ
وهْىَ من لُطْفها كشَكٍّ نفاه صادقُ القولِ عند ذى تسويسِ
فأدرْهَا فى كاسها دونَ خَدَّيْـ كَ وفوقَ الشقيقِ من خندريسِ
واسْقِ بالخيرِ لى الندامَى لتبدو قدرةُ الله فى المقامِ النفيسِ
لتَرَى أنجمًا بفلْكٍ وبدرًا فوقَ غصنٍ يختالُ بينَ شموسِ

ولكلٍّ إربٌ وما أنا بالـرا   ئى شريفًا فى جَنْبِ وجه خسيسِ
وخرود بجامِهَا وطلاَهَا   وَلماهَا والخدّ ينجاب بُوسِى
إن حكينا بالثغرِ والخدِّ ما فى الـ   جيدِ قلنا ظُلمًا وما فى الكُئُوسِ
تتلظَّى غيظًا وتَبْسِمُ توبيـ   ـخًا لنا فى القياسِ بعد المقيسِ
لم أكنْ قبلها أصدِّقُ أن الرْ   رَاحَ ظَلْمٌ فى لؤلؤٍ مغروسِ
ظبيةٌ رخوةُ العريكةِ تغتا   لُ أسودَ الشرَى بِدَهْيٍ شَموسِ
لبسَتْ من غلائلِ الحسْنِ بُرْدًا   منه كلُّ العقول فى تلبيسِ
تتهادَى عجبًا فتستقبحُ الرو   ضَ أنيقًا لجودَةِ التجنيسِ
لو رآها تختالُ تيهًا أبُوهَا   لخشينا عليه دِين المجُوسِ
كُلُّ حلْوٍ منها استجَدَّ رسيسًا   وقديمى فيها استَمَرَّ نسيسِى
تركَتْنِى نِضْوًا على نضوِ رسم   فيه دمعى خلى وسُهْدِى جليسى
موحشًا مِنْ هنيدةٍ بعد أن كا   نَ حقيقًا بالمربَعِ المأنوسِ
طالَ ما قُلتُ للغدافِرِ واللَّيْـ   ـثُ به قد ألقَى عصا السيرِ هيسِى
لنقضِّى فيه حقوقًا وتبكِى   فيه وُرْقُ الحمَى وثُكْل العيسِ
ونرجِّى الآمالَ أن تبعث الرِّيـ   ـحَ أريجًا من معهدٍ مطلوسِ
فرعَى الله بالأجارعِ عصرًا   وبدورًا غصونُهَا فى طموسِ
حيثُ جو الشبابِ سَحْوٌ وبحْرُ الـ   لهوِ رَهْوٌ لم ألْقَ فيه بروسِى
ومحلاًّ بين الأباطح والقبْـ   ـبة مِنْ طيبَةٍ بِسُوحِ الرَّئِيسِ
أَحْمَدُ الخُلْقِ أحمدُ الخَلْقِ فى اللـ   ـهِ غِيَاثُ المَنْجُودِ والمَبْلُوسِ
شافعُ الأمةِ التى جاءَ فيها   كنتُمُ من مهيمنٍ قدوسِ
أولُ الأنبياءِ والخاتمُ العا   صِمُ من هولِ صيلم دربيسِ
يتقى حيدَرٌ وحمزةُ والفا   روقُ فيه إذ جاشَ قِدْرُ الوطيسِ
وكذا فى المعادِ عيسَى وإسحا   قُ وموسَى الكليمُ مع إدريسِ
وبه يسألونَ إذ صدم الهو   ل تجلّيه فى الزمانِ العبوسِ
وهُمُ الفائزونَ لكنْ لما طَمْـ   مَ عَلَى الخلقِ من عذابٍ بئيسِ
مهطعينَ الأعناق فى مَوْقِفِ الرهـ   بة لم يستمع لهم من نبيسِ

فينادى سَلْ تُعْطَ واشفَعْ أيا خيْـ رَ شفيعٍ فى مسمهرٌ ضَبيسِ
أريحىٌّ بقصده تأنفُ الأخـ مَصُ أنْ تحتذى شَوَاة الرءوسِ
نَقَلَ الذِّكْرَ للجوامعِ والأحـ كام بعد الأزلامِ والناقوسِ
تَرَكَ الذئبَ والغضنفَرَ والشَّا ةَ جميعًا من خوفِ غبِّ الفريسِ
أَيَّدَ الدينَ بالذوابلِ والشُّو سِ المذاكِى تعدُو وبيض شوسِ
كل ذمر فى السلْمِ هَين وفى الحر بِ أبى يشقُّ أنفَ الخميسِ
كعلىٍّ وحمزةَ البِشْرِ إن بَدَّلَ بِشْر الوجوهِ بالتعبيسِ
بيهسىَّ غابةِ الوشيجِ وطودَىْ مفخرٍ فى مؤثلٍ قُدْمُوسِ
بهما والبَتُولِ والآلِ والسبـ طَيْنِ والمخبتين بالتغليسِ
ألإمامين بالنصوصِ الشهيدَيْـ نِ البريئَيْنِ من صدَى التدنيسِ
فرقدَىْ هالةِ الرياسةِ وابنَىْ مدحضى بالقواضب التبخيسِ
ما رعَى فيهما رئيس ربى الفِدْ يةِ إلا فضْلًا عن المرءوسِ
وبِمَنْ قامَ فى مقامِكَ يستسـ قَى به والمحلِّقِ الدعيسِ
وبخِلَّيْكَ صاحبيْكَ ضجيعَيْـ كَ ظهيرَيكَ فى الرخا والبوسِ
ذا رفيقٌ فى الغارِ رِدْفٌ وذا تنـ فرُ من حِسِّهِ رقى إبليسِ
وبتلو الإثنينِ جامع أشتا تِ المثانِى بالرسْمِ والتدريسِ
لم يُراقِبْ للهدْى والجيشِ من غيْـ رِ فسوقٍ أتَى ولَا تدليسِ
أدركَ ادْرِكْ ذا غربةٍ وانفرادٍ وسهادٍ ومدمعٍ مبجوسِ
قد لقى من حصائدِ النفسِ ما لا قَى كليبٌ فيها غَداةَ البَسُوسِ
ألوحَا ألوحَا فِدَى لكَ ملهو فٌ يناديكَ من ورا طرطوسِ
يا نَبِيَّاهُ يا وليَّاهُ يا جَدَّاهُ يا غَوْثَ ضارعٍ موطوسِ
أنتَ إنْ أعضلَ العضالُ وأعيا كُلَّ آسٍ دواه جَالينوسِى
وإذا ما الخنَاقُ ضاقَ فلم أر جُ لكربى إلاَّكَ للتنفيسِ
ولقدْ جرد العقول إلَى أنْ لبسْت منْهُ بزَّة المخموسِ
وبجدواكَ يقلبُ السعد فى الأز مةِ سعدًا تحديق عَيْن النحوسِ
يا خفيرى إذا ارتهنْتُ وما لى غَيْرُ كسبِى فى مضجَعِى من أنيسِ

أبظُلْمِ الحوبا أقصِّرُ عن شأ ... وِ جُدُودى وأنْتَ أصْلُ غروسى
حاشَ لله أن يقصِّرَ مَنْ أَفْـ ... عَمَ فيكُمْ مدحًا بطونَ الطروسِ
فارتبطْهَا من الجيادِ التى تَسْـ ... بقُ خَيْلَ الوليدِ وابْنِ سديسِ
وأجزْنِى بردًا من الأمنِ ما حيـ ... ـك بصنعا حسنا ولا تِنِّيسِ
وأغشنى دنيا وأخرَى بمرآ ... كَ ليهدا رَوْعِى ويقوَى رسيسِى
واجلُ طرفى بنظرةٍ تذهبُ اللىّ وتُسْدِى فى الحىّ نِيرَ مروسى
إن أرحْ مطلقًا من الذنبِ فالتقـ ... ـريضُ وقفٌ مسلسلُ التجنيسِ
أو تناسى به فناى وحقِّى ... فعلَى الحظ دعوة المبخوسِ
إنما أنتَ آصفٌ ونجاتى ... منكَ أدنى إليه من بلقيسِ
لو تشفعْتَ فى سَبًا لَعَلِمْنَا ... أنَّهمْ فائزونَ بالمحسوسِ
فعليكَ الصلاةُ ما هَجَّرَ الركْـ ... ـبُ وحثَّ القِلَاص للتعريسِ
وعلى آلِكَ الكرامِ وأصحا ... بِكَ ما روضَةٌ زهَتْ بالغروسِ
وأضاءَ الصبَاحُ من بعد ليلٍ ... واستسرَّتْ عروسُهُ بعروسِ

وفيها - أعنى سنة اثنتين وأربعين وألف - توفى شيخ مشايخنا الشيخ العلامة برهان الدين أبو الأمداد إبراهيم بن حسن بن على اللقانى، خاتمة المحققين، وسيد الفقهاء والمتكلمين، إمام الأئمة، وموضح المشكلات المدلهمة، أخذ عن الشمس الرملى، والعلامة ابن قاسم العبادى، والشيخ إبراهيم العلقمى أخى الشيخ شمس الدين شارح الجامع الصغير الشرح المسمى «بالكوكب المنير» والشيخ نور الدين الزيادى، والشيخ أبى بكر الشنوانى، وغيرهم.

وله كرامات خارقة، ومكاشفات صادقة، أخذ عنه طريق القوم خلق كثير.

وممن أخذ عنه العلوم الشرعية والعقلية، والفنون الأدبية شيخنا العلامة محمد بن علاء الدين البابلى، والشيخ على بن على الشبراملسى، وولده إبراهيم وغيرهم. رحمه الله تعالى.

وفى سنة أربع وأربعين وألف يوم الجمعة ثامن رجب منها توفى الشريف عظيم الشأن مولانا السيد أحمد شيخان باعبُود العلوى، ولد بالمخا، كان رحمه الله من أكابر المشايخ الصالحين والأولياء الكاملين واستمر على الحالة المرضية إلى أن وافته

المنية، وقدم على رب البرية فى التاريخ المذكور ببندر جدة، وحمله ولده السيد سالم من جدة إلى مكة، ووصل به ليلة السبت، ودفن صبح اليوم المذكور على أبيه وأخيه فى حوطة آل با علوى.

ولولده مولانا السيد سالم بن أحمد شيحان مؤرخًا وفاة أبيه المذكور بعد أن رآه فى منامه قوله: [من الكامل]

شاهدتُ فى عامِ الوفاةِ بليلةٍ غَرَّاءَ أحمد قائلاً نفسى احمدى
أُسْكِنْتَ جناتِ النَعيمِ ونِعْمَ هى نُزُلاً فتاريخُ الوفاةِ تخلَّدِى

وفيها توفى بين العصرين سابع عشرى رجب الشيخ الأمجد الأوحد شهاب الدين أحمد ابن أبى الفتح الحكمى.

أخذ عنه شيخنا العلامة الشيخ على بن الجمال الأنصارى المكى، وشيخنا الشيخ عبد الله ابن الشيخ سعيد باقشير وغيرهما.

وله ترجمة طويلة. كانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وهو فى عشر الخمسين. نفعنا الله به آمين.

وفى سنة خمس وأربعين فجر الثلاثاء ثامن ذى العقدة منها: توفى السيد أحمد بن محمد الهادى بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، محتد الجلالة والفخامة، مفرد المقالة والشهامة، العالم العامل بلا زعامة، الحاتم على ناظره القطع له بالفضل السنى والكرامة، الولى لله بلا ريب ولا نزاع، الملزم نفسه النفيسة الطاعة له عز وجل والحضور لديه والانقطاع.

ولد بـ«تريم» واستوطن مكة، ولازم السيد عمر بن عبد الرحيم، والشيخ أحمد بن علان وغيرهما، واستمر بمكة إلى أن انتقل بها فى التاريخ المذكور، ودفن بحوطة السادة بنى علوى.

وفيها توفى الشيخ يوسف بن محمد البلقينى بقية الجيل الجليل الذى سلف، ونخبة الحائزين بالعلم السيادة والشرف، رئيس القراء المجيدين، جليس الفقراء إلى الله المنقطعين، إذا قرأ القرآن المجيد رتله ترتيلا، وحبره تحبيرا، وإذا حار بالنعمان اللبيب فى مشكل متشابهه قيل له: اسأل به خبيرًا، رحمه الله تعالى.

وفى سنة ست وأربعين وألف ضحوة يوم الأحد تاسع ذى القعدة الحرام: توفى

مولانا وسيدنا إمام أهل العرفان، ذو السر الباهر والبرهان، من مزايا مفاخره فقدت الحصر، ويذكر مناقبه يتجمل الزمان والدهر، أوحد الأئمة المعتبرين أولى التمكين، مرشد الطالبين، ومربى السالكين، العالم العامل، والأستاذ الكامل، طاهر الجنان واللسان والأركان، مولانا السيد سالم بن أحمد شيحان، ودفن فى عصر ذلك اليوم على والده وجده بالمعلاة، وتاريخ وفاته: صار إلى رحمة الله. وله ترجمة طويلة عظيمة جليلة - رحمه الله تعالى -.

وفيها ليلة الخميس ثالث عشر ذى القعدة: توفى السيد نعمة الله بن عبد الله بن محيى الدين بن عبد الرحمن بن عبد الله بن على بن أحمد بن محمد بن زكريا بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عبد القادر الجيلانى. أحد أكابر الأولياء الذين نالوا الوفا والكرامة، الغنى بكمال فضله عن إشارة أو علامة، سطع نور كمالاته، فأخجل النيرين، وأشرقت صفاته المضيئة فى الخافقين، وتواترت كراماته فى سائر الآفاق، ووقع على ولايته الاتفاق.

اشتهر فلا يحتاج إلى إطناب فى الصفات، بما خصه مولاه من أنواع الكمالات.

ولد بالهند، ووصل إلى مكة سنة أربع عشرة وألف، وجاور بها، ولازم الصمت والمسجد سنين، ثم سكن شعب عامر وتزوج، وأولد أولادًا نجباء أجلاء، ثم مرض وأوصى أن يدفن بمحله بشعب عامر المذكور فدفن به، وكانت الحُمى من أقل خدامه يرسلها إلى من شاء أى مدة شاء، ويرفعها متى شاء بإذن الله تعالى، مدحه الأجلاء، ورثوه بعدة قصائد، منهم مولانا وشيخنا الشيخ على بن الجمال، والأديب البارع أحمد الفضل الكثيرى وغيرهما.

وفيها فى موسمها يوم الجمعة عشرى ذى الحجة الحرام: وقعت فتنة كان ابتداؤها قبل صلاة الجمعة، سببها أن عبدًا لبعض السادة الأشراف ورد بفرس سيده الششمة المعروفة بالبزابيز، فوقع هناك بين العبد المذكور، وبين شخص من عسكر مصر تزاحم وتدافع، فضرب الجندى العبد فضربه العبد فجرحه، فلزمه الجندى مع جماعته، فانتدب جماعة العبيد ففكوا العبد، فثارت الفتنة، ولم يكن لصاحب مكة، ولا للأمير علم بذلك، فاجتمع الجندى مع جماعته بمدرسة السلطان قايتباى، واجتمع عسكر صاحب مكة مع العبيد عند منزله، فأقبل كل من الفريقين على

الآخر، فأرسل الشريف جماعة لرد عسكره، ونهيهم تسكينًا للفتنة، وبرز أمير الحاج من المدرسة، وبيده عصا لرد عسكره كذلك، وسار على قدميه، فلما وصل إلى قريب من باب على من أبواب المسجد الحرام سمع صوت البندق، فرجع ودخل من باب الحريريين، ودخل المدرسة من بابها الكائن فى المسجد الحرام، فبينما هم كذلك إذ نزل من جهة المعلاة من كان بها من العسكر المصرى، ومعهم المدافع، فجعلوا واحدًا منها عند الششمة المذكورة وواحدًا عند باب المدرسة القايتبائية، فاشتد الكرب على أهل مكة، وأرسل فى أثناء ذلك مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى أمير الحاج المصرى رضوان بك مشيرًا عليه بمنع العسكر المصرى جماعته، وكذا أرسل إلى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك بن فروخ، وقتل من العسكر المصرى، والعسكر الشريفى أشخاص بالبندق، ولم يزل الأمر كذلك حتى أجنَّهم الليل، فانكف الفريقان، وركب بعض خدام الشريف رحمه الله تعالى بأمر منه ومعه المنادى بالأمان، وأمسى الناس فى أمر مريج.

فلما كانت صبيحة يوم السبت سعى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك المذكور بين الشريف، وبين أمير الحاج المصرى بالصلح فتعافيا، فنادى قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم مناديان: أحدهما من أمير المصرى، والثانى من الشامى بالأمان للحجاج، وأهل البلد، وقدم المصرى خروجه من مكة فى هذا العام على خلاف العادة، فبرز فى يوم الثالث والعشرين من ذى الحجة.

وفى سنة سبع وأربعين وألف قدم شعبان أفندى إلى المدينة المنورة ومعه حجر من الماس محفوف بأحجار مختلعة مكفوف بصفائح الذهب والفضة، وهذا الحجر من آثار صدر الدولة العثمانية مصطفى باشا سلحدار، فوضع ذلك الحجر تحت الحجرين اللذين وضعهما السلطان أحمد خان، وأنعم على أهل المدينة بالصدقة الجليلة، وفى ذلك يقول السيد محمد كبريت مادحًا ومؤرخًا: [من الخفيف]

زار خيرَ الأنام خَيْرُ همام قد تَسَمَّى شعبانَ وهو ربيعُ
عَمَّ جيرانَ أحمدٍ بنوالٍ دُونَ ذاكَ النوالِ خصْبٌ مريعُ
جاءَ بالجوهَرِ الثمينِ لطه مِنْ وزيرٍ هوَ الجنابُ المنيعُ
مصطفى المجْدِ والندَى والمعالِى وسلحدارُ نعمةٍ لا تضيعُ

يا له جوهَر تسامَى وسامَى بمقامٍ فيه الثناءُ يضوعُ
عند وجْهِ النبيِّ قد وضعُوهُ فغدا وهْوَ مشرقٌ ولموعُ
كان هذا فى عَامِ سبعٍ وألفٍ وتمامُ النظامِ فيه بديعُ

قلت: فى هذا التاريخ لطف إدخال فى قوله: وتمام النظام فيه؛ لأنه يشير بذلك إلى الميم من لفظ النظام وهى بأربعين، فبذلك ثم حساب سبع وأربعين وألف.

وكان إهداء ذينك الحجرين الأولين من حضرة مولانا السلطان أحمد خان مع لوح من فضة كبير مكتوب فيه آيات قرآنية فى سنة ست وعشرين وألف مركب على الشباك القبلى أمام المواجه الزائر، وفى اللوح أبيات آخرها بيت التاريخ، وهو: لوح لسلطان أحمد أهداه حُبًّا خالصا.

وفيها: توفى العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى العمرى الحنفى، شهاب الفضل الثاقب، الشهير المآثر والمناقب، من سطع فى سماء الأدب نوره، وتفتق فى رياضه زهره ونوره، فامتد فى البلاغة باعه، وشق على من رام أن يشق غباره اتباعه، لا تلين قناة فضله لغامز، ولا يلمز أدبه المبرأ من العيب لامز.

كان تولى القضاء بمكة المشرفة، فنال به ما أمله مما طمح بصره إليه واستشرفه.

ولما حصل أخوه فى قبضة الشريف أحمد بن عبد المطلب، ومنى منه بذلك الفادح الذى قهر به وغلب، حصل هو أيضًا فى قبضة القبض والأسر، وأردف معه على ذلك الأدهم بالقسر، حتى جرع أخوه بذلك الكاس، وأنعم عليه بالخلاص بعد الياس.

فراش الدهر حاله، وأعاد منها ما غيره وأحاله.

ولم يزل فارغ البال، من شواغل البلبال، إلى أن انقضت أيامه، ووافاه حمامه.

فكانت وفاته لخمس خلون من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة.

واتفق تاريخ وفاته صدر البيت المشهور:

من شاء بعدك فليمت ... ...

وله نظم بديع، ونثر يفوق أزهار الربيع.

من نظمه القصيدة الدالية امتدح فيها شريف مكة الشريف مسعود بن حسن مطلعها: [من البسيط]

عُوجا قليلًا كذا عن أيمنِ الوادِى واستَوْقِفَا العيسَ لا يحدو بها الحَادِى

منها قوله:

رَأسُ الملوكِ يمين الملك ساعده زند المعالِى جبين الجحْفَلِ البادى

ومنها:

وصان وَسْمك فِى حاش مخالطة عَنْ رَبِّ غَزْوٍ تنضَّاهُ بأحشادِ

وهى فصيحة بليغة تقدم ذكرها.

وله قصيدة فى السيد شهوان بن مسعود مطلعها: [من البسيط]

فيروزَجٌ أم وسامُ الغادةِ الرُّودِ يبدو على سِلْك دُرٌّ فيه منضودِ

ومنها قوله فى المخلص:

صهباءُ تفعلُ فى الألبابِ سَوْرَتها فعلَ السخاءِ بشهوان بْنِ مسعودِ

وله ما كتبه على شداد مطيّة الشريف زيد بن محسن - رحمهما الله تعالى - وهو قوله: [من مجزوء الكامل]

أفـقُ الـشـدادِ بـدَتْ بـه شَـمْسُ الخلافةِ والـهلالْ

ومِـنَ الـعـجائِب جـمـعُـهُ لَـيْـثَ الـشـرافـةِ والـغـزالْ

وله غير ذلك من غير ذلك - رحمه الله تعالى -.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعد الألف، فى أثنائها أقبل من الديار الرومية بشير أغا الحبشى الطواشى، معه أوامر بمطلق التصرف، وخطوط سلطانية بما يريد من التعرف والتحرف. فلما بلغ الينبع ورد إليه الخبر بوفاة السلطان مراد بن أحمد خان سلطان الزمان، ففاح الخبر بينبع، ثم كتمه بشير ليتم له تنفيذ ما أراد، وقد كان مولانا الشريف زيد هيَّأ واختار لبشير أغا عدة أماكن من المدارس والبيوت، وأمر بفرشها، وكان من نيته مواجهته إلى مرّ، وأرسل بعض خدامه إلى ينبع ليرى ما مع بشير من الخيل والرحل والناس، فلما وصل إليها سمع هذا الخبر وتحققه فرجع مسرعًا مجدا به إلى مولانا الشريف زيد، فلما تحقق مولانا الشريف صحة ذلك أمر بتحويل الفرش التى فى تلك الأماكن، وغلق بعضها، فلما قارب بشير مكة خرج إليه مولانا الشريف، ولاقاه فى الجوخى محل ملاقاة أمراء الحج إذا وصلوا، فلما أن لاقاه وقابله، وفى بال بشير أن الخبر لم يبلغه، وأن يتم له ما أراد من تنفيذ ما شاء على غشاش وغفلة، ثم بعد ذلك لا يضره ظهور الخبر، فلما تدانيا همز مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - فرسه مقدمًا

على بشير مناكبًا له قائلا: الله رحمت أيله سلطان مراد[١]، ومسح على عينيه بالمنديل باكيًا أو متباكيًا، فسُقط فى يد بشير، ودخل بشير كالأسير.

وهذا من جملة سعودات الشريف ذى القدر المنيف.

وكان مولانا الشريف رحمه الله قد رأى فى المنام كأن شخصًا ينشده هذا البيت: [من الطويل]

كأنْ لم يكُنْ أمرٌ وإنْ كانَ كائنٌ لكانَ به أمرٌ نفى ذلك الأَمْرُ

فانتبه رحمه الله، وكتبه بالسواك على رمل فى صحن نحاس خشية النسيان، وكانت هذه الرؤيا فى الليلة التى أسفر صباحها عن ورود هذا الخبر.

واستمر بشير إلى آخر السنة، وحج وتوجه صحبة الحاج حيث جاء.

فمن الألطاف الخفية لمولانا بما أولاه، وكم، وكفى بالله.

وقد نظم السيد محمد الآنسى المغربى قصيدة يمدح بها مولانا الشريف زيد رحمه الله ذكر فيها قصة بشير، وأورد فيها البيت المذكور وهى هذه: [من الطويل]

سَلُوا آلَ نُعْمٍ بعدنا أيها السَّفْرُ أعندهُمُ عِلْمٌ بما صَنَعَ الدهْرُ
تصدَّى لشتِّ الشملِ بينى وبينها فمنزلى البَطْحا ومنزلُها القَصْرُ
رآنى ونعمى لاهيَيْنِ فغالَنَا فَشلَّتْ يدُ الدهرِ الخئُونِ ولا عُذْرُ
فوالله ما مكر العدوِّ كمكرِهِ ولكنَّ مكرًا صاغه فَهُوَ المكْرُ
فقولا لأحداثِ الليالى تمهَّلى ويأيهذا الدهْرُ موعدُكَ الحشرُ
سلامٌ على ذاكَ الزمانِ وطيبهِ وعيشٍ مضَى فيه وما نبَتَ الشعْرُ
وتلكَ الرياضُ الباسماتُ كأنَّ في عواتقها مِنْ سندسٍ حُلل خُضْرُ
تنضَّد فيها الأقحوانُ ونَرْجِسٌ كأعْيُنِ نُعْمٍ إذ يقابلها الثغْرُ
كأنَّ غُصُونَ الوردِ قُضْبُ زبرجدٍ تخالُ من الياقوتِ أعلامه الحمْرُ
إذا خَطَرَتْ فى الروضِ نُعْمٌ عشية تَفَاوَحَ من فضلاتِ أردانهَا العطْرُ
وإن سحبَتْ أذيالها خِلْتَ حيةً إلى الماءِ تسعَى ما لأخمصِهَا إثْرُ
كساها الجمالُ اليوسفى ملابسًا فأهوَنُ ملبوس لها التيهُ والكِبْرُ
فكمْ تخجلُ الأغصانُ منها إذا انثَنَتْ وتُغْضِى حياءً من لواحظها البتْرُ

(١) أى: رحم الله السلطان مرادًا.

لها طرةٌ تكسو الظلامَ دياجيًا ... على غرَّةٍ إن أسفرَتْ طَلَعَ الفَجْرُ
وصحنان خد أشرقا فكأنَّما ... مصابيحُ رهبانٍ أضاءَ بها الدَّيْرُ
وجيدٍ من البِلَّوْرِ أبيضَ ناعمٍ ... كعنْقِ غزالٍ قد تكنَّفَهَا الذعْرُ
ونحْرٍ يقولُ الدرُّ إنَّ به غِنَىً ... عن الحلْى لكنْ بى إلى مثله فقْرُ
وحقان كالكافورتَيْنِ علاهما ... من الندِّ مثقالٌ فندَّ به الصبْرُ
رويدَكَ يا كافورُ إنَّ قلوبنا ... ضعافٌ وما كُلُّ البلاد هى المِصْرُ
تبدَّى بقدٍّ باسقًا متأودًا ... على نقو من رمل يطوف به نهرُ
يكادُ يقدُّ الخصر من هَيَفٍ به ... روادفها لولا الثقَافَةُ والهَضْرُ
لها بَشَرٌ مثلُ الحريرِ ومنطقٌ ... رخيمُ الحواشِى لا هراءٌ ولا نَزْرُ
رأتنى سقيمًا ناحلاً والهًا بها ... فأدنَتْ لها عوذ أناملها العَشْرُ
إذا كنْتَ مطبوبًا فلا زلْتَ هكذا ... وإنْ كنْتَ مسحورًا فلا برئَ السحْرُ
فقلتُ لها والله يا ابنَةَ مالكِ ... لما شفَّنى إلا القطيعةُ والهَجْرُ
رَمَتْنى العيونُ البابلياتُ أسهمًا ... فأقصدنى منها سهامُكُم الحمْرُ
فقالتْ وألقَتْ فى الحشا مِنْ كلامها ... تأجّج نار أنتَ من ملكنا حُرُّ
فوالله ما أنسَى وقد بكرَتْ لنا ... بإبريقها تسعَى به القينةُ البكْرُ
تدورُ بكاساتِ العُقارِ كأنجُمٍ ... إذا طلعَتْ من بُرْجها أَفَلَ البدرُ
نداماىَ نُعْمٌ والربابُ وزينبٌ ... ثلاثُ شخوصٍ بيننا النظمُ والنثْرُ
على الناىِ والعودِ الرخيمِ وقهوةٍ ... يذكِّرها دنيا بأقدامِنا العصْرُ
فتقتصُّ مِنْ ألبابنا ورءُوسِنَا ... فلم نَدْرِ هل ذاك النعاسُ أم السُّكْرُ
معتقةً من عهدِ عادٍ وجرهمٍ ... ومودعها الأدنان لقمانُ والنسْرُ
مشعشعةً صفرا كأنَّ حبابَهَا ... على فُرُشٍ مِنْ عسجدٍ نثر الدرُّ
إذا فرغَتْ من كأسٍ نعمٍ وأختِهَا ... تشابه مِنْ ثغريهما الريقُ والخَمْرُ
خلا أن ريقَ الثغْرِ أشفى لمهجتى ... إذا ذاقه قلبى الشَّجِى خَمَدَ الجمرُ
وأنفَعُ درياقٍ لمنْ قَتَلَ الهوَى ... فماتَ ارتشافُ الثغرِ إنْ سمحَ الثغْرُ
بهذا عرفنا الفَرْقَ ما بين كأسِهَا ... وبين مُدامِ الظَّلْمِ إن أشكَلَ الأمْرُ
فوالله ما أسلو هواها على النوَى ... بلى إنْ سلا بذل النوَى الملك القسْرُ

أبو حسنٍ زيدُ المحاسن والعُلاَ ... له دونَ أملاكِ الورَى المجدُ والفخْرُ
إذا ما مشَى بين الصفوفِ تزلزلَتْ ... لهيبته الأقيالُ والعسكَرُ المجْرُ
وترجُفُ ذاتُ الصدعِ خوفًا لبأسِهِ ... فتندكُ أطوادُ الممالِكِ والقفْرُ
فلو قال للبحْرِ المحيطِ ائتِ طائعًا ... أتاه بإذْنِ الله فى الساعة البحْرُ
تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له ... وما خشعَتْ إلا وفى نَفْسها أمْرُ
كريمٌ متى تنزلْ بأعتابِ دارِهِ ... تجدْ ملكًا يزهو به النهْىُ والأمْرُ
تجدْ ملكًا يغنى الوفودَ وينجزُ الـ ... ـوعود وأدنَى بذله الدّهم والشقْرُ
على جودِهِ من وجهِهِ ولسانِهِ ... دليلانِ للوفْدِ البشاشةُ والبِشْرُ
فما أحنفٌ حلمًا وما حاتمٌ ندى ... وما عنترٌ يوم الحقيقةِ أو عَمْرُو
هو الملكُ الضَّحَّاكُ يومَ نزاله ... إذا ما الجَبَانُ الوجه قطَّبه الكرُّ
لقد قرَّ طرف الملكِ منه لأنه ... لديه النوالُ الحلو والغضَبُ المرُّ
حياةٌ وموتٌ للموالى وللعدَى ... لقد جمعا فى كَفِّهِ الجبْرُ والكسْرُ
أنِخ عنده يا طالبَ الرزقِ إنَّ مَا ... حواه أنوشِرْوَان فى عينه نَزْرُ
ولا تُصْغِ للعذالِ أذنًا وإن وَفَوْا ... بإحسانهم منه فما العَبْدُ والحرُّ
وهل يستوى عَذْبٌ فراتٌ مروّقٌ ... وملحٌ أجاجٌ لا ولا التبْنُ والتبرُ
فلو سمعتْ أذن العداةِ بمجدِهِ ... مزاياه لاستحْيَتْ ولكنْ بها وقْرُ
فما قَدَرُوا زيدَ العلا حقَّ قدره ... وماذا عليهِمْ يا تُرَى لهم الخسْرُ
مليكٌ إليه الانتهاءُ فقيصرٌ ... يقصِّرُ عنه بل وكسرى به كَسْرُ
مليكٌ له عندَ الإلهِ مكانةٌ ... تبوأها من قبلِهِ الياسُ والخِضْرُ
مليكٌ له سرٌّ خفيٌّ كأنما ... يناجيه فى الغيْبِ ابنُ داود والجفر
فإنْ كذبَتْ أعداءُ زيد فحسبُهُ ... من الشاهدِ المقبولِ قصَّتُهُ البكرُ
ليالى أنْ جاء الخَصِىُّ وأكثروا ... أقاويلَ غىِّ ضاقَ ذرعًا بها الصدْرُ
فأيقظَهُ من نومِهِ بعد هجعةٍ ... من الليلِ بيْتٌ زاد فخرًا به الشعرُ:
« كأنْ لم يكُنْ أمرٌ وإنْ كانَ كائنٌ ... لكانَ به أمرٌ نفى ذلك الأمرُ »
وفى طىِّ هذا عبرةٌ لأولى النهَى ... وذكْرَى لمن كانَتْ له فطنةٌ تَعْرُو
فيا زيدُ قلْ للحاسدِينَ تحنَّطوا ... بغيظِكُمْ إن لم يطيعُكُمُ الصبْرُ

فمجدى كما قد تعلمونَ مؤثَّلٌ وكلُّ حَمَامِ البرِّ يفرسه الصقْرُ
من القومِ أربابِ المكارمِ والعلا ميامينُ فى أيديهِمُ اليُسْرُ والعُسْرُ
مساميحُ فى اللأوا مصابيحُ فى الوغَى تصالح فى مغناهم الخيْرُ والشرُّ
أسنتهُمْ فى كُلِّ شرقٍ ومغربٍ إذا وردَتْ زرقٌ وإن صدرَتْ حُمْرُ
مساعيرُ حربٍ والقنا متشاجرٌ ويوم الندَى تبدو جحاجحة غُرُّ
بنى حسنٍ لا أبعدَ الله دارَكُمْ ولا زالَ منهلًا بأرجائِهَا القطْرُ
ولا زالَ صدْرُ الملكِ منشرحًا بكُمْ فعنْكُمْ ولاةَ البيتِ ينشرحُ الصدْرُ
وصَلَّى على المختارِ والآلِ ربُّنَا وسَلَّمَ ما لاحَ السِّمَاكَان والغفْرُ

وفى سنة خمسين وألف يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى: توفى الشيخ تاج الدين زكريا بن سلطان النقشبندى بمكة، ودفن صبح الخميس فى رباطه الشهير برباط تاج فى سفح جبل قعيقعان، وله ترجمة طويلة.

أخذ عنه الشيخ الأمجد أحمد بن إبراهيم بن علان، وشيخنا الشيخ عبد الله، وأخوه الشيخ محمد ابنا الشيخ سعيد باقشير.

وفيها: توفى الجمال محمد بن أحمد بن حكيم الملك بالديار الهندية.

وفى سنة اثنتين وخمسين وألف ليلة الخميس ثانى عشر صفر منها: توفى الشيخ فتح الله النحاس الحلبى، الشاعر المجيد، والأديب الفريد، الذى شاع ذكره وشعره وذاع، وجمع بين الإسراع والإبداع.

كان من فحول الشعراء فى عصره، وفريد النثر والنظم فى دهره.

ورزق حظوة عند أهله، وقبولا يعهد مثله لمثله. ولكنه كان ذا تعاظم فى نفسه، وتكبر على جنسه، ولم يسعفه دهره كعادته مع الأدباء، فأدركته حرفة الأدب، وناداه لسان حاله: لا تعجب فإنى أبو العجب.

مولده بحلب فى حدود الألف. وصحب المشايخ الكبار، وحج وزار.

وأقام بالمدينة على مشرفها الصلاة والسلام، إلى أن أدركه بها الحمام، فى التاريخ المذكور ودفن بالبقيع.

وقد عنى بجمع ما تيسر من شعره مولانا العلامة الفهامة برهان الدين الشيخ إبراهيم ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن الخيارى المدنى، فجمعه فى ديوان لطيف: ومن بديع شعره قوله مادحًا النبى ﷺ: [من البسيط]

تذكَّر السفْحَ فانهلَّتْ سوافحه ولَيْسَ يخفاكَ ما تُخْفى جوانحُهُ

وفى هذه القصيدة بيت يجفل منه الطبع الذكىّ، ويود أن يكون عند فهمه بليدًا أىَّ بليد، وإن كان هو عند أدباء العصر بيت القصيد. وهو قوله: [من البسيط]

وما أقولُ إذا ما جئتُ أمدحُ مَنْ جبريلُ خادمُهُ والله مادحُهُ ؟!

وفى سنة ثلاث وخمسين وألف: أنشأ مولانا الشريف زيد بن محسن سبيلا وحنفية بمكة المشرفة.

فقال مولانا القاضى تاج الدين مؤرخًا لعمارتهما: [من السريع]

لله تأسيسٌ نما خيرُهُ وفازَ بالتطهيرِ مَنْ أَمَّ لَهْ

به سبيلٌ وحنفية وسلسبيلٌ فارتشفْ سلسلَهْ

له نبا فى الفيضِ مهما روى حديثه أروَى بما سلسلَهْ

سالَتْ عطاياه لُجينًا فمَنْ رامَ نداه نالَ ما أمَّلَهْ

وحيثُ لم تكتفِ سُؤَّاله فلا يكفُّ البذل إذ أرسَلَهْ

لأنَّ مَنْ أسَّسَ بنيانَهُ غيثُ الورى فى السنةِ الممحِلَهْ

مَنْ نفسُهُ يومَ عطاه ترَى إن وهب الدنيا فقد قَلَّ لهْ

توَّجَهُ الله بتاجِ زها بجوهرِ المجدِ الذى كَلَّلَهْ

والله مِنْ وافرِ إحسانِهِ أجرَى له الأجرَ الذى أجزَلَهْ

فإنْ تسلْ عن ضبطِ تاريخِهِ فخذْ جوابًا يوضحُ المسألَهْ

أسَّسَهُ سلطانُ أمِّ القُرَى زيدٌ يدومُ العزُّ والسَّعد لَهْ

ولما كان أوائل سنة سبع وخمسين طلع الصنجق الكبير صاحب جدة المسمى مصطفى بك إلى وادى الطائف المأنوس لزيارة الحبر سيدنا عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وطلع بعده الأغا المكرم بشير أغا غلام المرحوم مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان، وهذا فى مجيئه الثانى سنة ست وخمسين بعد الألف متوليًا مشيخة الحرم النبوى، فأقام ما شاء الله أن يقيم، ثم لما أن كان نازلا إلى مكة طالعًا فى المحل المعروف بالنقب الأحمر، وجه جبل كراء مما يلى الطائف، وقد تفرقت عساكره خلفًا وأمامًا، ولم يبق معه سوى السائس وحامل كوز الماء، اعترضه رجل عربى كان يتعهده بالإحسان إليه، يقال له: الجعفرى، فضربه وهو متجرد للإحرام

بسكين العرب أنفذها إلى أحشائه، وذهب ولم يدر محله، قيل: إن السائس أراد ضرب القاتل فوقع السيف فى مؤخر الحصان، فقمص فسقط عنه الصنجق، فلاحقت العساكر فلم يلبث إلا نحو ساعتين، وتوفى شهيدا إلى رحمة الله.

وكان قتله يوم التاسع والعشرين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة، ودخل به مكة فى التخت قتيلا غرة رجب منها، فجهز ودفن فى المعلاة أمام قبة السيدة خديجة زوج النبى ﷺ.

وكان مولانا الشريف رحمه الله تعالى سنتها قد توجه إلى جهة الشرق، فأبعد حتى وصل قريبًا من الخرج، وكان القائم مقامه لحفظ مكة مولانا السيد إبراهيم ابن الشريف محمد ابن الشريف عبد الله بن حسن، فاستدنى السيد إبراهيم غالب عسكر الصنجق، وأنزلهم فى محل يسعهم بأجياد، وأجرى عليهم الجوامك والأرزاق، وأمر السيد المذكور كيخية العسكر دلاور أغا بالنزول إلى جدة لحفظ البندر، فامتنع أشد الامتناع.

ثم لما كان بعد ليال عديدة نزل بعد هزيع من الليل قاصدًا جدة خلسة، فشعر به السيد إبراهيم المذكور، وأرصد له جماعة فأمسكوه وأتوا به فحبسه، ثم اختلس بعض العسكر نفسه، وذهب إلى بشير أغا بالطائف وأخبره بما وقع، فأقبل بشير إلى مكة، ونزل بمدرسة الأغا بهرام بالمسعى، فتردد السيد إبراهيم فى الوصول إليه وعدمه لاختلاف المشير، ثم جزم وعزم إليه فتلقاه بما هو الواجب، ثم قال له لما استقر المجلس: لِمَ حبستم دلاور أغا؟ فقال السيد إبراهيم: حبسناه خشية من إضراره وإفساده، فإننا قد ألزمناه مرارًا بالنزول إلى جدة فامتنع فارتبنا بنزوله خفية، فقال بشير: أطلقه. فقال: لا أطلقه حتى يصل مولانا الشريف زيد.

ثم قام السيد إبراهيم. فلما كان اليوم الثانى: نزل بشير أغا إلى الأفندى، واستدعوا مولانا السيد إبراهيم فحكم عليه الأفندى بإطلاقه فأطلقه، ثم بعد يومين أو ثلاثة عزم السيد إبراهيم، والقائد رشيد حاكم مكة إلى نحو بركة الماجن للتنزه، فاستجر بشير أغا العسكر ووعدهم، فحملوا أثقالهم وأدخلوها من باب المسجد، وخرجوا بها من باب ابن عتيق، ثم خرجوا بعد العصر حازبين مارِّين على دار السعادة ثم على السوق ثم على سويقة، إلى أن وصلوا بيت بشير أغا، وكان نازلا

بالباسطية، فوصل الخبر للسيد إبراهيم فوصل إلى البلد، وقال لبشير أغا: ما هذا الفعل؟ فقال بشير فى جوابه: نعم عسكر السلطان، لهم فى التربية سنين تأخذهم فى خمسة أيام؟!.

وكان فى عسكرهم شخص اسمه جاووش كثير الفساد وشرب الخمر والتعدى، فأمر السيد إبراهيم بقتله أينما وجد، فوجد سكران على الطريق، فتناوله عسكر الشريف فقطعوه، فثارت الفتنة وترامى العسكران بالرصاص، وقتل شخص من الناس خلف مقام المالكى وقتل كخية بشير أغا، ولم يزل مطروحًا عند باب ابن عتيق إلى الليل من داخل المسجد حتى رفعه بعض أهل الخير، ثم سعى القاضى أحمد كرباش وغيره بالصلح والمكافة، وألاَّ يصل إلينا منكم أحد ونحن كذلك ما عدا ثلاثة أشخاص معينين من جماعة بشير لقضاء حوائجه من السوق وسكنت الفتنة.

وذكر لى من أدرك ذلك أن مولانا الشريف زيدًا رحمه الله تعالى استحسن جميع ما فعله السيد إبراهيم ما عدا قتله للجاووش فإنه لامه عليه، فرحم الله الجميع برحمته الواسعة.

واتفق فى مدة وقوع الشنآن بين بشير أغا والسيد إبراهيم بن محمد أن قرأ فى صلاة المغرب بعض أئمة الحنفية بسورة الفيل ثم قرأ فى صلاة الصبح سورة والفجر، وكان بشير يحضر صلاة الجماعة، فلما فرغ من صلاة الصبح قال لرجل من أهل مكة كان يألفه: انظر أهل مكة يرجمونا بالقرآن؛ لموجب قراءة الإمام المذكور فى المغرب بسورة الفيل فإن فيها ذكر أصحاب الفيل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٣] إلى آخر السورة، وفى الصبح بسورة الفجر وفيها ذكر عاد ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر: ١١-١٣] الآيات، فبلغ قوله الإمام المذكور - وهو لم يخطر له شىء من ذلك ببال ولا علِق منه بحبال - فارتاع لذلك وارتاب، ولبث البيت وزرر الباب، ومكث على ذلك أيامًا، وتمنى أن لم يكن إمامًا. وهو اتفاق فيه إيهام، لكنها رمية من غير رام، لطف الله بنا وبه.

ثم عزم مولانا الشريف رحمه الله فى عام تسع وخمسين إلى زيارة جده ﷺ فكان دخوله يوم الخميس ثامن شهر شعبان من السنة المذكورة، فنزل بالقاضية خارج

السور. ثم فى فجر اليوم العاشر من الشهر المذكور نزل الأفندى زفر قاضى المدينة الشريفة راكبًا ومعه ثلاثة من الخدم، فلما كان عند الدفتردارية وثب عليه شخص فضربه بالحد فى ظهره أنفدها من صدره فأكب على قربوس الفرس، ولم تزل داخلة به إلى محراب السيد عثمان بن عفان رضى الله عنه وإمام الشافعية قائم يصلى الفجر، فقام بعض الناس إليه، وأنزلوه بآخر رمق وهو يقول: يا رسول الله يارسول الله، ووضع أمام الوجه الشريف، وبعد لحظة قضى عليه، فحشدت عساكر المدينة واجتمعت وأغلقت أبواب سور المدينة، وتفرقت فى متارسه، ووجهوا المدافع إلى جهة مولانا الشريف زيد ونادوا: اخرج عنا الآن، وبدا منهم ما هو وصفهم، فبعث إليهم الشريف أكابر جماعته، وأكابر عسكر مصر، فحلفوا لهم بأن لا علم للشريف بذلك ولا شعور، ولوَّموهم على ذلك خطابًا من تحت السور، فتراجعوا وفتح باب السور.

ففى اليوم الثانى استدعى وجوههم لينظر فى حال قتلة الأفندى ويبحث عنهم، فأتوا إليه فلم يزل يمسكهم واحدًا واحدًا وحبسهم مديدة، ثم وقعت فى بعضهم شفاعة ففك وذهب بالباقين وهم نحو تسعة أنفس فأمر بإبقائهم فى ينبع، فاستمروا إلى مجىء الحاج فاستشفعوا بأمير الحاج فأتى بهم مستشفعًا فيهم، فشفعه مولانا الشريف، ثم لما نزل بعد الحج الصنجق غيطاس أمير جدة من مكة إلى جدة مغاضبًا لمولانا الشريف زيد نزلوا معه وكتبوا أنفسهم فى دفتر عسكره.

وسبب غضبه الناشئ عنه الحرابة الآتى ذكرها فى سنة ستين وألف أمور: منها أنه ورد إلى مكة بعض تجار من الصعايدة، وشخص أعجمى يسمى أسد خان جاءوا من جهة اليمن بتجارة، ونزلوا من البحر إلى بندر القنفدة، ووصلوا إلى مكة برًّا ولم يدخلوا بندر جدة، فلما أن دخلوا إلى مكة وكان غيطاس بمكة قد وصل للحج فاحتال على الصعيدى وحبسه، وكان الصعيدى ملتجئًا إلى المرحوم السيد هاشم بن عبد الله فلزم السيد على الشريف زيد فى إطلاقه فوعده، ثم إنه أخذته الحمية، فركب إلى الشريف ثانيًا، ثم نزل من عنده قاصدًا لبيت الصنجق غيطاس لفك الرجل، فنادى مولانا الشريف قائمًا من الروشن: ردوا الرجل فمضى، فلما أقبل على البيت لم يقابل إلا بالرجل المحبوس منطلقًا فرجع به.

وقيل: إن حبس غيطاس للصعيدى إنما كان بسبب دين عليه شكا فيه على غيطاس.

ومنها: مجابذة الشريف زيد له لما جعل القرش الحجر بخمسة وأربعين ديوانى فى صرور أهل مكة بزيادة خمسة على الأربعين المعتادة.

ومنها: إيحاء أولئك النفر من عسكر المدينة، ونسبتهم قتل الأفندى إليه.

ومنها: تردد السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس إليه ومواطأته ووعده إسعافه، بما أبى الله إلا خلافه.

فقبل أن ينقضى الحج نزل غيطاس إلى جدة، ووصل إليه السيد عبد العزيز المذكور، فوصل الخبر بعد قليل إلى مكة بتولية غيطاس للسيد عبد العزيز مكة ونودى له بالبلاد، وأقام حاكما فيها ناصر بن سعيد عتيق مصطفى السيورى وظن أنها تكون. . . . . ،[1] وأقبل غيطاس ومعه السيد المذكور بمن معه ومن لمَّ عليه من لفق عسكر المدينة، وخرج عليه مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى، وكان اللقاء يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى من سنة الستين وألف فوق التنعيم، وكان فى الميمنة متقدمًا مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بجماعته ومن يليه، وكان فى الميسرة كذلك متقدمًا قليلاً مولانا المرحوم السيد مبارك بن شنبر بجماعته ومن يليه، ومولانا الشريف زيد بمن معه فى القلب، والصروخ ملأت السهل والوعر وتراموا بالرصاص والمدافع، وكلما همّ الأشراف بالحملة يقول لهم مولانا الشريف: معكم معكم، كناية عن التلبث والتأنى، وارتفع النهار وحميت الشمس فركض من الأشراف جماعة، منهم السيد وبير بن محمد بن إبراهيم، والسيد بشير ابن سليمان، والسيد أبو القاسم، فأصيب السيد وبير بالبندق فسقط بين الجمعين، وأصيب جماعة من الجانبين، وحين اشتد الحال أتى مولانا السيد عبد العزيز إلى جمع السيد المبارك بن شنبر داخلا عليه طالبًا للأمان، ولغيطاس ومن معه، فعزم به السيد مبارك إلى مولانا الشريف فأمنه ووقع الصلح، ونصبت للشريف خيمة فنزل بها يستظل، وسأل السيد عبد العزيز من الشريف من يوصل غيطاس إلى مأمنه لأنه أشفق من نهبة العربان له، فأصحبه الشريف خمسين شخصًا من العسكر فذهب إلى جدة

---

(١) بياض بالمخطوط .

راجعًا، وجاء عزله، فذهب إلى ينبع وواجهه الحاج بها، ومكث إلى عود الحاج من مكة إليها وتوجه معهم إلى مصر وتوجه معه السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس رحم الله الجميع، فاستمر غيطاس بمصر سنة إحدى وستين، وجاء فى موسمها أمير المحمل المصرى فتوهم منه مولانا الشريف زيد، ولما خرج للخلعة على العادة لم يكن بينهما مناكبة على المعتاد بل مد له الشريف يده الشريفة فصافحه، ومن عامئذ تركت مناكبة شريف مكة لأمراء الحجيج ولم يقع منه شىء من المضار ولله الحمد والمنة.

وأما مولانا السيد عبد العزيز فأقام بمصر نحو سنتين، ثم جاء خبر وفاته فى السنة الثالثة شهيدًا بالطاعون رحمه الله.

وفى سنة ثلاث وستين عمرت قبة الفراشين فى المسجد الحرام، فقال مولانا القاضى تاج الدين المالكى مؤرخًا عمارتها وممتدحًا معمرها: [من الرجز]

أُنظُرْ لحسنِ قبةٍ جدَّدها ... مؤسسًا فَخْرُ الملوكِ الأمجدُ
وقُلْ إذا أَرّختَ عامًا كانَ في ... أثنائِهِ بناؤُهُ المشيَّدُ
عمرها سلطانُنا محمَّدُ ... ألملكُ السامى العلىُّ الأوحَدُ

وإن أردت تاريخها باعتبار تمام البناء كله فى سنة أربع وستين فقل: المالك بزيادة الألف. ولما أرادوا الشروع فى العمل حملوا المؤنة على الحمير، وأدخلوها من باب البغلة ويعرف هذا الباب قديمًا بباب بنى سفيان بن عبد الأسد؛ كذا قاله الأزرقى. وعرف الفاسى هذا الباب بباب البغلة قال: ولم أدر ما سبب هذه الشهرة، قال العلامة الشيخ محمد على بن علان: لعل سببها أن بغلته ﷺ ربطت أو وقفت ثمة فى بعض الأوقات والله أعلم.

وفى سنة ثمان وستين وألف: أصاب شاهجهان سلطان الديار الهندية فالج عطله عن الحركة، وحصل بين أولاده حروب كثيرة، ولما أراد الله بالهند خيرًا وإحسانًا، وقدر ظهور العدل فيهم كرمًا وامتنانًا، أظهر فى حافتيها شموس السلطنة بلا ريب، وأنار فى سماء سلطنتها أنوار أورنك زيب، وطوى بساط إخوانه ومزق، وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق، وقتل أخاه دارا شكور واقتلعه هو وأصحابه من ملك الحبور، وأسكنهم دارسات القبور. وكان دارا شكور ذا ذوق وفطنة بهية، وصفات مستحسنة رضية، إلا أنه فى آخر عمره صارت سيرته ذميمة، وأحدث مظالم وخيمة.

وفى سنة تسع وستين يوم الجمعة لعشر بقين من شوال منها: توفى مولانا السيد عمار بن بركات بن جعفر بن أبى نمى فى الديار الهندية رحمه الله تعالى.

وفيها أواخر شهر رمضان: توفى بالقرية المسماة بالآبار من بلدة الطائف الحميدة الآثار، ودفن فى سوح ضريح الحبر ابن عباس طيب الأنفاس، مولانا وسيدنا العلامة، العمدة الصدر الفهامة، القاضى عصام الدين بن على زاده العصامى، نتيجة الفضلاء الكرام، وسلالة العلماء الأعلام.

الراوى حديث المجد عن أسلافه الأماثل، والحاوى محاسن سلسلة آبائه الفضلاء التى لم يفصلها بحمد الله جاهل، والرافع عماد بيتهم، والمجيب منادى صيتهم وصوتهم، بيت فضل لم ينشأ به إلا قاض وخطيب، فنن فضله فى رياض المعالى رطيب.

ولد بمكة ونشأ بها وأخذ العلم عن والده، وعن مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم، وعن ابن عمه مولانا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين العصامى وغيرهم، ولازم الإقراء والتدريس على الدوام فى المسجد الحرام، على طريقة العلماء الكاملين، والأئمة الواصلين.

وخلف ابنين نجيبين كاملين، هما مولانا القاضى على، ومولانا المرحوم القاضى محمد. انتقل محمد بعد سنوات عن ابنين نجيبين أيضًا.

وتصدر مولانا القاضى على مكانه للإقراء والإفادات، وهو كآبائه على طريق خير وصلاح، قد أشرق نورهما عَلَى محيّاه ولاح.

أطال الله بقاءه للدين، ونفع بعلومه المسلمين آمين.

وفى سنة سبعين حصل غلاء بمكة وصلت فيه كيلة الحب إلى سبعة عشر محلقًا، فأشار شيخنا العلامة محمد البابلى على مولانا الشريف زيد بإبطال التسعير، فأطلق مناديه بذلك، وأن كل من عنده حب أو ما يقتات به يبيعه بسعر الله، فأظهر كل من عنده الحب، وجلب من سائر البلدان حتى كثر ورخص السعر، وسبب الغلاء: كثرة الجراد بأرض الحجاز واليمن، وأعقبه الدبا فأكل جميع الأشجار والزراعات.

وطبق بعض الأدباء تاريخا على قوله: «غلاء وبلاء» نعوذ بالله منهما ومن كل مخوف.

وفى سنة اثنتين وسبعين: عمرت زمزم والبناء الذى عليها ما عدا الجهة القبلية، وأدير باب المصعد إلى قبتها إلى الجهة الجنوبية، فأرخ ذلك قاضى مكة عامئذ- وهو بعض الأروام الواصل منهم كل عام جديد قاض جديد- بأبيات بالتركية آخرها بيت التاريخ بالعربية هو:

قُلْتُ تَارِيخُهُ بِلَفْظٍ حَلٍ ... قَدْ بنى الزمزمَ محمَّدُ خَانْ

وهى أبيات دون عشرة منقورة فى حجر على باب زمزم إلى الآن فسبحان الحكيم.

وفى سنة ثلاث وسبعين وألف يوم السبت بعد الظهر سابع شعبان منها: حصل مطر سال منه سيل كبير ملأ المسجد وغرق فيه نحو ستة أنفس، فتصدى مولانا الشريف زيد لتنظيفه ونادى فى الناس، وحضر بنفسه وكذلك صنجق جدة الأمير سليمان بك - وهو يومئذ شيخ الحرم المكى، وقائم على عمارة المقامات وترميم المشاعر - وعمل الأشراف والعلماء والخطباء والمدرسون بأيديهم بعد أن عمل مولانا الشريف زيد بيده، وبذل هو والسنجق مالاً جزيلاً، وأعمل الهمة فى ذلك، فتم تنظيفه من سائر جهاته فى سبعة أيام، ولله الحمد والشكر.

وقال صاحبنا المرحوم مولانا السيد أحمد ابن المرحوم مولانا السيد أبى بكر بن سالم ابن شيخان مؤرخًا دخول السيل: [من الخفيف]

قهقَهَ الرعدُ عندما ابتسَمَ البَرْ ... قُ فأبكَى الغَمَام قَطْر المياهِ
وأذابا قلوبَنَا الخوفُ والرعْـ ... ـبُ فويلٌ لغافلِ القَلْب ساهِى
وأتانا طوفانُ نوحٍ وبالمَوْ ... تِ قطعنا لولا جنابُ الإلهِ
إن تقُلْ أَوْضِحُوا فسابعُ شعبا ... نَ وسبْت ليوم سِتّ مُضَاهِى
أو تردْ عامه المهيلَ فأرِّخْ ... باتَ سيلٌ يطوفُ بالبيْتِ دَاهِى

وفى سنة أربع وسبعين وألف: عمرت المقامات الأربعة، مقام الخليل وباقى الثلاثة، وطلاء جميع قباب المسجد بالنورة ظاهرًا وباطنًا، ورممت جميع المشاعر بعرفات، مسجد إبراهيم، وقبة جبل الرحمة والمشعر بمزدلفة، ومسجد الخيف بمنى، وأعلام الجمرات وحدود الحرم.

وفى سنة ست وسبعين: خرج مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى بلاد جهينة

لطلب ثأر السيد مساعد استجرّه والد مولانا وسيدنا المصنف هذا الكتاب برسمه، المشرف بلقبه الشريف واسمه متع الله بحياته، مولانا المرحوم السيد غالب بن محمد ولى الدم الأدنى، فتوجه بجميع من معه من السادة الأشراف، وأتباعهم وعساكره وعساكر مصر رتبة مكة إليهم وأقام ببدر، وتوجه مولانا المرحوم السيد حمود بن عبد الله إلى زيارة جده ﷺ، وكنت زائرًا معه فى كنف جنابه، على خيله وركابه.

وفيها: كان ورود الأغا عماد أفندى الرومى، فاتجه به مولانا السيد حمود فى الطريق، وذلك أنه لما وصلنا إلى الخيف -المنزل المعروف- وجدنا مخيمه بها، فمال إليه السيد حمود مع بعض أولاده، وبنى إخوته، وبنى عمه، ودخلوا عليه، فقام ساعيًا حافيًا من بُعد فكان أول اجتماعه به هناك، فجلس عنده حينًا من الزمان، ثم خرج وتوجه للزيارة، ثم لما رجع وجد مولانا الشريف زيد مقيما ببدر، فنزل بمحشوش اسم ماء قرب بدر، ثم توجها معًا إلى حرابة جهينة وكان المرحوم السيد أبو القاسم ابن السيد حمود هو القائم مقام مولانا الشريف زيد بمكة المشرفة عامئذ، وكانت الأمطار قد كثرت بالحجاز فرخصت الأسعار جدا حتى يبع الإردب القمح بثلاثة حروف عددى، والمن والجبن بمحلقين، والألبان واللحوم والخيرات كثيرة، ومثل مكة فى هذا ما حولها من الأقطار ولله الحمد والشكر.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وألف: كان هلالها بالأحد، فى فجر ليلة الثلاثاء ثالثه كانت وفاة سلطان الحرمين ونواحيهما، والمالىء بعدله وأمنه دانيهما وقاصيهما، مولانا المرحوم الشريف زيد ابن الشريف محسن بن الحسين بن الحسن؛ فصعدت روحه إلى معالم العرش والكرسى، وأفيض عليه من الرضوان سابغ الروح القدسى.

كان رحمه الله متخلقًا بالأخلاق المحمدية، متصفًا بالصفات الكمالية.

كان كثير الحلم والصبر والشفقة على الرعية، بحيث يسمع بأذنيه منهم الأسية، ويعفو ويصفح تأسيًا بجده خير البرية.

ولم يضبط عليه أنه قتل شخصًا بغير حق فى هذه المدة الطويلة المرضية.

وكان الأقطار والرعية فى زمنه آمنة مطمئنة فى عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدى الزمان، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان.

كان ولادته - رحمه الله تعالى، وأعاد على المسلمين من بركاته- بعد مضى درجتين من شروق شمس يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ست عشرة بعد الألف ببلدة «بيشة» من أعمال الشرق.

قلت: قد أخبرنى مولانا الخطيب العلامة اللبيب نتيجة الفضلاء، وعين الأعيان النبلاء، برهان الدين، الخطيب والإمام بمسجده - عليه الصلاة والسلام -، إبراهيم ابن العلامة الفهامة واحد عصره بلا خلاف، ونسيج وحده كلمة ائتلاف، مولانا المرحوم الخطيب أحمد بن عبد الله الشهير بالبرى نقلاً عن والده المذكور أنه حضر فى مجلس مولانا المرحوم الشريف زيد بعض متعاطى علم الرمل فضرب تخته ثم قال لمولانا الشريف زيد رحمه الله: قد دل الرمل الصحيح على أنه كان وقت علوق والدتك بنطفتك عند الزوال فى شهر رمضان فى عام خمسة عشر بعد الألف، فاستغرب مولانا الشريف ذلك لمكان شهر الصوم، ثم إنه سأل والدته عن هذا المعنى فأجابت نعم: كان سيدى أبوك غازيًا فى شهر رمضان لبعض العرب، فجاء بعد أن أدرك من النصر والنجح الأرب، وكان وصوله فى ذلك الوقت الذى ذكره هذا الرجل، فوقع على، فأدركت الحمل بك من حينى.

هكذا أخبرنى - حفظه الله تعالى - نقلاً عن والده الخطيب أحمد البرى المذكور.

فعلى هذا تكون مدة حمل مولانا الشريف زيد زادت على تسعة أشهر، ولا مانع من ذلك فإن أقصى مدة الحمل عند السادة الحنفية سنتان، وعند السادة الشافعية أربع سنين، وقد اتفق مكث الحمل تلك المدة لأشخاص كثيرة.

وكانت مدة ولايته خمسًا وثلاثين سنة وشهرًا وأيامًا، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له مغفرة جامعة آمين.

ولما مات وقعت بمكة رجة عظيمة فى التولية على المسلمين وفيمن يقوم مقامه، بين ولده الشريف سعد وبين السيد حمود بن عبد الله، وقام كل من الرجلين أشد قيام، وجمع الجموع وبذل المال، وتحصنوا فى البيوت والمنائر، وانضم الأشراف جميعهم إلى السيد حمود، ولم يبق مع الشريف سعد إلا السيد مبارك بن محمد الحارث، والسيد راجح بن قايتباى، والسيد عبد المطلب بن محمد، والسيد مضر ابن المرتضى، والسيد الحسين بن يحيى، والسيد فارس بن بركات، والسيد محمد

ابن أحمد بن على، وهو الذى كان مع المنادى.

وكان فى مكة رجل عظيم الشأن قد ورد فى العام الذى قبل هذا العام وهو عام ست وسبعين، ورد سنجقًا لـ«جدة» وشيخًا لحرم مكة، وهو عماد أفندى المتقدم الذكر آنفًا، فردوا الأمر إليه.

وأحضر خلعة عنده والرسل تسعى من الشريف سعد إليه إلى الضحوة، فاتفق الرأى أن يُلبسوا الخلعة الشريف سعد، فأخذها من تحت ركبته شخص من أكابر عسكر مصر، يقال له: المسلمانى، وذهب بها إلى الشريف سعد فلبسها فى بيته من غير وعد.

قلت: وكان مجلس عماد أغا فى المسجد فى دكة عند باب رباط الداودية، وقد كنت إذ ذاك واقفًا أنظر، فبعد أن أخذت الخلعة قيل له: إن ابن الشريف زيد محمد يحيى هو المولى، وقد أخذ له والده أمرًا سلطانيًا بذلك، فقال لمن أخذ الخلعة: قولوا للشريف سعد: بشرط أنك قائم مقام، قائم مقام، هكذا سمع أذنى، فبعد أن ذهبوا بها ومشوا قليلا دخل المسجد من باب بنى سهم المسمى بباب العمرة جماعة من الأشراف، منهم مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، والسيد مبارك بن الفضل بن مسعود، وعبد الله بن أحمد، والسيد محمد بن أحمد بن حراز وغيره فى نحو ثمانية عشرة أشخاص، فوقفوا على عماد ورأوا جماعة للأتراك بيدهم الخلعة قد قاربوا باب المسجد النافذ إلى بيت الشريف، فقال لهم عماد: نحن ألبسنا الشريف سعد بشرط أنه قائم مقام أخيه محمد يحيى؛ لأنه هو القائم بعد أبيه المرحوم زيد بأمر سلطانى فلم يردوا عليه خطابًا، ثم إنهم رجعوا من الباب الذى دخلوا منه، ثم إنى أحببت الإحاطة التامة بالخبر وذهبت إلى منزل مولانا السيد حمود، فإذا الخيول على الباب، وإذا المجلس والبركة غاصان بالسادة الأشراف، فلم أستقر فى المجلس إلا والسيد حمود - رحمه الله - خارجًا من محل الحريم معتما عمامة زرقاء عليه صوف عودى، فخرج إلى البركة وجلس لحظة خفيفة، وقام عامدًا للنزول إلى مولاه المرحوم الشريف زيد وغسله، ومعاناة تجهيزه ودفنه، ومعه نحو ثلاثة أشخاص من بنى عمه لا أذكرهم الآن.

فلما كان فى أثناء الدرج نازلا إذا السيد أحمد بن محمد الحارث لاقاه طالعًا، فمذ

رآه السيد حمود وقف وقال: لا قطع الله هذه الزائلة، وكان جواب السيد أحمد سمع أذنى قوله: إذا جاءتك الرجال كن زبرة فرجع معه، ثم جهز مولانا الشريف زيد وأخرج إلى المسجد الحرام بعد صلاة الظهر، وخرج معه اثنان من الأشراف. أحدهما: ولده السيد حسن بن زيد، والآخر: من أولاد عمه، وأما باقى العسكر والأتباع فلم يخرج منهم إلا النزر اليسير لاشتغالهم بما هم فيه، وطلعوا به إلى المعلاة، ودفن فى قبة المرحوم مولانا الشريف أبو طالب فى جانبه إلى جهة القبلة.

وكان له مشهد عظيم، وخرج معه أهل مكة، وبكى عليه الصغير قبل الكبير، والحكم لله العلى الكبير.

وكان ذلك اليوم أعظم مصيبة على المسلمين. ولكن نرجع إلى قول رب العالمين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧].

ومما قيل فى تاريخ وفاته قول أخينا الفاضل الأريب، الشيخ أحمد بن قاسم الخلى وهو تاريخ عظيم عجيب هو قوله: [من الخفيف]

مات كهفُ الورَى مليكُ ملوكِ الْـ ... أرضِ مَنْ لَمْ يَزَلْ مَدَى الدَّهْرِ مُحْسِنْ

فالمعانى قالَتْ لنا أرِّخُوهُ ... قد ثَوَى فى الجنانِ زيدُ بْنُ محْسِنْ

ولمولانا قاضى المسلمين ببلد الله الأمين الإمام العلامة القدوة الفهامة مولانا القاضى عبد المحسن ابن مولانا المرحوم الشيخ سالم القلعى مؤرخًا لوفاته قوله: [من الكامل]

يا أهلَ مكَّةَ إنَّ سيدنا الذى ... مَلَكَ الحجازَ وكانَ فيه الأرشَدُ

رَبُّ السماحةِ والشجاعةِ والحيا ... والحلْمِ وصفاه التقَى والسؤددُ

لَقِىَ الإلهَ فكان تاريخِى له ... زيدُ بن محسِن فى الجنانِ مخلَّدُ

ومما قيل فيه قول الشيخ محمد بن حكيم الملك رحمه الله تعالى راثيًا أباه الشريف محسن ومادحًا له: [من البسيط]

صوادحُ البانِ وهْنًا شجوُهَا بادِى ... فمَنْ عذيرُ فتًى فى فَتِّ أكبادِ

صبٌّ إذا غنَّتِ الورقاءُ أرَّقه ... تذكيرُهَا نغماتِ الشادِنِ الشادِى

فباتَ يرعفُ من عينَيْه تحسبُهُ ... يزبرجُ المدمَعَ الوكَّافَ بالجادى

جافى المضاجعَ إلْف السهدِ ساورَهُ ... سُمُّ الأساودِ أو أنيابُ آسادِ
له إذا الليلُ واراه نشيجُ شَجٍ ... وجذوةٌ فى حشاهُ ذاتُ إيقادِ
سمّاره حينَ يضنيهِ توحُّشُهُ ... فيشرئبُّ إلى تأنيسِ عُوَّادِ
وجْدٌ وهمٌّ وأحزانٌ وبرحُ جوًى ... ولوعةٌ تتلظّى والأسَى سادِى
أضناهُ تفريقُ شملٍ ظلَّ مجتمعًا ... وضَنٌّ بالعودِ دهْرٌ خطبه عادِى
فالعمرُ ما بين ضرٍّ ينقضى وضنًا ... والدهْرُ ما بين إيعادٍ وإبعادِ
لا وصْل سلمى وذات الخال يرقُبُهُ ... ولا يؤمّلُ من سعدَى لإسعادِ
أشجَى فؤادىَ واستوهَى قوى جلدى ... أقوَى ملاعب بين النصْبِ والوادِى
عفَّتْ محاسنهَا الأيامُ فاندرسَتْ ... واستبدلَتْ وحشة من أنسها البادِى
وعطَّلَتْهَا الرزايا وهى حاليةٌ ... بساكنيها وورَّادٍ وروّادِ
وعاث صرفُ الليالِى فى مَعَالمها ... فما يجيبُ الصدَى فيها سوى الصادِى
دوارج المور مارَتْ فى معاهدها ... فغادَرَتها عفا الساحاتِ والنادِى
وناعبُ البينِ نادى بالشتاتِ بها ... فأهلُهَا بين أغوارٍ وأنجادِ
وصوحَتْ بالبلا أطلالُهَا وخلَتْ ... رحابها الفيحُ من هِنْدٍ ومن هادِى
أضحَتْ قفارًا تجرُّ الراسياتِ بها ... ريحُ جنوبٍ وشمل ذيلها الخادِى
كأنها لم تكُنْ يومًا لبيض مَهًا ... مراتعًا قد خلَتْ فيهنَّ من هادِى
ولم تظلَّ مغانيها بغانيةٍ ... تغنى إذا ما روى مِنْ بَذْرها رادِى
ولا عطا بينها رِيم ولا طلقٌ ... بها بدورُ دُجًى فى بُرْجٍ منطادِ
ولا تثنَّتْ بها لمياءُ ساحبة ... ذيل النعيم دلالاً بين أندادِ
فارقْتُهَا فكأنى لم أظَلَّ بها ... فى ظِلِّ عيشٍ يجلى عذْرَ حسادِ
أجنى قطوفَ فكاهاتٍ محاضرةٍ ... طورًا وطورًا أناجى زينةَ الهادى
هيفاءُ يزرِى إذا ماسَتْ تمايلها ... بأملَدٍ من غصونِ البانِ مَيَّادِ
بجانِبِ الجيدِ يهوى القرْط مرتعدًا ... مهواهُ حدّ سحيق فوق أكبادِ
شفاتها بين حُرِّ الدر قد خزنَتْ ... ذخيرة النخْلِ ممزوجًا بها الجادِى
إذا نضَتْ عن محياها النقابَ صَبَا ... مستهترًا كُلُّ سَجَّادٍ وعَبَّادِ
وإن تجلَّتْ ففيما قد جلَتْهُ دُجَى ... لنا به فى الدآدى أيُّما هادِى

وميضُ برقٍ ثناياها إذا ابتسمَتْ … بعارضِ الدمعِ من مهجورها حادِى
وناظرانِ لها يرتدُّ طرفُهُمَا … مهما رنَتْ عن قتيلٍ ما له وادِى
وصبحُ غُرَّتها فى ليلِ طُرَّتها … يومایَ من وَصْلها أو هجرها العادِى
تلكَ الربوعُ التى كانَتْ ملاعبها … أخنَى عليها الذى أخنَى على عَادِ
إلى مراتعِ غزلانِ الصريمِ بها … يحنُّ قلبى المعنَّى ما شدا شادِى
بعدًا لدهْرٍ رمانى بالفراقِ بها … ولا سقَى كنفيه الرائحُ الغادى
عَمْرِى لقد عظمَتْ تلك الفوادحُ منْ … خطوبِهِ وتعدَّتْ حدّ تعدادِ
فقدْ نسيتُ وأنستْنِى بوائقه … تلك التى دهدهَتْ أصلاد أطوادِ
مصارعٌ لبنى الزهرا وأحمدَ قَدْ … أذكرْنَ فخا ومَنْ أردى بها الهادِى
لفقدِهِمْ وعلى المطلولِ مِنْ دمهم … تبكِى السماءُ بدمْعِ رائحٍ غادِى
وشَقَّ جيبَ الغمامِ البرْقُ من حزنٍ … عليهمُ لا على أبناءِ عبَّادِ
كانوا كعقْد لجيدِ المجدِ مذْ فرطَتْ … من ذاك واسطةٌ أودى بتبدادِ
وهْوَ المليكُ الذى للملكِ كان حِمَى … مذْ ماسَ من بُردِهِ فى خيرِ أبرادِ
كانتْ لجيرانِ بيتِ الله دولتُهُ … مهادَ أمْنٍ لسرحِ الخوفِ ذوادِ
وكان طودًا بدَسْتِ الملك محتبيًا … ولاقتناصِ المعالى أىّ نهادِ
ثوَى بصَنْعَا فيا لله ما اشتملَتْ … عليه من مجدِهِ فى ضيقِ ألحادِ
فقد حويتِ به صنعاءُ من شرفٍ … كما حوَتْ صعدةٌ بالسيد الهادِى
فحبذا أنتِ يا صنعاءُ من بلدٍ … ولا تغشى زيادًا وكْف رعَّادِ
مصابُهُ كان رزءًا لا يوازنُهُ … رزءٌ ومفتاح أرزاءٍ وأسبادِ
وكان رأسًا على الأشرافِ منذ هوَى … تتابعوا إثْرَهُ عن شبهِ ميعادِ
كهفُ المضافِ إذا ما أزمةٌ أزمَتْ … من خطبِ نائبةٍ للمتنِ هدادِ
كهفُ المضافِ إذا ما أمحلَتْ سنةٌ … يضنُّ فى محْلها الطائىُ بالزادِ
كهفُ المضافِ إذا كَرَّ الجياد لدى … حَرّ الجلادِ أثار النقْعَ بالوادى
كهفُ المضافِ متَى ما يستباحُ حمى … لفقدِ حام بورد الكَرِّ عوادِ
كهفُ المضافِ إذا الجلى به نزلَتْ … ولم تجدْ كاشفًا منها بمرصادِ
كهفُ المضافِ إذا حلَّ المغارم فى … نيلِ العلاَ أثقل الأعناق كالطادِ

كهفُ المضافِ إذا نادى الصريخُ ولَمْ ... يجدْ له مصرخًا كالغيثِ للصادِى
كهفُ المضافِ إذا الدهْرُ العسوفُ سطا ... بضيْمِ جارٍ لنيلِ العِزِّ معتادِ
بل لهْفَ نَفْسٍ ذوى الآمالِ قاطبةً ... عليهِمُ خيْر مرتادٍ لمرتادِ
كانتْ بهم تزدهِى فى السلْمِ أنديةٌ ... وفى الوغَى كُلُّ قدادٍ وميَّادِ
على الأرائِكِ أقمارٌ تضىءُ ومِنْ ... تحتِ الترائِكِ آسادٌ لمستادِ
تشكُو عداهُمْ إذا شاكى(١) ... شكَّ القنا ما صفا مِنْ نسخِ زرادِ
إلى النحورِ وما تحوى الصدورُ وما ... وارَتْهُ فى جُنْحها ظلماتُ جسادِ
جَناجنًا فُلُقًا تَحْوِى جَآ جِئُوهَا ... مما يقصِّدُ فيها كلّ قَصَّادِ
بادوا فبادَ من الدنيا بأجْمعِهَا ... من كانَ فكَّاك أصفادٍ بأصفادِ
وقد ذوَتْ زهرةُ الدنيا لفقدِهِمُ ... وأُلْبِسَتْ بعدها أثوابَ إحدادِ
واجتثَّ غرس الأمانى من فجيعَتِهِمْ ... وأنشدَ الدهْرُ تقنيطًا لروادِ
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخذْ ... فى ضمِّ رحلكَ واجْمعْ فضلةَ الزادِ
يا قلبُ لا تيأَسَنْ من هولِ مصرعِهِمْ ... وعَزِّ نفسكَ فى بؤسٍ وإنكادِ
بمَنْ غدا خلفًا يا حبَّذا خلفٌ ... فى الملكِ من خيرِ آباءٍ وأجدادِ
بحائزٍ إرثَهُمْ حاوى مفاخِرِهم ... عما حوَى الألْفُ من آحادِ أعدادِ
وذاكَ زيدٌ أدامَ الله دولتَهُ ... وزادَهُ منه تأييدًا بأعدادِ
سما به النسَبُ الوضَّاحُ حيثُ غدا ... طريقُهُ جامعًا أشتاتَ أتلادِ
لقد حوَى من رفيعاتِ المكارِمِ ما ... يكفى لمفخَرِ أجداد وأحفادِ
أليس قد نَالَ ملكًا فى شبيبتِهِ ... ما ناله مَنْ سعَى أعمارَ آمادِ
ألَيْسَ فى وهَجِ الهيجا مواقفُهُ ... مشكورةً بين أعداءٍ وأضدادِ
أليس أصبَحَ بالتنعيم سابحُهُ ... لجّ المنايا ليحمى قُلَّ أجنادِ
ألَيْسَ نبئتَ يوم الليثِ أنَّ له ... وثباتِ ليثٍ يزجّى ذودَ نقادِ
ألَيْسَ يومَ العطا تحكِى أناملهُ ... خلجانَ بحْرٍ بفيضِ التبرِ مدادِ
ألَيْسَ قد راحَ فى تأسيسِ دولتِهِ ... مِنْ جده المصطفى رمْز بإرشادِ
دامَتْ معاليه والنعمَى يذال له ... مصونها وَهْوَ ملحوظٌ بإسعادِ

---

(١) بياض بالأصل .

ما لاحَ برقٌ وما ناحَتْ على فَنَنٍ   صوادحُ البانِ وهنّا شجوها بادِى

ومما قيل فيه - أيضًا - قول الإمام الفضل بن عبد الله الطبرى الحسينى: [من البسيط]

يا مىُّ حيا الحيا أحيا محياكِ   هَلاَّ بأعتاب عتبى فَاهَ لى فاكِ
مَنْ لى إليكِ وقد أودَى صدودكِ بى   ولا تزالينَ طوعًا لى أفّاكِ
يا هذه لم أزَلْ من بُعْدِهَا وَدُنُوّ   السقْم من بعدها موثوق أشراكِ
تيهى أطيلى التجنّى والجفاء وما   أردتِّ فاقضِيهِ بى فالحسْنُ ولاكِ
رفقًا رويدًا كأنى بالعذولِ علَى   تطاولِ الصدِّ فى ذا الصبِّ عزاكِ
إن لم يعز عزا عينى وقَدْ حُظِرَتْ   مرآكِ فليَهْنِ قلبى وهْوَ مرعاكِ
حسبى دليلاً على شوقِى المبرِّحِ بى   أنّى لَثَمْتُ عذولى حينَ سَمَّاكِ
والجفْنُ فى أرقٍ والقلْبُ فى حرقٍ   والعينُ فى غرقٍ إنسانُهَا باكى
يا مهجةَ الصبِّ غير الصبْرِ ليس وقَدْ   حنَّتْ بما قد لاقَيْت عينَاكِ
ويا عذولِى لُمِ اكْفُفِ اضْلُل اهْدِ   تَرَفَّقْ لِجَّ دَعْ أَوْجِبِ اطْلاَقِى وإمساكِى
ويا أسيرةَ حجليها أرَى سَرَفًا   لُبْسَ الحلى وقد منعْت مرآكِ
عطفًا علَى حالِ مَنْ لا يبتغى بدلاً   ولَيْسَ يشفيه مِنْ مشفيه إلاكِ
وأجملى الودَّ واخشَىْ عذلَ ذى الشَّرَفِ الـ   مؤيّد العزِّ مولاىَ ومولاكِ
زيدُ بن محسِنَ سلطانُ الأنام إما   مُ الحضرتَيْنِ أمانُ الخائفِ الباكى
كهفُ الضيوفِ وثَلَّامُ الصفوفِ   وَمَنَّاحُ الصنوفِ وفاءً دون تَشْكَاكِ
وباسلٌ لو رأَى شزرًا على حنقٍ   للموْتِ ما اخترم المَشْكُوّ والشاكى
ألقاسمُ الجودَ فى سامٍ وذى ضعةٍ   كواسم الجود فى نبْتٍ وأشواكِ
يُلقى فيلقى بفَضْلٍ غير محتجبٍ   وشأو شانٍ علا فى غَيْرِ إدراكِ
ونهبة لو رأى الضلال صُورتها   لأضْبَحُوا بين أخيارٍ ونُسَّاكِ
يهتزُّ للعَفْوِ من حلمٍ ولا طرب الْـ   مشمُول من شمْسٍ شماسٍ وبتراكِ
مهذَّبٌ رأيه والعزْمُ ناصرُهُ   أغناه عَنْ أزرِ أعرابٍ وأتراكِ
وذى سطا كمْ تشاكَى بأسَهُ شاكى   فى الملتقَى وتحامَى بَطْشَهُ شاكى
ثبْتُ الجنانِ إذا كان الخميسُ وغا   كأنه بين ظِلِّ الضالِ والراكِ

كم أضحَكَ السيفَ من باكٍ يجدِّلُهُ   والزحْف ما بين [مفْتَاكٍ وفَتَّاكِ](١)
ومَنْ يكنْ ذا خليلٍ غير صارمِهِ   والعزم يوشكُ أن يفجا بأضراكِ
وذى كعوبٍ له من طولِ حامِلِهِ   طولٌ بمجتمعِ الجَنْبَيْنِ شكاكِ
مخاطب بلسانٍ ناطقٍ بعجا   ئبِ المنايا بديهًا يا لَهُ حاكى
هو المليكُ الذى أسْنَى الممالك والـ   أزْمَان مِنْ بعدِ إسناءٍ وإحلاكِ
وطَبَّقَ الأرضَ عدلاً والضواحىَ   فالضِّدَانِ فى أمرِهِ المَنْكى والناكى
ونادَتِ الغُبْر الخضراء لو عقَلَتْ   غيظًا به ضرَّتى أبعدتٌ مرماكِ
وذكْرُهُ أرَّجَ الأرجاءَ شاسعةً   فَطِيبُ رِيحِ الصبا مِنْ عَرْفه الزاكِى
يا نفْسَ آمِلِهِ بُشْرَاكِ بشراكِ   ولو قضيْت بإذنِ الله أحياكِ
أو رمْتِ أجناد عُدْمٍ أو نويْتِ بما   أعياكِ محمله أغنَى وأقْنَاكِ
أوْرَدَ أمْسَك حالا أو مُضِى غدٍ   بسعده كَانَ ما تبغين يلقاكِ
ويا سيادتَهُ مِنْ أن يطاولها   مثلٌ وإياه حاشاهُ وحاشَاكِ
ودولَة فى حياةِ العمْرِ غرتُهَا   ما الدهْرُ حتى انقضاء الدهْرِ ينساكِ
ويا ليالِيهِ قد دامَتْ بسؤددِهِ   من أينَ للملكِ شرواه وشرواكِ
ويا أيادِى أيادِيهِ السنيَّة لا   ينفكُّ حسنكِ مقرونًا بحسناكِ
لو كان فى عَصْرِهِ بعد النبوةِ مبـ   عوثٌ لكان بلا دفعٍ وإشراكِ
لو طُرِّزَتْ باسمه الراياتُ ما حذرَتْ   أصحابُها غلبًا أو حطم دهاكِ
وقالتِ العينُ لو ترنو إليه بها   سناه يا أرْضُ عنى كان أغناكِ
ولو تقدَّم عهدًا كان ممتدحَ الـ   آياتِ فى طَىِّ منشوراتِ إصكاكِ
فالحمدُ بعدُ له والحمْدُ قبلُ لمَنْ   حبا الأنامَ سريًا أصله الزاكِى
لا زالَ واقِىَ مَنْ والَى ولاذَ به   وقْعَ الخطوبِ بعزٌ منه فَتَّاكِ
يَابْنَ الأُلى للعُلَا شادوا منيعَ حِمى   يحجه كُلّ كفافٍ وفكَّاكِ
بالمجدِ سادوا وداسُوا هامَ شانِئِهِمْ   وسيف عزمٍ لروح القرنِ سفاكِ
قد ذاد فى شرفِ البطحاءِ أنكَ في   جيرانها خيْرُ فَعَّالٍ وتَرَّاكِ
مولى الجميل ومنجاةُ الدخيلِ ومنـ   حاةُ الخذيلِ سرى بعين أملاكِ

(١) فى ط: فتاك وفعاك .

كافِيَّةٌ بُسِطَتْ وزنًا وقافيَةً ... تلوحُ كالدُّرِّ أو ياقوتِ أسلاكِ
يقولُ لو خالها الحِلِّئ خاطره ... حلاك يا مَنْ صنيع الفضل حلاّكِ
وباعَ قيراطه البرهان منبخسًا ... يزيفه فى انتقادِ كُلُّ حَكَّاكِ
وقالَ واسمك يا ذا العِزِّ واسطها ... لطلعةِ البَدْرِ أن لا بَدْرَ إلاكِ
تبغِى القبولَ وقَدْ جاءَتْ معارضةً ... أمثال كفى وفكِّى قيد أسراكِ

ثم وليها الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، ولبس الخلعة، ونادى مناديه فى البلاد، يسمعه الحاضر والباد، والناس حوله لهم ضجيج كالرعد: البلاد بلاد الله، وبلاد السلطان، وبلاد الشريف سعد.

وانجلت البصائر والأبصار، ذهبت الحيرة، وربك يفعل ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة.

وقد أرخ صاحبنا وعزيزنا الشيخ الأكرم الشيخ أحمد بن قاسم الخلّى جلوسه فقال وفيه لطف إدخال بديع: [من مخلَّع البسيط]

قامَ بأمْرِ البلادِ سعدٌ ... أيَّدَ رَبُّ السماءِ مُلْكَهْ
بغايةِ المجدِ أرِّخوهُ ... قد نِلْتَ بالسيفِ أمْرَ مَكَّهْ

ولمولانا المرحوم الإمام فضل ابن الإمام عبد الله الطبرى فى ذلك قوله: [من مخلع البسيط]

قالوا لنا اليَوْمَ ماتَ زيدٌ ... والناسُ تخشى وقوعَ عَرْكَهْ
والقومُ يسَّاءلونَ هذا ... قَالَ لذا منْ يرومُ ملْكَهْ
فقلتُ والقيلُ قد تناهَى ... والخلْقُ فى ضَجَّةٍ ورَبْكَهْ
بيتًا صحيحًا لهم جوابًا ... مُؤَرِّخا فيه رُمْتُ سَبْكَهْ
يبايعوهُ يملِّكُوهُ ... سعْدُ بن زيدٍ شريفُ مَكَّهْ

ولأخينا المرحوم القاضى أحمد ابن القاضى مرشد الدين العمرى الحنفى قوله مؤرخًا: [من مجزوء الكامل]

شمسُ الخلافةِ أشرَقَتْ ... وبدا منيرًا سَعْدُهَا
مذ حازَهَا الشرَفُ الذى ... بِعُلاَهُ زُيِّنَ عِقْدُهَا
سعدُ الذى تاريخُهُ ... خَيْرُ الملوكِ سعيدها

وكان مع الشريف زيد مملوكان أحدهما تركى الجنس اسمه ذو الفقار، والآخر

حبشى اسمه بلال.

أما الأول: فكان عند مولانا الشريف من زمان حتى كبر وصار شيخًا للعسكر اللهام، فقام عليهم أحسن قيام.

وكان ذا هيبة ورأى سديد، صاحب قوة وبأس شديد، فدعاه مولانا الشريف فى بعض الساعات إليه، وأوصاه على بنيه وعولته - رحمة الله عليه -.

فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة، امتثل مولاه أوامره، وقام على قدميه وشمر، وكشف عن ساعديه وشد المئزر، ورتب العساكر فى المدارس[1] بلصق المسجد الحرام المعمور، ووزعهم على المنائر والدور، ووضع المدافع على رءوس المنافذ والطرقات، وضبط قانون الحرابة من سائر الجهات، هذا ومولانا السيد حمود لم يبرح من بيته مع بنى عمه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشد قيام، قلنا: يا نار كونى بردًا وسلام.

ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهنئة والسرور، وتأطد له الملك بفأل اسمه والحبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته، ولم يقع ولله الحمد بمكة المشرفة شىء من النهب أو القتل أو الخوف ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٣،٤] ومن لطف الله - سبحانه - أن كان انتقال مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده.

وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم، وقد جرت العادة بذلك أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده، ثم يتوجهون ويجتمعون به فى المدينة المنورة، فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفًا على أنفسهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك - كان الله له -، وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن، ومعهم جمع من العسكر، فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين، ولله الحمد والمنة.

ثم أمر حاكم الطائف، وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم، ولم يمكنهم التوجه شفقة، فجهز جماعة من العسكر صحبة

---

(١) بياض بالمخطوط .

الحاكم المذكور، فساروا بهم من ليلهم، فوصلوا إلى الطائف من طريق يعرج، ونادى مناديه فى البلاد من ساعته.

ولما وصل الخبر بوفاة الشريف زيد - رحمه الله تعالى - إلى الطائف قبل وصول الحاكم اضطربت البلاد اضطرابًا شديدًا، وعزل السوق وكل أغلق بابه ونزع ثيابه، ودفن أسبابه، إلى أن وصل الحاكم، فاطمأنت حينئذ الخواطر من البوادى والحواضر، وكان إذ ذاك مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله بن حسن بالطائف وأولاده وأتباعه، فلما وصل هذا الخبر ركبوا الجياد، وداروا البلاد، ونادوا بالأمان، فخمدت بذلك داعية البغى والطغيان، وطمنوا الناس، وأمروهم بالرجوع إلى السوق، وبسط الدكاكين ففعلوا وامتثلوا، وحمدوا ربهم وشكروا، وكان وصول الحاكم آخر ذلك النهار. ولما كان يوم الرابع من انتقال مولانا الشريف وهو يوم الجمعة أراد الخطيب أن يخطب فوقف عن الخطبة لسبب من الأسباب، يدريه أولو الألباب، فصلى الناس الظهر.

وأما مكة فخطب الخطيب بها، ودعا للشريف سعد بالنصر والتأييد، والناس فى عيش رغيد. وفى هذا الوقت وقع طراد فى جهة المثناة قريبًا من وادى وجّ بين قبيلتين: قريش والحمدة من ثقيف واستمر إلى وقت العصر، وحصل بينهما بعض جراحات، وكان بمكة المشرفة يومئذ جماعة من الأعراب أهل خيل وركاب لما بلغهم موت الشريف زيد رحمه الله انطلقوا على رءوسهم إلى البلاد، وكل من وجدوه فى طريقهم أخذوه بالظلم والعناد، وأكثروا فى الأرض الفساد، إن ربك لبالمرصاد، وما كان من طريق الحجاز فوقع فيها الخوف والنهب، والقتل والضرب، وكل من ظفر بصاحبه أخذه، وأهل القرى ترفعوا عن الطرقات، واجتمعوا فى بعض الجهات خوفًا على أنفسهم وأموالهم.

وفى اليوم الثالث من موت مولانا الشريف - سامحه الله تعالى - وهو يوم الخميس -: وقع اضطراب كبير من بعد الظهر إلى بعد العصر بين مولانا الشريف سعد، ومولانا السيد حمود، وكل منهما جمع جيوشه، وتحصنوا فى البيوت والمنائر، وركبوا جماعة السيد حمود فى الضلع الذى خلف بيته والجبل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثم إنهم استمر بهم الحال وكل يوم يصبحون فى قيل وقال، وكل من الشريفين واثب على قدميه كسبع

الصيال، سبحان الله يؤتى الملك من يشاء وهو الكبير المتعال.

فلما كان اليوم الثالث عشر من يوم الوفاة: وقع الاتفاق بين مولانا الشريف سعد ومولانا السيد حمود على قدر معلوم من المعلوم وعينت جهاته، وكان يومًا عظيمًا عندنا أيها الناس، وحصل بذلك الأمن وارتفع البأس وأمر مولانا الشريف بالزينة ثلاثة أيام، وظهر السرور وزالت الحزون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

وكتب محضر من الشريف سعد عليه خطوط الأعيان من الأفندى وشيخ الحرم والمفتى وأعيان البلاد على مراتبهم وعساكر مصر كذلك، وذهب به بلال أغا إلى مصر المحروسة، فأوصله باشا مصر ومعه مكتوب آخر من عبده إلى الأبواب العلية، فلما وصل فتح وقرئ فى ساعة مباركة طالعها سعد السعود، ثم أمر برد الجواب على ما يسر الخواطر والألباب، ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ولذلك كتب مولانا السيد حمود محضرًا ليس عليه إلا خطوط السادة الأشراف، فأرسله صحبة رجل مصرى يسمى الشيخ عيسى، فقدر الله أنه مات عقب دخوله مصر بيومين، فوجدوا العرض فى تركته، ولم يصل مقصده.

وكذلك كتب عرضا مولانا السيد محمد يحيى بن زيد من المدينة الشريفة وكان بها، ووضع أعيان المدينة خطوطهم عليه، والتزم بأربعين ألف دينار للوزير الأعظم.

قلت: قد كان أخرج مولانا الشريف لولده السيد محمد يحيى أمرًا سلطانيًا بولاية مكة فلم يتمكن من إنفاذه خشية ما يترتب على ذلك من المفاسد، وعدم الرضا من بقية أولاده وبنى عمه، وكان فى كل سنة - غالبًا - لم يحج معه إلا اثنان من أولاده هما حسن ومحمد يحيى، وكان السيد محمد يحيى بالمدينة فطلبه للحج فى ذلك العام وهو عام ست وسبعين، فامتنع لأمر يريده الله، فقال مولانا الشريف زيد عند امتناعه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

وكان الشريف سعد ابتعد نحو الشرق فجاء وتقرب من والده، وحج معه ذلك العام وكان من أمره ما كان، والكل فعل الله سبحانه.

وأنشد لسان الحال عن الشريف سعد فيما قصد وأم: [من الكامل]

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نـــم ... ...

واستمر الناس منتظرين لورود الخبر السلطانى والتشريف الخاقانى نحو ستة

أشهر، وفى كل شهر يأتى المبشر من مصر المحروسة بتمام الأمر لمولانا الشريف سعد ويلبس خلعة البشارة، وفى ذلك إشارة لأهل الإشارة.

ولما كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، حصل بين بعض العسكر والعبيد شنآن بالمعلاة، فتراموا بالحجارة وسلت السيوف، ولم يقع بينهم قتال، وكان هناك بعض أولاد الشريف - حفظهم الله تعالى - فقاموا بينهم وأصلحوا القضية.

ثم دخل علينا شهر رجب الأصم، فلما كان يوم الجمعة رابع الشهر عند الغروب حصل بين مولانا الشريف سعد، وبين جماعة السيد حمود شنآن كبير، وصاح الصائح فى العسكر، فاجتمعوا وكل واحد منهما جمع جموعه، وتزبروا وتحصنوا فى البيوت والجبال، وتراموا بالبندق ليلتين بيوميهما على الشاخص والخيال، ولم يفقد من كل طائفة إلا رجل أو رجلان، ومات من الرعية شخصان خطأ من غير قصد، وكل ذلك مع فراغ الآجال.

فلما كان وقت الضحى وقع الصلح بينهم، ونادى المنادى بالأمان، فأمنت الناس واستبشروا وحمدوا ربهم وشكروا.

ثم إنه استمر الحال هكذا إلى اليوم الثانى والعشرين من الشهر المذكور، فجاءت البشرى بالتحقيق بأن الأمر قد برز لمولانا الشريف سعد، فلما كان صبح يوم الجمعة سادس عشرى رجب المذكور، دخل رسول مولانا السلطان محمد خان - نصره الله وأيد به الإسلام - إلى مكة المشرفة حرسها الله تعالى بالبيت الحرام فى موكب عظيم، ومعه خلعة نفيسة من مولانا السلطان ومصلاه الذى يصلى عليه ومكتوبان معه من هنالك بأن الأمر له من غير شريك ولا منازع فى ذلك، فدخلوا بها من باب السلام إلى المسجد الحرام، فلبسها فى الحضرة الشريفة تجاه بيت الله والمقام بحضرة السادة الكرام والعلماء الأعلام، وجيوش الإسلام، ما بين خاص وعام.

ثم قرئ المرسوم السلطانى، وفيه غاية التعظيم والإجلال، ونشر محاسن لمولانا الشريف سعد أعزه الله بجاه جده الأمين، والوصية على الرعية والقيام بمصالحهم.

وأمان الزوار والحجاج والمعتمرين، وهو مفند مستبين محرر، مؤيد بنص ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١، ٢] ومع ذلك كان

لفظه عذبًا وجيزًا، مبشرًا بنص ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ٢، ٣]. ثم إنه توجه إلى البيت الشريف، ووقف بالباب والتزم بالملتزم والأعتاب، وذهب إلى دار السعادة وجلس للتهنئة مسرورًا، وكان ذلك فى الكتاب مسطورًا.

ونودى بالزينة سبع ليال، بعد أن كان الناس فى حالة مخوفة فى ذلك اليوم، فاطمأن البال، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولما لبس الخلعة واستقر له الأمر وسرّى عنه ما كان يجده من الكيد والقهر، وبدل الله العسر باليسر، وأيده بالنصر، مدحه الفضلاء بقصائد مجيدة، وأشعار بأمطار سماء الأفكار مجيدة.

وكنت ممن تشرف بالانتظام فى سلك نظامهم النضير عوده، اللامع فى أفق المعالى مزايا ممدوحهم وسعوده، فقلت من بحر الطويل من العروض المقبوضة والضرب التام والقافية من المتواتر قولى[1]: [من الطويل]

سقَى الغَيْثُ ذَيَّاكَ الأُبَيْرِقَ والسقْطَا ... فأنْبَتَ فى أرجائِهِ الرنْدَ والأرْطَا

وحَيَّا رُبا تلكَ المعاهدِ فاكتسَتْ ... رياضٌ لها من نسْجِ إبرته بَسْطَا

معاهدُ لمياء البديد تعطَّرَتْ ... ومائِثُ ميثاها بما تسحَبُ المِرْطَا

لها بَشَرٌ كالماءِ إذ قَلْبها صفا ... وناظرُهَا كالسيْفِ لكنه أسطَى

إذا ما دجا ليلٌ حكى ليلَ جَوْرها ... وإنْ لاحَ نجمُ الأفقِ سمنا به القرْطَا

رداحٌ إذا لاحَتْ فكالشمْسِ أو رنَتْ ... فكالظَّبْيِ أو ماسَتْ ترى الحلَّ والرَّبْطَا

أراشَتْ لأحشائِى رواشقَ مُقْلَةٍ ... تَرَى نبلها يُصْمِى الفؤادَ إذا أخْطَا

هىَ السِّحْرُ إلا أنه سرّ خالقٍ ... عليه يصيرُ الحبرُ مِنْ رقِّها أوْطَا

لها سلْكُ دُرٍّ ضمنَ خاتمِ عسجدٍ ... طلى لعسًا يا حسنَ ختْمٍ حوى سِمْطا

وجيدٌ أعارَ الريم حسنَ التفاتِهِ ... فلا صَيد فيه [لا] تَرَاهُ ولا لغْطَا

ومهضمُ كشحٍ مخمص الغورِ رقةً ... له جَسَدِى من بعضِ أسقامِهِ أعطَى

كما قد أنالَ الجسْم فَتْرَة جَفْنها ... نحولاً فكافاها عَلَى وفقه المعطَى

رهينة خدْرٍ يكسبُ الحلى حُسْنها ... جمالاً ولولا ذاكَ للشَّيْنِ ما غطَّى

---

(١) القصيدة في نفحه الريحانه وفيها اختلاف في بعض الألفاظ (٤/ ١٢٤).

كأنْ قد براها الله حسنًا كما تشا   فيا طولَ ذاكَ الحسْنِ فى القامةِ الوسْطَى

سقاها ومرباها سُحُوحٌ مِنَ الحيا   ورَوَّى على أكنافها الأثل والخمْطا

فيا شَوْقَ أحشائِى للحظَةِ لَحْظها   وإنى بها إذْ قد نأتْ دارها شَحْطَا

بلَى قد نأتْ عنى ولا بَيْنَ بيننا   وبُدِّلْتُ مِنْ عين الرضَا بالجفا سخْطَا

كذلكَ أخلاقُ الغوانِى ومَنْ يرمْ   بهنَّ الوفا كالمبتغِى فى الأضا قرْطَا

ومَنْ لم يذُدْ ذَوْدَ التصابِى وسربه   قصارَاهُ فيه أن يذلَّ وينحَطَّا

ويمسى صريعَ العينِ لا ناصرٌ له   سوَى عَبْرة يَرْوِى تفجُرُهَا سطَّا

نعَمْ لو نحا فى كلِّ أمرٍ يئودُهُ   مليكَ الورَى سعد بن زيد لما شطَّا

مليكٌ له من طينةِ المجْدِ جوهرٌ   به ازدانَتِ الدنيا وقدْمًا هى الشمْطَا

شريفُ العلا والذاتِ والوصْفِ منتمٍ   إلى خَيْرِ أصلٍ طابَ فى قنسه ربْطَا

مليكٌ رقا فى قنةِ المجدِ رتبَةً   تجلُّ سواها أن يقاسَ بها هبْطَا

شريفٌ أتيحَتْ فيه أسرارُ والِدٍ   هو القطْبُ لا ريبًا بذاكَ ولا غمطا

مليكُ بلادِ الله سعد العلا ومَنْ   يشابه أباه فى علاهُ فما أخْطَا

طويلُ البنا رحْبُ القنا منهلُ الغنا   مزيلُ العنا مولى المنا باللُّهَا سفْطَا

عريضُ الجدا غوْثُ الندا موردُ الندا   حمامُ العِدَى مردِى الردَا للهُدَى فرطَا

فيا ابنَ رسولِ الله وابنَ وصيِّهِ   ودرةَ عقْدٍ أنْتَ أنْتَ له وسْطَا

لقد حطْتَ أكنافَ الخلافةِ عزمةً   وقمْتَ بها حفظًا وشَيَّدتها ضبْطَا

وأيدتَّهَا بالحزْمِ والرأيِ حينئذْ   ثبتَّ جنانًا لا فزوعًا ولا قنْطَا

فأنسيتَنَا حزْنًا ولَم نَنْسَ من مضَى   تغشَّتْ شآبيبُ الرضَا رمْسَهُ همطَا

أبى الله إلا أن تحلَّ محلَّهُ   بمرتبةٍ عزت لغيرك أنْ تمطَى

فوافَاكَ بالتأييدِ ما كان كامنًا   مِنَ الأزَلِ العُلْوِىِّ ينتظرُ الشرْطَا

فما خطَّ تقليدًا على الطرسِ كاتبٌ   ولكنْ قضاءُ الله من قبلِهِ خَطَّا

إذا أبرمَتْ فى سابقِ العلْمِ لامرئ   عنايته استغنَى العشيرة والرهْطَا

ولكنَّنِى أرجُو منَ الله جمعَهُمْ   على خيرِ حالٍ ما رجاه بمستبْطَا

فطأْ فى العلا فالسعْدُ وطأَ لاسمِهِ   أشار لذا بحْرُ الطويلِ رَوِىَّ الطَّا

إليكَ ابنَ خَيْرِ الناسِ عذراءَ مدحة   غَذَتْهَا القوافى لا سنادٌ ولا إِيطَا

أتاكَ بها فكرِى الكليلُ ومَهْرُهَا قَبُولُكَهَا منِّى وحَسْبِى به إعْطَا
سأملأُ ديوانِى بمدحِكَ مدحةً لشعرِىَ كَىْ يستوجبَ الحمْدَ والغبطا
فدُمْ وابْقَ واسلَمْ لا برحْتَ مؤيدًا على العزِّ مهما أنْ تحاوله تعطَى
ولا زلْتَ محفوظَ الجنابِ عزيزَهُ رعاياكَ لا تخشَى اهتضامًا ولا قَنْطَا
مدى الدَّهرِ ما طابَ القَرِيضُ بمدحِكُمْ فأخجَلَ مسكَ الخَتْمِ والند والقُسْطَا

ولما تم أمر الصلح بين الشريف سعد، وبين السيد حمود، واستقرت البلاد وأهلها لأن استقرارهم باستقراره، وتعبهم بتعبه وهو معهم كالرأس مع الجسد، وكالمضغة وهى القلب كما ورد. جاءه مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - إلى بيته موافقًا له فيما يحبه ويهواه هو وأتباعه يهنونه ويباركون له فيما منحه الله وأعطاه، وصار يتردد إليه بكرة وعشية مظهرًا له الود والصداقة مليّنًا له القول من غير تعب ولا حماقة، وكان فى هذه المدة يطلبه ما كان وزيادة، ولم يخالفه مولانا الشريف فى قول ولا فعل بل يجيبه إلى ما أراده أدام الله نعمه عليه وإمداده بحيث أن الرعية نسبت هذه الموافقة منه إلى أثر عمل من الأعمال من الحركات والسكنات، لكن إنما الأعمال بالنيات.

وفى هذه المدة كان بمكة المشرفة غلاء فى الطعام كالحب ونحوه فى شعبان ورمضان وشوال واشتد فى آخر الوقت وعدم من الأسواق، ووصلت الكيلة الحب إلى خمسة عشر محلقًا والرز كذلك، وفى أول ذى القعدة حصل الفرج بدخول المراكب المصرية، وزال التعب عن المسلمين ببركة قدوم الحجاج الوافدين.

ثم إنه حصل تنافر بين مولانا الشريف سعد، والسيد حمود من جهة عدم الوفاء بالمعلوم الذى له مع ما فى خاطره من التعب، فدعته الأنفة إلى الخروج لهذا السبب، فبرز يوم الأربعاء ثامن ذى القعدة الحرام من سنة سبع وسبعين وألف، وأقام بالزاهر مدة، وهو من الغيظ فى أعظم شدة، فبرزت إليه لموادعته، واستغرقت اليوم أجمع فى محادثته، فكان من جملة كلامه جوابًا لقولى: لعل مولانا -حفظه الله- يتداركه الله بسعة فيها حصول المنا، فيكفيكم الله بسببها تعب الجلا والعنا: ما أرى إلا أن بيت الشريف قتادة المستشهد به فى سابق الزمان، قد قارب مصداقه فى هذا الأوان، يشير إلى قوله: [من الطويل]

مصارعَ آلِ المصطفى عُدتُ مِثْلَ ما بدأْتِ ولكنْ صِرْتِ بين الأقاربِ

فقلت: الله يقدر بخير، ويكفيكم كل ضيم وضير.

ولم تزل الرسل بينهما تسعى فى حسم مادة الشقاق، ولم يتفق الحال إلا على عدم الاتفاق. فتوجه إلى وادى « مر » وأقام بمن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، وسبورهم تصل إلى مكة أسفلها وأعلاها يدلجون بالليل إذا يغشى، ويصلون الشمس وضحاها، وأخذوا فرسًا من مربطها لبعض خدام الشريف أسفل البلد، وذهبوا ولم يذهب إليهم أحد، كل ذلك استحثاث منهم للخروج إلى البراز والمنازلة، والظهور عن العمران التى لا تطول فيها تلاوة سورة المجادلة، والشريف سعد - حفظه الله - لم يستخفه الطيش، ولم ينفذ إليهم خاء خيل ولا جيم جيش.

وأقبل جماعة من الشام، ومن مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فصدهم الخوف عن الدخول لما هم قاصدون إليه، ومكثوا أيامًا بقرية من القرى، وحصل لهم من التعب ما لا مزيد عليه، حتى وصل إليهم الحاج المصرى فدخلوا معه مكة المشرفة. ولم يزل الشريف سعد - متع الله بحياته - ولسان حاله يتلو فى المبدأ والمعاد ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

وأما مولانا السيد حمود - رحمه الله -: فإنه لما كان يوم السبت رابع ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة قدم على الحاج المصرى، والأمير عليه أزبك بك، فركب إليه هو ومن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، فعقدت الأشراف من أنفسها طوقًا على وطاق الأمير وعسكره، ولم يدخل إليه إلا ثلاثة أشخاص: مولانا السيد حمود، ومولانا السيد أحمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، فأنهوا إليه حالهم وعدم الوفاء من الشريف سعد فيما التزم لهم من معاليمهم ومجانيهم، وأننا أيها الأمير لا ندع أحدًا يحج إلا إن أخذنا ما هو لنا وكان قدره مائة ألف أشرفى، فالتزم للسيد حمود أن ينقده الشريف قبل الصعود خمسين ألفًا منها.

فقبل مولانا السيد حمود التزامه، وخلى سبيله ومن معه.

فلما دخل الأمير مكة يوم خامس ذى الحجة الحرام، خرج إليه الشريف سعد إلى المختلع فلبس الخلعة المعتادة على العادة، ثم كلمه الأمير فيما التزمه للسيد حمود، ومن معه فصَدّق التزامه، وأسلم خادم مولانا السيد حمود الخمسين الألف قبل الصعود من السيد إبراهيم بن محمد بإحالة من مولانا الشريف - حفظه الله تعالى -.

ثم لما دخل أمير الشامى فى سابع ذى الحجة: توجه مولانا الشريف إليه كذلك، ولبس الخلعة المعتادة على العادة.

ثم فى اليوم الثامن توجه إلى عرفة، وفى الثانى من أيام منى لبس الخلعة المعتادة، وفى اليوم الثالث نفر الناس إلى مكة المشرفة، وهم آمنون مستبشرون، وأما أهل مكة ومن حولهم من القرى، فلم يحج منهم فى هذا العام إلا القليل؛ وكذلك الأعراب لما وقع بهم من التعب والكدر، والخوف والضرر، كل شىء بقضاء وقدَر.

ثم لما كان يوم الاثنين عشرين ذى الحجة الحرام وصل مكة مولانا السيد حمود، ومعه السيد عبد المعين بن ناصر بن عبد المنعم بن حسن، والسيد محمد بن أحمد ابن عبد الله بن حسن، والسيد بشير بن سليمان بن موسى بن بركات بن أبى نمى، والسيد مبارك ونافع ابنا السيد ناصر بن عبد المنعم فى نحو تسعة أشخاص، ومن العبيد نحو خمسة وستين عبدًا، وما ذاك إلا لأن أمير الحاج، وكبار العساكر قصدوا الصلح بينه وبين مولانا الشريف، وتردد الرسل بينهم وبينه يطلبونه لذلك، وألزموه بمحاضر من جماعة الأفندى الأعظم وصلوا إليه إلى وادى مر، فجاء وحضر عند مولانا الأفندى، وحضر الأمراء ووجوه أركان الدولة، وعماد أغا وأكابر العساكر، فأرسل مولانا الشريف سعد بلال أغا وكيلا عنه فى الخصومة والدعوى، فاغتاظ مولانا السيد حمود من ذلك، وأراد الفتك به فى ذلك المجلس، فذهب مسرعًا فزعًا، فأرسل الشريف أخاه السيد محمد يحيى وكيلاً عنه، وتطالبا على يد الحاكم الشرعى، وطال المجلس، ولم يقع بينهما اتفاق، ثم ادعى عليه بما أخذ من طريق جدة من الأموال، فلم يثبت عليه وجه شرعى فى ذلك، وطلب مولانا السيد حمود أن يتوجه إلى الديار المصرية، ويرفع أمره إلى الحضرة السلطانية فأذنوا له، واتفق الحال على ذلك.

ثم إنه لما توجه الحج الشامى وسائر الحجاج توجه معهم حتى وصل إلى بدر فتخلف عنهم وأقام فيها مدة.

ولما دخلت سنة ثمان وسبعين وألف، توجه مولانا السيد حمود من بدر إلى ينبع فى شهر صفر منها، وأرسل ولده السيد المرحوم أبا القاسم بن حمود، وأرسل

مولانا السيد أحمد بن الحارث ولده السيد محمد بن أحمد، ومعهما السيد غالب بن زامل بن عبد الله بن حسن وجماعة من ذوى عنقاء السيد بشير، ومحمد وظافر بنى واضح، والسيد محمد بن عنقاء وولده، وأرسل معهما قودًا هدية إلى باشا مصر المسمى عمر باشا نحو ستة أفراس منهن البغيلة والهدبا والكحيلة، فساروا إلى أن بلغوا الحوراء المنزلة المعروفة، فلاقاهم قاصد من إبراهيم باشا المتولى بعد صرف عمر باشا بمكاتيب متضمنة للأمر بالإصلاح، والاتفاق على نهج النجاح، فرجع السيد غالب بن زامل صحبة القاصد إلى مكة لينظر ما يتم عليه الحال، فتنقطع مادة القيل والقال، وتسقط كلفة الارتحال.

فأقام القود ومن معه بالحوراء نحوًا من خمسة عشر يومًا ينتظرون الفرج بعد الشدة، فلم يصل إليهم خبر بعد هذه المدة، فلما لم يصلهم خبر ساروا إلى مصر فدخلوها ليلة عيد المولد، وقدموا مكاتيبهم والقود لإبراهيم باشا، فأكرمهم وأعظمهم وأضافهم واحترمهم، فاستمر الحال كذلك إلى شهر جمادى الآخرة، ولم يرجع ذلك القاصد من مكة إلى مصر، فأشيع بها أن السادة الأشراف قتلوه، فحصل الهرج والمرج، وجاءت الأكاذيب فوجًا بعد فوج، فأشار بعض الأشقياء عَلَى الباشا بإمساك السيدين أبا القاسم ومحمدا، فأمر بنقلهم من محلهم الأول وهو قايتباى إلى بيت يوسف بك.

وقد كان وصل السيد محمد يحيى إلى مكة أواخر سنة سبع وسبعين، وتقدم أنه هو الذى كان وكيلا عن أخيه الشريف سعد فى الدعوى على السيد حمود لما حضر بمجلس أفندى الشرع فى موسم السنة المذكورة، فاستمر معه إلى عقب ذهاب الحج، ثم طلب من أخيه الشريف سعد أن يجعل له ربع محصول البلاد وينادى له به، فامتنع الشريف من ذلك، فغضب وبرز من مكة متوجهًا إلى السيد حمود وأقام بالزاهر مدة، ثم إن هذا الخبر بلغ مولانا السيد أحمد بن زيد وكان بالشرق، فجاء مسرعًا ولحقه قبل أن يتوجه وأرضاه بجملة من المال، فلم يرض إلا بالمشاركة بالربع وبالنداء فى الحال، وتوجه ولحق بالسيد حمود واتفق معه، ولما لم يحصل اتفاق بين مولانا الشريف سعد، وبين مولانا السيد حمود بعد وصول القاصد للإصلاح، أرسل مولانا الشريف سعد إلى الديار المصرية، وإلى مولانا السلطان ذا

خبرة بما جرى وما كان.

وكذلك أرسل مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - وعرف وأقام كل منهما يعلل ويعسّى ويتشوف.

وبرز مولانا الشريف سعد إلى الزاهر فى موكب عظيم، وأقام ينتظر فرج المولى الكريم.

وكان بروزه يوم عشرين من ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين.

وفيها -أعنى سنة ثمان وسبعين- ظفر بالبلد المعروفة بالقنفذة برجل يتعاطى السكة خفية وهو ممن يتسمى بالقضاء، فيسمى القاضى عبد الواحد، فضرب ضربًا مبرحًا وحلقت لحيته وأتى به مكة مكتوفًا مجرحًا، ثم أطلق فذهب إلى الحجاز الأعلى، وكان أمر الله هو الأعلى.

ولنرجع إلى ذكر السيدين المذكورين فنقول: لما نقلا إلى بيت يوسف بك المذكور أقاموا عنده أيامًا، ثم أمر الباشا إبراهيم بتجهيز تجريدة خمسمائة عليها السنجق يوسف بك المذكور فنقلوا بعد عزمه إلى بيت أغاة الأنكشارية، واحتفظ بهما احتفاظًا تعظم به البلية، ومنعوا الخارج والداخل، ولم يقرب منهما صديق ولا خل، وسارت التجريدة المذكورة وهى نحو ألف بالخدم وخمسمائة وأكثر، معهم الحجاج والتجار والخدام والأرقاء والأجراء، ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة وصل الخبر بتجهيز مدد من العسكر نحو خمسمائة أو يزيدون، ومعهم مستلم جدة المعمورة، وعزل عماد أغا عن مشيخة الحرم رفيع القُنّة، ولله الحمد والمنة.

وفيها وصل مولانا السيد سعيد بن شنبر بن الحسن من بيشة متوجهًا إلى مولانا السيد حمود وجماعته بالينبع، فوصل إليه وحضر معه الحرابة الآتى ذكرها، وكان آخرًا وفاته بتلك البلدة، رحمه الله برحمته الواسعة، وغفر له مغفرة جامعة.

وفى هذه المدة أيضًا: وقع فى طريق الطائف أن جماعة الحمارة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال الناس وأمتعتهم - نزل عليهم جمع من عرب الشرق، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم وانتهبوهم، ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلبين مجرحين مضربين.

وفيها فى السادس عشر من شهر رجب وصل المبشر من جدة يخبر بوصول رسول من الباشا معه خلعة ومرسوم.

وفى ليلة السابع عشر منه: رجع مولانا الشريف سعد إلى داره السعيدة، فلما كان الصباح، توجه العسكر بأجمعهم إلى ملاقاة رسول الباشا فدخلوا به فى موكب عظيم إلى بيت مولانا الشريف ولبس الخلعة، وقرئ المرسوم بحضرة عسكر السلطان، والسادة الأعيان، وفيه ما لا مزيد عليه من التعظيم والتمجيد، وحصل لمولانا به غاية السرور، وللرعية كمال الفرح والحبور.

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رجب الفرد الحرام: وصل إلينا خبر من نحو الشام حارت فيه العقول والأفهام، بواقعة ينبع وما جرى فيها من الأحكام، بتقدير الملك العلام، أن التجريدة التى جهزت من مصر أوقع بهم السيد حمود فى جيش لهام، من أهل ينبع وجهينة وعنزة وخاص وعام، فأخذوهم عن آخرهم، وقتلوهم وسلبوا أموالهم وأسروهم ولم يسلم منهم إلا نحو المائة، وكان معهم مال جزيل فذهب شذر مذر بعد أن تفرق أصحابه شغر بغر، وأمسكوا كبيرهم السنجق يوسف بك، وكان من القتلى من السادة الأشراف خمسة أشخاص هم السيد شبير بن أحمد بن عبد الله، والسيد سرور بن حسين بن عبد الله، والسيد إلياس بن عبد المنعم بن حسن وشخص من ذوى عنقاء يسمى السيد زين العابدين بن ناصر، تغمدهم الله بالرحمة والرضوان، وأسكنهم أعلى فراديس الجنان: [من الطويل]

وقَتْلى أيادى الخيلِ بَيْنَ وجوهِهِمْ فخيرُ المنايا ما يكُونُ مِنَ القَتْلِ

وانتهبت الأعراب الأجمال بالأحمال، ثم أمر مولانا السيد حمود بجمع حريم السنجق وحريم غيره فى مخيم كبير، وأجرى عليهم المصروف والقوت، وقدر الله للسنجق فى تلك الأرض أن يموت، وكان اللقاء يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة.

وقد كان مولانا السيد حمود أرسل إلى العسكر قبل قدومهم عليه أن ليس لكم طريق علينا إن لم يكن السيد أبو القاسم والسيد محمد معكم، فأشار بعض كبار العسكر على يوسف بك المذكور بالعدول عن هذا الطريق، وسلوك طريق خالية عن التعويق، فأجابه السنجق بفساد رأيه ولم يمتثل، وكان أمر الله شيئًا قد فعل.

وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا فى الطريق، وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم، فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر، ترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمنهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم، فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربى الثعالبى - وكان متوجهًا معهم - فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهى معروفة، وكان سابقًا يسلكها الأولون، وفيها عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن، فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء، وتلقاهم شيخ العرب وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مُضيان، وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمنين، وخرجوا على النازية قريبًا من الروحاء، ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم، ورجعوا سالمين أولاهم وأخراهم.

غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريبًا من المحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة، وقد جرت العادة بذلك، فرحًا وشوقًا إلى ما هنالك، فنزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم فى تلك الفجاج، وحصل لهم جراحات وشجاج.

وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد، والتعب الذى ما عليه من مزيد، وانقطعت عنهم سبل الوارد، وغلا السعر فى المقتات بل لم يجده واجد.

وأما أهل مصر: فلما وصل إليهم الخبر التهبت نيران الغضب فى أحشائهم، فظهر منها بوجوههم الشرر، فقتلوا من ظفروا به من أتباع السيد أبى القاسم والسيد محمد، وتتبعوهم فى الأماكن اللواتى استخفوا فيها، ونادوا فى البلاد بالوعيد الشديد لمن ستر خبية أحد منهم تحذيرًا وتنبيهًا، وأمر بالسيدين المذكورين إلى حبس الدم المسمى فى عرفهم «عرق خانة» والأمر لله سبحانه، بعد أن طلب الباشا من العلماء الفتوى بجواز قتلهم فلم يفتوه، فأمر باعتقالهما لما كان والداهما وبنو عمهما اقترفوه، وأورثه ذلك غيظًا وقهرًا، أنسياه كريمة ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الاسراء: ١٥] فاستمر إلى أن عزل شيطان إبراهيم باشا عام ثمانين، ودخل مصر حسين باشا المعروف بابن جان بلاط متوليًا لها، فما غفل عن شأنهما ولا لها، بل

سأل عن سبب حبسهما والداعى إليه.

وكشف الله عن بصر بصيرته بما أفاض من نور الحق عليه، فأخبر بما وقع بالعسكر من أبويهما فقال: هل كان الواقع قبل وصولهما أو بعده؟ فقيل له: بعده بمدة.

فقال: لا ينسب شيء من ذلك إليهما، ولا يعد ذنب أولئك عليهما، وأمر بإخراجهما واستدناهما وأكرمهما، وأقام لهما المقرر كل يوم وشهر، وخيرهما بين الإقامة والعود إلى الدار والمقر، وأنزلهما فى بيت نقيب الأشراف، ووالى عليهما الإنعام والألطاف.

فلما كان شهر رمضان سنة ثمانين، استدعاهما ذات ليلة النقيب إلى الإفطار عنده، وأعد من فاخر الأطعمة عدة، فذهب السيد أبو القاسم إليه مع جملة من الأحباب.

وأما السيد محمد فلم يذهب إليه، وكأنه توهم واستراب.

ثم لما كانت الليلة الثانية دعاهما أيضًا واستنكر عدم وصول السيد محمد إليه فى الليلة الأولى، وكلف من الأطعمة ما أظهر به اليد الطولى، وردد الرسائل إليه تترى، مرة بعد أخرى: فقوى الريب عند السيد محمد وتمكن، وتحقق ظنًا أن عمل الباطن مبطن، فامتنع واعتذر ببعض الأعذار.

وذهب إليه السيد أبو القاسم وكفى فى التحرز سور الأقدار. ثم خرج السيد محمد على ركائب أعدت له فى جماعة وهو شديد العزم والمُنة، حتى وصل إلى مكة ولله الحمد والمِنَّة.

وأما السيد المرحوم أبو القاسم ابن السيد حمود فاستمر إلى أن أتاه قضاء الله بالأجل المحتوم، ففاز بالشهادة من وجهين: الغربة والطاعون المشئوم، فى شهر شوال سنة إحدى وثمانين وألف، رحمه الله برحمته، وآواه سوح جنته.

وفى هذا العام وقع من عسكر المدينة وعامتهم القيام على أفندى الشرع، لحال اقتضى القيام على ما زعموه، فرجموه أو كادوا أن يرجموه، ثم تعدوا فزادوا فى العتو والطغيان، وانتهكوا حرمة سيد ولد عدنان، حتى أن بعضهم سحب السلاح فى الحرم، ولم يرقب حرمة سيد الأمم، وكذلك هجموا على بيت نائبه الشريف

وتكلموا عليه، ولم يراعوا من هو منتسب إليه.

وحصل أيضًا لأهل الطائف فى هذا العام تعب وجوع وخوف حتى خشى كل منهم تلافه، واجتمعت عليهم الكلمات الثلاث: برد وجوع ومخافة، ووصلت كيلة الحب إلى خمسين محلقًا وغيرها قريب منها.

وفى شهر رجب المذكور من سنة ثمان وسبعين وألف: وقع بطريق الطائف بالقرية المعروفة بالسيل أن كانت أحمال متوجهة إلى الطائف مشتملة على أرز وسمن وتمر وبن وقماش، وغير ذلك تدخل فى عشرين بعيرًا نزل عليهم بعض الأعراب من عتيبة أهل البادية فلم يبقوا منهم باقية، وحصل بينهم وبين أهل السيل قتال، فقتل من أهل القرية واحد وحصل فى باقيهم جراحات، وأخرب القوم البلاد، اللهم عليك بكل باغ ذى عناد.

وكذلك اجتمع طائفة من هذه الفئة الباغية، والعصبة الطاغية، وداروا فى أطراف مكة ونواحيها يتخطفون الناس، ويؤذون المسلمين، فويل لهم من مالك يوم الدين.

وكذلك أهل مكة: كانوا فى شدة وغلاء، وجهد وبلاء، طحنوا الفول والحمص وجعلوه خبزًا فلم يجز إلا بعض الإجزاء، وبلغ ثمن الإردب القمح أربعين دينارًا إلى خمسين بل عدم بالكلية، ووزن الخبز الذى يباع فى السوق بمحلق جاء وزنه أوقية، وكل شىء خرج فى ثمنه عن معتاده، ولكن لطف الله سار فى عباده.

ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فإنما ذاك لقصور نظره.

وفى يوم الأحد سادس رمضان منها اجتمع الرعية، وتوجهوا إلى مولانا الشريف. ورفعوا أصواتهم بين يديه، يشكون الناظر والمحتسب عليه، فأمر بإحضارهما وحكم بعزلهما وحبسهما لتواتر الخبر عنده بظلمهما وبأكلهما الرشا. وسبحان الله يفعل ما يشا.

وفى هذه المدة: وصلت قافلة من مدينة الرسول معهم مال جزيل، فلما كانوا بالقرية المسماة مستورة، أقبل عليهم أقوام فأخذوا جميع ما معهم، قيل: إنه يدخل فى خمسين ألفًا والله أعلم.

وفى ثامن عشر رمضان المذكور، وصل إلى وادى مرّ وإلى جَدّة ونواحيهما جملة

من قبيلة عتيبة عرب الشرق أهل الفساد والطغيان فى مائة مردوفة -وقيل: مائتين- فأخذوا ما وجدوا وانصرفوا، قابلهم الله بما اقترفوا.

فلما بلغ مولانا الشريف سعد خبرهم أرسل فى طلبهم جمعًا من الأشراف والعسكر، عليهم أخوه مولانا الشريف أحمد، فأخذ فى أثرهم عدة ليال، وبلغ من الظفر بهم أعظم منال.

فلما كانت ليلة الثالث والعشرين من رمضان، وصل مكة مبشر من عنده بأنه ظفر بهم، وأخذهم وقتلهم وحصل منهم مال كبير، خذلهم الله تعالى وأذل منهم الكبير والصغير.

وفى الليلة المذكورة أيضا: جاء مبشر من جهة مصر بتوجه العسكر والمراكب بالطعام لأهل بلد الله الحرام.

وفيها أيضًا: ظهر عمود من نور نحو الغرب مهيل طويل، وغلظه كطوله غلظ أعظم النخيل وحصل به خوف ورعب للمسلمين، وهو من الآيات للمعتبرين.

وظهر فى الليلة الثانية والثالثة، لكنه فى الطول أكثر بحيث إنه امتد إلى ثلث السماء، ثم إنه صار يضعف نوره ويتقهقر إلى ليلة الثامن من شوال لم يظهر له نور بالكلية ولا أثر، والله أعلم بحقيقة ذلك وما يترتب عليه من المنافع والمضار. نسأله سبحانه اللطف فيما جرت به الأقدار.

وفى آخر الشهر: وصلت جلاب من اليمن وسواكن، ففرقت على أهل السوق وفرح بذلك الناس وتباشرت بنزول السعر.

وفى الاثنين: كانت السماء معلولة ولم يظهر الهلال، فلما كان وقت العشاء ثبتت الرؤية عند حاكم الشرع بشهادة جمع من عدول المسلمين وثبت الفطر، وتواتر الخبر بعد ذلك به. والحمد لله رب العالمين.

وفى ليلة ثالث شوال: تباشرت الناس بوصول المراكب، وتواجدت الحبوب فى الأسواق، وكم لله على الناس من نعم على الإطلاق.

ثم عقب ذلك أن اشتد الأمر على المسلمين ورجع إلى ما كان عليه بحيث إن غالب الفقراء والضعفاء يكون الواحد منهم ماشيًا فيطيح فيموت، ومنهم من يكون جالسًا فتهفت روحه، وقد شوهد ذلك، وصار الفقراء يجتمعون فى المذبح ويتلقون

الدماء ليأكلوها.

وذكر أن بجدة كانوا يدورون على الطعام فى السوق فلا يجدونه، وأرسلوا إلى مكة يطلبونه، مع أن جدة مملوءة من الطعام، لكنه فى أيدى التجار بل الفجار كما قاله سيد الأبرار للمحتكرين. اللهم عليك بهم وبجميع المفسدين.

وأما أهل مكة المشرفة، فقد اجتمع عندهم فى هذا العام من الأمم ما لا مزيد عليه، لأن الجدب والقحط عام فى أرض الحجاز ونواحيها، وكل من اشتد به الحال صار يأتيها هاربًا من بلده إلى بيت الله العتيق، يأتونه من كل فج عميق؛ وحلت الميتة والبسس والكلاب، بعد أن بيع ما يملك من أثاث البيت والثياب، وصار الفقراء يهجمون على البيوت، فتعب منهم الناس، وصاروا يغلقون الأبواب.

وفى هذا الشهر اتفق أن جارية لبعض الأعراب يعرفون بالمشارية دخلت يومًا بيتًا، فلم تجد فيه إلا امرأة عجوزًا وهى من جماعة عسكر مصر فخنقتها فقتلتها، ورآها بعض الجيران فدخلوا عليها وأمسكوها ودعوا ابن بنتها فجاء مع جماعة العسكر، فأخذوها وطلعوا بها إلى مولانا الشريف فلم يُثبتوا وحبسوها عندهم يومين. وفى اليوم الثالث عصبوا على قتلها فقتلوها يوم الجمعة رابع عشرى شوال عند الششمة المعروفة بالبزابيز.

قلت: ويقال: إنها كانت صاحبة لابن بنتها وكانت المقتولة تنهاه عنها، وتحذره منها فظنت أنها بقتلها يخلو لها وجه صاحبها فكان هو القاتل لها والله أعلم أيا كان ذلك.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى شوال المذكور: وصل خبر من جدة بوصول جماعة من العسكر الرتبة بحرًا، وفى يوم الأربعاء: دخلوا مكة المشرفة، وأخبروا بخروج العسكر من مصر وهم يدخلون فى ثلاثة آلاف، وبتجهيز المراكب لأهل الحرمين وللعسكر.

وفى ليلة الجمعة غرة ذى القعدة: كان حريق بأعلى مكة بالمعابدة. وفى الليلة الثانية: كان أيضًا حريق بشعب عامر بالقرب من ضريح والد سيدى أحمد البدوى نفعنا الله به.

وفى الليلة الثالثة: انقض نجم كبير مهيل نحو الشرق. وفى ليلة الخامس منه:

احترق سوق المعلاة جميعه. وفى اليوم السابع: وصل مبشر بوصول مركب هندى بالقرب من جدة المعمورة، ووصل منه جماعة وفرح المسلمون.

ثم بعده بنحو يومين: دخل مركب من بنقالة وفيه خير كثير، وفى الأول هدية سنية، لمولانا الشريف ألهمه الله العدل فى الرعية، وهذه من أعظم السعودات وأيمن الاتفاقات.

وفى يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة الحرام؛ برز عسكر الشريف لما بلغه تحرك السيد حمود لنهب ينبع، فجهز من مكة نحو المائتين عليهم بلال أغا ليقيموا بينبع البحر أرسلهم رتبة، فاتجهت هذه الرتبة بعسكر التجريدة بواسط ليلا وردها معه مقدم التجريدة محمد جاوش إلى بدر، ثم أقبل بمن معه إلى مكة، وأقبل معه بلال أغا، وذهبت الرتبة إلى ينبع البحر فأقامت به إلى وصول مولانا الشريف سعد مع الحاج المصرى وعسكر التجريدة.

وفى هذه المدة اشتد الحال على أهل مكة، حتى أن غالبهم باع حوائج بيته وثيابه ولم يبق له شىء، وصار يسأل الناس، ومنهم من باع أولاده، ومنهم من رمى بهم، واتفق لبعض أصحابنا - رحمه الله تعالى - أنه اشترى بنتًا من أبيها بحرفين.

وفى يوم الخميس خامس عشر الشهر المذكور: أصبح عماد أغا من جدة، بعد أن كان توجه بحرًا إلى مصر ووصل الطور، ورجع لأمر من الأمور، والله أعلم بما تكن الصدور.

وفى سابع عشرى الشهر المذكور: دخلت عشرة مراكب جدة بالسلامة، وهذه أعظم كرامة، وفيها العسكر والحجاج والطعام وجرايات أهل مكة وخير كثير، وذلك من لطف الله على الأنام.

وفى أول ذى الحجة الحرام: دخل حجاج البحر مكة المشرفة، ومعهم العسكر من جدة المعمورة، وحصل بدخولهم فرج كبير للمسلمين.

ودخل فى اليوم الرابع منه الحاج المصرى وصحبته خلعة من مولانا السلطان محمد خان وخلعة أخرى من الباشا كلاهما لمولانا الشريف سعد أطال الله بقاءه.

وفى اليوم الخامس دخل المحمل المصرى، وكان الحجاج فى هذا العام قليلين، فخرج جمع يسير، وخرج قبلهم العسكر المعينون للتجريدة، فتلاقوا قبل ينبع بيومين

أو ثلاثة ودخلوا سواء، وأقاموا فيها أيامًا نحو خمسة أو ستة، وهم يكاتبون السيد حمود، ويعرفونه وهو يرسل الجواب والكلام الشديد، فحملوا عليه وأقبلوا فوجدوا الخيام قفرا والمزار بعيد، ثم إنهم عقدوا بينهم شورى، فاتفق الرأى أن بعضهم يقيم لحفظ البلد، والبعض الآخر يحج وهم الأكثرون، ثم إنه توجه العسكر ومعهم سنجقان والثالث محمد جاوش وهو رئيس العسكر وكبيرهم وشيخ الحرم وسنجق جدة المعمورة، فدخلوا مكة فى موكب عظيم يوم سبع من ذى الحجة، وفى العسكر اثنا عشر كاشفًا تحت كل كاشف جماعة، ومعه نقارة مضروبة على رأسه كما هو عادة أهل مصر.

وفى اليوم الثامن: دخل الحاج الشامى واليمانى والمدنى، وفيه طلعوا إلى عرفات.

وأما أهل العراق وأهل نجد وأهل الحجاز وسائر العرب لم يحجوا لما حصل لهم من التعب والجوع، والخوف المذهب للهجوع.

وفى هذا العام: جاء الحجاج بدراهم محلقة فاسدة، مطيّرة كاسدة، وأخربوا بها معاملة البلاد بحيث إن كل ثلاثة منها بدرهم من الجياد من حيث القدر والقيمة فصار كل يردها، فغلت الأسعار، وأمسك كل على ما عنده من الطعام، وهلكت الرعية، ووقعت الفتنة بين المسلمين بسببها، وبلغ ثمن الشريفى الأحمر إلى ثلاثة ونصف، وإلى أربعة إلا ربع والقرش بخمسة وسبعين.

قلت: هذا فى تلك السنة، وأما اليوم فهو بسبعة حروف ونصف. انتهى.

وفى يوم الإثنين سادس عشر ذى الحجة: طلع محمد جاوش إلى المعلاة فى موكب عظيم، ولبس خلعة جاءته من حضرة الباشا، وفى حال توجهه قتل ستة أشخاص من أتباع السيد حمود، وأتى بهم من ينبع مفرقين اثنان بالمسعى، واثنان بالمدعى واثنان عند باب المعلاة.

وفى يوم الخميس سادس عشرى ذى الحجة الحرام: توجه الحاج المصرى والعسكر ومولانا الشريف سعد أعزه الله إلى ينبع نحو السيد حمود، وأقام أخاه مولانا الشريف أحمد مقامه على مكة المشرفة، وكان يوم بروزهم شديد الحرارة وتحركت فيه السموم بالشوب، وهلك بسببه جمع كبير من الحجاج والدواب،

وذلك بلا شك زيادة فى الأجر والثواب، وكانت الوقفة فى هذا العام بالإثنين، من غير شك ولا خلاف بين اثنين.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين، فى يوم الثلاثاء غرة محرم الحرام منها خرج المحمل الشامى، ثم إن العسكر ومولانا الشريف لما توجهوا إلى ينبع، ضربوا شورى فى أنهم يقيمون هناك، أو يتوجهون خلف السيد حمود، أو يرجعون إلى مصر، فاتفق الرأى أنهم يذهبون إلى مصر.

وأقام مولانا الشريف ومن معه من الجيش ومحمد جاوش، وأمسك مولانا الشريف جماعة من المفسدين الذين كانوا فى الحرابة قتلوا فى عسكر السنجق يوسف والحجاج، وأخذوا أموالهم وغيرهم من العربان، وحبسهم فى السجن، وكبلهم بالقيود والأغلال، وغرمهم ما نهبوه من تلك الأموال.

وفى يوم الإثنين سادس صفر من السنة المذكورة - أعنى سنة تسع وسبعين - برّز مولانا الشريف أحمد أسبابه وعسكره إلى جهة المبعوث لإصلاح تلك الجهات والطرقات. أصلح الله شئونه فى السكنات والحركات.

وفى يوم الأحد ثانى ربيع الآخر: وقع حريق وقت العصر كبير فى شعب أجياد وراء جبل أبى قبيس وسلم الله المسلمين.

وفى رابع عشر من جمادى الأولى: ورد علينا خبر من الشام بوصول خلعة من الباشا لمولانا الشريف سعد - أسعده الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ووالى - وأنه لبسها يوم أربع منه ومعها مكتوب بتفويض أمر الحرمين الشريفين ونواحيهما إليه من غير شريك.

ثم إنه أمر بقتل أربعة من المفسدين، وبهدم السور الذى يتحصنون فيه فهدموه حجرًا حجرًا بأيديهم، وكذلك أمر بإقامة الجماعة والجمعة بناديهم.

وفى هذا الشهر: تواتر الخبر من جهة أرض اليمن باشتداد الجدب والقحط فيها كالقنفذة وصبيا والتهائم ونواحيها، وفى بعض الأيام بالقنفذة وجدوا فى دار امرأة حجامة رجلين مقتولين، أحدهما مأكول، والآخر شرعت فى أكله، وأعضاء أطفال منها طرى ومنها يابس، فأمسكت وغرّقت فى البحر، وقيل: وضعت على الجزيرة التى أمام القنفذة وسط البحر ففقدت صبيحة ليلة الوضع.

وأما أهل الطائف فلحقوا شدة عظيمة، بلغت الكيلة الحماط ثلاثين محلق غير موجودة فما بالك بغيرها، وما صار أحد يخبز عيشه فى الفرن؛ لأنهم يخطفونه من شدة الجوع، ويهربون، بل يخبزونه فى البيوت ويستترون، هذا بالنسبة إلى من له قدرة، نسأل الله أن يمن علينا بنظرة.

أما الفقير فما أكله غير الجلود والعظام، والدماء الميتة، ولم يجسر أحد يمشى وحده، إن أحوجه الأمر إلى الخروج تسلح وقرأ حزبه ووِرده.

وكذلك أهل الحجاز الأعلى هربوا من بلادهم وتركوها، وغالب أهل القرى والبادية جاءوا إلى مكة هاربين وإلى رب البيت ملتجئين وخاضعين، وهم يصيحون: الجوع الجوع ويتضرعون، وفى الطرقات يتصرعون.

وفى يوم عشرين من هذا الشهر: أمر نائب الشريف مولانا المرحوم السيد بشير ابن سليمان على مكة؛ لأنه أنابه مولانا الشريف أحمد عند خروجه إلى جهة المبعوث أمر بشنق رجل من الأعراب، فشنق عند الششمة المعروفة بالبزابيز، والسبب فى ذلك أنه هو ورجل آخر قتلا رجلا من أبناء الطواف فى طريق جدة، ومثلا به وأخذا ما معه، فأمسك أحدهما وهرب الآخر.

وفى أول هذا الشهر: أخبر الثقة عن جماعة ثقات أنهم وجدوا فى يوم من الأيام حيوانًا يشبه الضبع بأعلى مكة نحو المنحنى فقدم على حمار، فرآه بعض الناس، فاجتمعوا عليه وذهبوا خلفه، فدخل بعض البيوت ووجد امرأة فجرحها، فدخلوا عليه وقتلوه، ولم يعرفوا ما هو فسموه الغول.

وفى يوم الأحد ثامن عشرى الشهر المذكور: كسفت الشمس بعد اصفرار من غير سواد نحو ساعتين.

ولما كان أول جمادى الأخرى اشتد البلاء بالمسلمين، والفقراء والمساكين، فعند ذلك قذف الله تعالى فى قلوب بعض عباده الرحمة والشفقة، فاجتمعوا على أمر هو أنهم يجعلون شيئًا من حطام على أهل القدرة والطاقة، ليكون لهم ذخيرة عند الله يوم الحسرة والفاقة، وهم ثلاثة منهم الاثنان العالمان العاملان: مولانا الشيخ عيسى ابن محمد المغربى الثعالبى الجعفرى، ومولانا الشيخ محمد بن سليمان، والثالث قطب الوجود والزمان، ذو السر والبرهان، الولى الصالح، صاحب القول الراجح،

مولانا السيد عبد الرحمن المغربى الشهير بالمحجوب.

ثم إنه انتدب لخدمة الفقراء، والقيام بمصالحهم بعض الإخوان من أهل الخير والصلاح، ونادى مناديهم بلسان الحال: يا عباد الله، حى على الفلاح، فابتدروا وتقدموا إلى حضرة مولانا القائم مقام، وهو السيد بشير بن سليمان، فأجابهم بالتحية والإكرام، وأعطاهم ما قدر عليه طمعًا فى دار السلام.

ثم توجهوا إلى كبراء البلاد، فأعطى كل بقدر ما قسمه الله وأراد. وكتب مولانا الشيخ إلى مولانا الشريف سعد، وكتب أيضًا إلى أخيه مولانا الشريف أحمد فأجابا، وأمرا خدامهما وأتباعهما بشىء من البر مقداره عظيم؛ ليكون لهما ذخيرة عند رب العالمين، إذ هو صلة للفقراء والمساكين.

فلما اجتمع من الدراهم والطعام ما فيه البركة رأوا أن يجعلوه دشيشة مع دشيشة السلطان مرتين أول النهار وآخره على الدوام والقدر الذى يطبخ فى الوقتين أربعة أرادب وشىء.

وكان فتحها فى خامس جمادى الأخرى من سنة التسع والسبعين، فحصل بها نفع كبير للمسكين والفقير. فجزى الله المتصدقين، والعاملين عليها، والقائمين بها أفضل الجزاء، ورضى عنهم أحسن الرضا.

وفى يوم الخميس ثامن رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة المرحوم مولانا السيد أحمد بن السيد على بن باز بن حسن من اليمن رحمه الله رحمة واسعة.

وفى ليلة سابع عشر رمضان، حصلت رحمة من السماء علينا، وعلى أطراف مكة، فحصل بها فرج كبير، وسرور للمسلمين كثير.

وفى ثالث شوال: وجدت بنت مراهق مقتولة فى بعض الأزقة قريبًا من سوق العطارين، والسبب فى ذلك أن عليها بعض حلى فقتلها قاتلها لذلك.

وفى اليوم الرابع: انتقلت امرأة ودفنت، ثم أصبح أولادها يزورونها، وكان يوم جمعة فوجدوا قبرها منبوشًا، وإذا كفنها قد سرق فخافوا وتشوشوا تشوشًا شديدًا، فتركوها وجاءوا يسألون عن الحكم الشرعى هل تكفن ثانيًا أم لا، فأجيبوا بما ذكره العلماء الأعلام أن الميت إذا سرق كفنه يكفن ثانيًا ما لم يتفسخ، ويتفرق اللحم عن العظام.

ووقع من بعض السوقة المفسدين أنه تكلم مع الدولة فى مظلمة يحدثها على المسلمين. وجعل على نفسه شيئًا من الدراهم ليأخذها من إخوانه المؤمنين، ويتقرب بها إلى الجحيم، ويتباعد عن جنة النعيم، فبلغ ذلك حاكم الشريف القائد أحمد بن جوهر كان الله له فى عونه، فضربه حتى بلغ به الهلاك ثم حبسه فشفع فيه فأخرج محمولاً إلى بيته، وشاع أمره وظهر، وأقام ثلاثة أيام وفى الرابع أخذه القضاء والقدر.

وفى يوم الإثنين حادى عشرى ذى القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين: وقع أمر مهيل، هو أنه ظهر من عين الشمس، أو بالقرب منها ضوء هائل كالنجم، ثم إنه استطال، وامتد إلى جهة المغرب، وحصل لمن رآه حال بدئه غشاوة على بصره، وارتعدت فرائصه، وانزعجت منه القلوب، وهو مشتمل على زرقة وصفرة وحمرة، ثم إنه ذهب طرفاه، وبقى الوسط، واتسع فى العرض فخرج منه صوت كالرعد، ولم يكن فى السماء غيم ولا سحاب، وظن بعض الناس أنه صوت مدفع، واستمر ساعة، وفيه عبرة لأولى الألباب، ثم اضمحل الباقى من ذلك الشعاع إلى سحاب.

ثم إن الناس كثر كلامهم فى ذلك، وقالوا: لا بد لهذا من شأن عظيم، حيث إنهم لم يروا مثل ذلك، ولم يسمعوا بمثله فى الزمن القديم.

وحكى بعض الناس أنه ذكر هذه الحادثة فى جمع، وتحدث بها، وإنهم قالوا لم يشاهد مثلها فى ماضى الزمان، وكان فيهم رجل أكبر منهم سنًا فقال: أنا شاهدت مثل ذلك وأعظم منه، كنت فى الخيف فوق الصفراء متوجهًا إلى المدينة الشريفة، ومعى جماعة فسرنا بعد شد الأحمال إلى الروحاء، فلما كنا بملاوى الخيف، وكان الوقت بعد المغرب فإذا السماء انفرجت، وخرج منها ضوء ساطع ملأ الوادى، وتساقط منه شهب حتى أيقنا بالهلاك فى تلك البوادى، واستغثنا بالرسول وتشهدنا، وتشفعنا بمن نحوه قصدنا، ثم ذهب واضمحل، وبقى شىء من الضوء فى ذلك المحل، فخرج منه صوت مهيل كالرعد فظننا أن الجبال تساقطت فاستغثنا وتشهدنا كذلك، ثم ذهب واضمحل، فسرنا سويعة فإذا هو قد وقع مرة ثانية، وكنا كلما وصلنا قرية نسأل أهلها عما رأينا فيقولون: رأينا ما رأيتم وشاهدناه، وكان عامًا فى سائر الأقطار، فسبحان الله الفاعل المختار.

ثم سألناه عن مدة هذه الواقعة فقال: لها الآن ست وعشرون سنة بهذه السنة. فقلنا له: كيف كان عاقبتها؟ فقال: لم نر إلا الخير والسلامة ولله الحمد والمنة. انتهى.

وفى هذا اليوم بعينه وهو الحادى والعشرون من شهر ذى القعدة الحرام من سنة تسع وسبعين وألف: بنى الشيخ العلامة العامل العارف الكامل مولانا الشيخ محمد ابن سليمان المغربى فى صحن المسجد الحرام بعض أحجار ليضع فوقها حجرًا كبيرًا مكتوب فيه شاخصان من حديد يستفاد منه بالظل ما مضى وما بقى من النهار بالتماس جماعة من المسلمين، وليكون نفعه عامًّا للأمة أجمعين.

فعند ذلك قال جماعة من الجهلة ممن لا خلاق لهم: إن هذه الحادثة التى وقعت فى السماء بسبب هذه الواقعة التى فى الأرض؛ لأنهما كانتا فى يوم واحد فى ساعة واحدة، فكان الناس فى شأنها حيارى.

وقال بعضهم: إن هذه صومعة النصارى. وكثر منهم القال والقيل، فاستعان بالله تعالى عليهم وتلا ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [ال عمران: ١٧٣]. فرفع الأمر إلى سيد الجميع مولانا الشريف سعد -لا زال من المسعدين- فأمر بوضعها على رغم آناف المعتدين، وذلك قبل وضع الحجر الذى فيه الكتابة، فجاء إليه المعلم ليضعه فوق سطح ذلك البناء، فجاء رسول من حاكم الشرع الشريف ومنعه، فتوجه إليه المعلم فقال له: لا تفعل حتى نكتب فى ذلك سؤالا إلى المفتى، فكتب فأجاب: إنه إذا كانت فيه مصلحة أو منفعة جاز وضعه باتفاق علماء الإسلام.

وهذا القول من الحاكم الشرعى إنما هو بوسوسة بعض الحسدة اللئام.

ونظير هذا الحجر موجود فى مسجد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفى غيره من المساجد الكرام.

ثم إنهم كتبوا له مكتوبًا، وفيه كلام لا يليق بالمقام، فتعب الشيخ من ذلك وطلب من الحاكم الشرعى أن يجمع بينه، وبين خصمه فلم يفعل، وجاء إلى بيت الشيخ، واعتذر وأمر بوضع الحجر، فوضع فى اليوم الثانى واستمر.

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرى ذى القعدة: دخل مولانا الشريف سعد مكة المشرفة فحل بها السعود فى موكب عظيم خفقت به البنود، ودعا له المسلمون بالنصر

والظفر والتأييد - حفظه الله تعالى .

وفى يوم السبت سادس عشرى الشهر المذكور: دخل جدة مركب من الشام، وغراب به مستلم جده، وصحبته مكاتيب مضمونها عزل القاضى، ونائب المسجد الحرام.

وفى ليلة الأحد سابع عشرى الشهر المذكور: دخل مكة مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد في موكب عظيم هو به حقيق، وكان فى جهة الشرق.

ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة تسع وسبعين، كان أوله بالخميس، فلما كان يوم الرابع منه: وصل رسول من المدينة الشريفة يخبر بأن صحبة الحاج الشامى رجلا عظيم الشأن، يسمى: حسن باشا بيده أوامر من مولانا السلطان يحكم فى الحرمين الشريفين، ويتبصر فيهما نيابة عن خليفة الزمان.

فلما كان قرب المدينة الشريفة برزت له عساكرها وكبراؤها فتلقوه بالقبول، فدخل فى موكب عظيم، وتوجه إلى حضرة الرسول.

والسبب الداعى إلى وصول هذا الرجل أن أهل المدينة أرسلوا جماعة منهم، ومعهم مكاتيب إلى الحضرة العليَّةِ، يرفعون إليه من مولانا الشريف سعد وأتباعه فيها الشكية، فأرسل هذا الرجل ليجرى الحق إلى معالمه، وينصف المظلوم من ظالمه.

فلما استقر بالمدينة البهية بالمدرسة القايتبائية اجتمع إليه أهل المدينة، وشكوا إليه الجور والشطط والحال الفظيع، والأمر الفرط، وسلطوه على جماعة من أعيان البلد ممن ينتمون إلى الشريف سعد ذى القدر الخطير، فأحضروا فى حالة شنيعة من الإهانة والصفح والسحب، وأنواع التعزير، ثم وضعوا فى السجن بعد أن كبلوا بالحديد، وكان لهم عنده بالقتل تهديد.

ومنع الخطيب من ذكر مولانا الشريف سعد بالدعاء على المنبر، وأذاع عليه فى بلد جده هذا المنكر.

فلما بلغ ذلك مولانا الشريف تعب من هذا الفعل، وأخذ منه الحذر، وفوض أمره إلى من بيده القضاء والقدر.

ولما برز من المدينة متوجهًا إلى البيت العتيق صار مناديه ينادى فى الطريق.

وفى اليوم السادس: دخل الحاج المصرى مكة ولبس مولانا خلعته المعتادة من قديم الزمان، ودخل فى اليوم الذى قبله الحجاج بأمان. وفى اليوم السادس أيضًا دخل الحاج الشامى، ثم بعد الظهر بين الصلاتين دخل الباشا حسن المذكور فى موكب عظيم بالآلاى والطبول والزمور، وهو راكب فى تخته، إلى أن وصل إلى باب السلام، فنزل ودخل المسجد الحرام.

وفى اليوم السابع، دخل المحمل الشامى، ولبس مولانا خلعته المعتادة بعد أن خرج فى ذلك الموكب السامى، وكان فى العادة أن يقسم بعض الصدقات لأهالى مكة قبل الصعود فبها ينتفعون، ومنها يحجون، فمنع من ذلك، فلزم عن منعه القعود، وتلوا ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦]. وكذلك مولانا الشريف تعب من أحواله السابقة، وقال: لا أحج فى هذا العام إن لم يظهر ما بيده من الأوامر فننظرها كاذبة أم صادقة، وأرسل بذلك إليه وإلى الأمراء، وشدد فى الكلام، ووقع فى البلاد اضطراب وانزعاج، وعزلت الأسواق، وغلقت الأبواب، وخلت الطرق والفجاج، وجمع مولانا الشريف جيشه، وقام على قدميه، وشمر ولسان الحال ينطق: الله أكبر الله أكبر.

ثم إن الأمراء، وكبار العساكر، وأركان الدولة أتوا إلى مولانا الشريف، وقبلوا يديه، وخضعوا رءوسهم وأنصتوا لديه، وقالوا: أنت الأصل، وإن لم تحج فإن الأمة لا يحجون، والتزموا له بالعهود والمواثيق أنه لا يقع خلاف، وكل ما تريده يكون، فعند ذلك نادى مناديه فى البلاد بالأمان والاطمئنان، وأن الناس يحجون آمنين من السوء والعدوان. وأما أهل المدينة فتركوا الحج؛ خوفًا على أنفسهم من جريرة ما فعلوه من الآثام والأوزار. وأما الأعراب وأهل البوادى فمنهم من ترك الحج لخوف الطريق الموجب للإضرار، ومنهم من توجه للحج فبلغهم فى أثناء الطريق وصول الباشا، ومن معه وما معه من الأخبار، فرجعوا إلى أهاليهم.

ثم إن مولانا الشريف صعد إلى عرفات، ولم يحصل شىء من المخالفات، وكانت الوقفة بالجمعة. وفى هذا الشهر: لم يقع بين مولانا الشريف وبين حسن باشا اتفاق إلا أنه أوصل الفقراء حقوقهم، وكل يوم يحضرون بين يديه مع الإهانة من عسكره، فمن الناس من يدعو له وأكثرهم يدعون عليه.

ثم دخلت سنة ثمانين وألف، كان هلالها بالسبت. فلما كان اليوم الثانى منه سعى جماعة بينهما بالصلح، منهم أمير المحمل الشامى الأمير عساف ابن الأمير محمد فرّوخ، وكان الاجتماع بينهم بعد العصر من اليوم المذكور بالمسجد الحرام خلف مقام الحنفى بحضرة الخاص والعام، ثم تفرقا ورجع كل منهما إلى بيته بالحبور، وأرسل كل منهما نوبته إلى بيت الآخر فدقت الطبول والزمور، وكانت ساعة مباركة سر بها الكبار والصغار، فيها إشعار بحصول الوفاق، وصفاء الأكدار، وأرسل كل منهما هدية سنية، والله أعلم بما اشتملت منهما النية.

وفى اليوم الثامن من محرم افتتاح سنة ثمانين وألف، توجه بعد العصر مولانا الشريف سعد، وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى حضرة الباشا حسن، فقابلهما بالتحية والإكرام. وجلسا عنده ساعة فى أنس وصفاء وتعطف فى الكلام، فلما أرادا القيام ألبس كلا منهمًا ثوبًا نفيسًا يليق بهما، وقام لهما ومشى على الأقدام، وخرجا من عنده إلى البيت السعيد، وقبلا الحجر الأسود السعيد، وسألا من فضل الله المزيد.

وفى اليوم العاشر من الشهر المذكور أراد الباشا السفر إلى جدة المعمورة، فلما كان بعد العصر، توجه إلى حضرة مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - بالقرآن العظيم، ومكث عنده ساعة من الزمان، ولم يذق عنده شيئًا زعم أنه صائم طلبًا للغفران.

ثم إن مولانا الشريف أمر بتقديم فرس مسرجة محلاّة تساوى ستمائة دينار، اللهم ألف بين قلوب عبادك كما ألفت بين الثلج والنار. ثم إنه لما نزل إلى جدة حكم وتكبر وطغى وتجبر.

وفى يوم الخميس ثالث ربيع أول من السنة المذكورة: نهب عسكر الشريف السوق وأخذوا منه ما وجدوه من عيش وتمر ولحم وسمن، وأفسدوا فى تلك الأفنية، وطلعوا إلى قهوة النخل، وزعموا أن فعلهم إنما هو للحاجة الملجئة من تأخر الجامكية الشريفية، وأقاموا بها تلك الليلة ويومها على تلك العصبية.

ثم نزلوا إلى أسفل مكة وأرادوا التوجه إلى نحو اليمن، فتوجه إليهم ابن الشريف زيد مولانا السيد حسن، وصحبته الشيخ أبو بكر العرابى، وشيخ العسكر، والتزموا

لهم ما أرادوا، فرجعوا إلى البلد فأعطوهم ما كان لهم وزادوا.

وفى ليلة الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وألف: دخل مكة مولانا المرحوم السيد محمد يحيى ابن المرحوم الشريف زيد أسكنهما الله فى الجنان القصور، وحصل بدخوله الهناء والسرور.

فلما أصبح الصبح تكلم العسكر الذين هم بمكة مقيمون، فى دخوله البلد وهو من الجماعة الذين هم الناهبون القاتلون. فأجابهم مولانا الشريف بأن عنده مكتوبًا من حضرة الباشا بأنه يصطلح مع بنى عمه، فأخرجه لهم، وقرأه عليهم، وسجله عند قاضى المسلمين، فسكتوا ورجعوا.

وفى ليلة الخميس عاشر الشهر ثالث عشر ربيع الآخر: قتل بعض الأتراك زوجته خنقًا طمعًا فى مالها، واعتصب له جماعة، وطلبوا البينة عليه فلم تقم، فخلى سبيله.

وفى اليوم الخامس عشر منه، قتل عبد أسود عتيق لبعض العرب رجلا من جماعته كذلك لدنياه، وذلك عند بئر طوى، فبئس ما نوى.

وأمسك فأقر فشنق فى اليوم الثانى فى مشنق محمود الأعور.

وفى هذا الشهر أو الذى قبله نفى مولانا الشريف رجلين إلى بلدة بيشة أحدهما من أولاد مكة والآخر من أشراف الأزبك المجاورين، انتقل هذا إلى رحمة الله مولاه، وبقى الآخر إذ أبقاه الله.

وفى يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور، وقع بين عسكر الشريف شنآن، وافترقوا فرقتين، وتقاتلوا ساعتين، وحصل فيهم جراحات، وأسفرت عن سلامات، وكان أغاتهم قد طلع إلى المعلاة لزيارة قبر مولاه، فأرسلوا له رسولا، ونزل إليهم قبل حضوره مولانا الشريف أحمد بن زيد - حفظه الله - ففرق جمعهم وأطفأ نارهم، وألف بينهم، وقبل أعذارهم.

وفى هذا الشهر: توجه مولانا السيد محمد بن زيد إلى قبيلة بنى سعد فى جمع يسير، وهم فى منعة وشاهق خطير، وأراد قتالهم لخروجهم عن الطاعة، وأظهر كل منهم تمرده وامتناعه. فأرسل وعرف أخاه مولانا الشريف سعد، فجمع جمعًا وأمرهم بالمسير إليه والذهاب.

فبينما هم كذلك إذ وصل الخبر إليه بأنه وقع الصلح على المال لتسلم الرقاب.

ودخل جمادى الأخرى وكان بالأحد. وفى اليوم الثالث منه آخر النهار انتقل الأخ الأعز المرحوم شهاب الدين القاضى أحمد ابن القاضى مرشد المرشدى الحنفى العمرى - رحمه الله تعالى -.

وفى يوم الجمعة سادس الشهر، ضرب سردار العسكر ناظر السوق وأهانه، ومكث الناظر المذكور أيامًا لا يخرج من بيته بسبب جرح رجله من الضرب، وسببه طلب السردار من الناظر أن يزيد له فى السعر ليبيع هو وجماعته ما عندهم من الطعام المحتكر، فمنع من الزيادة، فحقد عليه لذلك، وتسبب له بسبب من الأسباب، حتى بلغ من ضربه ما يقابل به يوم الحساب.

وأما حسن باشا لما وصل جدة دخل بيته، وأغلق بابه، وأجلس أعوانه وحجابه، وجعل حاكما يحكم على المسلمين حكم الظالمين.

فمن جملة حكم ذلك الحاكم على ما قيل أنه جعل على كل ميت شيئًا كما فعل فرعون فيمن قبله من الأولين، وتفرق جنده فى البلاد إذ تأمروها، وكثر أذاهم فيها وما عمروها، بحيث إنهم يدخلون السوق، ويأخذون الطعام وغيره قهرًا من غير رضا، وإذا توجه المظلوم إلى الباشا لم يقدر عليه، ولا هناك أحد يلتجأ إليه، وإن رفعوا الأمر إلى حاكمه ضربهم، وأمر بحبسهم، ولم ينقض لهم أرب، ومع ذلك ليس قوله إلا: برى جدى، برى زيدى عرب، فمن الناس من أمسك بيته، ومنهم من فر وهرب، ومنهم من رفع هذا إلى مولاه فارج الكرب، ليكشف هذه المحنة، ويهلك من كان السبب.

وفى يوم الثلاثاء ثانى رجب الحرام، دخل سلطان من سلاطين الأعجام، وقد كان أرسل له مولانا الشريف سعد إلى جدة رسله يهنونه بالسلامة، ويبلغونه التحية والكرامة، وصحبتهم خمس أو ست من التخوت، وتوجه إليه مفتى الإسلام، والخطيب ببلد الله الحرام القاضى إمام الدين ابن القاضى أحمد المرشدى، ولاقاه من نحو مرحلة، وقابله بالتحية والإكرام، وجاء معه ودخل به المسجد الحرام من باب السلام.

وأرسل مولانا الشريف إليه هدية سنية، وأنزله فى بيت من بيوت آبائه الأسلاف الزكية.

ثم بعد ذلك أرسل السلطان المذكور لحضرة مولانا الشريف مقابلا لما أهداه له من الإنعام مالا جزيلاً من الذهب والفضة، وكذلك جاء من سلطان الهند مال عظيم فى هذه الأيام، فذهب الضيق والتعب من القلوب والأجسام.

وفى يوم الأربعاء رابع عشرى رجب المذكور: انتقل بالوفاة إلى رحمة مولاه مولانا وسيدنا ومأوانا وسندنا شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين، خاتمة الأئمة المحققين، خادم حديث سيد المرسلين، الجامع بين الأصول والفروع، الحافظ لكل متن ومجموع، الحائز فضيلتى العلم والنسب، الحائز طرفى الكمال الغريزى والمكتسب، رئيس العلوم العبقرى، جار الله أبو مهدى عيسى بن محمد بن محمد الثعالبى الجعفرى، الهاشمى نسبًا، المالكى مذهبًا، المغربى منشأ ومولدًا الحرمى وطنًا ومحتدًا. إمام الحرمين الشريفين، وعلم المغربين والمشرقين. جامع أشتات العلوم النقلية، ومبرز خفايا لطائف الآراء العقلية، محيى رسوم الرواية بعد ما عفت آثارها، ومشيد مبانيها بعد ما انهار منارها، وسالك مسالك أئمة السلوك، ومالك ملاك أمره فى مجانبة كل مليك ومملوك. ولد ببلده ونشأ بها على اشتغال عظيم بالعلوم النافعة. وأخذ عن عدة مشايخ فى علوم عديدة.

قلت: هو شيخى الذى تخرجت به فى عدة من الفنون إتقانًا، عقائدًا وأصولاً ونحوًا وصرفًا ومنطقًا وبيانًا. تغمده الله برضوانه، وأحله فسيح جنانه. آمين.

وفى اليوم السابع والعشرين من رجب المذكور آخر النهار وقع بين عسكر المدينة، وبين العرب قتال زاغت فيه الأبصار، وكان من العصر إلى وقت الاصفرار.

فلما أقبل الليل وأدبر النهار، تفرق الجمعان، وبات عسكر المدينة فى غاية التنبه والاحتذار، طول ليلهم بالبندق إلى وقت الأسحار.

وكان القتلى من العرب نحو خمسة عشر رجلا. فلما أصبح الصباح، ونادى منادى الفلاح، حفروا لهم حفرة نحو السبيل، ودفنوهم بها، وقتل من أهل المدينة حران وعبدان. بذلك تواتر الخبر عن غير واحد من الإخوان.

وهؤلاء العرب من قبيلة تعرف بحرب، ولم نعلم حرب هذا جدهم لمن ينسب، وإلى أى جيل يحسب. وهم جمع كبير يشتمل على قريب من خمسين فخذًا كل فخذ يشتمل على جماعة لهم جد خاص، وعليهم الدرك فى حفظ الطريق من عسفان

إلى المدينة الشريفة.

والشيخ الذى جماعهم عليه وانتماؤهم إليه كان يسمى أحمد بن رحمة، أفاض الله عليه الرحمة.

ولما أقبل الليل منعهم شيخهم المذكور عن القتال، وردهم إلى المحل المسمى بذى الحليفة شرعا، وبأبيار على عرفًا. ثم أرسل له كبير المدينة الشريفة بالطلب والأمان، فتوجه إليهم، ومعه جمع من العربان، فجعل الفريقان يختصمان، ويدعى كل منهما على الآخر بالبدء بالعدوان، على يد الأفندى، وشيخ الحرم والأعيان. فأصلحوا بينهما وانقطع النزاع عنهما، وألبس الشيخ خلعة نفيسة، وألبس بعض خواصه جوخًا، على أن ما مضى لا يعاد، بذلك وقع الاتفاق والأمان. ونادوا على القافلة بالرحيل، مع التعزيز والتبجيل.

ثم دخل شهر شعبان المعظم وكان بالأربعاء، وفى خامسه وصل رسول من باشا مصر المحروسة إلى حضرة مولانا الشريف يبشره بالنصرة المأنوسة لمولانا السلطان محمد خان أيده الله بالسعد المديد، على أهل الشرك والطغيان أرباب مالطة وكريد.

فألبسه مولانا الشريف خلعة ثمينة، ونادى مناديه سبع ليال بالزينة، وذلك على القواعد القديمة، وحصلت بذلك للمسلمين بشرى عظيمة.

ومدة محاصرة أهل الإسلام للكفرة المشركين اللئام نحو ثلاثين من الأعوام. ثم إن الكفرة جعلوا للمسلمين مالا عظيما حالا ومؤجلا يأخذونه منهم كل عام بالتمام، وأن لا يتعرضوا للمسلمين بحال من الأحوال لا فى الأسفار ولا فى دار المقام.

والمدة التى اتفقوا عليها نحو مائة من الأعوام. على ذلك وقع الصلح والاتفاق، وكفى الله المؤمنين الشقاق. فرجعوا إلى أوطانهم بالخيرات والإنعام، ولهم فى الآخرة دار السلام.

ومما يتعلق برسول الباشا أنه جاء بعزل أفندى الشرع، وبتولية القاضى عبد المحسن القلعى نيابة القضاء عن الأفندى المستجد، وبعزل مفتى الحنفية القاضى إمام الدين المرشدى، وتولية الشيخ إبراهيم بيرى زاده مقامه إذ له هناك مستند.

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرى شعبان المذكور من سنة ثمانين وألف؛ ورد خبر وقعة مولانا السيد حمود مع ظفير القبيلة المعروفة بنجد، وكان فيها عدة وقعات:

وقعة قفار مع عَنزة، ووقعة بنى حسين، ووقعة هتيم العوازم، ووقعة مطير وغيرهم.

وسبب وقعة ظفير أنه انضم إلى جهامة مولانا السيد حمود قبيلة من ظفير يقال لهم الصمدة، ثم انضم إليه شيخهم الأكبر مع جماعته الأدنين، وعصبته الأقوين، وكان محبًّا للسيد حمود بمنزلة العين للإنسان، والإنسان للعين. وهو ذو شهامة وصرامة، يعرف بابن مرشد سلامة، فوقع من جماعته جرم اقتضى أن يؤاخذوا بما هو المعتاد المنوىّ عليهم فى مثله، وهو أخذ الشعثاء والنعامة، وفى خيار أوائل الأباعر، وخيار تواليها، فلم يرضوا بذلك، وقالوا هو جور وحيف، وليس عندنا دون ذلك إلا حد السيف، فأشار سلامة المذكور إلى مولانا السيد حمود وقال له: اربطنى ولستَ فى ذلك بمُلام، فوالله لتأخذن ما تريد على التمام.

فقال: كلا والله لا ربطتك ونخوة آبائى الكرام، وكيف ذاك وفى بطنك من عيشى طعام، وكفى به التزام ولزام فذهب سلامة إلى قومه، وقد تهيئوا للقتال والنضال والعدوان، وتهيأ كذلك مولانا السيد حمود ومن معه من بنى عمه ومن الصمدة وعَدوان.

فانخزلت الطائفة من الصمدة، وولت ناحية ناجية، وانكفأ الجمعان بعضهم على بعض، واختلط الفرسان فلم يبن الطول من العرض. وقتل من السادة الأشراف مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله، ومولانا السيد أحمد بن حسين بن عبد الله، والسيد شنبر بن أحمد بن عبد الله.

وصوِّب مولانا السيد ظفير ابن السيد زامل بن عبد الله أصاويب. وكذلك صوب مولانا السيد باز بن هاشم بن عبد الله، إلا أن الله سبحانه منَّ بالعافية عليهما ولله الحمد.

ثم إن السيد غالب بن زامل صبحهم بعد مُدَيدة، فحلم عن ستين لحية منهم، ولم يشف عن واحد من القتلى كبده. ولم تزل معهم ظفير فى قتل وطراد إلى أن أصلح بينهم مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

وفى تاسع عشرى رمضان: وقعت بمكة صاعقة جهة الشبيكة قتلت رجلا واحدًا.

وفى رابع عشر شوال: بلغنا أن الباشا حسن أظهر بويوردى وقرأه على الأتراك بأن محصول جدة له يصرفه فى عمارة المسجد وغيره، فتعب منه مولانا الشريف سعد،

وأرسل له ونهاه عن ذلك، فلم يرجع وفعل فعل القسوس، فقامت بينهما النفوس.

ونزل السيد محمد بن يعلى فى خيل ورجل وخدام، وواجهه فقابله بالتحية والإكرام، وكان بينه وبين مولانا الشريف مباينة وظنن، فتعب الناس من ذلك لما يترتب عليه من الفتن، ولكن كفى الله المخوف ودفع، ولم يحصل شىء من المكاره.

وفى يوم الخميس سادس عشرى الشهر المذكور: وصل ثلاثة من الأعراب بخبر سار للمسلمين بأن صاحب جدة معزول، فأخلع عليهم مولانا الشريف أدام الله له النصر والتمكين.

ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة ثمانين وكان بالإثنين. وفى يوم الجمعة خامس الشهر وصل مبشران: أحدهما من أتباع مولانا الشريف ممن يتلقى عن الحج الأخبار، والآخر من أتباع عماد أغا، ومن الحجاج والزوار، يبشران بوصول قفطان لمولانا الشريف من حضرة مولانا السلطان.

وفى اليوم السادس دخل الحجاج مكة المشرفة ووصل القفطان والمكتوب، فلبس وقرئ بالمسجد الحرام، بين زمزم والمقام، بحضرة الخاص والعام.

وكان ممن حج فى العام جماعة من الأعيان، أركان دولة آل عثمان، أخو الوزير وعمه، وابن أخيه وأمه. فتوجه إليهم مولانا الشريف حال القدوم لسلام التحية، وأرسل لهم بهدية سنية.

وبعد نزولهم إلى منى توجه إليهم، ونص جميع ما جرى له من حسن باشا عليهم. فأرسلوا إليه فحضر، وتكلموا عليه وزجروه فانزجر.

وفى الاجتماع به مرة ثانية جمعوا بينه، وبين مولانا الشريف، وأصلحوا بينهما الحال، والحمد لله على كل حال. وكانت الوقفة بالثلاثاء.

وفى خامس عشرى ذى الحجة المذكورة، انتقل الأخ الصالح رضى بن حسن الطاهر.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وألف، فى ثالث محرم الحرام يوم الجمعة رحل المحمل الشامى، وفى سادسه انتقل مولانا المرحوم الشيخ عبد الكبير بن محمد المتوكل، وهو من بيت سلف صالح رحمه الله تعالى ووالدى والمسلمين.

وفى يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، نودى لمولانا وسيدنا الشريف أحمد ابن المرحوم مولانا الشريف زيد فى البلاد بالربع، وأمر الخطيب يدعو له عَلَى المنبر مع أخيه دام مجدهما، وكان النداء قبيل الصلاة فى اليوم المذكور.

وبعد صلاة عصر ذلك اليوم أرسل إليه الباشا حسن جماعة نوبته فضربت فى بيته، فأرسل إليهم فوق ما كانوا يطمعون. فخرجوا وهم يتشكرون.

وكذا فى اليوم الثانى والثالث على ما مضى عليه الأولون. وفى ثانى يوم جلس للتهنئة والمباركة، وألبس الخطيب ثوبًا نفيسًا، وأنفق فى ذلك اليوم مالا على الأتباع والفقراء تبشيرًا وتأنيسًا. وكان قدومه على المسلمين بكل خير.

ومما اتفق فى هذا العام أن رجلا من قبيلة النفعة يسمى عمير، ويكنى بأبى شويمة قتل جماعة منهم اثنان من ثقيف من قبيلة تسمى الحمَدَة ولهما إخوة وبنوعم، فكانوا فى طلبه يتجسسون الأخبار، فدخل فى هذه السنة بلدَهم، وجاء راكبًا جواده، ووقف إلى قبةالحبر وزار، ثم دخل إلى السوق، فرآه بعض أقارب القتيل، فصاح به، وضربه ضربة ادَّرَقها ثم ضرب فرسه فقطع عرقوبها فحركها فلم تطاوعه للفرار، فسقط إلى الأرض فلحقه وقد صدمه الجدار فضربه ثالثة على أم رأسه فشقه فبرك عليه، وأراد ذبحه فمنعه الحاضرون، ثم قام نحو الخلاء وهو فى سكرات الموت، فصاح الصائح الحقوا غريمكم قبل الفوت، فتلاحقه الرجال يرمونه بالحجارة والنصال حتى سكن أنينه، وكانت هذه الواقعة يوم الخميس رابع ربيع آخر.

ثم إن أولاد عمير المذكور صاحوا فى عشيرتهم وذويهم، واستثاروهم على قتلة أبيهم، فأتاهم بنو سعد وعتيبة وجمع من العربان، ثم اجتمعوا وتهيئوا للقتال.

وحصل فى الطائف القيل والقال، فاجتمعت ثقيف، واستنصروا حلفاءهم لما بلغهم وصول القوم إلى لية ونواحيها، وبالقرب من القوم قبيلتان من ثقيف بنو محمد وثمالة فتوجهوا نحو القوم فأخذ القوم ينهزمون إلى أن وصلوا إلى عباسة بالخداع منهم والاحتيال، وهؤلاء البعض منهم والبعض الآخر كمن واختفى وراء الجبال حتى توسطت ثقيف، فإذا القوم منعطفون عليهم والكمين خارج إليهم، فاحتاطوا بهم فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال وأمسكوا جماعة عندهم مأسورين وهرب باقيهم. ثم إن القوم نزلوا إلى القرية وأخربوها وأخذوا الحبوب، وقطعوا الثمار وأحرقوا

بعض الدواب بالنار، وكان بالقرية أولاد الشريف، وحاكم الشريف فأرسلوا إليه فعرفوه. ففى صبيحة يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر من السنة المذكورة، وصل من مكة نحو المائة من العسكر أرسلهم مولانا الشريف لحفظ البلد وحراستها.

وفى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور: لبس مولانا الشريف سعد خلعة النصر والتأييد بالأبطح جاءته من صاحب مصر المحروسة بعون الله العزيز الحميد، وكان متوجهًا إلى الشرق؛ لإطفاء نار فتن المفسدين والعتاة المتمردين. ودخل شهر جمادى الأولى، وتوجه مولانا الشريف إلى المبعوث، ووصل فى سابع عشره إليه - أيده الله - تجاه جده خير مبعوث، وأرسل قبائل العرب فأجابوا بالسمع والطاعة، فنصفهم وأنصفهم، ولو شاء كشف عنهم من الستر قناعه، لكنها غير شيمة جده صاحب الشفاعة، ثم وصل منه إلى الطائف.

وفى هذا العام: وقع الصلح بين مولانا الشريف، والسيد حمود، فكان وصول مولانا السيد حمود- رحمه الله - إلى مولانا الشريف سعد بالطائف فلاقاه ملاقاة الابن البار لأبيه، وألبسه فى الحال فروة السمور، وطيب خاطره بكل ما يرضيه.

ثم بعد يوم والذى يليه، عقد معه المبايعة على محكم الأساس، فى ضريح الحبر ابن عباس، ولم يدخل مكة معه بل تخلف فى مخاليفها، وكان به للمسلمين أعظم أسباب تأليفها.

وفى شعبان من السنة المذكورة: وصل رسول من باشا مصر، ومعه مكتوب من مولانا السلطان، ومعه خلعتان واحدة منهما لمولانا الشريف سعد، والأخرى لمولانا الشريف أحمد - حرسهما الله تعالى - وكانا غائبين فى أرض الحجاز، لإصلاح البلاد، وقمع أهل الظلم والعِناد. فاجتمع العسكر الذين بمكة ليلاقوا رسول مولانا السلطان بالتبجيل والإعظام، وليدخلوا به على ما جرت به القواعد، فأتوا به من أعلى مكة، وأدخلوه من باب السلام، ووضعوا الخلعتين فى مقام الخليل، عليه السلام .

ودخل شهر رمضان وكان بالثلاثاء. ولما كانت ليلة الثالث والعشرين منه: دخل مولانا الشريف سعد مكة فى موكب عظيم تمام، ومكث يومه والذى يليه، ثم نزل اليوم الثالث إلى المسجد الحرام، ولبس الخلعة الشريفة بين زمزم والمقام، بحضرة

السادة الأعلام، وعساكر الإسلام، وقرئ المرسوم السلطانى، وفيه مالا مزيد عليه من التبجيل والإعظام. وكذلك مولانا الشريف أحمد لبس خلعته فى هذا اليوم، وذلك أنه طلب من أخيه بعد النداء له بالربع والدعاء على المنبر أن يرسل إلى الحضرة العلية، ويعرف بذلك لتصل إليه الخلعة فى كل عام وتقرر، فأرسل وعرف بذلك فى مكتوب، فجاءه الجواب على وفق المطلوب. وقد سبقهما إلى مثل هذا الآباء والجدود، وفضل الله ليس بمحدود.

وفى يوم الجمعة خامس عشرى الشهر المذكور، دخل شخص أعجمى المسجد الحرام، والخطيب قائم على المنبر يعظ الأنام. فتقدم نحو الخطيب، وصرخ صرخة أزعجه بها، وأشغل جنانه، والسيف فى يده سليل جمع عليه كفه وبنانه، فأومأ نحوه بالسيف وقرقر، وقال: أنا المهدى، الله أكبر.

فدافع عن الخطيب بعض الحاضرين بالسلاح والحجر، ومنعه منه وحجر، وحصل منه جراحات لعدة أشخاص، فاجتمعوا عليه وضربوه، وطرحوه إلى الأرض وقتلوه، ثم إنهم أخذوا برجله، وإلى خارج باب السلام سحبوه. فلما قضيت الصلاة، رجعوا إليه فأخذوا برجله، وصاروا يجرونه مع الضرب والإهانة، والحياة فيه باقية، فويل لهم من الله - سبحانه - إلى أن وصلوا به المعلاة وأحرقوه هناك بالقرب من بركة المصرى، وهذا أمر عظيم تحار فيه الأفكار، كون المسلم يهان هذه الإهانة، ويقتل بغير موجب ثم يحرق بالنار، نعوذ بالله من مكر الله.

ودخل شهر الحجة وكان بالسبت: دخل الحجاج يوم الخامس والأمير والمحمل يوم السادس. ولبس مولانا الشريف سعد والشريف أحمد خلعتيهما مع المصرى والشامى، وهذه أول خلعة لبسها مولانا الشريف أحمد فى هذا الموكب، ثم حجا بالناس.

ولما كان اليوم الثالث من أيام منى بعد انتصاف النهار نفر الباشا حسن إلى مكة وإلى رمى الجمار، فى موكب عظيم تشخص عنده الأبصار، والجند محدقون به إحداق الهالات بالأقمار.

فلما كان واقفًا عند العقبة لرمى الجمرة رماه ثلاثة رجال بثلاث بنادق، فخر على وجهه إلى التراب، فتلقاه جنده ورفعوه إلى التخت، وتحيروا فيما نزل بهم من هذا

المصاب بهذا المُصاب، ونزلوا به إلى مكة فى ذل وانكسار، وصاروا يقتلون من لاقوه من الناس من غير اختيار. فوصلوا به إلى مكة وأغلقوا عليه الدار، وتحصنوا فى البيوت، ودخل جمع منهم المسجد بالسلاح والنار، ورموا فيه البندق نحو بيت مولانا الشريف سعد، وهتكوا حرمة بيت الله ذى الأستار، ووجهوا المدافع فى الأربع الجهات، واحترس نهاية الاحتراسات.

ثم إن مولانا الشريف سعد توجه بعسكره إلى مكة خلفه بعد حين ملبسين مدرعين.

وأما الحجاج فمنهم من نفر إلى مكة، وأدخل أسبابه، ومنهم من لم ينفر، وجمع أهله وماله، وأغلق بابه.

ولما نزل الحجاج إلى مكة، واستقروا بها مكثوا خمسة أيام وأكثر مضطربين، وفى كل يوم تراهم رافعين لأسبابهم وواضعين، وكبراء الحجاج والأمراء يسعون بينهما فى جمع الشتات.

وسبب الاضطراب: أنه قطع على مولانا الشريف استحقاقه من ناصفة جدة، فطالبه بها فامتنع وتجبر، وتنكر وتنمر. فوثب عليه مولانا الشريف فى طلب حقه، وجمع جيشه وكبر.

فعند ذلك أصلح الله الأحوال، واتفق الأمر على إعطاء شىء من المال، وكان قدره ثلاثين ألف قرش.

ثم استعفوا مولانا الشريف سعد من الثلث، وأعطى عشرين ألف ريال، فسلمت لمولانا الشريف - أعزه الله بجاه النبى والآل -.

ثم لما توجه الحاج المصرى يوم سابع عشرى ذى الحجة الحرام المذكور، توجه معه حسن باشا، ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين، اتفق أنه لما رحل حسن باشا صحبة الحاج المصرى من مكة إلى المدينة الشريفة أقام بها، فوفد عليه فيها مولانا السيد محمد ابن السيد أحمد بن محمد الحارث، فألزمه بالذهاب إلى والده السيد أحمد الحارث، واستلحاقه إليه إلى المدينة الشريفة، فذهب السيد محمد المذكور فوصل إلى أبيه بالمحل المسمى بالشعرى من أرض نجد، فأتى إلى المدينة الشريفة، فلما حضره نادى له بالبلاد بعد أن ألبسه خلعة، وقطع الدعاء للشريف سعد فى الخطبة،

ودعا للشريف أحمد الحارث.

وقد كان مولانا الشريف سعد خرج صحبة الحاج أو عقبه حتى وصل إلى ينبع فأقام به. ولما بلغه ما فعله حسن باشا بالمدينة الشريفة من قطع اسمه من الخطبة، وتوليته للسيد أحمد الحارث والنداء له، أرسل إلى السيد أحمد الحارث كتابًا فى غاية اللطافة، واللين والرقة لا الكثافة، مضمونه بعد مزيد الثناء، وحميد الدعاء: إن هذا الواقع الذى سمعنا به؛ من تقمصك برد الملك وأثوابه، فهذا أمر أنت بيته الأعلى، ومثلك أحرى به وأولى، فإنك أنت الشيخ والوالد، الحائز كل كمال طريف وتالد، فإن كان هذا محكم الأساس فى البنيان جار على مقتضى مرسوم السلطان، فنحن بالطاعة أعوان، وإن كان الأمر خلاف ذلك، وإنما كان من تسويلات هذا الظالم الغادر، وتنميقات ذلك المذمم غير الظافر، فأجلُّ حلمك أن تستخفه نكباء الطيش، أو أن تستنزله أخلاط الأشاوب وغوغاء الجيش.

فأرسل إليه الجواب مولانا السيد أحمد الحارث؛ بأن الأمر لم يكن على هواى، وإنما هو إلزام، مع علمى بأن هذا الابتداء لا يكون له تمام.

فاستشعر حسن باشا أن من نية مولانا الشريف سعد المسير إليه، فتهيأ للقتال، واعتد ولفق مع عساكر المدينة ما قدر عليه بالجد لا الجد، وصنع أكرًا من حديد قريبًا من مائتين تسمى قنابر تملأ بالرصاص والحديد يرمى بها من بعد إلى الجيش، فيفسد فيه ملأها المتناثر.

وكلما أراد المسير ثبطه السيد أحمد الحارث وثناه، وأظهر له الرأى فى عدم المسير ومنّاه. فعزم مولانا الشريف سعد وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى المدينة الشريفة الظالم أهلها إذ ذاك، وصمم على القتال عزمًا ليس معه انفراك.

وكان مولانا السيد حمود - رحمه الله - نازلا بالمبعوث فى المربعة المنسوبة إلى مولانا السيد محمد الحارث، وكنت إذ ذاك نازلا عنده فى تلك البقعة، وصلت إليه اشتياقًا لمحيّاه السعيد، وفرحًا بعد طول الغيبة بأنس الرجعة، فلما كان يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى بين صلاتى الظهر والعصر من سنة اثنتين وثمانين المذكورة إذ نحن بفارس على فرس عرى يدك الأرض دكا، فأقبل حتى دنا، فإذا هو السيد أحمد بن السيد حسن بن حراز رسولا من مولانا السيد أحمد الحارث، والباشا

حسن بمكتوبين يستدعيان مولانا السيد حمود للانضمام إليهما، ففتح المكتوبين، وقرأهما وتمقل ألفاظهما ومعناهما فنبذهما إلىّ، وقال: اقرأهما ثانيًا علىّ، فقرأتهما، فإذا مضمون الأول الذى من الباشا حسن بعد الثناء والوصف الحسن: إننا قد ولينا أخاكم السيد أحمد الحارث بأمر سلطانى معنا، صحيح فى اللفظ والمعنى، والقصد أن تجمعوا الشمل، ولا تشقوا العصا، وتكونوا عونًا لأخيكم على من خالف وعصى، ولكم ما تريدونه من الجهات والمعينات وزيادة، فوق ما جرت به القوانين والعادة، وهذا حاصل ما فيه فلا حاجة إلى التكثير، ولا ينبئك مثل خبير. ومضمون كتاب مولانا السيد أحمد بعد العبارة، وإظهار الود والاشتياق، والحنو والإشفاق: إننى يا أخوك لم يكن لى هذا الأمر ببال، ولم ألتفت إليه بالقال ولا بالحال، وإنما لحقنى ولدك محمد إلى الشعرى، وكرر علىّ القول مرة بعد أخرى، ولم أوافقه حتى رأيت جدك النبى ﷺ فى المنام قائلا لى: وافق محمدًا وخلاك هلام، فحينئذ رجعتُ، وكان ما سمعت، والقصد إنى أخوك الذى تعرفه ولا تنكره، فأقبل إلينا فهو أعظم جميل نذكره، والسلام.

ثم فكر مولانا السيد حمود ساعة، فكأنه كشفت له الفراسة عن وجه الغيب قناعه. وقال: كأنى برسول الشريف يصابحنا إن لم يماس، فكأنه فى مرآة الغيب ناظر، فقبل الغروب إذا الراكب المنيخ بالفناء ابن بسيان جاسر. فتقدم إليه، وقبل يديه، وأخرج مكتوبين أحدهما من مولانا الشريف سعد، والآخر من أخيه مولانا الشريف أحمد، مضمونها استحثاثه فى المسير إليهما، والحضور لديهما، وأن حسن باشا قد شمر عن ساقيه للحرب، وكشر عن نابيه للطعن والضرب، واستشهد مولانا الشريف سعد بقول الشاعر: [من الوافر]

وما غلظتْ رقابُ الأُسْدِ حتَّى ... بأنفسها تولَّتْ ما عَنَاهَا

وأتبعه بقوله: وأنت تعلم أن الأمر الذى يعنانا يعناك، وأدرى بما يئول إليه الأمر فى ذاك، وهذه ألف دينار صحبة الواصل المذكور إليك، فأدرك أدرك أدام الله فضله عليك. واستشهد مولانا الشريف أحمد ببيت الهمزية.

ثم إنى قلت لمولانا: ما صواب الرأيين ويتوجه العزم إلى أى الوجهين؟ فقال: إلى سعد صاحب الفضل ومولاه، فبينى وبينه فى ضريح الحبر عتلات الله. فلو

اعترضنى عبد الله لكفحت وجهه بالسيف دونه والله ثم والله.

ثم توجه على الركاب يومه الثانى، وقوض الأخبية، وفارق المبانى، حتى وصل إلى مولانا الشريف سعد وأخيه. وهما بالمحل الذى عذب بحلولهما بعد أن كان اسمه ملحة، فوافاه القضاء بما وافق مراده، وأنتج نجحه من ورود القاصد بعزل حسن باشا وطلبه، وانخرام حسابه وتقطع سببه.

ثم ارتحل من المدينة. فلما كان بطريق غزة وتلك النواحى، توفى فدفن فى ذلك المحل الناحى. وأتت إلى مولانا الشريف سعد خلعة باشوية صحبة ذلك القاصد، وكان إرسالها ضربًا من المكايد.

ثم فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة قبل قدوم الحاج بقليل: قدم محمد جاوش بجيوش نحو أربعة أو خمسة آلاف ضرب أوطاقه فى أسفل مكة الزاهر، بمن معه من العساكر، وصاروا يدخلون مكة عشرة سواء خمسة سواء وثمانية سواء، ويعودون إلى خيامهم خارج مكة للمبيت، ثم قدم صحبة الحاج الشامى شخص يسمى حسين باشا السلحدار بنحو ألفين، وقد وسد من تلك الديار، أن يعمل بما يتورّاه نظره ويختار.

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة: خرج لملاقاة المحمل الشريف الشامى على العادة، إلا أنه لم يخرج إلا من الثنية العليا المسماة بالحجون أعلى البلاد، فوقف إلى أن يصل بها الواصل، كما هو عادة الأوائل، فلم يصل إليه أحد، بل طلب منه أن يأتى إلى مخيم الأمير، وهذا الأمر على شهامته غير يسير.

فعطف عنان فرسه راجعًا من طريق الشبيكة إلى مكة المشرفة. فخشوا من وقوع فتنة يذهب فيها الأقوياء والضعفاء، فأرسلوها مع من لحقه بها فى أثناء الطريق، وهُدُوا بذلك إلى طريق الرشاد والتوفيق.

ثم صعد الحجاج إلى عرفات، وأفاضوا إلى المزدلفة، ثم منى ذات المثوبات. فلما كان يوم النفر، وهو اليوم الثانى من أيام منى ترددت الرسل من الشريف إلى أمير الحاج الشامى لما هو المعتاد من الخلعة التى صحبتها المرسوم السلطانى، التى يلبسها ذلك اليوم مع المرسوم الذى يقرأ، فيسمعه القاصى والدانى، فلم يؤت بها إليه، فعلم مولانا الشريف أن المدار بهذه العساكر القبض عليه، فأضمر الصولة

عليهم والمسير، ولم يبال بذلك الجمع، وإن كان حصره عسير. ثم رجح الانكفاف بالذهاب، وإغلاق ما للشرور من سائر الأبواب، ففر ومن معه على الخيل والركاب، فجزاه الله عن المسلمين أحسن جزاء، بحرمة محمد ومن والاه.

ولما كان ظهر اليوم الثانى عشر: حضر حسين باشا، ومحمد جاوش، وأكابر الدولة، وأمراء الحاج، واستدعوا جماعة من الأشراف، منهم: مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، ومولانا الشريف بركات بن محمد، وأظهر أمرا سلطانيا بصريح اسم مولانا الشريف بركات فى شرافة مكة، وأنها تحت تصرفه، وله ملكها ملكة، وألبس خلعة الولاية فى ذلك الجمع.

ونزل إلى مكة المشرفة فى موكب يبهر العين، ويدهش السمع، ونزل إلى بيت أبيه المعروف بزقاق ظاعنة، ووقفت على بابه الخيول صافنة، وهرعت السادات إليه والأعيان، والحضر والعربان، يهنئونه بالملك والولاية، ويدعون له بطول البقاء والثبات بتوفيق العناية.

وما أسرع من انقلاب الحال، ولكل زمان دولة ورجال. وأرخ بعضهم عام ولايته بقوله نثرًا ما نصه: بارك الله لنا فى بركات، إلا أنه لسنة ثلاث وثمانين، والتولية إنما كانت فى موسم اثنين وثمانين، لكن التفاوت بزيادة سنة أو نقصها عند أهل التاريخ مغتفر. وكانت مدة ولاية مولانا الشريف سعد ست سنين إلا أحدا وعشرين يومًا.

وورد فى ذلك الموسم كتاب من الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى لمولانا السيد حمود بن عبد الله، وكتاب من باشا مصر له أيضًا وكذلك كتابان من الوزير المذكور ومن باشا مصر لمولانا السيد أحمد الحارث، وكذلك كتابان للمرحوم السيد بشير بن سليمان. والمضمون من الجميع واحد والعبارات مختلفات.

أما كتاب مولانا السيد حمود الذى من الوزير فنصه: «فرع ذؤابة هاشم، ونبعة وشيج المحامد والمكارم، السيد حمود نظم الله عقوده، وأباد حسوده آمين. وبعد: فلا يخفى عليكم أن الكعبة البيت الحرام، ومطاف طواف الإسلام، هو أول بيت وضع للناس، وأسس على التقوى منه الأساس، وأنه لم يزل فى هذه الدولة العثمانية العلية آمنًا وأهله من النوائب، وروضًا مخصبًا بأحاسن الأطايب، إلى أن ظهر من السيد سعد من الأمر الشنيع، ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وما كفاه ذلك حتى

شدد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية. فلما بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطانى، أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة وتفويضها إلى الشريف بركات، ليعمل بها بحسن التصرفات، وتكونوا له معينًا وظهيرًا، وناصحًا ومشيرًا، وكل من يتفرع غصنه من دوحة فاطمة الزهراء، وتتصل نسبته إلى الذرية الغراء، تهدونه إلى طريق الخير والصلاح، وترشدونه إلى معالم النجح والفلاح، وأنتم على ما تعهدونه من التكريم والتبجيل، والله على ما نقول وكيل» .

ومما قيل فيه قولى هذه القصيدة: [من البسيط]

صَبٌّ أَلَمَّ به طيفُ الكرَى فصَبَا ... وعَنْ أحِبَّاهُ لم يردُدْ عليه نَبَا
وقد تغذَّى لبانَ الحبِّ منذ نشا ... ولم يزلْ بالغوانِى مغرمًا طَرِبا
تناهَبَتْ عقله سودُ اللحاظِ فَلَم ... يُبْقِينَ فيه لغيرِ الغِيدِ مُطَّلبَا
فصارَ يصبُو إلى سعدَى وآونةً ... إلى سعادَ وأيامًا يَجُرُّ ربا
ولا ملامَ عليه فالتنقُّلُ منْ ... سَلْمَى للبْنَى لدَى شرعِ الهوَى نُدِبا
فيا عذولَيَّ كُفَّا عن ملامكما ... فلا أرَى لِيَ فى نُصْحَيْكما أَرَبَا
لله عَقلٌ أضلته الحسانُ على ... عِلْم فهَامَ بها نأيًا ومقتربَا
مِنْ كُلِّ ممنوعةٍ روس الأسنةِ لو ... رامَ التصوُّرَ إدراكٌ لها حُجِبا
مرقوبة الحفْظِ حدُّ السيف يرقُبُهَا ... فهلْ سمعتُمْ بسيفٍ عدَّ فى الرقبا
عقيلةُ الحيِّ من سمرِ الرماحِ لها ... سورٌ وفى صفحاتِ المرهفاتِ خبا
وخدْرُهَا الثانِ من سترِ الحشاء فَمِنْ ... نياطى القلبِ قد مدَّتْ لها طُنُبَا
ها مقلتى لَهَبُ الهجرانِ سَيَّلَهَا ... على الخدودِ فظنُّوا مدمعى سكبَا
مَنْ لى بمَنْ فوَّقَتْ من قوسِ حاجبها ... سهمًا أراشَتْهُ بالأهدابِ قد هُدِبَا
معسولة الثغرِ يطفى بردُ ريقتها ... نيرانَ مَنْ بلظَى هجرانها الْتَهَبَا
لمياءُ رشفُ رضابٍ من موشمها ... درياق مَنْ بهواها قلبُهُ لسبَا
يهدى الذى قد أضلتهُ ذوائبها ... جبينها لامعًا باد ومنتقبَا
كأنه البرقُ أو كالصبْحِ أو كضيا ... سَعْدِ بنِ زيدٍ إذا ما قامَ منتدبا
أبا مسَاعد راعيها مملكها ... مَنْ حَلَّ رتبةَ مجدٍ جازَتِ الشهبا
خلاصَةُ العنصُرِ الزاكِى المطهَّر مِنْ ... جذرِ الوصى الرَّضِىِ أكرِمْ بذاك أبا

عليْهِ سربالُ تقواهُ وعفَّته ... ومن شمائِلِ علياه رِدًا وقَبَا
أغرُّ أزهَرُ فيَّاضٌ أناملُهُ ... من معشرٍ فى رياضِ المجدِ نبت ربا
محاسنُ السادةِ الماضينَ قد جمعَتْ ... فيه كجَمْعِ الغديرِ القطْرَ منسكبًا
سمحٌ إذا سِيمَ للجدوَى يميدُ كما ... يمِيدُ حاشاهُ صرْفَ الراحِ مَنْ شربا
له يَدٌ خُلِقَتْ للجودِ فهْوَ لها ... طبع كما العينُ للإبصارِ قد رتبا
هو المحكّمُ عضبيه إذا انتضَيا ... يومى جلاد جدالٍ مفصلاً أشبا
مفوهٌ فى كلا عضبَيْهِ متَّسعٌ ... كلْمًا وكلْمًا إذا ما قال أو ضَرَبَا
يمناهُ واليُمْنُ يمتدانِ فى لُزَزٍ ... قد أدركَا فى مداهُ السبْقَ والقصبَا
مستأسدٌ بَيْنَ عينَيْهِ عزائمه ... إذا تراءَتْ له أكرومَةٌ وثَبَا
ولا تعاظمه أقطَارُ محمدةٍ ... ولو غدا منكب الجوزا لها سَبَبَا
ولا يميلُ من العلياءِ إنْ صعُبَتْ ... ولا يضلُّ صواب الرأيِ إن نَشِبَا
إليكَ يا ابنَ الكرامِ الأطولين يدًا ... فى المكرماتِ وفى الهيجا أحدّ شَبَا
عروسَ فِكْرٍ كوشْيِ الروضِ باكرَهُ ... غيثٌ فَرَفَّ بنورٍ مزهرٍ وربا
يحلُو بها فَم راويها فتحسبُهُ ... صَبًّا ترشَّفَ من عذب اللما ضَرَبا
وتنشقُ الورد منها أذنُ سامعها ... حتَّى تراه إلى إنشادِهَا طَرِبَا
خلائقٌ كفتيتِ المسكِ طيبة ... تلاق طيب سَرَاة سادَة نجبا
فاسلم على كاهلِ العلياءِ مرتقيًا ... وصافن المجد غَطَّى منهما عقبا
ودُمْ على خفضِ عيشٍ ما يرنقُهُ ... ريبُ الحوادثِ ما هَبَّ النسيمُ صَبَا

ولاتساق المقول نقول:

ثم وليها مولانا الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمى.

قيل: ولايته بسعى الشيخ محمد بن سليمان المغربى السوسى، وذلك أن الشيخ محمد المذكور تشفع عند الشريف سعد فى رجل أزبكى كان يسمى السيد محمد الفصيحى فعل جرمًا مع مولانا الشريف سعد فلم يشفعه فيه، وذلك فى سنة ثمانين وألف، فاتفق أن أخا الوزير الأعظم حج فى موسم تلك السنة، وكان له ولع بعلم الفلك، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان المذكور فأخذ عنه فى ذلك، فطلب من الشيخ أن يسافر معه إلى الأبواب السلطانية، فسافر معه واجتمع بالسلطان، وطلب

منه أن يزيل أشياء بمكة المشرفة، فأمر السلطان بإبطالها.

منها: أن صدقة السلطان جقمق كانت تقسم على أرباب البيوت حبوبًا، وكانت سابقًا تطبخ شربة وخبزًا للفقراء أصحاب القدح، فردت إلى ما كانت عليه سابقًا، وأضيف إلى ذلك حب السلطان قايتباى.

ومنها: توليته على جميع الأربطة وألا تكون إلا لمن يستحقها بشرط الواقف.

ومنها: إبطال الدفوف فى الزوايا.

ومنها: منع النساء من الخروج ليلة المولد الشريف، وتم جميع ذلك، وجعله ناظرًا على جميع أوقاف الحرمين. وسيأتى ذكر ورود الأمر بعدم إقامته فى الحرمين بعد وفاة مستنده الوزير أحمد باشا الكبرلى.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وألف، خرج فيها مولانا الشريف بركات، وصحبته محمد جاوش بالعساكر فى طلب الشريف سعد، فسلك طريق الثنية إلى الطائف، وكان الشريف سعد قد سلكها، ونزل بالطائف ثم ارتفع عنه إلى عباسة ثم إلى تربة ثم إلى بيشة فأقام بها، فتبعه الشريف بركات، ومحمد جاوش بمن معهما حتى انتهى فى التبعية إلى قريب من البلد المسماة تَرَبَة، ثم عاد الشريف بركات إلى المبعوث ثم إلى الطائف فأقام.

وفيها فى شهر رجب عدا السيد حيدرة على عمه السيد على بن حسين فقتله غيلة.

يقال سبب ذلك الذى قامت به نفس السيد حيدرة غرارة من الحب حلف كل منهما أن الآخر لا يأخذها وهى بوادى مر، فركب السيد على بن حسين من مكة يريد وادى مر، فسمع به السيد حيدرة، فوجده فى المحل المسمى «أبو الدود» ممرحا متكئا، فأتاه من خلفه، فدخل حينئذ على بعض الأشراف فلم يمض كبار الأشراف دخله، فنهج إلى اليمن، ثم إلى مصر، ثم إلى مكة دخيلا مع المحمل صحبة أمير الحاج الشامى، وباع عقاره وما يتعلق به، ثم رجع إلى مصر فتوفى بها بالفصل مع من توفى.

ثم إن الشريف بركات استمر بالطائف إلى شعبان، فأتاه الخبر بوصول خلع سلطانية، ومراسيم خاقانية، وصل بها القاصد إلى مكة، ووضعت فى مقام الخليل،

على عادة التكريم والتبجيل، فجاء إلى مكة أواسط شعبان هو ومن معه من الأشراف والأتراك والعربان.

ثم فى أواخره: كان القبض على رجل من الأعيان. ثم فى ليلة السابع من رمضان قبض على آخر، وحملا من ليلتهما على الأدهم، ثم حُدر بهما إلى جدة وأركبا غارب اليم. ثم قبض على ثلاثة من حواشى الدولة، وفعل بهم ما فعل بالأولين نعوذ بالله من سوء القَوْلة.

ومثل ذلك فعل هذا القاصد بجماعة من أهالى المدينة المنورة فافتدوا أنفسهم بمال سلموه له، الله أعلم بكميته.

ثم خرج مولانا الشريف بركات فى الموكب حتى نزل بقبة الدفتردار إبراهيم صائمًا بها لطيب النسيم. فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من رمضان: قدر الله وفاة ابنه السيد محمد بن بركات، فنزل من يومئذ إلى البلد، واصطبر رغبة فى الأجر على لاعج الحزن والكمد. ثم خرج فى أثناء شوال إلى جهة ركبة استدعاه السيد حمود ابن عبد الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف بركات، والسادة الأشراف، والعساكر والعربان إلى قتال حرب وشيخهم أحمد بن رحمة، كان الظفر فيها للشريف بركات، ولم تنفعهم خنادقهم التى حفروا، بل كانت قبورًا لهم حين قبروا، فاستبيحت ديارهم، ونهبت أموالهم، وهلكت نساؤهم وأطفالهم، وقتل خيارهم.

وفيها يوم الوقعة المذكورة فى موقف المصاف، اصطلح مولانا السيد حمود بن عبد الله هو ومولانا من صُنف هذا الكتاب برسمه، وشرّف بشريف لقبه واسمه، مولانا الشريف أحمد بن غالب -متع الله بحياته- عن شحناء كانت بينهما قبل ذلك.

سبب الصلح على ما بلغنا: أنه اتجه به وهم يتشاوفون القوم، فأقسم عليهما مولانا الشريف بركات أن يصطلحا فى ذلك الوقت، فاعتنقا حينئذ واصطلحا. رحم الله من سلف وأبقى من خلف.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف، فى سابع رجب منها: كان خروج مولانا الشريف بركات إلى أهل الفروع، وخرج معه من جدة سنجقها بعسكره ونوبته

ومدافعه، فتلاقيا على عسفان أو بعده، فصام بمحل قريب منها، يسمى «قويزة» وعيّد به، ثم توجه فنزل بأم العيال منها، ونزل السيد ناصر ابن السيد أحمد الحارث بالمحل المسمى أبو ضباع، فدانوا له وأطاعوه، وتنصلوا مما اقترفوه.

قلت: لما كنا فى رابغ -المنزل المعروف- عائدين من الفرع صحبة مولانا الشريف بركات، وكنت قد خرجت معه - رحمه الله - إلى الفرع بإلزام من الشيخ محمد بن سليمان إمامًا له، ومدرسًا له ولابنه الشريف سعيد ابن الشريف بركات، دخلت عليه فقال لى: يعيش رأسك فى المغربى، فقلت أى المغاربة؟ فقال: عبد الرحمن المحجوب، فقلت: رحمه الله رحمة واسعة، فلم يتكلم بشىء، فعلمت من قوله وسكوته أنه سرى بغض شيخه الشيخ محمد بن سليمان للسيد عبد الرحمن إليه بحيث إنه تسبب لبعض خواص السيد عبد الرحمن المذكور فى أذى بليغ، وإهانة من الشريف بركات.

وبلغنى أنه قال لبعضهم حين مات السيد: مات إلهكم اليوم، فلا قوة إلا بالله، نسأل الله السلامة.

وفيها -أعنى سنة خمس وثمانين وألف- فى سادس صفر منها: كانت وفاة مولانا المرحوم ليث السراة الصيد من بنى هاشم، غوث الطريد فما لجاره من حاشم. رأس بنى حسن المشهورين، فارس أبطال قريش المذكورين، مولانا وسيدنا السيد حمود ابن الشريف عبد الله بن الحسن بن أبى نمى بن بركات، اختصه مولانا الشريف زيد واستدناه، واستخلصه دون رباعته واجتباه، فزوجه بابنته، لصدق نيته، وخلوص طويته، وألقى إليه مهمات البلاد، من الحواضر والبواد.

وفى يوم وفاة مولانا الشريف زيد: لم يشك أحد أنه يقوم بعده ذلك المقام، كان فى ظن أركان الدولة فضلا عن العوام، ولكن لم يرد الله أن يتقمصها، ولا أن يأوى طيره قفصها. ولقد سألته -رحمه الله- فى مدة ذهاب عرض مولانا الشريف سعد وعرضه إلى الأبواب: ماذا يخمنه مولانا فى الجواب؟ فأجابنى بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، وذلك جواب مثله. ودفن من الغد خلف مسجد الحبر ابن عباس، وبنى على قبره تابوت، وحوط عليه حوطة فسيحة، رحمه الله ونور ضريحه.

وفى تاسع رجب منها: توفى مولانا السيد أحمد بن محمد الحارث بمكة المشرفة. كان رحمه الله آية فى العقل والذكاء، مرجعًا للأشراف فى جميع أمورهم، وإذا حكم بأمر لم يقدر أحد أن يستدرك عليه فيه شيئًا لحسن أحكامه، وشدة إحكامه.

وكان قد ولاه حسن باشا فى طيبة -كما مر ذكر ذلك- مدة ستة أشهر أو قريبًا منها. ولما رجع عماد أفندى إلى الديار الرومية سئل عمن يستحق الملك إذ ذاك من السادة الأشراف؟ فقال: ثلاثة لا غير: أحمد بن الحارث، وحمود بن عبد الله، وبشير بن سليمان.

ودفن فى قبة السيد مسعود ابن الشريف حسن، ووضع عليه تابوت عظيم، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف سعيد صحبة الحاج الشامى إلى الديار الرومية بعروض من الشريف بركات يطلب فيها أن يكون ولده الشريف سعيد ولى عهده، فكتب له أمر سلطانى، وأن يكون هو صاحب مكة بعد وفاة أبيه، فكان ذلك برأى الشيخ محمد بن سليمان وتدبيره، فتم له ذلك كله بعد وفاة أبيه.

وفى سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها: وقع حادث غريب، وكارث عجيب، هو أنه وقع فى ليلته أن لُوِّث الحجر الأسود، وباب الكعبة، ومصلى الجمعة، وأستار البيت الشريف - بشىء يشبه العذرة فى النتن والخبث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويداه، ففزعت الناس من ذلك، وضجت الأتراك، واجتمعت وغسل الحَجَر والحِجْر والباب والأستار بالماء، وبقى الأتراك والحجاج والمجاورون فى أمر عظيم.

وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقب درس عام، فكان يرى جماعة من الأرفاض بالمسجد الحرام، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوه.

فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلا فعل هؤلاء الأرفاض اللئام، الذين يلازمون المسجد الحرام، وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام، السيد محمد مؤمن

الرضوى قاعدًا خلف المقام، يتلو كتاب الله ذى الجلال والإكرام، فأتوا إليه، وأخذت الختمة من يديه، وضرب على رأسه، وسحب حتى أخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطرح خارج الباب، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق فمات.

وفى حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يسمى السيد شمس الدين، فعدوا عليه، وألحقوه به، فضرب حتى مات وجُر، ثم أصابوا آخر فضربوه، وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه، ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس.

ولقد رأيتهم مطروحين، وبقى بعضهم على بعض، الآتى والذاهب يوسعهم السب والركض، ولقد رأيت ذلك الشىء، وتأملته فإذا هو ليس من القاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات عجين بعدس ممخخ وأدهان معفنات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور، ولم يُعلم الفاعل لذلك.

وغلب على بعض الظنون أن ذلك جعل عمدًا وسيلة إلى قتل أولئك. والله العالم بالسرائر، وهو متولى البواطن والظواهر.

وفيها فى ليلة النحر حصل مطر عظيم بعد نفر الحاج من عرفة، واستمر إلى بعد نصف الليل.

وفى سنة تسع وثمانين وألف رابع عشرى ذى الحجة الحرام منها: سالت أودية طيبة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، بما لم يُسمع بهيئته الاجتماعية فى سابق الدهور والأعوام. سال أبو جيد سيلا هائلا، أخرب جميع ما حوله من الديار، وأحدث فى الحدائق الدمار، وأحدق بالمدينة، وخرب كثيرًا من الدور التى تحفها، وكاد أن يدخلها من باب المصرى، ورجفت البلاد، وانزعجت العباد، وضجت الأصوات بالدعاء، وجرت العيون بالدمع من البكاء، ولكن بحمد الله لم يهلك فيه إلا شخص أو شخصان، وتلك للرسول معجزة، ولأصحابه كرامة، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض نهنيكم بالسلامة.

والحاصل أنه أمر حير الأفكار، وقصر عن تفصيله بيان الأخبار. وكان فى ذلك

اليوم بعينه سيل بوادى الصفراء، سد ما بين الجبلين، ولم يضر من القافلة أحدًا من الناس، سوى أنه أخذ امرأة، وولدها بالحمراء بين الصفراء والخيف، وذهب ببعض نخيل الخيف إلى الحمراء، وذهب ببعض الجمال والأحمال، فَعَن البحر حدث ولا حرج.

وفى سنة تسعين وألف يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان منها: كانت وقعة محمد بن أحمد الخلفانى وزير المدينة الشريفة من جهة الشريف بركات، سببها ثيار عسكر عليه، ودعواهم أنه سب السلطان، فاجتمعوا على بابه ودعوه إلى الشرع الشريف، فأجاب: إن هذا الجمع يتفرق ويتعين الخصم فأنزل معه، فأبوا عن ذلك وكتبت لهم حجة بعصيانه الشرع، فوصلوا إلى بيته، وكسروا عليه الباب، وكان معه جماعة فى البيت، فأخرجوهم على أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوهم، فكان ممن قتل القائد مُتعب بن إدريس حاكم البلد إذ ذاك، وولده وأخوه، ورفيع ولده، وابن دريعة الظاهرى، وعمران الزبيدى، ورفاع، وخُضير، والعمرى، وعبيد للخلفانى، وفى جملتهم مثقال عتيق الجمال محمد على بن سليم كان مستخدمًا عند الخلفانى.

كل هذا فى ضحوة يوم الأحد المذكور. وأما قتل الخلفانى، فكان عند الزوال من يومه فكان آخر من قتل؛ لأنه اختفى عند الحريم، حتى دلتهم عليه امرأة دخلت كأنها متوجعة له فأخبرت بمكانه أو رأته، فدلت عليه، فدخلوا عليه عند الحريم، وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت إلى أن أخرجوه إلى قارعة الطريق، واستمر طريحًا إلى آخر النهار، وأوحى إلى مولانا الشريف بركات أسماء الفاعلين وكانوا قريبًا من ثلاثين نفرًا فعرض فيهم إلى الأبواب، فورد الأمر بقطع جوامكهم وتخريجهم من البلاد، فقطعت وأخرجوا، ثم عاد إلى المدينة بعضهم. بعد سنوات بشفاعات، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وفى سنة إحدى وتسعين أواخر شهر شوال: ظهر نجم له ذنب طويل إلى جهة الشرق، واستمر إلى آخر السنة ثم اضمحل.

وفيها يوم الإثنين ثانى عشر ذى الحجة الحرام منها - والركب المصرى فى نفير السير من مكة - أمطرت السماء كأفواه القرب بل كأفواه الغروب وسالت الأودية من

سائر الجنوب، وحصل سيل عظيم أخرب الدور، وأتلف من الأموال ما لا يحصى، وأخذ الجمال محملات، وأغرق نحو خمسمائة نفس، ودخل المسجد الحرام، وعلا على مقام إبراهيم، ومقام المالكى، والحنبلى، وعلا قفل باب الكعبة، وأكثر الغرقى غرباء؛ لأنه أتى وقت الشديد، وذلك أول الزوال، وسقط كثير من الدور، واقتلع الجميزة التى بسوق الليل.

ولقد شاهدت وأنا بباب المسجد النافذ على بيت الشريف، والماء ملأ الطريق وهو مكور فى المسجد، شاهدت قطرًا من الجمال عليه الركبان من رجال ونساء وصبيان دهمه السيل فانحاز إلى رأس الزقاق الغير النافذ جنب دار السعادة، ورأيت الماء وصل من الجمل - وهو قائم تحت دار السعادة - إلى منحره، ثم ازداد عليه الماء، فاقتلع ذلك القطر بما عليه وتدهور فيه، وعلى هذا فقس.

وصعد جماعة من العسكر على سطح رواق المسجد اليمانى أمام دار السعادة، وطلبوا حبالا ليدلوها فيمسكها من أخذه السيل فيرفعوه، فأمر لهم المرحوم الشريف بركات بحبال ترمى من سطح دار السعادة إلى سطح الرواق المذكور، ورمى هو بنفسه بعض تلك الحبال، فرحمه الله تعالى ما كان أرحمه وأرأفه فنجا بذلك خلق كثير، وسبح بعض الجمال فى المسجد حتى انتهى إلى المنبر، فارتفع عليه فصار مرتفعًا على المنبر يداه، وعنقه مرتفعان عن الماء وباقيه فيه، وكان طوفان والعياذ بالله، ولم يبق من درج باب الزيادة التى فى داخل المسجد إلا أربع سنن، ولم يبق من طول أعمدة الرخام إلا نحو الربع أو أقل. وأرخ بعضهم سنته بقوله: «طغى الماء» .

وخرج أمير الحاج بالمحمل بين العشاءين فى نفر نحو العشرين بغير نوبة ولا موكب ولا ضوء ولا ثوب زينة، وخرج من أعلى مكة.

فلما كان بسوق المعلاة وقع جمل المحمل فى حفرة من حفر السيل فما طلع إلا بجهد جهيد، فسبحان الله الفعال لما يريد.

وفى سنة ثلاث وتسعين وألف رابع عشر صفر: توفى الشيخ حسن بن على الدهان. ولد بمكة سنة أربع وألف، ودفن بالمعلاة وقد ناهز التسعين.

وفى صفر المذكور: خرج مولانا الشريف أحمد بن غالب -متع الله بحياته- من مكة مفارقًا للمرحوم الشريف بركات فى نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين من السادة

ذوى مسعود وغيرهم، فدخلت السادة الأشراف فى الصلح بينهما فلم يتم، فخرج بهم إلى الركانى من وادى مر، واجتمعوا هناك وتأهبوا، وساروا منه فى شهر ربيع الثانى قاصدين الأبواب السلطانية، فوصلوا إلى الشام، فأنزلهم متوليها حسين باشا السلحدار بيت نقيب الأشراف، وأجرى عليهم الأنعام والألطاف، وعرف بشأنهم إلى الأبواب، فأمروا بكتابة عرض بما يشكونه فكتبوه، وأرسلوه مع اثنين منهم هما السيد محمد بن مساعد، والسيد بشير بن مبارك، فوعدوا بإزاحة شكواهم.

وفيها فى حادى عشرى ربيع الأول منها: وقعت فتنة سببها عبد السيد حسن بن حمود بن عبد الله، اختصم مع عسكرى من عسكر الرتبة عند الششمة، سطا العسكرى على العبد، وضربه وأخذ سلاحه، فاستحث السيد حسن الأشراف، والعبدُ العبيد، واجتمعوا عند مولانا المرحوم السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، فانفلتت شرذمة من العبيد نحو الخمسين شاهرين السلاح، فوصلوا إلى المروة، فهربت الأتراك وأرادوا الرجوع، فرماهم بعض الأتراك الساكنين فى الربع بالأحجار، فأرادوا الطلوع إليهم، فكسروا بعض الدكاكين التى تحته بظن أنه باب الربع، فوجدوه ملآن من النحاس والجوخ والأثاث، فنهبوا جميع ذلك، وفعلوا بدكان آخر جنبه مثل ذلك، وصوبوا نحو ثلاثة من الترك بالسلاح، وقتلوا رجلا من المجاورين كان يحتجم عند حلاق بالمروة ثم ذهبوا، ثم خرجت الأتراك، وجاءوا إلى الأفندى، وأرسلوا إلى مولانا الشريف يطلبون الغرماء، فصُبّروا فلم يصبروا، وأتوا إلى بيت الشريف، وبيت السيد أحمد الحارث، وكان به جماعة من عسكر الشريف، فرموهم من بيت الحارث فقتلوا من الترك أيضًا اثنين فرجعوا، وأرسل مولانا الشريف إلى الأشراف يطلبهم الغرماء فامتنعوا، وخرج الأشراف إلى الشيخ محمود وقالوا: من يطلب الغرماء يأتى.

والعبيد خرجوا جميعًا حتى عبيد الشريف نفسه، والحاكم إلى بركة الماجن، ووجدوا جماعة من الأتراك مقيلين، فأخذوا جميع ما معهم، وضربوهم ونهبوا قريبًا من أربعمائة رأس من الغنم، ثم أرسل الشريف بركات أخاه السيد عمرو، فرد العبيد، ثم قصد مولانا الشريف تسكين الفتنة، فأمر على عبدين كانا محبوسين فى سرقة أن يشنقا فشنقا، فلم تطب نفوس الأتراك بعد رؤيتهما، ثم وجد السيد يحيى

ابن الشريف بركات - وكان يعس البلد - عبدين سارقين، فضرب أعناقهما، ورمى بجثتيهما تحت جميزة المعلاة، وذكروا للأتراك أنهما الغرماء فرضوا.

واصطلح السادة الأشراف مع الشريف، ودخلوا مكة.

ثم حصل لمولانا الشريف بركات مرض، واستمر نحو شهر زمان، فلما كانت ليلة الخميس ثامن عشرى ربيع الثانى من السنة المذكورة -أعنى سنة ثلاث وتسعين-: توفى شريف مكة مولانا المرحوم الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمى، ودفن وقت الضحوة يومه فى حوطة الشيخ النسفى بوصية منه، ولم يحصل للناس لا خوف ولا فزع. وكانت مدة ولايته عشر سنين، وأربعة أشهر وستة عشر يومًا. رحمه الله رحمة واسعة آمين.

ومما قيل فيه من الشعر قولى قصيدة حين عوده من ذهابه لخفارة الحاج الشامى، فوصل البلاد المسماة بالْحِجر ديار ثمود، فوافق حال دخوله حصول مطر بها، أشرت إلى ذلك فى القصيدة وهى: [من البسيط]

ما ظَلَّلَ البيرق المنصور سُلْطانَا ... إلا وكُلُّهُمُ فى ظِلِّ مَوْلانا

أبا زُهَيْر العلا بركات سيِّدنا ... والى البسيطةِ عجمانًا وعُرْبَانا

حامى حِمَى مكَّة الغرَّا وطيبةَ مَعْ ... أقطارِ أنحائها حفظًا وإتْقَانا

ذو هِمَّةٍ همة الإسكندرىِّ غدَتْ ... أقلُّهَا وبها كَمْ دان بلدانا

وعزمةٍ فى مُهِمِّ الخَطْبِ صَادِقَةٍ ... تُصَيِّرُ الإمْتِنَاعَ الصرْفَ إمْكانَا

تأمينُ حجاجِ بيتِ الله قمْتَ له ... بالنفْسِ والمالِ والأبناءِ إذعانا

فَحُطْتَهُمْ مثلَ حوطِ الابنِ كافلُه ... وكَمْ بذلكَ قد أذهَبْتَ ذهْبَانا

فى طاعةِ الله والسلطانِ لا برحَتْ ... له ملائكَةُ الرحْمَنِ أعوانا

مولَى ملوكِ الورَى الغازى محمد خا ... ن زادَهُ الله نصرًا أينما كانا

وشُرِّفَتْ بك أرضُ الحِجْرِ إذ سقيَتْ ... غيثًا بمقدمِكَ الميمونِ هَتَّانا

حتى لقد ظَنَّ فى الأجداثِ هالكُهُمْ ... لأَنْ ينالَ من الرحمنِ غفرانا

أنتَ الذى بكَ تاهَتْ مكَّةٌ وزهَتْ ... بحسنِ أيامه عدلاً وإحسانا

أنتَ الذى بكَ ضمَّ الشمل ناثره ... مِنْ بعدِ تفريقِهِ مثنَى ووُحْدَانا

أىُّ الملوكِ بلادُ الله بلدتُهُ ... تمسى رعيَّته لله جِيرَانا

أيُّ الملوكِ على كُل مودته — حتَّى ملائكة الرحمنِ والجانا
أيُّ السلاطينِ لولا صِيتُ هيبته — لم يمكنِ الحَجُّ من بغدادَ إنسانا
ولا تيسر للعبَّادِ فى غَسَقٍ — أن يلمسوا لاستلام البيتِ أركانا
بيُمْنِ طلعته الغرَّا قد امتلأتْ — جميعُ وِجْهَاتنا أمنًا وإيمانا
مباركُ الإسمِ والأفعالِ قد خلصَتْ — لـلـه نـيـتُـهُ سـرًّا وإعـلانـا
له سريرَةُ صدقٍ لا يزالُ بها — يشيدُ حقًّا لدينِ الله أركانا
ألفضلُ شيمتُهُ والعدلُ سيرتُهُ — بالحَقِّ ينصفُ ممن عزَّ أو هانا
يا وجْهَ آلِ رسولِ الله قاطبةً — ومَنْ يمنُّ ولا نلقاه مَنَّانا
أهدِى الثناءَ لكُمْ فى كل آونةٍ — فى محفلٍ جحفلٍ ما زالَ ملآنا
وما أقصِّرُ أصلاً فى الدعاءِ لكُمْ — إذا تلوْتُ قبيلَ الفجْرِ قرآنا
أدعو بطولِ البقا والمُلْكِ تكنفُهُ — وقـايـةُ الله أزمـانًـا فـأزمـانـا
لا زالَ حظُّكَ والنَّصْرُ المؤيدُ وَالسَّعْ — دُ المؤَبَّدُ طولَ الدهْرِ أقرانا
ولا فتئْتَ قريرَ العينِ مبتهجًا — حتى تَرَى إبْنَ إبْنِ الابنِ سلطانا
ثم الصلاةُ على جدَّيْكَ ما عطفَتْ — أنفاسُ ريحِ الصبا المِسْكِىِّ أغصانا

وقال محمد بن جدّوع المشهور بالشاعر التغلبى: [من الطويل]

دُهِمْتُ بما لا ارضى ولا اطِيقُ بعضَهُ — أتانى معاضول كثير بمحفلِ
نهضت(١) معاما جَدَّمِ العَزْمِ(٢) مصرم — من القهر خوفًا أن أموت أو انسل
فيا ليتنى عن ذا بعيدٌ ومنزلى — على الذِّكرِ فى ديراتِ بكرٍ وموصلِ
ولا قُمتُ فى دار ذراعى قصيرة — ذليل ولا لِى مِن جناها محصّلِ
يهونُ علىَّ ازوامُ نفسى مشقَّة — ولا حالتى هَذِى لىَ المَوْت أسهلِ
بأقوَى عُبابِ البَحْر ماء ومَوْجَة(٣) — أَشُوفُ السما فَوْقِى وتحتى ولا ازملِ
ذُهِلْتُ بها ممَّا جَرَى كُلّ ما مضَى — حَفِظْتُ بها مِنْ همتى كُلّ مجهلِ
وكَمْ ليلةٍ بَيْضَا سَرَيْتُ وليلةٍ — بها الليلُ غدرا كالقَمِيصِ المفصّلِ

(١) بالأصل: نهصت؛ بالصاد المهملة.
(٢) بالأصل: من العزم .
(٣) بالأصل : وموجه .

إذا ما تَنَحّى[١] الليلُ وقفا وجدتُّنى ... على كُلِّ فَجًّا[٢] الصدرِ وَجْناء مرقلِ
كَبيرةِ عُثْنُونِ القَفَا صَيْعَرِيَّةٍ ... كَأَنَّ مَرَافِقَهَا عنِ الزَّورِ تفتلِ
لها اعلامُ شَيْبٍ كَنَّهُنَّ مَرَاوِحٌ ... أَوَ اكْمَامُ رَقَّاصٍ إن اقْفى وأقْبلِ
بخدٍّ كظهرِ الذِّيبِ وعرا قطعنها[٣] ... ومرا بصفصاف بداويَّةٍ خلى
ويا طالما اسْتازى بغُرْضة ناقتى ... فُرُوخ القَطَا وابن النَّعَامِ المجفَّلِ
مِن ازوام حَرِّ القَيْظِ فى هَوْجَرِيَّةٍ ... فَرَائِدُهَا فى الآلِ تَخْفَى وتعتلى
تَتِمُّ بهَا الأنظارُ شتّى كثيرة ... كأنَّ بها البيضَ الهوارى تُسللِ
بها القوز غرقى كَالقَواويقِ غطّس ... على الرُّوسِ فى وسطِ المعمّى المطوَّلِ
صلبتُ النَّضَا فيها بالاذلاجِ والسُّرى ... رجا كُل عادِىٍّ قديم منَ اوَّلِ
من الهجر رَا دمْنَ الكلا فى جنوبهِ ... كأَنَّهُ بَذْرٌ فى كلاتِى جَذْولِ
وَكَمْ هَام فيهَا قسمتّاه راقدا[٤] ... أناس على الأناس فاغفى وأغفلِ
وَكَثر خُوار القومِ فينا وأيقنوا ... بلدراك من شوفِ اخْدِهم يوم يكفلِ
خليلىّ لا تخشونَ منّى معرة[٥] ... علىّ لكُمْ ميرادكم أىّ منهلِ
فَصلْنَ وصيل الرَّمْلِ فى مُدْلَهِمَّةٍ ... خَلصنَ[٦] وَكَمْ فيها دليل تَوجَّلِ
وردتهُ والأفان ما انا بخابرٍ ... سوى العزمِ إلا انَّهْ بالاذكار وصْفَ لى
أنخنَا عليها العيسَ مِنْ بَعْدِ سريه ... ودرت لدَوْسِ الدائسات[٧] تأملى
ولمينِ حط الغرب عجلا فقيل لى ... أما يَرْدهَا إلا رشاء موصَّلِ
ولمينِ وصَلْت الحبال بجدة[٨] ... وإكتربَتْ عضدىّ فى المغربِ فُجُزلى
أَرَى كُلَّهمْ يلطِمْ بكفَّيهِ خدَّهُ ... وَبَعْضَهمَا مِنْ خَوفةِ الموْت هلَّلِ
فَقُلْتُ لَهُمْ لاَ تحزنون فَانا لكم ... أطوع[٩] من لدنِ الأديمِ المبللِ

(١) بالأصل : تنخى؛ بالخاء المعجمة .
(٢) بالأصل : فج .
(٣) بالأصل : تطعتها .
(٤) كذا بالأصل .
(٥) بالأصل: مغرة، بالغين المعجمة .
(٦) فى أ: خلقن.
(٧) بالأصل: الدالسات، وفى أ: الدابسات .
(٨) فى أ: بجده.
(٩) في أ: الهوع.

نزلتُ بها واسقيتُ ربعى بسرعة[١] وصدَّرتهم روبا وصملانهم ملى
ولسْتُ بقوَّالٍ وَلا هُوْ بِصَادِقٍ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ إذَا قَالَ يفعلِ
أَمَا ضَام وانا من عرانينِ تَغْلبٍ لَنَا فى نِزَارٍ نِسبةٌ مَا تُبدلِ
فإن قَصَّرَتْ عن فعلِ آباى[٢] همَّتى تكملن أَعْمَامِى وأَفعال مخولِى
وَلاَ أَقصَرتْ[٣] عن هؤلا بل[٤] لحقتُهم حَميدة افعَالى صدوقٌ بِمِقْوَلى
ولى ثقة فى سيد إبن سيِّد مَنِ اختارهُ المولَى علينا لَنَا وَلِى
أَبُو سَعدِ بَرَكات بن محمد لهُ نَسب عدل بِطه موصَلِ
على الزين كم فرّق من اصنام لا به وكم عكفوا بِهْ مِنْ رَسُولٍ ومرسلِ
وكَمْ لطم الضِّدّ القوىّ بغارةٍ بكل ابْلَحِ ذَرْبٍ[٥] تصَلْصَل من علِ
على الخيل لدنين ولو ما تعاودوا وكم عطَفوا بِصُدورهم روس ذبلِ
وكمْ فرقُوا بالسَّيف محزوم ضربة سرايَاه[٦] فيها مِنْ عراةٍ وكمّلِ
علَى رأى حزّام الحُرُوب انْ تفاختَتْ إلى هدّم[٧] جمع عَنِ الجمع يعزلِ
ومنه يخلى الإبن عَم ابن عمه والابنا[٨] عن اباها[٩] تغض وتنسلِ
أغارتْ ملوك الرُّوم واستنصروا بِهِ وقبلَهْ عَسَاكِرُهُمْ تذلّ وتخذلِ
تقلّل مِنْ وادِى قُرَيْش وجُزهُم عَلَى ضُمّرٍ من طُول ممشَاهُ محلِ
وقبّ تجابذهنَّ الارْسَان حزّب مَطَاوِيعِ لَذنات المَرَاضِعِ قفّلِ
فلمَّا تبيّنْ وجْه ممشَاهُ صَائِلِ نشُوف ثَقِيل الطَّعْن أقفى وأشملِ
وأنكَرَ بَعْضٌ بَعْدَ الاجماعِ بعضَهُمْ وهُمْ قَبْلَ ذاكم فكَّكوا وشر محملِ
وطاع الضجر الصليب ولاَ قسا[١٠] وَمِنْه تخلّى العَارِض الفَرْد منْ بلى

(١) بالأصل: بسرعه.
(٢) بالأصل: آبائى.
(٣) بالأصل: أتصر، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٤) بالأصل: بل قد.
(٥) بالأصل: أبلح ذراب.
(٦) بالأصل: سراياء
(٧) بالأصل: هدم.
(٨) بالأصل: والابناء.
(٩) بالأصل: أباها.
(١٠) كذا.

وكَمْ مِنْ عَزِيزٍ عِنْدَ ملْقَاه غالى دَعَاهُ على التَّالى قَطِيع مهملِ
من اوزام ها الجَمْع القوىّ بمثْلِهِ وحَرْجَمَتِ الأظْعَانُ فى كُلِّ منزلِ
بها الحدب لزّمن النواصى بمكنه ولابق بيْنَات المطاهير مخولِ
وخفّوا عَنَ اطفالٍ وشيبٍ كثيرةٍ وَحُورٍ عَلَى ابنَاها تحِنّ وتُغولِ
وكَمْ طَلَبُوا منه الرحا فى مراحِهِمْ على اطْفَالِهِمْ مِنْ مأخَذِ القومِ يعقلِ
عَسَاهُمْ يتوبوا عَنْ مناخاة ميمر مصالاه قَبْلَ الفِعْلِ للخَصْمِ يقتلِ
بقَوْمٍ إذا زمّوا على الضّدِّ واجملوا بالافكَارِ مِنْ دارٍ لدار تحول
ومن عطوة واما بها من عطية ومن رمك فيها أصيل ومصهل
ومن عرض ما اعطى كم حكوا من جهامة بها ناقة حمرا وخوارة خلى
معاذا به الحارات بالقرب حسر ولو كان أزين من بها الشمس واجمل
كليل مقاو الطرف عنهن دائما مدى العمر مع حدثها[1] ما تخلل
فإن غاب عنها بعلها فهو سترها رءوف بها كنه ولى موكل
فداه دوينى قليل أمانة من الخوف الارض بْجارتيه تزلزل
فجزنى على مدحى بميصال ديرتى فكل غريب ناقص لو تطول
ولى أسوة بالليث وان كان نادر بلا غابتهْ لزما يكل وينكل
وللحر عادات إلى رب ما كرن من اطول ما فى الأرض ما ينزل اسفل
وصلوا على خير البرايا محمد عدذ ما مشوا لهْ من حفايا ونقل

ثم تولى الشريف سعيد ابن الشريف بركات ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد بركات ابن الشريف أبى نمى يوم موت والده الشريف بركات قبل أن يجهزه، ذهب السيد عمرو بن محمد فى جماعة من الأشراف إلى حضرة أفندى الشرع، وطلبوا منه قفطانا، فسألهم الأفندى هل رضوا السادة الأشراف؟ فقال له السيد عمرو: نعم رضوا بذلك، فأتوا منه بقفطان، فألبسوه للشريف سعيد، ثم نودى بالبلاد باسمه، ومع المنادى مولانا الحسين بن يحيى، ومولانا السيد عبد الله بن هاشم، ثم جهز الشريف بركات، وصلى عليه فاتح بيت الله مولانا، وسيدنا الشيخ عبد الواحد ابن المرحوم سيدنا ومولانا الشيخ محمد الشيبى القرشى العبدرى بوصية

(١) بالأصل: خذنها.

منه، ودفن فى المحل المتقدم ذكره.

ثم عقد مجلس يوم الجمعة ثانى يوم الوفاة بالحطيم حضره الأشراف والعلماء والأعيان والعساكر، فأظهر الشريف سعيد أمرًا سلطانيًا مضمونه: إنه لما أرسله مولانا الشريف بركات إلى حضرة مولانا السلطان محمد خان، أنعم عليه بالملك بعد أبيه، فقرئ بمحضر ذلك الجمع، فسكنت الخواطر والأحوال، لموجب ذلك الأمر الواجب الامتثال، فلذا لم تقع مخالفة من أحد ولله الحمد والمنة.

ثم حصل بين الشريف سعيد، والسيد ناصر ابن المرحوم أحمد الحارث بعض مقاومة من جهة وعد لم يتم، فقامت نفس السيد ناصر، وعضد معه جماعة من الأشراف، منهم: السيد محمد بن يعلى، وذوى جود الله فى خمسة وعشرين شريفًا، فما زالوا يسعون بينهم بالصلح حتى اصطلحوا ولله الحمد.

وفى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة - أعنى سنة ثلاث وتسعين وألف - وصل أغا صحبته قفطان من صاحب مصر لمولانا الشريف سعيد بن بركات جاء بحرًا، وخرج من ينبع.

وفى ثامن عشر رمضان، منها: ورد مورق السميرى يخبر أن السيد زيد بن حمزة رسول الشريف سعيد إلى الأبواب وصل إلى ينبع، ويخبر أن القفطان السلطانى واصل بحرًا.

وفى سادس عشريه: وصل السيد حمزة إلى مكة.

وفى رابع شوال منها: ورد إلى الأفندى أمر سلطانى بإخراج الشيخ محمد بن سليمان من الحرمين إلى بيت المقدس، فأرسل إليه الأفندى يأمره بالخروج، فطلب مهلة ثلاثة أيام، فأمهل ثم لم يأمن على نفسه، فلما أتوه على الوعد امتنع، فجاء إليه العساكر إلى بيته فصاح، وصاح أهل بيته من نساء وأطفال وخدم، فتركوه ومضوا إلى الشريف، وأفندى الشرع، وأخبروهما بما وقع، فأرسلوا إليه مولانا السيد ثقبة ابن قتادة فحاوله على الخروج، فأجابه: إنى ممتثل الأمر، وإنما تمهلونى إلى الحج، فتوجه السيد ثقبة فى الإمهال إليه عند الشريف، وأفندى الشرع فأمهلاه، ثم خرج صحبة الحاج الشامى.

وفى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة: دخل الأغا بالقفطان والمرسوم

السلطانيين، فلبسه مولانا الشريف سعيد فى الحطيم، وقرئ المرسوم على العادة بالتبجيل والتعظيم والتصريح بتفويض أمر الحرمين إليه والتعويل فى حراستهما عليه، وكان له ذلك النهار موكب عظيم.

وفيها وصلت صدقة من ملك الهند إلى الحرمين قدرها مائة ألف ربية، أربعون ألفًا للشريف، وستون لمكة والمدينة، فكتبوا أسماء الناس فى دفتر، وعدوهم بالتقسمة، ثم اقتضى رأيهم أن يأخذوها جميعًا، ويأمروا أهل مكة بأن يكتبوا باستلامها، فكتب أهل مكة بذلك.

وأرسل إلى أهل المدينة، وطلب منهم أن يسمحوا كما سمح أهل مكة بذلك، فكان جواب أفندى المدينة وشيخ حرمها وأغوات العساكر ما نصه: إن هذا شىء لعامة الناس فلا يسعنا السماح عن جماعة ما نعتقد رضاهم، وأبوا أن يجيبوا بغير هذا.

فلما وصل الخبر بذلك عنهم دبروا تدبيرًا آخر لا حاجة بنا إلى كشفه، وأرسلوا به إلى السلطان أورنك زيب صحبة السيد محمد البرزنجى فلم يعط قبولا، ولم يواجه السلطان هو ومن معه أصلا، ثم عاد إلى مكة بعد ذلك فى سنة خمس وتسعين، وقد كان فى غنية وعزة عن مثل هذه الرسالة التى هذا شأنها، وقد أخذت منه المكاتيب من بندر سُوْرَت، وأرسلت إلى السلطان، وذلك لما بلغ السلطان حقيقة الحال.

وقد كان المرحوم مولانا الشريف بركات عرض إلى الأبواب لما فارقه مولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته ومن معه، فعرّف أن السادة الأشراف أتعبوه بالطلب الشطيط، وأنه بالغ فى إرضائهم بكل وجه، فقال: إلى حد أنى رضيت أن أجعل لهم مغلّ ثلاثة أرباع البلاد، ويكون لى ربع، فكان جوابه أنهم أبرزوا له أمرًا سلطانيًا بذلك، فورد إلى مكة بعد مدته فى الحج آخر سنة ثلاث وتسعين المذكورة.

ولم يُرد مولانا الشريف بركات طلب هذا الأمر، وإنما لما أرسل إلى الأبواب متنصلا عن المخالفة على السادة الأشراف، ومبينًا أنه ساع فى ملائمة هواهم بحيث إنه رضى بأن يجعل ذلك لهم، ظنت الدولة العثمانية أن ذلك مراد له، ومطلوب فأخرج له أمر بذلك، فلما وصل كتمه الشريف سعيد، فتحققته السادة الأشراف، وطلبوه من الشريف، فأحضره على ما أشيع مجلس الشرع، وسجل مضمونه،

وقسموا مدخول البلاد، والإخوان أرباعًا، ربع لمولانا الشريف وربع تشيخ فيه مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، ومولانا السيد ناصر بن أحمد الحارث ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الثالث تشيخ فيه مولانا الشريف أحمد بن غالب دام علاه، ومولانا السيد أحمد بن سعيد، ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الرابع تشيخ فيه مولانا السيد عمرو، ومولانا السيد غالب بن زامل، ومعهما جماعة من الأشراف، فحصل بذلك التشاجر فى القسمة والتعب والتشاحن، ووقع فى البلاد السرقات بل النهب الصريح، واختلفوا فيما بينهم، ولزم من ذلك أن كل صاحب ربع يكون له كتبة وخدام يجمعون ما هو له.

واستكتب مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته عسكرًا، وانضم إليهم عبيد ذوى زيد فحصل عند الشريف سعيد تعب من ذلك، فأمره بترك العسكر فامتنع، وذكر أن السوالف سبقت بمثل هذا لصاحب الربع، وشهد بذلك كبار الأشراف، فذكر الشريف سعيد أنه متوهم من هذا الفعل وطلب من يكفله له، فكفله عشرة من الأشراف، واصطلحا على ذلك، ثم ادعى الشريف سعيد على الأشراف أن عبيدكم أتلفوا البلاد، والقصد من أهل الأرباع أن يرسل كل منهم شخصًا من جانبه يعسون البلاد مع جماعتى، فأجابوه إلى ذلك.

فأرسل مولانا الشريف أحمد بن غالب أخاه مولانا السيد حسن بن غالب، وأرسل مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله ابنه بركات بن محمد، وأرسل الشريف سعيد مولانا السيد حمزة بن موسى بن سليمان فى جماعة من الخيالة والدّبابة معهم القائد حاكم البلاد أحمد بن جوهر.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وألف: وصل فى خامس شهر رمضان منها إلى مكة هدية من ملكة « آش » بلد بأقصى الهند وتلك مقابل هدية كان أهداها إليها مولانا الشريف بركات، منها ثلاثة قناطير ذهب مصطنع يصفى على النصف خالصًا، وثلاثة غلايين ذهبًا، وثلاثة أرطال كافور، وجانب عظيم من القرنقل والجاوى، وآواق زباد آشى، وللكعبة الشريفة بخمسة قناديل، ومبخرتين وشمعدانين، وللمدينة كذلك قناديل، ومباخر وشماعدين، فنازع السادة الأشراف الشريف سعيد طالبين الثلاثة الأرباع منها، فامتنع من ذلك، فقامت النفوس بينهم وبينه، ثم وقع الصلح على

إعطائهم النصف منها فأخذوه.

وفى سادس عشرى ذى القعدة منها: فتح البيت الشريف وجاء مولانا الشريف سعيد، ومولانا السيد محمد بن حمود، ونائب الحرم، وعلقوا الخمسة القناديل بالكعبة الشريفة.

وفيها يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة الحرام منها: انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله - رحمه الله تعالى رحمة واسعة -.

وفى شهر ذى الحجة منها: لم يخرج السادة الأشراف جميعهم مع الشريف سعيد إلى العرضة، فبعد أن حج الناس، ونزلوا عقد الشريف سعيد محضرًا فيه أمير الشامى صالح باشا، وأحمد باشا صاحب جدة، وأمير الحاج المصرى ذو الفقار بك، وأمين الصرة والسرادير، وأكابر الحج وأغواته، وشكا من الشريف أحمد بن غالب كتابة العسكر، وأنه مناكد لى فى البلاد وأنه أفسد عليَّ الأشراف، وأنه حصل منه ومن جماعته الفساد فى البلاد.

وأرسلوا السيد غالب بن زامل إليه ليحضر فيظهر ممن الخلاف، فامتنع من الحضور فى بيت الشريف، وقال: إن كان القصد الاجتماع ففى المسجد، وإن كان لكم دعوى، فأوكل وكيلا يسمع ما تدّعون به على، ثم أرسلوا إليه عن كتابة العسكر وما بعده، فأجاب بما أجاب أولا أن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن صاحب الربع له أن يكتب عسكرًا. وأما قولكم: إنه قد حصل من جماعتى أو عسكرى مفسدة، فأطلقوا مناديًا فى البلاد: معاشر الناس كافة هل أحد يشكو منى أو من جماعتى أو عسكرى شيئا أو أخذوا حق أحد ظلمًا أو ضربوا أحدًا؟ فإن وجدتم مشتكيًا صح ما قلتموه، وإلا فلا وجه لكم.

وأما تركى العرضة فكان خوفًا أن يقع شىء فينسب ذلك إلىّ أو إلى جماعتى.

كل هذا والأشراف جميعهم اجتمعوا على قلب رجل واحد ولم تزل خيولهم مسرجة، ودروعهم عيابها غير مشرجة، بل قد لبسوها، وملئوا الأجياد إلى العقد، وتحركت الأنفة الهاشمية التى تأبى الضيم والضهد.

وبلغنى عن الثقة أن صالح باشا أمير الحاج الشامى كان من جملة كلامه إلى الشريف أحمد متع الله بحياته: إن لم تصطلحوا طوعًا أصلحناكم بالسيف، فأرسل له

فى الجواب: السيف لنا يا بنى هاشم ما هو لفلاليح الشام، ولكن إذا نمت فأحكم تزرير مضربك عليك.

ولما أن سمع الأمراء والأكابر جواب الشريف أحمد بالكلام الأول، وعلموا أنه لا وجه عليه، ولا خلاف ينسب إليه، سعوا فى الصلح بينه وبين الشريف سعيد على أن يكفل كل منهما جماعة من الأشراف، ولا يتعدى أحد على صاحبه، وكتبت بينهما حجة شرعية، وطلبوا من الشريف أحمد متع الله بحياته أن يأتى إلى الشريف سعيد، فوصل إليه ليلة فى شهر الحج قبل خروج الحاج الشامى، ثم بعدها وصل إليه الشريف سعيد ليلة أخرى، وتم الصلح ولله الحمد.

وأما صالح باشا ففى يوم الاجتماع المذكور وصل فى نحو مائة من عسكره إلى بيت مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وقبل يده واعتذر مما تكلم به، فقبله وقابله بوجهه الطلق الصبيح، ولاطفه بلفظه العذب الفصيح، ورفع عنه الملام، وأكرمه كما هو طبعه الشريف غاية الإكرام.

وفيها -أعنى سنة أربع وتسعين وألف-: أمر مولانا الشريف سعيد بالنداء فى البلاد ثامن عشر ذى الحجة الحرام أن لا يقيم أحد من الغرباء بالبلاد من جميع الأجناس على حسب ما ورد به الأمر السلطانى، ثم إن أرباب الأموال من الأتراك وغيرهم تكلموا مع سرادير العسكر، وجعلوا لهم مصلحة فاجتمعوا، وعزموا إلى أحمد باشا صاحب جدة، وذكروا له أن هؤلاء التجار المصارية أموالنا معهم، وأنهم نافعون لنا فى البلاد، وحسنوا له التكلم مع الشريف سعيد، فأرسل إلى الشريف سعيد فتكلم معه فى إبقائهم فساجل على ذلك، وأطلق مناديه سابع عشرى ذى الحجة المذكورة: أن من كانت له مدة طويلة يقيم ولا خلاف عليه، فما أسرع انتقاض الحكم بضده بعد تسعة أيام.

وفى ثانى عشر شعبان منها: كانت وفاة والدة مولانا السلطان الغازى المجاهد السلطان محمد خان، كانت صاحبة خيرات وصلات، تغمدها الله بأتم الرحمات.

وفى عاشر ذى القعدة: كانت وفاة شيخنا الشيخ محمد بن سليمان المغربى المالكى السوسى المفتن فى جميع العلوم، المشهور عند العرب والروم. توفى بدمشق الشام، مولده سنة ثلاث وثلاثين وألف. قرأ على كبار المشايخ ببلده، من

أجلهم قاضى القضاة مفتى مراكش، ومحققها سيدى عيسى السجستانى، والعلامة محمد بن سعيد المراكشى، ومحمد بن بكر الدلائى، والشيخ سعيد بن إبراهيم (المشهور) بقَدُّورَة مفتى الجزائر ستين سنة، وتلقن منه الذكر ولبس الخرقة، ولازم الشيخ محمد بن ناصر الزرعى أربعة أعوام فى التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها، وصحبه وتخرج به.

ثم رحل إلى الشرق، ودخل مصر فأخذ بها عن العلامة الشيخ على الأجهورى، والشهاب الخفاجى، والشيخ شهاب الدين بن سلامة القليوبى، والعلامة سلطان المراحى وأجازوه، وبرع فى العربية والمعانى والبيان والعروض والحساب والفلك والهيئة والحكمة.

وأخذ عنه جماعة كثيرون عدة فنون. وألف كتبًا مفيدة منها: «مختصر جامع الأصول» لابن الأثير. واختصر «التلخيص» وشرحه. ووضع حاشية على «التسهيل» وحاشية على «التوضيح» و«منظومة فى علم الميقات» وشرحها، وله جدول جمع فيه مسائل العروض كلها. واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة والإصطرلاب، وانتشرت فى الهند واليمن والحجاز.

أقام بالمدينة سنين عزبًا فى خلوة بقايتباى، ثم جاء إلى مكة وجاور بها، ثم رحل إلى الروم فى موسم سنة ثمانين صحبة أخى الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحظى عنده حظوة عظيمة، وفوض إليه أمر أوقاف مكة وغيرها، وعمّر الأربطة الدامرة والمآثر الداثرة، وأنشأ تربة بالمعلاة وجعلها جدارًا أوتارا متقاطعة فى نصف قامة على شكل شطرنجى، وعدتها ثلاثة آلاف وسبعمائة قبر بلغت النفقة عليها من مال الوزير المذكور أربعة آلاف أحمر ومائة أحمر كان ابتداؤها سنة سبع وثمانين وألف، وسعى فى عزل مولانا الشريف سعد، وولى الشريف بركات بنظره وإشارته، وصار فى مكة صاحب الحل والعقد، وأنيطت أمورها جميعها إليه، ويتردد الشريف بركات إلى بيته كل يوم، وربما جاء مرتين فى اليوم الواحد، وأكابر الحاج وأمراؤه يأتون إليه، فمن قبل عليه أذن له ومن لا فلا، ولا يقطع الشريف بركات أمرًا قل أو جل إلا بنظره، وربما فعل أمرًا بغير نظره، فإذا علم به نقضه من يومه، إلى أن مات الوزير المذكور، فضعف أمره، وورد الأمر من الوزير الآخر مصطفى باشا أولا

بالتحذير والنهى عن مشاركة الدولة فى أمورها من قليل أو كثير، والتنفير عن المكارشة فيما يتعلق بها من جليل وحقير، وذلك سنة سبع وثمانين وألف، فأغلق ذلك الباب، وصار لا ينفذ شيئًا إلا وحيًا أو من وراء حجاب.

ثم فى جمادى الأولى من السنة المذكورة عزم إلى بلدة الطائف وصاف بها، ثم ارتحل منها أواخر شعبان، فسقط عَلَى وادى مر، ثم توجه منه إلى المدينة المنورة الشريفة، فدخلها ثانى يوم من رمضان، فأقام بها نحو أربع سنين، وابتنى فى أثناء تلك المدة دارًا بلصق جدار المسجد النبوى الشمالى.

فلما كانت سنة إحدى وتسعين وألف: رحل منها فى النصف من شهر شعبان عائدًا إلى مكة فدخلها ثامن عشريه، فاستمر بها إلى أن ورد الأمر ثانيًا سنة ثلاث وتسعين وألف بتخريجه من الحرمين، فخرج إلى مكة صحبة الحاج الشامى موسم سنة ثلاث وتسعين كما تقدم ذكر طرف من ذلك، وأخذ فى سفره الأول إلى الروم عن الشيخ خير الدين بن محمد الرملى الحنفى، وبدمشق عن الشيخ محمد بن بدر الدين البلبانى الحنبلى، والسيد محمد بن كمال الدين نقيب الأشراف.

وله فهرست بجميع مروياته وأشياخه سماها صلة الخلف بموصول السلف.

ووصل فى سفرته الثانية إلى دمشق الشام، فأقام بها حتى كانت وفاته فى هذه السنة -أعنى سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله وتجاوز عنه. انتهى.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين فيها يوم الجمعة ثانى عشر محرم الحرام لما أراد أحمد باشا النزول إلى جدة حشكت عليه السادة الأشراف بسبب أنه استولى على الربع من حب الجراية التى ترد إلى مكة بعد أن كلموه فى ذلك فامتنع، فسكتوا عنه إلى يوم نزوله جدة وهو يوم الجمعة المذكور، فتحزبوا جميعًا، وقالوا: لا ينزل حتى يعطينا ما هو لنا ولا يبقى عنده شيء، وكان ذلك بعد أن تقدمه أهله وثقله إلى جدة فصار أحير من ضب، واجتمعوا ببيت السيد محمد بن حمود، وأرسلوا إليه السيد ثقبة، فقال له: إن نزلت قبل أن تصلح الأشراف يأخذوا جميع أسبابك التى تقدمت، وينهبوا حريمك ويقتلوك، فأذعن حينئذ بوفائهم، فقالوا: لا نرضى بذلك حتى تكفل لنا، فكفل لهم كرد أحمد المعمار، وجميع السرادير، والوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكتبوا بذلك حجة شرعية، وأنه إن حصل منه منع لبعض

حقوقهم فيكون عاصى الشرع والسلطان. ثم خرج من مكة بعد عصر ذلك اليوم كالهارب: [من البسيط]

أَلْجَدُّ فى الجِدِّ والحرمانُ فى الكَسَلِ ... ...

وفيها تاسع ربيع الأول: ورد أغا من صاحب مصر بقفطان للشريف سعيد، وبطلب كرد أحمد المعمار، وهذا كرد أحمد كان قد وصل قبل هذه السنة، أرسله الوزير الأعظم مصطفى باشا إلى عمارة المسجد الحرام وحده، وكانت عمارته فى المسجد فرش أروقته بالحجر الشبيكى، وعمارته بجدة إجراء عين إليها استمر فيها نحو ثلاث سنوات ابتدأها من المحل المعروف بالقوز، وعمر بها أيضًا مسجدًا ومنارة وحمامًا ووكالة.

وسبب طلبه لما غضب على مرسله الوزير الأعظم مصطفى المذكور بسبب الولس الذى نسب إليه مع الكفار على المسلمين، وكان هذا كرد أحمد من خواص الوزير المذكور، فجاء الأمر لمولانا الشريف سعيد.

ففى يوم وصول الأغا ختم على بيت كرد أحمد الذى بمكة، وركب الأغا من يومه إلى جدة وختم على بيته بها وعلى جميع المال وأحضروا المهندسين فخمنوا العمارة فخمنوا كل ذراع بقرش ريال بعد أن ذرعوا من الابتداء إلى البلد فبلغ كذا وكذا ألف ذراع، وكذلك خمنوا ما صرف على فرش المسجد، وحسبوا جميع ذلك، وكتبوا به حجة شرعية، وخرج من مكة إلى جدة فى شهر ربيع الآخر فذهب بحرًا إلى من طلبه.

ومما وقع فى هذه السنة من العجائب: أن حرمة من جهة الشبيكة من نساء العرب وضعت كلبًا فخافوا الفضيحة فقتلوه ودفنوه.

وفيها أيضًا: جاء نجاب من مصر، وأخبرنى مشافهة أن بالمويلح القرية المعروفة حرمة ولدت ولدًا، فذهب أبوه إلى جهة السوق، فلما رجع قال الولد المولود لوالده: العوافى يا باه قضيت حاجتك، وتكلم بأشياء كثيرة من ساعته. وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها إلا نادرًا والقدرة صالحة، وبعد ذلك فقد الولد فسبحان القادر على كل شىء.

وفيها: تضرر السادة من غلو سعر الذهب، ووصول الأحمر إلى ثمانية حروف

وربع، وبسببه غلت الأسعار، فطلبوا من الشريف أن ينادى بنزول سعره إلى أربعة حروف؛ لتنزل أسعار المسعرات إلى النصف من كل شىء، فأجابهم إلى ذلك، فتعب من ذلك صاحب جدة أحمد باشا وعساكر مصر حين أرسل لهم الشريف بمثل ذلك، وامتنع من النداء عليه إلا بسبعة حروف، وكان ذلك عشرى جمادى الأولى.

ثم إن عسكر مصر شكوا إلى الشريف سعيد أن هذا ضرورة علينا، فنسأل الفضل أن تجعلوه بستة حروف ونصف لا علينا ولا على السادة الأشراف خلاف، فأمر الشريف سعيد بالنداء بذلك والفسح به، فلما سمعوا السادة الأشراف بموافقة الشريف سعيد للأتراك فيما طلبوه تعبوا، واجتمعوا فى بيت السيد مبارك الحارث؛ لأنه هو أول من تكلم فى ذلك الشأن.

ثم ركبوا إلى السيد غالب بن زامل وكان بالأبطح، وأخبروه بمخالفة الشريف هواهم واتباعه هوى الأتراك، فأتى مولانا السيد غالب ومولانا السيد محمد بن حمود، ومولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر، فقالوا للسيد مبارك وبقية الأشراف القائمين فى هذا الأمر: إن البلاد للشريف، وإن الأمر له فى المعاملة وغيرها، ولستم شركاء للشريف فى الأحكام بل فى المدخول، فحجُّوهم بذلك.

وفيها فى شهر ربيع الآخر: وجد رجل من أبناء المدينة، يقال له: محمد بن عمار الصعيدى بالمسجد النبوى بعد أن فتش المسجد، وأغلق فأخرجه الخدام، ثم لما كان من أعمال شىء من الليل وجدوه أيضًا تجاه القبر الشريف يقرأ فى مصحف، فأخرجوه من المسجد.

ولما كان ليلة الجمعة وقت التذكير دخلوا لإيقاد قناديل الحجرة الشريفة، فوجدوه فيها داخلا تحت الستر نصفه ونصفه الآخر خارجًا، فتقدموا إليه وأخرجوه، وأتوا به إلى شيخ الحرم، وأخبروه بما وقع فوضعه فى بعض المخازن، وأغلق الباب وعلى الباب حرس، ثم فتحوا الباب بعد ساعة فلم يجدوه، فسألوا عنه فإذا هو فى بيته عند والده، وأهله، والله أعلم بحقيقة حاله.

وفيها يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان منها: عدا بعض أولاد الصاغة بمكة على أخيه فضربه جنبية عمدًا فقتله - رحمه الله تعالى - ودخل على السيد حسن بن غالب، فدخل به على أخيه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فبذل لأبويه الدية

فامتنعا وسمحا عفوًا، فألزمه بسكنى بندر جدة فهو فيها.

وفيها ليلة الخميس سابع عشرى رمضان منها: كانت وفاة الحرة الطاهرة والدرة الثمينة الفاخرة السيدة الشريفة عمرة بنت سلطان الحرمين مولانا المرحوم الشريف زيد - تغمدها الله برحمته، وأسكنها فسيح جنته- ودفنت صبيحة ذلك اليوم. وكانت جنازتها حافلة.

وفيها: إرسال الشريف سعيد ترجمانه المهتار على أغا إلى صاحب مصر يذكر فساد مكة وأنها خربت، وأحوالها اضطربت، وطلب منه عسكراً لإصلاحها.

وفيها ثاني عشر رمضان: كانت وفاة الأمير الخطير، والسرى الكبير، الذى حوى من الفضل أجمعه، ومن اللفظ أعذبه وأبرعه، الأمير الجليل، ذى القدر النبيل، والمجد الأثيل، والأصل الأصيل، الأمير يحيى بك ابن المرحوم على باشا الأحسائى ثم المدنى الحنفى بطيبة المنورة. مولده سنة ثلاث وعشرين وألف بمدينة «الأحساء»، وبها نشأ فى حجر والده وتأدب بأكابر علماء بلده. وأخذ عن العلامة إبراهيم بن حسن الأحسائى الفقه والحديث وعلوم العربية وأجازه بمروياته وجميع مؤلفاته.

وتلقن الذكر ولبس الخرقة، وصافح من طريق المعمرين الشيخ تاج الدين النقشبندى الهندى عن الشيخ عبد الرحمن الشهير بحاجى رمزى. قال: فصافحنى أبو سعيد الحبشى، قال فصافحنى النبى ﷺ. وله شعر، منه قوله يمدح النبى ﷺ:
[من الكامل]

أتريدُ جارًا حاميًا لكَ سيدًا ... ومقامَ عِزٍّ عاليًا متفرّدَا
وترود شرقًا للبلاد وغربَهَا ... متفكرًا متحيرًا متردِّدَا
وترومُ ذا والحالُ منك مقصِّرٌ ... عما طرا والفعْلُ ليس مسدَّدا
فعليكَ أن تردَ النجاةَ وتَتَّقى ... خوفَ العقاب تلاوةً والمسْجِدا
وانزلْ بدارِ المصطفى متأدِّبًا ... ولجودِهِ مستمطرًا متقصِّدَا
واعرفْ لفيضِ الفضلِ منه مواسمًا ... لتكُنْ لها مترقبًا مترصِّدَا
فلعلَّ أن يحيى كما أحيى به ... للدِّينِ رسمًا قد عفا وتهدَّدَا
فاجهَدْ تكُنْ جارًا له ودخيلَهُ ... وابذلْ له روحًا ومالاً مجهدَا

أفما سمعْتَ لقائلٍ ذى فطنةٍ … تسمو بساكِنِهَا فكُنْ مسترشِدَا
واطلب بغالِى النفسِ منْكَ جوارَهُ … واترك لِسَوْفَ ولا تقُلْ مهلاً غَدَا
بلْ قُمْ وسارعْ للمدينةِ راغبًا … ولمنْ بها مستشفعًا متعبدًا
فَهُوَ الذى يحمى ويغنى جاره … وعليه قد أوصى وحَثّ وأكّدَا
فلقَدْ نصحتُكَ إن قبلْتَ نصيحَتِى … ولما نصحْتُ فعلته متودِّدا
وجنحْتُ مشتاقًا لطَيْبَةَ قاصدًا … غوْثَ الورَى بَحْرَ الحقائقِ أحمدَا
بدْرُ الهدَى بالحقِّ أُرْسِلَ رحمةً … للعالمينَ وبالملائكِ أُيِّدَا
أوَ لَيْسَ قومى عالمينَ بأننى … جاوَرْتُ خَيْرَ المرسلينَ محمَّدَا
وحَلَلْتُ ساحةَ جودِهِ متمسكًا … بالعروةِ الوثقَى فلا أخشى الرَّدَى
حاشاكَ أن أخشَى وأنْتَ وسيلتى … وذَخِيرتى حقًّا وأنْتَ المقتدَى
فعلَيكَ خَيْرَ الخلقِ إنى داخلٌ … وببابِكَ الأعلَى أقمْتُ مقيَّدَا
فعسَى بجاهِكَ أن يمنَّ بعفوها … ربٌّ كريمٌ بالنوالِ تفرَّدَا
ويجودَ بالغفرانِ منه تفضلاً … وأنالَ عِزًّا من مديحِكَ سَرْمَدَا
قد قالها من كامل فى كاملٍ … يحيا لكَىْ يحيى سعيدًا مسعدَا
دنيا وأخرَى إذ لجا لجنابِكُمْ … أيخيبُ مَنْ أمَّ الجنابَ المُفْرَدَا
حاشا وحاشا ثُمَّ حاشا أن يُرَى … متألما من جَاءكُمْ متعمِّدَا
وصلاةُ ربِّى دائمًا وسلامُهُ … تغشَى ربوعَ المصطفى والمرقدا
والآلَ والصحْبَ الكرامَ جميعَهُمْ … والتابعينَ لهم ومَنْ قد وَحَّدَا
ما لاحَ نجمٌ فى السماءِ وما أضا … نجمٌ وما أشجَى هزارٌ غَرَّدَا

وقوله مضمنًا: [من البسيط]

ظلمتُ نَفْسِى ولم أعمَلْ بموجبها … وما علمْتُ بأنَّ الغيَّ يُتْلفنِى
يأتِى على المرءِ فى أيامِ محنتِهِ … حتَّى يرى حسنًا ما ليْسَ بالحسَنِ

كان والده المرحوم على باشا واليًا على الأحساء، والأمير يحيى هذا على القطيف بأمره، فأرسل والده المذكور أكبر أولاده محمدًا بهدية إلى سلطان الروم على جارى العادة، فزور كتابًا من والده مضمونه أنه قد كبر فى السن، والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمدًا فى الولاية على «الأحساء» مكانه بمرسوم سلطانى،

فأجيب إلى ذلك.

ولما وصل محمد إلى «الأحساء» أرشى أكابر العساكر، وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده وإخوته.

فلما اجتمعوا أخرج المرسوم السلطانى وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته، فطلبوا منه أن يجهزهم إلى الحرمين ويعين لهم مصرفًا، فجاءوا إلى المدينة، وجاوروا بها، وتوفى والدهم على باشا بها [سنة] ست وخمسين. ثم فى موسم خمس وسبعين: توفى ابنه أبو بكر باشا ابن على باشا بعرفة يوم عرفة، فحمل فى محفة إلى مكة، فدفن بها فى المعلاة.

وكان ذا شهامة وصرامة، سلالة بيت عز وكرامة، ذا كرم يفوق البحر بالمد، وبأس يقصر عنه حد السنان والحد، إلى أدب بذ فيه فحول الأدباء وفاق، وممادح قيلت فيه فنفق سوقها لديه أحسن نفاق، إلى لطف أخلاق تُعير النسيم لطافة، وتوصل قاصده وتؤمنه مأموله ومخافه، إلى قريحة وقادة، وذكاء ملك به زمام الأدب وقاده.

له الشعر الرصين المبنى، البطين المعنى، منه ما كتب به إلى مولانا وشيخنا العلامة أبى مهدى عيسى بن محمد الثعالبى الجعفرى ونصه [من الكامل]

يا مَنْ سما فوْقَ السِّمَاكِ مقامُهُ ولقدْ يَرَاكَ الكلُّ أنتَ إمامُهُ
حزتَ الفضائلَ والكَمَالَ بأسْرِها وعلوْتَ قدرًا فيكَ تَمَّ نظامُهُ
لو قيلَ مَنْ حازَ العلومَ جميعَهَا لأَقُولُ أنتَ المِسْكُ فيكَ ختامُهُ
كم صنْتَ من بِكْرِ العلومِ خرائدًا عن غيرِ كُفْءٍ لم يجب إكرامُهُ
فاعلَمْ بأنى غَيْر كُفْءٍ لائق إنْ لم يكنْ ذا الفضْلُ منك تمامُهُ

ثم أتبعه بنثر صورته: «لما أضاء نور المحبة فى قنديل القلوب، صفت مرآة الحقيقة فظهر المطلوب، فاتضحت الرسوم الطامسة، وبانت الطرق الدارسة، فاكتحلت عين القريحة، فسالت فى أنهر النطق فأثمرت بالمسطور، وهو المقدور، وأما المقام فهو أنهى من ذلك وأجل، وليس يدرك ذلك إلا من وصل. وأما العبد فهو مقر أنه قد قصرت به الركائب عن بلوغ ذلك. وعاقته عقبات الأسباب عن سلوك هذه المسالك، لكن حيث أن ثياب الستر من فضلكم على أمثاله مسبولة، يمكن أن

يدخل فى ضمن الأمثال مطلوبه والسلام» . فأجابه مولانا المشار إليه بقوله [من الكامل]

للـه درُّكَ يا فـريـدَ مـحـامِـدِ ... أربَى على البدرِ التمامِ تمامُهُ

قد صغْتَ من سرِّ البراعةِ مفردًا ... فـاقَ الـفـرائـدَ نـثـرُهُ ونـظـامُـهُ

وكسوتَهُ مِنْ جزلِ لفظِكَ سابغًا ... وَشِيَتْ بكلِّ لطيفةٍ أكمامُهُ

أعربْتَ فيه عنِ اعتقادِ خالصٍ ... ومكينِ ودٍّ أحكمَتْ أحكامُهُ

وجلوتَهُ يختالُ تيهًا آمنًا ... مِنْ أنْ يشابه فى الوجودِ قوامُهُ

وحبوْتَ ذا شكْرٍ ببيتٍ قصيدةٍ ... وبفضِّ خاتمه العلى اسرامه

أهلًا به فردًا أتى من مفردٍ ... وحبا بِهِ ضيفًا يجلُّ مقامُهُ

حتمًا عليَّ ولازمًا تبجيلُهُ ... فـورًا وحـقًّـا واجـبًـا إكـرامُـهُ

لكنْ علِى قدرى فلَسْتُ بكُفْءِ مَنْ ... وطئَتْ على هامِ العلا أقدامُهُ

وإليكَهَا عذرا عَلَى مَهَلٍ أتتْ ... خجلًا لمحتدِكَ العزيزِ مَرَامُهُ

فاصفَحْ بفضلكَ عن صحيفةِ وُدِّها ... فـالـفـضـلُ مؤتـمٌّ وأنـتَ إمـامُـهُ

واسحَبْ رداءَ المجدِ غيرَ مدافَعٍ ... فـلأنْـتَ عـنـصرُهُ وأنـتَ خِتـامُـهُ

وله ديوان شعر مجلدان، حاوٍ ما يفوق الدر والجمان، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وفيها - أعنى سنة خمس وتسعين-: اشتد البلاء بالسرق ليلا ونهارًا، سرًا بل وجهارًا، وكسرت البيوت والدكاكين، وترك الناس صلاة العشاء فى المسجد والفجر، خوف القتل أو الطعن أو الكسر، وصارت العبيد لا يأتون إلا ثمانية وعشرة، ولا يبالى أحد منهم بمن ننصره، يدخلون بيت الرجل يقفون على رأسه بالسلاح، وربما نكح بعضهم زوجته وعينه تنظر كأنها حلاله المباح، وانقلب ليل الناس نهارا؛ لأنهم إنما يبيتون سهارى، بل من الخوف سكارى.

وكثرت القتلى فى الرعية بأيدى العبيد، وعدم المشتكى الناصر، وفعل كل شقى ما يريد.

ولا يجاب الصائح حين يصيح، وإن اتفق أنه صاح فلا يوجد فى مرقده إلا وهو ذبيح، حتى ضُبطت القتلى بمكة فى شهر رمضان فكانت تسعة أشخاص، فضجت

الأمة إلى الله - تعالى - أن ينقذهم من هذا الحال الوبيل، والداء العضيل بمن يهنأ نقبها، ويشد سلبها، ويصلح اعوجاجها، ويؤمن طرقها وفجاجها.

فاستجاب الله دعاءهم فى الأسحار، وآناء الليل، وأطراف النهار، بأن ولى أمرها المرحوم الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد - تغشاه الله بالرحمة والرضوان -.

وشرح مبدأ ذلك وتفصيل ما هنالك: أنه لما انفصل عن إمرة مكة هو، وأخوه مولانا الشريف سعد إلى الطائف ثم منها إلى بيشة، فأقام بها، وتوجه مولانا الشريف أحمد إلى ديرة بنى حسين، فإن له بها أهلا وولدًا، واستمر مقيما بتلك الديرة إلى أول ذى القعدة الحرام، فرحل منها قاصدًا المدينة لزيارة جده - عليه الصلاة والسلام -، فدخلها ليلة سابع العشرين منها ليلة دخول الحاج الشامى، وواجه بها فى ذلك العام باشا الشام، فقابله بأتم الإجلال والإكرام، والتمس منه إتمام بعض مرام من شريف مكة بركات، ثم رحل من المدينة الشريفة ثانى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ونزل على الشيخ حرب أحمد بن رحمة، واستمر عنده إلى عودة الحاج الشامى، فواجهه الباشا وأخبره بعدم تمام ذلك المرام، بعد أن أرسل له الخبر من مكة بالإعلام.

ثم توجه فى أول عام أربعة وثمانين إلى الفرع، واستمر بها مدة يسيرة. ثم لما خرج الشريف بركات إلى حرابة حرب فى أواسط السنة المذكورة عاد إلى حرب وحضر الحرابة، ثم بعد انقضائها توجه أيضًا إلى الفرع، ثم وصل إليه أخوه مولانا الشريف سعد، واستمر بين السوارقية والفرع، وأكثر الإقامة بالفرع.

ولما توعد الشريف بركات أهل الفرع أوائل سنة خمس، تنحيا إلى جهة وادى «النقيع» من ديرة «حرب» من بنى السفر وبنى على وعوف، واستمرا ومن معهما إلى شهر رمضان، ثم عن لهم التوجه إلى الأبواب العالية، فوصلوا إلى حول المدينة الشريفة، ونزلوا بالغابة مجتمع الأسيال غربى أحد أواخر رمضان، فعيدوا بذلك المحل، وليس فى نزول الأسود بالغابة، ملامة ولا معابة، وتقضوا مصالح وأغراضا وأزوادا منها.

وقد أخبرنى الثقة أنهما اجتمعا بالمحل المعروف ببئر واسط بمولانا السيد مبارك

الحارث، وكان هو المشير عليهما بقصد الأبواب العالية، ثم ترحلوا من الغابة خامس شوال من السنة المذكورة متوجهين إلى الشام، لا يمرون بحى من الأحياء إلا أكرمهم غاية الإكرام.

ومن أعجب الاتفاق نزولهم على مراح ابن سحيم من غير علم منهم بذلك، وكان الشريف سعد قد قتل أباه، فلما علم بهم، وعلموا به حصل لهم كرب عظيم، فلم يشعروا إلا وولده مواجه له بالعبودية والسلام، والإجلال والإعظام، وأهدر دم والده، وأكرمهم وذبح الذبائح، ومنح المنائح، وهذه - ولا شك - معجزة من جدهم، وكرامة من سعادة جدهم. ولم يزالوا على مثل ذلك مع كل من مروا عليه من العربان من جمع ووحدان إلى أن وصلوا الشام، فتلقاهم أهل الشام وأمراؤها، وعلماؤها وكبراؤها، وأشرافها ونقباؤها، وكان يومًا مشهودًا، ثم أقاموا بالشام، وأرسل صاحب الأمر بها يستأذن لهم فى الوصول، فعاد الجواب بالإذن، فتوجهوا ودخلوا إلى «أدرنة» فى ربيع الأول من سنة ست وثمانين، وحصل لهم من المقابلة واللطف ما يقصر عنه الوصف، فأقاموا بها مدة يسيرة، ثم توجهوا بأمر من الدولة العلية إلى «إسلام بول»، واستمروا بها بقية سنتهم المذكورة.

ثم دخلت عليهم سنة سبع وثمانين وهم بها، فلما كان شهر صفر من السنة المذكورة: وصل مولانا السلطان، وجميع الدولة من «أدرنة» إلى بلاد «إسلام بول».

وفى شهر ربيع الثانى: أنعم على مولانا الشريف سعد بولاية المعرّة، وأمر بالتوجه إليها، واستمر يتجهز إلى أن كان خروجه إليها حادى عشر جمادى الأولى، واستمر مولانا الشريف أحمد بإسلام بول، وعرضت عليه ولاية «طرسوس» وهى بلد على ساحل بحر الشام، وأخرى بجهة الروملى فلم يقبل واحدة منهما، وكان جوابه: إن تفضلتم بولاية بلادنا، وإلا فنحن تحت أعتاب السلطنة العلية. واستمر السلطان بإسلام بول إلى أواسط شعبان من السنة المذكورة، ثم توجه إلى «أدرنة» أيضًا.

ثم بعد خروجه فى ثانى أو ثالث مرحلة توفى الوزير أحمد باشا بعد أن خرج مريضًا فأعيد إلى «إسلام بول» ودفن بها، وتولى مكانه قائم مقامه مصطفى باشا.

واستمروا متوجهين إلى «أدرنة»، وأقاموا بها إلى آخر السنة المذكورة وشهر من

أول سنة ثمان وثمانين، ثم عادوا إلى «إسلام بول» فى شهر صفر أيضًا، وتأخر الوزير أيامًا، ثم وصل واستقرت الدولة «بإسلام بول»، واستمر مولانا الشريف أحمد مقيما بها تحت ظل الدولة العلية، وفى كل سنة يتجدد له من الإكرام والترقيات ما فوق المرام، وفى كل شتاء بثلاثمائة بغل محملة من جميع ما يحتاج إليه البيت، وزيد سنة واحد وتسعين ثلاثمائة أخرى، وحصلت بينه وبين قزلار أغاسى محبة أكيدة، وطلب الاجتماع بالوالدة، فاجتمع بها، وأغدقت عليه سوابغ الإنعام، ووعدته بالمرام، وقد سبق وعدها وعد الملك العلام.

واستمر كذلك إلى سنة ثلاث وتسعين وألف، فوصل فيها إلى الديار الرومية السيد محمد بن مساعد والسيد بشير بن مبارك مرسولين من السيد أحمد بن غالب من الشام، فركبا إليه وقيّلا عنده، فأوحى بعض المفسدين إلى الوزير الأعظم، وقال: إن إقامة مولانا الشريف أحمد بإسلام بول يخشى منها، فالأولى عدم إقامته بها، فأحضره الوزير وألبسه قفطانًا بولاية «كرك كنيسة» اسم محل بينه وبين أدرنة ثمان ساعات فلكية.

وكان قبل ولايته بشهرين أرسل بأخيه الشريف سعد إلى البلد المسماة «ويزه» بكسر الواو وتخفيف الزاى وهى قرية أيضًا من «كرك كنيسة» بينها وبينها ثمان ساعات أيضًا، واستمر كل منهما بمكانه إلى سنة أربع وتسعين، فتوجه السلطان إلى السفر، فعند حلوله بأدرنة فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى «إسلام بول»، واستمر الشريف أحمد فى بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها، إلى أن كانت سنة خمس وتسعين فوصل فيها ترجمان مولانا الشريف سعيد بعرض إلى صاحب مصر يذكر فيه ما شرحناه من إفساد مكة بأيدى العبيد، والنهب الذى لا ينقص بل يزيد، وأن البلاد خربت، والأحوال اضطربت، وطلب منه عسكرًا لإصلاحها، ومالا يستعين به على أمور نجاحها، وأظهر أنه مغلوب عليه، وأن كل من أراد شيئًا فمنه وإليه.

فلما وصل إليه أرسل رسولا إلى الأبواب العلية بالتعريف بهذه الأحوال وأرسل معه الترجمان المذكور، فوصلا يوم عيد الفطر، وحصل عند السلطنة العلية اضطراب لهذا الخبر، فاشتورت الدولة، واتفقت على ألا يصلح هذا الخلل إلا أهله

العريفون، وحماته الذين هم فى بيت الملك عريقون.

وبرز فى الوجود ما كان فى علم الله كائنًا، وما قدر به لبلده أن يعود كما كان آمنًا، فاستدعى مولانا السلطان، وهو مقيم بأدرنه عند رجوعه من السفر مولانا الشريف أحمد من محلة كرك كنيسة المذكورة يوم ثالث شوال من السنة المذكورة، فبادر بالوصول إليه، فدخل عليه بعد صلاة العصر، فقابله بالإجلال والإكرام، والتحية والقيام، ووضع كفه بكفه، وتصافحا من قيام، قائلا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد عليه الصلاة والسلام.

فكان أول خطاب وقع بينهما أن قال له: يا شريف أحمد، الحجاز خراب؛ أريدك تصلحه، فوضع مولانا الشريف يده على رأسه ممتثلا للأمر قائلا: «نَوْلَهْ»: - كلمة تؤدى معنى القبول والطاعة، فأكرم بها قوله - فعندها خلع عليه من الفرو القاقم الأبيض، وهو الذى دخل مكة لابسًا له، ثم جلس مولانا السلطان، وأشار إلى مولانا الشريف بالجلوس فجلس، ثم أعاد عليه قوله الأول ففعل فعله الأول، ففى الثالثة فعل ما فعل فى الأوليين ثم قال: يا بادشاهى، الحجاز يحتاج إلى فتوح جديد، فأمر حينئذ مولانا السلطان بإحضار يازجى، وأمره بأن يمليه مولانا الشريف أحمد ما يريده فيكتب بمضمون ذلك أوامر متعددة.

ثم قام مولانا السلطان، فخرج مولانا الشريف وقدّم له مركوب من خيل السلطان بعدته، وتبعه من الإكرام والإحسان ما لا يحصره بنان ولا بيان.

ثم توجه مولانا الشريف إلى سرايته التى عينت له بأدرنه، واستمر بها إلى يوم التاسع من شوال المذكور.

ثم توجه مولانا الشريف إلى بلده كرك كنيسة، وأقام بها يومين وضم متفرق أموره وأحواله، وأوصى على أهله وعياله.

ثم توجه إلى «إسلام بول» وبات بها رابع عشر الشهر المذكور، وقال بها نهاره، ثم توجه إلى «أسكدار» ورحل منها يوم خامس عشر الشهر المذكور متوجهًا منها إلى مكة على خيل البريد المسماة فى عرف أهل الروم «الولاق»، فدخل إلى الشام وقد خرج الحاج منها، واستمر مجدًا فى السير والدءوب بما لا يحتمله بشر مما يشق على الراكب والمركوب، بعزمة تطوى مفاوز الأرض طيًا، وينقطع عنها سليك

المقانب كلالا وعيًا. فأرسل إلى مكة بكتاب إلى مولانا، الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، وإلى الوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكان قد أرسل إلى أمير الحاج الشامى أن يتربص له بالعلا، فتربص يومًا أو يومين.

ووصل مولانا الشريف إليه، فدخل مدينة جده سيد الكونين، ولبس الخلعة السلطانية بحجرة جده كما لبسها فيها أبوه، واسترَّت القلوب برؤية محياه وتبلجت الوجوه.

وأما الشريف سعيد، وعمه السيد عمرو فلم يزالا فى انتظار الجواب بالمال والعساكر، وما علما ما صنعه الواحد القاهر.

وفى ثالث شوال: وصل إلى مولانا الشريف سعيد قفطان من صاحب مصر أرسله إليه بعد أن عرض إلى الأبواب، وسيَّر مع رسوله إليها ترجمان الشريف سعيد كأنه تطمين للفؤاد، وتبشير بإتمام ما أرسل فى طلبه من ذلك المراد.

وحين وصول العسكر إلى بيت الشريف أصيب ابن الشريف بركات السيد عبد الله ببندقة أذهبت خنصر يده وكان إذ ذاك مشرفًا من طاق خارجة دار السعادة، فالحمد لله على السلامة لا مانع لما أراده.

فوصلوا بالقفطان، ولبسه الشريف سعيد مستبشرًا بحصول الأمانى والأمان، وكان فى ذلك اليوم بعينه - أعنى ثالث شوال المذكور - ولاية مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - للحرمين بالديار الرومية فسبحان الحكيم.

واستمر الشريف سعيد إلى أن اتفق يوم سابع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف المذكورة أن ركب إلى أحمد باشا صاحب جدة، وكان قائلا بالأبطح ببستان الوزير عثمان، واستمر عنده إلى جانب يسير من الليل، ثم ركب وقصد ثنية الحجون ذاهبًا إلى السيد غالب بن زامل، وكان نازلا بذى طوى، فلما جاوز الحجون إذا هو براعى ذلول، فاستخبره من أىّ العرب؟ فقال: من بنى الصخر.

فقال الشريف: معك كتاب من السيد يحيى بن بركات؟ فقال: لا.

وكان السيد يحيى قد ذهب لمقابلة الحاج الشامى، فأمر الشريف بضمه فضم وتهدد بالقتل، فأقر بأنه مورق من الشريف أحمد بن زيد إلى مولانا الشريف أحمد ابن غالب متع الله بحياته، وأنه قد جاء متولى مكة، وأنه لحق الحاج الشامى فى

العلا، فذهب به إلى بيت السيد عمر، واستدعى السيد غالب بن زامل، وعبد الله بن هاشم، واشتوروا فى إظهار هذا الأمر على أى وجه يكون، فاتفق الأمر على أن يرسلوا إلى السيد مساعد ابن الشريف سعد، فأرسلوا إليه السيد عبد الله بن هاشم، فذهب إليه وقال: نريد السيد غالب وكان نازلا بذى طوى، فلما خرج معه عطف به إلى طريق بيت السيد عمرو، فلما دخل بيت السيد عمرو استراب من ذلك، ثم لما رأى الجماعة مجتمعين جلس معهم، فقال له الشريف سعيد: يا سيد مساعد لم أرسل لك هذا الوقت إلا قصدى أودعك أهلى، وإن عمك الشريف أحمد بن زيد تولى مكة، وأنك تقوم مقامه إلى أن يصل، فتلكأ عن ذلك حتى قال السيد غالب بن زامل نقيم سليم أغا، ونحفظ نحن الديرة إلى وصول صاحبها، فوافق السيد مساعد حينئذ على القيام مقر عمه.

ثم أرسل الشريف سعيد إلى أغوات العساكر الذين معه، وقال لهم: إن الأمر أتى إلى الشريف أحمد بن زيد، فأنتم اخدموا سيدكم، وخرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة.

ومما قيل فيه من الشعر قولى حين رجع من الديار الرومية موسم سنة سبع وثمانين قصيدة هى [من الطويل]:

تجلَّتْ بمرآكَ السعيدِ لنا البُشرَى ... وأَبدَى الهنا والسعْدَ وجهُكَ والبِشْرَا
وعادتْ لأحشاها بعودكَ سالمًا ... قلوبٌ حَشَاها طولُ غيبتكم جَمْرا
وأضحَى وطيرُ السعدِ يسجَعُ مذ بدا ... محيَّاكَ فينا مسفرًا واضحًا بَدْرا
وقرتْ عيونٌ طالما أسهرَتْ أَسًى ... فنامتْ سرورًا بَعْدُ وانشرحَتْ صَدْرا
وما خصَّ هذا الحالُ بعدك واحدًا ... بل الناسُ جمعًا بالدعا لم تَزَلْ تترى
سرورًا بملقاك السعيدِ مبلغًا ... مرامًا سما كَمْ من نفوسٍ به حَسْرى
فيا ابن الكِرَامِ الصِّيد مِنْ آلِ هاشم ... سلالة خَيْرِ الخلقِ من ذا الورى طُرًّا
ويا درَّةَ العقدِ الثمينِ نظامُهُ ... وفَرْعَ الشناخيبِ الميامينِ فى الذكْرَى
ويا مَنْ له من طينةِ المَجْدِ جوهرٌ ... تلألأ نورًا من صفاتٍ له زُهْرَا
ويا مَنْ غذى دُرَّ الكمالاتِ يافعًا ... وطفلاً ففاق الشيبَ فى عقلها قَدْرا
له مِنْ سنام المجدِ ذروةُ شأوِهِ ... وكان لها أهلاً وكانتْ به أحرَى

له منطقٌ فصلٌ ورأىٌ مسدَّدٌ وجودَةُ نفسٍ طابَ منشقها نَشْرَا
وبسط يمينٍ بالنوالِ بنانها حكَتْ خُلُجًا فعمًا بمدِّ الندَى تُجْرَى
طَويل البنا رَحْب الفنا مَنْهَل الغِنَى مُزِيل العَنَا مولى المُنَى فائضًا بَحْرَا
عَرِيض الجدا غَوْث النّدَا مَوْرِد النَّدَا حمام العدَى والخيلُ دُهْمٌ حكَتْ شقرا
إذا ثوَّبَ الداعِى الصريخُ أجابَهُ سعيدٌ على سعدَى فيظفر فى المَسْرَى
ولا عجبٌ فالفرعُ يتبعُ أصلَهُ على خيرِ نعتٍ يوجبُ الحمدَ والشُّكْرا
طموحٌ إلى نيلِ العلومِ فؤادُهُ على همة تعلُو السماكَيْنِ والنَسْرَا
لبيبٌ أريبٌ لوذعىٌ مهذَّبٌ له الفكْرُ والفهْمُ الذى يقلقُ الصخرا
أديبٌ ربى حجر الخلافة مَهْده إلى أن رقى مِنْ سَرْجِ شيظمةٍ ظَهْرَا
وهز متون البيضِ مِنْ مرهفاتِهِ وكان ابنَ راعيها وكان بها أَدْرَى
فبوركَ فيه قارئًا لعلومِهِ وفى الروعِ أرواحُ العدَى سيفه يَقْرَا
فحينًا لتقليبِ الكراريسِ كَفُّهُ وحينًا يقلبها القواضب والسَمْرَا
وكَمْ من صفاتٍ فيكَ يعجزُ خاطرى مداها من الوصْفِ الحميدِ أتتْ كُثْرَا
وكَمْ من سجايا فيكَ طابَتْ أصولهَا وكم جهد ما يحصى البليغُ وإن أَطرَى
فدونَكَ يا نجلَ الملوكِ قصيدةً جمعْتُ بها من وصفِ مجدِكُمُ النَّزْرا
مُفَوَّفَةً من خالصِ الودِّ أنشئَتْ لمدحكَ صدقًا لا رياءً ولا نُكرا
وقد شرفَتْ لما أتَى فيكَ مدحُهَا وزانَتْ معانى حسنِ أوصافِكَ الشعْرَا
فجاءَتكَ من شوقٍ إليكَ محبةً ولا تبتغى إلا قبولَكَهَا مَهْرَا
فدُمْ وابْقَ واسْلَمْ لا برحْتَ على المدَى مصونًا من الأسوا ومن حادِثٍ يَطْرَا
ولا برحَتْ أيامُ دهركَ كلُّهَا بآثاركَ الحسنَى محجَّلَةً غرَّا

وقال الشيخ محمد البصرى ثم المدنى، سامحه الله تعالى [من البسيط] :

زارَتْ سعادُ وهى بالبشرِ متزرَهْ ترمِى بألحاظِهَا سهمًا بلا وترهْ
وهى مبرقعةٌ والحسنُ ساترُهَا والشعْرُ منسبلٌ جَلَّ الذى فطَرَهْ
فقلْتُ شيلى الغطا قالَتْ بمعذرةٍ ذا كوكبُ الصبحِ أبدى والظلام سره
فقلتُ ما الأمرُ، قالتْ إنْ تزر بِغَدٍ تَلْقَ البساتينَ فادخُلْ تجتنى ثمرَهْ
فودعَتْنِى وسارَتْ سرت فى قلق والقلْبُ ينشدنى من هَجْرِهَا شعرَهْ

ليلُ المحبينَ مطويٌّ جوانبُهُ ... مشمرٌ ما قضَى فى جنحه وطَرَهْ
ما ذاكَ إلا كأنَّ الصبْحَ نمَّ بهم ... فأطلع الشمْس ضغنًا مضمرًا قهرَهْ
فبتُّ أرقبُ نجمَ الليلِ فى سهدٍ ... حتى أتى الصبْح متبسم بمنفجرهْ
وصرتُ أسعَى وقلبى هائمٌ جذلٌ ... طرقتُ بابًا لها فى روضَةٍ عَطِرَهْ
أَفْتَحَ لى الباب واكسانى السرور إذا ... قد أمَّنى الدهرُ من عَيْن نفى نكرَهْ
قلتُ الوصالُ فقالَتْ وهى معذرةٌ ... هذا دلالاً فإنى خائفَهْ ذعرهْ
والفَتْ تقولُ بإعْجَاب الدَّلاَل لها ... كأنها دُرَّةٌ من عقد منتثرَهْ
ما جابكَ اليومَ يا غاوى بساحتنا ... عَسَى رضيعُ العلا أبدى لكُمْ فخرَهْ
فقلتُ هو القصْدُ والمأمولُ يا أملى ... إنى أديبٌ غريبٌ أستحقُّ قرهْ
فاقْر السلامَ له من سيدٍ سبقَتْ ... منه الملاقاةُ فى مدحٍ نقى دررهْ
أعنى سعيد بنَ مولانا الشريفِ ومَنْ ... راياتُ عِزٍّ له فى الحَربِ مشتهرَهْ
فهو شريفُ الذى قامَتْ عدالتُهُ ... وغدت أمانيه فى البر منتشره
وهو العزيزُ الذى فاضَتْ براحتِهِ ... كاسُ المنونِ غزيرا زايدا مررهْ
وهو الهزبرُ الذى هابَتْ لسطوتِهِ ... وحشُ الفلاةِ فأمسَتْ ساكنه القفرَهْ
وهو المليكُ الذى ماتَتْ حواسدُهُ ... نعم وبادوا حقيقًا أن رأوا خبرَهْ
لا زالَ فى شرفٍ كالبدْرِ فى ترفٍ ... بآية النورِ والأعرافِ والبقرهْ
يعنيك نظم بدا من سيدٍ بعدتْ ... عنه المنازلُ أمسَى فى زمان تِرَهْ
محمد إسمهُ منْ طيْبَة سعدَتْ ... بنورِ خيرِ الورَى طه به فخرَهْ
صلَّى عليه إلهُ العرشِ خالقُنَا ... والآلُ والصحْبُ واهْلُ البيتِ والسيرَهْ

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، وذلك أنه لما خرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة - كما ذكرنا آنفًا - ذهب السادة المذكورون فى غدها إلى بيت السيد ناصر بن أحمد الحارث، واجتمعت العساكر عند بيت الحارث، وذهبوا جميعًا إلى أفندى الشرع، وأخبروه بالواقع، فحضر الأفندى، وصاحب جدة أحمد باشا، والمفتى والوزير عثمان بن زين العابدين بن حميدان، وكان الاجتماع فى مقام الحنبلى، فقالت الأشراف: يجلس السيد مساعد ابن الشريف سعد، فانفض المجلس على ذلك، ونودى من حينه،

وذلك يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف: إن البلاد بلاد الله، والسلطان والشريف أحمد بن زيد نصره الله، وأمر بالزينة سبعة أيام، وجلس مولانا السيد مساعد للتهنئة، ولم يبق صغير ولا كبير إلا أتاه يهنئه، ويهنئون أنفسهم بما أنعم الله عليهم بتولية هذا الشريف، وادَّرَقوا بحماية كهف ذكره المنيف، فناموا بعد السهر، وصفت سرائرهم من الكدر.

وقد أشرت إلى ذلك بقولى فى مديحه من قصيدة: [من البسيط]

بِوَهْمِ ذِكْرِكَ من قبل الوصول صفَتْ أحوالها بعد خَلْعِ العذرِ والرسنِ
ثلاثَ عشرَةَ أعوام لها انصرمَتْ عمياءَ صمَّاءَ فى عينٍ وفى أذنِ
مسلوبةُ الأمْنِ ممحوٌّ محاسنُهَا عيونُ سكانِها ممنوعَةُ الوسنِ
حتَّى أتاها ابنُ أمِّ المجدِ معتزمًا لحسْمِ داءٍ بها بادٍ ومكتمنِ
فاليومَ عاد لها إنسانُ مقلتها فالدسْتُ مشتملٌ منه على حضنِ

وأرخ ولايته وزير أخيه سابقًا ذو النعت الفائق الدر النظيم، الجمال محمد على ابن سليم، ببيتين أجاد فيهما كل الإجادة، وألقى الأدباء لحسن وصفهما البديع إليهما المقادة:

وهما : [من الخفيف]

حين بُشْرى الشريف أحمَدَ وافَتْ ملأ الكون بشرها وتجدَّدْ
عاود التخْتُ مالكًا قلتُ أرِّخْ عود يمنٍ بذلكَ العود أحمدْ

وقلت أيضًا مؤرخًا لولايته الميمونة: [من السريع]

قضَى إلهُ العرشِ ربُّ السما أنَّكَ والى الفرش صَوَّانُهَا
وأنَّكَ مِنْ بعدِ خرابٍ بها حسًّا ومعنًى أنتَ عُمْرَانها
قالَ حجاىَ وهو فى طفحةِ السُّكْرِ منَ الأفراحِ نشوانُها
يجيدُ فيه ضبطُ تاريخِهِ أتَى إلى مكَّةَ سلطانُهَا

ولما كان يوم سابع ذى الحجة من السنة المذكورة: دخل مولانا الشريف أحمد من جهة أسفل مكة وصحبه المحمل الشامى، وجميع عساكر مصر، وجميع عساكر أمير الشامى صالح باشا، وعساكر صاحب جدة أحمد باشا، وعسكر الرتبة القديمة والجديدة، وكان موكبًا عظيما، فحج بالناس على أحسن ما يكون، من الأمن

والدعة والسكون.

وفى رابع عشر ذى الحجة: أمر بشنق سبعة أنفس من السراق.

ثم دخلت سنة ست وتسعين، فى سابع محرم الحرام منها: قطع محمد ولد الحاج أحمد العصائبى المغربى يداه لسرقة بعد أن شفع فيه صاحب جدة إلى مولانا الشريف أحمد، فلم يشفعه إيثارًا لإقامة أحكام الدين، ودفعًا لأذية المسلمين.

وفيها: كثرت الشرور والخصام، والدعاوى بين الأنام، الخواص والعوام، فى الظلامات السابقات فى الأملاك والحقوق والأوقاف، لما رأوا من العدل والإنصاف، واصطبر لضجيجهم والهذا، والتصديع والأذى، حتى أنصف المظلوم من ظالمه، ورد الحق إلى معالمه، كان الله له فى الدارين، وبلغه من كل مأمول ما لا يضبطه الكم والكيف والأين.

وفيها ثانى عشر جمادى منها: قدم الوزير محمد على بن سليم وزير الشريف سعد من بلاد اليمن، وقد خرج من مكة يوم خروج سيده الشريف من منى موسم سنة اثنتين وثمانين وألف، بعد أن رد عقاره الذى بيع فى غيبته، وأخرج واضعى أيديهم عليه بعد أن سبقت دعوى بالوقفية، ووردت شهودها عند قاضى الشرع، فكتب له مولانا الشريف أحمد بكل ذلك، فوصل إلى مكة فى التاريخ المذكور.

وفيها: كانت وفاة العلامة أبى زكريا يحيى ابن الفقيه الصالح محمد النابلى الشاوى المليانى المغربى الجزائرى، شيخنا العلامة، والمحقق الفهامة، إمام المعقول والمنقول، محرر الفروع والأصول. الفحل الذى لا يبارى فى فنون العلوم، والسابق الذى لا يجارى فى مضمار المنطوق والمفهوم. ولد بمدينة مليانة، ونشأ بمدينة الجزائر، وقرأ بها على جماعة، منهم: الشيخ سعيد مفتى الجزائر، والشيخ على بن عبد الواحد الأنصارى، والمحقق محمد بن محمد بهلول السعدى، والشيخ مهدى.

وأخذ عنهم الفقه والحديث، وغيرهما من العلوم، وأجازه شيوخه، وتصدر للإفادة ببلده. وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف قاصدًا الحج وزار قبر النبى ﷺ ورجع إلى القاهرة.

وأخذ عن العلامة سلطان المزاحى، وإمام العصر الشيخ العلامة محمد بن علاء

الدين البابلى، والمحقق مولانا الشيخ على الشبرملسى، وأجازوه بمروياتهم، ثم جلس للتدريس بالجامع الأزهر فدرس فى مختصر خليل، وشرح الألفية للمرادى، وعقائد السنوسى وشروحها، وشرح الجُمَل للخونجى لابن عرفة فى المنطق، ثم رحل إلى الروم، فدخل دمشق وعقد بجامع بنى أمية درسًا، وأخذ عنه جماعة بها وأجازهم، ثم دخل قسطنطينية العظمى، فعظمه مفتى السلطان يحيى المنقارى، والوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحضر تجاه السلطان الأعظم فبحث مع العلماء وعرفوا فضله، ثم عاد إلى مصر، وولى بها تداريس فى مدارس عديدة.

وله مؤلفات منها: حاشيته على «أم البراهين» نحو عشرين كراسًا، وشرح على «التسهيل» لابن مالك، ونظم «لامية فى إعراب الجلالة» جمع فيها أقاويل النحويين، وما لهم من الكلام، وشرحها شرحًا حسنًا.

قلت: قرأت عليه ليالى الموسم آخر حججه متن السنوسية فى علم العقائد فكان فى التقرير دونه السيل الهدّار، والعباب الزاخر التيار، أملى فى وجوه إعراب كلمة التوحيد، أربعمائة وخمسين وجهًا بالتعديد، فسبحان مفيض ما شاء على من شاء.

وله مؤلف فى أصول النحو جعله على أسلوب «الاقتراح» للسيوطى. أتى فيه بكثير من الغرائب النحوية، أجاد فيه وجعله باسم مولانا السلطان الأعظم محمد بن إبراهيم خان، وقرَّظ عليه علماء القسطنطينية، منهم: العلامة المولى يحيى أفندى منقارى زاده. ولقد أشرفنى ولده الشيخ عيسى ابن الشيخ يحيى على ذلك التصنيف، فرأيت على ظهر الكراس الأول منه تقريظ الأفندى المذكور بخطه ونصه: لا يخفى على الناقد البصير، أن هذا التحرير كنسج الحرير، ما نسج على منواله فى هذا العصر فى النحو ناح، لطيف بمطالعته تنشرح الصدور وتتلذذ الأرواح. انتهى.

وكانت له - رحمه الله - قوة فى البحث واستحضار للمسائل الغريبة، وسعة حفظ مفرطة، وبداهة جواب لا يضل صوب الصواب. كانت وفاته - رحمه الله - فى هذه السنة المذكورة بقرية «الطور» قاصدًا مكة فدفن هناك، فاستأذن ولده سيدى عيسى صاحب مصر، فنبش عنه ونقله إلى مصر، ودفنه بالقرافة. ثم مات ولده المذكور فى الفصل الحاصل بمصر فى السنة التى بعدها ودفن هناك أيضًا - رحمه الله رحمة واسعة -.

وفيها يوم الجمعة غرة رجب منها: كانت وفاة مولانا وشيخنا الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البشبيشى الشافعى، شيخ المحققين، وأستاذ المدققين، وبقية الصالحين، وخاتمة العلماء العاملين، وصدور المدرسين. اشتهر صيته فى الأمصار، وشاع فضله فى الأقطار. انتفع به الحاضر والباد، ورحلت إليه الطلبة من أقاصى البلاد، فصار محط رحالهم، ومنتهى آمالهم، لحسن تقريره المسائل على أسهل وجه، وألطف تركيب، وأوجز عبارة حتى تخرج به جمع كثير فى زمن يسير. ولد سنة إحدى وأربعين وألف بـ«بشبيش» قرية من أعمال المحلة، وحفظ بها القرآن على العلامة سلطان المزاحى، ولازمه فى الفقه والحديث والعربية والفرائض، وغيرها من العلوم نحو خمس عشرة سنة، ولازم أيضًا الضياء مولانا الشيخ على الشبرملسى فى العقائد والنحو والأصول حتى تخرج به، وأخذ عن حافظ العصر مولانا محمد البابلى، وعن شافعى زمانه العلامة محمد الشوبرى، والشيخ ياسين الحمصى، والعلامة سرى الدين الحنفى، والشيخ حسين الخفاجى، والشيخ أحمد ابن عمران الفاسى وغيرهم. وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر. واجتمعت عليه الأفاضل، وجلس فى محل تدريس شيخه سلطان المزاحى فلازمه جماعته، ودرس فى العلوم الشرعية والعقلية، وحج إلى بيت الله الحرام فى موسم سنة اثنتين وتسعين، وجاور بمكة ثلاثًا أو أربعًا وتسعين مجتهدًا فى الإفادة والتدريس، ناشرًا در علمه النفيس. ثم عزم موسم سنة أربع وتسعين صحبة الحاج المصرى إلى القاهرة.

وحصل له أواخر السنة المذكورة بمكة توعك فى جسمه ارتحل منها، وهو فى أثر منه، وأقام بمصر إلى أن كانت وفاته فى التاريخ المذكور من السنة المذكورة، أعنى: سنة ست وتسعين ببلده «بشبيش»، رحمه الله رحمة واسعة.

وفى يوم الجمعة سابع عشر شعبان منها: دخل شيخ آل ظفير - سلامة بن مرشد ابن صويت - مكة فى أمان الله، وأمان مولانا الشريف أحمد بن زيد خاصة، والأشراف جميعهم عامة، وألقى السلم ودخل تحت الطاعة، فأمر له الشريف أحمد بمضارب نصبت بالمحصب، وأقام قريبا من شهرين، فذكر مولانا الشريف للأشراف أن ابن صويت جاءكم بأهله وحلته، وقد دخل على، فإن عفوتم فأنتم محل العفو فها هو قد استسلم، فأجابوه بالسماح، وكتبوا خطوطهم بالسماح عن ابن صويت عن

جنايته، وذلك ببركة سيد الجميع مولانا الشريف أحمد نظر الله إليه بعين عنايته.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى منها: برز مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - فى موكب عظيم قاصدًا الشرق ومنه إلى بلاد عنزة، فأقام بالمنحنى ثمانية أيام، وفى يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور بعد شروق الشمس توجه إلى حيث قصد فى دعة الله وكلاءته.

وفى ليلة الإثنين ثالث عشرى ربيع الآخر وقع بيت بحارة الشامية لبعض تجار المغاربة، سقطت سقوفه، فهلك تحته عشرة أنفس ذكور وإناث، منهم الشريفة سلمى بنت السيد عبد الرحمن الشهير بالأسد، وسبب ذلك سقوط جدار لجاره على سطحه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفى سابع عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الديار الرومية، يخبر بأن سليمان مير أخور ولى الوزراة العظمى، ومعه منه إلى مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - فرو عظيم من السمّور بمقلب أخضر، وكان مولانا الشريف بالمبعوث، فتوجه به إليه الرسول، فقابلته العساكر حين وصوله إلى المبعوث، ولبسه مولانا الشريف، وكتب له الجواب ومضى.

وفى ليلة السبت تاسع عشر جمادى الأولى: توفى الخواجا زين العابدين حميدان والد الوزير عثمان فجأة، بات تلك الليلة فأصبح ميتًا، فدفن ضحى اليوم المذكور، رحمه الله تعالى وأسبغ رضوانه عليه ووالى.

وفى يوم الخميس رابع عشرى الشهر المذكور: كان انتقال مولانا السيد محمد بن يعلى بن حمزة كذلك فجأة بالخبت اليمانى، فحمل إلى مكة ودفن بالمعلاة، رحمه الله.

وفى سادس عشرى جمادى الآخرة: سطا على بعض الأتراك عبد له بخنجر فمات بعد خمسة أيام، فقطع الغلام يداه ورجلاه وبرئ وعاش.

وفى يوم الخميس سادس عشر شوال: وصل مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى- إلى مدينة جده ﷺ عائدًا من بلاد عَنَزة، فنزل بالمحل المعروف ببئر ميزان بالقرب منها، وخرج إليه من أهلها القضاة والأعيان، فقال به يومه، ثم وصل منه إلى ضريح سيد الشهداء عم جده - عليهما الصلاة والسلام - فبات به ليلة الجمعة، ثم

ركب منه فدخل المدينة يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، فزار قبر جده، وتملا بأنوار سعده.

وفى يوم الأحد سادس عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الوزير المذكور أيضًا بهدية منها فرو وسيف لمولانا المرحوم الشريف، ووصل معه قفطان لشيخ الحرم النبوى داود أغا من الوزير المذكور أيضًا، فلبسه شيخ الحرم بالمسجد النبوى، واستمر مولانا الشريف بالمدينة الشريفة إلى أن برز منها ثانى ذى القعدة الحرام، ودخل مكة محرمًا بالعمرة ليلة هلال ذى الحجة من السنة المذكورة، فطاف لعمرته وسعى - شكر الله سعيه -، ثم عاد إلى مخيمه بالزاهر على عادة أسلافه الأكرمين، ثم دخل صبيحة ذلك اليوم فى موكب يبهر الناظرين، ويسر البادين والحاضرين.

وفى يوم الأربعاء رابع ذى الحجة من السنة المذكورة: وصل إلى مكة من الأبواب العالية قفطان من السمور الملوكى عاليه صوف أبيض، يصحبه مرسوم سلطانى، ومرقوم خاقانى، يفصح بالثناء على مولانا الشريف، بالنعت الأكرم الأمجد، فألبسه بالحطيم، وقرئ ذلك المنشور الكريم، وكان الواصل به فخر الأغوات العظام، إبراهيم أغا فكان أعظم موكب فى ذلك المقام، وسر به الخاص والعام.

وفى يوم الخميس عشرى ذى الحجة منها: أمر صاحب جدة أحمد باشا بهدم كل خلوة بالمسجد الحرام فهدمت، وما لم يمكن هدمه منها لكونه من بنية المسجد فى نفس جداره أو لكونه فوقه بناء سده ببناء مدعيًا أن لذلك سببًا هو سماعه بحصول فسق فى بعضها، والله أعلم بالحقائق.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين، وكان هلالها بالإثنين، ففى يوم الثلاثاء تاسع محرم الحرام منها كانت واقعة من أحمد باشا المذكور إلى الأفندى عبد الله عتاقى زاده مفتى السادة الحنفية ثار بسببها الخاص والعام، فاستُدعى إلى الحاكم الشرعى، فاعتذر عن الحضور، خشية ما لا يخفى على العاقل من حوادث الأمور. ثم استدعاه مولانا الشريف ليلا لذلك المرام، وقبح عليه فعله، وأوقر سمعه بأليم الكلام، فاعترف بخطئه وخطله، واستعفى طالبًا التجاوز عن زيغه وزلله.

وفيها أواخر المحرم الحرام منها: كان ابتداء عمل الحائط عَلَى المقبرة، ابتدئ،

من أعلى ثنيتى الحجون بجدرين واصلين إلى الطريق بين قبتى الشريف أبى نمى، وولده الشريف حسن منعطفين من ذلك الطريق، أحدهما: صُعُدا يتصل إلى قرب حائط ابن دخان، والآخر: سُفُلا إلى المحل المعروف بالحافظية فصلا بأبواب مرتفعة الأعتاب؛ صونًا للمقبرة عن انتهاك حرمة قبور المسلمين، وعن التلويث والوقيد بنزول الحجاج والمسافرين، وكان هذا الخير مسطرًا فى صحائف الوزير الأعظم سليمان باشا، ومتولى ذلك وزير مكة عثمان ابن الخواجا زين العابدين حميدان، وتلك طرق خير رضى الله عن قاصديها.

هذا مما أحدث فى هذه السنة، نسأله سبحانه اللطف بنا وبالمسلمين فيها وفيما يليها.

وفيها - ليلة الثلاثاء لأربع خلون من ربيع الآخر منها -: كانت وفاة الشيخ الصالح، ذى القدم الراسخ الرابح، العلامة الفهامة الراقى أوج المعزة فى الفضل والكرامة، إمام الطريقة والحقيقة، والمتكلم على معانيهما بالإشارات الدقيقة. شاهد مشاهد أهل العرفان، عاقد عقائد أكاليله التى يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، منور البصر والبصيرة، موصل الحضور بحضرة القصيرة التى عنها يد من سواه قصيرة، مولانا وعزيزنا المرحوم، بسحاب الرضوان المركوم، مولانا الشيخ محمد الشهير بالبخشى الدمشقى - رحمه الله برحمته الواسعة وغفر له مغفرة جامعة - توفى بمكة المشرفة فى التاريخ المذكور، ودفن بالمعلاة أمام قبة السيدة خديجة أم المؤمنين، وقد أناف على الستين.

وفيها يوم الخميس عشرى جمادى الأولى منها: وقع النداء بأمر مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور، ومن وجد بعد ثلاث عوقب بالنكال. فتهيأوا واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة، وقرءوا الفاتحة، ثم توجهوا، البعض إلى المدينة المنورة، والبعض الآخر إلى جدة، والبعض إلى قرية الطائف.

وسبب ذلك على ما قيل: أنه بلغ مولانا الشريف تأتى مفاسد منهم، منها وقوع سرقات من بعضهم، وفشو عمل السحر منهم فى أشرف بلاد الله، فكان ذلك لذلك، والله يتولى السرائر.

وفيها يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب منها: وصل قاصد من ينبع يخبر بورود مستلم محمد بك المعزول به أحمد باشا صاحب جدة. ثم فى ليلة الخميس غرة شعبان منها: وصل المستلم بصورة أمر سلطانى يعزل أحمد باشا هذا صاحب جدة، وشيخ حرم مكة، والطلب الحثيث له بسرعة، وعلى الصورة خط قاضى عسكر مصر، والعدول بولاية السنجق محمد بك مكانه، فصعد هو ونائب الحرم السيد محمد، وقد فوض السنجق النيابة إليه إلى مولانا الشريف المرحوم، فألبسهما مولانا الشريف قفطانين، وأقر منهما الخاطر والعين، ثم نزل فسجله قاضى الشرع، وأرسل مولانا الشريف إلى أحمد باشا يخبره بوصول المستلم وما معه، وأقام المستلم يومه بمكة، وصلى الجمعة ثانيه، ثم توجه إليه إلى جدة المعمورة، فقابله المقابل الحسن، وألبسه قفطانًا، وجعل له حال دخوله موكبًا عظيمًا، ومد له سماطًا.

ثم فى يوم الجمعة تاسع شعبان: وصل أحمد باشا إلى مكة، وتأهب للرحيل، على غاية السرعة والتعجيل، وقاد إليه مولانا المرحوم الشريف أحمد - على طريق الرعاية والمعونة - نحو العشرين من نجائب الركائب الميمونة، وكذلك قاد إليه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته ثنتى عشرة من الركائب، إحداهن مكملة الآلة بالشداد المحلى وما يتبعه.

ثم لما كان يوم الإثنين عاشر الشهر المزبور: توجه خارجًا من ثنية الحجون، فى خيل نحو الثلاثين إذ يُعدّون، مشى معه السيد على بن أحمد بن على، وبعض القواد إلى المأمن.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور: وصل إلى مكة السنجق محمد بك أمير اللواء المتقدم الذكر، فتُلقى بالآلاى والموكب العظيم، فأقام إلى يوم الجمعة مستهل رمضان، وصلى الجمعة، ونزل جدة يومه ذاك.

وفى هذا الشهر: ورد الخبر عن قرية الطائف، بأن قد طاف عليها من الدبى طائف، فظل يتهافت على الأشجار والزروع، وعلا تلك الساحات والربوع، يأكل ما دبَّ عليه ودرج، ويقرئ الناس كتاب الشدة بعد الفرج، وأناف على القمَّل والضفادع، وبذل نفسه لهم فى المآكل والمشارب والمضاجع، وترك الأشجار عارية كأنها محروقة، والأرض من تلك البقول والقطانى مجردة مطروقة.

وفى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة: ورد مبشر يخبر بنصرة سلطان المسلمين، على الكفرة أعداء الدين، وأنه قد قتل، وأسر منهم ما ينيف على سبعين ألفًا، واسترد بعض ما استولوا عليه من البلاد، والحمد لله على حصول المراد، وأن القاصد السلطانى واصل عقبه وهو بالشام، والله المؤيد لملة الإسلام.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف كان هلال محرمها بالجمعة، فيها يوم الإثنين حادى عشر محرمها: تقلد منصب الوزارة المكية رفيع المحل والشان، حضرة يوسف أغاسنان، وانفصل عنه الخواجا عثمان بن زين العابدين حميدان.

وفيها يوم الأحد تاسع صفر منها: كان ابتداء فتنة بين مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، ومولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، لأمر جار على القواعد نقمه عليه لم تطب به نفسه طلب منه نقضه فامتنع، فخرج مولانا الشريف متع الله بحياته ليلة الثلاثاء حادى عشر الشهر المذكور إلى محله المعروف بالركانى من وادى مر، وانحاز إليه جمهور السادة الأشراف على مثل رأيه، وأعطوه مواثيقهم أن العصا واحدة، ولم يرجع عنه منهم إلا اثنان، وأخذ أجلة خمسين يومًا ثم عشرة، ثم رحل هو ومن معه قبل تمامها أواسط ربيع الأول فتوجهوا مع سلامة الله وكلاءته إلى جهة مصر. ثم فى يوم سابع عشر الشهر المذكور سير مولانا المرحوم الشريف أحمد خلفهم من العسكر مائتين وخمسين اتِّفَاقًا، ثم فى يوم الإثنين ثانى عشرى الشهر أتبعهم بالسيد باز بن هاشم فى عشرة من بنى أبيه، وبالسيد ناصر فى عشرة من ذوى جود الله، وبالسيد عبد المحسن فى عشرة من ذوى باز.

وفى اليوم الثامن من ربيع الآخر: برزت رتبة من العسكر إلى بلاد الفرع.

وفيها ليلة الخميس غرة جمادى الأولى منها: اتفق بمكة اجتماع نساء ليلا لفرح بمحل قرية عشاش بطرف شعب عامر، فشبت نار ضعيفة فى بعضها، فأطفئت فى الحال بقليل ماء، ثم صرخت حرمة كأنها بنت إبليس: النار، يا نساء، فركب بعضهن بعضًا، وازدحمن على الخروج مستبقات الباب، وقد أغلق خوفًا على متاعهن من النهب فتحايلن عليه فسقط فابتدرن الخروج، وكان فى عتبة الباب ارتفاع فوقع بعضهن على بعض فمات أربع منهن فى الحال، وتكسر نحو خمس وعشرين،

وبعضهن أخذه الخبل من الروعة، فما شاء الله كان.

وفيها - فى الساعة الثالثة من يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر المذكور -: انتقل إلى رحمة مولاه الكريم مولانا وسيدنا سلطان الحرمين الشريفين، حامى حمى المحلين المنيفين، سلالة السادة القادة، الحال منهم محل اليتيمة من القلادة، مولانا وسيدنا المرحوم الشريف أحمد ابن المرحوم الشريف زيد تغمده الله برحمته ورضوانه، وأحله أعلى فراديس جنانه. وتولى غسله السيد محمد النعمى، وأعانه مولانا السيد ثقبةبن قتادة، ومولانا السيد محمد بن حمود، والشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حنيف الدين المرشدى، ويوسف الملقب شيخ القراء، ومن لابد من الأتباع، وصلى عليه بعد صلاة العصر يومه بعد فتح الكعبة الشريفة، ودعاء الريس له وترحمه عليه بأعلى قبة زمزم - مولانا الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد النخلى، ودفن على والده المرحوم الشريف زيد بقبة الشريف أبى طالب، رحمهم الله تعالى برحمته، وأسكنهم فسيح جنته.

كانت مدة ولايته باعتبار توليته بالأبواب العالية ثلاث سنوات، وسبعة أشهر، وتسعة عشر يومًا، وباعتبار ورود الخبر إلى مكة وجلوس ابن أخيه السيد مساعد قائمًا عنه ثلاث سنوات، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يومًا، رحمه الله تعالى.

ومما قيل فيه من الشعر: قول صاحبنا الفاضل الشيخ سالم بن أحمد بن إدريس اليمنى الصعدى: [من الكامل]

سمَحَ الزمانُ لنا بملكِ بنى حَسَنْ ... فلذا شهدْنَا أنه زمَنٌ حَسَنْ
لله مِنْ زمنٍ صفَتْ أوقاتُهُ ... بدوام دولةِ مَنْ له العليا شجَنْ
ألمالكُ الملكُ المؤيَّدُ أحمدُ بْـ ... ـنُ المنتقَى زيد المليك المؤتمَنْ
رأسُ الملوكِ يمينُهُمْ زندُ الرعِّية كهفُهُمْ يومَ المخاوفِ والمحنْ
ملكٌ أقام السعْد يخدمُهُ على ... رَغْم الحسودِ أخى الضغائِنِ والإحَنْ
ملكٌ له العزُّ المخلدُ لم يزلْ ... عبدًا يحفُّ ركابه طولَ الزمَنْ
ملكٌ غدا المجدُ الأثِيلُ ألِيَّةً ... نعلًا لأخمصه المصانةِ عَنْ دَرَنْ
ملكٌ له الفخْرُ المؤبَّدُ قد غدا ... من جملةِ الأنصارِ والجُنْدِ العَوَنْ
ملكٌ تتوَّجَ بالسيادةِ والعلا ... وتدرَّعَ الفضلَ الذى لم يمتهَنْ

ملكٌ له فى الجودِ شهرةُ حاتمٍ وسماحَةُ الغيثِ الملثُّ إذا هَتَنْ
ملكٌ إذا نزلَ الفقيرُ بسوحِهِ أنساه تذكارَ الأقاربِ والوطَنْ
ملكٌ إذا أَمَّ الفقيرُ نوالَهُ أضحَى يطوِّقه أعاجيب المِنَنْ
ملكٌ له يومَ العطاءِ طلاقةُ الـ ـوجهِ الذى ماءُ الحياءِ به قطَنْ
ملكٌ له الخلُقُ الوسيمُ كذا له الـ خُلُقُ العظيمُ كذا له الفعْلُ الحسَنْ
مِنْ آل طه والبتولِ وحَيْدَرٍ مِنْ نخبةِ الأشرافِ أبناءِ الحسَنْ
مِنْ سادةٍ أضحَى حديثُ علاهم تالله يَطْوِى نشره عنا الحَزَنْ
مِن قادةٍ قطعوا ببيضِ سيوفِهِمْ تلكَ المواضى دَابِرَ القومِ الخوَنْ
مِن عُصبةٍ ساروا على سَنَن الهدى قدمًا فيا نُعْما بذَيَّاكَ السنَنْ
مِن فتيةٍ شُمِّ الأنوفِ القائميـ ـن بحَملِ أعباءِ الفرائضِ والسنَنْ
وسليل زيدِ الملك هذا المرتضَى هو خيرُهُمْ نفسًا وأزكاهُمْ هدنْ
هذا الذى ملأ البِقَاعَ أمانُهُ فأراع جيْشَ الخوفِ بعد أن اطمأَنّ
حتى رَعَى ذئبُ الفلاةِ مع الظبا وتكحَّلَ الجفنُ المسهدُ بالوسَنْ
هذا الذى طافَتْ مكارمُهُ بأر ضِ الصينِ بالروم المعمرِ باليمنْ
هذا الذى سارَتْ عوارفُهُ من الـ ـبلدِ الحرامِ إلى العراقِ إلى عَدَنْ
وإلى مآثِرِ طيبةَ الغرَّا إلى أرضِ الحجاز إلى الخبوتِ إلى قرَنْ
هذا الذى بكمالِ وافرِ عدلِهِ خمدَتْ لظَى نارِ المظالمِ والفتنْ
صعبُ العزائمِ من فرى بصفاحِهِ ورماحه مَنْ شا ومَنْ شَا قد طَعَنْ
ثبتُ الجنانِ إذا التقى الصفَّانِ أثـ ـبت من كسا جُنن البسالة والمننْ
طلْقُ اللسانِ إذا أشار إلى البيا نِ أجَلُّ مَنْ وهب الفصاحَةَ والفطَنْ
يابن الكرام الأقدمينَ ومَنْ لهم غُرَرُ المعالِى لم تزلْ أبدًا خدَنْ
يأيها الملكُ الذى حَمِدَ الورَى أفعالَهُ اللاتى بها الخيرُ اقترَنْ
خُذْهَا قصيدةَ مخلصٍ فى ودِّهِ لكَ فى حميدِ السرِّ منه وفى العلَنْ
غَرّاء هذَّبَها الذكاءُ وصاغَهَا الـ ـفكْرُ الذى هو بالمتاعِبِ فى وَهَنْ
هذا ولولا صحبَةُ الصبرِ الجميـ ـلِ لفارَقَ الأهلِينَ واصطَحَبَ الظعَنْ
فأَجِزْ منضِّدَهَا اللجين فإنه رجلٌ عليه الدهْرُ بالدينارِ ضَنّ

واسلَم ودُمْ طولَ الزمانِ مكرمًا ما غرَّدَ القمرىُ الطروبُ على فَنَنْ
وغدَتْ جميعُ الخلقِ تنشدُ فرحةً « سَمَحَ الزمانُ لنا بملكِ بنى حَسَنْ »

وقولى رثاء فيه وتأريخًا لوفاته مخاطبًا نجله السعيد عبد المحسن [من مخلَّع البسيط]:

فاجأنا دهْرُنا المفاجِى سطا علينا بطُولِ أَيْدِى
طاشَ حجانا لما دهانا بمَنْ حجانا صُرُوف كَيْدِ
وَهَى عمادُ الوجودِ خرَّتْ سماه وانهارَ كلُّ حَيْدِ
هدَّتْ رواسى ذُرَى المعالِى دُكَّتْ شناخيبُ كل طَوْدِ
لموتِ سلطانِنا المرجَّى أبى سليمانَ زَيْن أَيْدِى
ألملكُ النائفُ المراقى وشائدُ العزِّ أيَّ شَيْدِ
حامى حِمَى الملكِ بالعوالِي وتاركُ الصِّيدِ شِبْهَ صَيْدِ
أكرمُ مَنْ نحوه المطايا تُزجى بها دلّها وهَيْدِ
قِيدَتْ إليه الأمورُ طوعًا يرسفُ فى غُلِّهَا بقَيْدِ
قرتْ عيونٌ جفَتْ كراها به كذا الأرضُ بعد مَيْدِ
شبَّ فؤادٌ به فلمَّا أودَى به اعتاضَ شيْبَ فَوْدِ
ناحَتْ عليه بكلِّ صوتٍ مكَّةُ من ناشئٍ وعَوْدِ
فأعظَمَ الله فيه أجرَ الـ جميعِ خُصِّصْتَ فضْلَ زَوْدِ
ألهمَكَ الصبْرَ فى رضاهُ روَّى ثراه سحابُ جودِ
أسكنَهُ منزلاً رفيعًا فى جنَّةِ الخلدِ خَيْر فَيْدِ
دونَكَ بشرَى بفالِ خيرِ تاريخ عامٍ بضبط جَيْدِ
دَار نعيم حَبَى كريم قَرَّ بها أحْمدُ بْنُ زَيْدِ

ثم وليها الشريف سعيد ابن الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن ابن حسين بن حسن، وذلك أنه لما توفى مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد - تغمده الله بالرحمة - قبل الشروع فى تجهيزه، أرسل مولانا الشريف سعيد - حفظه الله تعالى - إلى أفندى الشرع الشريف يطلب منه قفطانًا، وقد حضرت السادة الفقهاء، وكبار العساكر عند الأفندى، فقال مولانا الأفندى: لا بأس أن تصبروا

وتمهلوا نحو خمسة أيام نرسل لأكابر الأشراف، ونرى من يختارونه فيكون هو، فامتنع أغاة الينكشارية، وقال: أنا لا أريد مصلحة، لا أريد إلا صلاح البلاد، وإذا لم يتول هذا الرجل تلفت البلاد، فتأثر الأفندى من كلامه، وفهم تعريضه به، فاعتذر الأغا إلى الأفندى فى الحال، فأعطاه الأفندى القفطان على أن يلبسه الشريف قائم مقام إلى أن يرسلوا إلى الأبواب العلية، ويعرّفوا بالحال، فأتوا بالقفطان إلى الشريف سعيد، وقالوا له ما قاله الأفندى، فقال: لا ألبسه إلا استقلالا، أنا ابن سعد بن زيد، فلبسه وأطلق مناديه بالبلاد، ومعه السيد عدنان بن حسن، والسيد محمد بن سرور وغيرهما.

ثم أمر بالزينة ثلاثة أيام، ثم أمر بزينة يومين ثم يومين، إلى أن كملت اثنى عشر يومًا.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور شهر جمادى الأولى: وصل مورق من ينبع من السيد عبد المحسن يخبر والده - على ظن حياته - بوصول قابجى يسمى أحمد أغا صحبته مرسوم شريف سلطانى، وقفطان وسيف مرهف باسم والده مولانا الشريف أحمد، وقفطان لسنجق جده الأمير محمد بك، فكان وصول مورقه فى اليوم المذكور بعد وفاة والده بأربعة أيام.

وفيها ليلة الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة: وصل السيد محمد - مير أخور المرحوم الشريف أحمد الذى كان قد أرسله إلى الأبواب - تقدم عن القابجى بيومين.

ثم فى سادس الشهر المذكور: دخلت القفاطين السلطانية، واجتمعت السادة والأعيان والكبار على العادة فى الحطيم، ولبس القفطان الشريف سعيد، وتمنطق بالصارم المجوهر نصابه من حجر اليشم المفتخر، وقرئ المرسوم السلطانى المتوج بالاسم الشريف السليمانى بعد أن حول خطابه إلى اسم الشريف سعيد بن سعد فيه التصريح بأن ابتداء جلوس مولانا السلطان سليمان على تخت السلطنة كان يوم السبت ثانى محرم الحرام من السنة المذكورة، أعنى: سنة تسع وتسعين وألف.

ثم نودى بالزينة سبعة أيام، ثم بعد مدة يسيرة نزل القابجى المذكور إلى جدة بالقفطان السلطانى إلى حضرة السنجق المكرم أمير اللواء الأمير محمد بك، فألبسه القفطان الذى هو له، وقابله من الإكرام بما كان أهله، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها ليلة الخميس رابع عشر الشهر المذكور - أعنى: جمادى الآخرة -: دخل مكة السيد عبد المحسن، وابن عمه السيد مساعد، وغالب الذين كانوا معهما.

وفى سابع عشره خرج على سبعة عشر أصحاب ركائب زوّار قصدوا طريق زقاقة بعد ركوبهم من المنزل المسمى مستورة بساعة خمس مردفات معهم خمس من البندق رموهم بهن، فأخذوهم ما عدا ثلاثة أنفس فروا راجعين إلى مستورة، فخرجت عليهم أربع مردفات كانت كامنة، فأخذوهم فرجع الجميع إلى مستورة، فى حالة ليست بمستورة، ولله الأمر لا راد لما أراد.

وفى تاسع عشر الشهر المذكور: كانت بالمدينة واقعة السيد محمد البرزنجى مع السيد محمود الكرديين، ادَّعى على السيد محمد ضربُ السيد محمود، فدعاه الحاكم الشرعى أولا وثانيًا، ثم أتاه قهرًا على ما سمع، واجتمعت العساكر من العامة لسماع الدعوى، فأنكر السيد محمد الفعل، ووقع بينه وبين الأفندى حال الله أعلم بحقيقته آل الأمر فيه إلى حبسه بأسفل القلة الكبيرة رأس القلعة. وسيأتى ذكر تسحُّبه وخلوصه من ذلك المحل إن شاء الله تعالى.

وفى يوم الجمعة ثانى عشر الشهر المذكور: كان بروز الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى صحبة العرض إلى الأبواب العالية فى شأن تولية الشريف سعيد بن سعد مكة، وطلب التأييد بالأمر السلطانى، فعيق عن قصده قبل مجاوزته المحل المسمى بالمويلح، وأصبح عذبه الفرات مويلح.

وفى ليلة الأحد حادى عشرى شعبان: وصلت ثلاثة نجاب من بنى صخر من صالح باشا صحبتهم مكاتيب من مولانا الشريف سعد تعزية لابنه الشريف سعيد وتهنئة. هكذا أشيع، والله أعلم بالحقائق.

وفى ليلة الثلاثاء غرة رمضان: وصل الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى بحرا إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلها عشاء الليلة المذكورة، وقصد إلى بيت الوزير يوسف السقطى - وكان الشريف سعيد إذ ذاك عنده - فأخبره بما وقع له فى سفرته.

هذا وأما الخبر عن مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فإنه لما سار هو ومن معه من السادة والأتباع فى شهر ربيع الأول مضى إلى أن انتهى به السير إلى محل

يسمى بحرا بين المحل المسمى بالأزلم، والمحل المسمى كفاف منزلتى الحاج المصرى فأقام به، ووصل إليه به سابع عشر جمادى الأولى القابجى أحمد أغا صاحب القفطان المتقدم ذكره، فقابله مولانا الشريف متع الله بحياته بغاية الإكرام، ونهاية الإجلال والإعظام. كما هو شأن طبعه الشريف، ودأب خيمه الزكى المنيف، وأقام عنده يومين، ثم رحل بما أرسل به لمن أرسل إليه.

ثم إن مولانا الشريف - متع الله بحياته - أرسل مولانا السيد شبير ابن السيد مبارك معه السيد درّاج الهجالى فى جماعة من الأتباع إلى محافظ مصر حسن باشا بلغه الله من الخيرات ما شاء بعرض يتضمن ما أراده.

وكان رحيل السيد شبير ومن معه يوم الخميس ثانى عشرى الشهر المزبور، أعنى جمادى الأولى، وهو اليوم الذى توفى فيه المرحوم الشريف أحمد، فدخلوا مصر، وأوصلوه العرض.

ولما كان يوم سابع عشر جمادى الآخرة: وصل إلى مصر خبر وفاة المرحوم الشريف أحمد، فحينئذ أخرج لهم أمرا وقفطانًا باسم مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وسيَّره مع كيخيته، وضم إليه أغوات البُلكات من كل بلك جوربجى.

فخرجوا من مصر ثانى عشرى شعبان المعظم.

ثم أعرض إلى الأبواب العالية لمولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - بالسير الشديد على خيل البريد لتأييده بالأمر السلطانى والقفطان الخاقانى.

ثم إن السيد شبير بعد خروجه من مصر أرسل إلى مولانا الشريف متع الله بحياته: إنا واصلون إليكم عن قريب صحبة القفطان، ومن معه، فأقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - هو والسادة الأشراف، وخدامهم وأتباعهم إلى الينبع، فأقام بها أيامًا، ثم منها إلى قرية بدر، وكان دخوله إليها خامس عشرى شهر شعبان المعظم فأقام بها.

ثم لما كان يوم الجمعة ثامن عشر رمضان: وصل إليه القفطان، ومن معه من الأغوات، فألبسه بمسجد الغمامة منها، وهو الموضع الذى بنى فيه العريش للنبى ﷺ فقعد فيه يوم وقعة بدر المشهورة؛ كما ذكره المؤرخون الأقدمون، ثم ساروا جميعًا مقبلين إلى مكة - زادها الله شرفًا - وقد كان جاء يوم الإثنين رابع عشر

رمضان المذكور مورق إلى مكة من حضرة السنجق محمد بك صحبة مكتوب إلى حضرة الأفندى، وأكابر عساكر مصر مضمونه: أنه قد جاءنى صورة أمر من باشا مصر بولاية الشريف أحمد بن غالب، وأن يبرزوا لمقابلة القفطان ومن معه، فلما وصل ذلك المكتوب طلعوا إلى الشريف سعيد، وأخبروه بما فيه، وكان الشريف سعيد قد سمع بأن قد نودى باسم الشريف أحمد فى جدة، فأجابهم بقوله إن كان بيد السيد أحمد بن غالب أو السنجق أمر سلطانى، فليأتوا به ونحن مطيعون للأمر السلطانى، وإن كان غير سلطانى فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل فيه ويولى من شاء، وما دون مكة إلا السيف، فقال له الأفندى عند ذلك: يا مولانا هذا وزير مصر يعزل ويولى، فكذبه صريحًا وقال: يعزل ويولى لمثلك، ثم قال لكبار العساكر: أنا لا أمنع من يريد الخروج، ولكن اعلموا أن أول خارج أول من أضع فيه السيف، وإلا فالزموا بيوتكم لا معنا ولا علينا.

ثم سطر كتابًا للسنجق قال له فيه.

مثل قوله الأول: إن كان معك أمر سلطانى فأقبل أنت ومن معك، وإلا فارجع من حيث جئت، فوصل الكتاب إلى السنجق، وهو بالمحل المسمى بحرة من طريق جدة، فأعاد السنجق الجواب: لابد من الدخول، فلما سمع الشريف سعيد هذا الجواب أمر عساكره بصعود المنائر، وشحنت بيوت أعلى مكة وأسفلها بالعسكر، وانتقبوا فى جدرها متارس حصار، وأرسل بنحو خمسين خيالا وعشرين دبابًا عليهم السيد حسن بن عبد الكريم بن حسن بن على بن باز، وقال: أينما لقيتموه فردوه فإن رجع، وإلا فكذا وكذا، فخرجوا بعد صلاة العشاء حتى واجهوا مخيمه مقبلا على أدنى محل إلى مكة فردوهم، ثم ساروا هنيهة حتى لاقوه، فتقدم إليه السيد حسن المذكور، وقال: يا سنجق يقول لك الشريف ارجع وإلا كذا فى هذا المكان، من حذّر فقد أنذر.

ثم قال لمن فى صحبة السنجق من الأشراف وهم السيد محمد ابن السيد مساعد، والسيد عبد الله بن أحمد الحارث، والسيد صالح بن السيد مساعد: يقول لكم الشريف: ما لكم دخول ديرتى ارجعوا من حيث جئتم، فرجعوا، ثم رجع السيد حسن فوجد مورّقًا من الأفندى، وكبار العسكر إلى السنحق يعتذرون عن الخروج

إلى ملاقاته، ويأمرونه بالدخول ليلا هو ومن معه إلى مدرسة الأفندى ليكون أمرا بُيّت بليل، فازداد بهم ريبًا إلى ريب هكذا أشيع فى البلاد، وكذا أشيع ليلة الإثنين حادى عشرى رمضان أن بعض عسكر رتبة الفرع مقبل إلى مكة لغرض له وجد مكتوبًا مع مورق أرسله محمد أغا البغدادى إلى مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فأوصله إلى الشريف سعيد فقرأه ودعا البغدادى بعد صلاة التراويح، ووبخه فقال: ما وقع منى شىء من هذا، وحلف بحياته أنه ما كاتب، فأظهر له الشريف ذلك المكتوب، ثم أمر به فضم وزنجر، واستدعى بعبده فأخذ من الحجر المطهر، فأمر بضمه مع سيده فرمى برأسيهما من ليلتهما بأقصى أجياد أبى القاسم، وكسرت أبواب بيوته، وأخذ جميع ما فيها، وكان شيئًا كثيرًا من أنواع كثيرة بعد أن حاصر فيها بالبندق أربعة من عبيده رأسهم عبد حبشى، يقال له: شاهين نحو المائتين من عبد وعسكرى إلى تذكير الصبح، وكمن شاهين خلف الباب، فلما كسر ودُخل عليه طعن أول داخل فقتله، ثم قتلته العسكر عند باب الشريف، وحمل قتيلا وألقى فى الواسعة، ولكل أجل كتاب.

ثم إن حضرة السنجق محمد بك استقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - ومن معه من السادة الأشراف، والأغوات بالآلاى والنوبة عند انفصالهم من أدنى ملاوى وادى مر، فواجههم وحياهم ثم دخلوه معًا جميعًا، ثم ورد عليهم به مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد بن شنبر بن حسن، فركب إليه مولانا الشريف - متع الله بحياته - وتلقاه من بُعد، واعتنقا بخالص الصُّدقة والودّ، وأتاه من العَنْلة فى قريب من خمسين عنان، كان الله له حيث كان.

وفى ليلة الثلاثاء تاسع عشرى رمضان المزبور: وصل الخبر أن مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - نزل بوادى مر هو والسادة الأشراف والسنجق، ومن معهم فأمر الشريف سعيد حينئذ الفعلة ببناء متارس عديدة على رءوس جبال الزاهر، ومضايق ثنيتى كداء وكدى ورتب فيها العساكر وفى غالب الأماكن المطلة على المنافذ.

وبرز فى تلك الليلة السيد مساعد ابن الشريف سعد فى عشرة من السادة الأشراف، وبعض خيالة ونحو ستين بواردیًا وبمدفعين اثنين سحبا بأكتاف الرجال

لإعواز أقتاب الجمال وبات تلك الليلة بالزاهر.

وفى ليلة الخميس مستهل شوال ليلة العيد: ورد الخبر بوصول مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - إلى النوارية محل على نصف المسافة من وادى مر، وأشيع أن قصده الدخول وذكر اسمه فى خطبة العيد على منبر الحرم الشريف، فأرسل مولانا الشريف سعيد مولانا السيد باز بن هاشم، والسيد واصل بن أحمد إلى مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - يطلب إرسال الأمر الذى وصل إليه ليشرف عليه، فلما وصلا إليه لهذا الغرض غضب السنجق محمد بك المذكور، ومن معه من الأغوات، وشرابجية البلكات، وقال: ليس الأمر ملعبة وحصل بينهم كلام.

فقال مولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر: يا أمير نحن رفاقة نصطلح ثم أخذ السيدين المذكورين، وتكلم معهما بكلام لم تبلغنا حقيقته الله أعلم بها، فرجعا إلى الشريف سعيد فأخبراه، فعزم حينئذ على إخلاء مكة، والخروج منها، وأمر العساكر بمفارقة المتارس، والدور التى كانوا بها، وخرج نصف الليل من ليلة الجمعة ثانى شوال، وخرج معه أخوه السيد مساعد وابن عمه السيد عبد المحسن وغيرهما، وعبيدهما وأتباعهما توجهوا إلى قرية الطائف، ثم طلب بعد ذلك من مولانا الشريف إقامة مدة شهرين بها فأعطيها، وفى حال خروجهم دخل مولانا السيد حسن بن غالب فى جماعة من الأشراف والأتباع لحفظ البلاد عن الشغُور، ولله عاقبة الأمور.

وكانت مدة ولايته أربعة أشهر، وعشرة أيام من غير زيادة ولا نقص، يجمعها حروف قولك: كل له مدا.

ومما قيل فيه من الشعر قولى، وقدمتها له يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وألف [من الطويل]:

سقَى معهدًا بين الأثيلِ وناجمِ ... سحوحُ العهاد الغادياتِ السواجِمِ
دريسًا عفَتهُ الهوجُ مذ بَرِحَ النوَى ... بأهليه تكسُوهُ سمال السمائمِ
نظرْتُ إلى أطلالِهِنَّ ونؤيها ... مثلَّمة فى جنْبِ سُفْعٍ جواثمِ
كأنَّ الأثافى السودَ كبدى قطعْنَهَا ... ظُبى البَيْنِ أثلاثًا كتقسيمِ قاسمِ
فدرَّتْ بمرآها شئون مدامِعِى ... وظَلْتُ وإياها كَبَوٌ ورائمِ
كأنْ لم تكنْ للغيد مأوًى ولم تقمْ ... على دوحِهِ ألحانُ وُرْقِ الحمائمِ

بلَى قَدْ عهدناه كذَاكَ فصوَّحَتْ نضارتَهُ طوحُ الزمان المتاخِمِ
معاهدُ لمياءُ البديدِ تجرُّ في ثراها ذيولاً عاطراتِ النسائمِ
تميلُ كما مالتْ غصونُ رياضها بنشآتِ خمرات الصبا لا المآثِمِ
على غُرَّةٍ كالشمسِ من تحتِ طُرَّةٍ تزينُ الضيا منها بأسوَدَ فاحمِ
ومُقلة أدماء الجَوَازى مطفل أريعَتْ بقَنَّاسٍ من انمار ساغمِ
جَرَى فوقها قوسٌ من النونِ موترٌ نبال رنا رِيشَتْ بأهدابِ رَائِمِ
لها سلكُ دُرٍّ قفل فيروزج الوشا م دَارَ به فى نصْفِ دورةِ خاتمِ
به الشهْدُ ممزوجًا بصهباءَ خامرَتْ مع الصبْحِ مسكًا مستطابَ المناسمِ
ومهضوم كَشحٍ مخمص الغور رقَّةً بعقد بريم فيه حُلَّتْ برائمى
لها الجِسْمُ لَما حلَّه صَخْرُ قلبها كذاك أتانُ الضَّحْلِ أقسى الصلادمِ
براها إلهُ العرشِ عُقْلةَ عاقلٍ وفتنةَ نسّيك وزلة عالمِ
إذا وعَدَت ألوَتْ وإن أوعَدتْ وفَتْ وكم أشمتَتْ إذ خفتُ إشمات لائمِ
شُهِرتُ بحبيها فصرتُ كأننى كبيتِ قريضٍ من مديحِ ابن هاشمِ
سعيدُ بنُ سعدِ إبْن زيدِ بنِ محسنٍ خلاصة خيرِ الخيرِ من وُلْدِ آدمِ
شريفٌ له من قبضةِ النورِ جوهرٌ تكوّن شخصًا من عليٍّ وفاطمِ
مليكُ بلادِ الله وابْنُ ملوكها وحامى حماها قَبْلَ نوطِ التمائمِ
له منطقٌ ماء النهَى منه صيِّبٌ ورأىٌ مصيبٌ فى عظيمِ العظائمِ
أعز حمى مَنْ لاذَ منه بذمَّةٍ ومَنْ قرَّبته منه أدنى الملازمِ
محاسنُ ساداتٍ مضوا فيه جمَّعَتْ كجمعِ الغديرِ القطرَ غبَّ الغمائمِ
فمن خلقه لم تلق أحسنَ مظهرًا سوَى مضمرٍ من خُلْقِهِ والعزائمِ
بنَتْ فى مراقى الغرِّ آباؤُهُ العلا له بَيْتَ مجدٍ فى رفيع الدعائمِ
فلم يرضَ حتى شادَ مثلهم ومَنْ يشابِهْ أباه فى العلا غَيْرُ ظالمِ
فهنيتَ ملكًا لم تزلْ يا سعيدَهُ مساعد سعدٍ فى جميعِ المآزمِ
رزئت عظيمًا إذ حبيتَ عظيمة كذلكَ حالُ الدهرِ بين العوالمِ
دهانا ببؤسى لا يقاومُهَا الأسَى تقارنُ نُعْمَى ما لها من مقاومِ
ذوى زيد الأمجاد لا فُضَّ جمعُكم وعنكُمْ نبا بابُ الزمانِ المغاشمِ

لكُمْ أنفسٌ ملكيةٌ تحتَ نبضها قلوبُ أسودٍ فى شخوصِ أوادمِ
إذا سيدٌ منكم خلا قامَ سيِّدٌ نهوضٌ بأعباءِ العلا والمكارمِ
عليكَ كَشفْنَا وجْهَ عذراءَ لو عَدَتْ علاكَ لصينَتْ عن مُلَامسِ لائمِ
من الخفراتِ اللائى كنْتَ عظلتَهَا وآليْتَ أقسامًا بحنْث ملازمِ
ولكنْ لودٌ من أبيكَ اعتقدتَّهُ ومن قَبْلُ من زيد جرى بالمراحمِ
لذاكَ رأيْتَ الخيرَ تكفيرَ حِنْثها وأَنَّ تمادى التركِ إحدى الجرائمِ
وما مَطْلَبى فيها الإجازَةُ إنما قبولُكَهَا والله أقصَى عزائمى
بقيتَ ولا أبقى الردَى لكَ حاسدًا فسعدُكَ فى حالاتِهِ جِدُّ قائمِ

وقال الأديب الشيخ سالم بن أحمد الصعدى المكى الشافعى [من الطويل]:

ورثْتَ كَلَاكَ الله مرتَبَةَ المُلْكِ فها هِىَ فى كفَّيْكَ ثابتَة الملْكِ
توارَثْتَهَا عنْ عمكَ الأشرفِ الذى تمسَّكَ طفلاً بالعُلاَ أيّما مَسْكِ
كذاكَ عن الأجدادِ أكرم سادةٍ رقوا رتبًا للمجْدِ عالية السمكِ
ولا غَرْوَ مهما كنْتَ يا سبْطَ سعدهم وريثًا لهم فى العلْمِ والحلمِ والنسكِ
وقد جاء يسعى الملكُ نحوَكَ مسرعًا يجرُّ ذيولَ التيه والعُجْبِ والزمكِ
وقلَّدَكَ الأحكامَ فى الناسِ كلِّهم وعَامَلَ كلًّا من ذوى الحُكْم بالتركِ
فأصبحْتَ فيه خاليًا عن مشاركٍ لأنَّكَ قد أحللْتَ عنه عرى الشركِ
فيا نجلَ مَنْ أعطى الخلافَةَ حقَّها فأصبَحَ مِنْ جيشِ السعادةِ فى حشْكِ
ليهنِكَ هذا المنصبُ الشامخُ الذى أمنْتَ به كلّ الرعايا مِنَ الضنكِ
فعادوا كما كانُوا مِنَ الأمْنِ بعدما أريعُوا بفقدانِ الفتَى ماضِى الفتكِ
إلى أن غدا كُلٌّ يقولُ تأسفًا وحزنًا لندمانَىْ جذيم قفا نبكِ
ولولاكَ مَعْ حكم القضاءِ وأمرِهِ مِنَ الله لم تحقنْ دماهُمْ عن السفكِ
فها هُمْ بأمنٍ منكَ أذهَبَ عنهُمُ مخاوفَ ذكراها يعدُّ من الإفْكِ
وما الخوفُ إلا بين أفئدةِ الورَى ثوى منك حتَّى مسَّها نصب النهكِ
وذلكَ لما أنْ تسنَّمْتَ تختَه بعزْمٍ غدَتْ منه القساورُ فى رَبْكِ
ألسْتَ الذى إنْ جُلْتَ والنقعُ ثائرٌ ومبيضٌ جوّ الأفقِ فى شدة الحلكِ
تظلُّ صناديدُ الرجالِ نواكسًا إلى أن يذوقوا أكؤس الحين والهُلْكِ

وَكُلُّ حديدِ القلبِ ثبتٍ مجرّبٍ صبورٍ على ضربِ القواضبِ والصَّكِّ
يهابُكَ مذ يلقاكَ فى حومةِ الوغى ويقفى ومنه القلْبُ مضطربٌ مُنْكِى
فلو أنَّكَ صادمْتَ الرواسِى لخلْتَهَا وحَقَّكَ إجلالاً لقدرِكَ فى دَكِّ
وأمَّا السخا يابْنَ السخىّ فإنه سجيتُكَ الغراءُ من غيرِ ما شَكِّ
لهذا شذا عَرْف الثنا عنْكَ مثل ما شذا عَرْف طيبِ العنبرِ الرَّطْبِ والمسكِ
وشاعَ حديثُ الفضلِ عنك مسلسلاً لدى العَرَبِ العرباءِ والفُرْسِ والتُّرْكِ
فيا بَدْرَ ملكٍ جلَّ فى فلكِ العلا ويا بَحْرِ جُودٍ كَمْ سَعَتْ فيه من فُلْكِ
ويأيها الشَّهْمُ السعيدُ ابْن سَعْدنا ويا مَنْ به قد فاء فى الحَرَمِ المكى
إليكَ من البحْرِ الطويلِ قصيدةً بعيدُ مداها لِى تدانَى على وَشْكِ
تهنِّيكَ بالملكِ الذى قد ورثْتَهُ عن البطلِ الشطْبِ الخبنْضمة الملكِ
مليكُ الندَى مردِى العدى طالما غدا يردُّ إلى الشاكى الحقوقَ من المشْكِى
فما زالَتِ الأيامُ تتلو تهانيًا عليكَ وبشرًا دائمًا غيرَ منفكِّ
كما ظَلَّ ثغرُ الدهْرِ من جذلٍ بما حُبيتَ من السعْدِ المتمّم فى ضحْكِ
فدُمْ رافلاً فى ملبسِ العزِّ لا يُرَى لكَ اليومَ فى أحكامِكَ الغُرِّ من يحكى

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن المرحوم السيد غالب ابن السيد محمد بن مساعد بن مسعود بن حسن، دخلها من أعلاها صبيحة تلك الليلة يوم الجمعة ثانى شوال عند الضحوة العالية بالآلاى الكبير والنوبة، وجميع عساكر مصر، وغيرهم فى موكب أتم ما سمعت أذن من خبر، وأبهى ما لذّ فى عين ذى نظر، لابسًا خلعة التبجيل والتكريم، ذلك تقدير العزيز العليم، فنزل بداره السعيدة، ونودى باسمه فى البلاد، يسمعه الحاضر والباد. وبالزينة سبعة أيام، وابتهجت القلوب بالفرح التام. وسعت إليه الخاصة والأعيان مهنئين فرحين، وهرعت العامة لتقبيل أعتابه مستبشرين مرحين.

وقد تشرفت بمديحه حبًا ووِدًا، ورويت عن بحر أصبح مَد غيره عنده جزرًا وجزره عند غيره مَدًّا. فقلت [من الطويل]:

سرَتْ نسمةٌ منكم تهبُّ بإقبالِ شذا مِنْ شميم الرندِ والشيحِ والحالِ
تحدّث عن برقاء منجد فالقُصَى من الدوحِ فالعرجينِ فالوشْمِ فالخالِ

مسارحُ آرام ملاعِبُ صِبْيَةٍ مطاردُ فرسانٍ معاطنُ أجمالِ
مواردها عدٌّ وعشبُ رياضِها أثيثٌ سقاه الجودُ من فرغِهِ الدالِي
عفَتْ غيرَ رسْمِ خافتِ الظلِّ قالصٍ ومثلوم نُؤْيٍ تحت أنضاءِ أطلالِ
وَسُفْعٍ أثافٍ كالحماجِمِ جُثَّم وأَشْعَثَ مشجوج القفا نَاخِرٍ بالى
ثلاثٌ تشكَّى أربعًا تنتهبنها وَحَيًا وتكسوهُنَّ مغبر أسمالِ
خلَتْ دمنتاها عن سوَى أرقطِ المِطا وجَيْئَلَ خمعاء وشَيْهَم عَسَّالِ
سقاها من الوسمىّ صائبُ نوئه بمرتجسٍ دانى النَّشَاصَيْنِ مسبالِ
ولا برحَتْ عينى يسحُّ وَلِيُّهَا بدَمْعٍ على تلكَ المناهِلِ مُنْهَالِ
منازلُ بيضاء العوارضِ أرهفَتْ معاطِفها واسْتُبْدِعَتْ حسنَ أجدالِ
تبدَّتْ مع الأترابِ تُرجعُ لحظَهَا تَخَاوُصَ أدماءِ السوالِفِ مطفالِ
وبينَ الوشاحِ الملتوى غُصْن بانةٍ وثنى الإزار المرتوى حقفه العالِي
وتحتَ اللثامِ الجوْن دُرٌّ لثَاتُهُ أُسِفَّتْ بمرموقٍ سقى صرف جريالِ
أسالَتْ على الخدِّ الأسيلِ مدامعًا تعاتبنى سِرًّا بها عتْبَ إدلالِ
وقد قربَتْ يمنَى يديها بضمِّها إلى صَدْرها الخالى فزادَ بها حالى
وعضَّتْ بدرِّ الثغرِ فِضَّة معصم لها كادَ يثنيه السوارُ عَلَى بالى
وما أنْسَ لا أنسى الهوَى ومعاهدًا تذكِّرنيها فِكْرتى عَصْرَهَا الخالى
فمالى ووَصْل الغانياتِ وإنما مصايِدُهَا بَيْنَ الشبيبةِ والمالِ
تنعمْتُ فى ليلِ الشبابِ فراعَنِى طلوعُ صباحِ الشيبِ من غَيْر إمهالِ
وما كانَ إلا وصلُهُ فجفاؤُهُ وما كانَ إقبالٌ له غَيْر إجفالِ
تملَّصَ منى ثم مَرَّ فلو يشا شريفُ الصفا والركْنِ عَوَّدَ فى الحالى
أبا غالِبٍ سلطانَ مكَّةَ أحمد بْـ ـن غَالِبَ راعيها الحفى الدَّائِل الدالى
تسنَّى ذُرَى العلياءِ قدمًا وتاليًا إلى أن تلا مِنْ ملكها السَّنَد العالى
فَسَارَ عَلَى عرضِ الفلاةِ مراوحًا فمن سرجِ منقالٍ إلى كورِ مرقالِ
ووالَتْهُ من أبنا أبيهِ عصائبٌ ذوو نجداتٍ صادقو الفِعْلِ والقالِ
مساعيرُ حَرْبٍ لا يرجَّى طعينُهُمْ مساميعُ للداعِى مساميحُ بالنَّالِ
ميامينُ بَسَّامُونَ فى السِّلْمِ والوغَى جحاجحةٌ قُحٌّ هُمُ خيرةُ الآلِ

حِمَى الضَّيْم إن ياطا مواطئ خَيْلهم ... من الأرضِ فاستوبى لهم قَالَةَ القالِ
فما خِيطَتِ الأجفانُ منهُمْ عَلَى القذا ... ولم يشربوا الترنيقَ من وِرْدِ أوشالِ
ولم يبرحُوا فى ثَبْتِ طَولٍ ومنعةٍ ... بأمرإِ عيشٍ فى محلٍّ وترحالِ
فأولاه ملك الروم مُلْكَ جدودِهِ ... وَقمَّصَهُ للعزِّ أَشْرَف سربالِ
أصابَ به المغزَى كما وضَعَ الهنا ... على النقْبِ منْ جربائة الهانئ الطالِى
فعبر عَنْ أسمائِهِ كُلُّ منبرٍ ... وأفصَحَ عن آلائِهِ كُلُّ ذى قال
ليهنِكَ بلْ يهنى الخلافَةَ أنها ... أَوَتْ منك للبرِّ الرضى الحائط الكالى
فلا نعمةٌ إلا وأنتَ وليُّهَا ... ومَكْرُمَةٌ إلا وأنتَ لها والى
فلله حمْدٌ يملأُ اللوْحَ دائمٌ ... وشكْرٌ له فى بَدْءِ نعماه والتالى
أُحِبُّكُمْ حُبَّيْنِ حبَّ فريضةٍ ... به ألزمَ الله الورَى أمرَهُ العالى
وحُبَّ صفاتٍ أنتَ مفردُ جمعها ... غدوْتُ بها فى حُبِّكَ المفرِطَ الغالى
إليكَ مِنَ الودِّ الصريحِ خَدِيمةٌ ... لها فى مثانِى الطِّرْسِ مِشْيَةُ مختال
جواهرُ أصدافٍ من الفكْرِ نضدَتْ ... فما خانها سلكٌ ولا ريب إغلالِ
مخدَّرة حَرَّمْتُ رفعَ نقابها ... ففكَّرْتُ واستصْوَبْتُ بالمدح إحلالى
هدية مَنْ يدعو لمجدِكَ بالعلا ... وعيشك فى سِتْرٍ من العزِّ ذَيَّالِ

ثم عزل فى يوم دخوله المذكور عن تدبير كرسىّ السياسة حاكمها القائد أحمد بن جوهر، وقلد منصبها عبده القائد سنبل، فقام بها أتم قيام، فى أبهى مظهر وأبهج نظام. وكذلك فى اليوم المذكور: عزل عن منصب الدوادريّة أحمد بن مصطفى المولتاتى فعل متيقظ حازم فتى، وقلد منصبها خادمه أبا القاسم بن محمد طاهر الشهير بالبربتى.

وفى يوم الأحد رابع شوال: ادَّعت عساكر مصر على القائد أحمد بن جوهر سببية قتل البغدادى محمد أغا ونهب بيته، فدخل على مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد ابن شنبر فمنعهم عنه وقال إن يكن لكم عليه وجه فعلى يد مولانا الشريف متع الله بحياته، فحضروا فلم يثبت لهم عليه وجه فخلص.

ثم أنفذت المكاتيب إلى أهل الإدراك، ومشايخ العربان، فأطاع كل عاص ودان، من كل قاص ودان. وبعث الجنود ورتبها فى كل وجهة ومخلاف، فأمنت البلاد

والطرق ولله الحمد مما يحاذر ويخاف.

وفى يوم الأحد حادى عشر الشهر المذكور: تقلد منصب الوزارة المكية الحسنية الغالبية الخواجا إبراهيم بن على حميدان، وأفيض عليه فرو من السمّور، وفقنا الله وإياه للسداد فى جميع الأمور. وانفصل عنها يوسف بن عبد الله الشهير بالسقطى.

وفى يوم الأربعاء رابع عشر الشهر المزبور: أمر - متع الله بحياته - بكسر أوانى المزور والخمور، وتشتيت العواهر من بنات الخطا والفجور، ومن رؤى بعد ثلاث صلب عل باب داره.

فترحل بعضهن عن البلاد، وانكمش بعضهن عن ذلك التظاهر وفارق بيته، فتقاصر عنه ترداد المرتاد. فجزاه الله تعالى خيرًا عن الإسلام والمسلمين، وأيد به ملة جده سيد المرسلين.

وفى ليلة الخميس ثانى عشرى شوال: كان حصول الفرج منه - سبحانه وتعالى - لمولانا السيد محمد البرزنجى، وذلك أنه لما دخل عليه شهر رمضان، وهو محبوس بذلك المحل المتقدم ذكره أخرج من آخره إلى محل أروح وأنور فاستمر به.

ثم إنه عهد إلى بعض أحبائه أن يُعِد له فى ذى الحليفة المحل المسمى عند العامة أبيار على ناقتين بالأهبة، وأن يحضر له تحت القلعة حصانًا بعدته وسلاحه، فلما كان الليلة المذكورة تدلى من السور إلى خارج، وركب الحصان وتقلد السيف، وتنكب القوس، واعتقل الرمح، وسار إلى ذى الحليفة، ثم منها عَلَى الركائب سالكا طريق الفرع، واتجه بولده فى الطريق بقرية خليص، وكان قد خرج من المدينة قبله بثلاثة أيام بأمره خشية أن يمسك عوضه إذا فقدوه، فوصلا إلى مكة تاسع عشرى الشهر المذكور.

وفيها يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة الحرام: أمر بقطع عبد أسود سارق، فقطع يداه ورجلاه. ثم فى اليوم الذى يليه قطع سارق آخر حبشى الجنس يده ورجله من خلاف. ثم فى يوم السبت ثامن الشهر المزبور: كان وصول القفطان والمراسيم السلطانية صحبة سليمان أغا سلخور، فدخل بالآلاى العظيم، والمنظر البهى الوسيم، ووصل إلى مولانا الشريف - متع الله بحياته - بالحطيم.

وقد فتح البيت السعيد، وغص المجلس بالسادة الأشراف، نخبة آل عبد مناف،

وأفندى الشرع، وشيخ الحرم، والسادة العلماء، والأعيان والأغوات، والسرادير وكبار العساكر.

فألبس مولانا الشريف - متع الله بحياته - القفطان السلطانى على فرو من السمور، ونشر المرسوم الخاقانى، وقرئت منه تلك السطور:

فيه بعد تعداد نعوت مولانا الحميدة، والثناء عَلَى جميل مزاياه المجيدة، التصريح بأنَا قد أنعمنا بولاية الحرمين الشريفين عليكم، وأسندنا حماية المحلين المنيفين إليكم، والحث عَلَى القيام بواجب السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والوصية بالعلماء والصلحاء والمجاورين، وحماية الحجاج والزوار والمسافرين، والالتفات إلى تأمين الطرق والبلدان، وقمع أشقياء العربان أهل العتو والطغيان، مؤرخًا من السنة المذكورة بأوائل شهر رمضان المعظم قدره.

ثم ألبس مولانا - متع الله بحياته - حضرة أفندى الشرع، والقابجى السلطانى، وكيخية الباشا أفرية من السمور، ثلاثة من غير تأخير ولا ملاثة.

وألبس مولانا الشيخ عبد الواحد الشيبى، وابنه الشيخ الأجل عبد المعطى، وجميع السرادير والشرابجة والجواويش، وأرباب المناصب القفاطين عَلَى القانون والعادة.

ثم دُعى لمولانا السلطان الأعظم سليمان خان بن إبراهيم خان، ولمولانا الشريف - متع الله بحياته - على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة، وكان يومًا فى نهاية الحسنى وزيادة.

وفى يوم الجمعة رابع عشر الشهر المذكور: أمر مولانا الشريف - متع الله بحياته - بحضور الخاصة والعامة عند الحطيم للدعاء لنصرة مولانا السلطان الأعظم كل يوم إثنين وخميس بعد صلاة الحنفى، عامله الله تعالى - بلطفه الخفى، وكان به نعم الحفى. آمين[1].

---

(١) ثبت في النسخة الأولى : قد تم تكميل هذه النسخة من نسخة الأصل الموجوده بالكتبخانه الخديويه بيد كاتبه الفقير إلى الله محمود صدقي النساخ بها وقد كان الفراغ منه في يوم الجمعة . . . . ذو القعدة سنة ١٣٢٢ اثنين وعشرين وثلثمائة وألف هجرية الموافق ٣ ثلاثة فبراير ١٩٠٥ أفرنكيه. وثبت في النسخة الثانية : انتهى الجزء الخامس من كتاب سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالى بحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد =

. . . .

= وعلى آله وصحبه وسلم، كتبه حسن رشيد على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية المحفوظة بها الموضوعة تحت رقم (٥٣) تاريخ وكان الفراغ منه في يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هجريه موافق ٣١ يوليو سنة ١٩٣٥ ميلادية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

❋ ❋ ❋



فهرس مراجع التحقيق ومصادره

الآيات البينات . ابن قاسم العبادي . ط بولاق.

الأباطيل . الجوزقاني . ط الهند .

إتحاف السادة المتقين . الزبيدي . ط دار الفكر .

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . المقريزي . ط مصر.

الأحاديث المختارة. محمد بن عبد الواحد ضياء الدين المقدسي . ط النهضة الحديثة.

الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان . محمد بن حبان . ط الرسالة.

أخبار أصبهان . أبو نعيم الأصفهاني. ط الهند .

أخلاق النبي . أبو الشيخ الأصفهاني. ط مصر.

الأدب المفرد. محمد بن إسماعيل البخاري. ط السلفية.

الأذكياء . ابن الجوزي . ط مكتبة المتنبي.

الإرواء . محمد ناصر الدين الألباني . ط المكتب الإسلامي.

أسباب النزول .الواحدي. ط دار الكتب العلمية.

الاستيعاب في أسماء الأصحاب . يوسف بن عبد الله بن عبد البر. ط دار الكتب العلمية.

أسد الغابة . ابن الأثير . ط دار الكتب العلمية.

الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني. ط مصر.

الاعتقاد . البيهقي . ط دار الكتب العلمية.

الأعلام . خير الدين الزركلي . ط دار العلم للملايين .

أعلام النساء . عمر رضا كحالة. ط دمشق.

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. السخاوي. ط دمشق.

الأغاني . أبو الفرج الأصبهاني. ط الساسي بمصر.

الإكمال . علي بن هبة الله ماكولا . ط دار الكتب المصرية.

اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي. ط دار المعارف.

الأمثال. حسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي. ط الدار السلفية بالهند.
إنباء الغمر. ابن حجر. ط دار الباز.
أنساب الأشراف. البلاذري. ط دار الفكر.
إيضاح المكنون. إسماعيل باشا البغدادي. ط إستانبول.
البحر المحيط. الزركشي. ط دار الصفوة.
البدء والتاريخ. أحمد بن سهل البلخي . ط شالون.
بدائع الزهور. ابن إياس . ط دار الكتب.
البداية والنهاية. ابن كثير. ط مصر.
البدر الطالع. الشوكاني. ط مصر.
البيان المغرب . ابن عذاري المراكشي. ط ليدن.
تاريخ الإسلام. للذهبي . ط مؤسسة الرسالة.
تاريخ الأمم والملوك. ابن جرير الطبري. ط الاستقامة بمصر.
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. ابن الأثير. ط دار الكتب الحديثة.
تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي. ط مصر.
تاريخ الخلفاء . السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
تاريخ الخميس. حسين محمد الديار بكري. ط مصر.
التاريخ الصغير. البخاري. ط الهند.
تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك. الطبري . ط دار سويدان بيروت.
تاريخ ابن عساكر. ط المجمع بدمشق.
تاريخ ابن الفرات . محمد عبد الرحيم بن الفرات. ط بيروت.
التاريخ الكبير. البخاري. ط دار الكتب العلمية.
تاريخ الموصل. سليمان صائغ الموصلي. ط مصر.
تاريخ ابن الوردي. عمر المظفر بن الوردي. ط مصر.
التبر المسبوك في ذيل السلوك . السخاوي . ط مصر.

تتمة المختصر = تاريخ ابن الوردي.
تجارب الأمم . ابن مسكويه. ط مصر.
تجريد أسماء الصحابة. الذهبي . ط دار المعرفة.
تخريج الكشاف . الزيلعي. ط دار ابن خزيمة.
تدريب الراوي. جلال الدين السيوطي. ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . محمد عبد الله عنان. ط مصر.
ترتيب القاموس. الطاهر أحمد الزاوي. ط عيسى البابى الحلبي.
تعجيل المنفعة. ابن حجر. ط دار البشائر الإسلامية.
التعقبات على الموضوعات . السيوطي. ط دار الجنان.
تفسير القرآن . عبد الرزاق. ط مكتبة الرشد.
تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ط دار الشعب.
تفسير النسائي. النسائي. ط مكتبة السنة.
تفسير الوسيط. الواحدي. ط دار الكتب العلمية.
تقريب التهذيب. ابن حجر. ط دار العاصمة.
التكملة لوفيات النقلة. المنذري. ط مؤسسة الرسالة.
تلخيص الحبير. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط دار المعرفة.
تلقيح فهوم أهل الأثر. ابن الجوزي. ط دهلي.
التمهيد. أبو عمر يوسف بن عبد البر. ط قرطبة.
تنزيه الشريعة. ابن عراق. ط دار الكتب العلمية.
تهذيب الأسماء واللغات. أبو زكريا النووي. ط مصر.
تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني. ط حيدر آباد.
تهذيب الكمال. جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي. ط مؤسسة الرسالة.
توضيح المشتبه. ابن ناصر الدين. ط مؤسسة الرسالة.
تيسير التحرير. أمير بادشاه. ط مصطفى البابى الحلبي.

الثقات. ابن حبان. ط مؤسسة الكتب الثقافية.
جامع البيان في تأويل القرآن . الطبري. ط المعارف بمصر.
جامع التحصيل. العلائي. ط عالم الكتب.
الجرح والتعديل. عبد الرحمن بن محمد الرازي. ط حيدر آباد.
الجعديات. البغوي. ط مكتبة الخانجي.
الجمع بين رجال الصحيحين . ابن القيسراني. ط الهند.
جمهرة أنساب العرب. ابن حزم.
جمهرة النسب . الكلبي. ط عالم الكتب.
جوامع السيرة . ابن حزم. ط مصر.
حاشية البناني. البناني. ط الحلبي.
حاشية العطار على جمع الجوامع. ط دار الكتب العلمية.
الحاوي للفتاوي . السيوطي ط دار الفكر.
حسن المحاضرة. جلال الدين السيوطي. ط مصر.
حلية الأولياء. أبو نعيم . ط دار الكتب العلمية.
الحوادث الجامعة . ابن القوطي. ط بغداد.
حوادث الدهور . ابن تغري بردي. ط بركلي بكالفورنيا.
حياة الحيوان .الدميري. ط بولاق.
خريدة القصر وجريدة العصر. العماد الأصفهاني. ط دمشق.
خزانة الأدب. عبد القادر بن عمر البغدادي. ط مصر.
الخصائص الكبرى. السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
الخطط التوفيقية. علي مبارك. ط مصر.
الخطط المقريزية. المقريزي. ط مكتبة الثقافة الدينية.
خلاصة تهذيب الكمال. أحمد بن عبدالله الخزرجي. ط مصر.
دائرة المعارف الإسلامية. نخبة من العلماء. ط مصر.

الدارس. عبد القادر النعيمي الدمشقي. ط المجمع العلمي بدمشق.

الدر المنثور. جلال الدين السيوطي. ط دار الكتب العلمية.

الدرر الكامنة. ابن حجر العسقلاني. ط حيدر آباد.

درة الحجال. أحمد بن محمد بن القاضي. ط الرباط.

دلائل النبوة. البيهقي. ط دار الكتب العلمية.

دلائل النبوة. أبو نعيم. ط عالم الكتب.

دول الإسلام. الذهبي. ط حيدر آباد.

ديوان الإسلام. شمس الدين الغزي. ط دار الكتب العلمية.

ديوان حسان. ط دار الكتب العلمية.

ذيل تذكرة الحفاظ. أبو المحاسن الحسيني الدمشقي. ط دمشق.

ذيل الروضتين. أبو شامة المقدسي. ط مصر.

ذيل مرآة الزمان. موسى بن محمد اليونيني. ط حيدر آباد.

رجال صحيح البخاري. الكلاباذي. ط دار المعرفة.

رجال صحيح مسلم. ابن منجويه. ط دار المعرفة.

الروض الأنف. عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. ط مصر.

زاد المعاد. ابن القيم. ط مؤسسة الرسالة.

الزهد. ابن المبارك. ط الهند.

زوائد البوصيري. ط دار الكتب الإسلامية.

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحي. ط دار الكتب العلمية.

السلسلة الصحيحة. محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.

السلسلة الضعيفة. محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.

السلوك لمعرفة دول الملوك. المقريزي. ط مصر.

سنن الترمذي. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. ط مصطفى البابي الحلبي.

سنن الدارقطني. ط عالم الكتب بيروت.

سنن الدارمي. ط دار الفكر بيروت.
سنن أبي داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. ط دار الكتب العلمية.
سنن سعيد بن منصور . ط الدار السلفية.
السنن الصغرى. النسائي. ط دار البشائر الإسلامية.
السنن الكبرى . البيهقي. ط مكتبة المعارف - الرياض .
السنن الكبرى. النسائي. ط دار الكتب العلمية.
سنن ابن ماجة. محمد بن يزيد القزويني. ط دار إحياء الكتب العربية.
السنة. ابن أبي عاصم. ط المكتب الإسلامي.
السيرة الحلبية = إنسان العيون. علي بن برهان الدين الحلبي. ط مصر.
السيرة النبوية . ابن هشام. ط مصر.
شذرات الذهب . أبو الفلاح بن العماد الحنبلي. ط دار الكتب العلمية.
شرح السنة. البغوي. ط دار الكتب العلمية.
الشفاء. القاضي عياض. ط عيسى البابى الحلبي.
شفاء الغرام. محمد بن أحمد التقي الفاسي. ط مصر.
الشمائل . الترمذي . ط مكتبة السنة.
صبح الأعشى. القلقشندي. ط مصر.
الصحاح = تاج اللغة. الجوهري. ط مصر.
صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. ط المكتبة التجارية.
صحيح ابن حبان . محمد بن حبان. ط دار الرسالة.
صحيح ابن خزيمة . محمد بن إسحاق بن خزيمة. ط المكتب الإسلامي.
صحيح مسلم . أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. ط إحياء التراث.
صفة الصفوة. أبو الفرج بن الجوزي. ط حيدر آباد.
الضعفاء الكبير. العقيلي. ط دار الكتب العلمية.
الضوء اللامع. السخاوي. ط مصر.

طبقات السبكي . تاج الدين السبكي. ط مصر.
العبر = تاريخ ابن خلدون. ابن خلدون. ط مصر.
العظمة . أبو الشيخ. ط دار العاصمة.
العقد الفريد. ابن عبد ربه. ط مصر.
العلل المتناهية . ابن الجوزي. ط دار الكتب العلمية.
عمدة التفسير. الشيخ أحمد شاكر.
عمل اليوم والليلة. ابن السني. ط مكتبة الكليات الأزهرية.
عمل اليوم والليلة . النسائي. مؤسسة الرسالة.
عنوان المعارف. إسماعيل بن عباد . ط النجف.
عيون الأثر. ابن سيد الناس اليعمري. ط مصر.
غاية الوصول. الشيخ زكريا الأنصاري . ط عيسى البابى الحلبي.
فتوح البلدان. للبلاذري. ط مصر.
فردوس الأخبار. شيرويه . ط دار الريان للتراث.
فضائل الصحابة. أحمد بن حنبل.
فضائل الصحابة. النسائي. ط دار الثقافة.
فهرست الطوسي. أبو جعفر الطوسي. ط النجف.
الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. الشوكاني. ط السنة المحمدية.
فوات الوفيات .ابن شاكر الكتبي. ط مكتبة مصر.
فيض القدير. المناوي. ط دار الفكر.
القاموس المحيط. الفيروز آبادي. ط دار الفكر.
الكاشف. الذهبي. ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
الكامل . المبرد. ط مصر.
الكامل في التاريخ . ابن الأثير. ط مصر.
الكامل في الضعفاء. ابن عدي. ط دار الفكر .

كشف الأستار . الهيثمي. ط مؤسسة الرسالة.

كشف الخفا. العجلوني. ط دار التراث.

كشف الظنون. حاجي خليفة. ط إستانبول.

كنز العمال. علاء الدين المتقي الهندي. ط مؤسسة الرسالة.

الكنى والأسماء . الدولابي. ط حيدر آباد.

الكواكب السائرة. نجم الدين الغزي. ط الأميريكية.

اللسان. ابن حجر العسقلاني. ط دار الكتب العلمية.

المؤتلف والمختلف. الآمدي. ط مصر.

مجالس ثعلب. أحمد بن يحيى المعروف بثعلب. ط مصر.

المجروحين. محمد بن حبان. ط دار الوعي بحلب.

مجمع البحرين. نور الدين الهيثمي . ط الرشد - الرياض.

مجمع الزوائد . نور الدين الهيثمي. ط مؤسسة دار المعارف.

المحاسن والمساوئ . البيهقي . ط دار المعارف.

المحبر . محمد بن حبيب. ط حيدر آباد.

مختصر تاريخ العرب. سيد أمير علي. ط مصر.

المختصر في أخبار البشر إسماعيل أبو الفداء. ط مصر.

مختصر المستدرك. الذهبي. مطبوع على هامش المستدرك.

مرآة الجنان. اليافعي. ط حيدر آباد.

مرآة الزمان . سبط بن الجوزي. ط حيدر آباد.

مراصد الاطلاع. عبد المؤمن بن عبد الحق. ط الحلبي.

مروج الذهب. المسعودي. ط باريس.

المستدرك على الصحيحين . الحاكم. ط دار الكتاب العربي.

مسند الإمام أحمد بن حنبل . أبو عبد الله أحمد بن حنبل. ط المكتب الإسلامي بيروت.

مسند الحميدي . عبد الله بن الزبير الحميدي . ط المكتبة السلفية بالهند.

مسند الشافعي. محمد بن إدريس الشافعي. ط دار الكتب العلمية.

مسند الشهاب . محمد بن سلام القضاعي. ط مؤسسة الرسالة.

مسند الطيالسي. ترتيب منحة المعبود. ط مكتبة الفرقان.

مسند أبى يعلى . أحمد بن علي بن المثنى. ط دار المأمون للتراث.

مشكل الآثار. الطحاوي. ط حيدر آباد.

مصنف ابن أبى شيبة. عبد الله بن محمد بن أبى شيبة. ط مؤسسة الكتب الثقافية.

مصنف عبد الرزاق . عبد الرزاق بن همام الصنعاني. ط المكتب الإسلامي.

المطالب العالية. أحمد بن علي بن حجر. ط دار المعرفة.

المعارف. ابن قتيبة الدينوري. ط مصر.

معجم الأدباء. ياقوت الحموي. ط مرجليوث.

المعجم الأوسط. الطبراني. ط دار المعارف الرياض.

معجم البلدان . ياقوت الحموي. ط دار الكتب العلمية.

المعجم الصغير. الطبراني. ط مؤسسة الكتب الثقافية.

المعجم الكبير. الطبراني. ط مكتبة ابن تيمية .

معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة. ط دار إحياء التراث العربي.

المعجم الوسيط. نخبة من العلماء. ط مجمع اللغة العربية.

المعرفة والتاريخ . البسوي. ط مكتبة الدار - المدينة المنورة.

المغازي . الواقدي. ط مصر.

المغني في الضعفاء. الذهبي.

مفرج الكروب . ابن واصل. ط مصر.

مقاتل الطالبيين . أبو الفرج الأصفهاني. ط مصر.

المقاصد الحسنة. السخاوي. ط دار الكتب العلمية.

المنتخب من المسند. عبد بن حميد. ط مكتبة السنة.

المنتظم . ابن الجوزي. دار الكتب العلمية.

المنتقى. ابن الجارود. ط دار الكتب الثقافية.

منهاج السنة . ابن تيمية. ط بولاق.

المنهل الصافي. ابن تغري بردي. ط مصر

موارد الظمآن . ابن حبان. ط دار الثقافة العربية.

مورد اللطافة. ابن تغري بردي. ط كمبردج.

موضح أوهام الجمع والتفريق . الخطيب. ط دار المعرفة.

الموضوعات . ابن الجوزي. ط أضواء السلف.

موطأ مالك . الإمام مالك. ط عيسى البابى الحلبي.

ميزان الاعتدال . الذهبي. ط دار الكتب العلمية.

النجوم الزاهرة. ابن تغردي بردي. ط دار الكتب المصرية.

نسب قريش. المصعب بن عبد الله الزبيري. ط مصر.

نصب الراية. الزيلعي. ط دار المأمون.

نظم العقيان. جلال الدين السيوطي. ط نيويورك.

نهاية السول. عبد الرحيم الأسنوي. ط عالم الكتب - بيروت.

النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير . ط الحلبي .

النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد. المفضل بن أبى الفضائل.

النور السافر. عبد القادر بن شيخ العيدروس. ط بغداد.

هدية العارفين. إسماعيل باشا البغدادي. ط دار الفكر.

الوافي بالوفيات. الصفدي. ط إستانبول.

الوزراء والكتاب . الجهشياري. ط مصر.

وفيات الأعيان . ابن خلكان. ط مصر.

الولاة والقضاة. محمد بن يوسف الكندي. ط بيروت.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الرابع

* * *